AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 01224 3089

فى ظلال القرآن

الجزء الأول

بقلم

سيد قطب

الطبعة الثانية

BP
130.4
Q77
1953
v.1-6

طبع بدار إحياء الكتب العربية
عيسى البابى الحلبى وشركاه

بسم الله الرحمن الرحيم

فى ظلال القرآن

عنوان لم أتكلفه ، فهو حقيقة عشتها فى الحياة . . فبين الحين والحين كنت أجد فى نفسى رغبة خفية فى أن أعيش فى ظل القرآن فترة ، أستروح فيها مالا أستروحه فى ظل سواه . فترة تصلنى بالسماء ، وتفتح لى فيها نوافذ مضيئة وكوًى مشعة ؛ وهى فى الوقت ذاته تثبِّت قدمىّ فى الأرض ، وتشعرنى أننى أقف على أرض صلبة ، لا تدنسها الأوحال ، ولا تزل فيها الأقدام .

وكانت تعن لى فى هـذه الجولات خواطر متناثرة : خواطر فى العقيدة ، وخواطر فى النفس ، وخواطر فى الحياة ، وخواطر فى الناس . . كنت أكتفى بأن أعيشها ولا أسجلها ، فقد كان حسبى أن أعيش هذه اللحظات فى تلك الظلال .

فلما أن صدَرت « المسلمون » وكان عَلَىَّ أن أشترك فى تحريرها بمقال شهرى ؛ ووَدّ صاحبها الصديق أن لو كان هذا المقال فى موضوع مسلسل ، أو تحت عنوان دائم . . قفز إلى ذهنى هذا العنوان : « فى ظلال القرآن » ووددت لو سجلت هذه الخواطر التى تتوارد علىّ أحياناً وأنا أحيا فى ظل القرآن .

ذلك كان مبدأ القصة . .

ثم طمحت الرغبة ، وامتد الأفق إلى محاولة أخرى . . ماذا لو عشت فترات فى ظل هذا القرآن كله ، فسجلت كل ما يخالج نفسى ، وأنا أستروح هذا الجو العلوى الطليق ؟

إنه ليكون كسباً لا يعدله كسب لروحى أولاً ولذاتى . وربما شاركنى فيه الناس ، إذا أنا جمعته لهم فى كتاب . .

ووفق الله وسرت فى هذا الشوط خطوات ...

تلك هى قصة هذا الجزء الذى يصدر اليوم فى هذه الصورة ، وقصة الأجزاء التى تليه بإذن الله .

***

و بعد فقد يرى فريق من قراء هذه « الظلال » أنها لون من تفسير القرآن . وقد يرى فريق آخر أنها عرض للمبادىء العامة للإسلام كما جاء بها القرآن . وقد يرى فريق ثالث أنها محاولة لشرح ذلك الدستور الإلهى فى الحياة والمجتمع ، و بيان الحكمة فى ذلك الدستور . . أما أنا فلم أتعمد شيئاً من هذا كله ، وما جاوزت أن أسجل خواطرى ، وأنا أحيا فى تلك الظلال .

كل ما حاولته ألا أغرق نفسى فى بحوث لغوية أو كلامية أو فقهية ، تحجب القرآن عن روحى وتحجب روحى عن القرآن . وما استطردت إلى غير ما يوحيه النص القرآنى ذاته ، من خاطرة روحية أو اجتماعية أو إنسانية . وما أحفل القرآن بهذه الإيحاءات .

كذلك حاولت أن أعبر عما خالج نفسى من إحساس بالجمال الفنى العجيب فى هذا الكتاب المعجز ، ومن شعور بالتناسق فى التعبير والتصوير .

ولقد كانت هذه إحدى أمانىّ منذ أن فرغت من كتاب « التصوير الفنى فى القرآن » قبل ثمانية أعوام ، وسجلت فيه ما بدا لى واضحاً يومذاك : أن التصوير هو القاعدة الواضحة فى التعبير القرآنى الجميل .. وكنت قد أدرت الكتاب كله على هذا المحور لشرح هذه القاعدة ، والتمثيل لها من القرآن .

كانت إحدى أمانىّ أن يوفقنى الله إلى عرض القرآن فى هذا الضوء .. ثم كمنت هذه الرغبة أو توارت ، حتى ظهرت مرة أخرى فى هذه الظلال .

***

ولقد سرت فى هذا العمل الجديد على أساس عرض كل مجموعة من الآيات التى يربط بينها سبب خاص ، ويظللها ظل خاص ، فى صورة درس قرآنى . وقد تكون هذه الآيات « ربعاً » من القرآن أو أقل أو أكثر . لم أتقيد بهذا على وجه الدقة . إنما تقيدت فقط بأن يكون كل « جزء » من أجزاء القرآن الثلاثين فى جزء من هذه السلسلة ، التى ستصدر تباعاً كل شهرين بعون الله . من باب التنظيم الطباعى لهذه الحلقات .

أرجو أن يوفق الله إلى إكمال هذا العمل . وإلا فقد كسبت ما عشت من لحظات ، فى ظلال القرآن (١)

جمادى الآخرة سنة ١٣٧٢
فبراير سنة ١٩٥٣

سيد قطب

---

(١) مقدمة الطبعة الأولى . ولم أجد ما يدعو إلى زيادة شىء عليها.

سورة الفاتحة
مكية وآياتها سبع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

« الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ » .

يردد المسلم هذه السورة القصيرة ذات الآيات السبع ، سبع عشرة مرة فى كل يوم وليلة على الحد الأدنى ؛ وأكثر من ضعف ذلك إذا هو صلى السنن ؛ وإلى غير حد إذا هو رغب فى أن يقف بين يدى ربه متطوعاً لغير الفرائض والسنن .

إن فى هذه السورة من كليات العقيدة الإسلامية ، وكليات المشاعر والأحاسيس والتوجهات ، ما يشير إلى شىء من حكمة اختيارها للتكرار فى كل ركعة عند كل صلاة .

تبدأ السورة ـ بعد البسملة ـ بالتوجه إلى الله بالحمد ، حيث تتضمن الآية الإقرار بالربوبية المطلقة : « رب العالمين » . . وهى إحدى كليات العقيدة الإسلامية . والرب هو المربى والراعى والسيد . فالله لم يخلق الكون ثم يتركه هملا . إنما هو يربى ويرعى ويسود . والعوالم كلها فى رعايته وتحت سيادته . وعن طريق التربية الحكيمة التى يتعهد العالمين بها ، تنمو هذه العوالم وترقى ، كل فى اتجاهه ، وكل بحسب الناموس الأزلى الذى يحكمه ، وكل بحسب ما ركز فى طبيعته وخلقته :

والربوبية المطلقة هى مفرق الطريق بين النظام والفوضى فى عالم العقيدة . بين الاهتداء إلى الناموس الشامل لعلاقة الخلق بالخالق ؛ والحيرة والتشتت وتعدد الأرباب . . وكثيراً ما كان الناس يجمعون بين الاعتراف بالله خالق الكون ، والاعتقاد بتعدد الأرباب الذين يتحكمون فى الحياة ! ولقد يبدو هذا غريباً مضحكاً ، ولكنه كان وما يزال . ولقد حكى لنا القرآن الكريم عن جماعة من المشركين كانوا يقولون عن آلهتهم المتعددة : « ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » فيعترفون بوحدانية الله وتعدد الأرباب . والكنيسة المسيحية إلى هذه اللحظة تعتقد بألوهية الله ، ولكنها تسمى عيسى رباً ، وتخلع عليه صفات الأرباب .

فإطلاق الربوبية لله فى هذه السورة ، وشمول هذه الربوبية للعالمين جميعاً . . هى مفرق الطريق بين النظام والفوضى فى العقيدة ، لتتجه العوالم كلها إلى رب واحد ؛ تقر له بالسيادة المطلقة ؛ وتنفض عن كاهلها زحمة الأرباب المتفرقة ، وعنت الحيرة كذلك بين شتى الأرباب !

« الرحمن الرحيم » . . وهذه كلية ثانية من كليات العقيدة الإسلامية . . الشعور بما فى تلك الربوبية من رحمة بالغة ، رحمة ثابتة متجددة ، عميقة الأصل ظاهرة الأثر . فالعلاقة إذن بين الرب والعباد هى علاقة رحمة ورعاية . والشعور بالرحمة السابغة فى تلك الربوبية المطلقة هو الصلة الداخلية بين العبد والرب . صلة القلب والشعور التى تقوم على الحب ، وتنبض بالحمد . فهى آصرة الاعتراف الخالص ، لا يشوبها خوف أو قهر ، ولا يعكر صفاءها رغب أو رهب . إنما هى الاستجابة الطبيعية للرحمة الندية .

إن الرب الإله فى الإسلام لا يطارد عباده مطاردة الخصوم والأعداء ، كآلهة الأولمب فى نزواتها وثوراتها ! ولا يدبر لهم المكائد الانتقامية كما تزعم الأساطير المزورة فى « العهد القديم » من الكتاب المقدس ، لأنه خاف أن تصبح لهم القدرة على عمل كل ما يريدون ، كما جاء فى أسطورة برج بابل ، فى الإصحاح الحادى عشر من سفر التكوين .

والكلية الثالثة من كليات العقيدة الإسلامية تتضمنها الآية : « مالك يوم الدين » .. والملك أقصى درجات الاستيلاء والسيطرة . ويوم الدين هو يوم الجزاء فى الآخرة . ومالك يوم الجزاء هو مالك أيام العمل قبله . فالجزاء نتيجة والعمل سبب . فهو مالك الدنيا إذن ومالك الآخرة جميعاً .

وكثيراً ما اعتقد الناس بألوهية الله ، وخلقه للكون أول مرة ؛ ولكنهم مع هذا لم يعتقدوا بيوم الجزاء ولا بملكيته المطلقة لله تعالى . والقرآن الكريم يحكى عن بعض هؤلاء يقول : « وضرب لنا مثلا ونسى خلقه . قال : من يحيى العظام وهى رميم ؟ قل : يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم » .

والاعتقاد بيوم الدين كلية من كليات العقيدة الإسلامية ذات قيمة فى تعليق أنظار البشر وقلوبهم بعالم آخر غير عالم الأرض ، فلا تستبد بهم ضرورات الأرض ؛ وعندئذ يملكون الاستعلاء على هذه الضرورات . ومن ثم فهى مفرق الطريق بين العبودية للغرائز والنزوات ، والطلاقة الإنسانية اللائقة ببنى الإنسان . مفرق الطريق بين الإنسانية فى حقيقتها العليا التى أرادها الله الرب لعباده ، وبين الصور المشوهة المنحرفة التى لم يقدر لها الكمال .

واختصاص الله بالتوجه إليه ، والاستعانة به : « إياك نعبد وإياك نستعين » . . هى الكلية الرابعة التى تنشئها الكليات الثلاثة الأولى ، فلا عبادة إلا لله ، ولا اتجاه لغير الله . وما من قوة فى الكون إلا قوته ، تملك لأحد شيئاً ، أو تستحق منه التفاتاً . فالله وحده يعبد ، والله وحده يستعان . وهنا مفرق الطريق فى التحرر الإنسانى المطلق ، من القوى المخلوقة جميعاً . قوى الإنسان أو قوى الطبيعة . أى التحرر من عبودية النظم ، ومن عبودية الأوهام . وإذا كان الله وحده هو المعبود ، والله وحده هو المستعان . فقد تخلص الضمير البشرى من استذلال النظم والأوضاع والأشخاص ؛ وتخلص كذلك من استذلال الأساطير والأوهام والخرافات .

وهنا يعرض موقف المسلم من القوى الإنسانية ، ومن القوى الطبيعية .

فأما القوى الإنسانية — بالقياس إلى المسلم — فهى نوعان : قوة مهتدية ، تؤمن بالله ، وتتبع سنة الله ؛ وهذه يجب أن يؤازرها ويتعاون وإياها على الخير والصلاح . . وقوة ضالة ، لا تتصل بالله ، ولا تتبع سنته ؛ وهذه يجب عليه أن يحاربها ويكافحها ويغير عليها .

ولا يهولنّ المسلم أن تكون هذه القوة الضالة ضخمة أو عاتية . فهى بضلالها عن مصدرها الأول — قوة الله — تفقد قوتها الحقيقية . تفقد الغذاء الدائم الذى يحفظ لها طاقتها . وذلك كما ينفصل جرم ضخم من نجم ملتهب ؛ فما يلبث أن ينطفىء ويبرد ، ويفقد ناره ونوره ، مهما كانت كتلته من الضخامة . على حين تبقى لأية ذرة متصلة بمصدرها المشع ، قوتها وحرارتها ونورها : و « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله » غلبتها باتصالها بمصدر القوة الأول ، وباستمدادها من النبع الأول للقوة وللعزة جميعاً .

وأما القوى الطبيعية ، فموقف المسلم منها هو موقف الصداقة والتعرف ، لا موقف العداء والتخوف . ذلك أن قوة الإنسان وقوة الطبيعة كلتاهما صادرتان عن قوة الله وعن إرادة الله . إن العقيدة الإسلامية توحى إلى المسلم أن الله ربه قد خلق هذه القوى كلها لتكون له صديقاً مساعداً متعاوناً ؛ وأن سبيله إلى كسب هذه الصداقة أن يتأمل فيها ، ويتعرف إليها ، ويتعاون وإياها . وإذا كانت هذه القوى تؤذيه أحياناً ، فإنما تؤذيه لأنه لم يتدبرها ، ولم يتعرف إليها ، ولم يهتد إلى الناموس الذى يسيرها .

ولقد درج الغربيون على التعبير بـ « قهر الطبيعة » . ولهذا التعبير دلالته الظاهرة على الروح السائدة فى الضمير الغربى . إنه لا يتصور علاقة بين الإنسان والإنسان ، ولا بين الإنسان والطبيعة ، إلا علاقة القاهر والمقهور ، المذل والذليل ، السيد والعبد . فهو إما أن يقهر الطبيعة أو تقهره الطبيعة ، كذلك إما أن يقهر أخاه الإنسان أو يقهره أخوه الإنسان !

فأما المسلم فيؤمن بأن هنالك علاقة أخرى غير علاقة القهر والعداء . علاقة التعارف والصداقة . وموقفه من الطبيعة هو موقفه من الإنسان ، وموقفه من الحيوان أيضاً . إنه يعتقد أن الله هو مصدر هذه القوى جميعاً . خلقها كلها وفق ناموس واحد ، لتتعاون على بلوغ الأهداف المقدرة لها بحسب هذا الناموس . وعلى الإنسان أن يشكر الله كلما هيأ له أن يظفر بمعونة من إحداها ، فالله هو الذى يسخر له هذه القوى ، وليس هو الذى يقهرها : « سخر لكم ما فى الأرض جميعاً » .. « سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين » .

وإذن فإن الأوهام لن تملأ حسه تجاه قوى الطبيعة ، ولن تقوم بينه وبينها المخاوف والأحقاد .. إنه يؤمن بالله وحده ، ويستعين بالله وحده . وهذه القوى من خلق ربه ، وهو يتأملها ويألفها ويتعرف أسرارها ، فتبذل له معونتها وتكشف له عن كنوزها . . وما أروع قول الرسول الكريم ، وهو ينظر إلى جبل أحد : « هذا جبل يحبنا ونحبه » ففى هذه الكلمات كل ما يحمله قلب المسلم الأول محمد — صلى الله عليه وسلم — من ود وألفة وتجاوب ، بينه وبين الطبيعة الصامتة فى أضخم مجاليها .

***

وبعد تقرير تلك الكليات الأساسية فى العقيدة ؛ وتقرير الاتجاه إلى الله وحده للاستعانة . . يبدأ فى التطبيق العملى لها بالتوجه إلى الله بالدعاء ، على صورة كلية تناسب جو السورة وطبيعتها :

« اهدنا الصراط المستقيم . صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين » .

اهدنا الصراط المستقيم .. وفقنا إلى معرفة الطريق . طريق الذين أكملت عليهم نعمتك فاهتدوا ، الذين لم تغضب عليهم فيضلوا .. ومن عرف الطريق إلى نواميس الله التى تحكم هذا الكون ، وتصرف هذه الحياة ؛ عاش معها فى سلام ووئام . ووصل إلى رضى الله بصالح العمل . وذلك هو النعيم الخالص والرضوان .

وهكذا تتساوق المعانى فى هذه السورة القصيرة وتتناسق الأغراض ؛ ويبدو التماسك فى نسجها والاتساق ؛ وتتجلى تلك الخصائص التى تكشف عن بعض أسرار اختيارها ، ليرددها المسلم سبع عشرة مرة فى كل يوم وليلة ؛ أو ما شاء الله أن يرددها كلما قام للصلاة .

سُورَةُ البَقَرَة

مدنية إلا آية ٢٨١ فنزلت بمنى في حجة الوداع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« الم * ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ ، هُدًى لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ، وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ، وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ .

« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ، وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ .

« وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ : آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ * يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا ، وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ : لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ ، قَالُوا : إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِنْ لَا يَشْعُرُونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ : آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ ، قَالُوا : أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ؟ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ ، وَلَٰكِنْ لَا يَعْلَمُونَ * وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا : آمَنَّا ؛ وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا : إِنَّا مَعَكُمْ ، إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ * اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ ، فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ ، وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ .

« مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا ، فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ ، وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ * صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ * أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ ٱلسَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ ، يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِى آذَانِهِمْ مِنَ ٱلصَّوَاعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ، وَٱللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ * يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ ، كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ ، وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا ، وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ، إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ .

« يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَاشًا وَٱلسَّمَاءَ بِنَاءً ، وَأَنْزَلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ ٱلثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ ؛ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ .

« وَإِنْ كُنْتُمْ فِى رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ ، وَٱدْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا ـ وَلَنْ تَفْعَلُوا ـ فَٱتَّقُوا ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ، أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ .

« وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ ، كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا : هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ ؛ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ، وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ ، وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » . صدق الله العظيم

فى عدد قليل من الكلمات والأسطر المعدودات فى أول السورة ، ترتسم ثلاث صور لثلاثة أنماط من النفوس ؛ كل نمط منها نموذج حى لمجموعات ضخمة من البشر . نموذج أصيل عميق ، متكرر فى كل زمان ومكان . حتى ما تكاد البشرية كلها فى جميع أعصارها وأقطارها تخرج عن تلك الأنماط الثلاثة .

وفى تلك الكلمات القلائل والأسطر المعدودات ترتسم هذه الصور واضحة كاملة ، نابضة بالحياة ، دقيقة السمات ، مميزة الصفات . حتى ما يبلغ الوصف المطول والإطناب المفصل شيئاً وراء

هذه اللمسات السريعة المبينة ، الجميلة النسق ، الموسيقية الإيقاع . . إنها صور : المتقين ، والـكافرين ، والمنافقين .

فإذا انتهى من عرض هذه الصور الثلاث دعا الناس كافة إلى الصورة الأولى ، وناداهم كافة أن يفيئوا إليها . وتحدى الذين لايؤمنون ، وأنذرهم عذاباً مفزعاً مرهوباً ؛ وبشر المؤمنين وصور ما ينتظرهم من نعيم عظيم .

تلك مجمل الخطوط الرئيسية فى هذا الدرس الأول من سورة البقرة . فلنحاول أن نتناول هذا الإجمال بشىء من التفصيل .

* * *

تبدأ السورة بهذه الأحرف الثلاثة : « ألف . لام . ميم » بوصفها مبتدأ ، خبره : « ذلك الـكتاب لاريب فيه » . . هذه الأحرف هى الـكتاب ؛ فمن نوع هذه الأحرف ومن جنسها يتألف ذلك الـكتاب ؛ ومن هذه الأصوات المألوفة يتكون . ولـكنه مع هذا هوذلك الـكتاب المعجز الذى يتحداهم أن يأتوا بسورة من مثله فلا يستطيعون .. ذلك هو الإعجاز ؛ وذلك مثل صنع الله فى كل شىء وصنع الناس . . إن هذه التربة الأرضية مؤلفة من ذرات معلومة الصفات . فإذا أخذ الإنسان هذه الذرات ، فقصارى ما يصوغه منها لبنة أو آجرة ، أو آنية أو اسطوانة ، أو هيكل أوجهاز ، كائناً فى دقته ما يكون . . ولـكن الله المبدع يجعل من تلك الذرات حياة . حياة نابضة خافقة ، تنطوى على ذلك السر الإلهى المعجز ، الذى لايستطيعه بشر ، ولم يعرف سره أحد . . وهكذا القرآن . . حروف وكلمات ؛ يصوغ منها البشر كلاماً وأوزاناً ؛ ويجعل منها الله قرآناً وفرقاناً . والفرق بين صنع البشر وصنع الله من هذه الحروف والـكلمات ، هو الفرق ما بين الجسم الخامد والروح النابض . هو الفرق ما بين صورة الحياة وحقيقة الحياة .

ذلك الـكتاب « هدى للمتقين » وهنا يأخذ فى رسم الصورة الأولى : صورة المتقين :

« الذين يؤمنون بالغيب ، ويقيمون الصلاة ، ومما رزقناهم ينفقون » .

والتقوى شعور فى الضمير ، وحالة فى الوجدان ، تنبثق منها صفات وأعمال ، وتتوحد معها المشاعر الباطنة والتصرفات الظاهرة ؛ وتصل الإنسان بالله فى سره وجهره ؛ وتشف معها الروح ، فتقل الحجب بينها وبين الناموس الـكلى الذى يشمل عالمى الغيب والشهادة ، ويربط بين المعلوم والمجهول .

ومتى شفت الروح ، وانزاحت الحجب بين الظاهر والباطن ، ولمست ذلك الـكلى ، الشامل للغائب والحاضر . فإن الإيمان بالغيب عندئذ هو الثمرة الطبيعية لإزاحة الحجب الساترة ،

واتصال الروح بالغيب المجهول . . الغيب الذى لاتدركه الحواس ، ولا يحيط به الفكر ، ولكن تطلع عليه البصيرة وتستشفه الروح ؛ ويدركه الإنسان بكيانه كله فى ومضة ، لأن برهانه مستقر فى كيان الإنسان كله ، متلبس بأعمق الأعماق فى الضمير .

ومتى استقر وجدان التقوى فى الضمير ، اتحد فيه الإيمان بالغيب بإقامة الصلاة عبادة لله ؛ وبالإنفاق شكراً على نعمته وبراً بخلقه وتضامناً بين عباده ؛ واتحد فيه كذلك بالإيمان بالرسالة الإلهية كلها ، فى جميع أطوارها وحلقاتها ؛ ثم اتحد فيه بالإيمان بالآخرة فهى غيب من الغيب : « وبالآخرة هم يوقنون » .

هذه الوحدة بين الظاهر والباطن ، بين عالم الغيب وعالم الشهادة ، بين الإيمان بالرسالة الحاضرة والرسالات الماضية ، بين الدنيا والآخرة ، بين العبادة والسلوك . . هذه الوحدة الشعورية الكبرى ، التى تجمعها كلها كلمة التقوى . . هى سمة الإسلام الأولى . السمة التى ارتسمت من خلال اللمسات السريعة ، وانتفضت صورة حية . صورة المتقين . إحدى الصور الثلاث التى ترتسم فى تلك الكلمات القلائل والأسطر المعدودات .

فأما الصورة الثانية فتلك صورة الكافرين :

« إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون . ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم ، وعلى أبصارهم غشاوة ،ولهم عذاب عظيم .

فإذا كان الكتاب بذاته هدى للمتقين . فالإنذار بالكتاب وعدم الإنذار سواء بالنسبة إلى الكافرين . إن المنافذ المفتحة فى أرواح المتقين ، والوشائج التى تربطهم بالوجود كله وخالق الوجود .. هذه المنافذ المفتحة كلها هناك ، مغلقة كلها هنا . وهذه الوشائج الموصولة كلها هناك ،مقطوعة كلهاهنا : « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم » ختم عليها فلا إلهام ولاشعور ، « وعلى أبصارهم غشاوة » فلا نور ولا بصيص من نور . .

إنها صورة صلدة مظلمة جامدة ، ترتسم من خلال الحركة الثابتة الجازمة . حركة الختم على القلوب والأسماع ، والتغشية على العيون والأبصار .

ثم ننتقل إلى الصورة الثالثة ، أو النموذج الثالث ، فماذا نرى ؟

إنها ليست فى شفافية الصورة الأولى وسماحتها؛ وليست فى عتامة الصورة الثانية وصفاقتها ؛ ولكنها تتلوى فى الحس ، وتروغ من البصر ، وتخفى وتبين . . إنها صورة المنافقين :

« ومن الناس من يقول : آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ، يخادعون الله والذين آمنوا ، وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون . فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا؛ ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون »

إنهم يظنون فى أنفسهم الذكاء والدهاء والقدرة على الخداع . . ولكن يا للسخرية التى تنصب عليهم قبل أن تكمل الآية وقبل أن تكتمل الصورة . . إنهم من الغفلة بحيث إنهم لا يخدعون إلا أنفسهم « وما يشعرون » فالله بخداعهم عليم ، والمؤمنون لا يخدعهم أحد ، وهم بالله موصولون .

ولكن لماذا يحاول المنافقون هذه المحاولة ، ولماذا يخادعون هذا الخداع ؟ . . « فى قلوبهم مرض » فى طبيعتهم آفة ، فى فطرتهم علة .. وهذا ما يحيدبهم عن الطريق المستقيم .. «فزادهم الله مرضاً » فالمرض ينشىء المرض ، والانحراف يبدأ يسيراً ثم تنفرج الزاوية فى كل خطوة وتزداد . سنة لا تتخلف . سنة الله فى الأشياء والأوضاع والشعور والسلوك . فهم صائرون إذن إلى مصير معلوم : « ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون » .

« وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا : إنما نحن مصلحون . ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون » .

إنهم لا يقفون عند حد الكذب والخداع ، إنما يضيفون إليهما السفه والادعاء: « وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض » لم يكتفوا بأن ينفوا عن أنفسهم الإفساد ، بل تجاوزوه إلى التبجح والادعاء : « قالوا : إنما نحن مصلحون » هكذا بلا بينة ولا دليل . « ألا إنهم هم المفسدون » ولكنهم من الغفلة « لا يشعرون » .

«وإذا قيل لهم : آمنوا كما آمن الناس . قالوا : أنؤمن كما آمن السفهاء؟ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون » .

إذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس . الناس المستقيمون على الصراط ، الذين يستحقون أن يقال لهم « الناس » بما فيهم من مقوّمات الإنسانية العليا ، وبما فيهم من استعداد للمعرفة والاستجابة . . إذا قيل لهم : تعالوا إلى مألوف الناس ومعروفهم لم يكتفوا بالاعتذار عن مخالفتهم للناس ، وانحرافهم عن الطريق . . ولكن توقحوا وسفهوا، و «قالوا:أنؤمن كما آمن السفهاء ؟ » عندئذ يجيئهم الرد حاسماً جازماً : « ألا إنهم هم السفهاء». . «ولكن لا يعلمون» ومتى علم السفيه أنه سفيه ؟ ومتى استشعر البذىء أنه بذىء ؟

« وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا : آمنا ، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا : إنا معكم إنما نحن مستهزئون » .

فهم لا يقفون عند حد الكذب والخداع والسفه والادعاء . إنما يضيفون إليها الضعف واللؤم : « وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا : آمنا » ضعفاً عن المواجهة أو خداعاً ومكراً. ومايتنتج المرض والالتواء إلا الضعف واللؤم سواء . وبعض الناس يحسب اللؤم قوة ، وهو ضعف وخسة ؛ فالقوى ليس لئيماً ولا خسيساً ، ولا خادعاً ولامنافقاً ؛ والقوى ليس مستهزئاً بالناس، ولا غمازاً لمازاً فى الخفاء . وما أضعف هؤلاء الذين يقولون : إنهم مستهزئون . . « الله يستهزىء بهم » وما أبأس من يستهزىء به جبار السماوات والأرض وما أشقاه . وإن الخيال ليمتد إلى منظر مفزع رهيب ، وإلى مصير تقشعر من هوله القلوب ، وهو يقرأ: «الله يستهزىء بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون » فيخبطون على غير هدى فى طريق لا يعرفون غايته ؛ واليد الجبارة تتلقفهم فى نهايته ، كالفئران الهزيلة تتواثب فى الفخ غافلة عن المقبض المكين !

«أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين » .

أولئك كانوا يملكون الهدى لو أرادوا ؛ ولكنهم « اشتروا الضلالة بالهدى » كأغفل المتجرين « فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين » .

ولعلنا نلمح أن الحيز الذى استغرقه رسم هذه الصورة الثالثة قد جاء أفسح من الحيز الذى استغرقه رسم الصورة الأولى أو الثانية .

ذلك أن كلا من الصورتين الأوليين فيه استقامة على نحو من الأنحاء ، وفيه بساطة على معنى من المعانى . . الصورة الأولى صورة النفس الصافية المستقيمة فى اتجاهها ؛ والصورة الثانية صورة النفس المعتمة المستقيمة فى اتجاهها . أما الصورة الثالثة فهى صورة النفس الملتوية المريضة المقلقلة . وهى فى حاجة إلى مزيد من اللمسات ومزيد من الخطوط كما تظهر وتبين .

وفى سبيل هذا الغرض يمضى السياق ، يضرب حولها الأمثال التى تكشف عن طبيعتها ، ونظرتها إلى الحياة والأشياء ، وعلاقتها بالحياة والأحياء :

« مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً ، فلما أضاءت ماحوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون ، صم بكم عمى فهم لا يرجعون » .

إنهم لم يعرضوا عن الهدى ابتداء ، ولم يصموا آذانهم عن السماع ، وعيونهم عن الرؤية ، وقلوبهم عن الإدراك ، كما يصنع الكافرون . ولكنهم استحبوا الضلالة على الهدى بعد ما استوضحوا الأمر وتبينوه ؛ وبعد ما اختاروا لأنفسهم فأساءوا الاختيار ؛ وتركوا الذى هو خير

فكان مصيرهم البوار . . لقد استوقدوا النار ، فلما أضاء لهم نورها لم ينتفعوا به وهم طالبوها. عندئذ « ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون » .

وإذا كانت الآذان والألسنة والعيون ، لتلقى الأصداء والأضواء ، والانتفاع بالهدى والموعظة، فقد عطلوا هم آذانهم فهم « صم » ، وعطلوا ألسنتهم فهم « بكم » ، وعطلوا عيونهم فهم « عمى » . فلا رجعة لهم إلى الحق ولا مآب .

« أو كصيب من السماء ، فيه ظلمات ورعد وبرق ، يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت . والله محيط بالكافرين . يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا . ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم . إن الله على كل شىء قدير . »

إنه مشهد عجيب ، حافل بالحركة ، مشوب بالاضطراب . فيه تيه وضلال، وفيه هول ورعب، وفيه فزع وحيرة ، وفيه أضواء وأصداء .. صيب من السماء هاطل غزير ، « فيه ظلمات ورعد وبرق » . . « كلما أضاء لهم مشوا فيه » .. « وإذا أظلم عليهم قاموا » ووقفوا حائرين لا يدرون أيان يذهبون . وهم مفزعون : « يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت » . . « والله محيط بالكافرين » .

إن الحركة التى تغمر المشهد كله ، من الصيب الهاطل ، إلى الظلمات والبرق والرعد ، إلى الحائرين المفزعين فيه ، إلى الخطوات المروعة الوجلة ، التى تقف فجأة عندما يخيم الظلام . . إن هذه الحركة فى المشهد لترسم الحركة التى فى الضمائر . حركة التيه والاضطراب الذى يعيشون فيه ، بين لقائهم للمؤمنين وعودتهم إلى الشياطين ، بين ما يقولونه لحظة ثم ينكصون عنه فجأة ، بين ما يطلبونه من هدى ونور ، وما يفيئون إليه من ضلال وظلام . . . إنه التصوير الفنى المعجز يجسم أحوال النفوس كأنها مشهد محسوس ...

* * *

والآن بعد استعراض الصور الثلاث ، نعود إلى الصورة الأولى . صورة المتقين التى كتب الله لأهلها الفلاح : « أولئك على هدًى من ربهم وأولئك هم المفلحون » نعود إليها لنتملى خصائصها ومقوّماتها ، ولنرى مدى أصالتها فى الحياة وكرامتها عليها .

إن السمة الأولى للمتقين هى الوحدة الشعورية التى تجمع فى نفوسهم بين الإيمان بالغيب والقيام بالفرائض ، والإيمان بالرسل كافة واليقين بعد ذلك بالآخرة .. هذه الوحدة هى ناموس

الخلق وناموس الوجود . فالقيمة العليا إذن لهذه السمة هى اهتداء المتقين إلى الناموس الخالد ، واصطلاح نفوسهم ومشاعرهم عليه ، واستمدادهم بطبيعتهم منه . فهم فى الحياة كالنغمة المتناسقة فى اللحن الأصيل .

فإذا نحن أخذنا فى تفصيل هذه السمة الأولى إلى مفرداتها التى تتألف منها ، انكشفت لنا هذه المفردات الجزئية كذلك عن قيم أساسية فى حياة البشرية جميعاً ..

« الذين يؤمنون بالغيب » . . ماقيمة هذه السمة فى الحياة وما جدواها ؟ قيمتها هى الاتصال المباشر بين الروح البشرية والوحدة الكونية ، فلا تقوم حواجز الحس دون هذا الاتصال الوثيق . عندئذ تصان الطاقة الفكرية المحدودة المجال عن التبدد والتمزق ، فيما لم تخلق له ، ولم توهب القدرة عليه ، ولا يجدى أن تنفق فيه . إن الطاقة الفكرية موكلة بهذه الحياة الواقعة القريبة ، تنظر فيها وتتعمقها وتتقصاها ؛ وتعمل وتنتج وتنمى هذه الحياة وتجملها ، على أن يكون لها سند من تلك الطاقة الروحية التى تتصل مباشرة بالوجود كله وخالق الوجود . .

فأما محاولة إدراك ما وراء الواقع بالعقل المحدود الطاقة ، دون سند من الروح الملهم والبصيرة المفتوحة ، فهى محاولة فاشلة أولا ، ومحاولة عابثة أخيراً . فاشلة لأنها فوق طاقة العقل المحدودة ؛ وعابثة لأنها تبدد تلك الطاقة التى لم تخلق لمثل هذا المجال ، ولا تملك له أداة ، ولا تعرف إليه سبيلا . ومتى سلم العقل البشرى بالبديهية العقلية الأولى ، وهى أنه جزئى محدود بالزمان والمكان ، مقيد بالحس والتجربة ، وبالتصور والقياس الناشئين من الحس والتجربة . متى سلم بهذه البديهية الأولى لزمه — احتراماً لمنطقه ذاته — أن يسلم بأن إدراكه للمطلق مستحيل ، وأن إحاطته بالكل متعذرة ، وأن عليه أن يكل الغيب إلى طاقة أخرى غير طاقة العقل المحكوم بالحس والتجربة . وقيمة هذا التسليم هى أن يعمل العقل فى الحقل الذى يدرك معالمه وينتج فيه ؛ وألا يغتر بنفسه فيجعل من ذاته إلهاً ، ومن تصوراته دينا ، ومن مقولاته شريعة . لأنه عرضة للخطأ فى الحس ، والضلال فى التجربة ، والتأثر بشتى المؤثرات .

« ويقيمون الصلاة » .. ما قيمة هذه السمة فى الحياة ؟ قيمتها هى التوجه إلى الخالق دون المخلوقين ، التوجه إلى القوة المطلقة بغير حدود . قيمتها الاعتزاز بالله على العبيد . قيمتها الاتصال بالخالق القادر فترات على مدار الليل والنهار ، حيث يستشعر الفرد الفانى الزائل ، أنه موصول السبب بواجب الوجود واجب الخلود . فإذا لحياته غاية ، وإذا لضعفه سند ، وإذا لحدوده امتداد ، وإذا هو على اتصال بعالم الخلود .

« ومما رزقناهم ينفقون » .. ما قيمة هذه السمة فى الحياة ؟ قيمتها الاعتراف بنعمة الرزق ،

والبر بضعاف الخلق ، والتضامن بين عباد الخالق . قيمتها الشعور بالآصرة الإنسانية ، وبالأخوة البشرية . قيمتها تطهير النفس من الشح ، وتزكيتها بالبر . قيمتها أنها ترد الحياة مجال تعاون لا معترك تطاحن ؛ وأنها تؤمن العاجز والضعيف والقاصر ، وتشعرهم أنهم يعيشون بين قلوب ووجوه ونفوس ، لا بين أظفار ومخالب ونيوب !

« والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك » .. وهذه ما قيمتها كذلك ؟ .. قيمتها هى الشعور بوحدة البشرية ، ووحدة دينها ووحدة رسلها . قيمتها هى تنقية الروح من العصبية الذميمة ضد الديانات وأصحاب الديانات . قيمتهـا هى الاطمئنان إلى رعاية الله للبشرية على تطاول عهودها وأحقابهـا ، هذه الرعاية البادية فى توالى الرسل والرسالات بدين واحد وبهدى واحد . قيمتها هى الاعتزاز بالهدى الذى تتقلب الأيام والأزمان ، وهو ثابت مطرد ، كالنجم الهادى فى دياجير الظلمات .

« وبالآخرة هم يوقنون » .. وهـذه خاتمة السمات . الخاتمة التى تربط الدنيا بالآخرة ، والمبدأ بالمصير ، والعمل بالجزاء ؛ والتى تشعر الإنسان أنه ليس لقًى مهملا ؛ وأنه لم يخلق عبثاً ، ولن يترك سدًى ؛ وأن العدالة المطلقة فى انتظاره ، ليطمئن قلبه ، وتستقر بلابله ، ويفىء إلى العمل الصالح ، وإلى عدل الله ورحمته فى نهاية المطاف .

ثم تتضام هذه السمات وتتلاقى ، لتؤلف بخطوطها الظاهرة وخيوطها الخفية تلك الصورة المستقيمة النقية ،صورة المتقين : « الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون .. أولئك على هدًى من ربهم وأولئك هم المفلحون » ..

***

وعند ما يتم استعراض الصور الثلاث يرتد السياق فى السورة نداء للناس كافة ، وأمراً للبشرية جمعاء ، أن تختار الصورة الكريمة المستقيمة . الصورة النقية العاملة النافعة . الصورة المهتدية المفلحة الناجحة . صورة المتقين :

« يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون » .

هكذا « لعلكم تتقون » لعلكم تصيرون إلى هذه الصورة المختـارة من صور البشرية . صورة العابدين لله المتقين لله ، الذين اهتدوا إلى الصراط المستقيم ، فعبدوا الله وحده رب العالمين ..

ثم يمضى السياق ليستعرض شيئاً من نعم الله على العباد ، ومن رعاية الرب لخلقه ؛ وهى رعاية الرحيم المربى العطوف :

« الذى جعل لكم الأرض فراشاً ، والسماء بناء ؛ وأنزل من السماء ماء ، فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم »

ويعقب على هذا البيان بتحذير يجىء فى الأوان :

« فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون » ...

وفى ذلك النداء وفى هذا التحذير تبرز كليتان من كليات الفكرة الإسلامية : وحدة الخالق ووحدة الخليقة : « الذى خلقكم والذين من قبلكم » . . ووحدة الكون وتناسق وحداته وصداقته للحياة والإنسان : « الذى جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم » فهذا الكون أرضه مخلوقة لهذا الإنسان ، وسماؤه معينة مساعدة بالماء ، تخرج به الثمرات رزقاً لبنى الإنسان . « فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون » .

هذا البرهان الكونى المحسوس ، يتبعه فى السياق برهان آخر عقلى ، مصحوب بالتحدى ، منظور فيه إلى افتتاح السورة بتلك الحروف : « الم : ذلك الكتاب لاريب فيه » ليتقصى فى النفوس مظان الريب ومواقع الشبهات :

« وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ، وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين » .

إن ذلك الكتاب المعجز مصوغ من تلك الحروف التى فى أيديكم . فإن كان بشر مستطيعاً أن يصوغ منها مثله ، فدونه فليفعل :

« فإن لم تفعلوا — ولن تفعلوا — فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين » .

فيم هذا الجمع بين الناس والحجارة ، فى هذه الصورة المفزعة الرهيبة ؟ لقد أعدت هذه النار للكافرين . الكافرين الذين سبق فى أول السورة وصفهم بأنهم « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم ، وعلى أبصارهم غشاوة » فهم فى هذه الصورة حجر من الحجر ، وإن تبدوا فى زى الآدميين . فهذا الجمع بين الحجارة والناس من هذا الطراز ، إنما يشير إلى تلك الصورة السابقة فى السياق . . ثم تجىء الحجارة هنا لترسم سمة أخرى فى المشهد الفظيع . مشهد النار التى تأكل الأحجار . ومشهد الأناسىّ الذين تزحمهم هذه الأحجار فى النار . .

وفى مقابل هذا المشهد المفزع يعرض السياق مشهداً آخر . مشهد النعيم الذى ينتظر المؤمنين .

« وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، كلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً ، قالوا : هذا الذى رزقنا من قبل ، وأتوا به متشابهاً ، ولهم فيها أزواج مطهرة ، وهم فيها خالدون » .

وهى ألوان من النعيم يستوقف النظر منها تلك الثمار المتشابهة التى يخيل إليهم أنهم رزقوها من قبل . فربما كان فى هذا التشابه الظاهرى والتنوع الداخلى مزية المفاجأة فى كل مرة ، وهى أقوى أثراً وأعمق وقعاً ، وهى ترسم جواً من الدعابة الحلوة ، والرضى السابغ ، والتفكه الجميل بتقديم المفاجأة بعد المفاجأة ، وفى كل مرة ينكشف التشابه الظاهرى عن شىء جديد !

وهذا التشابه فى الشكل ، مع التنوع فى المزية ، سمة واضحة فى صنع البارىء تعالى ، تجعل الوجود أكبر فى حقيقته من مظهره . ولنأخذ الإنسان وحده نموذجاً كاشفاً لهذه الحقيقة . . الناس كلهم ناس من ناحية قاعدة التكوين : رأس وجسم وأطراف . لحم ودم وعظام وأعصاب . عينان وأذنان وفم ولسان . خلايا حية من نوع الخلايا الحية . تركيب متشابه فى الشكل والمادة . . ولكن أين غاية المدى فى السمات والمزايا ؟ إن فارق ما بين إنسان وإنسان — على هذا التشابه — ليبلغ أحياناً أبعد مما بين الأرض والسماء . .

وهكذا يبدو التنوع فى صنع البارىء هائلا يدير الرؤوس : التنوع فى الأنواع والأجناس ، والتنوع فى الأشكال والسمات ، والتنوع فى المزايا والصفات . وكله . كله مرده إلى الخلية الواحدة المتشابهة التركيب والتكوين .

فمن ذا الذى لا يؤمن بالخالق الواحد ، وهذه آثاره وتلك قدرته ؟ ومن ذا الذى يجعل لله أنداداً ، ويد الإعجاز القاهرة واضحة الآثار فيما تراه الأبصار ، وفيما تحسه النفوس ؟

« إِنَّ اللهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا . فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ؛ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ : مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَذَا مَثَلًا ؟ يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً . وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلا الْفَاسِقِينَ * الَّذِينَ

يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ ، وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ، وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ . . أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ .

« كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ ؛ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ، ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ، ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ، ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ؟ * هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ؛ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَىٰ السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ؛ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ؟

« وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ : إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً . قَالُوا : أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا ، وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ؛ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ؟ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ .

« وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ؛ ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ ، فَقَالَ : أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هٰؤُلَاءِ . إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا : سُبْحَانَكَ ! لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا . إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * قَالَ : يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ . فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ : أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ : إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ؟

« وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ : اسْجُدُوا لِآدَمَ . فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ .

« وَقُلْنَا : يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ، وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا ؛ وَلَا تَقْرَبَا هٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ * فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ . وَقُلْنَا : اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ، وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ * فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ . إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ .

« قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً . فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى . فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » .

مضى السياق بمثلين ضربهما الله للمنافقين ، الذين يرون الهدى فلا ينتفعون به ؛ ويطلبون النور ثم يجانبونه :

« مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً ، فلما أضاءت ماحوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون . . . »

« أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق . . . »

ولعل قوماً ممن عاصروا نزول تلك الآيات والآيات الأخرى التى يضرب الله فيها الأمثال بالذباب والعنكبوت وما إليها .. قد حاك فى نفوسهم شىء من هذا الأسلوب . ولعل أقواماً ممن يستمعون إلى القرآن أو يقرأونه فى أى زمان يحيك فى نفوسهم شىء كذلك ؛ يرون الأمثال أسلوب فن يرمى إلى الرؤى والأخيلة ، أكثر مما يرمى إلى الواقع والحقيقة .

فهنا تصحيح لهذا الوهم ، وبيان لحكمة الله فى ضرب الأمثال . . إنها اختبار لمعادن العقول والقلوب ، يختلف وقعه ، وتختلف الاستجابة إليه ، باختلاف النماذج الإنسانية التى تتلقاه .

ومن هنا يرتد السياق إلى نموذجين إنسانيين قد مرا بنا فى أول السورة : نموذج المتقين الذين يؤمنون بالغيب ، ويثقون بالله ، وبما يأتيهم من عند الله ، لأن بصائرهم مفتوحة للنور ، متصلة بالناموس الكونى الأصيل .. ونموذج الكافرين ، الذين ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ، فهم محجوبون عن النور ، مقطوعون من شجرة الحياة وناموسها الأصيل . ومن ثم فهم لا يفقهون حكمة الخالق ، ولا ينتبهون إلى مرمى الأمثال التى يضربها الله للناس :

« إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلا ما ، بعوضة فما فوقها » ..

فالله رب الصغير والكبير ، وخالق البعوضة والفيل . والمعجزة فى البعوضة هى ذاتها المعجزة فى الفيل . إنها معجزة الحياة النابضة . معجزة السر المغلق الذى لا يعلمه إلا الله .. على أن العبرة فى المثل ليست فى الحجم والشكل ، إنما الأمثال أدوات للتنوير والتصوير . وليس فى ضرب المثل معيب يستحى منه ، فيمتنع عنه ، فهو أسلوب من أساليب البيان والإيضاح ، ربما كان أدخل إلى النفوس وأحب إلى القلوب . فضلا على أن الله — جلت حكمته — يريد بالمثل اختبار القلوب وامتحان النفوس :

« فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم ، وأما الذين كفروا فيقولون : ماذا أراد الله بهذا مثلا ؟ يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا وما يضل به إلا الفاسقين » .

إن الذين آمنوا – بما فطرت عليه طبيعتهم من تفتح واستشراف للهدى واتصال بالله – يعلمون أنه الحق من ربهم فيصدقونه ويطمئنون إليه، ويتعظون به.. «وأما الذين كفروا» – بما فى قلوبهم من استغلاق، وما فى بصائرهم من عتامة – فلا يفقهون له معنى، ولا يستشعرون له حكمة «فيقولون: ماذا أراد الله بهذا مثلا؟» :

ماذا أراد الله به؟ «يضل به كثيراً» ممن انحرفت فطرتهم وفسدت، وتقطعت روابطهم بالقوة الكبرى وناموسها العميق. «ويهدى به كثيراً» ممن اتصلت قلوبهم بالنبع ووثقت بالله وفقهت سر الحياة «وما يضل به إلا الفاسقين» الذين يحيدون عن الهدى، فيضلون.

وهنا يأخذ السياق فى رسم خصائص الفاسقين :

«الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل، ويفسدون فى الأرض. أولئك هم الخاسرون».

فأى عهد من عهود الله هو الذى ينقضون؟ وأى أمر مما أمر الله أن يوصل هو الذى يقطعون؟ وأى لون من الفساد فى الأرض هو الذى يفسدون؟

لقد جاء السياق هنا بهذا الإجمال، لأن المجال مجال تشخيص طبيعة، وتصوير نموذج، لا مجال تسجيل حادثة، أو تفصيل واقعة.. إن الصورة هنا هى المطلوبة فى عمومها. فكل عهد بين الله وبين هذا النموذج من الخلق منقوض؛ وكل ما أمر الله به أن يوصل فهو بينهم مقطوع؛ وكل فساد فى الأرض فهو منهم مصنوع.. إن صلة هذا النمط من البشر بالله مقطوعة، وثقتهم فى أساسها بالله ممنوعة؛ وإن فطرتهم المنحرفة لا تستقيم على عهد، ولا تستمسك بعروة، ولا تتورع عن فساد. إنهم كالثمرة الفجة التى انفصلت عن شجرة الحياة، فتعفنت وفسدت ونبذتها الحياة.. وفى القرآن فى مواضع أخرى أمثلة جزئية كثيرة على نقض عهد بعينه، أو إفساد أمر بذاته. تأتى هنالك مفصلة لأن السياق هنالك يتناسق مع هذا التفصيل. فأما هنا فالإجمال الكلى هو الذى يتسق مع الجو العام. فلا نحاول نحن إذن – ونحن فى ظلال هذا الجو – أن نفصل ما أراد الله له الإجمال!

ولكننا ننظر فى الآثار الهدامة لهذا النمط من البشر، فى مقابل الآثار البناءة لذلك النمط الذى افتتحت به السورة.

هناك.. المتقون: «الذين يؤمنون بالغيب، ويقيمون الصلاة، ومما رزقناهم ينفقون، والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك، وبالآخرة هم يوقنون».

وهنا . . الفاسقون : « الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ، ويفسدون فى الأرض »

هناك .. المتصلون بالله ، العابدون له ، المرتقة قلوبهم به . المتصلون بناموس الحياة . المؤمنون بالغيب وما وراء الحياة . المتصلون بالناس ، المصلحون للمجتمع ، الواصلون للرحم الإنسانية . المتصلون بهدى الله ، لا يفرقون بين أحد من رسله . الموقنون بالآخرة وبما فيها من جزاء ...

وهنا .. الفاسقون .. المنحرفون عن السواء . الذين ينقضون عهد الله فلا تربطهم به صلة ؛ ويقطعون كل عروة رابطة ، فينبتون عن الإنسانية ؛ ويوقعون فى الأرض الفساد بانحرافهم عن الطريق المستقيم .

وإذا نقض عهد الله من بعد ميثاقه فكل عهد دون عهد الله منقوض . وإذا قطع ما أمر الله به أن يوصل فقد تفككت العرى وانحلت الروابط . وإذا وقع الفساد فى الأرض فقد شاهت الحياة وشملتها الفوضى . . فأى هدم ، وأى تشويه ، وأى فساد ، ينشئه فى الحياة أولئك الفاسقون ، بانحرافهم عن الطريق المستقيم ؟

ثم يعقب السياق بالاستنكار للفسوق والكفر ، فى إجمال كذلك سريع جامع شامل ، يناسب الجو كله ، ويتسق مع ظلاله :

« كيف تكفرون بالله ؟ وكنتم أمواتاً فأحياكم ، ثم يميتكم ثم يحييكم ، ثم إليه ترجعون ؟ »

هكذا فى آية واحدة قصيرة ، يفتح سجل الحياة كلها ويطوى ؛ وتعرض كالبرق صورة البشرية فى قبضة البارىء : ينشرها من همود الموت أول مرة ، ثم يقبضها بيد الموت فى الأولى ، ثم يحييها كرة أخرى ؛ وإليه رجعتها فى الآخرة ، كما كانت إليه نشأتها فى الأولى ..

كيف تكفرون بالله ؟ وها أنتم أولاء فى قبضته ، وفى قدرته ، وفى مشيئته . من المبدأ إلى المصير . من قبل أن تروا النور ، وعندما تواريكم القبور ، ومن بعد البعث والنشور ؟ كيف تكفرون بالله وصلتكم به قائمة ، وإليه المبدأ وإليه المصير ؟

إن السياق هنا يستعرض موكب الحياة كله فى ومضة ، يرتسم فيها ظل القدرة . . ثم يعقب عليها بومضة أخرى ، للغرض نفسه وفى الاتجاه عينه . وكل منهما مكملة للأخرى :

« هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً ؛ ثم استوى إلى السماء فسوّاهن سبع سماوات . وهو بكل شىء عليم » .

ويكثر المفسرون هنا من الكلام عن خلق الأرض والسماء . . يتحدثون عن القبلية

والبعدية . ويتحدثون عن الاستواء والتسوية .. وينسون أن « قبل وبعد » اصطلاحان بشريان لا مدلول لهما بالقياس إلى الله تعالى . وينسون أن « الاستواء والتسوية » اصطلاحان لغويان ، يقربان إلى التصور البشرى المحدود صورة غير المحدود . ولا يزيدان . وما كان الجدل الكلامى الذى ثار بين علماء المسلمين حول هذه التعبيرات ، إلا آفة من آفات الفلسفة الإغريقية والمنطق الإغريقى ، عند مخالطتهما للعقلية العربية الصافية ، والعقلية الإسلامية الناصعة . وما كان لنا نحن اليوم أن نقع فى هذه الآفة ، فنفسد جمال العقيدة ، وجمال القرآن ، بقضايا علم الكلام !

فلنخلص إذن إلى قصة آدم فى هذا السياق :

إن القصص فى القرآن يرد فى مواضع ومناسبات . وهذه المناسبات التى يساق القصص من أجلها هى التى تحدد مساق القصة ، والحلقة التى تعرض منها ، والصورة التى تأتى عليها ، والطريقة التى تؤدى بها . . تنسيقاً للجو الروحى والفكرى والفنى الذى تعرض فيه .

ويحسب أناس أن هنالك تكراراً فى القصص القرآنى ، لأن القصة الواحدة قد يتكرر عرضها فى مواضع شتى . ولكن النظرة الفاحصة تقول : إنه مامن قصة أو حلقة من قصة قد كررت فى صورة واحدة ، من ناحية القدر وطريقة الأداء . وإنه حيثما تكررت حلقة كان هنالك جديد تؤديه فى السياق ، ينفى حقيقة التكرار .

ويزيغ أناس فيزعمون أن هنالك خلقاً للحوداث أو تصرفاً فيها ، يقصد به مجرد الفن ـ بمعنى التزويق الذى لا يتقيد بواقع ـ ولكن الحق الذى يلمسه كل من ينظر فى هذا القرآن ، وهو مستقيم الفطرة مفتوح البصيرة ، هو أن السياق يحدد القدر الذى يعرض من القصة فى كل موضع ، كما يحدد طريقة العرض ، وخصائص الأداء . والقرآن كتاب دعوة ودستور نظام ، لا كتاب تاريخ ولا رواية . وفى سياق الدعوة يجىء قصصه المختار ، بالقدر وبالطريقة التى تناسب الجو والسياق وتحقق الجمال الفنى الصادق ، الذى لا يعتمد على الخلق والتزويق ، ولكن على إبداع العرض وجمال الأداء (١)

فلننظر إذن فى قصة آدم ، كما جاءت هنا ، فى ظل ذلك السياق الذى أسلفنا ..

إن السياق ـ فيما سبق ـ يستعرض موكب الحياة ، بل موكب الوجود كله . ثم يتحدث عن الأرض فيقرر أن الله خلق كل ما فيها للإنسان .. فهنا فى هذا الجو تجىء قصة استخلاف آدم

---

(١) عالجت هـذا الموضوع بتوسع فى فصل : « القصة فى القرآن » فى كتاب : « التصوير الفنى فى القرآن » .

فى الأرض ، و منحه مقاليدها ، وإعطائه المعرفة التى يعالج بها شؤونها .. فتتسق القصة مع الجو الذى تساق فيه ؛ وتؤدى الفكرة التى تتناسق مع هذا الجو العام .

فلنعش لحظات فى قصة البشرية الأولى :

***

ها نحن أولاء بعين الخيال ، وفى ومضات الاستشراف .. فى ساحة الملأ الأعلى .. وها نحن أولاء نشهد قصة البشرية الأولى :

« وإذ قال ربك للملائكة : إنى جاعل فى الأرض خليفة »

وإذن فهى الإرادة العليا تسلم لهذا الكائن البشرى زمام هذه الأرض ، وتطلق فيها يده ، وتكل إليه إبراز مشيئة الخالق فى الإبداع والتكوين ، والتنويع والتركيب . وإذن فقد وهب هذا الكائن البشرى من الطاقة الكامنة ما يناسب هذه المهمة الضخمة ؛ ومن الاستعدادات الخفية ما يحقق المشيئة الإلهية . وإذن فهنالك وحدة أو تناسق بين النواميس التى تحكم هذا الوجود ، والنواميس التى تحكم هذا المخلوق ؛ كى لا يقع التصادم بين هذه النواميس وتلك ، وكى لا تتحطم طاقة الإنسان على صخرة الفطرة ، وكى لا يعادى قانونها قانونه . . وإذن فهى منزلة عظيمة منزلة هذا المخلوق فى نظام الوجود كله على هذه الأرض الفسيحة . وهو التكريم الذى شاءه له خالقه الكريم . وما سجود الملائكة الذى أمرهم به إلا إعلان لهذا التكريم . الذى تقرر عندما شاءت الإرادة العليا أن تستخلفه فى هذا الملك العريض (١) .

« قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟ »

وإذن فقد كان لديهم من شواهد الحال ، أو من التجارب السابقة ، أو من إلهام البصيرة ما يكشف لهم عن شيء من فطرة هذا المخلوق ، أو من مقتضيات حياته فى الأرض ؛ وما يجعلهم يعرفون أو يتوقعون أنه سيفسد فى الأرض ، وأنه سيسفك الدماء . . ثم هم — بفطرة الملائكة البريئة التى لا تتصور إلا الخير المطلق ، وإلا السلام الشامل — يرون التسبيح بحمد الله والتقديس له ، هو وحده الغاية المطلقة للوجود ، وهو العلة الأولى للخلق . . وهو متحقق بوجودهم هم ، يسبحون بحمد الله ويقدسون له ، ويعبدونه ولا يفترون عن عبادته !

لقد خفيت عليهم أهداف الإرادة العليا ، فى بناء هذه الأرض وعمارتها ، وفى تنمية الحياة وتركيبها وتنويعها ، وفى تحقيق مشيئة الخالق وناموس الوجود فى تطورها ورقيها وتعديلها ،

---

(١) عالج الأستاذ عبد المنعم خلاف هذا المعنى على نطاق واسع وناجح فى كتابه : « أومن بالإنسان » .

على يد خليفة الله فى أرضه . هذا الذى قد يفسد أحياناً ، وقد يسفك الدماء أحياناً ، ليتم من وراء هذا الشر الجزئى الظاهر خير أكبر وأشمل . خير النمو الدائم والرقى الدائم . خير الحركة الهادمة البانية . خير المحاولة التى لاتكف ، والتطلع الذى لا يقف . عندئذ جاءهم الرد من العليم بمصائر الأمور :

« قال : إنى أعلم مالا تعلمون » .

« وعلم آدم الأسماء كلها ، ثم عرضهم على الملائكة ، فقال : أنبئونى بأسماء هؤلاء . إن كنتم صادقين . قالوا : سبحانك ! لاعلم لنا إلا ما علمتنا . إنك أنت العليم الحكيم . قال : يا آدم أنبئهم بأسمائهم . فلما أنبأهم بأسمائهم قال : ألم أقل لكم : إنى أعلم غيب السماوات والأرض ، وأعلم ماتبدون وما كنتم تكتمون » ؟

هانحن أولاء نشهد — بعين الخيال ، وباستشراف البصيرة — ماشهده الملائكة فى الملأ الأعلى . نشهد طرفا من ذلك السر الإلهى الأعظم الذى أودعه الله خليفته فى أرضه . سر المعرفة . سر هذا المخلوق الذى يواجه به مجاهيل الطبيعة ، ومجاهيل الحياة . السر الذى يفتح له المغاليق ، وينير له الطريق . . إنه سر خلقه ، وسر خلافته ، وسر نموه وارتقائه . إنه سر تكريمه على الملائكة ، الذين يسبحون لله ويقدسونه ، ولا يفترون لحظة عن عبادته .

« وإذ قلنا للملائكة : اسجدوا لآدم . فسجدوا »

إنه التكريم فى أعلى صورة من صوره ، لهذا المخلوق الذى يفسد فى الأرض ويسفك الدماء ولكنه وهب ذلك السر العظيم . سر القدرة على المحاولة والمعرفة . إن ازدواج طبيعته والسر الإلهى الكامن فى كيانه . إن قدرته على أن يغالب دوافع التدمير والفساد ، وأن يغلب عليها دوافع التعمير والصلاح . إن هذه الإرادة التى تجعله يختار طريقه ويوجه حياته . . إن هذه الخصائص كلها هى سر هذا التكريم الإلهى العظيم . ولقد سجد الملائكة امتثالا للأمر الكريم .

« إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين »

وهنا تتبدى خليقة الشر مجسمة : عصيان الخالق سبحانه ؛ والاستكبار عن معرفة الفضل لأهله ؛ والعزة بالإثم ، والاستغلاق عن الفهم . . وهنا كذلك ينكشف ميدان المعركة الخالدة ، بين خليقة الشر فى إبليس ، وخليفة الله فى الأرض . المعركة الخالدة فى ضمير الإنسان . المعركة التى ينتصر فيها الخير بمقدار مايستعصم الإنسان بإرادته ، وينتصر فيها الشر بمقدار مايستسلم الإنسان لشهوته :

« وقلنا : يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ، وكلا منها رغداً حيث شئتما ، ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين » .

لقد أبيحت لهم كل ثمار الجنة وكل متاعها . إلا شجرة واحدة . شجرة واحـدة ترمز إلى المحظور الذى لا بد منه فى حياة البشر . فبغير محظور لا تنبت الإرادة . ولا يتميز الإنسان المريد من الحيوان المسوق . فالإرادة هى مفرق الطريق . والذين يستمتعون بلا إرادة هم من عالم البهيمة ، ولو كانوا من جنس الإنسان .

« فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه » .

ويا للتعبير المصور المعبر : « أزلهما » إنه لفظ يحمل صورة الحركة التى يعبر عنها . وإنك لتكاد تلمحه يزحزحهما عن الجنة ، ويدفع بأقدامهما فتهوى . .

عندئذ حقت كلمة الله ، وصرح قضاؤه :

« وقلنا : اهبطوا بعضكم لبعض عدو ، ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين »

ونهض آدم من عثرته ، بما ركب الله فى فطرته ؛ وأدركته رحمة الله التى تدركه دائماً عند ما يثوب إليها ويلوذ بها :

« فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه . إنه هو التواب الرحيم »

وتمت كلمة الله الأخيرة !

« قلنا : اهبطوا منها جميعاً . فإما يأتينكم منى هدى : فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ؛ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون »

وانتقلت المعركة الخالدة إلى ميدانها الأصيل ؛ وانطلقت من عقالها ما تهدأ لحظة وما تفتر وما تلين !

* * *

وبعد فلا بد من عودة إلى مطالع هذه القصة . قصة البشرية الأولى .

لقد قال الله تعالى لملائكته : «إنى جاعل فى الأرض خليفة» .. وإذن فآدم خلق للأرض منذ اللحظة الأولى . ففيم إذن كانت تلك الشجرة المحرمة ؟ وفيم إذن كان بلاء آدم ؟ وفيم إذن كان الهبوط إلى الأرض فى النهاية ، وهو مخلوق لهذه الأرض منذ اللحظة الأولى ؟

لعلنى ألمح أن هذه التجربة كانت تربية لهذا الخليفة وإعداداً . كانت إيقاظاً للقوى المذخورة فى كيانه . كانت تدريباً له على تلقى الغواية ، وتذوق العاقبة ، وتجرع الندامة ، والالتجاء بعد ذلك لرحمة الله التواب .

إن قصة الشجرة المحرمة ، ووسوسة الشيطان باللذة،ونسيان العهد بالمعصية ، والصحوة من بعد السكرة ، والندم وطلب المغفرة .. إنها قصة البشرية الدائمة المكرورة .

لقد شاءت رحمة الخالق بهذا المخلوق أن يهبط إلى مقر خلافته ، مزودا بهذه التجربة ، استعداداً للمعركة الخالدة فى أرضها وموطنها !

وبعد . مرة أخرى . فهل هى قصة واقعية ذات أحداث وشخوص ؟ ومن هو آدم المعنى فى القصة ؟ وما الجنة التى عاش فيها فترة ؟ ومن هم الملائكة ؟ ومن هو إبليس ؟ .. كيف قال الله تعالى لهم وكيف أجابوه ؟ أين كان هذا الحوار ومتى كان ؟ ما الأسماء التى علمها الله لآدم ولم تكن تعلمها الملائكة ؟

هذا وأمثاله فى القرآن الكريم مما لم يرد فيه تحديد ولا توقيت .. كله غيب من الغيب الذى لا يملك العقل البشرى وسيلة إلى الجزم فيه .

وإذا كان هذا العقل بوسائله المحدودة لايدرك مثل هذا الغيب . فليس سبيله إذن أن يتبجح وينكر . فالإنكار حكم يحتاج إلى المعرفة . والمعرفة هنا ليست من طبيعة العقل المحدود الوسائل والآماد .

إن الاستسلام للوهم والخرافة شديد الضرر والخطورة . ولكن أضر منه وأخطر التنكر للمجهول كله وإنكاره ، ذلك أنه تنكر للبديهة العقلية الأولى : أن العقل البشرى جزئى وأحكامه نسبية ، وأن المعرفة المطلقة بالقياس إليه مستحيلة .

فلنأخذ من القصة إذن ما تشير إليه من حقائق كونية وإنسانية ، ومن مبادىء ومثل ، ومن توجيهات فى السلوك والعقيدة .. فذلك وحده أنفع للبشرية وأهدى .

« يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ، وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ، وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ * وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ ، وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ ؛ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ، وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ * وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ ، وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ * وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ، وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ .

« أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ ؟ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ؟

« وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ . وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ . الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ ، وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ .

« يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ، وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا ، وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ ، وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ ، وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ .

« وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ، يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ ، وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ . وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ .

« وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ ، وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ .

« وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ؛ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ * ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ : يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ ، فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ ، فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ . ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ ، فَتَابَ عَلَيْكُمْ ، إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ .

« وَإِذْ قُلْتُمْ : يَا مُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً ، فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ * ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ ، وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ . كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ . وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ .

« وَإِذْ قُلْنَا : ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ ، فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا ، وَادْخُلُوا

ٱلْبَابَ سُجَّداً ، وَقُولُوا : حِطَّةٌ . نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ، وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ * فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ ، فَأَنْزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِنَ ٱلسَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ .

« وَإِذِ ٱسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ ، فَقُلْنَا : ٱضْرِبْ بِعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ، فَٱنْفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً . قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ . كُلُوا وَٱشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ ٱللهِ ، وَلَا تَعْثَوْا فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ .

« وَإِذْ قُلْتُمْ : يَامُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ ، فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا . قَالَ : أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَى بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ؟ ٱهْبِطُوا مِصْراً فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ ! وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ ، وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ ٱللهِ . ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ ٱللهِ ، وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّينَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ . ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ .

« إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَٱلَّذِينَ هَادُوا وَٱلنَّصَارَى وَٱلصَّابِئِينَ . . مَنْ آمَنَ بِٱللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا . . فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ، وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ .

« وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ . خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ ، وَٱذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ . ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ ، فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ .

« وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ ، فَقُلْنَا لَهُمْ : كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ * فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ » .

لقد مضى السياق بقصة استخلاف آدم فى الأرض ، وتكريمه على الملائكة ، والعهد إليه والنسيان ، والتوبة عليه والمغفرة ، وتزويده بالتجربة الأولى فى الصراع الأبدى فى الأرض ، بين قوى الشر والفساد والهدم ممثلة فى إبليس ، وقوى الخير والصلاح والبناء ممثلة فى الإنسان . مالم ينس عهد الله إليه ويستسلم للشيطان .

مضى السياق بهذا كله فى السورة . . ولما كان الإسلام يواجه فى المدينة ـ وهذه السورة مدنية ـ بنى إسرائيل ؛ وكانوا أهل كتاب ؛ وقد تفضل الله عليهم بنعم كثيرة ، يتجلى فيها تكريم الله لهم ، وللإنسان ممثلا فيهم . . وكانوا هم بعد ذلك نموذجاً للكفر بنعمة الله ، ونموذجاً لاتباع الشيطان والحيدة عن الهدى . فى ماضيهم مع أنبيائهم ، وفى حاضرهم مع النبى الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل ، مبشراً برسالته التى تصدق ما بين أيديهم من الكتاب وتكمله وتضعه فى قالبه الأخير . . لما كان الأمر كذلك جرى السياق هنا بتذكير بنى إسرائيل بنعم الله عليهم ، وتذكيرهم فى الوقت ذاته بمواقفهم من تلك النعم . . وكانت هنالك صلة خفية بين استعراض تكريم آدم وتكريم بنى إسرائيل ؛ وبين استسلامهم للشيطان بعد أن أخذ الله عليهم الميثاق وتجربة أبى البشر الأولى واستهواء الشيطان . .

فلنعش لحظات فى ظلال قصة النعمة وكفرانها ممثلة فى تاريخ بنى إسرائيل ، كما يستعرضها السياق هنا فى هذه السورة .

* * *

إن القرآن لا يعرض هنا قصة بنى إسرائيل . إنما هو يشير إليها باختصار . يشير إلى النعم التى وهبها الله لهم واحدة واحدة ـ لا على سبيل الاستقصاء ـ ويعقب بموقفهم من هذه النعمة ، وبعاقبة هذا الموقف فى كل مرة . أما القصة ذاتهـا فهى مذكورة فى سور أخرى ، متفقة هنالك مع السياق الذى تعرض فيه . . وهى هنا كذلك متفقة مع السياق قبلها ، سياق تكريم الإنسان والعهد إليه والنسيان . . متضمنة إشارات إلى وحدة الإنسانية ، ووحدة دين الله إليها ، ووحدة رسالاته ؛ مع لفتات ولمسات للنفس البشرية ومقوّماتها ، وإلى عواقب انحرافها عن

هذه المقوّمات ، التى نيطت بها خلافة الإنسان فى الأرض . فمن كفر بها فقد كفر بإنسانيته وفقد أسباب خلافته ، وارتكس فى عالم الحيوان .

***

« يابنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم ، وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم وإياى فارهبون . وآمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ، ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلا ، وإياى فاتقون . ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون . وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين »

أى عهد هذا الذى يشار إليه هنا ، ويطلب إلى بنى إسرائيل الوفاء به ؟ آلعهد الأول . عهد الله لآدم أبى البشر : ألا يستسلم للشيطان ، وألا ينسى أمر الديان ؟ أم هو العهد الكونى المعقود بين فطرة البشر وبارئها : العهد الذى لا يحتاج إلى بيان ولا يحتاج إلى برهان ، لأن وجود الإنسان ذاته ، متسقة فطرته مع فطرة الكون الذى يعيش فيه ، خاضعاً من داخله لذات الناموس الذى يخضع له الكون كله . . هو بيانه وهو برهانه . ولن يزيغ عنه إلا من انحرفت فطرته . فضلت عن الناموس الكونى الذى يسير الإنسان ويسير الكون وفق مقتضاه ؟ أم هو العهد الذى قطعه الله على بنى إسرائيل وقد رفع فوقهم الطور ؛ وأمرهم أن يأخذوا عهدهم بقوة ، والذى سيأتى ذكره فى هذا السياق ؟

إن هذه العهود جميعها إن هى إلا عهد واحد فى صميمها . إنه العهد بين البارىء وعباده أن يصغوا قلوبهم إليه ؛ وأن يسلموا أنفسهم بكاملها له . وذلك هو الدين الواحد . وذلك هو الإسلام الذى لن يرضى الله من بشر سواه .

ووفاء بهذا العهد يأمر الله بنى إسرائيل هنا أن يؤمنوا بما أنزله على رسوله مصدقاً لما معهم ، وألا يسارعوا إلى الكفر به ، فيصبحوا أول الكافرين ، وكان ينبغى أن يكونوا أول المؤمنين . فما الإسلام الذى جاء به محمد — صلى الله عليه وسلم — إلا الدين الواحد الخالد ، جاء به فى صورته الأخيرة ؛ وهو امتداد لرسالة الله ولعهد الله منذ البشرية الأولى ؛ يضم جناحيه على

مامضى ؛ ويأخذ بيد البشرية فيما سيأتى ؛ ويوحد بين « العهد القديم[١] » و « العهد الجديد[٢] » والعهد الأخير[٣] ؛ كما يوحد بين البشرية كلها فى أجيالها جميعا ، وفى أهدافها جميعا ، ويجمع بين البشر إخوة متعارفين ، يلتقون على عهد الله ودين الله ، ولا يتفرقون شيعاً وأحزابا ، ولكن عباداً لله ، مستمسكين جميعاً بعهده الذى لا يتبدل منذ فجر الحياة .

ولقد كان اليهود من بنى إسرائيل هم الذين يجاورون الإسلام فى المدينة . وقد كان أحبارهم ورهبانهم فى ذلك الحين هم الحفظة على ما بين أيديهم من الكتاب ، ما شاءوا أطلعوا الناس عليه وما شاءوا كتموه . وكانوا يحرفون الكلم عن مواضعه ؛ ويلبسون الحق بالباطل فيخلطونه ويزوّرونه . . كل هذا ليشتروا به ثمناً قليلا — والثمن والمال شنشنة يهود من قديم — فنهاهم عن هذا كله ؛ وأمرهم بتقوى الله ورهبته ؛ وذكرهم بعهد الله ونعمته . . وتوحيداً للدين كله ، ودخولا فى الإسلام فى صورته الأخيرة ، جاء الأمر إليهم هنا بأن يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ويركعوا مع الراكعين . . توحيداً لهيئة العبادة ، بعد النص على وحدة العهد ووحدة الرسالة .

ثم . . سؤال استنكارى لحالة أولئك الأحبار والرهبان :

« أتامرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب ؟ أفلا تعقلون ؟ »

فهم بحكم قيامهم على الدين ، كانوا يقومون بالوعظ والإرشاد ، والدعوة إلى الدين . وهم فى الوقت ذاته يصدون عن الإسلام ، ويلبسون الحق بالباطل ؛ ويكتمون الحق الذى يعرفونه بحكم معرفتهم لما عندهم من دين الله . . وتلك آفة رجال الدين فى معظم العصور . . إنهم يتخذون الدين حرفة ؛ ويقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم ؛ ويحرفون الكلم عن مواضعه ؛ ويؤولون النصوص خدمة لأغراضهم أو أغراض ذوى السلطان ؛ ويجدون « فتاوى » تتفق فى ظاهرها مع النصوص ، وتختلف فى حقيقتها عن حقيقة الدين ، يبررون بها الأخطاء والخطايا ، وينالون بها ثمناً مهما عظم فهو قليل بجانب الأمانة التى فى أعناقهم ، والعهد الذى أخذه الله عليهم ، ليبيننّ هذا الدين ولا يكتمونه .

والدعوة إلى البر والمخالفة عنه فى سلوك الداعين إليه ، هى الآفة التى تصيب النفوس بالشك ، لا فى الدعاة وحدهم ولكن فى الدعوات . وهى التى تبلبل قلوب الناس وأفكارهم ، لأنهم

(١) كتاب موسى (٢) كتاب عيسى (٣) القرآن الكريم .

يسمعون قولا جميلا ، ويشهدون فعلا قبيحاً ؛ فتتملكهم الحيرة بين القول والفعل ؛ وتخبو فى أرواحهم الشعلة التى توقدها العقيدة ؛ وينطفىء فى قلوبهم النور الذى يشعه الإيمان ؛ ولا يعودون يثقون فى الدين بعد ما فقدوا ثقتهم برجال الدين .

إن الكلمة لتنبعث ميتة ، وتصل هامدة ، مهما تكن طنانة رنانة متحمسة ، إذا هى لم تنبعث من قلب يؤمن بها . ولن يؤمن إنسان بما يقول حقاً إلا أن يستحيل هو ترجمة حية لما يقول ، وتجسيماً واقعياً لما ينطق . . عندئذ يؤمن الناس ، ويثق الناس ؛ ولو لم يكن فى تلك الكلمة طنين ولا بريق .. إنها حينئذ تستمد قوتها من واقعها لا من رنينها ؛ وتستمد جمالها من بساطتها لا من بريقها . . إنها تستحيل يومئذ دفعة حياة لأنها منبثقة من حياة .

والمطابقة بين القول والفعل ، وبين العقيدة والسلوك ، ليست مع هذا أمراً هيناً ، ولا طريقاً معبداً . إنها فى حاجة إلى رياضة وجهد ومحاولة ، وإلى صلة بالله ، واستمداد منه ، واستعانة بهديه ؛ فملابسات الحياة وضروراتها واضطراراتها كثيراً ما تنأى بالفرد فى واقعه عما يعتقده فى ضميره أو عما يدعو غيره إليه . والفرد الفانى مالم يتصل بالقوة الخالدة ضعيف مهما كانت قوته ، لأن قوى الشر والطغيان والإغواء أكبر منه ؛ وقد يغالبها مرة ومرة ومرة ، ولكن لحظة ضعف تنتابه فيتخاذل ويتهاوى ؛ ويخسر ماضيه وحاضره ومستقبله ؛ فأما وهو يركن إلى قوة الأزل والأبد فهو قوى قوى ، أقوى من كل قوى . قوى على شهوته وضعفه . قوى على ضروراته واضطراراته . قوى على ذوى القوة الذين يواجهونه . . ومن هنا تلك الدعوة الموحية :

« واستعينوا بالصبر والصلاة . وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين : الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم وأنهم إليه راجعون » .

والاستعانة بالصبر مفهومة ومألوفة . فما الاستعانة بالصلاة ؟

إن الصلاة صلة ولقاء بين القلب والرب . صلة يستمد منها القلب قوة . وتحس فيها الروح صلة . ويستهين فيها الفرد بقوى الأرض وهو على اتصال بقوة الأزل والأبد . وقد كان الرسول — صلى الله عليه وسلم — إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة . وهو الوثيق الصلة بالله ، الموصول القلب والروح بالإلهام . وما يزال هذا الينبوع الدافق فى متناول كل مؤمن ، يستقى منه حينما يشاء . ويستعين به على رحلة الحياة وما فيها من جهد ، وما فى تكاليفها من عناء .

ثم نقف أمام التعبير : « يظنون أنهم ملاقو ربهم » . إنه تعبير يلفت النظر . فلم لم يقل :

يوقنون . وهم يوقنون ؟ أحسب أنه يراد أن يقال : إن أدنى العلم بلقاء الله كفيل بأن يترك فى النفس آثاره . كفيل بأن يهب الروح قوة وطمأنينة . كفيل بأن تخشع له القلوب وتلين له النفوس . إنه سمة من سمات « المتقين : الذين يؤمنون بالغيب » الذين تفتحت أرواحهم للنور ، واتصلت من وراء الحجب بالنبع ، واستيقظت فطرتهم للعهد الكونى الكامن فى ضمير الوجود .

***

ومن ثم رجعة إلى بنى إسرائيل لتذكيرهم بالنعمة والتفضيل ، قبل الإشارات إلى مواضع هذه النعمة على وجه التفصيل :

« يابنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأنى فضلتكم على العالمين » .

فضلتكم بما آثرتكم به من شتى النعم ، ومن عفوى عنكم وغفرانى لكم بعد كفرانكم لكل نعمة ، حتى استوفيتم حظكم من الإنعام وحظكم من التفضيل ؛ ثم انتهيتم إلى العصيان الذى أسلمكم إلى غضب الله الذى قرره السياق فى هذه الآيات . ثم هاهى ذى الفرصة تتاح لكم للمرة الأخيرة بين يدى الإسلام ، فمن شاء انتهز الفرصة المتاحة ، ومن شاء استمر فى ضلاله القديم .

وقبل أن يخلص من هذا إلى بيان تلك النعم وتفصيلها يحذرهم يوم الحساب الأخير ، ويقرر ذلك المبدأ الإسلامى العظيم . مبدأ التبعة الفردية والعدل المطلق ، ويشير إلى الفرصة الأخيرة التى لن تتاح بعد ذلك ولن تعود . . والتبعة الفردية فرع عن تكريم الإنسان . الإنسان . الذى وهب المعرفة . ووهب الإرادة ، فحقت عليه التبعة ؛ والذى منح الفرصة ليذهب بنفسه إلى المصير الذى يريد :

« واتقوا يوماً لا تجزى نفس عن نفس شيئاً ، ولا يقبل منها شفاعة ، ولا يؤخذ منها عدل (١) ولا هم ينصرون »

ثم يمضى السياق يعدد آلاء الله على بنى إسرائيل :

« وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب . . . » . . « وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون » . . « وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة . . . » . . وإذ .. وإذ . .

---

(١) عوض معادل .

وماذا كان الرد على إنعام الله وتفضيله ؟

اتخاذ العجل للعبادة بمجرد غيبة موسى لتلقى الألواح . ونسيان العهد والانحدار إلى عبادة العجل .

ولم يكن بد حينئذ من التطهير القاسى . فتلك الطبيعة المنهارة الخاوية لا تقوّمها إلا عقوبة قاسية ، وتأديب عنيف . عنيف فى طريقته وفى حقيقته :

« وإذ قال موسى لقومه : ياقوم : إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل ، فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم . ذلكم خير لكم عند بارئكم . فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم » .

اقتلوا أنفسكم . ليقتل بعضكم بعضا . ليقتل البرىء منكم المذنب ، ليطهره ويطهر نفسه . وإنه لتكليف مرهق أن يقتل الإنسان أخاه فكأنما يقتل نفسه برضاه . ولكنه كذلك تربية لتلك الطبيعة المنهارة الخوارة ، التى لا تماسك عن شر ولا تتناهى عن نكر . ولو تناهوا عن المنكر فى غيبة موسى ما عبدوا عجل الذهب . وإذ لم يتناهوا باللسان فليتناهوا بالحسام !

وهنا تدركهم رحمة الله بعد التطهير : « فتاب عليكم . إنه هو التواب الرحيم » .

إلا أن بنى إسرائيل هم بنو إسرائيل ؛ إنهم هم غلظ حس ومادية فكر ، واحتجابا عن مسارب الإيمان بالغيب . إنهم يطلبون رؤية الله جهرة . وإلا فما هم بمؤمنين :

« وإذ قلتم : يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة » !

فالحس المادى الغليظ هو وحده طريقهم إلى المعرفة ، والآيات العقلية ، والنعم الإلهية ، والتوبة والمغفرة .. كلها لا تغير من تلك الطبيعة الجاسية ، التى لا تؤمن إلا بالمحسوس ، ولا تخضع إلا للعذاب العنيف :

« فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون » .

ومرة أخرى تدركهم رحمة الله ، وتوهب لهم الفرصة للنجاة :

« ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون » .

ولكنهم لم يشكروا ، ولم يعرفوا حق النعمة ، ولم تتفتح قلوبهم للطاعة ، ولم تستقم فطرتهم على الهدى ..

« وإذ قلنا : ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغدا ، وادخلوا الباب سجدا ، وقولوا حطة ، نغفر لكم خطاياكم . وسنزيد المحسنين » .

لقد أمروا أن يدخلوا « هذه القرية » ولم يرد اسمها فى هذا الموضع ، لأنه ليس المقصود

هنا تفصيل الحوادث ، إنما المقصود هو الإشارة فقط إلى مواقف معينة فى حياة بنى إسرائيل . لذلك نتركها نحن مجهلة كما وردت فى هذا السياق ، ولا نفصح عنها إلا حيث يفصح عنها القرآن فى مواضع الإفصاح . المهم أنهم لم يستمعوا للأمر ، ولم يستقيموا على الهدى . لقد قيل لهم : « ادخلوا الباب سجدا وقولوا : حطة» دعوة لله أن يحط عنهم أوزارهم ، وأن يعفو عنهم ويغفر لهم.وقد وعدوا المغفرة لو أطاعوا ، ولكن التواء الطبع نأى بهم عن استقامة القول والفعل .

« فبدل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم ، فأنزلنا على الذين ظلموا رجزا (١) من السماء بما كانوا يفسقون »

ولا نعرف نحن ماذا قالوا ، فلا نضرب مع المفسرين فى هذا المجال ، الذى لم يفصل فيه القرآن ، إنما نمضى مع السياق فى الاستعراض .

« وإذ استسقى موسى لقومه ، فقلنا : اضرب بعصاك الحجر ، فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا : قد علم كل أناس مشربهم . كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين » .

لقد استسقى موسى لقومه ، وهم بين الصحراء بصخورها والسماء برجومها . فاما الحجر فقد أنبع لهم منه الماء فى جوف الصحراء « اثنتا عشرة عينا » بعدة أسباط بنى إسرائيل « قد علم كل أناس مشربهم » (٢) وأما السماء فأمدتهم بغذاء المن والسلوى . عسلا وطيرا: «كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا (٣) فى الأرض مفسدين » .

ولكن البنية النفسية المفككة ، والجبلة الهابطة المتداعية ، تأبى على القوم أن يرتفعوا إلى مستوى الغاية التى من أجلها خرجوا من مصر ، ومن أجلها ضربوا فى الصحراء.لقد أخرجهم موسى من الذل والهوان ، ليورثهم الله الأرض المقدسة ، وليرفعهم من المهانة والضعة . وللحرية ثمن ، وللعزة تكاليف . ولكنهم لا يريدون أن ينهضوا بهذه التكاليف ، ولا يريدون أن يؤدوا ذلك الثمن . حتى بأن يتركوا مألوف حياتهم الهينة الرتيبة . حتى بأن يغيروا مألوف طعامهم وشرابهم ، وأن يكيفوا أنفسهم بظروف حياتهم الجديدة ، فى طريقهم إلى العزة والمجد والكرامة . إنهم يريدون الأطعمة المنوعة التى ألفوها فى مصر ، يريدون العدس والثوم والبصل والقثاء وما إليها :

---

(١) عذابا (٢) مكان شربهم (٣) تعتدوا .

« وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد،فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها » !

ولم يتمالك موسى نفسه من العجب والاستنكار :

« قال أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير ؟ اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم ! »

أتريدون الدنية وقد أراد الله لكم العلية ؟

عودوا إلى مصر . عودوا إلى حياتكم الدارجة المألوفة . عودوا إلى الذل والمهانة . عودوا إلى حيث تستحق نحيزتكم الذليلة :

« وضربت عليهم الذلة والمسكنة » جزاء وفاقا ، لأنهم لا يطيقون الاستعلاء — فى سبيل فكرة وكرامة — على لذة وعادة .

« وباءوا بغضب من الله » . . جزاء وفاقاً على جحود النعمة ونسيان العهد ، والفسوق عن أمر الله ، والتمادى بعد ذلك فى الكفر والمعصية ، حتى ليقتلون أنبياءهم بغير الحق ، ويعتدون على حرمات الله بلا تحرج :

« ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ، ويقتلون النبيين بغير الحق ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » .

وهنا يقرر السياق قاعدة من القواعد الكلية التى تتخلل القصص فى القرآن أو تسبقه أو تتلوه ، لأن القصص يرشح لها أو يسوق إليها أو يؤيدها . يقرر قاعدة وحدة الإيمان ، ووحدة العقيدة ، مهما تعددت الأسماء والسمات ، متى انتهت إلى إسلام النفس كلها لله ، إيمانا ينبثق عنه العمل الصالح فى الحياة :

« إن الذين آمنوا ، والذين هادوا والنصارى ، والصابئين (١) من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا . فلهم أجرهم عند ربهم ، ولا خوف عليهم ولاهم يحزنون »

ثم يعود إلى الميدان الأصيل لاستعراض مواقف بنى إسرائيل :

« وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور : خذوا ما آتيناكم بقوة ، واذكروا ما فيه لعلكم تتقون » . .

خذوا ما آتيناكم بقوة . . ليتم التناسق فى المشهد بين قوة رفع الصخرة وقوة أخذ العهد .

---

(١) عبدة النجوم .

ثم بين رفع الصخرة فى الفضاء ، ورفع الجباه الذليلة إلى سماء الاستعلاء . ذلك التناسق الفنى الذى تأخذ لمساته الساحرة بالألباب .

ولكن هيهات ! لقد أدركت إسرائيل نحيزتها ، وغلبت عليها طبيعتها :

« ثم توليتم من بعد ذلك ، فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين » .

ومرة أخرى يستعرض السياق مظهرا من مظاهر النكسة والارتكاس فى حياة هؤلاء الناس . مظاهر التحلل من العهد ، والعجز عن الاستمساك به ، والضعف عن احتمال تكاليفه ، والسير مع الهوى أو المنفعة القريبة ، التى لا تكلف جهداً ، ولا ترتفع عن مهابط الشهوات .

« ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم فى السبت فقلنا لهم : كونوا قردة خاسئين » .

إنهم جماعة لم يراعوا حرمة هذا اليوم المقدس عند بنى إسرائيل ، بمجرد أن عرضت لهم منفعة قريبة خافوا عليها الفوات . . عندئذ حق عليهم جزاء النكول عن التكليف . فانتكسوا إلى عالم الحيوان الذى لا إرادة له ، فلا تكليف عليه ؛ بمجرد تخليهم عن المزية الأولى التى تجعل من الإنسان إنسانا . مزية الإرادة المستعلية على الضرورة :

« فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين » . .

وليس من الضرورى أن يستحيلوا قردة بأجسامهم ، فقد استحالوا إليها بأرواحهم وأفكارهم . ذلك فضلا على ما تثبته المشاهدات من أن طريقة التفكير والشعور ، تؤثر فى السحنة ، وتلون الملامح .

« فجعلناها نكالا (١) لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين »

جعلنا هذه الحادثة عبرة رادعة للمخالفين، وموعظة نافعة للمتقين . فالمتقون هم الذين يدركون الموعظة وينتفعون بها ويؤمنون .

« وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ : إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً . قَالُوا : أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ؟ قَالَ : أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ * قَالُوا : ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَاهِيَ ؟ قَالَ : إِنَّهُ يَقُولُ : إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ ، عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ ، فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ * قَالُوا : ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا . قَالَ : إِنَّهُ يَقُولُ : إِنَّهَا

---

(١) عبرة رادعة

بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ * قَالُوا : ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ ، إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ * قَالَ : إِنَّهُ يَقُولُ : إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ ، مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا .. قَالُوا : الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ . فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ .

« وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ، وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ * فَقُلْنَا : اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا . كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ ، وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ .

« ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ ، فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً . وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ ، وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ، وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ . وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ » .

تأتى هذه القصة القصيرة فى معرض تذكير بنى إسرائيل بما كان منهم من انحراف وفسوق عن سبيل الله ، ومن إعراض عن الآيات بعد وضوحها وجلائها وقوة دلالتها ، ومن التواء ومماطلة عن استماع صوت الحق ، وإطاعة كلمة الله ورسوله .

وفى هذه القصة القصيرة مجال للحديث فى جوانب شتى . . جانب دلالتها على طبيعة بنى إسرائيل التى عرض السياق من قبل صورا منها ، وجانب دلالتها على قدرة الخالق ، وحقيقة البعث ، وطبيعة الموت والحياة . ثم الجانب الفنى فى عرض القصة بدءا ونهاية واتساقا مع هذا السياق .

فلنحاول أن نكشف عن شىء من هذه الجوانب فى تلك القصة القصيرة .

***

إن السمات الرئيسية لطبيعة بنى إسرائيل تبدو واضحة فى قصة البقرة : انقطاع الصلة بين قلوبهم وذلك النبع الشفيف الرقراق . نبع الإيمان بالغيب ، والثقة بالله ، والاستعداد لتصديق ما يأتيهم به الرسل من عند الله ؛ ثم التلكؤ فى الاستجابة للتكاليف ، وتلمس الحجج والمعاذير ، والسخرية المنبعثة من صفاقة القلب وسلاطة اللسان !

لقد قال لهم نبيهم : « إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة » وكان هذا القول بهذه الصيغة يكفي للطاعة والتنفيذ ؛ فنبيهم هو زعيمهم الذى أنقذهم من العذاب المهين ، برحمة من الله ورعاية وتعليم . وهو ينبئهم أن هذا ليس أمره وليس رأيه . إنما هو أمر الله الذى يسير بهم على هداه . . فماذا كان الجواب ؟ لقد كان جوابهم سفاهة وسوء أدب ، واتهاما لنبيهم بأنه يهزأ بهم ويسخر ، كأنما يجوز لإنسان يعرف الله ـ فضلا على أن يكون رسول الله ـ أن يتخذ اسم الله وأمره مادة مزاح وفكاهة بين الناس . « قالوا : أتتخذنا هزوا ؟ » . . وكان رد موسى على هذه السفاهة أن يستعيذ بالله ؛ وأن يردهم برفق ، وعن طريق التعريض والتلميح ، إلى جادة الأدب الواجب فى جانب الخالق جل علاه ؛ وأن يبين لهم أن ما ظنوه به لا يليق إلا بجاهل بقدر الله ، لا يعرف ذلك الأدب ولا يتوخاه : « قال : أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين » .

وكان فى هذا التوجيه كفاية ليثوبوا إلى أنفسهم ، وليرجعوا إلى ربهم ، وينفذوا أمر نبيهم . . ولكنهم من إسرائيل ، وإسرائيل تلك سماتها فيما تقدم من السياق !

نعم ! لقد كان فى وسعهم ـ وهم فى سعة من الأمر ـ أن يمدوا أيديهم إلى أية بقرة فيذبحوها ؛ فإذاهم مطيعون لأمر الله ، منفذون لإشارة رسوله . ولكن طبيعة بنى إسرائيل المتلكئة الملتوية تدركهم ، فإذا هم يسألون : « قالوا : ادع لنا ربك يبين لنا ما هى ؟ » والسؤال بهذه الصيغة يشى بأنهم ما يزالون فى شكهم أن يكون موسى جاداً فيما أنهى إليهم ! فهم أولاً : يقولون : « ادع لنا ربك » فكأنما هو رب موسى وحده لا ربهم كذلك ! وكأن المسألة لا تعنيهم هم إنما تعنى موسى وربه ! وهم ثانياً . يطلبون منه أن يدعو ربه ليبين لهم « ماهى ؟ » والسؤال عن الماهية فى هذا المقام إنكار واستهزاء . ماهى ؟ إنها بقرة . وقد قال لهم هذا من أول الأمر . بقرة ما ، لاصفة لها ولا سمة . وليتهم سألوا عن الصفة والسمة ؛ ولكنهم يسألون عن الحقيقة والماهية !

هنا كذلك أراد موسى أن يردهم إلى الجادة ، بأن يسلك فى الإجابة طريقاً غير طريق السؤال . إنه لا يجيبهم عن الماهية وإلا كان ساخراً من نفسه وربه ، متابعاً لهم فى هذا الطريق المرذول . وهو كذلك لا يجبهم بانحرافهم فى صيغة السؤال ، كى لا يدخل معهم فى جدل شكلى خارج عن الموضوع . إنه يجيبهم كما ينبغى أن يجيب المعلم المهذب المربى من يبتليه الله بهم من السفهاء المنحرفين الزائغين . يجيبهم عن صفة هذه البقرة التى كان يجب أن يسألوا عنها . إذا كانوا لابد سائلين : « قال : إنها بقرة لافارض ولا بكر ، عوانٌ بين ذلك » إنها بقرة لاعجوز ولا شابة ، وسط بين هذا وذاك ، ثم يعقب على هذا البيان المجمل بنصيحة آمرة حازمة : « فافعلوا ما تؤمرون » .

ولقد كان فى هذا كفاية كذلك لمن يريد الكفاية . وكان حسبهم وقد ردهم نبيهم إلى الجادة مرتين ، ولمح لهم بالأدب الواجب فى السؤال والتلقى ، أن يعمدوا إلى أية بقرة من أبقارهم ، لا عجوز ولا صغيرة ، متوسطة السن بين هذا وذاك ، فيخلصوا بها ذمتهم ، وينفذوا بذبحها أمر ربهم ، ويعفوا أنفسهم من مشقة التعقيد والتضييق . . ولكن إسرائيل هى إسرائيل !

لقد راحوا يسألون : « قالوا : ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها » . . هكذا مرة أخرى : « ادع لنا ربك » ! ولم يكن بد ، وقد شققوا الموضوع وطلبوا التفصيل ، أن يأتيهم الجواب بالتفصيل : « قال : إنه يقول : إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين » .

وهكذا ضيقوا على أنفسهم دائرة الاختيار — وكانوا من الأمر فى سعة — فأصبحوا مكلفين أن يبحثوا لا عن بقرة ، مجرد بقرة ، بل عن بقرة متوسطة السن ، لا عجوز ولا صغيرة ، وهى بعد هذا صفراء ، لونها فاقع ، وهى بعد هذا وذلك ليست هزيلة ولا شوهاء ، بل « تسر الناظرين » وسرور الناظرين لا يتم إلا أن تقع أبصارهم على فراهة وحيوية ونشاط والتماع وامتلاء فى تلك البقره المطلوبة ، فهذا هو الشائع فى طباع الناس . أن يعجبوا بالحيوية والاستواء ويسروا ، وأن ينفروا من الهزال والتشويه ويشمئزوا .

ولقد كان فيما تلكأوا كفاية . ولكنهم يمضون فى طريقهم ، يعقدون الأمور ، ويشددون على أنفسهم ، فيشدد الله عليهم . لقد عادوا مرة أخرى يسألون عن الماهية : « قالوا : ادع لنا ربك يبين لنا ما هى » ويعتذرون عن هذا السؤال وعن ذلك التلكؤ بأن الأمر مشكل : « إن البقر تشابه علينا » : وكأنما استشعروا لجاجتهم هذه المرة ، فهم يقولون : « وإنا إن شاء الله لمهتدون » .

ولم يكن بد كذلك أن يزيد الأمر عليهم مشقة وتعقيدا ، وأن تزيد دائرة الاختيار المتاحة لهم حصرا وضيقا ، بإضافة أوصاف جديدة للبقرة المطلوبة ، كانوا فى سعة منها وفى غنى عنها : « قال : إنه يقول : إنها بقرة ، لا ذلول تثير الأرض ولا تسقى الحرث ، مسلمة لاشية فيها » .

وهكذا لم تعد بقرة متوسطة العمر صفراء فاقع لونها فحسب . بل لم يعد بد أن تكون كذلك بقرة غير مذللة ولا مدربة على حرث الأرض أو سقى الزرع ؛ وأن تكون كذلك خالصة اللون لا تشوبها علامة .

هنا فقط ، وبعد أن تعقد الأمر ، وتضاعفت الشروط ، وضاق مجال الاختيار : « قالوا : الآن جئت بالحق » الآن ! كأنما كان كل ما مضى ليس حقاً ، أو كأنهم لم يستيقنوا أن ما جاءهم به هو الحق إلا اللحظة : « فذبحوها وما كادوا يفعلون » !

عندئذ — وبعد تنفيذ الأوامر والنهوض بالتكليف — كشف الله لهم عن الغاية من أمره : « وإذ قتلتم نفساً فادارأتم فيها ، والله مخرج ما كنتم تكتمون ، فقلنا : اضربوه ببعضها . كذلك يحيي الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون » .

***

وهنا نصل إلى الجانب الثانى من جوانب القصة . جانب دلالتها على قدرة الخالق ، وحقيقة البعث ، وطبيعة الموت والحياة .

لقد كشف الله لبنى إسرائيل عن الحكمة من ذبح البقرة . لقد كانوا قد قتلوا نفساً منهم ؛ ثم جعل كل فريق يدرأ عن نفسه التهمة ويلحقها بسواه ؛ ولم يكن هناك شاهد ؛ فأراد الله أن يظهر الحق على لسان القتيل ذاته ؛ وكان ذبح البقرة وسيلة إلى إحيائه ، وذلك بضربه ببعض من تلك البقرة الذبيح . . وهكذا كان فعادت إليه الحياة ، ليخبر بنفسه عن قاتله ، وليجلو الريب والشكوك ، وليحق الحق ويبطل الباطل بأوثق البراهين .

ولكن فيم كانت هذه الوسيلة ؛ والله قادر على أن يحيي الموتى بلا وسيلة ؟ ثم ما مناسبة البقرة المذبوحة مع القتيل المبعوث ؟

إن البقر يذبح عادة ليكون قرباناً . . هكذا كانت عادة بنى إسرائيل . . وهكذا هى فى الحج لمن استطاع أن يجعل الهدى بقرة . .

هذا من ناحية الشكل . أما من ناحية الموضوع ؛ فإن بضعة من جسد ذبيح ترد الحياة إلى جسد قتيل . وما فى هذه البضعة حياة ولا قدرة على الإحياء . إنما هى مجرد وسيلة شكلية تكشف عن قدرة الله ، التى لا يدرى البشر كيف تعمل ؛ فهم يشاهدون آثارها ولا يدركون كنهها : « كذلك يحيي الله الموتى . » كذلك ! بمثل هذا الذى ترونه واقعاً ولا تدرون كيف وقع ؛ وبمثل هذا اليسر الذى لا مشقة فيه ولا عسر .

إن المسافة بين طبيعة الموت وطبيعة الحياة مسافة هائلة تدير الرؤوس . ولكنها فى حساب القدرة الإلهية شىء يسير . كيف ؟ هذا ما لا أحد يدريه ، وما لا يمكن لأحد أن يدركه . . فإدراك الماهية والكيفية هنا سر من أسرار الألوهية لا سبيل إليه فى عالم الفانين . وإن تكن دلالته فى طوق العقل البشرى إدراكها : « ويريكم آياته لعلكم تعقلون » .

* * *

وأخيراً نجىء إلى الجانب الفنى فى عرض القصة وأدائها . . والجمال الفنى لاينافى الصدق الواقعى كما يتوهم المتوهمون . إن الحقيقة يمكن عرضها عرضاً جميلا من ناحية الأداء . وهذا ما نعنيه بالجمال الفنى فى القصص القرآنى .

هذه قصة قصيرة نبدؤها ، فإذا نحن أمام مجهول لانعرف ماوراءه . أى أمام نوع من العقدة الفنية . نحن لا نعرف فى مبدأ القصة : لماذا يأمر الله بنى إسرائيل أن يذبحوا بقرة . ولعل بنى إسرائيل لم يكونوا كذلك يعرفون . وفى هذا كان اختبار مدى الطاعة والتلبية والاستجابة .

ثم تتابع الحوار فى القصة بين موسى وقومه،فلا نراه ينقطع ليثبت ما دار بين موسى وربه، على حين أنهم كانوا فى كل مرة يطلبون إليه أن يسأل ربه ، فيسأله ثم يعود إليهم بالجواب من عنده .. ولكن القصة لا تقول : إنه سأل ربه ولا إن ربه أجابه .. إن هذا السكوت هو اللائق بعظمة الله ، التى لا يجوز أن تكون فى طريق الحوار بين موسى وقومه الساخرين المستهزئين .

ثم ننتهى إلى الخاتمة حيث نفاجأ ـ كما لعل بنىإسرائيل قد فوجئوا ـ بتلك المباغتة الضخمة : انتفاض الميت مبعوثاً ناطقاً ، على ضربة من بعض جسد لبقرة بكماء ذبيح ، ليس فيه من حياة ولا مادة حياة !

ثم على مباغتة ربما كانت أغرب وأعجب .. إن هذه المعجزة التى تزلزل المشاعر ، وتهز القلوب ، لم تهز حجارة القلوب القاسية فى إسرائيل :

« ثم قست قلوبكم من بعد ذلك ، فهى كالحجارة أو أشد قسوة ... »

وهذه المباغتة الأخيرة تبدو مقصودة من سياق القصة كلها . لتصوير الطبيعة الإسرائيلية العجيبة ، التى لا تزيدها الآيات إلا جحوداً ، ولا تزيدها الاختبارات إلا صلادة .

وذكر الحجارة هنا ، والموازنة بينها وبين القلوب الصلدة : « وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار ، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء ، وإن منها لما يهبط من خشية الله . . . » يجيء كذلك ليؤدى غرضاً فنياً فى جو القصة وما يحيط به – إلى جانب الغرض الدينى الذى يؤديه – فلقد سبق الحديث عن الحجر الذى انفجرت منه اثنتا عشرة عينا ؛ وسبق الحديث عن الصخرة التى رفعت فوق بنى إسرائيل ؛ كما سبق وصف الجو الصحراوى الذى يعيشون فيه .. فالتشبيه بالحجارة تشبيه منتزع من البيئة ومن جو السياق العام ؛ وكأنما جاء ليكمل رسم المشهد المصاحب لعرض القصة ، وللمشاكلة بين الطبيعة التى يعيشون فيها من الظاهر ، والقلوب التى يعيشون بها من الباطن ، مع زيادة القسوة التى فى القلوب عن القسوة التى فى الصخور ! وذلك تحقيقاً لسمة التصوير الفنى ، السمة البارزة فى التعبير القرآنى ..

وهكذا يلتقى جمال التعبير بجمال التصوير ؛ ويتسقان مع سمو الأهداف فى ذلك الجو القرآنى العجيب ...

(حزب ٢)

« أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ ، وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ، ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ؟ * وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا : آمَنَّا ؛ وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا : أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ ؟ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ؟ * أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ؟

« وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ ، وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ * فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ، ثُمَّ يَقُولُونَ : هَٰذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا . فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ ، وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ .

« وَقَالُوا : لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً . قُلْ : أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ ؟ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ؟ * بَلَىٰ . مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ

بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ .

« وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ : لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ ، وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ ، وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ، وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ . ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ * وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ : لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ ، وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ، ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ * ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ ، وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ، وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ ، وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ . أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ؟ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ ، وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ، فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ .

« وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ، وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ ؛ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ ، وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ . أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ ، فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ . ؟

« وَقَالُوا : قُلُوبُنَا غُلْفٌ . بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ * وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ ، وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ! فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ * بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ، بَغْيًا ، أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ . فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ ، وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ .

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO
LIBRARY

« وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ : آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ . قَالُوا : نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا ؛ وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ . قُلْ : فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ؟ * وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ * وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ ، وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ : خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا ، قَالُوا : سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ! وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ. قُلْ : بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * قُلْ : إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ، وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ * وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ. وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ . وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ ، وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ » .

كانت صورة الجفاف والقسوة والغلظ هي التي صور الله بها قلوب بني إسرائيل: صورة الحجارة الصلدة التي لا تنض منها قطرة ، ولا يلين لها مس ، ولا تنبض فيها حياة. وقد ختم بها تذكيرهم بأنعمه عليهم ، وتسجيله مواقفهم من هذه النعم .. وهي صورة توحي باليأس من هذه الطبيعة الجاسية الجامدة الخاوية .. وفي ظل هذا التصوير ، وظل هذا الإيحاء ، يلتفت السياق من الماضي إلى الحاضر . يلتفت من الإخبار عن بني إسرائيل إلى خطاب المؤمنين الذين يطمعون في إيمان بني إسرائيل ؛ ويحاولون أن يبثوا في قلوبهم الإيمان ، وأن يفيضوا عليها النور ، وأن يلينوا من قساوتها وغلظتها .. يلتفت السياق إلى هؤلاء المؤمنين ، وقد عرض عليهم ماضي بني إسرائيل فعرفوا أية طبيعة هي طبيعة هؤلاء القوم ، وأية قلوب هي قلوب ذلك الجنس .. يلتفت إليهم بسؤال يوحي باليأس من المحاولة ، وبالقنوط من الرجاء . « أفتطمعون أن يؤمنوا لكم ؟ وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون ؟ »

ألا إنه لا مطمع ولا رجاء في أن يؤمن أمثال هؤلاء . فللإيمان طبيعة أخرى واستعداد آخر . إن الطبيعة المؤمنة سمحة هينة لينة ، مفتحة المنافذ للأضواء ؛ مستعدة للاتصال بالنبع الأزلي

الخالد بمافيهامن نداوة ولين وصفاء . وهى كذلك طبيعة مستقيمة ، لاتحرف الكلم عن مواضعه ؛ ولا تعقل الأمر ثم تتعامى عنه ؛ ولا تعرف الهدى ثم تميل عن السواء ..

ثم يمضى السياق يستعرض نماذج من تصرفات القوم، تؤكد أن لا مطمع فى إيمانهم ولا رجاء:

***

« أفتطمعون أن يؤمنوا لكم ، وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه ، وهم يعلمون ؟ » أفتطمعون وهذا ما ضيهم ؟ وهذا خراب ذمتهم ؟ وهذا إصرارهم على الباطل وهم يعلمون الحقيقة ؟ أفتطمعون فى إيمانهم ، وهم يضيفون إلى ذلك كله الرياء والنفاق والخداع والمراوغة :

« وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا : آمنا ، وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا : أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم ؟ أفلا تعقلون ؟ » .

« وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا » رياء ونفاقاً وضعفاً عن المواجهة ؛ أو خداعاً وحيلة ومراوغة . « وإذا خلا بعضهم إلى بعض » أظهروا ما تكنه قلوبهم المتعارفة على النفاق والرياء « قالوا : أتحدثونهم بما فتح الله عليكم » من قبل فى كتابكم من المبادىء والأحكام المشابهة لما جاء به الإسلام ، مما يوحى بأن الدين كله من عند الله ، وبما يثبت أن محمداً رسول الله ؟ أتحدثونهم به « ليحاجوكم به عند ربكم » فيكون حجة لهم عليكم : أن جاءكم ما يصدق كتابكم فلم تؤمنوا به ؟ .. وهنا تدركهم طبيعتهم المحجبة عن الاطمئنان إلى الله ، وعن الشعور بحقيقة علم الله ، فيتصورون أن الله لا يأخذ عليهم الحجة إلا أن يقولوها بأفواههم للمسلمين ؛ أما إذا كتموا وسكتوا فلن تكون عليهم حجة عندالله ، وهو الذى يعلم ماذا أعطاهم فى كتابهم؛ وماذا جحدوا منه وستروا . ولكن القلوب الجاسية لا ترى الأمر إلا من هذا الظاهر الشكلى الذى تدلسه على الناس ، وتحسب أنها تدلسه على عالم الغيب والشهادة . . وأعجب العجب أن يقول بعضهم لبعض فى هذا : « أفلا تعقلون ؟ » فيا للسخرية من العقل والتعقل ! وهلا كان غير العقل والتعقل هو الذى عنه يتحدثون ؟

« أولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون ؟ »

ثم يستطرد السياق يقص على المؤمنين من أحوال بنى إسرائيل . . إنهم فريقان : فريق أمى جاهل لا يدرى شيئاً من كتابهم الذى نزل عليهم ، ولا يعرف منه إلا أوهاماً وظنوناً ، وأمانى

فى النصر والجنة بأنهم شعب الله المختار ، المغفور له ، المفضل على الناس مهما يقترف من آثام . . وفريق يستغل هذا الجهل وهذه الأمية فيزور على كتاب الله ، ويزيد فيه وينقص ، ويخرج ما كتبه بيده محرفاً مزوراً فيقول : هذا من عند الله ، ليكسب ويربح من ورائه شيئاً من عرض الحياة :

« ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أمانىّ وإن هم إلا يظنون ، فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ، ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلا . فويل لهم مما كتبت أيديهم ، وويل لهم مما يكسبون » .

من تلك الأمانى التى لا تستقيم مع عدل الله ، ولا تتفق مع سنته ، ولا تتمشى مع تعاليمه فى رسالاته . . أن يحسبوا أنهم ناجون من العذاب ، وأن لن تمسهم النار إلا أياماً معدودة ! علام يعتمدون فى هذه الأمنية ؟ علام يحددون الوقت كأنهم مستوثقون مما يقولون ؟ وكأنها معاهدة أو اتفاقية محدودة الأجل معلومة الميقات ؟ لا شىء إلا أمانى الجهلاء ، وتضليل الأدعياء :

« وقالوا : لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة . قل : أتخذتم عند الله عهداً فلن يخلف الله عهده ؟ أم تقولون على الله ما لا تعلمون ؟ »

هنا يأتى لهم الجواب الحاسم ، فى صورة كلية من كليات الإسلام ؛ وحكم جازم ينبع من صميم فكرته عن الحياة والإنسان : إنه لا جزاء إلا على العمل ، ووفق هذا العمل :

« بلى ! من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته ، فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون »

ولا بد أن نقف قليلا أمام ذلك التصوير الفنى المعجز لحالة معنوية خاصة ؛ وأمام ذلك الحكم الإلهى الجازم ، نكشف عن شىء من أسبابه وأسراره .

« بلى . من كسب سيئة ، وأحاطت به خطيئته » آلخطيئه كسب ؟ إن المعنى الذهنى المقصود هو اجتراح الخطيئة . ولكن التعبير يومئ إلى حالة نفسية معروفة . إن الذى يجترح الخطيئة إنما يجترحها عادة وهو يلتذها ويستسيغها ، ويحسبها كسباً له على معنى من المعانى . ولو أنها كانت كريهة فى حسه ما اجترمها ؛ ولو اجترمها مكرهاً أو كارهاً ، ما تركها تملأ عالمه وتحيط به ، لأنه خليق فى هذه الحالة أن يهرب من ظلها ، ويستغفر منها ، ويلوذ إلى كنف غير كنفها . وعندئذ لا تحيط به أبداً ، ولا تملأ عليه جوه ، ولا تغلق عليه المنافذ جميعاً . . وفى التعبير : « وأحاطت به خطيئته » تجسيم لهذا المعنى . وتلك خاصية من خواص التعبير القرآنى ، وسمة واضحة من سماته ،

تهيء له وقعاً فى الحس يختلف عن وقع المعانى الذهنية المجردة ، والتعبيرات الذهنية التى لا ظل لها ولا صورة . وأى تعبير ذهنى عن اللجاج فى الخطيئة ما كان ليشع مثل هذا الظل ، الذى يصور المجترح الآثم حبيس الخطيئة أسيرها ؛ يعيش فى محيطها ، ويتنفس فى جوها ، ويحيامعها ولها . .(١) عندئذ ، عندما تغلق النفس عليها فى سجن الخطيئة كل منافذ التوبة ، وتحجب عنها كل أشعة الرحمة ، عندئذ يحق ذلك الجزاء العادل : « فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » . .

وهنا كذلك يستكمل الشطر المقابل لهذا الحكم :

« والذين آمنوا وعملوا الصالحات . أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون » .

فمجرد الإيمان لا يكفى ، إن لم يصل إلى الدرجة التى ينبثق فيها من القلب عملا صالحاً فى الأرض ، وترجمة حية فى السلوك ، وقياماً بخلافة الله فى تنمية الحياة وتطهير الحياة . .

ثم يمضى السياق معقباً بمواقف أخرى لبنى إسرائيل . يتجلى فيها ذلك العصيان الطويل :

« وإذ أخذنا ميثاق بنى إسرائيل : لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحساناً وذى القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسناً ، وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة . ثم توليتم إلا قليلا منكم وأنتم معرضون » .

وإذن فقد كلف بنو إسرائيل من قبل تكاليف كالتى يدعوهم الإسلام إليها : كلفوا عبادة الله وحده ، والإحسان للوالدين وذى القربى واليتامى والمساكين ، وأن يحسنوا القول للناس وأن يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة . . وهذه هى تكاليف الإسلام .

إنها إشارة واضحة إلى وحدة الدين الذى أرسل الله به الرسل : وحدته فى اتجاهه ، ووحدته فى الكثير من تكاليفه . وهذا هو المعنى الذى يستهدفه السياق هنا ، بعد ما سبق من إيماءات له فى قول بنى إسرائيل بعضهم لبعض : « أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم ؟ » هنا تفصيل للميثاق الذى أشير إليه من قبل إشارة مجملة ، حيث لم يكن مطلوباً إلا تسجيل نقض الميثاق . أما هنا فيراد أن يكشف عن تعنت بنى إسرائيل تجاه دعوة الإسلام ، وهو يدعوهم لمثل ما أخذ عليهم من ميثاق . فأى تعنت فى أن يقف منه اليهود ذلك الموقف المريب ؟

وهنا فى ذلك الموقف المخجل يتحول السياق من الحكاية إلى الخطاب ؛ فيوجه القول إلى

---

(١) يراجع فصل : « طريقة القرآن » فى كتاب : التصوير الفنى فى القرآن .

وحده الدين

بنى إسرائيل . وكان قد ترك خطابهم ، والتفت إلى خطاب المسلمين . ولكن توجيه الخطاب إليهم هنا أنكى وأخزى : « ثم توليتم إلا قليلا منكم وأنتم معرضون » . . وهكذا تتكشف بعض أسرار التفصيل والإجمال ، وأسرار الالتفات من صيغة إلى صيغة فى التعبير ، فى سياق القصص وغيره فى هذا الكتاب العجيب .

ويستمر الخطاب إلى بنى إسرائيل فترة ، يعرض عليهم فيها متناقضات من مواقفهم ، ونقضاً آخر لميثاقهم :

« وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ، ولا تخرجون أنفسكم من دياركم . ثم أقررتم وأنتم تشهدون »

ثم ماذا كان بعد الإقرار ؟

« ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم ، وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم ، تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان . وإن يأتوكم أسارى تفادوهم ، وهو محرم عليكم إخراجهم . أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ؟ »

لقد كان ذلك واقعاً يواجههم به . كان أهل المدينة فريقين متعادين من المشركين . فريق الأوس وفريق الخزرج . وكان بعض يهود المدينة حلفاً للأوس وبعضهم حلفاً للخزرج . فإذا وقعت الحرب حارب اليهود فى هذا الصف وذاك ، وظاهروا المشركين على إيذاء فريق من أنفسهم بالإثم والعدوان . وذلك رغبة فى الحصول على بعض مغانم الحرب من هذا الفريق وذاك ، وإمساكاً للعصا من وسطها على طريقة يهود التقليدية ـ كما هم اليوم بين المعسكر الشرقى والمعسكر الغربى تبعاً لسياستهم الخالدة ـ حتى إذا وضعت الحرب أوزارها فدى اليهود أسراهم من هنا ومن هناك : « وإن يأتوكم أسارى تفادوهم » ذلك أن كتابهم يحتم عليهم فداء أسراهم . ولقد كان هذا الكتاب نفسه هو الذى يمنعهم أن يقاتل بعضهم بعضاً ، أو أن يظاهروا أحداً على قتال فريق منهم وإخراجه من دياره . ولكنه التناقض الدائم الذى تمليه المطامع وتمليه المخاوف . فهم يؤمنون ببعض كتابهم فى فداء الأسرى ؛ ويهملون بعضه فى تحريم القتال والإخراج من الديار . وهو موقف يسجله الله عليهم هنا فى مواجهة المسلمين ؛ ويوجه إليهم الخطاب لأن الخطاب فى هذا المقام أخزى وأنكى :

« فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزى فى الحياة الدنيا ، ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب ، وما الله بغافل عما تعملون » .

ويعقب على هذا بوصف مصور لحقيقة ما يعملون ، وحكم يحمل سببه بما سيلاقون :
« أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة »

ويا لها من صفقة خاسرة . شراء الحياة الدنيا القصيرة الفانية بالحياة الآخرة الباقية الخالدة .

« فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرن » .

ثم يمضي السياق يستعرض خط سير الدعوة إلى الله ؛ ويستعرض معها مواقف بنى إسرائيل من الدعاة :

« ولقد آتينا موسى الكتاب ، وقفينا من بعده بالرسل ، وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس . أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ، ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون ؟ »

نحن فى معرض وحدة الدين ، ووحدة الرسالات . وهو الهدف الملحوظ بجانب مجابهة بنى إسرائيل بما كان منهم وبما هم فيه . ووحدة الدين ووحدة الرسالات معنى ملحوظ فى جو هذه السورة منذ ابتدائها على نحو ما أسلفنا . فالآن شيئاً فشيئاً تذكر تفصيلات لهذه الوحدة على نحو ما مر فى ميثاق بنى إسرائيل . ثم على النحو الذى يذكر هنا من خط سير الدعوة والدعاة فى بنى إسرائيل . ولأول مرة فى هذه السورة ترد إشارة إلى عيسى ورسالته ؛ فقد كان الكلام كله من قبل منصباً على موسى وقومه ـ وعلى اليهود منهم بصفة خاصة ـ فهنا إشارة إلى الأنبياء من بعد موسى ، وإشارة إلى عيسى ابن مريم وتأييده بروح القدس ، وإلى تعنت بنى إسرائيل مع هؤلاء الرسل ؛ مع استنكار هذا التعنت الذى ينبع من الهوى ، والذى يريد ان يخضع الرسل ويخضع الرسالات لذلك الهوى المتقلب الذى لا ضابط له ولا حدود :

« أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ، ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون ؟ »

ومحاولة إخضاع الشرائع والقوانين للهوى الطارىء والنزوة المتقلبة ، ظاهرة تبدو كلما فسدت الفطرة ، وانطمست فيها عدالة المنطق . المنطق الذى يوجب أن ترجع الشريعة إلى مصدر ثابت ، لا يميل مع الهوى ؛ وأن ينبع التشريع من غاية واضحة لا تتقلب مع النزوات .

***

ولا بد هنا من وقفة قصيرة أمام : « روح القدس » تغنى عن وقفات فى كل موضع جاء فيه هذا التعبير . . ما روح القدس أو من روح القدس ، الذى جاء فى مواضع شتى :

« قل نزله روح القدس من ربك بالحق » . . « نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين » . . « تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » . . « يوم يقوم الروح والملائكة صفاً » . . « تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم » . . « فارسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً » ..

أما أنا فأميل إلى القاعدة التى قررتها فى أول هذه السورة عند الحديث عن الغيب ، وعن الحديث عن الملائكة والجن .. إن كل ما لا سبيل إلى إدراكه بوسائل العقل البشرى وتصوراته المحدودة ، من الخير ألا تنفق الطاقة فى محاولة إدراك كنهه ، لأن هذا تبديد للطاقة التى أعطيها الإنسان ليحسن خلافة الله فى الأرض ، ويزيد فى نمائها وتنويع موادها وتركيبها ، وترقية الحياة فيها .

إن روح القدس قوة من خلق الله ، تتوجه بأمر الله وإرادة الله ، إلى حيث يريد الله ، وكما يريد الله .. وهذا هو كل ما يملك العقل البشرى أن يتصوره وأن يتلقاه .

إننى أستريح لهذا التصور الكلى ، وإلى الاستغناء عن كل الشروح والأقوال والهيئات التى تحدث عنها المفسرون ، وتحدث عنها الكلاميون ؛ وثار من أجلها ما ثار من جدل ، لو احترمت البديهة العقلية الأولى ما ثار ؛ ولما شجر ما شجر من الإثبات والإنكار .

* * *

ثم ننتهى من هذه الوقفة القصيرة هنا لنسير مع السياق فى الحديث عن بنى إسرائيل :

« وقالوا : قلوبنا غلف . بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا ما يؤمنون » .

قالوا إن قلوبنا مغلفة لا تنفذ إليها دعوة جديدة ، ولا تستمع إلى داعية جديد . قالوها تيئيساً لمحمد — صلى الله عليه وسلم — وللمسلمين من دعوتهم إلى هذا الدين ، أو تعليلا لعدم استجابتهم لدعوة الرسول . ويقول الله رداً على قولتهم : « بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا ما يؤمنون » .. إن العلة كامنة فى سلوكهم . إنها الكفر ، وتعمد الجحود والإنكار . ولقد لعنهم الله بسبب هذا الكفر . وهم من أجله قلما يؤمنون . لأن الإيمان لا ينفذ إلى قلوب يغلفها الكفر ، ويحجب عنها الهدى والنور .

« ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم — وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا . فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به . فلعنة الله على الكافرين » .

لقد كانوا من قبل يطلبون من الله أن ينصرهم على المشركين من حولهم ؛ ويفتح عليهم بالنبي الموعود الذى تتحدث عنه كتبهم ؛ ويتوعدون المشركين بهذا النصر المرتقب على يدى النبي المنظور . فلما جاءهم هذا النبي ومعه كتاب مصدق لما معهم . لما جاءهم بما يعرفونه من المبادىء والأحكام ولا يجهلونه . « كفروا به » . كفروا به لأنه لم يوافق هواهم أن يبعث هذا النبي من غيرهم . وذلك هو البغى الأثر،الذى ينبعث من عدم الرغبة فى أن يمنح الله فضله لمن يشاء من عباده :

« بئسما اشتروا به أنفسهم ، أن يكفروا بما أنزل الله ، بغياً ، أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده » .

بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا . . لكأن هذا الكفر كان هو الثمن الذى باعوا به أنفسهم! والإنسان يبيع نفسه إذا أراد بيعها ، بثمن ما ، يكثر أو يقل ، أما أن يبيعها بالكفر ، فتلك أعجب الصفقات . . ولكن هذا هو الواقع ، وإن بدا تمثيلا وتصويراً . لقد خسروا أنفسهم فى الدنيا ، فلم ينضموا إلى القافلة المنصورة المفتوح عليها الممكنة فى الأرض العزيزة بالله . ولقد خسروا أنفسهم فى الآخرة بما ينتظرهم من عذاب الله . وبماذا خرجوا فى النهاية لقاء هذا الخسران ؟ خرجوا بالكفر ، وخرجوا بالبغى الذى يريد أن يقيد فضل الله ، ويحتجزه دون بقية العباد .

« فباءوا بغضب على غضب ، وللكافرين عذاب مهين » .

مهين جزاء على استعلائهم وكبرهم أن يؤمنوا لرسول من غيرهم .

هذه الطبيعة التى تبدو هنا فى يهود ، هى الطبيعة الكنود ، طبيعة الأثرة الضيقة التى تحيا فى نطاق من التعصب شديد ؛ وتحس أن كل خير يصيب سواها كأنما اقتطع منها ؛ ولا تحس الوشيجة الإنسانية الكبرى التى تربط البشرية جميعا . . وهكذا عاش اليهود فى عزلة ، يحسون أنهم فرع مقطوع من شجرة الحياة ، ويتربصون بالبشرية الدوائر ، ويكنون للناس البغضاء ؛ ويعانون عذاب الأحقاد والضغائن ، ويذيقون البشرية رجع هذه الأحقاد ، فتناً يوقدونها بين بعض الشعوب وبعض ، وحروباً يثيرونها ليجروا من ورائها المغانم ، وهلاكاً يسلطونه على الناس ، ويسلطه عليهم الناس .. وهذا الشر كله إنما نشأ من تلك الأثرة البغيضة « بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده » ..

« وإذا قيل لهم : آمنوا بما أنزل الله ، قالوا : نؤمن بما أنزل علينا ، ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقا لما معهم » . .

ومالهم وللحق ! وما لهم أن يكون مصدقاً لما معهم ، ما لم يستأثروا هم به ، فلا يجيء على يد أخرى سواهم ؟ إنهم يعبدون أنفسهم ، ويتعبدون عصبيتهم ! لا بل إنهم ليعبدون هواهم ، فلقد كفروا من قبل بما جاءهم به أنبياؤهم لأنه لم يتفق مع هواهم :

« قل : فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين ؟ ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون . وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور : خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا . قالوا : سمعنا وعصينا ، وأشربوا فى قلوبهم العجل بكفرهم . قل: بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين ! »

إنه يجبههم جبهاً شديداً ، ويأخذهم بما وقع منهم فى تاريخهم الطويل . بل يأخذهم بما جابهوا به موسى نبيهم المنقذ . إنه يجردهم من تلك الحجة الواهية التى يسترون بها أثرتهم البغيضة وعزلتهم النافرة . لقد أرادوا أن يقولوا : إنهم مؤمنون بديانتهم فلا حاجة بهم إلى دين جديد . فها هو ذا يجبههم بأنهم قتلوا أنبياءهم من قبل ؛ وأنهم اتخذوا العجل بعد أن جاءهم موسى بالهدى ؛ وأنهم عصوا الله بعد أن أخذ عليهم ميثاقهم فى الطور . . فهل هذا كان من وحى الإيمان وأمره ؟ : « قل : بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين » !

ونقف هنا لحظة أمام التعبيرين المصورين العجيبين : « قالوا : سمعنا وعصينا » . . « وأشربوا فى قلوبهم العجل بكفرهم »

إنهم قالوا سمعنا . ولكنهم لم يقولوا عصينا . ففيم إذن حكاية هذا القول عنهم هنا ؟ . . إنه التصوير الحى للواقع الصامت ، كأنه واقع ناطق . لقد قالوا بأفواههم : سمعنا . ولكنهم قالوا بأعمالهم : عصينا . والواقع العملى هو الذى يمنح القول الشفهى دلالته ؛ وهذه الدلالة أقوى من القول المنطوق .. وهذا التصوير الحى للواقع يومىء إلى مبدأ كلى من مبادىء الإسلام : إنه لا قيمة لقول بلا عمل . إن العمل هو المعتبر . أو هى الوحدة بين الكلمة المنطوقة والحركة المحسوسة . وهى مناط الحكم والتقدير فى الأعمال والأقوال .

فأما الصورة الغليظة التى ترسمها : « وأشربوا فى قلوبهم العجل » فهى صورة فريدة . . لقد أشربوا . أشربوا بفعل فاعل سواهم . أشربوا ماذا ؟ أشربوا العجل ! وأين أشربوه ؟ أشربوه فى قلوبهم ! ويظل الخيال يتمثل تلك المحاولة العنيفة الغليظة ، وتلك الصورة الساخرة الهازئة : صورة العجل يدخل فى القلوب إدخالا ، ويحشر فيها حشراً ، حتى ليكاد ينسى المعنى

الذهنى الذى جاءت هذه الصورة المجسمة لتؤديه ، وهو حبهم الشديد لعبادة العجل ، حتى لكأنهم أشربوه فى القلوب ! هنا تبدو قيمة التعبير القرآنى المصور ، بالقياس الى التعبير الذهنى المفسر : إنه التصوير السمة البارزة فى التعبير القرآنى الجميل .

وينتهى الجدل هنا بذلك التحدى لأمانيهم التى لاتقوم على أساس ، ولدعواهم بأنهم شعب الله المختار ، المغفور له كل ما قدمت يداه ، الجدير وحده بأن تكون فيه الرسالات وأن يكون منه الدعاة :

« قل : إن كانت لكم الدار الآخرة عندالله خالصة من دون الناس ، فتمنوا الموت إن كنتم صادقين » . .

فمن كانت هذه ثقته وهذه دعواه فى الاستئثار وحده بفضل الله ، لافى الدنيا وحدها ، ولكن كذلك فى الأخرى . . من كانت هذه ثقته فليطلب الموت لينال ذلك النعيم المقيم ، الذى لا شك فيه ولا ريب ، والذى لامنافس فيه ولا شريك !

ويعقب على هذا التحدى بتقرير أنهم لن يتمنوا الموت . لن يتمنوه لأن ما قدمته أيديهم للآخرة لايطمعهم فى ثواب ، ولا يؤمنهم من عقاب . إنه مدخر لهم هناك ، وإنهم ليفرون أن يواجهوه يوم الحساب :

« ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم . والله عليم بالظالمين » .

وليس هذا فحسب . ولكنها خصلة أخرى فى يهود . خصلة يصورها القرآن صورة تفيض بالزراية ، وتنضح بالتحقير والمهانة :

« ولتجدنهم أحرص الناس على حياة » . .

أية حياة . لايعنى أن تكون حياة كريمة ، ولا يهم أن تكون حياة مميزة . . أية حياة ، بهذا التنكير والتحقير . إنهم طلاب حياة مهما اتشحت بالذل ومهما اتسمت بالعار . حياة ديدان أوحياة حشرات . كلها حياة . . إنها يهود فى ماضيها وفى حاضرها وفى مستقبلها سواء . وما ترفع رأسها إلاحين تغيب المطرقة ؛ فإذا وجدت المطرقة نكست الرؤوس ، وعنت الجباه ، جبناً وحرصاً على الحياة . . أية حياة . .

« ومن الذين أشركوا يود أحدهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر . والله بصير بما يعملون »

يود أحدهم لو يعمر ألف سنة . ذلك أنهم لا يرجون لقاء الله ، ولا يحسون أن لهم حياة غير هذه الحياة . وما أقصر الحياة الدنيا وما أضيقها حين تحس النفس الإنسانية أنها لا تتصل

بحياة سواها ؛ ولا تطمع فى غير أنفاس وساعات على الأرض معدودة . . إن الإيمان بالحياة الآخرة نعمة تهبها العقيدة فى الله للفرد الفانى ، المحدود الأجل الواسع الأمل . وما يغلق أحد على نفسه هذا المنفذ إلى الخلود ، إلا وحقيقة الحياة فى روحه ناقصة أو مطموسة . فالإيمان بالآخرة فوق أنه إيمان بعدل الله المطلق ، وجزائه الأوفى ، هو ذاته دلالة على فيض النفس بالحيوية ، وعلى امتلاء بالحياة لا يقف عند حدود الأرض ؛ إنما يتجاوزها إلى البقاء الطليق ، الذى لا يعلم إلا الله مداه . . .

« قُلْ : مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ * مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ .

« وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ * أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ ، وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ : هَارُوتَ وَمَارُوتَ . وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا : إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ . فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ . وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ . وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ . وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ، وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ » .

فى هذه الآيات نطلع على سمة أخرى من سمات يهود . سمة عجيبة حقاً . لقد بلغ هؤلاء القوم من الحنق والغيظ ، أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عبـاده ، مبلغاً يتجاوز كل حد . وقادهم هذا الى تناقض لا يستقيم فى أى عقل . . لقد سمعوا أن جبريل ينزل بالوحى من عندالله على محمد . ولما كان عداؤهم لمحمد قد بلغ مرتبة الحقد والغيظ ، أن ينزل الله عليه قرآناً ، وأن يكلفه رسالة . . فقد لج بهم الحنق ، فأعلنوا عداءهم لجبريل أيضاً !

إنها الحماقة المضحكة . ولـكن الغيظ والحقد يسوقان إلى كل حماقة . وإلا فماذا أذنب جبريل ؟ ولم يكن جبريل بشراً يعمل معهم أو يعمل ضدهم . بل إنهم لا يعلمون من جبريل ؟ ما حقيقته ؟ كيف ينزل بالوحي ؟ فـكل أولئك ـ بالقياس إلى الناس ـ غيب من الغيب الذى لا يدرك كنهه إلا عالم الغيب والشهادة ؛ وليس على البشر إلا أن يؤمنوا به ما داموا قد سلموا بالبديهة العقلية الأولى ، وهى أنهم لا يمكن أن يدركوا إلا ما تهيأت عقولهم لإدراكه ، وما يخضع لوسائلهم البشرية فى الإدراك ، وهى وسائل محدودة وقاصرة عن كثير .

ولـكنهم ـ مع هذا كله ـ ما يكادون يسمعون اسم جبريل ، ويعلمون أنه ينزل بالوحى من عند الله ، حتى يهيج هائجهم ، وحتى يغـلى غيظهم ، وحتى يعلنوها عداوة جاهرة لجبريل ، فيجيئهم الرد :

« قل : من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله » .

وما كان له من هوى شخصى ، ولا إرادة ذاتية ، فى أن ينزله على قلبك ، إنما هو منفذ لإرادة الله عامل بإذن الله . .

ثم ما الذى يحنقهم ؟ إن ما نزله جبريل على قلبك بإذن الله إنما جاء

« مصدقاً لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين »

ففيم هذه الحماقة من بنى إسرائيل ؟

وكانوا ـ كعادتهم فى تفريق الدين وتفريق الرسالة ـ قد فرقوا بين ملائـكة الله الذين يسمعون أسماءهم ولا يدركون كنههم . فقالوا : إننا على صداقة مع ميكائيل ، أما مع جبريل فلا ! لذلك جمعت الآية التالية جبريل وميكال وملائـكة الله ورسله ، لبيان وحدة الجميع ؛ ولإعلان أن من عاداهم فقد عاداهم جميعاً . وقد عادى الله فالله معاديه ، وهو من الـكافرين :

« قل : من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للـكافرين » .

ثم كشف عن سبب الـكفر بآيات الله . إنه الفسوق وانحراف الفطرة . فالطبيعة المستقيمة لا يسعها إلا أن تؤمن بتلك الآيات البينات ، التى لا عوج فيها ولا فسوق :

« ولقد أنزلنا إليك آيات بينات .. وما يكفر بها إلا الفاسقون » .

ثم يمضى السياق منددا باليهود ، كاشفاً عن سمة أخرى من سماتهم الوبيئة . . إنهم جماعة مفـكـكة ، لا يجتمعون فى رأى ، ولا يستمسكون بعروة ، ولا يحافظون على عهد . ومع أنهم متعصبون لأنفسهم وجنسهم ، يكرهون أن يمنح الله شيئاً من فضله لسواهم . . إلا أنهم لا يستمسكون بكل سمات العصبية ، ولا يحفظ بعضهم عهد بعض ، ولا يتكافلون فى الخير ، ولا يفيئون إلى نظام . وما من عهـد يقطعونه على أنفسهم حتى تند منهم فرقة فتنقض ما أبرموا ، وتخرج على ما أجمعوا :

« أو كلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم ؟ بل أكثرهم لا يؤمنون » .

وبئساها من خلة ، تقابلها فى المسلمين خلة أخرى على النقيض ؛ ويعلنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله : « المسلمون عدول تتكافأ دماؤهم ، يقضى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم » . . يقضى بذمتهم أدناهم ، فلا يخيس أحد بعهده إذا عاهد ، ولا ينقض عهده أحد إذا أبرم . تلك سمة الجماعات المفـكـكة الهزيلة المنحرفة الفطرة ، وهـذه سمة الجماعات الـكريمة المتماسكة المستقيمة . وذلك فرق ما بين أخلاق اليهود وأخلاق المسلمين .

« ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدّق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الـكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون » . .

وفى الآية ما فيها من سخرية خفية ، يحملها ذلك النص على أن الذين أوتوا الـكتاب هم الذين نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم . فلو كانوا هم المشركين لـكان لهم فى نبذهم كتاب الله وراء ظهورهم شىء من المعذرة . . ولـكنهم هم الذين أوتوا الـكتاب . هم الذين عرفوا الرسالات والرسل . هم الذين اتصلوا بالهدى ورأوا النور . وماذا صنعوا ؟ إنهم نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم . والمقصود طبعاً أنهم جحدوه بعنف ، وأنهم أبعدوه من مجال تفـكيرهم بشدة . ولـكن التعبير المصور ينقل المعنى من دائرة الذهن إلى دائرة الحس ، ويمثل عملهم بحركة مادية متخيلة ، تصور هذا التصرف تصويراً بشعاً زرياً ، ينضح بالـكنود والجحود ، ويتسم بالغلظة والحماقة ، ويدع الخيال يتملى هذه الحركة العنيفة ، والأيدى تنبذ كتاب الله وراء الظهور .

ثم ماذا ؟ ماذا بعد أن نبذوا كتاب الله المصدق لما معهم . . ألعلهم قد لاذوا بمـا هو خير

منه ؟ ألعلهم قد لجأوا إلى حق لا شبهة فيه ؟ ألعلهم قد استمسكوا حتى بكتابهم الذى جاء القرآن ليكمله ويمنحه الامتداد والحياة ؟ . . كلا ! ولا شىء من هذا كله . . إنهم نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم ليجروا خلف أساطير غامضة ومحاولات شريرة . . لقد تركوا ما أنزل الله « واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان » ! وبحثوا عن السحر الذى كان هاروت وماروت يعلمانه للناس . . ترك الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم وجروا وراء تلك الأساطير وخلف هذا السحر . . وتلك سمة أخرى من سمات الطبع المنحرف ، يسجلها القرآن على يهود . .

وبعد فلا بد من كلمة هنا عن السحر ، وعما يفرق بين المرء وزوجه مما كان هؤلاء اليهود يجرون خلفه ، ويتركون كتاب الله من أجله .

إنه ما يزال مشاهداً فى كل وقت أن بعض الناس يملكون خصائص عقلية أو نفسية لم يكشف العلم عن كنهها بعد . لقد سمى بعضها بأسماء ، ولكنه لم يحدد كنهها ولا طرائقها . . هذا « التليباثى » ــ التخاطر عن بعد ــ ما هو وكيف يتم ؟ كيف يملك إنسان أن يدعو إنساناً على أبعاد وفواصل لا يصل إليها صوت الإنسان فى العادة ، فيتلقى عنه دون أن تقف دونهما الفواصل والأبعاد ؟ وهذا التنويم المغنطيسى ما هو وكيف يتم ؟ كيف يقع أن تسيطر إرادة على إرادة ، وأن يتصل فكر بفكر ، فإذا أحدهما يوحى إلى الآخر ، وإذا أحدهما يتلقى عن الآخر كأنما يقرأ من كتاب مفتوح ؟ وهذا الإيحاء ما هو وكيف يتم ؟ كيف ينتقل تأثير معين من فكر إلى فكر أو إلى عدة أفكار ؟ ما طبيعة هذا التأثير وكيف انتقل ؟ وأية أداة نقلته ، وفى أى وسط انتقل ؟

إن كل ما استطاع العلم أن يقوله إلى اليوم فى هذه القوى التى اعترف بها هو أن أعطاها أسماء ! ولكنه لم يقل قط ما هى . ولم يقل قط كيف تتم .

وثمة أمور كثيرة أخرى يمارى فيها العلم . إما لأنه لم يجمع منها مشاهدات كافية للاعتراف . وإما لأنه لم يهتد بعد إلى وسيلة تدخلها فى نطاق إمكانياته التجريبية . . هذه الأحلام التنبؤية ــ وفرويد ذاته لم يستطع إنكار وجودها من الوجهة النظرية ــ كيف أرى رؤيا عن مستقبل مجهول ، ثم إذا هذه النبوءة تصدق فى الواقع بعد حين ؟ وهذه الأحاسيس الخفية التى ليس لها اسم بعد . كيف أحس أن أمراً ما سيحدث بعد قليل ، ثم يحدث ما توقعت على نحو من الأنحاء ؟

إنه من المكابرة في الواقع أن يقف إنسان لينفي ببساطة مثل هذه القوى المجهولة في الكائن البشري ، لمجرد أن العلم لم يهتد بعد إلى وسيلة يجرب بها هذه القوى !

وليس معنى هذا هو التسليم بكل خرافة ، والجري وراء كل أسطورة . . إنما الأسلم والأحوط أن يقف العقل الإنساني أمام هذه المجاهيل موقفاً مرناً ، لا ينفي على الإطلاق ولا يثبت على الإطلاق . حتى يتمكن العلم يوماً بعد ارتقاء وسائله من إدراك ما يعجز الآن عن إدراكه ، أو يسلم بأن في الأمر شيئاً فوق طاقته ، ويعرف حدوده ، ويحسب للمجهول في هذا الكون حسابه . .

السحر من قبيل هذه الأمور . قدرة على الإيحاء والتأثير ، إما في الحواس والأفكار ، وإما في الأشياء والأجسام . . ولا مانع أن يكون وسيلة للتفريق بين المرء وزوجه ، وبين الصديق وصديقه . فالانفعالات نتيجة للتأثرات . وإن كانت الوسائل والآثار ، والأسباب والنتائج ، لا تقع كلها إلا وفق مشيئة الله . . « وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله » .

على أية حال لقد نبذ الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم ، وراحوا يتعلقون بما يروى عن الشياطين في عهد سليمان ، وما يقال عن وسائل سليمان في الحصول على تلك القوى التي تسخر له ما سخره الله . وما كفر سليمان بالله ، ولا اعتمد على وسائل شريرة أو قوًى شيطانية . إنما كفر الشياطين الشريرون الذين يعلمون الناس هذه الطرق الشريرة التي يؤثرون بها في غيرهم تأثيراً ضاراً ، ويعلمونهم ما كان لدى المَلَكَيْنِ أو المَلِكَيْنِ : هاروت وماروت ، مذ كانا في بابل ، فتنة لأهل عصرهما وابتلاء ؛ وكانا إذا جاءهما أحد يطلب علم هذه الوسائل التي تؤثر في الناس ، وتفرق ما بين المرء وزوجه ، يقولان له : « إنما نحن فتنة فلا تكفر » ولا تتعلم هذا العلم الضار المؤذي . فإذا أصر بعد هذا النصح ، كان حسابه على نفسه ، وعلماه ما يطلب ، وتركاه لعمله .

أما متى كان هذان الملكان ببابل ، فيبدو أن قصتهما كانت معروفة متداولة بين اليهود في ذلك الحين ، بدليل أنهم لم يكذبوا هذه الإشارة ولم يعترضوا عليها . وقد وردت في القرآن الكريم إشارات مجملة لبعض القصص التي كانت معروفة عند المخاطبين بها ؛ وكان في ذلك الإجمال كفاية لأداء الغرض ؛ ولم يكن هنالك ما يدعو للتفصيل التاريخي . لأن هذا التفصيل ليس هو المقصود . ولا أحب أن نجري نحن — في هذه القصة — خلف أساطير لم ترد في كتابنا . فحسبنا أن نقف عند هذه الإشارة ومغزاها .

ولقد مضى فى تاريخ البشرية من الآيات والاختبارات ما يناسب حالتها وإدراكها فى كل طور من أطوارها . فإذا جاء الاختبار فى صورة رجلين طيبين كالملكين ، أو ملكين فى صورة رجلين . . فليس هذا غريباً ولا شاذاً بالقياس إلى شتى الصور وشتى الاختبارات وشتى المعجزات ، التى مرت بها البشرية وهى تحبو ، وهى تخطو ، وهى تقفو أشعة الشعلة الإلهية المنيرة فى غياهب الليل البهيم .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا : رَاعِنَا . وَقُولُوا : انْظُرْنَا ، وَاسْمَعُوا ، وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ * مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ ، وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ . (حزب ٢)

« مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا . أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ؟ * أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ؟ * أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ ؟ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ .

« وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ، فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ . إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ . إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ .

« وَقَالُوا : لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى . تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ . قُلْ : هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * بَلَى ! مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ ، وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ .

« وَقالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصارَى عَلَى شَيْءٍ ، وَقالَتِ النَّصارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ ، وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتابَ . كَذٰلِكَ قالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ، فَاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ .

« وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَساجِدَ اللهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيها اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرابِها ؟ أُولٰئِكَ ما كانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوها إِلاَّ خائِفِينَ ، لَهُمْ فِي الدُّنْيا خِزْيٌ ، وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذابٌ عَظِيمٌ * وَلِلهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ، فَأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ إِنَّ اللهَ واسِعٌ عَلِيمٌ .

« وَقالُوا : اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا . سُبْحانَهُ ! بَلْ لَهُ ما فِي السَّماوَاتِ وَالْأَرْضِ ، كُلٌّ لَهُ قانِتُونَ * بَدِيعُ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَإِذا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ : كُنْ . فَيَكُونُ .

« وَقالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ : لَوْلا يُكَلِّمُنا اللهُ أَوْ تَأْتِينا آيَةٌ ! كَذٰلِكَ قالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ . تَشابَهَتْ قُلُوبُهُمْ ، قَدْ بَيَّنَّا الْآياتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ .

« إِنَّا أَرْسَلْناكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً ، وَلا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحابِ الْجَحِيمِ * وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ . قُلْ : إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى ، وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْواءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مالَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ .

« الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ . أُولٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ، وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولٰئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ .

« يا بَنِي إِسْرائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعالَمِينَ * وَاتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً ، وَلا يُقْبَلُ مِنْها عَدْلٌ ، وَلا تَنْفَعُها شَفاعَةٌ ، وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ » .

بعد ما انتهى السياق هناك من استعراض سمات بنى إسرائيل ، التفت بالخطاب هنا إلى المؤمنين مرة أخرى ، يحذرهم التشبه بهم فى قول أو فعل ، أو الاستماع إليهم فى وسوسة أو فتنة ، ويكشف للمؤمنين عن خبيئة نفوس القوم . فهم ليسوا ميؤوساً من إيمانهم فحسب ، ولكنهم حاقدون حاسدون لا يريدون بالمؤمنين خيرا ؛ سواء فى هذه الحلة أهل الكتاب والذين أشركوا . فمن واجب المؤمنين اذن ألا يثقوا بهم ، وألا يطمئنوا إليهم ، وألا يستمعوا إلى الشبهات التى ينثرونها حولهم ، وألا يتشبهوا بسماتهم ، وأن يكونوا أمة وحدهم فى إيمانها وفى أفعالها وأقوالها ، وفى نظامها وسلوكها ، وفى العلاقة بينها وبين نبيها . كى يتقوا الشر والكيد الذى يبيته لهم كثير من أهل الكتاب والمشركين . .

وفى هذا الاتجاه كانت الآيات السابقة التى نعيش فى ظلها فى هذا الدرس . . فلنحاول أن نتملاها إذن بشىء من التفصيل :

* * *

« يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا : راعنا . وقولوا : انظرنا . واسمعوا . وللكافرين عذاب أليم »

إنه هنا اختيار لفظ على لفظ فى الدعاء إلى الله . ولكن العبرة ليست فى الألفاظ ، إنما هى فى ذلك الاستقلال والتميز والانفراد عما ألف أهل الكتاب أن يقولوه فى الدعاء . إما لأنهم يتلاعبون بهذا اللفظ « راعنا » على أى وجه من الوجوه ، ويلتفتون به عن ظاهر معناه ؛ وإما لمجرد أنه أصبح عندهم مألوفاً ومأثوراً ، فسبيل المؤمنين أن يختاروا لهم تعبيراً آخر يختصون به ويمتازون .

وهنا تعرض التفاتة إلى قيمة أشكال العبادة ، أو أشكال الدعاء ، أو أشكال الزى . . وما إليها ، فى تكوين الجماعات وتنظيمها وتوجيهها إلى أهدافها العليا فى الحياة .

إن الذى ينظر إلى هذه الأشكال مجردة عن ملابساتها ، ومجردة كذلك عن طبيعة النفس البشرية وتفاعلاتها . . ربما يبدو له أن فى الحرص على هذه الأشكال شيئاً من التعنت ، أو شيئاً من التعبد للأشكال! ولكن نظرة أرحب من هذه النظرة ، وإدراكا أعمق لطبيعة الفطرة ، يكشفان عن حقيقة أخرى تستحق الاعتبار .

إن فى النفس الإنسانية ميلا فطرياً ناشئاً من تكوين الإنسان ذاته من جسد ظاهر وروح خفى ، إلى اتخاذ أشكال ظاهرة للتعبير عن المشاعر الباطنة . فهذه المشاعر الباطنة لا تهدأ ولا تستقر حتى تتخذ لها شكلا ظاهراً تدركه الحواس ؛ وبذلك يتم التعبير عنها . يتم فى الحس كما تم فى النفس : فتهدأ حينئذ وتستريح ؛ وتحس بالتناسق بين الظاهر والباطن ؛ وتجد تلبية لجنوحها إلى الأسرار والمجاهيل وجنوحها إلى الظواهر والأشكال فى ذات الأوان .

وعلى هذا الأساس الفطرى أقام الإسلام شعائره التعبدية كلها . فهى لاتؤدى بمجرد النية ، ولا بمجرد التوجه الروحى ؛ ولكن هذا التوجه يتخذ له شكلا ظاهراً : قياماً وركوعاً وسجوداً وقراءة وتسبيحاً وتوجهاً إلى القبلة فى الصلاة ؛ وحركة وسعياً ودعاء ولباساً معيناً فى الحج ؛ ونية وامتناعاً عن الطعام والشراب والمباشرة فى الصوم . . وهكذا فى كل عبادة عمل ، وفى كل عمل عبادة ، ليؤلف بين ظاهر النفس وباطنها ، وينسق بين قواها جميعا ؛ ويستجيب لهذه الفطرة استجابة لا تنافى أهدافه ومبادئه .

ولقد عرف الإسلام أن هذه الطبيعة البشرية هى التى حادت بالكثيرين عن طريق الإيمان بالله وحده إلى أن يشركوا به بعض خلقه . هؤلاء الذين كانوا يعبدون الأصنام وهم يقولون : « ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » وأولئك الذين : « اتخذوا من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله » . . إنهم جميعاً لم يجدوا متصرفا طبيعيا للتعبير الظاهر عن الشعور المضمر ، فساروا فى هذا الطريق الضال المنحرف ؛ ووفقوا بين دوافعهم الفطرية على هذا النحو المعيب الفاسد .

عندئذ جاء الإسلام يلبى دواعى الفطرة بتلك الأشكال المعينة لشعائر العبادة . فيتوجه الفرد حين يتوجه إلى الله ، لا بقلبه فحسب ، ولكن بحواسه وجوارحه كذلك ؛ فتتم الوحدة والاتساق بين كل قوى الإنسان فى التوجه إلى الله خالق الإنسان .

وفى هذا الاتجاه كان الأمر باستبدال شكل بشكل ، أو لفظ بلفظ ، أو تعبير بتعبير . . إنه تلبية للشعور بالامتياز والتفرد ، كما أنه بدوره ينشىء شعوراً بالامتياز والتفرد . . ولقد فطن الكثيرون من أصحاب المذاهب والمبادىء إلى هذه الخاصية البشرية ؛ فاختاروا لأتباعهم أزياء معينة ، أو شعارات معينة ، أو شكلا من أشكال التحية ، أو عبارة خاصة يعرفون بها ويتعارفون ، مستندين فى هذا إلى خاصية عميقة فى تكوين النفس البشرية . خاصية اتخاذ شكل ظاهر للشعور الباطن . وليست المسألة مجرد شكليات ميتة لا علاقة لها بدوافع الحياة .

ومن هنا يبدو أن النهى عن التشبه بمن دون المسلمين فى خصائصهم التى هى تعبير ظاهر عن مشاعر باطنة ؛ كالنهى عن طريقتهم فى الشعور والسلوك سواء . . ليست تعنتاً ولا تمسكاً بالشكليات ، وإنما هى نظرة أعمق إلى ماوراء هذه الشكليات . نظرة إلى البواعث الكامنة

وراء الأشكال الظاهرة ؛ وهذه البواعث هى التى تفرق قوماً عن قوم ، وعقلية عن عقلية ، وضميراً عن ضمير ، وخلقاً عن خلق ، واتجاها فى الحياة كلها عن اتجاه .

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن اليهود والنصارى لا يصبغون فخالفوهم » .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد خرج على جماعة فوقفوا له : « لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضا » .

وقال صلوات الله وسلامه عليه : « لاتطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم » .

نهى عن تشبه فى لباس ، ونهى عن تشبه فى حركة ، ونهى عن تشبه فى قول . . لأن وراء اللباس ووراء الحركة ووراء الكلمة ذلك الشعور الباطن الذى يميز قلبا عن قلب ، وضميراً عن ضمير ، لا لمجرد الرغبة فى المخالفة الشكلية وفى المظهر الخارجى .

ثم هو نهى عن التقليد ، ودعوة إلى الابتكار . والتقليد دليل الهزيمة الداخلية فى النفس ، وعدم الإيمان بالذات ، وبالطريق الذاتى الذى تسلكه وترضاه .

وفرق بين الإيمان بمنهج خاص ، وبين التنطع والجمود والانعزال عن الحياة . فالمطلوب هو الثبات على ما يتبين أنه الحق ، والاطمئنان إليه ، والامتياز به ، لا العزلة والتحجر ، والكف عن التطلع للجديد المفيد . . ولقد نعى القرآن على اليهود فيما سلف قولهم : « نؤمن بما أنزل إلينا » وكفرهم بما وراءه ، لأن الدافع إلى هذا القول كان مجرد الحسد والحنق على أن ينزل الله وحيا ، وأن يرسل رسولا من غيرهم ! مع علمهم أنه الحق من ربهم ، وأنه مصدق لما معهم .

إن الهزيمة الداخلية والانهيار الشعورى هما اللذان يتحرى الإسلام أن يعالجهما ؛ وأن يقى نفوس المسلمين إياهما ، وهم يملكون الذى هو خير ، وهم الأعلون ، وهم خير أمة أخرجت للناس .

ويخلط بعضهم بين استمداد العلم والمعرفة ، وتقليد السلوك والعادة . . إن طلب العلم فريضة ، والحقيقة ضالة المؤمن أنى وجدها أخذها . والانتفاع بالعلم المجرد ونتاجه التطبيقى أمر لا جدال فى مشروعيته ، بل فى فرضيته . ولكن تقليد السلوك والتقاليد والعادات والأوضاع أمر آخر ، لا علاقة بينه وبين العلم والمعرفة .

والذين يريدون للمسلمين أن يصبحوا يهوداً أونصارى أومشركين ، لأنهم يستخدمون من

الأدوات ومن التسهيلات ، ما أنتجته عقول اليهود والنصارى والمشركين ؛ إنما يخلطون بين أمرين مختلفين ، لا رابطة بين طبيعتهما فلا رابطة بين حكمهما .

أما وحدة الإنسانية التي قد يشير إليها بعضهم في هذا المجال ، فليس أعرف من الإسلام بها ، وليس أعلى دعوة من الإسلام إليها . ولكن الإسلام لا يفهم وحدة الإنسانية على أنها انزلاق الأعلى إلى الأدنى ، إنما يعرفها على أنها رفع الأدنى إلى الأعلى .

ولقد ضمن الإسلام للإنسانية أعلى أفق ، وأقوم نهج ، فهو يدعو البشرية كلها أن تفيء إليه ، فتتم الوحدة الكبرى . الوحدة التي تتفق مع تكريم الله للإنسان ، ومع ما قدره لهذه الحياة من سمو وارتقاء .

وما كان تعصبا ولا تعنتا أن يطلب الإسلام الوحدة على أساسه ، لا على أي أساس آخر . فالذي يدعوك إلى الوحدة في الله ، والوحدة في الأفضل من النظام ، والوحدة في الأرفع من الأخلاق ؛ ويأبى أن يشتري الوحدة بالحيدة عن طريق الله ، أو التردي في هوة الأغلال ، أو الارتكاس إلى مدارج الحيوانية الأولى . . ليس متعصباً لنفسه ولا لديانته الخاصة ، إنما هو متعصب للخير والرقي والصلاح .

* * *

« يا أيها الذين آمنوا لاتقولوا راعنا وقولوا انظرنا » . . « واسمعوا » . . « وللكافرين عذاب أليم » .

وهنا تبرز السمة الأولى في الإسلام . سمة الوحدة بين القول والفعل ، بين التعبير والسلوك ، بين الظاهر والباطن . . « واسمعوا » . . وليس المراد مجرد السماع طبعاً ، ولكن ما ينشأ عن السماع : العمل . الطاعة . التنفيذ . . قولوا بألسنتكم في الدعاء قولا غير الذي تعارف عليه أهل الكتاب ، واسلكوا في طاعة الله سبيلا غير الذي عرف عنهم من المعصية . وبهذا وذلك يتم الامتياز ، ويتحقق التفرد ، وتبرز الشخصية الجديدة . شخصية المؤمنين . ويتميزون عن الكافرين . الذين أعد الله لهم مصيرا كذلك متميزا : « وللكافرين عذاب أليم » !

قولوا غير قولهم ، واعملوا بغير عملهم ، واسلكوا غير سبيلهم . إنهم لكم عدو . إنهم لا يريدون بكم خيراً ، شأنهم في هذا شأن المشركين :

« ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم . والله يختص برحمته من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم » .

ولقد سبق الحديث عن حقدهم وغيظهم أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده ، حتى لقد بلغ بهم ذلك الغيظ أن يعلنوا عداءهم لجبريل ، إذ كان ينزل بالوحى على الرسول ! « والله يختص برحمته من يشاء » فرحمتـه ليست وقفاً على قوم دون قوم ، ولا على فرد دون فرد ، وهو يختص بها من يشاء ممن يصطفى . ولقد اختصكم بها فصونوها ، ووفوها حقها من الشكر بالسمع والطاعة « والله ذو الفضل العظيم » . ½ حزب ٢

ومن شأن الأحقاد والنوايا السيئة التى تعتمل فى صدور أهل الكتاب أن يلقوا إليكم بالشبهات . ومن بينها أن يستنكروا أن يبدل الله آية بآية ، أو حكما بحكم ، ويقولوا : إذا كانت التوراة كتاب الله باعتراف محمد . فكيف يأتى القرآن بآيات وأحكام فيها مايخالف التوراة ؟

وهى شبهة باطلة ، فدين الله واحد ، فى أصوله واتجاهاته ، فى أمره للناس بإسلام قلوبهم لله ، وفى أن يكون الدين كله لله . أما الأحكام التى تنظم أحوال المجتمع ، وتصرف سلوك الناس ، فتختلف بين طور من الإنسان وطور ، وبين ظرف فى حياتهم وظرف . وما يصلح لهم اليوم فى حالة اجتماعية معينة ، وفى طور من أطوار النضج معين . قد لا يصلح لهم غداً حين تتغير أوضاعهم الاجتماعية ، وحين تتبدل أفكارهم ومشاعرهم على نحو جديد .

ولقد كان شأن الرسالات الماضية أن تنهض بالبشرية درجة درجة ؛ وأن تخطو بهم خطوة خطوة ، حتى تأتى الرسالة الأخيرة الثابتة الدائمة . وهـذه الرسالة الأخيرة ذاتها كان بعض جزئياتها وأحكامها قابلا للتحوير قبل تمامها وكمالها ، تحقيقاً للتناسق بينها وبين أحوال المجتمع وتطورها . . حتى إذا كملت كانت قد استوفت كل عناصر الثبات والاستقرار .

فالتغيير الجزئى فى آيات الله – لمثل تلك الأسباب – أمر طبيعى ، يساير أغراض الرسالة العظمى ، من تحقيق الخير والتناسق فى حياة البشر ؛ والله خالق الناس ومرسل الرسل ، هو العليم بالصالح ، القدير على تحقيقه ؛ وهو صاحب الأمر فى هذا كما هو صاحب كل شىء ، ومالك السماوات والأرض جميعاً ← ١

« ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها . ألم تعلم أن الله على كل شىء قدير ؟ ألم تعلم أن الله له ملك السماوات والأرض . ومالكم من دون الله من ولى ولا نصير ؟ »

« أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل ؟ »

سؤال للمؤمنين ، بعد تفنيد تلك الشبهة التى يثيرها الذين لايؤمنون بالله ، ولا يثقون فى

كل ما يأتيهم من عنده ؛ ولا يطمئنون إلى حكمته وقدرته . . سؤال استنكارى أن يتشبه المؤمنون بقوم موسى المتعنتين ، الذين لم يكونوا ليطمئنوا ويثقوا إلا أن يسألوه البراهين المادية ، والمعجزات والخوارق ؛ أو يسألوه أسئلة الإعنات والتعنت . والإشارة فى هـذا السؤال إلى قوم موسى مفهومة بعد ما عرض من تعنتهم وجحودهم وبطرهم وإعناتهم لرسولهم . فهم مثل يضرب فى هذا كله . مثل بارز يستنكر الله أن يصير المسلمون إليه ، وأن يسلكوا طريقه بالأسئلة المتعنتة التى تنتهى إلى ما انتهى إليه بنو إسرائيل . يتبعه ذلك التهديد الرادع :

« ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل » .

« ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً . . حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق »

. . . ذلك ما يفعل الحقد اللئيم بالنفوس ، الرغبة فى نزع الخير الذين يهتدى إليه الآخرون . لماذا ؟ لا لأن هذه النفوس الشريرة لاتعلم ، ولكن بعد ما تتبين وتعلم ! وهكذا يحاول أهل الكتاب أن يردوكم كافرين بعد إيمانكم أيها المؤمنون . . « حسداً من عند أنفسهم » والحسد هو ذلك الانفعال الأسود الخسيس ، وتمنى زوال النعمة عن الآخرين . . إن معرفتهم أنه الحق لاتثير فى نفوسهم أن يسابقوكم إليه ، لأن ذلك الانفعال الأسود الخسيس يصدهم عن الخير الذى لم يكونوا هم أصحابه ، ولم يشأ الله أن يخصهم به . والله يختص برحمته من يشاء .

وهنا ، وفى اللحظة التى تتجلى فيها هذه الحقيقة ، وتنكشف فيها النية السيئة . . هنا يدعو القرآن أصحابه إلى الارتفاع عن ملابسات الموقف الحاضرة ، وتوازع النفس البشرية . . يدعوهم إلى أن يكونوا فوق ذواتهم ، وإلى أن يكونوا أكبر من حاضرهم . . يدعوهم إلى الصفح والعفو عن المساءة ، وعن النوايا السيئة ، وعن الانفعالات الخسيسة :

« فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بأمره . إن الله على كل شىء قدير » . .

وامضوا فى طريقكم التى اختار الله لكم ، وحسابكم مع الله وحده دون سواه :

« وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله » .

وهكذا يصرف قلوبهم عن الانفعال بالغيظ من سوء النية ؛ وعن الحنق على من يكرهون لهم الخير ؛ وعن التفكير فى الانتقام أو الاضطغان . . يصرف قلوبهم عن هذا كله ، ليصون

لها سماحتها ورضاها وطمأنينتها ؛ ويوجهها إلى العمل المنتج ؛ ويصون طاقتها عن التبدد فى الانفعالات الرديئة ، وعن التلوث بسموم الحقد والكراهية والضغينة .. ويردها كلها إلى الله :

« إن الله بما تعملون بصير »

ثم يمضى فى استعراض أوهام أهل الكتاب ، النابعة من الأثرة ، ومن كراهية الخير للآخرين ، ومن الرغبة فى احتجاز فضل الله ورحمته جميعاً :

« وقالوا : لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى » .. « تلك أمانيهم » .. « قل : هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » .

فهى قولة لا تستند على واقع ولا على منطق ، إنما تستند على هواء ، على مجرد الأمانى والآمال . وكثيراً ما يتخيل المرء ثم يخال ، كثيراً ما يرغب فى الأمر ، ثم ينسى أنها مجرد رغبة ، فيخاله قد صار حقيقة . وتلك سمة الذين لا يملكون عقولهم ، ولا يواجهون الواقع ، بل يهربون من الحقائق ، لأن احتمالهم أضعف من مواجهة الحقائق : « قل : هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » . ولا برهان بطبيعة الحال ولا دليل .

« بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

هنا يقرر قاعدة الإسلام الكلية فى ترتيب الجزاء على العمل ، وعلى العمل وحده ، بلا محاباة لأمة ولا لجنس ولا لطائفة ولا لفرد . ولقد قررها من قبل فى العقاب رداً على قولهم : إنهم لن يدخلوا النار إلا أياماً معدودة . فقال : « بلى ! من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » . فهنا يقررها كذلك فى الثواب : « بلى ! من أسلم وجهه لله وهو محسن ، فله أجره عند ربه ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

إنها قاعدة واحدة بطرفيها فى العقوبة والمثوبة . طرفيها المتقابلين : « من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته » فهو حبيس هذه الخطيئة المحيطة ، فى معزل عن كل شىء وعن كل شعور وعن كل وجهة إلا وجهة الخطيئة .. و « من أسلم وجهه لله وهو محسن » فأخلص ذاته كلها لله ، ووجه مشاعره كلها إليه ، وكسب الحسنة فى مقابل كسب السيئة .. من أسلم وجهه لله .. هنا تبرز سمة الإسلام الأولى . إسلام الوجه ، والوجه رمز للإنسان كله ، ومن أسلم وجهه فقد أسلم نفسه . ولفظ أسلم يعنى الاستسلام والتسليم . الاستسلام المعنوى والتسليم العملى . ومع هذا فلا بد من الدليل الظاهر على هذا الاستسلام : « وهو محسن » فسمة الإسلام هى الوحدة بين الشعور والسلوك ، بين العقيدة والعمل ، بين الإيمان الروحى والإحسان العملى . كى تستحيل العقيدة نتاجاً فى الحياة وإصلاحاً :

فمن أسلم وجهه لله وهو محسن فقد ضمن الأجر ، وضمن الأمن ، وضمن المسرة : « فله أجره عنـد ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » . . تلك هى القاعدة المطلقة التى يستوى عندها عباد الله جميعاً ، لا من كانوا هوداً أو نصارى ، ولا من كانوا مسلمين أيضاً ، ما لم يستوفوا هذين الشرطين العامين : الإسلام المطلق لله ، وإحسان العمل فى الحياة . فلا محسوبية ولا تميز عند الله .

وبعد . فلقد كان قولهم الذى قالوا : « لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى » . . ذلك بينما اليهود يجبهون النصارى ، والنصارى يجبهون اليهود ، ويتهم كل فريق منهما الفريق الآخر بالضلال والفراغ :

« وقالت اليهود ليست النصارى على شىء ، وقالت النصارى ليست اليهود على شىء . وهم يتلون الـكتاب » .

قال كلاهما قولته « وهم يتلون الـكتاب » فيعلم هؤلاء وهؤلاء أن اليهود كانوا على كتاب من الله ، وأن النصارى كانوا كذلك على كتاب من الله . . فإما أن يعتقدوا إذن أنهم على حق ليتسق هذا مع قولهم : « لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى » وإما أن يعتقدوا أنهم على غير الحق بعد ما جاءهم الإسلام ، فهم أولى إذن بألا يقولوا قولتهم تلك . . ولـكنهم لا يفيئون إلى هذه ولا تلك . إنما هو الاضطراب واللجاج ، الذى يميل مع الهوى ومع الرغبة الخاصة فى أن يحتجز كل منهما الخير لنفسه والفضل لذاته ؛ وأن يعاند فى الحق ويجادل ، لأن التسليم للحق قد يفقده شيئاً من عرض الدنيا ، أو لا يتفق مع الأثرة الخبيثة والحسد الوبيل !

وكم فى الدنيا من أمثال ذينك الفريقين من اليهود والنصارى الذين كانوا يواجهون الإسلام يومذاك . كم فى الدنيا من شيع وفرق وأحزاب يجبه بعضها بعضا بكل كبيرة . . ولـكنها جميعا تقف فى وجه الإسلام ودعوته . . لأن هنالك رابطة من الضلالة ، ورابطة من المصلحة ، ورابطة من العناد . تؤلف بينها جميعا على ما بينها من خلاف وشقاق .

« كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم » . .

وهم الـكفار فى ذلك الحين الذين قالوا : إن محمـداً ليس على شىء . وهم لا يعلمون ما يعلمه أهل الـكتاب .

« فالله يحـكم بينهم فيما كانوا فيه يختلفون »

فهو الحكم العدل ، وإليه تصير الأمور . وهذه الإحالة إلى حكم الله الأخير هى وحدها المجدية فى مواجهة قوم لا يستمدون من منطق ولا من عقل ، ولكن من هوى ومن رغبة ؛ فلا جدوى فى جدالهم ، فلن يفيئوا أبداً إلى منطق معقول .

***

« ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى فى خرابها ؟ أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين » . .

تجىء هذه الآية بعد ذكر اليهود والنصارى وشحنائهم بينهم وبين أنفسهم على ذلك النحو ، وبعد ذكر الذين لا يعلمون من الكفار الذين قالوا مثل قولهم . .

ولا بد من صلة تاريخية بين هذا المنع المشار إليه فى الآية وبين هذه الفرق الثلاث . . فبعض المفسرين يقول : إنها إشارة إلى موقف النصارى من اليهود فى بيت المقدس ، إذ عاونوا بختنصر المجوسى على تخريب بيت المقدس نكاية فى اليهود . وبعضهم يقول : إنها إشارة إلى موقف المشركين من المسلمين ، وقد منعوهم فى عام الحديبية من دخول مكة والمسجد الحرام . . وإطلاق النص هكذا يوحى بأنه يشمل الموقفين جميعا ، ويشمل كذلك كل حالة مماثلة وقعت أو ستقع ، لتقرير حكم عام فى منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه والسعى فى خرابها ، سواء بهذا المنع ، أو بالهدم والتخريب الماديين ، فالنتيجة واحدة فى النهاية . . كذلك الحكم الذى يرتبه الله على هذه الفعلة ، ويقرر أنه هو وحده الذى يليق أن يكون جزاءً : « أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين » أى إنهم يستحقون الدفع والمطاردة والحرمان من الاستمتاع بالركون إلى بيوت الله . إلا أن يلجأوا إليها مستجيرين محتمين بحرمتها مستأمنين ؛ يدفعهم الخوف والفزع والتسليم . . ولقد صدق الله وعده وحقق جزاءه هذا فى المسجد الحرام فى عام الفتح . فأعلن الرسول — صلى الله عليه وسلم — أن من دخل المسجد الحرام فهو آمن . فلجأ إليه المستأمنون من جبابرة قريش ، بعد أن كانوا هم الذين يصدون عنه رسول الله والمسلمين !

كذلك تكثر الروايات فى تفسير الآية التالية فى السياق :

« ولله المشرق والمغرب ، فأينما تولوا فثم وجه الله . إن الله واسع عليم » . .

تحويل القبلة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام

بعضهم يربط بينها وبين صلاة الرسول – صلى الله عليه وسلم – على ظهر دابته أنى توجهت .
وبعضهم يربط بينها وبين سرية من المسلمين صلوا ليلة عميت فيها الرؤية ؛ ثم بدا لهم فى الصباح أن قبلتهم لم تكن قبلة . وبعضهم يربط بينها وبين تحويل القبلة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام . . الذى سيرد نبؤه فى هذه السورة بعد قليل . .

وليس فى النص ما يخصص إحدى هذه الارتباطات . فلنأخذه فى صورته العامة المطلقة ، فنرى أن هنالك ارتباطاً فى السياق بين الإشارة إلى منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه استبداداً وافتياتاً ؛ وبين تقرير أن المشرق والمغرب لله ، وأينما تولوا فثم وجه الله . لإشعار القلوب التى تبتغى أن تسلم نفسها إلى الله وتتوجه إلى حماه ؛ بأن المنع من المساجد لا يمنع من قبول التوجه . وأن كل مكان على الأرض مسجد ، فلله المشرق والمغرب . وأن التوجه إلى الله لايتقيد بجهة ولا يتقيد بمكان : « فأينما تولوا فثم وجه الله » . وهذا الإطلاق فى المعنى لا ينفى الارتباط بحادثة معينة . ولكنه يشمل الحوادث ، ويتجاوزها إلى المشاعر . ويربط بين القلب المؤمن حيثما كان وحيثما اتجه ، وبين ربه خالق الأمكنة وخالق الجهات . وفى الأمر سعة ، والنية لله : « والله واسع عليم » .

***

بعد هذه الإشارة المعترضة إلى مساجد الله ومنع المؤمنين أن يذكروا فيها اسم الله . . عاد السياق إلى مقولات اليهود والنصارى والمشركين ، وإلى تفنيد أوهامهم وأباطيلهم منذ قولهم : « لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى » وقول اليهود : ليست النصارى على شىء ، وقول النصارى : ليست اليهود على شىء ؛ وقول الذين لا يعلمون مثل قولهم . عاد إلى تفنيد وهم جديد أو فرية جديدة :

« وقالوا : اتخذ الله ولداً » . .

وهذه المقولة ليست مقولة النصارى وحدهم فى المسيح ، فهى مقولة اليهود كذلك فى العزير ، ومقولة المشركين أيضاً فى الملائكة ! ولم تفصل الآية هذه المقولات ، لأن السياق هنا سياق إجمال وإدماج للفرق الثلاثة التى كانت تناهض الإسلام يومئذ فى المدينة ومكة ؛ ولكن الإشارة السابقة إلى هذه الطوائف تبيح لنا هنا أن نلم بهذا البيان العابر .

« سبحانه ! بل له ما فى السماوات والأرض كل له قانتون . بديع السماوات والأرض ، وإذا قضى أمراً فإنما يقول له : كن . فيكون » .

هنا نصل إلى فكرة الإسلام التجريدية الكاملة عن الله سبحانه ، وعن نوع العلاقة بين الخالق وخلقه ، وعن طريقة صدور الخلق عن الخالق . وهى أنسب وأليق تصور يملكه البشر لتلك الحقائق جميعاً . . لقد صدر الكون عن خالقه عن طريق توجه الإرادة المطلقة : كن فيكون . وتوجه الإرادة إلى خلق كائن ما كفيل وحده بوجود هذا الكائن ، على الصورة المقدرة له ، بدون وسيط من قوة أو مادة . أما كيف تتصل هذه الإرادة التى لا نعرف كنهها بذلك الكائن المراد صدوره عنها ، فذلك هو السر الذى لم يكشف للإدراك البشرى عنه ، لأن الطاقة البشرية دون إدراكه . . ولقد ضربت الفلسفات فى تيه لا منارة فيه ، وهى تحاول كشف هذا السر ؛ وتفترض فروضاً تنبع من الإدراك البشرى المحدود ، تصل أحياناً إلى حد مضحك لا يدرى الإنسان كيف يصدر عن « فيلسوف » . وما ذلك كله إلا لأن أصحاب هذه الفلسفات حاولوا أن يخرجوا بالإدراك البشرى عن مداه المقدر له ، فلم ينتهوا إلى شىء يطمأن إليه . وعصم الإسلام أهله المؤمنين به ، الفاهمين له أن يحاولوا هذه المحاولة الفاشلة . فلما أن أراد بعض متفلسفتهم متأثرين بأصداء الفلسفة الإغريقية — على وجه خاص — أن يتطاولوا إلى هذا المرتقى ، باءوا بالتعقيد والتخليط ، كما باء أساتذتهم الإغريق . وذلك هو المصير المحتوم لكل محاولة للعقل البشرى وراء حدوده ، وفوق طبيعته .

والنظرية الإسلامية هنا : أن الخلق غير الخالق ، وأن الخالق ليس كمثله شىء .. ومن هنا تنتفى من التفكير الإسلامى الصحيح فكرة « وحدة الوجود » على ما يفهمه غير المسلم من هذا الاصطلاح ، أى بمعنى أن الوجود وخالقه وحدة واحدة ، أو أن الوجود إشعاع ذاتى للخالق ، أو أن الوجود هو الصورة المرئية لموجده .. أو على أى نحو من أنحاء التصور على هذا الأساس . والوجود وحدة فى نظر المسلم ، على معنى آخر : وحدة صدوره عن الإرادة الخالقة ، ووحدة ناموسه الذى يسير به ، ووحدة تكوينه وتناسقه واتجاهه .

والله ليس كمثله شىء . والوجود صدر عن توجه الإرادة إلى إيجاده بكيفية غير معلومة لأنها فوق الإدراك البشرى .. والله هو المبدع ، فما أبدعه الله ليس هو الله ، وليس صورة لله .. والله له ما فى السماوات والأرض كل له قانتون ؛ فليس أحد ممن خلق ابناً له ، ولا بضعة منه . سبحانه . إنما هى كلمته . هى أمره . هى إرادته : « إذا قضى أمراً فإنما يقول له : كن . فيكون » .

ومقولة أخرى للذين لا يعلمون :

« لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية » ..

إنها وليدة تصور خاطئ ، ووليدة التحدى والتعنت اللذين لا يسلمان بالآيات الكونية العامة . وكل واحدة منها تكفى للإيمان .. لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية . إنها سمة مكررة فى البشرية تظهر كلما انحرفت الفطرة ، وضلت البصيرة :

« كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم . تشابهت قلوبهم » ..

تشابهت على اختلاف الزمان والمكان ، واختلاف الرسل والبينات :

« قد بينا الآيات لقوم يوقنون » ..

والمسألة كلها مردها إلى تلك النماذج النفسية التى افتتحت بها هذه السورة : نموذج المتقين ، ونموذج الكافرين ، ونموذج المنافقين .. وما تزال هذه النماذج تتراءى لنا بين حين وحين .

وإذ انتهت مقولاتهم جميعاً ، وفندت أباطيلهم جميعاً يتوجه الخطاب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، بياناً لوظيفته ، وتحديداً لتبعاته ، وكشفاً للتعلات التى يتمسك بها أهل الكتاب ، ويتلكأون بها عن الإيمان ، وتحذيراً للرسول أن يتأثر بتعلة أو أن يطمع منهم فى إيمان :

« إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً ولا تسأل عن أصحاب الجحيم » .

فلا عليك أن يقولوا ما يقولون ، ولا عليك أن يقعدوا عن الإيمان بك والإسلام لله . فلست مسؤولاً عنهم ، ولم يقل عنهم بل قال : « عن أصحاب الجحيم » بياناً لمصيرهم المحتوم .

« ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم » ..

فتلك هى العلة الأصيلة . إنهم لا يطلبون برهاناً ، ولا يحاولون اقتناعاً . ولو صنعت لهم ما صنعت ، ولو توددت إليهم ما توددت ، فإن ذلك لن يرضيهم إنما يرضيهم أمر واحد : أن « تتبع ملتهم » ! ألا إنها لهى العقدة الدائمة التى نرى مصداقها فى كل زمان ومكان مع المخالفين لهذا الإسلام . إنهم يتعللون بشتى العلل فى عدم قبوله ، وفى عدم الهشاشة لأهله . والسبب الكامن وراء العلل جميعاً أنهم لا يستريحون لوجود الإسلام أصلاً . ومهما يبذل المسلمون من جهد لإرضائهم فلن يرضوا إلا أن يترك المسلمون هذا الدين ! وإنه لمن العبث أن يسترضوا لأنهم لن يرضوا عن المسلمين ما داموا مسلمين ! فمن شاء أن يدفع هذا الثمن من دينه لإرضاء اليهود والنصارى ، فذلك هو الثمن الوحيد ، وما سواه من ترضيات فمردود !

ولـكن الأمر الحازم الجازم هنا هو :

« قل : إن هدى الله هو الهدى » .

فلا براح منه ، ولا فكاك عنه ، ولا محاولة فيه ، ولا ترضية على حسابه. فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر .. وحذار أن تميل بك الرغبة فى استرضائهم قيد أنملة عن ذلك الجواب الحازم :

« ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم ، مالك من الله من ولى ولا نصير » .

فهى الأهواء إذن تلك التى تميـل بهم إلى التعلات والأوهام والأباطيل ، وهدى الله هو وحده الهدى ، الذى لا عوج فيه ولا هوى .

« الذين آتيناهم الـكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به . ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون ».

الذين آتيناهم الـكتاب حقاً لا شكلا . الذين انتفعوا بالـكتاب الذى آتيناهم واهتدوا . . هؤلاء يتلونه حق تلاوته . يتلونه بالوعى الحاضر والبصيرة المتفتحة « أولئك يؤمنون به » وأولئك يستجيبون لك دون تلكؤ ، ودون تعلل ، لأن الـكتاب بذاته يكفى للإيمان ،وتدبره وحده يغنى عن طلب الآيات والمعجزات . ولا عليك ممن يكفرون به ، فهم الخاسرون: « ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون » ..

* * *

ومن هذا التقرير الحاسم الحازم ينتقل الخطاب من الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ إلى بنى إسرائيل . كأنما ليهتف بهم الهتاف الأخير ، بعد الاستعراض الطويل : استعراض أنعم الله عليهم وكفرهم بهـا ؛ واستعراض مواثيقهم ونقضهم لها ، واستعراض دعاواهم وأباطيلهم ، وتفنيدها ؛ والالتفات عنهم إلى خطاب المسلمين وخطاب الرسول ألا يطمعوا فى إيمانهم ، وألا يحاولوا استرضاءهم . . هنا يجىء الالتفات إليهم كأنه الدعوة الأخيرة إليهم لينقذوا أنفسهم وهم على أبواب الإهمال والإغفال . الدعوة ذاتهـا التى وجهت إليهم فى أوائل الخطاب فى أوائل السورة قبيل الاستعراض :

« يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأنى فضلتكم على العالمين ، واتقوا يوماً لا تجزى نفس عن نفس شيئاً ، ولا يقبل منها عدل ، ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون » . . .

« وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ . . قَالَ : إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا . قَالَ : وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ؟ قَالَ : لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ .

« وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا ؛ وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ؛ وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ . وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ : رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ . مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ . قَالَ : وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلا ، ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ .

« وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ . . رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا . إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ ، وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ ، وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا . إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ ، يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ ، وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ . إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

« وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ؟ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ * إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ : أَسْلِمْ . قَالَ : أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ : يَا بَنِيَّ . إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ ، فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ * أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ ، إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ : مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي ؟ قَالُوا : نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ .

« تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ، لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ ، وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

« وَقَالُوا : كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا .. قُلْ : بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * قُولُوا : آمَنَّا بِاللهِ ، وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا ، وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ ، وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ، وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ ، لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ * فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا ، وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ ، فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ .

« صِبْغَةَ اللهِ . وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً ؟ وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ .

« قُلْ : أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللهِ ، وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ، وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ، وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ؟ * أَمْ تَقُولُونَ : إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ؟ قُلْ : أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللهُ ؟ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللهِ ؟ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ .

« تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ، لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ ، وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ » .

فيما سلف من هذه السورة كان الجدل مع أهل الكتاب دائراً كله حول سيرة بنى إسرائيل مع الرسل والرسالات ، ابتداء من عهد موسى عليه السلام ، إلى عهد محمد صلى الله عليه وسلم. أكثره عن اليهود وأقله عن النصارى . مع إشارات إلى المشركين عند السمات التى يلتقون فيها مع أهل الكتاب ، أو يلتقى معهم فيها أهل الكتاب .

فالآن يرجع السياق إلى مرحلة تاريخية أسبق من موسى . . يرجع إلى إبراهيم . . ولهذه الرجعة حكمة خاصة ، وفيها كذلك تساوق مع النقطة التى وصل إليها السياق فى الدروس الماضية التى استعرضناها .

إن أهل الكتاب ليرجعون بأصولهم إلى إبراهيم عليه السلام عن طريق إسحاق ، ويعتزون بنسبتهم إليه . ومن هذه النسبة يستمدون تفضيلهم على العالمين ، وما وعدهم الله من النمو والبركة والتمكين .

وإن قريشاً لترجع بأصولها كذلك إلى إبراهيم عليه السلام عن طريق إسماعيل . وتعتز بنسبتها إليه . ومن هذه النسبة تستمد القوامة على البيت وعمارة المسجد الحرام ؛ وتستمد سلطتها كذلك على العرب ، وفضلها وشرفها ومكانتها .

وقد وصل السياق فيما مضى إلى الحديث عن دعاوى اليهود والنصارى العريضة فى الجنة ، وعن محاولتهم أن يردوا المسلمين هوداً أو نصارى ليهتدوا ! كذلك وصل إلى الذين يمنعون مساجد الله أن يذكر فيها اسمه . وقلنا هناك : إن هذه الإشارة العامة تتضمن كل منع ، ومنه منع النبى صلى الله عليه وسلم والمسلمين معه من المسجد الحرام فى مكة عام الحديبية .

فالآن يجىء الحديث عن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ، والحديث عن البيت الحرام وبنائه وعمارته وشعائره ، فى جوه المناسب ، لتقرير الحقائق الخالصة فى دعاوى اليهود والنصارى والمشركين جميعاً حول هذا النسب وهذه الصلات . كذلك تجىء المناسبة لتقرير وحدة الدين الإلهى واطراده على أيدى رسله جميعاً ، ونفى الاحتكار عنه فى أيدى أمة أو جنس . وبيان أن الدين فكرة مجردة من مثل هذه العصبيات الصغيرة . وأن وراثتها ليست ناشئة من صلات الدم ، ولكنها ناشئة من صلات القلب . فمن آمن بها ورعاها فى أى جيل ومن أى قبيل ، فهو أحق بوراثتها من أبناء الصلب ، ومن أقرباء النسب . فالدين دين الله . وليس بين الله وبين أحد من عباده نسب ولا صهر !

هذه الحقيقة الكبرى يجليها القرآن الكريم هنا فى نسق من الأداء عجيب ، وفى عرض من الترتيب والتعبير بديع . . يسير بنا خطوة خطوة من لدن إبراهيم عليه السلام ، منذ أن ابتلاه ربه فاستحق نعمته وفضله ، وتنصيبه إماماً للناس . إلى أن نشأت الأمة المسلمة برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، فاستحقت وراثة هذه الإمامة دون ذرية إبراهيم جميعاً ، بذلك السبب الوحيد الذى يفضى إلى هذه الوراثة . سبب الإيمان بالرسالة وحسن القيام عليها وتأديتها حق أدائها .

وفى ثنايا هذا العرض التاريخى يبرز أن الإسلام . بمعنى إسلام الوجه لله وحده . كان هو الرسالة الأولى وكان هو الرسالة الأخيرة . . هكذا اعتقد إبراهيم ، وهكذا اعتقد من بعده إسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ؛ حتى أسلموا هذه العقيدة ذاتها إلى موسى وعيسى .. فمن استقام على العقيدة الواحدة فهو وريثها ، ووريث بشاراتها وعهودها . ومن فسق عنها فقد فسق عن عهد الله ؛ وقد فقد وراثته لهذا العهد ، وما فيه من تكريم وتفضيل وبشارة وتمكين .

عندئذ تسقط كل دعاوى اليهود والنصارى فى اصطفائهم واجتبائهم ، لمجرد أنهم ورثة إبراهيم وبنيه ، لأن هذه الوراثة سقطت عنهم منذ أن تخلوا عن العقيدة الخالدة . عقيدة الإسلام لله بلا وسيط ولا شريك . وعندئذ تسقط كذلك كل دعاوى قريش فى الاستئثار بالبيت الحرام وشرف القيام عليه وعمارته ، لأنهم فقدوا حقهم فى وراثة بانى البيت وراعيه ، منذ أن حادوا عن طريقته ونقضوا عهده مع الله فى ذريته وبنيه .

كل ذلك فى نسق من العرض والأداء والتعبير عجيب .. فلنأخذ فى استعراض هذا النسق ؛ فى ظل هذا البيان المنير ..

***

« وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن » ، واجتاز الاختبار ، وقام بما كلفه كاملا تاماً . لم يفتتن ، ولم يهن ، ولم يفسق ، ولم يغير ، ولم يجحد . . عندئذ استحق تلك البشرى ، أو تلك الثقة : « قال : إنى جاعلك للناس إماماً » يهديهم إلى الله ، ويتخذونه قدوة فى الإيمان والسلوك ، ويقدمهم إلى الخير ، ويكونون له تبعاً ، وتكون له فيهم قيادة .

عندئذ تدرك إبراهيم فطرة البشر : الرغبة فى الامتداد عن طريق الذرارى والأحفاد . ذلك الشعور الفطرى الذى أودع فطرة البشر لتنمو الحياة وتستمر ؛ ويكمل اللاحق ما بدأ السابق . ذلك الشعور الذى يحاول بعضهم تحطيمه أوتعويقه وتكبيله ؛ وهو مركوز فى أصل الفطرة لتحقيق تلك الغاية الطويلة الأمد البعيدة الآفاق . وعلى أساسه يقرر الإسلام شريعة الإرث ، تلبية لتلك الفطرة ، وتنشيطاً لها لتعمل ، ولتبذل أقصى ما فى طوقها من جهد . وما المحاولات التى تبذل لتحطيم هذه القاعدة إلامحاولة لتحطيم فطرة البشرية فى أساسها ، وإلا تكاف وقصر نظر فى معالجة بعض عيوب المجتمع ؛ وكل علاج يناهض الفطرة لا يفلح ، وهناك غيره مما يصلح العيب ولا يحطم الفطرة ، ولكنه يحتاج إلى نظر أبعد ، وإلى خبرة بالنفس البشرية أعمق ، وإلى نظرة خالية من الأحقاد التى تدفع إلى التكبيل والإفناء ، أكثر مما تنزع إلى الحرية والبناء . . « قال : ومن ذريتى » ؟

ويجيئه الرد من ربه المنعم ليقرر القاعدة الكبرى التى أسلفنا : إن الإمامة لمن يستحقونها بالعمل والشعور ، وليست وراثة أصلاب وأنساب كما يتوهم المتوهمون : « قال : لا ينال عهدى الظالمين » والظلم أنواع وألوان : ظلم النفس ، وظلم الناس ، وظلم الحق . . ومردها جميعاً إلى تجاوز حدود الله ، وإلى الانحراف عن تعاليمه . . والإمامة الممنوعة على الظالمين تشمل كل معانى الإمامة : إمامة الرسالة ، وإمامة الخلافة ، وإمامة الصلاة . . وكل معنى من معانى الإمامة والقيادة . فالعدالة بكل معانيها هى أساس استحقاق هذه الإمامة ، فى أية صورة من صورها . ومن ظلم — أى لون من الظلم — فقد جرد نفسه من حق الإمامة وأسقط حقه فيها . بكل معنى من معانيها .

« وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى » .

هذا البيت الحرام الذى قام سدنته من قريش فمنعوا عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته أن يدخلوه . . لقد أراده الله مثابة يثوب إليها الناس جميعاً ، فلا يصدهم أحد ، ولا يروعهم أحد ، بل يأمنون فيه ، فهو ذاته أمن وطمأنينة وسلام . ولقد أمروا أن يتخذوا منه مصلى ، يتوجهون فيه إلى الله ، فمن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه ؟ وقد صرح هنا باسم إبراهيم ومقام إبراهيم — وهو كناية عن البيت كله وهو ما نختاره فى تفسيره — تذكيراً لمن يضعون أيديهم عليه باسم وراثتهم لإبراهيم ، بأن مقام إبراهيم قد جعله الله مصلى للناس ، ومثابة للناس ، وأمناً للناس ، بلا تفرقة بين قبيل وقبيل ، ولم يجعله إرثاً خاصاً يمنعه وارثوه عمن يشاءون ، ويبيحونه لمن يريدون . . إنه للناس . للناس جميعاً ، وما لأحد عليه من سلطان . . .

وبعد الفراغ من تقرير هذه الكلية ، يأخذ السياق فى العرض التفصيلي لما كان من إبراهيم وإسماعيل فى بناء هذا البيت ، وسدانته ، فى مشهد حى كأننا نراه اليوم ، من وراء القرون والأجيال :

« وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود » .

فهو أولاً بيت الله ، لا بيت أحد من الناس . وقد عهد الله صاحب البيت وراعيه ، إلى عبدين من عباده صالحين أن يقوما بتطهيره وإعداده للطائفين والعاكفين والركع السجود . فحتى إبراهيم وإسماعيل لم يكن البيت ملكاً لهما ، فيورث بالنسب عنهما . إنما كانا سادنين له ، بأمر ربهما ، لإعداده لعبّاده وقصاده من الناس جميعاً .

« وإذ قال إبراهيم : رب اجعل هذا بلداً آمناً ، وارزق أهله من الثمرات .. من آمن منهم بالله واليوم الآخر . . قال : ومن كفر فأمتعه قليلاً ، ثم أضطره إلى عذاب النار ، وبئس المصير » .

مرة أخرى يؤكد دعاء إبراهيم معنى الأمن للبيت . ومرة أخرى يؤكد معنى الوراثة للفضل والخير . إن إبراهيم هنا قد أفاد من عظة ربه له فى الأولى . لقد وعى منذ أن قال له ربه : « لا ينال عهدى الظالمين » وعى ذلك الدرس ، فهو هنا فى دعائه أن يرزق الله أهل هذا البيت من الثمرات ، يحترس ويستثنى ويعين ماذا يعنى : « من آمن منهم بالله واليوم الآخر » . إنه إبراهيم ، وتلك سمته البارزة ، سرعة وعيه عن ربه ، وسرعة عودته إليه : « إن إبراهيم لأواه حليم » . « إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً » . وعندئذ يجيئه رد ربه مكملاً ومبيناً عن الشطر الآخر الذى سكت عنه إبراهيم : « قال : ومن كفر فأمتعه قليلاً ، ثم أضطره إلى عذاب النار ، وبئس المصير » . . وفى التعبير « أضطره » نلمح معنى الإجبار على المكروه ، فهم مضطرون إلى عذاب النار ، ولا مخلص لهم منه ولا فرار .

ثم يرتد السياق خطوة ليصور مرحلة بناء البيت ذاتها . وكان قد قدم الغاية من البناء فى الآية السابقة . لأن الغاية تسبق العمل فى الوجود . فالغاية من البناء وهى أن يكون البيت مثابة للناس وأمناً ، وأن يكون مهيأ للطواف والعكوف والركوع والسجود ، قد سبقت وجوده طبعاً . والآن يجىء وصف مرحلة البناء ودور إبراهيم وإسماعيل فيها :

« وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل » وبينما نحن فى انتظار حكاية ووصف لما كان منهما . . إذا بالسياق يكشف لنا عنهما ، ويرينا إياهما ، كما لو كانت رؤية العين ، لا رؤيا الخيال . . إنهما أمامنا حاضران نكاد نسمع صوتيهما يبتهلان : « ربنا تقبل منا إنك أنت

السميع العليم . ربنا واجعلنا مسلمين لك ، ومن ذريتنا أمةً مسلمةً لك ، وأرنا مناسكنا وتب علينا . إنك أنت التواب الرحيم . ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ، ويزكيهم ، إنك أنت العزيز الحكيم » .

نغمة الدعاء ، وموسيقى الدعاء ، وجو الدعاء .. كلها حاضرة معنا كأنهـــا تقع اللحظة أمامنا ، وكأنها ليست حكاية عما كان ، فى ذلك الزمان . وتلك إحـدى خصائص القرآن . رد المشهد الماضى الذاهب ، حاضراً يسمع ويرى ، وتدب فيه الحياة : وتتوالى الحركات والسكنات. إنها خصيصة « التصويرى الفنى » بمعناه الصادق اللائق بالكتاب الخالد .

وماذا فى ثنايا الدعاء ؟ القضية كلها ، التى أشرنا إليها مراراً .. إن إبراهيم وإسماعيل ، بانى البيت ، وأبوى سدنة اليوم يقولان باللسان الصريح : « ربنا واجعلنا مسلمين لك » . « ومن ذريتنا أمةً مسلمةً لك » . كما يقولان باللسان الصريح : « ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم » وكأنهما يقرران بهذا وراثة الأمة المسلمة لإمامة إبراهيم ، ورعاية البيت الحرام ؛ وكأنما يحقق الله لهما دعوة ورجاء ، إذ يرسل فى أهل البيت ذلكم الرسول .

وإذن فمن كان يربط ديانته بإبراهيم من اليهود والنصارى ، ومن كان يربط نسبه بإسماعيل من قريش . . فليسمع : إن إبراهيم حين طلب الوراثة لبنيه فى الإمامة ، قال له ربه : « لا ينال عهدى الظالمين » . ولما أن دعا لأهل البيت بالرزق والبركة ، خصص بدعوته : « من آمن منهم بالله واليوم الآخر » وحين قام هو وإسماعيل بأمر ربهما فى بناء البيت وتطهيره وإعداده للجميع كانت دعوتهما : أن يكونا مسلمين لله ، وأن يجعل الله من ذريتهما أمة مسلمة، وأن يبعث فى أهل البيت رسولا منهم . . فاستجاب لهما الله ، وأرسل من أهل البيت محمد بن عبد الله ، وحقق على يديه : الأمة المسلمة القائمة بأمر الله ، الوارثة لدين الله ، المحققة لمعناه ..

هذه هى ملة إبراهيم . لا يرغب عنها إلا ظالم لنفسه ، سفيه عليها ، مستهتر بها . فالإسلام — إسلام الوجه كله لله — كان دين إبراهيم ودين بنيه من المخلصين .

« ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين . إذ قال له ربه : أسلم . قال : أسلمت لرب العالمين » .

ثم يخطو السياق خطوة أخرى ، فيكشف عن وصية إبراهيم لبنيه بهذا الدين ، يصل بها إلى يعقوب . وهو إسرائيل أبو الأسباط ، وجد بنى إسرائيل .

« ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب : يابنى إن الله اصطفى لكم الدين ، فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون » .

إن الحقيقة الجديدة التى يكشف عنها هنا : هى أن هـذا الدين قد اختاره الله واصطفاه لإبراهيم وذريته من الصالحين . فأبسط ما يوجبه فضل الله والشكر على نعمة اختياره واصطفائه، أن يبذل أبناء إبراهيم وورثته جهدهم ، ويجعلوا وكدهم ألا يموتوا إلا وهم مسلمون . وهاهى ذى الفرصة سانحة ، فقد جاءهم الرسول الذى يدعو إلى الإسـلام : « فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون » .

تلك كانت وصية إبراهيم لبنيه . وتلك كانت وصية يعقوب لبنيه ، تنفيذاً لوصية أبيه :

« أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت . إذ قال لبنيه : ما تعبدون من بعدى ؟ قالوا : نعبد إلهك وإله آبائك : إبراهيم وإسماعيل وإسحاق : إلهاً واحداً . ونحن له مسلمون » ..

وكذلك ظلت وصية إبراهيم مرعية فى أبناء يعقوب . وكذلك هم ينصون نصاً على أنهم « مسلمون » بذلك المعنى الواسع : معنى توحيد الله بلا شريك ، والاستسلام إليه دون معارضة، وتوحيد دينه ورسالاته ورسله أجمعين .

وهنا يظهر الفارق بين هذه الأمة التى خلت ، وبين الأمة التى خلفت بعدها ، وسارت على غير طريقها .. فـلا مجال للصلة ، ولا مجال للتعلق بوراثة قد تقطعت أسبابها بين السابقين واللاحقين :

« تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ، ولكم ما كسبتم ، ولا تسألون عما كانوا يعملون » فلكل منها حساب ولكل منها طريق ..

* * *

فى ظل هذا البيان التاريخى الحاسم يعرض السياق قولة أهل الكتاب للمسلمين : « كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا » فتبدو هذه القولة خالية من الأسانيد ، مجردة من الحق ، لا تقوم إلا على ادعاء باطل وتعنت مرذول .

« وقالوا : كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا » .. « قل : بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من

المشركين » . . قل بل نرجع إلى ملة إبراهيم ونختارها . إبراهيم المستقيم على الهدى ، الذى لا يشرك بالله أحداً ، ولا يدعو له شريكا ولا ولدا . .

ثم إعلان للوحدة الكبرى للدين ، من لدن إبراهيم إلى عيسى ابن مريم ، بلا تفرقة ولا تعصب ، ودعوة إلى الإيمان بهذا الدين الواحد ، فإما آمنوا مع المسلمين ، وإما تولوا فهم فى نزاع بينهم وخصام ، ولا على المسلمين منهم ، والله بهم كفيل :

« قولوا : آمنا بالله ، وما أُنزل إلينا ، وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى ، وما أوتى النبيون من ربهم ، لانفرق بين أحد منهم ، ونحن له مسلمون . . فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا ، وإن تولوا فإنما هم فى شقاق ، فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم »

تلك الوحدة الكبرى بين الرسالات جميعاً ، وبين الرسل جميعاً . تلك الوحدة التى هى طابع الإسلام وميزته على سائر الأديان . تلك هى صبغة الله والطابع الثابت الذى يميز المسلمين « ومن أحسن من الله صبغة ؟ » . « ونحن له عابدون » صبغة الله التى شاء لها أن تكون آخر رسالات السماء إلى الأرض ، لتقوم عليها وحدة إنسانية واسعة الآفاق ، لا تعصب فيها ولا حقد ، ولا أجناس فيها ولا ألوان . وقد سبق بها الإسلام كل دعوة إلى عالمية الإنسان ، وما تزال دعوته قائمة لبنى الإنسان .

ثم تمضى الحجة الدامغة إلى نهايتها الحاسمة :

« قل : أتحاجوننا فى الله وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون » ؟

ولا مجال للجدل فى وحدانية الله وربوبيته ، فهو ربنا وربكم . ونحن محاسبون بأعمالنا ، وعليكم وزر أعمالكم . وشيمتنا معه : أننا له مخلصون .

أم تحاجوننا فى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ، فتزعمون أنهم كانوا هوداً أو نصارى ؟ بينما الله خالقهم يحكى عنهم ما سمعتم ؟ : قل أأنتم أعلم أم الله ؟ وإنكم لتعلمون أنهم كانوا على ملة إبراهيم قبل أن تكون اليهودية وقبل أن تكون النصرانية ، وهى شهادة ، عليكم أن تصدقوا فى بيانها : « ومن أظلم ممن كتم شهادةً عنده من الله . وما الله بغافل عما تعملون »

وهنا تتكرر تلك الفاصلة التى ختم بهـا الحديث من قبل عن إبراهيم وذريته المسلمين ، والتى تدعو أهل الـكتاب ألا يربطوا أنفسهم بذلك السلف الصالح الذى هو منهم برىء : « تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولـكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون » وفيها فصل الخطاب ، ونهاية الجدل ، بعد تقرير الحق فى وراثة الإمامة ، وقانونها الثابت الصحيح .

(انتهى الجزء الأول ، ويليه الجزء الثانى ، مبدوءاً
بقوله تعـالى: « سيقول السفهاء من النـاس »)

كتب للمؤلف

١ ـ فى ظلال القرآن	(فى ثلاثين جزءاً)	دار إحياء الكتب العربية .
٢ ـ العدالة الاجتماعية فى الإسلام	(طبعة ثالثة)	دار الإخوان للطباعة والصحافة .
٣ ـ معركة الإسلام والرأسمالية	(« ثانية)	« « « « «
٤ ـ السلام العالمى والإسلام	(« أولى)	مكتبة وهبة شارع إبراهيم بعابدين.
٥ ـ التصوير الفنى فى القرآن	(« ثالثة)	دار المعارف
٦ ـ مشاهد القيامة فى القرآن	(« ثانية)	« «
٧ ـ النقد الأدبى : أصوله ومناهجه	(« أولى)	دار الفكر العربى
٨ ـ أشواك	(« «)	دار سعد بالفجالة
٩ ـ طفل من القرية	(« «)	لجنة النشر للجامعيين
١٠ ـ الأطياف الأربعة	(بالاشتراك مع إخوته)	« « «
١١ ـ القصص الدينى	(بالاشتراك مع الأستاذ السحار)	« « «
١٢ ـ الشاطئ المجهول	(شعر)	. . . نفد
١٣ ـ كتب وشخصيات	(نقد)	. . . «
١٤ ـ مهمة الشاعر فى الحياة	(«)	. . . «
١٥ ـ نقد كتاب مستقبل الثقافة	(«)	. . . «
١٦ ـ المدينة المسحورة	(قصة)	. . . «

الكتب التالية

(١) نحو مجتمع إسلامى — (٢) أمريكا التى رأيت

(٣) حلم الفجر (شعر) — (٤) قافلة الرقيق (شعر)

في ظلال القرآن

الجزء الثاني

بقلم

سيد قطب

الطبعة الأولى

دار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

« سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ : ما وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كانُوا عَلَيْهَا ؟ قُلْ : لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ، يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ، وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ؛ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ ؛ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ؛ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ . إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ » .

« قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ، فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ؛ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ؛ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ، وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ * وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ، وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ، وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ . وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ، وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ * وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ، فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ، أَيْنَمَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا . إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ، وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ * وَمِنْ حَيْثُ

خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ، لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ . إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي. وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا ، وَيُزَكِّيكُمْ ، وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ، وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ * فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ، وَاشْكُرُوا لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ .

« يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ . إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ * وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ ، بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِنْ لاَ تَشْعُرُونَ * وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ . وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ، الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا : إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ . أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ، وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ » .

كان الحديث عن المسجد الحرام : بنائه وعمارته وما أحاط بهما من ملابسات ؛ والجدل مع اليهود والنصارى والمشركين حول إبراهيم وبنيه ، ودينه وقبلته ،وعهده ووصيته . . كان هذا الحديث الذى سلف فى هذه الصورة خير تمهيد للحديث عن تحويل قبلة المسلمين من المسجد الأقصى ــ الذى كان قبلة محمد صلى الله عليه وسلم ومن معه منذ إخراجهم من مكة ــ إلى المسجد الحرام ، الذى بناه إبراهيم وإسماعيل . إبراهيم الذى أسلم وجهه لله ، ووصى بها من بعده بنيه، ووصى بها يعقوب بنيه كذلك ، وأخذ عليهم الميثاق .

فتحويل قبلة المسلمين إلى المسجد الحرام الذى بناه إبراهيم وإسماعيل يبدو فى هذا السياق طبيعياً منطقياً مع وراثة المسلمين لدين إبراهيم وعهده مع رب العالمين . فهو الاتجاه الحسى المتساوق مع الاتجاه الشعورى فى هذا المقام .

لقد عهد الله إلى إبراهيم أن يكون من المسلمين ؛ وعهد إبراهيم بهذا الإسلام إلى بنيه من بعده . ولقد علم إبراهيم أن وراثة عهد الله وفضل الله لا تكون للظالمين .ولقد عهد الله إلى

إبراهيم وإسماعيل ببناء البيت الحرام . فهو تراث لهما يرثه من يرثون عهد الله إليهم . والأمة المسلمة هى الوارثة لعهد الله مع إبراهيم ولفضل الله عليه ؛ فطبيعى إذن ومنطق أن ترث بيت الله فى مكة ، وأن تتخذ منه قبلة .

فإذا اتجه المسلمون فترة من الزمان إلى المسجد الأقصى ، الذى يتجه إليه اليهود والنصارى ، فقد كان هذا التوجه فرعاً عن الأصل الكبير الذى ينتسب إليه المسلمون والكتابيون جميعاً . هذا الأصل هو إبراهيم . فالآن وقد شاء الله أن يعهد بالوراثة إلى الأمة المسلمة ؛ وقد أبى أهل الكتاب أن يفيئوا إلى الإسلام ، فيشاركوا فى هذه الوراثة .. الآن يجىء تحويل القبلة فى أوانه . تحويلها إلى بيت الله الذى بناه إبراهيم . لتتميز للمسلمين كل خصائص الوراثة : حسها وشعورها . وراثة الدين ووراثة القبلة ووراثة الفضل من الله جميعاً .

إن الاختصاص والتميز ضروريان منذ هذه المرحلة ، فى كل مظهر من مظاهر الحياة والعبادة . ولقد سبقت الإشارة إلى الاختصاص فى ألفاظ الدعاء : « يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا : راعنا . وقولوا : انظرنا . واسمعوا » فالآن يتم هذا الاختصاص فى القبلة ذاتها . وهو أوضح وأظهر . إعداداً لهذه الأمة الوارثة لعهدالله مع إبراهيم، أن تنهض بتبعاتها الجسام فى قيادة البشرية ؛ وأن تؤدى دورها الضخم ، فتكون الأمة الوسط التى تشهد على الناس وتقيم بينهم القسط بالميزان .

ومنذ هذه النقطة سنرى أن السياق فى السورة يسير فى بيان تبعات هذه الأمة ، وإعدادها نفسياً ، وتنظيمها عملياً ، وبيان الكثير من تكاليفها فى العبادات والمعاملات . فمن حديث عن الصبر على المكاره ، إلى تعليم شعائر الحج ، إلى بيان بعض الحلال والحرام فى الطعام ، إلى تجلية معنى البر وحقوق الله فى المال ، إلى القصاص وآثاره فى حياة الجماعة ، إلى الوصية عند الموت ، إلى فريضة الصيام ، إلى أحكام القتال ، إلى حكم الخمر والميسر ، إلى شريعة النكاح وروابط الأسرة ، إلى آداب النفقة والصدقة ، إلى تحريم الربا ، إلى شروط الدَّين ... تتخلل هذه الأحكام تلك التوجيهات القرآنية إلى الله ، وإلى آيات الله .. على طريقة القرآن الفريدة فى مخاطبة القلب كما خاطب العقل ، وإلى توجيه الضمير كلما هم بالتشريع .

ومنذ هذه النقطة نحن مع الأمة المسلمة وحدها ، وقد خلص السياق كله لها . الأمة التى رباها القرآن بهدى القرآن . . .

***

« سيقول السفهاء من الناس : ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها ؟ »

والسفهاء من الناس لا يدركون شيئاً من حكمة الله فى توجيه المسلمين إلى قبلتهم الخاصة . تلك الحكمة التى أسلفنا الحديث عنها . ولا يمكن أن تعى قلوبهم ولا عقولهم أن تحويل القبلة كان من أجل تلك المعانى .. إنهم محجوبون عن حكمة التوجيهات لأنهم سفهاء . وأين من الحكمة السفهاء ؟ إنهم لا يرون إلا ظاهراً من الأمر . وما خفيت علته يكون موضعاً للاستفهام والاسترشاد من المخلصين الذين يريدون المعرفة . فأما السفهاء فهو عندهم مثار الهزل ومبعث الاستهزاء .. لهذا لم يجىء الرد عليهم مباشراً ، متضمناً بيان الحكمة الخاصة لتحويل القبلة ؛ إنما جاء تقريراً لقاعدة أساسية :

« قل : لله المشرق والمغرب . يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم »

وإذن فكل مكان مصلى ، وكل متجه قبلة . ولا داعى للعجب أن يولى الله بعض عباده قبلة هنا أو هناك . فلله المشرق والمغرب . وأينما تولوا فثم وجه الله .

وبعد تقرير هذه القاعدة الأساسية الثابتة يأخذ السياق فى كشف الحكمة المباشرة الخاصة .. إنها إعداد هذه الأمة إعداداً خاصاً ، وتوجيهها متجهاً خاصاً ، كيما تتميز وتتخصص ، وكى لا تندمج فى الغمار ، وكى لا تكون تابعة فى قبلتها لأتباع ملة أخرى .. وما استقلال القبلة إلا رمز لاستقلال الوجهة ، واستقلال الطريق ، واستقلال المنهج والسلوك .. إنها الأمة الوسط التى تشهد على الناس جميعاً ، وتؤدى القسط للناس جميعاً ؛ فينبغى إذن أن تكون لها قبلتها الخاصة ، ومنهجها الخاص ، ومقوماتها الخاصة ، كى تنهض بالتبعة الكبرى ، وتؤدى الدور العظيم :

« وكذلك جعلناكم أمة وسطاً(١) ، لتكونوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول عليكم شهيداً »

« أمة وسطاً » فى المكان . فى سرة الأرض ، وفى أوسط بقاعها .. وما تزال الأمة المسلمة إلى هذه اللحظة هى الأمة التى تتوسط أقطار الأرض بين شرق وغرب وجنوب وشمال . وما تزال بجغرافيتها تشهد الناس جميعاً ، وتشهد على الناس جميعاً ؛ وتعطى ما عندها لأهل الأرض

---

(١) الوسط من التوسط ، والوسط بمعنى الأفضل . والمعنيان متصلان . فخير الأمور أوساطها .

قاطبة ؛ وعن طريقها تعبر ثمار الطبيعة وثمار الإنسان من هنا إلى هناك ؛ وتتحكم فى هذه الحركة ماديها ومعنويها على السواء .

« أمةً وسطاً » فى الزمان . تنهى عهد الطفولة البشرية من قبلها ، وتحرس الرشد العقلى من بعدها . وتقف فى الوسط ، تنفض عن البشرية ما علق بها من أوهام وخرافات من عهد طفولتها الأولى ؛ وتصدها عن الفتنة بالعقل والهوى ؛ وتزاوج بين تراثها الروحى من عهود الرسالات ، ورصيدها العقلى المستمر فى النماء ؛ وتسير بها على الصراط بين الهدى والضلال .

« أمةً وسطاً » فى العقيدة . لا تغلو فى التجرد الروحى ولا فى الارتكاس المادى . ولكنها تتبع هدى الفطرة الممثلة فى روح وجسد ، تعطى لكل منهما حقه ؛ وتعمل لترقية الحياة مع امتداد الحياة ؛ وتطلق كل نشاط فى عالم الأشواق وفى عالم النوازع ، بلا تفريط فى أحد العالمين أو إفراط .

« أمةً وسطاً » فى التفكير . لا تجمد على ما عندها وتغلق منافذ التجربة والاستنارة ؛ وتقول : « إنا وجدنا آباءنا على أمة ، وإنا على آثارهم مقتدون » ولا تتبع كذلك كل ناعق ، وتقلد تقليد القردة المضحك . إنما تستمسك بما لديها من مناهج وأصول ، ثم تتطلع إلى نتاج الفكر والتجريب . وشعارها الدائم : الحقيقة ضالة المؤمن أنى وجدها أخذها .

« أمةً وسطاً » فى التنظيم . لا تدع الحياة كلها للمشاعر والضمائر ، ولا تدعها كذلك للتشريع والتنفيذ . إنها ترفع ضمائر البشر بالتوجيه والتهذيب ؛ وتكفل نظام الحياة بالتشريع والتأديب ؛ وتزاوج بين هذه القوة وتلك ، فلا تكل البشرية إلى سوط السلطان ، ولا تكلها كذلك إلى وحى الوجدان .

« أمةً وسطاً » فى التنسيق . لا تلغى شخصية الفرد ومقوّماته ، ولا تلاشى شخصيته فى شخصية الدولة أو الجماعة ؛ ولا تطلقه كذلك فرداً أثراً لا همّ له إلا نفسه ، ولا دافع له إلا هواه . إنما تطلق من الدوافع ما يؤدى إلى الحركة والنماء ، وتطلق من النوازع ما يحقق شخصية الفرد وذاته ؛ ثم تضع من الكوابح ما يقف دون الغلو ، وتقرر من التكاليف ما يجعل الفرد خادماً للجماعة ، والجماعة كافلة للفرد ، فى تناسق وانسجام .

وأمة هذه سماتها هى خير أمة وأوسطها : « كنتم خير أمة أخرجت للناس » وهى خليقة بأن تكون شهيدة على الناس ، تسجل عليهم مناهجهم ، وتكشف لهم عما فيها من انحراف ،

وتكشف لهم منهج الحق ، وتهديهم إلى الصراط . ويكون رسولها شهيداً عليها ، يكشف لها عن الهدى ، ويحذرها طريق الغواية ، ويرقبها فى الشعور والسلوك ، ويعدها لما ناطه الله بها فى الأرض من مهام .

وأمة تلك وظيفتها خليقة بأن تحتمل التبعة ، وتبذل التضحية . فللقيادة تكاليفها ، وللقوامة تبعاتها . ولا بد أن تفتن قبل ذلك وتبتلى ، وأن يمتحن استعدادها للطاعة ، واحتمالها للمكاره وثباتها على المبدأ ، واتصالها بالله :

« وما جعلنا القبلة التى كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه » .

وإذن فلقد كانت هنالك حكمة كامنة وراء اتخاذ القبلة الأولى ، وتحويلها إلى القبلة الأخيرة : « لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه » وإن الله ليعلم السر وأخفى . ولكنه يريد أن يظهر الخبء ، وأن يكشف المستور ، وأن تكون أعمال الناس الظاهرة هى الحجة عليهم عند أنفسهم وعند سواهم .

وإذا كان بعض أهل الكتاب قد مالوا إلى الإسلام لمجرد أنه جعل قبلتهم قبلته ، فلقد كان من الحق أن يميز الله الصادقين فى إيمانهم ، من الذين تجذبهم تلك الملابسة وحدها ، وتعجبهم من الإسلام بمفردها ! فأولئك وحدهم هم الجديرون بحمل التبعة الكبرى ، والنهوض بأمانة الإسلام ، وافق رغباتهم وكبرياءهم أم خالفها . فالإسلام استسلام لله ، أنى وجه المؤمن توجه ، وكيفما كلفه أطاع .

« وإن كانت لكبيرةً إلا على الذين هدى الله » .. فالاستسلام المطلق ، والتوجه إلى أى متجه ، والتحول عن إلف النفس ، وميسور العادة .. كل أولئك عسير على النفس وشاق . وإن الله ليعلم . وهو أعلم بمن خلق . ولكنه الامتحان العسير للواجب الكبير .

« وما كان الله ليضيع إيمانكم » .. فهو يهدى المؤمنين ، ويمدهم بالعون من عنده ، لاجتياز الامتحان ، حين تصدق النية ، وتصح العزيمة . وإذا كان البلاء مظهراً لحكمته ، فاجتياز البلاء فضل من رحمته : « إن الله بالناس لرؤوف رحيم » .

« قد نرى تقلب وجهك فى السماء . فلنولينك قبلة ترضاها . فول وجهك شطر المسجد الحرام ، وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره »

إنه تعبير مصور لحالة الرسول صلى الله عليه وسلم : « قد نرى تقلب وجهك فى السماء »

إنه يشى بتلك الرغبة القوية فى أن يأذن له ربه بقبلة غير القبلة التى كان عليها ـ وقد كانت هى بيت المقدس قبلة اليهود والنصارى ـ وكان الرسول صلوات الله وسلامه عليه يشتاق قبلة إبراهيم ، قبلة المسجد الحرام ، فى مكة التى أخرج منها وقلبه معلق بها ، وهو يقول : « والله لو لم يخرجونى منك ما خرجت » وكان يقلب وجهه فى السماء ولا يصرح ، كان يتوجه بقلبه إلى ربه ولسانه لايبين . تأدباً مع الله سبحانه ، فلا يقترح عليه مايرغب فيه ، بل يكتفى بالتوجه الصامت ، حتى يسمع له ربه ويجيب .

ولقد أجابه الله سبحانه .. والتعبير عن هذه الاستجابة يشى بتلك الصلة الرحيمة الراعية الحانية : « فلنولينك قبلة ترضاها » .. « فول وجهك شطر المسجد الحرام » .. « وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره » لقد استجاب الله لنبيه ، وقرر له قبلته وقبلة أمته . حيثما كان وحيثما كانوا . قبلة أبيهم إبراهيم ، أول المسلمين .

والآن ما شأن أهل الكتاب وهذه القبلة الجديدة ؟ إنهم ليعلمون أن الأمر بالتوجه إليها هو أمر الله الحق الذى لا مرية فيه . فهم يعلمون أنها قبلة إبراهيم . وهم يعلمون أن الإسلام هو الامتداد الطبيعى لدين إبراهيم ، وأن محمداً رسول الله والذين معه أحق الناس أن يتوجهوا إلى هذه القبلة . ولكنهم مع هذا لن يسلموا بالحجة ، ولن يتبعوا قبلة المسلمين الجديدة ، كما أنهم لم يتبعوا كتابهم الذى جاء مصدقاً لما بين يديه من التوراة والإنجيل . ذلك أن الأمر ليس أمر منطق وحجة وبرهان ، إنما هو أمر هوى وغرض ومصلحة . وما كان اختلاف معظم الناس لأنهم يطلبون حجة أو يتبعون منطقاً ، ولكن لأن لهم هوى وفى قلوبهم غرضاً ، ثم هم يلبسونه ثوب الحجة ويتخذون منها علة :

« ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك » وكذلك أنت ـ وقد جاءك العلم من ربك ـ لن تميل مع أهوائهم : « وما أنت بتابع قبلتهم » . تلك الأهواء التى تفرقهم شيعاً ، لكل شيعة منهم وجهة : « وما بعضهم بتابع قبلة بعض » . وما كان لك وهذا شأنك وشأنهم أن تتبع أهواءهم «ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ماجاءك من العلم إنك إذاً لمن الظالمين» .

ونحب أن نقف لحظة هنا أمام ذلك التعبير الحازم الصارم ، فى ذلك الخطاب الإلهى إلى النبى الكريم . إنه سمة من سمات الإسلام الأساسية . فحتى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا يحابى ولا يجامل . ولا يلين الخطاب معه فى موقف التشريع والتقرير .. إنه إما الطاعة

والاستقامة : « فاستقم كما أمرت » وإما المواجهة والمجابهة : « إنك إذاً لمن الظالمين » .. إن الحق لا مجاملة فيه ولا هوادة . ولا امتياز لأحد حين يكون الأمر أمر الشريعة وأمر الدين ..

وبعد هذه الوقفة العابرة نعود إلى السياق . فنجده لا يزال يقرر معرفة أهل الكتاب الجازمة بأن الحق هو ما جاء به الإسلام ، وما أمر به الرسول :

« الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم »

فإذا كان بعضهم ينكر ما يعلم ، ويعترض على الإسلام ورسول الإسلام ، فليس ذلك لأنهم يجهلون الحقيقة ، ولكن لأنهم يكتمون الحقيقة . فلا يجعلك كتمانهم أو إنكارهم ترتاب فى الحق الذى جاءك أيها الرسول :

« وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون . الحق من ربك فلا تكونن من الممترين »

ومع هذا فلكل فريق ولكل فرد وجهة هو متجه إليها ، وطريق هو سالك فيه . فليكن هم كل فريق وكل فرد أن يتجه إلى الخير وأن يسابق إليه :

« ولكل وجهة هو مُوليها فاستبقوا الخيرات » ..

ثم فى النهاية تلتقى السبل كلها عند الله ، وتجتمعون كلكم بين يديه ، وهو القادر على أن يجمعكم من شتى السبل وشتى البقاع :

« أينما تكونوا يأت بكم الله جميعاً . إن الله على كل شىء قدير »

« ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام . وإنه للحق من ربك ، وما الله بغافل عما تعملون »

عودة إلى تقرير القبلة الجديدة ، وتصريح بأن هذا التوجه هو الحق الذى يريده الله . وإن كان تلبية لرغبة الرسول ورضاه . ولهذا الغرض الأخير يجىء هذا التكرار .

ثم توكيد للمرة الثالثة بمناسبة غرض جديد آخر :

« ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام ، وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره . لئلا يكون للناس عليكم حجة »

وهكذا نجد لكل تكرار معنى جديداً فى السياق .. فى المرة الأولى كان الأمر بالتوجه إلى المسجد الحرام تلبية لرغبة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتقلب وجهه فى السماء .

وفى الثانية كان لإثبات أنه الحق من الله ، لا لمجرد الهوى والاتجاه . وفى الثالثة كان لقطع حجة الناس ، الذين كانوا يرون المسلمين يستقبلون قبلة بنى إسرائيل ، بينما هم يدعون إلى دين جديد . وربما دعاهم هذا إلى أن يقولوا : إذا كانت لهؤلاء دعوة خاصة ، فهلا كانت لهم قبلة خاصة ؟ فهذا التوجه إلى المسجد الحرام يقطع هذه الحجة التى تبدو مقبولة . « إلا الذين ظلموا منهم » فهؤلاء لن يتركوا اللجاج ، ولن يقنعهم المنطق ، فدعوهم لا تقيموا لهم وزناً ، ولا يكونوا لكم فى حساب « فلا تخشوهم واخشونى » وحسبكم أن توجهكم إلى قبلتكم ينفى حجة من تهمهم الحجة ؛ ثم هو كذلك إكمال لنعمة الله عليكم ، بتمييزكم وتخصيصكم بدين جديد ، وبقبلة خاصة : « ولأتم نعمتى عليكم » ولكى تهتدوا إلى حقيقة مهمتكم الكامنة وراء هذا التخصيص والتوجيه : « ولعلكم تهتدون » .

ثم يستطرد السياق فى توضيح هذا المعنى وتوكيده :

« كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم ، يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ، ويعلمكم الكتاب والحكمة ، ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون . فاذكرونى أذكركم ، واشكروا لى ولا تكفرون » .

« رسولاً منكم » .. إنه التكريم أن تكون الرسالة فيكم ، وأن يختار الرسول منكم .. وفى هذه الإشارة امتداد لمعنى التكريم الذى يتضمنه التوجيه إلى قبلة خاصة غير قبلة بنى إسرائيل؛ وامتداد لمعنى الإنعام والتفضل فى قوله قبلها : « ولأتم نعمتى عليكم » .. « رسولاً منكم . يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم » ويطهر نفوسكم وسلوككم واجتماعكم ، « ويعلمكم الكتاب والحكمة » الكتاب تقرأونه وتسمعونه ، والحكمة تكسبونها وتتصرفون بها . « ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون » .

والنعمة تستوجب ذكر المنعم وشكره ، والمعرض معرض توجه إلى القبلة وصلاة . والصلاة ذكر وشكر . فهنا يجىء الأمر فى أنسب ظروفه والنفوس متهيئة له ومتأهبة : « فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون » .

ثم لقد سبق أن ذكرنا أن السياق فى هذه السورة يتجه منذ هذه النقطة لبيان تبعات هذه الأمة وإعدادها نفسياً وتنظيمها عملياً ، وبيان الكثير من تكاليفها فى العبادات والمعاملات .. فالآن نجدنا فى مطلع هذا البيان والإعداد :

« يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة : إن الله مع الصابرين » .

فأما الاستعانة بالصبر على التكاليف والمشاق فهى واضحة مفهومة . فأما الاستعانة بالصلاة فتلك التى تحتاج إلى شىء من البيان .

إنه لا بد للفرد الفانى المحدود القوى والطاقة أن يتصل بالقوة الكبرى ، يستمدها العون حينما يتجاوز الجهد قواه المحدودة . حينما تواجهه قوى الشر والطغيان والفساد وهى كثيرة . حينما يطول به الطريق وتبعد به الشقة فى عمره المحدود . حينما يجد الشر نافشاً والخير ضاوياً ، فلولا ثقة وراء الواقع فى قوة أكبر من قوى الواقع ليئس وضل وخانته الآمال .

هنا تبدو قيمة الصلاة . إنها الصلة المباشرة بين الفرد الفانى والقوة الخالدة . إنها الموعد المختار لالتقاء القطرة المنعزلة بالنبع الذى لايغيض . إنها مفتاح الكنز الذى يغنى ويقنى ويفيض. ومن هنا كان الرسول صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر أكثر من الصلاة ليكثرمن لقائه بالله .

ثم يسير بنا السياق خطوة أخرى فى إعداد تلك الأمة المؤمنة ، لمهمتها العظيمة الشاقة ، فى طريقها الطويل الشائك ، المملوء بالضحايا والخوف والجوع ، والنقص فى الأموال والأنفس والثمرات :

« ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات ، بل أحياء ولكن لا تشعرون . ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات . وبشر الصابرين . الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا : إنا لله وإنا إليه راجعون . أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون » ..

« ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات، بل أحياء ولكن لا تشعرون » ..

إنهم أموات فى ظاهر الأمر ، وحسبما ترى العين . ولكن حقيقة الموت وحقيقة الحياة لا تقررهما تلك النظرة السطحية الظاهرة . إن سمة الحياة الأولى هى الامتداد والتأثير . وسمة الموت الأولى هى الانقطاع والسلبية . وهؤلاء القتلى فى سبيل الله ذكراهم ممتدة ، وتأثيرهم فى واقع الحياة ممتد . تأثيرهم فى نصرة العقيدة التى من أجلها قتلوا ، وتأثيرهم فى نفوس المجاهدين الآخرين الذين ما يزالون يجاهدون . وتأثيرهم فى تكييف الحياة المقبلة وتسييرها وتوجيهها .. وكل هذه حقائق واقعة لا أوهام ولا أساطير . فهم أحياء بهذا الاعتبار . أحياء فى عالم الواقع بتلك الآثار .

ثم هم أحياء عند ربهم — إما بذلك الاعتبار ، وإما باعتبار آخر لا ندرى نحن كنهه ،

وحسبنا إخبار الله تعالى به : « أحياء ولـكن لا تشعرون » لأن كنه هذه الحياة مما لا يبلغ إدراكنا البشرى طبيعته، لـكن الله يعلمه .

وتمشياً مع النظرية القرآنية فى الشهداء ، فإنهم لا يغسلون ، ثم هم يدفنون فى ثيابهم بلا أكفان . فالغسل تطهير وهم أطهار بما فيهم من حياة ، وثيابهم فى الحياة ثيابهم فى القبر لأنهم كذلك أحياء .

« ولنبلونـكم بشىء من الخوف والجوع ، ونقص من الأموال والأنفس والثمرات » ..

ولا بد من تربية النفوس بالبلاء ، ومن امتحان الإرادة بالخوف والجوع ونقص الأموال والأنفس والثمرات . لا بد من هذا البلاء ، ليؤدى المؤمنون تـكاليف العقيدة ، كى تعز على نفوسهم بمقدار ما أدوا فى سـبيلها من تـكاليف . والعقائد الرخيصة التى لا يؤدى أصحابها تكاليفها لا يعز عليهم تركها عند الصدمة الأولى . فالتكاليف هنا هى الثمن الذى تقوّم به العقيدة فى نفوس متبعيها . وكلما تألموا فى سبيلها ، وكلما بذلوا من أجلها . كانت أعز عليهم وكانوا بها أضن .. كذلك لن يدرك الآخرون قيمتها إلا حين يرون ابتلاء أهلها بها وصبرهم على بلائها.. عندئذ يقولون فى أنفسهم : لو لم يكن ما عند هؤلاء أعز مما يبتلون به ما قبلوا هذا البلاء ، ولا صبروا عليه . وعندئذ ينقلب المعـارضون للعقيدة ، باحثين عنها ، مقدرين لها ، مندفعين إليها ، كما يقع فى كل دعوة يصبر أهلها على البلاء فى سبيلها ، ويقبلون النقص فى الأموال والأنفس والثمرات ، ولا يقبلون النقص فيها . . وعندئذ تحق البشرى . بشرى النصر والغلبة والثواب ورضاء الله كلها فى آن :

« وبشر الصابرين . الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا : إنا لله وإنا إليه راجعون » ..

إنهم يفوضون الأمر لله ، فى تسليم مطلق لإرادته ، واعتراف كامل بمالـكيته وحاكميته : « إنا لله » كلنا . كل ما فى كياننا . كل ذاتيتنا . لله . وإليه الرجعة وإليه المـآب .. إنه ليس تسليم الضعف والتواكل ، بل تسليم المعرفة والالتجاء . تسليم المعرفة بأن لله حكمته فى الابتلاء . وتسليم الالتجاء إلى القوة الـكبرى التى تصرف الـكون والأحياء .

« أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون » .. المهتدون إلى الناموس الأزلى الذى تسير الحياة على سنته ، وتصرف الأمور على هداه . المهتدون إلى تكاليف الإنسان الذى استخلفه ربه واصطفاه . . أولئك عليهم صلوات من ربهم ، ورحمة من عنده ، والابتلاء

كما قلنا من قبل حكمة ، والإعانة على تقبله رحمة . فليس مقصوداً به فى النهاية العذاب والانتقام ، إنما المقصود به التعليم والتوجيه . والتعليم رحمة والتوجيه فضل . وسنة الله تمضى فى الحياة وفى الأحياء .

« إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ ٱللَّهِ ، فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا ، وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ .

« إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَاتِ وَٱلْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَابِ .. أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّاعِنُونَ * إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ، وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ .

« إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَائِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ * خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ .

« وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ * إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَافِ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ، وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ ٱلنَّاسَ ، وَمَا أَنْزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ ، وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَاحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ .

« وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ، وَٱلَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ . وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ * إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا وَرَأَوُا ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ * وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا ! كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ .

« يا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلالاً طَيِّباً ، وَلا تَتَّبِعوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * إِنَّما يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشاءِ ، وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ .

« وَإِذا قِيلَ لَهُمُ : اتَّبِعُوا ما أَنْزَلَ اللَّهُ قالُوا : بَلْ نَتَّبِعُ ما أَلْفَيْنا عَلَيْهِ آباءَنا ، أَوَلَوْ كانَ آباؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ ؟

« وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِما لا يَسْمَعُ إِلاّ دُعاءً وَنِداءً ، صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ .

« يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ ، وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ * إِنَّما حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَما أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ ، فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ باغٍ وَلا عادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ . إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

« إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً . . أُولئِكَ ما يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ ، وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ * أُولئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدى وَالْعَذابَ بِالْمَغْفِرَةِ . فَما أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ! * ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ ، وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتابِ لَفِي شِقاقٍ بَعِيدٍ » .

نطلع فى تلك الآيات على أحكام منوعة : حكم الطواف بين الصفا والمروة ؛ وحكم من يكتمون ما أنزل الله من البينات والهدى ؛ وحكم من كفروا وماتوا وهم كفار ؛ وأحكام فى الطعام ما حلل منه وما حرم .. تتخلل هذه الأحكام تلك التوجيهات القرآنية إلى آيات الله فى الكون ، وإلى حكمة التشريع والتوجيه ..

كل أولئك يتساوق مع الغرض الذى جلوناه آنفاً . . وهو : إعداد هذه الأمة للتكاليف الضخمة التى ناطها الله بها ، وتربية روحها ، وتعريفها حدودها . فى ذلك الأسلوب القرآنى الخبير بأطواء النفس ، ومطارح الحس ، ومداخل القلب ، ومسالك الشعور .

« إن الصفا والمروة من شعائر الله . فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوّف بهما » .

وقد تحرج المسلمون أن يطوفوا بالصفا والمروة فى الحج أو العمرة ، لأن هـذا الطواف كان من شعائرهم فى الجاهلية فكرهوا أن يعملوا فى الإسلام شيئاً مما كان من أمر الجاهلية . . ذلك أن الدعوة الجديدة قد هزت أرواحهم هزاً قوياً ، وتسللت إلى أعماق مشاعرهم ، فأحدثت فيها انقلاباً نفسياً كاملاً ، حتى لينظرون بجفوة وتحرز لكل ما كانوا عليه فى الجاهلية ؛ ويتحرجون أن يأتوا عملاً أو يقولوا قولاً مما كانوا يأتون . . وإن القارىء لسيرة هذه الفترة من حياة القوم ليحس بقوةٍ أثر تلك العقيدة العجيب فى تلك النفوس . يحس الانقلاب الكامل فى تصورهم للحياة ، وإدراك ما بينها من علاقات ، حتى لكأن محمداً — صلى الله عليه وسلم — قد أمسك بكل نفس فهزها هزة نفضت عنها كل رواسبها ، وأعادت تأليف ذراتها على نسق جديد ، كما تصنع الهزة الكهربائية فى تأليف ذرات الأجسام على نسق غير الذى كان .

على أية حال لقد تحرج كثير من المسلمين أن يطوفوا بالصفا والمروة فى الإسلام ، وقد كانوا يطوفون بهما فى الجاهلية ، فنزلت هذه الآية لتطمئنهم على أن ليس كل مباح فى الجاهلية محرماً فى الإسلام ، ولا العكس بطبيعة الحال . ولقد أبقى الإسلام بالفعل بعض التقاليد والشعائر التى لا تصطدم بفكرته الأساسية عن الحياة ؛ كما استبقى بعض التشريعات التى سلفت بها شرائع عرفتها الإنسانية من قبل فى تاريخها الطويل .

استبقاها لأن هدف الإسلام الأكبر لم يكن قلب الحياة لمجرد الانقلاب ، والفصل بين ماضيها وحاضرها لمجرد الرغبة فى التغيير . إنما جاء الإسلام بنظام روحى اجتماعى عملى متكامل، فكل ما لم يعارض هذا النظام ، ولم يصدم فكرته الكلية من تجارب البشرية ومن تشريعاتها ومن شعائرها استبقاه ، وكل ما خالف عن هذه الفكرة عدله أو نفاه .

وإن كثيراً من أهل الهوى ليتلمسون الموافقات التى يرونها بين أجزاء من شريعة الإسلام

وأجزاء من الشرائع القديمة ، وبين بعض الشعائر الإسلامية ـ وبخاصة فى الحج ـ وبعض الشعائر عند العرب القدامى أو سواهم ؛ ليصوغوا حول هذه الموافقات أوهاماً وشبهات ، لا تقوم إلا فى نفوس من يتلمسون الأوهام والشبهات !

إنه ليس من المفروض أن تكون البشرية مخطئة خطأ كاملاً فى كل ما كانت عليه قبل الإسلام ، كى يجىء الإسلام فيحطم كل جزئية فى ماضيها الطويل ، ويبتدع كل جزئية من نظامه على أساس مغاير لكل جزئية سبقت فى شريعة أو تقليد .. ولا بدأن يكون للبشرية شىء صواب كانت عليه ، ولا بد أن هناك بعض الحقائق الأساسية فى هذه الحياة ، تلتقى عندها الشرائع والمدارك . فلا على الإسلام أن يستبقى هذا النوع ويضمه إلى نظامه المتكامل . بل إن فيه لتقريراً للوشائج البشرية العميقة بين جميع الأجيال ، وتقريراً كذلك لوحدة الشرائع الإلهية فى جميع الأزمان .

وبمثل هذه النظرة يرى الإسلام تجارب البشرية بعد مجيئه ، فهو لا يحارب فكرة ولا تقليداً ، ما لم يصدم فكرته الكلية عن الحياة ؛ ولا ينفى تجربة إنسانية أو خبرة عملية فى عالم الفرد أوعالم الجماعة ما لم تفسد نظامه وتخلخل أحكامه . وكل ما تصل إليه البشرية من علم أو خبرة يتقبله الإسلام ويباركه ، ما لم يعارض أساسه ونظامه .

وهكذا قرر الإسلام مشروعية الطواف بين الصفا والمروة ، وكثيراً من شعائر الحج الأخرى التى كان لها نظائر فى الجاهلية أو فى بعض الديانات ، وعدها من شعائر الله ، واعتبرها خيراً ، من تطوع بأدائه شكر الله له : « ومن تطوع خيراً فإن الله شاكر عليم » .

ولا بد أن نقف لحظة أمام ذلك التعبير الموحى : « فإن الله شاكر » إن المعنى المقصود أن الله يرضى عن ذلك الخير ويثيب . ولكن كلمة « شاكر » تلقى ظلالاً ندية وراء ذلك المعنى المجرد . تلقى ظلال الرضى الكامل حتى لكأنه الشكر من الله للعبد . وتوحى بالأدب الواجب فى حق الإحسان . فإذا كان الله يشكر لعبده الخير ، فماذا يصنع العبد ليوفى ربه حقه من الشكر ، على ما يمنحه كل لحظة من خير ؟ ... تلك ظلال التعبير القرآنى التى تلمس الحس بكل مافيها من الندى والرفق والجمال .

***

ومن بيان مشروعية الطواف بين الصفا والمروة ، ينتقل السياق إلى بيان حكم الذين يكتمون ما أنزل الله من البينات والهدى : فهل هناك من صلة — ولو خفية — بين هذا الغرض وذاك ؟

« إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى — من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب — أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون » .

ولقد كان أهل الكتاب — من اليهود والنصارى — يعرفون مما بين أيديهم من آيات ، أن رسالة محمد — صلى الله عليه وسلم — حق ، وأن شريعته هى شريعة الله الخالدة ، المصدقة لما بين أيديهم من شريعة ، ولكنهم لم يفعلوا ما فعله الإسلام من إقرار كل ما هو حق وتبيينه وضمه إلى شريعته ، وإقراره واتباعه على النحو الذى اتبعه فى الطواف بالصفا والمروة ، المذكورين فى هذه المناسبة .. بل إنهم كتموا ما بينه الله لهم فى كتابهم ، من وحدة الرسالة وتسلسلها ؛ وأخفوا ما يدل على هذه الوحدة ، وعندئذ استحقوا لعنة الله بهذا الكتمان :

« أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون » .

كأنما تحولوا إلى ملعنة ينصب عليها اللعن من كل مصدر ، ويتوجه إليها من كل من يستطيع اللعن ويؤديه !

« إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا . فأولئك أتوب عليهم ، وأنا التواب الرحيم » .

هنا يفتح القرآن تلك النافذة المضيئة — نافذة التوبة — يفتحها مشعة تبعث الأمل فى النفوس ، وتقودها إلى مصدر النور ، فلا تيئس من رحمة الله ، ولا تقنط من عفوه ، فمن شاء فليرجع إلى الحمى الآمن ، صادق النية ؛ وآية صدق النية العمل الصالح ، وليبين ما كتم ، وليعلن للناس الحق . ثم ليثق برحمة الله وعفوه ، فهو سبحانه يقرر صفته : « وأنا التواب الرحيم » .

« إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار . أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون » .

ذلك أنهم أغلقوا على أنفسهم تلك النافذة المضيئة ، ومضوا فى ظلام مطبق إلى المصير المعتم . « أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين » فهى لعنة مطبقة لا استثناء فيها ولا منفذ . ولم يذكر السياق لهم عذاباً آخر غير هذه اللعنة المطبقة . بل عدها عذاباً لا يخفف عنهم ولا

يؤجل موعده ، ولا يمهلون فيه . وإنه لعذاب دونه كل عذاب . أن يحسوا أنهم منبوذون لا يتلقاهم صدر واحد بحنان ، ولا نظر واحد بقبول ، ولا لسان واحد بتحية . إنهم ملعونون مطرودون منبوذون . . وممن ؟ من الله خالقهم ومن ملائكته ومن الناس أجمعين !

***

ومن هنا ينتقل السياق فى الاتجاه ذاته إلى توحيد الإله : « وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم » متخذاً سبيله إلى تثبيت هذه العقيدة توجيه المشاعر والمدارك إلى ما فى الكون المشهود من آيات ودلائل :

« إن فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار ، والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ، وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون » .

هذه الطريقة من تنبيه الحواس والمشاعر جديرة بأن تفتح العين والقلب على عجائب هذا الكون التى أفقدتها الألفة جدتها وغرابتها ، ودعوة للإنسان أن يرتاد الكون كالذى يراه أول مرة ، وكم فى هذه المشاهد المكرورة من عجيب وكم فيها من غريب ، وكم اختلجت العيون والنفوس وهى تطلع عليها أول مرة ، ثم ألفتها ففقدت هزة المفاجأة ، ودهشة المباغتة ، وفقدها الإنسان أو كاد لأنه لم يعد يتملاها بالعين الجديدة التى رأتها أول مرة .

تلك السموات والأرض .. هذه الأبعاد الهائلة والأجرام الضخمة . هذا التناسق فى جريانها فى ذلك الفضاء الهائل الذى يدير الرؤوس ..

اختلاف الليل والنهار .. تعاقب النور والظلام . . توالى الإشراق والعتمة .. ذلك الفجر الأول وذلك الغروب . كم اهتزت لها مشاعر ، وكم وجفت لها قلوب ، وكم كانت أعجوبة من الأعاجيب .

والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس . . أشهد ما أحسست لهذه اللفتة من عمق ، قدر ما أحسست ونقطة صغيرة فى خضم المحيط ، تحملنا وتجرى بنا ، والموج المتلاطم والزرقة المطلقة من حولنا . والفلك سابحة متناثرة هنا وهنالك . ولا شىء إلا قدرة الله ، وإلا رعاية الله ، وإلا قانون الطبيعة الذى جعله الله ، يحمل تلك النقطة الصغيرة على ثبج الأمواج وخضمها الرعيب .

وما أنزل الله من السماء من ماء ، فأحيا به الأرض بعد موتها ، وبث فيها من كل دابة ؛ وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض .. وكلها مشاهد لو أعاد الإنسان تأملها بعين مفتوحة وقلب واع ، لارتجف كيانه من عظمة القدرة .. تلك الحياة التى تنبعث من الأرض حينما يجودها الماء . هذه الحياة المجهولة الكنه . اللطيفة الجوهر . التى تدب فى لطف، ثم تتبدى جاهرة معلنة قوية .. ثم تلك الرياح المتحولة من وجهة إلى وجهة ، وذلك السحاب المحمول على هواء ، المسخر بين السماء والأرض ، الخاضع للناموس الذى أودعه الخالق الوجود ... إن فى ذلك كله « لآيات لقوم يعقلون » ... نعم لو ألقى الإنسان عن عقله بلادة الألفة ؛ فاستقبل مشاهد الكون بحس متجدد ، ونظرة متطلعة . ولو سار فى هذا الكون كالرائد الذى يهبطه أول مرة . تلفت سمعه كل نأمة ، وتلفت حسه كل حركة ، وتلفت عينه كل ومضة ؛ وتهز كيانه تلك الأعاجيب التى ما تنى تتوالى على المشاعر والأبصار والقلوب[1] .

مع هذا فإن هنالك من لا ينظر ولا يتعقل ، فيحيد عن التوحيد الذى يوحى به النظر فى وحدة الناموس الكونى العجيب :

« ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحبِّ الله » .

يحبونهم الحب الذى ما كان لمخلوق أن يتوجه به إلا لله ، لأنه مقصور على الله « والذين آمنوا أشد حباً لله » أشد حباً لله حباً مطلقاً من كل موازنة ومن كل قيد . أشد حباً لله من كل حب يتوجهون به إلى سواه . والتعبير بكلمة « الحب » هنا تعبير جميل فوق أنه تعبير واقعى . فالصلة بين المؤمن الحق وبين الله هى صلة الحب قبل أن تكون أية صلة . صلة الوشيجة القلبية ، والتجاذب الروحى : صلة المودة والقربى والوجدان المشدود بعاطفة الحب الرفاف .

« ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعاً وأن الله شديد العذاب . إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ، ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب . وقال الذين اتبعوا : لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرأوا منا ! كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم ، وما هم بخارجين من النار » .

من الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله .. إنهم ظالمون ، يظلمون الحق ، ويظلمون العقل ، ويظلمون أنفسهم . ولو مد هؤلاء بأبصارهم إلى يوم يقفون بين

---

(١) فى كتاب : « أومن بالإنسان » للأستاذ عبد المنعم خلاف صفحات معجبة فى هذا الاتجاه .

يدى الله . لو يرون لرأوا . ولو أن فيهم بصراً لاطلعوا . وإذن لشهدوا يوم يرون العذاب جزاء على ذلك الشرك الظالم « أن القوة لله جميعاً » وأن ليس لأولئك الأنداد حول ولا قوة ، « وأن الله شديد العذاب » ..

ثم ينقلب السياق من الحكاية إلى الاستعراض . فإذا نحن أمام مشهد شاخص . مشهد المشركين وآلهتهم التى اتخذوها أنداداً من دون الله . فماذا نرى ؟ نرى الأسباب متقطعة بين التابعين والمتبوعين ، بين الآلهة والعباد ! نرى المتبوعين يتبرأون من التابعين حين رأوا العذاب وهالتهم مخافته . ونرى التابعين حانقين على المتبوعين يتمنون فى غيظ وحنق أن لو كانت لهم رجعة إلى الدنيا ليردوا لهم « الجميل » ! ويتبرأوا منهم هناك كما تبرأ هؤلاء منهم فى موقف الجزاء .

إنه مشهد مؤثر : مشهد التبرؤ والتعادى والتخاصم بين التابعين والمتبوعين . بين المحبين والمحبوبين ! : « كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار » .

مثل هذا النسق فى تجسيم المشاهد وعرضها ، يرد المعانى شاخصة حاضرة كأنها عيان . وذلك لون من ألوان التصوير الفنى فى القرآن ، ووراءه ألوان وألوان ..

* * *

بعد هذا يمضى السياق داعياً إلى التمتع بطيبات الحياة والبعد عن خبائثها ، محذراً من اتباع الشيطان الذى يأمر بالخبائث ، مبيناً ما يحل وما لا يحل من الطعام ، متخللاً هذا البيان تنديد بعقلية الكافرين ، وتصوير لسخف تصوراتهم ..

« يا أيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالاً طيباً ، ولا تتبعوا خطوات الشيطان . إنه لكم عدو مبين . إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون » .

إنه خطاب للناس كافة أن يستمتعوا بالطيبات التى رزقها الله إياهم فى الأرض ؛ لا حرمان منها ولا زجر عنها ، فهى للناس كافة ، وهى مباحة ، بل إن المتاع بها لمطلوب . فليس الحرمان أصلاً من أصول هذا الدين ، وليس الصدود عن نعم الله المتاحة هدفاً من أهدافه ، ما ظل الاستمتاع فى الدائرة الطيبة الحلال . وهى دائرة واسعة تشمل كل متاع لا يؤدى إلى الفحشاء . فهنا فقط تبدأ دائرة الشيطان . الشيطان الذى سبق أن زين المتاع المحظور لأبى البشر ، فحرمه

المتاع المباح . الشيطان الذى عالن الإنسان بالعداء منذ اللحظة الأولى ، فلم يعد لا من كرامة الإنسان ولا من عقله أن يتبع خطاه وأن يقفو أثره :

« ولا تتبعوا خطوات الشيطان . إنه لكم عدو مبين » . .

إنه لا يأمر بخير ولا يهدى إلى طيب :

« إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون » .

وذلك هو الاستهتار ، وهو الخروج على توقير الخالق ، واحترام العقل والمنطق ، فما يليق بإنسان له عقل يحترمه أن يقول ما لا يعلم ، فكيف إذا كان يهرف بما لا يعرف فى حق الله ذى الجلال ؟

ثم يستطرد السياق إلى صفة قوم لا يحترمون عقلاً ، ولا يشتاقون معرفة ، فإذا دعوا إلى اتباع ما أنزل الله جمدوا على أوهام أسلافهم وخرافاتهم ، لا يفتحون مداركهم ، ولا يحترمون أنفسهم :

« وإذا قيل لهم : اتبعوا ما أنزل الله قالوا : بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا » .

ثم يعقب على هذا الموقف المزرى بكرامة العقل الإنسانى مستنكراً فيقول :

« أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ؟ »

ومن ثم يرسم لهم صورة مزرية ساخرة مضحكة .. إن مثلهم كمثل من ينعق رافعاً عقيرته داعياً من لا يدرك دعاء ولا يفقه للدعاء معنى ، ولا يميز بين صوت وصوت ، وإنما تصل إليه الأصوات مبهمة مدغومة . لا كلمات ولا معانى ولا مدركات :

« ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء » .

فهم ينعقون ويهتفون ويهيبون بمن لا يسمع ولا يدرك إلا مجرد دعاء ونداء : « صم بكم عمى » ولو كانت لهم آذان وألسنة وعيون . فهى كالمعطلة لا تؤدى وظيفتها : « فهم لا يعقلون » .

هنا يتجه بالدعوة إلى الذين آمنوا وحدهم أن يأكلوا من طيبات ما رزقهم الله ، بعد ما توجه بها من قبل للناس جميعاً فإذا جماعة منهم لا يسمعون قولاً ولا يهتدون بهدى ، إنما يتبعون ما ألفوا عليه آباءهم دون تمييز بين الطيب والخبيث . . يتجه بالدعوة إلى المؤمنين وحدهم ، مبيناً لهم حدود الحلال والحرام :

« يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم ، واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون ، إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله . فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه . إن الله غفور رحيم » .

« كلوا من طيبات ما رزقناكم » فقد رزقناكم إياها لتطعموها وتستمتعوا بها ، لا لتحرموا منها أنفسكم وهى رزق لكم حلال . « واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون » وإنهم ليعبدون الله ، وإن الله ليعلم أنهم يعبدونه . إنما هذا الشرط لبيان أن شكر الله عبادة . ومن أراد العبادة وتوجه إليها فلديه وسيلة من وسائلها ، وهى شكر المنعم على الرزق وإباحة المتاع .

والميتة تأباها النفس السليمة وكذلك الدم . فأما لحم الخنزير فيجادل الآن فيه قوم . والخنزير بذاته منفر للطبع النظيف القويم . ومع هذا فقد حرمه الله فى أوائل القرن الأول للهجرة ، ليكشف العلم فى أواخر القرن الماضى فقط أن به بعض الديدان الشديدة الخطورة . ويقول الآن قوم : إن وسائل العلم قد تقدمت فلم تعد هذه الديدان مصدر خطر لأن إبادتها مضمونة بالوسائل الحديثة . وينسى هؤلاء الناس أن العلم قد احتاج إلى ثلاثة عشر قرناً ليكشف آفة واحدة ، فمن ذا الذى يجزم بأن ليس هناك آفات فى هذا اللحم لم يكشف بعد عنها ؟ أفلا تستحق الشريعة التى سبقت هذا العلم بألف وثلاثمائة سنة أن نثق بها ، وأن نحرم ما حرمت وهذا سبقها فى شأن للعلم فيه الوسيلة الأولى ؟ !

أما ما أهل به لغير الله . أى ما توجه به صاحبه لغير الله ، فهو محرم لا لعلة فيه ، ولكن للتوجه به لغير الله . وهى علة روحية تنافى سلامة القلب وطهارة الروح ووحدة المتجه . فهو ملحق بالنجاسة المادية والقذارة الحقيقية على هذا المعنى المشترك للنجاسة . ولو سكت صاحبه عن أن يهل به لا لله ولا لغير الله كان حلالاً جائزاً . لأن النجس لم يدركه بالتوجه به لغير الله.

ومع هـذا فالإسلام يحسب حساب الضرورات فيبيح فيها المحظورات ، ويحل فيها المحرمات ، بقدر ما تنتفى هذه الضرورة ، بغير تجاوز لها ولا تعد لحدودها : « فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه » وهو مبدأ عام ينصب هنا على هذه المحرمات ولكنه بإطلاقه يتناول سواها فى سائر المقامات . فأيما ضرورة ملجئة يخشى منها على الحياة كلياً أو جزئياً فلصاحبها أن يتفادى الحرج بتناول المحظور فى الحدود التى تدفع هذه الضرورة ولا زيادة :

« وما جعل عليكم فى الدين من حرج » . . والدين يسر لا عسر . والله أعلم بالسرائر . وحسابها على الله : « إن الله غفور رحيم » .

وأخيراً يرتد السياق إلى التحذير من كتمان ما أنزل الله من الكتاب رجاء كسب مادى من وراء هذا الكتمان . . ولعل مناسبة هذا التعقيب أن هذه المحرمات كانت كذلك محرمة فى التوراة ، فكتم اليهود الآيات الدالة على تحريم بعضها ابتغاء كسب مادى هو عندهم كثير وعند الله قليل . وفى جو الطعام ما حرم منـــه وما حلل يقول القرآن عن هؤلاء إنهم « ما يأكلون فى بطونهم إلا النار » تنسيقاً لجو السياق كله . وتقريراً لحقيقة برسم مشهد وصورة :

« إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ، ويشترون به ثمناً قليلاً . أولئك ما يأكلون فى بطونهم إلا النار » .

إنهم بهذا العمل صائرون إلى النار ، فكأنما هذا الذى يأكلونه من ثمن الكتمان والبهتان نار فى البطون ! وهو مشهد مفزع غريب مرهوب : أن يأكل الإنسان فى بطنه ناراً . ولكنه كذلك حقيقة ، فبسبب مما يأكلون يدخلون أنفسهم النار ، ويدخلون إلى بطونهم النار .

وجزاء ما كتموا آيات الله ، أن يهملهم الله يوم القيامة . وهو يعبر عن هذا الإهمال بقوله : « لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم » لتجسيم الإهمال فى صورة مألوفة : لا كلام ولا تطهير ولا غفران : « ولهم عذاب أليم » .

وتعبير آخر مصور موح عجيب : «أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة» فكأنما هى صفقة يدفعون فيها الهدى ليأخذوا الضلال ويؤدون المغفرة ليأخذوا فيها العذاب ! فما أخسرها من صفقة وأغباها ، ويا لسوء ما اختاروا وهم يختارون لأنفسهم النار : « فما أصبرهم على النار ! » كأنما يجلبونها جلباً ويقصدون إليها قصداً . ويا للتهكم الساخر الذى يعلل محاولتهم الخاسرة بطول الصبر على النار : « فما أصبرهم على النار » !

إنهم لفى يقين من النار . فما يدفعهم إليها إلا أن لهم عليها صبراً طويلاً ! ولكن كيف ؟ : « ذلك بأن الله نزّل الكتاب بالحق » فهو إذن قد نزل ليعلن للناس ، وليحقق ما جاء فيه من الأحكام . فمن كتمه وجحده فالنار إذن مصيره المضمون الذى لا يتخلف ؛ والذين اختلفوا

فى الحق الواضح إنما اختلفوا لأنهم فى شقاق لا التئام له ولا علاج : « وإن الذين اختلفوا فى الكتاب لفى شقاق بعيد » .

« لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ، وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ، وَآتَى الْمَالَ – عَلَى حُبِّهِ – ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ ، وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ ، وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ، وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ . . أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى : الْحُرُّ بِالْحُرِّ ، وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ ، وَالْأُنْثَىٰ بِالْأُنْثَىٰ . فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ . ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ . فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ .

« كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ – إِنْ تَرَكَ خَيْرًا – الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ * فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ . إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ . إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ ، فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ، وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ، فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ ، وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ

الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ، فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ . يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ، وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ ، وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ ، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ .

« وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ، أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ . فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ .

« أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ ، هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ ، عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ ، فَتَابَ عَلَيْكُمْ ، وَعَفَا عَنْكُمْ ، فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ، وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ، ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ، وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ . تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا . كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ .

« وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ » .

نحن سائرون هنا مع السياق فى بيان الحدود والفرائض التى كتبها الله على هذه الأمة المسلمة ، لإعدادها لتلك المهمة العظمى التى ناطها الله بها ، وقياماً بحق الوراثة لدين الله ولبيت الله ، المتسلسلة من وراثة الأرض وخلافة الله فيها .

ونحن فى هذا الدرس لتعريف البر ، ولبيان أحكام فى القصاص والوصية والصوم والعدل . وكلها مما يتصل بتربية ضمير هذه الأمة وتنظيم مجتمعها ، وبيان حدود الله فيها . فنحن مع السياق ذاته سائرون .

« ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب » ..

إن فى ذلك إشارة إلى مسألة تحويل القبلة وما لابس هذا التحويل من قول السفهاء من الناس : « ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها » ومن مشقة التحول على بعض المسلمين ، لأن للإلف والعادة حكمهما فى مثل هذه الأحوال .

ولقد سبق الكشف عن حكمة تحويل القبلة ، ومسايرة هذا التحويل للصلة الوطيدة بين ديانة إبراهيم بانى البيت وديانة المسلمين ، وعن وراثة الأمة المسلمة لدين إبراهيم وللبيت الذى بناه . ثم لتمييز الأمة المسلمة بقبلتها كما هى متميزة بدينها ومنهجها ، و « لكى لا يكون للناس عليكم حجة » ..

فالآن يصل السياق إلى تقرير الحقيقة الكبرى حول هذه القضية .. إنه ليس القصد من تحويل القبلة ولا من العبادة أن يولى الناس وجوههم قبل المشرق والمغرب ، وليست غاية البر هى تلك الشعائر والحركات الظاهرة . فهى فى ذاتها لا تحقق البر ، ولا تنشىء الخير ، وليست هدفاً مستقلاً من أهداف الإسلام . إنما البر أعمال وتكاليف تنشىء آثارها فى ضمير الفرد وفى حياة الجماعة ، ولا يغنى عنها تولية الوجوه قبل المشرق والمغرب ، سواء فى التوجه إلى القبلة ، أو فى التسليم فى الصلاة يميناً وشمالاً ، أو فى سائر الحركات الظاهرة التى تشتمل عليها الشعائر :

« ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ؛ وآتى المال – على حبه – ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب ؛ وأقام الصلاة ، وآتى الزكاة ، والموفون بعهدهم إذا عاهدوا ، والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس .. أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون »

ذلك هو البر الذى يحقق أهداف الإسلام . فماذا فى تلك الصفات من قيم إنسانية تجعل لها هذا المقام ؟

ما قيمة الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ؟ ..

إن الإيمان بالله هو نقطة التحول فى حياة البشرية من الفوضى إلى النظام ، ومن التيه إلى القصد ، ومن التفكك إلى وحدة الاتجاه . فهذه البشرية دون إيمان بالله الواحد ، لا تعرف لها قصداً ولا غاية ، ولا تعرف نقطة ارتكاز تتجمع حولها ، ويتجمع حولها الوجود ، وتتبين

بها النسب والعلاقات والأهداف .. والإيمان باليوم الآخر هو الإيمان بالعدالة الإلهية المطلقة في الجزاء ، وبان حياة الإنسان في هذه الأرض ليست سدى ولا فوضى بغير ميزان .. والإيمان بالملائكة هو جزء من الإيمان بالغيب الذي سبق الحديث عنه في مقدمات هذه السورة عند الحديث عن « المتقين الذين يؤمنون بالغيب » .. والإيمان بالكتاب والنبيين ، هو الإيمان بالرسالات جميعاً وبالرسل أجمعين ، وهو إيمان بوحدة البشرية ووحدة إلهها ووحدة دينها ووحدة اتجاهها .. ولهذا الشعور بالوحدة الكبرى قيمته في مشاعر الفرد وفي علاقات الجماعة وفي ترابط البشرية كلها على توالي الأجيال والقرون .

وما قيمة إيتاء المال — على حبه والاعتزاز به — لذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب ؟

إن قيمته هي الانفلات من قيود الحرص والضعف والأثرة . انفلات النفس من حب المال الذي يقبض الأيدي عن الإنفاق ، ويقبض النفوس عن الأريحية ، ويقبض الأرواح عن الانطلاق . فهي قيمة روحية يشير إليها ذلك النص على حب المال ، وإنفاقه على الرغم من ذلك الحب الدفين . قيمة شعورية أن يبسط الإنسان يده وروحه فيما يحب من مال لا في الرخيص منه ولا الخبيث ، ليتحرر من عبودية المال التي تستذل النفوس وتنكس الرؤوس ؛ وليتحرر من الحرص . والحرص يذل أعناق الرجال . وهي قيمة إنسانية كبرى في حساب الإسلام ، الذي يحاول دائماً تحرير الإنسان من وساوس نفسه وحرصها وشهواتها ، قبل أن يحاول تحريره من الخارج في محيط الجماعة . يقيناً منه بأن عبيد أنفسهم هم عبيد الناس ، وأن أحرار النفوس هم أحرار الرؤوس في المجتمعات .. ثم إنها بعد ذلك كله قيمة إنسانية في محيط الجماعة . هذه الصلة لذوي القربى فيها تحقيق لمروءة النفس ، وكرامة الأسرة ، ووشائج القربى . وهي لليتامى تكافل بين الكبار والصغار ، وبين الأقوياء والضعاف ، وتعويض لهؤلاء الصغار عن فقدان الحماية والرعاية الأبويتين ، وحماية للأمة من تشرد صغارها وتعرضهم للفساد ، وللنقمة على المجتمع الذي لم يقدم لهم براً ولا رعاية . وهي للمساكين الذين لا يجدون ما ينفقون وهم مع ذلك لا يسألون ضناً بماء وجوههم ، احتفاظ لهم بكرامة نفوسهم ، وصيانة لهم من البوار . وهي لابن السبيل واجب للنجدة في ساعة العسرة وانقطاع الطريق دون الأهل والمال والديار ، وإشعار له بأن الإنسانية كلها أهل ، وبأن الأرض كلها وطن ، يلقى فيها أهلاً بأهل ومالاً

بمال . وهى للسائلين إسعاف لعوزهم ، وكف لهم عن المسألة التى يكرهها الإسلام . وهى فى الرقاب إعتاق وتحرير لمن أوقعه سوء الطالع فى الرق ، ومساعدة له على استرداد حريته الإنسانية الكريمة ، ليؤدى ما كوتب عليــه فى نظير عتقه . والإسلام يعلن حرية الرقيق فى اللحظة التى يحس فيها بالحرية ، ويطلب مكاتبته عليها — أى دفع مبلغ من المال فى سبيلها — ومنذ هذه اللحظة يصبح عمله بأجر يحسب له ، ويصبح مستحقاً فى مصارف الزكاة ، ويصبح من البر كذلك إعطاؤه من النفقات غير الزكاة . كل أولئك ليسارع فى فك رقبته . واسترداد آدميته وحريته ...

وإقامة الصلاة ؟ ما قيمتها فى مجال البر الذى هو خلاصة الإسلام ؟

إن إقامة الصلاة شىء غير التولية قبل المشرق والمغرب . إنها توجه الإنسان بكليته إلى ربه ، ظاهراً وباطناً . جسماً وعقلاً وروحاً . إنها ليست مجرد حركات رياضية بالجسد ، وليست مجرد توجه صوفى بالروح . فالصلاة الإسلامية تلخص فكرة الإسلام الأساسية عن الحياة . إن الإسلام يعترف بالإنسان جسماً وعقلاً وروحاً ؛ ولا يفترض أن هنالك تعارضاً بين نشاط هذه القوى المكونة فى مجموعها للإنسان ؛ ولا يحاول أن يكبت الجسد — على طريقية المسيحية المترهبنة أو الهندوكية المتصوفة — لتنطلق الروح ، لأن هذا الكبت ليس ضرورياً لانطلاق الأرواح .. ومن ثم يجعل عبادته الكبرى .. الصلاة .. مظهراً لنشاط قواه الثلاثة وتوجهها إلى خالقها جميعاً فى ترابط واتحاد . يجعلها قياماً وقعوداً وركوعاً وسجوداً تحقيقاً لنشاط الجسد ؛ ويجعلها قراءةً وتدبراً وتفكيراً فى المعنى والمبنى تحقيقاً لنشاط العقل ؛ ويجعلها توجهاً واستسلاماً لله تحقيقاً لنشاط الروح .. كلها فى آن .. وإقامة الصلاة على هذا النحو تذكر بفكرة الإسلام كلها عن الحياة ، واتجاهها بطاقاتها كلها لله ، فى كل ركعة وفى كل صلاة .

وإيتاء الزكاة ؟ إنه الوفاء بضريبة الإسلام الاجتماعية ، التى جعلها الله حقاً فى أموال الأغنياء للفقراء ؛ وهى مذكورة هنا بعد الحديث عن إيتاء المال — على حبه — لمن ذكرتهم الآية ، مما يشير إلى أن الإنفاق فى تلك الوجوه ليس بديلاً من الزكاة ، وليست الزكاة بديلاً منه .. إنما الزكاة ضريبة إجبارية لا اختيار للمسلم فيها . أما ذلك الإنفاق الطليق فهو مجاله الحر لإثبات إنسانيته ، وتزكية نفسه ، وتطهير قلبه ، ووصله بالجماعة التى يعيش فيها ووصل الجماعة به ، والبر لا يتم إلا بهذه وتلك ، وكلتاهما من مقومات الإسلام . وما كان القرآن ليذكر الزكاة

منفردة بعد الإنفاق إلا وهى ضريبة خاصة لا يسقطها الإنفاق ، ولا تغنى هى عن الإنفاق . وهو معنى واضح لمن لا تعمى بصيرتهم ولا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً .

والوفاء بالعهد ؟ إنه سمة الإسلام التى يحرص عليها ، ويكررها القرآن كثيراً ، ويعدها آية الإيمان وآية المروءة وآية الإحسان . وهى ضرورية لإيجاد جو من الثقة والطمأنينة فى علاقات الأفراد ، وعلاقات الجماعات ، وعلاقات الأمم والدول . وبغير هذه السمة يعيش كل فرد مفزعاً قلقاً لا يركن إلى وعد ، ولا يطمئن إلى عهد ، ولا يثق بإنسان . ولقد بلغ الإسلام فى الوفاء بالعهد لأصدقائه وخصومه على السواء قمة لم تصعد إليها البشرية فى تاريخها كله إلا على حداء الإسلام وهدى الإسلام .

والصبر فى البأساء والضراء وحين البأس ؟ إنها تربية للنفوس وإعداد . كى لا تطير شعاعاً مع كل نازلة ؛ ولا تذهب حسرة مع كل فاجعة ؛ ولا تنهار جزعاً من الأحداث . إنه التماسك والتجمل والثبات حتى تنقشع الغمة ، ويجعل الله بعد عسر يسراً . إنه الرجاء فى الله والثقة بالله والاعتماد على الله . ولا بد لأمة يناط بها العدل فى الأرض والصلاح أن تتهيأ لمشاق الطريق ووعثائه بالصبر فى البأساء والضراء وحين البأس . الصبر فى البؤس والفقر ، والصبر فى المرض والضعف ، والصبر فى الحرب والقتـــال . . كى تنهض بواجبها الضخم ، فى ثقة وفى ثبات وفى اعتدال .

وهكذا تجمع آية واحدة بين أصول العقيدة وتـكاليف النفس والمـال . وتجعلها كلاً لا يتجزأ ، ووحدة لاتنفصم ، وتضع على هذا كله عنواناً واحداً هو « البر » أو هو «الإيمان» كما ورد فى بعض الأثر . والحق أنها خلاصة لمبادئ الإسلام الـكلية وتكاليفه الأساسية ، التى لا يستقيم بدونها إسلام ..

لهذا عقبت الآية الكريمة على من هؤلاء صفاتهم بأنهم : « أولئك الذين صدقوا ، وأولئك هم المتقون » أولئك الذين صدقوا فى إيمانهم ، وصدقوا فى اعتقادهم ، وصدقوا فى ترجمة عقيدتهم إلى أعمال بارزة فى واقع الحياة ، وأولئك هم المتقون الذين يخشون الله ، ويتصلون بالله ، ويؤدون واجبهم لله .

***

كانت الآية السابقة تقريراً لصلات المجتمع الرحيمة الودود ، فى حالات الود والصفاء والسلام . ولكن هذه الحالات ليست هى السائدة دائماً . والتشريع للمجتمع لا بد أن يحسب حساباً لكل علاقاته وكل ضروراته . لذلك انتقل السياق من تقرير علاقات البر والرحمة والمودة ، إلى تنظيم العلاقات التى تلابسها الخصومة والقتل والعدوان .. واتخذ القصاص العادل وسيلة لترضية النفوس وشفاء الصدور ، وإقرار النظام :

« يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى : الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى » .

وتذكر بعض التفاسير أن هذه الآية منسوخة ، نسختها آية : « وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص » .. ولست أرى تعارضاً بين الآيتين يستلزم القول بالنسخ . فلكل منهما مجال غير مجال الأخرى .. إن آية النفس بالنفس مجالها مجال الاعتداء الفردى من فرد على فرد . وحينئذ يكون القصاص مماثلاً للاعتداء . فأما الآية التى نحن بصددها هنا فتنصرف إلى الاعتداء الجماعى ، حين تعتدى أسرة على أسرة ، أو قبيلة على قبيلة ، أو جماعة على جماعة ، فتصيب منها من تصيبه . فإذا أقيم ميزان القصاص ، كان الحر من هذه بالحر من تلك ، والعبد من هذه بالعبد من تلك ، والأنثى من هذه بالأنثى من تلك ، على طريق التضامن فى الاعتداء والتضامن فى القصاص . وهذا هو الوضع الممكن لتحقيق الآية . وإذن فلا تعارض ولا نسخ فى آيات القصاص .

ومع تقرير الإسلام للقصاص ، فإنه لا يغلق باب التراضى استحياء للأخوة ، واستبقاء للمودة :

« فمن عفى له من أخيه شىء ، فاتّباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان » .

وهذا العفو قد يتم بقبول الدية فى القتل العمد الذى يجب فيه القتل ، أو فى التنازل عن الدية أو بعضها فى حالة القتل الخطأ . ومتى قبل ولى الدم هذا ورضيه ، فيجب إذن أن يطلبه بالمعروف والرضى والمودة ، ويجب على القاتل أن يؤديه بإحسان وإكمال وإجمال . تحقيقاً لصفاء القلوب ، وشفاء لجراح النفوس ، وتقوية لأواصر الأخوة الإنسانية بين الأحياء :

« فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم »

لأن الاعتداء بعد التراضى والقبول ، نكث بالعهد ، وإهدار للتراضى ، وإثارة للشحناء بعد الصفاء . ومتى قبل ولى الدم الدية ، أو نزل عنها كلها أو بعضها ، فلا يجوز أن ينتقم ، لأن صلة الأحياء أولى بالاستبقاء . ولقد أعطى الحق فى القصاص ، فإذا تعالى على الثأر والانتقام ، فقد كتب عليه أن يحافظ على هذا المستوى النفسى الكريم ، وأن يبقى على السماحة والعفو فهما أولى وأليق بالإنسان .

هنا ندرك سعة آفاق الإسلام ، وبصره بحوافز النفس البشرية ، وعلمه بمكنوناتها وما فطرت عليه .. إن الغضب للدم فطرة وطبيعة . فالإسلام يلبيها هنا بتقرير القصاص العادل . فالعدل هو الذى يكسر شرة النفوس ، ويفثأ حنق الصدور ، ويردع الجانى كذلك عن التمادى فى الاعتداء . ولكنه فى الوقت ذاته يحبب فى العفو ، ويفتح له الطريق ، ويرسم له الحدود ، فتكون الدعوة إليه بعد تقرير القصاص دعوة إلى التسامى فى حدود التطوع ، لا فرضاً يكبت فطرة الإنسان ويحملها ما لا تطيق .

ثم يعود السياق لتقرير غاية القصاص .. إنها ليست الانتقام ، وليست إرواء الأحقاد . إنما هى أجل من ذلك وأعلى . إنها للحياة وفى سبيل الحياة ، بل هى ذاتها حياة :

« ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون » .

حياة تبدأ أولى خطواتها عند كف الجناة عن الاعتداء ساعة الابتداء . فالذى يدفع حياته ثمناً لحياة من يقتل جدير بأن يتروى ويفكر ويتردد .. ثم تنتهى عند شفاء نفوس الأولياء من الحقد والرغبة فى الثأر . الثأر الذى لا يقف عند حد — كما نرى فى واقع حياتنا — لأنه يظل يختطف فى كل يوم حياة ، وينتهز كل فرصة لإهدار دم من هنا ومن هناك ، حيث تسيل الحياة على مذابح الأحقاد العائلية ولا تكف عن المسيل .. وفى القصاص حياة على معناها الأشمل والأعم . فالاعتداء على حياة فرد ، اعتداء على الحياة كلها ، واعتداء على كل إنسان حى يشترك مع القتيل فى سمة الحياة . فإذا كف القصاص الجانى عن إزهاق حياة واحدة ، فقد كفه عن الاعتداء على الحياة كلها ، وكان فى هذا الكف حياة . حياة مطلقة ، لا حياة فرد واحد ، ولا حياة أسرة ، ولا حياة جماعة . بل حياة !

***

وفى جو القصاص والموت يجىء ذكر الوصية :

« كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت – إن ترك خيراً – الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف . حقاً على المتقين . فمن بدله بعد ما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه . إن الله سميع عليم . فمن خاف من موص جنفاً أو إثماً فأصلح بينهم فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم » .

وقد نزلت بعدآية الوصية آيات المواريث . وفى هذه الآيات المتأخرة حدد نصيب الوالدين ، وبذلك لم تعد لهما وصية لأنهما وارثان . والحديث : « لا وصية لوارث » . أما الأقربون فقد بقى النص بالقياس إليهم على عمومه . فمن ورثته آيات الميراث فلا وصية له ؛ ومن لم يكن منهم وارثاً بقى نص الوصية هنا يشمله .

وحكمة الوصية لغير الورثة ، تتضح فى الحالات التى توجب صلة القرابة البر ببعض الأقارب ، على حين لا ينالهم ميراث لأن غيرهم يحجبهم . وهى نوع من التكافل العائلى العام فى خارج حدود الوراثة . أو نوع من ضريبة التركات الاختيارية ، يقدرها المورث على ورثته قبل وفاته ، ويخصصها لذوى القربى تحقيقاً للبر بهم . ولذلك قال : « بالمعروف » وقال : « حقاً على المتقين » الذين يراعون الله فى كل ما يعملون .

فمن سمع هذه الوصية فهو آثم إن بدلها بعد وفاة المورث . والله سميع لما قيل عليم به . . إلا حالة واحدة يجوز فيها التبديل . ذلك إذا عرف أن الموصى إنما قصد بوصيته محاباة أحد أو غبن أحد من الورثة ، فعندئذ لا على من يتولى تنفيذ الوصية أن يعدل فيها لتلافى ذلك الجنف ، ورد الأمر فيها إلى العدل والنَّصف .

* * *

ولقد كان من الطبيعى أن يفرض الصوم على الأمة التى يفرض عليها الجهاد فى سبيل الله . فالصوم هو مجال تقرير الإرادة الإنسانية ، والشخصية الإنسانية ، بالاستعلاء على ضرورات الجسد جميعاً ، واحتمال ضغطها وثقلها بالمقاومة الإرادية الواعية ، التى تستعلى على الضرورات جميعاً . كما أنه مجال لاختبار مدى الطاعة لله ، والاتصال بالله ، والاستسلام لفرائضه أياً كان فيها من الحرمان ، إيثاراً لما عند الله من المتاع .

وهذان عنصران لازمان فى إعداد النفوس لاحتمال مشقة الجهاد فى سبيل الله .

ومع ذلك فإن القرآن يسير فى هذا التكليف على طريقته من الترغيب فيه ، وتيسيره على النفوس ، وتحبيبه إليها .

إنه يبدأ فيقرر أن الصوم فريضة خالدة على المؤمنين بالله فى كل دين ، تحقيقاً لوصل قلوبهم بالله ، واستشعارها خشية الله :

« يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون »

ثم يثنى بتقرير أن الصوم أيام معدودات . فليس فريضة العمر وتكليف الدهر . ومع هذا فقد أعفى من أدائه المرضى حتى يصحوا ، والمسافرون حتى يقيموا ، تخفيفاً وتيسيراً :

« أياماً معدودات فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر » .

والذين يجهدهم الصوم ويشق عليهم ، وإن كانوا قادرين مع الجهد والمشقة،لديهم رخصة أن يفطروا وأن يطعموا مسكيناً فدية عن أنفسهم ؛ ولا يدع هـذه المناسبة تمر دون أن يقرر أن إطعام المساكين خير فى ذاته ، فمن تطوع به تطوعاً لا فدية فهو خير له :

« وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين . فمن تطوع خيراً فهو خير له » .

فمن أراد أن يغالب المشقة ما دام ذلك فى طوقه دون ضرر ولا عاقبة سـيئة ، كإحداث مرض بسبب الجهد ، أو زيادة ضعف يؤدى إلى الاستعداد للمرض ، أو فوت واجب آخر كالعدل فى الحكم ، وإرضاع الطفل ، وما إليه .. من أراد أن يغالب المشقة دون حدوث هذه المضاعفات ، فمن الخير له أن يصوم :

« وأن تصوموا خير لـكم إن كنتم تعلمون » .

وتحبيب آخر فى أداء هذه الفريضة . إنها صوم رمضان . الشهر الذى نزل فيه القرآن . إما بمعنى أن بدء نزوله كان فى رمضان ، أو أن معظمه نزل فى أشهر رمضان . والقرآن كتاب هذه الأمة الخالد الذى أخرجها من الظلمات إلى النور ، وبدلها من بعد خوفها أمناً ، ومكن لها فى الأرض . فلا أقل من شكر الله على هذا القرآن بالاستجابة إلى صيام الشهر الذى نزل فيه :

« شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن . هدًى للناس وبينات من الهدى والفرقان » .

« فمن شهد منكم الشهر فليصمه » .. ولما كان هذا نصاً عاماً فقد عاد ليستثنى منه من كان مريضاً أو على سفر : « ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر » وعاد لتقرير أن

الغرض من هذا التكليف ليس العسر والمشقة ، فمن كان يجد عسراً أو مشقة فهناك الرخصة المقررة : « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » وقد جعل الصوم فى أيام أخر لكى يتمكن المضطر من إكمال عدة أيام الشهر : « ولتكملوا العدة » .

والصوم على هذا نعمة تستحق الشكر والاعتراف بالنعمة : « ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون » .

وقبل أن يمضى السياق فى بيان أحكام تفصيلية عن توقيت الصيام ، وحدود المتاع فيه وحدود الإمساك ، نجد لفتة عجيبة إلى أعماق النفس وخفايا السريرة . نجد العوض الكامل عن مشقة الصوم والجزاء المعجل على الاستجابة فيها لله ــ نجد ذلك العوض وهذا الجزاء فى القرب من الله وفى استجابته للدعاء ــ تصوره ألفاظ رقيقة شفيفة تكاد تنير :

« وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب ، أجيب دعوة الداع إذا دعان ، فليستجيبوا لى ، وليؤمنوا بى ، لعلهم يرشدون » .

فإنى قريب . أجيب دعوة الداع إذا دعان .. أية رقة ، وأى انعطاف ، وأية شفافية ، وأى نور .. فى هذه الكلمات .. ألا إنه الجزاء الأوفى على الاستجابة ، والتعويض الأكمل عن المشقة .. ألا إنه الخيط الذى يجذب الأرواح إلى الطاعة المطلقة فى يسر وطواعية .

ثم يمضى السياق ليقرر حل المباشرة للنساء فى ليلة الصوم ما بين المغرب والفجر . ولكنه لا يمر على هذا المعنى دون لمسة حانية رفافة للمشاعر ، تمنح العلاقة الزوجية شفافية ورفقاً ونداوة ، وتنأى بها عن غلظ المعنى الحيوانى وعرامته :

« أحل لكم ليلة الصيام الرّفثُ إلى نسائكم . هن لباس لكم وأنتم لباس لهن » .. لباس فيه الستر والمخالطة ، وفيه المباشرة والملاينة .

ولقد كانت المباشرة والطعام والشراب تمتنع لو نام الصائم بعد إفطاره ، ثم صحا قبل الفجر . وكان هذا يشق على بعضهم فيخالفونه ، فخفف الله عن عباده ، وأباح لهم كل ما يبيحه الفطر طوال الوقت من العتمة إلى أن يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ، فيطلع الفجر الصادق الذى يعقبه الشروق :

« علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم ، فتاب عليكم وعفا عنكم . فالآن باشروهن وابتغوا

ما كتب الله لكم ، وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر . ثم أتموا الصيام إلى الليل .

« وابتغوا ما كتب الله لكم » .. من المتعة بالنساء ، ومن المتعة بالذرية .. فكلتاهما من أمر الله . وكلتاهما موصولة بالله . وليست واحدة منهما أو كلتاهما مجرد شعور حيوانى موصول بالجسد منفصل عن ذلك الأفق الأعلى الذى يتجه إليه الإنسان .

ثم يذكر حكم المباشرة فى مدة الاعتكاف فى المساجد . والاعتكاف – بمعنى الخلوة إلى الله فى المساجد ، وعدم دخول البيوت إلا لضرورة كالطعام والشراب وقضاء الحاجة – يكون فى كل وقت ، ولكنه فى شهر الصيام أحب . لهذا جاء ذكره فى عقب الصيام . وفيه تحرم المباشرة حتى فى فترة الإفطار :

« ولا تباشروهن وأنتم عاكفون فى المساجد » .

« تلك حدود الله فلا تقربوها » .. مجرد القرب على سبيل الاحتياط . ولتكون هناك منطقة أمان . فمن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه . والإنسان لا يملك نفسه فى كل وقت ، فأحرى به ألا يعرض إرادته للامتحان بالقرب من المحظورات المشتهاة ، اعتماداً على أنه يمنع نفسه حين يريد ، ولأن المجال هنا مجال حدود للملاذ والشهوات كان الأمر : « فلا تقربوها » فالاتقاء بمجانبة القرب أسلم :

« كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون » ..

ولقد ذكر بعض المفسرين أن فى آيات الصوم التى سلفت ناسخاً ومنسوخاً . وها نحن أولاء نرى وفق هذا البيان أن لا ناسخ فيها ولا منسوخ .

***

وفى ظل الصوم والامتناع عن المأكل والمشرب يرد تحذير من نوع آخر من الأكل : أكل الأموال بالباطل ! عن طريق رشوة الحكام ، ليحيدوا عن الحق ويعطوا أموال بعض الناس لبعض . وقد جاء هذا عقب ذكر حدود الله والدعوة إلى تقواه . ليظلها جو الخوف الرادع من حرمات الله .

« ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام ، لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون » . والرشوة آفة فى المجتمع قاتلة ، ورذيلة إنسانية واطية ، ومدعاة إلى انعدام الثقة فى العدل ، ويأس النفوس من الحق. وما أبأس المجتمع الذى تفشو فيه هذه الآفات .

« يَسْأَلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ . قُلْ : هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ؛ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا ٱلْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا ، وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَى . وَأْتُوا ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ، وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ .

« وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ ، وَلَا تَعْتَدُوا ، إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ * وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ، وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ، وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ، وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ ، فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ . كَذَٰلِكَ جَزَاءُ ٱلْكَافِرِينَ * فَإِنِ ٱنْتَهَوْا فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ، فَإِنِ ٱنْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّالِمِينَ * ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِالشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ ، فَمَنِ ٱعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَى عَلَيْكُمْ ، وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ * وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ، وَأَحْسِنُوا إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ .

« وَأَتِمُّوا ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ؛ وَلَا تَحْلِقُوا رُؤُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ ٱلْهَدْيُ مَحِلَّهُ ، فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ، فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ،

تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ، ذَٰلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ * الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ، وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ ، وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ، وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ * لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ ، فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ، وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ ، وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ * ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ ، وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ، فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ : رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ * وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ : رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ .

« وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ ، فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ، وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ » .

من الصوم إلى الحج .. ولكلاهما موعد وميقات ، فالحديث عن الأهلة يسير فى هذا السياق . كذلك أحكام القتال عند المسجد الحرام وفى الأشهر الحرم يجىء ذكرها هنا فى جوها وفى مناسبتها ، ثم يستغرق حديث الحج بقية هذا الدرس الذى نحن بصدده ..

لقد سئل النبى — صلى الله عليه وسلم — عن الأهلة .. لماذا يبدأ القمر هلالاً ثم يكبر حتى يصير بدراً ، ثم يتناقص حتى يعود هلالاً ، ثم يختفى ليظهر من جديد ؟

ولكن الجواب لم يجىء فى اتجاه السؤال . إنما عدل به عن طريقه . فما تكون الحكمة فى هذا العدول ؟

لقد كان الإسلام فى ذلك العهد وليداً ، وكان بصدد إعداد الأمة المسلمة لإعلاء كلمة الله

فى الأرض ؛ وكان هذا يستلزم تجميع طاقة هذه الأمة كلها وتوجيهها فى اتجاه معين ، لتنهض بالعبء الفادح الذى ناطه بها الله .

والإجابة المباشرة عن هذا السؤال ربما كانت تمنح السائلين علماً نظرياً فى الفلك ، إذا هم استطاعوا ــ بما كان لديهم من معلومات فى ذلك الحين ــ أن يستوعبوا هذا العلم . ولقد كان ذلك مشكوكاً فيه ، لأن العلم النظرى من هذا الطراز فى حاجة إلى مقدمات طويلة ، كانت تعد بالقياس إلى عقلية العالم كله فى ذلك الزمان معضلات .

وإذا كانت المقدرة العلمية إذ ذاك تعجز عن الانتفاع بالإجابة المباشرة ، فإن الطاقة العقلية لا تعجز عن إدراك الفائدة الواقعية فى حياة القوم ، وعن التأمل فيما سخره الخالق للناس من نعمة ومنفعة فى كل ما خلق .

من هنا عدل عن الإجابة النظرية المباشرة التى لا تجدى فى هذا الأوان ، وليس مجالها على أية حال هو القرآن ، إذ القرآن كتاب دعوة ونظام إنسانى ، يبنيهما فى عالم النفس وفى عالم الواقع ، لا كتاب علم فلكى أو كيماوى أو طبى .. كما يحاول بعض المتحمسين له أن يتلمسوا فيه هذه العلوم ، أو كما يحاول بعض الطاعنين فيه أن يتلمسوا مخالفاته لتلك العلوم !

إن كلتا المحاولتين دليل على عدم الفهم لوظيفة هذا الكتاب ومجاله .. إن مجاله هو النفس الإنسانية والحياة الإنسانية ، وإن وظيفته أن ينشئ عقيدة فى الضمير ونظاماً فى الحياة .. إن مادته التى يعمل فيها هى الإنسان ذاته : مشاعره وسلوكه وروابطه .. أما العلوم المادية فهى موكولة إلى عقل الإنسان وتجاربه وكشوفه وافتراضاته ونظرياته . ولن تصادم الأصول القرآنية أصلاً ، لأن القرآن لم يتعرض لها ، لأنها ليست من موضوعاته .

وإنى لأضحك لسذاجة المتحمسين لهذا القرآن ، الذين يحاولون أن يضيفوا إليه ما ليس منه ؛ وأن يحملوا عليه ما لم يقصد إليه . كأنما ليعظموه بهذا ويكبروه !

إن القرآن كتاب كامل فى موضوعه وفى مهمته . وإنها لمهمة أضخم من مهمة العلم النظرى المجرد ، أو العملى التطبيقى . إن العلم والبحث فيه خاصية من خواص العقل فى الإنسان . والقرآن إنما يحاول بناء هذا الإنسان نفسه . بناء شخصيته وضميره ووجوده ، كما يحاول بناء المجتمع الإنسانى الذى يسمح لهذا الإنسان أن يستخدم طاقاته .. وبعد أن

يوجد الإنسان ، ويوجد المجتمع الذى يسمح له بالنشاط ، يترك لعقله أن يجرب ويحاول ويخطىء ويصيب ، فى مجال العلم والبحث والتجريب .

كذلك لا يجوز أن نعلق القرآن بفروض العقل الإنسانى ونظرياته . هذا العقل الذى ينفى اليوم ما أثبته بالأمس ، ويخطىء اليوم ويصيب غداً ، ويغير نظرياته وفروضه كلما أسعفته التجارب بجديد . وكل محاولة لتوفيق الإشارات القرآنية العامة مع ما يصل إليه العلم من نظريات متجددة متغيرة ، تنطوى فى نظرى على معانٍ ثلاثة كلها لا يليق بجلال القرآن الكريم :

الأولى : هى الهزيمة الداخلية التى تهيىء لبعض الناس أن العلم هو المهيمن والقرآن تابع . على حين أن القرآن قد بلغ فى موضوعه ومهمته الكمال ؛ والعلم ما يزال فى موضوعه ينقض اليوم ما أثبته بالأمس ، ويتعثر تعثر الأطفال !

والثانية : سوء فهم الوظيفة الأولى للقرآن وهى بناء عالم الإنسان . عالمه الروحى وعالمه الواقعى فى مجال الأفراد والجماعات .

والثالثة : هى التأويل المستمر — مع التمحل والتكلف — لنصوص القرآن كى نلهث بها وراء الفروض والنظريات التى لا تثبت ولا تستقر ، وكل يوم يجد فيها جديد .

نعم أشار القرآن إلى بعض السنن الكونية ، ولكنه أشار إليها إشارات عامة ثابتة مستقرة لهذا لم تصطدم بها إلى اليوم نظريات العلم وفروضه ، لأن هذه وتلك لا تجريان فى حلبة واحدة حتى يقع بينهما الصدام .

قال تعالى : « والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم . لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار ، وكل فى فلك يسبحون » .. ولم يذكر كيف ولا أين ولا سائر التفصيلات .

وقال تعالى : « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين » .. ولم يذكر كيف ولا متى ولا فى أى طريق سار .

وقال تعالى : « ألم تر أن السماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما . وجعلنا من الماء كل

شيء حي » .. ولم يذكر كيف كانتا ولا متى انفصلتا ، أما ارتباط الحياة بالماء فهو حقيقة خالدة لا مجال فيها للافتراض .

وهكذا كل إشارة وردت في القرآن ، إنما وردت مجملة ، تقرر الحقيقة الأولية التي لا تختلف فيها النظريات ، لأن النظريات كلها إنما تبدأ من ورائها لا منها . كما تؤدي غاية أساسية في بناء الإنسان ذاته ، لا في معالجة التفصيليات المتروكة لعقله وتجاربه وإدراكاته .

لقد اعتبر القرآن الكريم سؤالهم النبي صلى الله عليه وسلم على ذلك النحو إتياناً للبيوت من ظهورها ، فالأولى أن يبدأ الإنسان ببناء ذاته ، وبناء عالمه ، ثم تجيء المعلومات تبعاً لحياته . ووجه السائلين إلى ما يمكن أن ينتفعوا به في حياتهم الواقعة من سنن الكون الثابتة . فقال :

« يسألونك عن الأهلة قل : هي مواقيت للناس والحج . وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ، ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها » .

وبذلك ردهم إلى النظر والتأمل في سنن الله على النحو الذي ينشئ التقوى في النفوس ، ويوجه إلى العمل الصالح والبناء في واقع الحياة .

***

قل هي مواقيت للناس والحج .. والبيت الحرام والأشهر الحرم ترد على الخاطر بمجرد التفكير في الحج . ولقد وقف المشركون في وجه الرسول صلى الله عليه وسلم ومن معه في عام الحديبية ، فمنعوهم من الحج ، لم يراعوا حرمة البيت ولا حرمة الشهر . ثم انتهوا إلى الصلح على أن يحج المسلمون من قابل .

ولم يكن بد للمسلمين حين جاء الموعد أن يستعدوا كي لا يمنعوا من البيت مرة أخرى ، فأمروا بحمل السلاح احتياطاً .

ولقد عز على بعضهم أن يحمل سلاحه في الأشهر الحرم وفي بيت الله الحرام .. هنا نزلت هذه الأحكام :

إن المسلمين مكلفون أن يقاتلوا من يعتدي عليهم ، دون اعتداء منهم ولا مجاوزة لهذا الغرض الدفاعي ، ودون تجاوز المحاربين إلى سواهم ممن لم يعتدوا ولم يشنوا حرباً ، من النساء والأطفال والشيوخ ، الذين يتمتعون بحرمة الإنسانية ، ولم يسقطها عنهم اعتداء منهم :

« وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » .

فمن اعتدى على المسلمين فالمسلمون مكلفون أن يقتلوه حيث وجدوه ، ومن أخرجهم من ديارهم فليخرجوه منها كما أخرجهم ، ومن فتنهم عن دينهم ، وأكرههم على الارتداد بعد ما هداهم الله ، فالفتنة أشد من القتل ، وهم مكلفون إذن أن يقاتلوه وأن يقتلوه أنى وجدوه :

« واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل » .

ولا قتال عند المسجد الحرام إلا أن يقاتلهم أعداؤهم ، فإذا حملوا فى وجههم السلاح فليقتلوهم . فإذا انتهوا وكفوا وجب على المسلمين أن يكفوا ، وأن يدعوا أمرهم لله :

« ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه ، فإن قاتلوكم فاقتلوهم ، كذلك جزاء الكافرين . فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم » .

وغاية القتال فى هذه الأحوال ضمانة ألا يفتن المسلمون عن دينهم ، وأن يعز دين الله وينتصر ويمتنع على الأذى والفتنة . فإذا انتهى المعتدون عن الفتة والتعرض لدين الله ومتبعيه بالأذى فلا قتال معهم ، لأن القتال لا يكون إلا مع الظالمين :

« وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله ، فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين » .

ومن انتهك حرمة الشهر الحرام فجزاؤه أن يحرم السلم فيه :

« الشهر الحرام بالشهر الحرام » .

وقتاله هنا قصاص منه لحرمة الشهر التى لم يرعها مع غيره ، فلا تراعى معه :

« والحرمات قصاص » .

وبعد هذا كله فالمسلمون موكولون إلى تقواهم لله . ألا يتجاوزوا الحد ، وألا يقسوا فى غير محل للقسوة . وأن يكون رائدهم هو إعلاء كلمة الله وحدها دون غاية :

« فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ، واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين » .

والجهاد كما يحتاج للرجال يحتاج للمال ، فعلى المسلمين أن ينفقوا من أموالهم ، وألا

يضنوا بها فى إعداد العدة ، ففى الضن والبخل تهلكة ، وإضعاف لشوكة المسلمين ، وتعريض بهم للهزيمة ، وجزاء الإحسان حب الله وإحسانه :

« وأنفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ، وأحسنوا إن الله يحب المحسنين »

وبعد فمن يتدبر هذا الدستور القرآنى فى الحرب والسلم تتكشف له غاية الحرب فى الإسلام واضحة : إنها ليست لإكراه الناس على الإسلام ، وليست للغنائم والأسلاب والمنافع ، وليست للقهر والغلب والاستغلال ، وليست للاستعباد والتجبر والإذلال ، وليست للمباهاة والفخر والسيادة . . كلا . إنها ليست لشىء من هذا كله .

إنها حرب للدفاع عن حرية العقيدة ، وعن كرامة المعتقدين . حرب غايتها ألا يفتن الناس عن دينهم وألا يتخطفوا من أرضهم ، وألا يكون حمى الله مباحاً للمعتدين . وهى حرب تقدس المقدسات من الأمكنة والأزمنة ، ولا تخالف عن هذا إلا مكرهة ، وبقدر الحاجة ودفع الضرر . وهى حرب لا تتجاوز الغاية المحدودة منها ولا تعتدى على الآمنين الذين لم يخرجوا لقتال . . وأخيراً فهى حرب تستجيب لداعى السلم بمجرد الكف عن العدوان ، وبمجرد تحقيق كلمة الله فى حماية دينه وحماية أهله أن يفتنهم المعتدون . ثم هى تقرر ذلك المبدأ الإنسانى العظيم : أن الفتنة عن الدين أشد من القتل ، لأنها اعتداء على أخص خصائص الإنسانية وهى حرية الاعتقاد . وبذلك ترفع هذه الحرية فوق الحياة ذاتها ،وهى أقدس ما تقدسه الأديان وغير الأديان .

***

وبعد فقد جاءت الأحكام السابقة الخاصة بالقتال فى الحرم وفى الأشهر الحرم ، بمناسبة الحديث عن الحج الذى تلا هذه الآيات .

ولسنا ننوى هنا بيان مناسك الحج وأحكامه ، فلهذا مكانه فى كتب الفقه ، إنما نكتفى بكلمة مجملة عن حكمة المناسك والشعائر ، وباللمسات الخاصة التى تخللت سياق هذه الآيات .

أذكر لقد تحدثنا فى الجزء الأول عن حكمة الشعائر الظاهرة فى العبادات الإسلامية ، وحاجة النفس البشرية إلى هذا اللون من التعبير عن المشاعر المضمرة ، كى تستوفى الحواس والجوارح حظها من التعبير ، كما استوفاها القلب والشعور .

وفى مناسك الحج تبدو هـذه الظاهرة واضحة . . فالتجرد عن المخيط بالإحرام واعتزال النساء والزينة ، وتجنب الجدل والمناقشات الحادة . . كلها إبراز لمعنى التجرد لله فى حرم الله ، إبراز هذا المعنى المضمر بتلك الشعائر الحسية توكيداً لها وتعميقاً فى النفوس .

والسعى والهرولة والوقوف بعرفات ومنى ورمى الجمار ... وسائر مناسك الحج . كل منها يرنو إما إلى ذكرى تاريخية كالسعى والنحر . وإما إلى منابذة للشيطان ودوافع الشر كرمى الجمار . وهكذا وهكذا مما تنوب فيه الحركة الظاهرة عن معنى مضمر ؛ أو تؤكد هذا المعنى ، أو تترجمه إلى حركة محسوسة تراها العيون .

والحج بعد مؤتمر المسلمين العام ، الذى يتلاقون فيه مجردين عن كل ما وراءهم ، تربطهم عقدة الإسلام وحدها ، ويجمعهم بيت الله الحرام . عندئذ يتعارفون وتتلاقى قلوبهم ؛ وعندئذ يعتزون بذلك النسب الواحد الذى يجمعهم ، وبالوحدة الكبرى التى تربطهم ، فإذا هم كثير ، وإذا هم أقوياء بالكثرة والاتحاد .

وهـذه المساواة المطلقة التى يحرص عليها الإسلام ، ويحطم بهـا فوارق النسب ومميزات الطبقات :

« ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس » .

إنها موجهة إلى قريش ، التى كانت تعتز بنسبها ، فلا تقف مع الناس فى عرفات ، ولا تنصرف مع الناس بعدالوقوف . إنما تقف بمنى وحدها معتزة بشعورها الطبقى الذى لا يعرفه الإسلام .

« ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس » .

قفوا معهم حيث وقفوا ، وانصرفوا معهم حيث انصرفوا . . إن الإسلام لا يعرف نسباً ولا يعرف طبقة . إن الناس كلهم أمة واحدة . سواسية كأسنان المشط ، لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى . . ولقد كلفهم الإسلام أن يتجردوا فى الحج من كل ما يميزهم من الثياب ، ليلتقوا فى بيت الله إخواناً متساوين . فلا يتجردوا من الثياب ليتخايلوا بالأنساب . . دعوا عنكم عصبية الجاهلية ، واعتزوا بالإسلام وحده إذا أردتم الاعتزاز . . .

« ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس . واستغفروا الله إن الله غفور رحيم » .

« وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ ، فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ * وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً ، وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ . إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ...

« هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ ؟ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ * سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ .. وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ .

« زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا ، وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ .

« كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ، وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ، وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ ، بَغْيًا بَيْنَهُمْ ، فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ، وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .

« أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ ، مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ ، وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ : مَتَى نَصْرُ اللَّهِ ؟ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ » .

بين الفرائض والتكاليف يلتفت القرآن إلى القلب الإنساني يوقظه ويحييه ، ويضرب له الأمثال ، ويعرض له العبر ، ويذكره بالله والآخرة . . كل أولئك كي يجعل منه أداة حساسة مرهفة ، مستعدة لتلقى التكاليف والفرائض ، والاندفاع إلى النهوض بها عن طواعية وفهم وإدراك .

وهنا فى هذه الآيات يبدأ فيستعرض نموذجين من نماذج الناس : الأول نموذج المنافق اللبق الذى يعجب مظهره ويسوء مخبره ؛ فإذا ووجه بحقيقته ودعى إلى تقوى الله وخشيته ، لم يرجع إلى الحق ، ولم يحاول إصلاح نفسه ، إنما أخذته العزة بالإثم ، واستكبر أن يوجه إليه النقد . . والثانى نموذج المؤمن الصادق الذى يبذل نفسه كلها لمرضاة الله ، فلا يستبقى منها شيئاً ، ولا يكون لذاته حساب فى تصرفاته ، لأنه يفنى فى الله ، ويتوجه بقلبه كله إلى الله

« ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا » بما فيه من طلاوة ولباقة وحلاوة « ويشهد الله على ما فى قلبه » وهى وسيلة من وسائل الذين يخدعون الناس بالقول ، ويتظاهرون بالصلاح ؛ وكأنما يحسون أن الناس يدركون ما يطوون عليه جوانحهم ، فيلجأون إلى توكيد ما يظهرون ، زيادة فى إخفاء ما يبطنون ! « وهو ألدُّ الخصام » معوج منحرف فى جداله ، لا يسلم بالحجة ، ولا يخضع للحق ، إنما يميل عنه وينحرف ؛ ويلج فى الجدل والخصام .

« وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل » وبذلك تنكشف حقيقته باللدد فى الخصومة ، وبالفساد فى الأرض ، وإهلاك الحرث والنسل « والله لا يحب الفساد » لما فيه من مخالفة لناموس الحياة .

« وإذا قيل له : اتق الله » ولا تخالف عن إرادته ، وأصلح ضميرك وسلوكك . « أخذته العزة بالإثم » فاعتز بالجريمة ، واستمسك بها ، وكابر فيها .. « فحسبه جهنم » وفيها الكفاية لهذا الخلق ولهذا السلوك « ولبئس المهاد » كأنما هى مهاد !

« ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله » نفسه كلها ، لا يستبقى منها شيئاً « والله رؤوف بالعباد » لا يكلفهم فوق الطاقة ، حتى لو ارتضوا المشقة . فالهدف الأسمى من التكاليف هو إصلاح النفس الإنسانية والحياة الإنسانية ، لا مجرد المشقة التى تصاحب التكاليف . وإن بعض النفوس لتندفع بكليتها مستعدة للتضحية كاملة ، ومتأهبة للفناء المطلق . ولكن الله رؤوف بعباده ، لا يطلب إليهم إلا الوسط والطاعة فيما يستطاع : « وما جعل عليكم فى الدين من حرج » . . .

وبعد عرض ذينك النموذجين اللذين نجدهما مكررين فى البشرية فى كل زمان ومكان ، يدعو المؤمنين أن يستسلموا بكلياتهم لله ، إيثاراً للنموذج الثانى من نماذج الإنسان الذى يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله ، فلا يكون موزعا بين الله والشيطان ، ولا بين العقيدة والهوى ؛ ولا يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض ؛ ولا يؤدى ما تهواه نفسه من تكاليف ، ويتأبى على غير ما تهواه ! ثم يختلق الحجج والمعاذير أو يلجأ إلى التمحل والتأويل .

إن الاستسلام المطلق لله هو قوام الإسلام ، بل هو حقيقة الإسلام ؛ وليس المقصود هو الاستسلام بلا فهم ولا قصد — كاستسلام الكثير من العوام — إنما المقصود هو إدراك الفكرة الكلية للعقيدة ؛ ومن ثم ينشأ التسليم بكل مفرداتها وجزئياتها . فليتفكر الإنسان وليتدبر فى أصول العقيدة الكبرى ، فإذا آمن بها فلا يقعدن يجادل فى التفصيلات والمسائل . فالإسلام وحدة مترابطة ، متى آمن الإنسان بحقيقته الأولى إيماناً بصيراً ، لم يجد عوجاً ولا أمتاً فى تفصيلاته الصغيرة . ومن هنا كان النداء بالدخول فى السلم كافة ، أى بالاستسلام بكل النفس لكافة التكاليف .. وقد جاء هذا النداء للذين آمنوا ، فهذا الاستسلام نتيجة منطقية وطبيعية للإيمان متى قام على أصل صحيح عميق :

« يأيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة ، ولا تتبعوا خطوات الشيطان . إنه لكم عدو مبين » .

فمن زلّ من بعد ما تبين له الحق ، فهو مؤاخذ بزلته ، والله عزيز قادر على جزائه ، حكيم يراعى ظروفه ولا يؤاخذه إلا بحقيقة موقفه :

« فإن زللتم من بعد ما جاءكم البينات ، فاعلموا أن الله عزيز حكيم »

ومن ثم عودة إلى النموذج الأول ، ذلك الذى تأخذه العزة بالإثم ، وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل ..

عودة فى صورة سؤال استنكارى . ما الذى ينتظره القوم كى يرجعوا عما هم فيه ؟ ألعلهم لا يقنعون بما جاءهم من آيات ومن بينات ؟ ألعلهم إذاً ينتظرون ما هو أكبر وأرهب :

« هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام والملائكة ؟ »

وكثير من بنى إسرائيل عند ما انحرفت عقائدهم كانت تعمر رؤوسهم أساطير عن الله

جل شأنه ، فكانوا يتصورونه ـ سبحانه ـ فى السحاب والغمام ! فالسياق هنا يشير إلى هذه الأساطير متهكما ساخراً من تصوراتهم المضحكة . ثم مهدداً متوعداً ، بأن تشقق السماء بالغمام ومثول الناس بين يدى الله فى ذلك الأوان ، إنما هو من آيات يوم القيامة . فلو تحقق ما ينتظرون فسيكون ذلك إيذانا بهذا اليوم الذى يقضى فيه كل شىء ، وينتهى فيه كل شىء : « وقضى الأمر وإلى الله ترجع الأمور » .

وبالمناسبة يتوجه التبكيت والتأنيب إلى بنى إسرائيل ، فكم جاءتهم البينات فلم يؤمنوا بها ، وكم بدلوا آيات الله وخالفوا عنها . وقد كانت هذه الآيات مظهرا لنعمة الله عليهم وعنايته بهم . ولكنهم صرفوها عن وجهها وبدّلوها : « ومن يبدل نعمة الله من بعد ماجاءته فإن الله شديد العقاب » .

* * *

ولما كان المجال كله مجال موازنة بين النفوس المؤمنة التى أسلمت ذاتها لله ، والنفوس الجاحدة التى تشغلها الدنيا وشهواتها الواطئة القريبة عن أهداف المؤمنين العالية البعيدة .. فإن السياق يلم بها هنا إذ يقرر أن الحياة الدنيا قد زينت للكافرين ، فأحبوها ووقفوا عندها لم يتعدوها . وقد جهلوا دوافع المؤمنين وأهدافهم فهم يسخرون منهم ومنها ، لأنهم يطلون على الحياة من زاوية غير التى يطل منها المؤمنون . فإذا رأوهم يرفضون عرض الحياة الدنيا ، ويتطلعون إلى غايات أبعد منها وأسمى ، حسبوهم لا يدركون هذه الأعراض ولا يعرفونها ، وسخروا من غفلتهم وسذاجتهم . على حين أن المؤمنين الذين يخافون الله إنما يصغرون هذه الأعراض لأن تصورهم للحياة يختلف ، وتقديرهم للأشياء غير تقدير الكافرين ، الذين يحصرون غاياتهم كلها فى هذه الأرض دون سواها ، وفى لذائذ هذه الأرض دون الغايات العليا فيها :

« زين للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا ، والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة » .

وستظل الحياة أبدا تعرف هذين النموذجين من الناس .. تعرف المتصلين بالله ، الذين يرفعهم هذا الاتصال عن الاستغراق فى دنيات الحياة ، لا لأن الله كتب عليهم الحرمان ، ولكن لأنهم تخلصوا من أوهاق الضرورات وقيود الشهوات ، وحققوا إنسانيتهم بتحقيق إرادتهم ، وأصبحوا مالكين للحياة يصرفونها ويوجهونها إلى أعلى ، لا عبيداً للحياة تتحكم فيهم شهواتها

وتثقل بهم إلى أدنى .. كما تعرف أولئك الذين انفصمت علاقتهم بالله ، فلم يعد لهم إلا هذه الحياة الدنيا ، ولم يعودوا يجدون فى نفوسهم ما يشدها إلى المثل العليا .

وسيظل المؤمنون ينظرون من عل إلى أولئك الهابطين . على حين يعتقد هؤلاء أن المؤمنين محرومون من لذائذ الحياة ، محجوبون عما فيها من متاع ؛ فيشفقون عليهم تارة ويسخرون منهم تارة ؛ وهم أحق بالإشفاق والسخرية : « والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة » لأنهم كانوا فوق شهواتهم وضروراتهم فى الحياة الدنيا . لأنهم حققوا ما كتب الله لهم من الكرامة . كرامة الإنسان الذى ارتفعت به إرادته على نزوات الحيوان .

وما فى هذا من كبت ولا صد عن طيبات الحياة . ولكن فيه استعلاء على الضرورات ، وحرية فى المتاع على طريقة الإنسان المالك لأمره ، المختار فى متاعه ، الذى لا يقيس الحياة كلها بلذة تقضى وشهوة تنال .

***

وفى معرض النماذج المتباينة من الناس يقرر السياق أن هذا التباين طارىء ، أوجدته ظروف الحياة وملابساتها . فالناس من أصل واحد ، وقد غبر عليهم عهد كانوا فيه فى مستوى واحد واتجاه واحد ، ثم اختلفوا ، وتباينت وجهات النظر ، وتعددت المناهج ، وتنوعت المعتقدات ؛ عندئذ بعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ، ومعهم الشريعة ليكون هنالك مقياس ثابت يردّ إليه الناس ، ومعيار دقيق للخطأ فى مناهجهم والصواب . فبغير هذا المقياس الثابت والمعيار الدقيق يدعى كل فريق أنه على الحق ، دون حجة ولا برهان :

« كان الناس أمة واحدة ، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ، وأنزل معهم الكتاب ، ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه » .

هنا تتبين حكمة إرسال الله للرسل ، ومعهم الكتاب الذى يشرع الشريعة ويرسم الطريق .. إن العقل البشرى لا يفىء إلى معيار ثابت ، ولا يتفق على وجهة واحدة . والواقع أننا حين نحيل على العقل البشرى فإنما نحيل على مجهول شائع يصعب تحديده وتعريفه .. إذ ماهو العقل البشرى الذى يمكن أن نكل إليه رسم أهداف ثابتة للحياة البشرية جميعا ؟

هل العقل البشرى هو قوة الإدراك والتمييز والموازنة والحكم ؟ فكيف يعمل هذا العقل أولا ؟ وكيف يتلقى مدركاته ؟ وكيف يوازن ويميز ويحكم ؟ إننا فى أغلب الظن لا ندرى عن

ذلك كله شيئا ، لأننا نحاول أن نعرف بالعقل ما هو العقل وكيف يعمل ؟ أى أننا نحاول أن يدرك الشىء ذاته ، وأن يدرك كيف يدرك ذاته ! وهى محاولة فى أغلب الظن مستحيلة !

ثم هل العقل البشرى شىء ثابت أم متحرك متطور متغير ؟ هل هو عقل الماضين أم عقل المعاصرين أم عقل القادمين ؟

وعقل مَن مِن الماضين أو المعاصرين أو القادمين ؟ عقل كل فرد منهم على حدته ؟ أم عقل جميعهم فى لحظة معينة ؟ أم عقلهم كلهم طوال الحياة ؟

أياً كان الجواب ، فنحن نعتمد على شىء نجهل طبيعته ونجهل طريقته ، ونحن بعد هذا نكلفه فوق طاقته ، إذا نحن وكلنا إليه رسم هدف ثابت للبشرية كلها ، مبنى على إدراك كافة العلاقات بين هذه البشرية وبين الوجود كله ، وكافة الطاقات الكامنة فيها ، وكافة الظروف المحيطة بها ، وكافة الإمكانيات المهيأة لها ، وكافة الغايات التى تهدف إليها .

إن رسم مثل هذا الهدف فى حاجة إلى علم ما كان وما هو كائن وما سيكون . علمه كله لا مقيدا بقيود الزمان التى تفصل الوجود الواحد إلى ماض وحاضر ومستقبل ، ولا مقيداً بقيود المكان التى تفصل الوجود الواحد إلى قريب وبعيد ومنظور ومحجوب ، ومحسوس وغير محسوس ... فى حاجة إلى إله يعلم ما خلق ويعلم من خلق وهو اللطيف الخبير .

أما العقل البشرى فبحسبه أن يواجه الأحوال المتطورة والظروف المتغيرة ، ثم يوائم بين الإنسان وبينها فى لحظة عابرة ، وظرف طارىء . على أن يكون هنالك مقياس ثابت يفىء إليه ، فيدرك بعده وقربه عن الهدف الدائم لتلك الحياة . هذا المقياس الثابت يرسمه من يعلم كل شىء ، ويتمثل فى الدين والعقيدة . يتمثل فى « الكتاب » الذى أنزله الله مع النبيين . وهو كتاب واحد لأن أصوله واحدة ، وتفصيلاته هى التى تتبع مرور الزمان . « ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه » ويردهم إلى نهج ثابت تقاس إليه المناهج ، وتحسب على هداه الخطوات . وبهذا وحده تستقيم الحياة ، ويطمئن الناس إلى أن الذى يسوسهم فى النهاية إله !

ولقد جاء هذا الكتاب ، ولكن الاختلاف مع هذا لا يزال !

« وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات » .

ولكن هذا الاختلاف لم ينبع من طبيعة الكتاب الذى أنزله الله مع النبيين . إنما نبع

من هوى الإنسان . نبع من الحسد والحرص على النفع الخاص ، وكراهية أن يكون لبعض الناس شأن .. لقد وقع هذا مع وجود الكتاب، فكيف إذا لم يكن ذلك المقياس الثابت الذى تفىء إليه العقول :

فأما الذين آمنوا فى جميع العصور فقد جمعهم الله على الحق وهداهم إليه :

« فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه »

لأن صفاء نفوسهم وإخلاص قلوبهم ، جعلهم يفيئون إلى الحق ، ويقتنعون بالآيات ، ولا يحكمون الهوى ، ولا يتبعون الشهوات :

« والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » .

***

وينتهى هذا الاستعراض بالتوجه إلى المؤمنين ، الذين يجدون مشقة هذا الخلاف فيما بينهم وبين معارضيهم من الكفار وأهل الكتاب ، وما يجره من حروب ومتاعب وويلات . يتوجه إليهم بأن هذه هى سنة الله الأزلية فى الكون : أن يدافع أهل العقيدة عن عقيدتهم ، وأن يلقوا فى سبيلها العنت والألم ، ويتراوحوا بين النصر والهزيمة .. حتى إذا ثبتوا على ما اعتقدوا، لم تزعزعهم شدة ، ولم ترهبهم قوة ، استحقوا نصر الله ، لأنهم يومئذ أمناء على عقيدته ، مأمونون على ما ائتمنوا عليه ، صالحون لصيانته والذود عنه .

على أن الصراع والصبر عليه ، يهب النفوس قوة ، ويرفعها على ذواتها ، ويطهرها فى بوتقة الألم ، فيصفو عنصرها ويضىء . ويهب العقيدة عمقاً وقوة وحيوية ، فتتلألأ حتى فى أعين أعدائها وخصومها ، وعندئذ يدخلون فى دين الله أفواجاً كما وقع ، وكما يقع فى كل قضية حق، يلقى أصحابها ما يلقون فى أول الطريق ، حتى إذا ثبتوا للمحنة انحاز إليهم من كانوا يحاربونهم، وناصرهم من كانوا يناوئونهم :

« أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ، ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم ، مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه : متى نصر الله ؟ » .

ألا إنها لصورة عميقة جليلة مرهوبة . إن هذا السؤال من الرسول والذين آمنوا معه .

من الرسول المتصل بالله ، والمؤمنين الذين آمنوا بالله . إن سؤالهم : « متى نصر الله ؟ » ليصور مدى المحنة التى تزلزل القلوب المتصلة بالقوة الكبرى . ولن تكون إلا محنة فوق الوصف . تلقى ظلالها على مثل هاتيك القلوب ، فتبعث منها ذلك السؤال المكروب : « متى نصر الله ؟ »

عند ما تثبت القلوب على مثل هذه المحنة المزلزلة المحطمة . عندئذ تتم كلمة الله ، ويجىء النصر من الله : « ألا إن نصر الله قريب » .

إنه مدخر لمن يستحقونه ، ولن يستحقه إلا الذين يثبتون حتى النهاية . الذين يثبتون على الزلزلة . الذين يصمدون للعاصفة . الذين يستيقنون أن لا نصر إلا نصر الله . فحتى حين تبلغ المحنة ذروتها ، فهم يتطلعون فحسب إلى نصر الله .

بهذا يدخل المؤمنون الجنة ، مستحقين لها جديرين بها ، بعد الجهاد ، والامتحان ، والثبات .

« يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ ؟ قُلْ : مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ، وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ » .

« كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ ، وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ .

« يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ : قِتَالٍ فِيهِ ؟ قُلْ : قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ، وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ ، وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ؛ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ؛ وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

« يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ؟ قُلْ : فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ، وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا . .

« وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ ؟ قُلِ : الْعَفْوَ . كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ * فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

« وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ ؟ قُلْ : إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ ، وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ ، وَاللهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ ، وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » .

نحن فى معرض التضحيات المكتوبة على ذوى العقائد ، لا يستحقون الجنة إلا ببذلها عن طواعية ، ولا ينالون النصر إلا بالصبر على ذلك البذل . .

والمال والنفس واللذائذ كلها مجالات للتضحية ، ومجالات للبذل المفروض على من يريدون أن يكونوا على دين الله أمناء ، وفى أرض الله مستخلفين . . وهنا فى هذه الآيات نجد حكم الله فى بذل المال ، وحكمه فى بذل النفس ، وحكمه فى التضحية ببعض ما تلتذه النفوس ، مجموعة كلها فى معرض التضحيات ، بعد الحديث عن الجنة وما يكتنفها من ابتلاءات .

« يسألونك ماذا ينفقون ؟ »

ولكن الجواب لم يأت عن « ماذا ؟ » إنما جاء عن « لمن ؟ » .

« قل : ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل » .

فأما الإجابة عن ماذا ينفقون ، فقد جاءت فيما بعد :

« ويسألونك ماذا ينفقون ؟ قل : العفو » .

ولا بد للجواب على ذلك النحو من دلالة . . إن المهم فى الإنفاق ليس المقدار والكمية ، ولكن المهم هو نوع الإنفاق وطريقه وما وراءه من حكمة . أما القدر الذى ينفق فيجىء بيانه متأخراً ، لأن غيره أولى بالتقديم .

« قل : ما أنفقتم من خير » .. وإذن فينبغى أن يتحرى المنفق أفضل ما عنده فينفق منه، وأفضل ما لديه فيشارك الآخرين فيه . فالإنفاق تطهير للقلب وتزكية للنفس ، ثم منفعة للآخرين ومعونة . وتحرى الطيب والنزول عنه للآخرين هو الذى يحقق للقلب الطهارة ، وللنفس التزكية ، وللإيثار معناه الكريم فى الحياة .

أما طريق الإنفاق ومصرفه ، فيربط بين طوائف من الناس . بعضهم تربطه بالمنفق رابطة العصب ، وبعضهم رابطة الرحم ، وبعضهم رابطة الرحمة ، وبعضهم رابطة الإنسانية الكبرى .. وكلهم يتجاورون فى الآية الواحدة : الوالدون . والأقربون . واليتامى . والمساكين . وابن السبيل .. وكلهم يتضامون فى رباط التكافل الاجتماعى الوثيق بين بنى الإنسان . الأقربون منهم وغير الأقربين سواء فى ذلك الرباط الوثيق المتين : « وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم » .

***

تلك ضريبة المال . وهناك ضريبة الدم .. كلتاهما تتجاوران فى السياق فى مجال التضحية المكتوبة على المؤمنين :

« كتب عليكم القتال » فهو فريضة وضريبة واجبة الأداء .. وهى فريضة شاقة على النفس البشرية . لا يريد القرآن أن ينكر المشقة فيها ، ولا أن يهون من أمرها ، ولا أن ينكر على النفس البشرية إحساسها الفطرى بكراهيتها . فالإسلام لا يمارى فى الفطرة ، ولا يصادمها ، ولا يكلفها ما لا تطيق ، ولا يحرم عليها المشاعر الفطرية التى ليس إلى إنكارها من سبيل .. ولكنه يعالج الأمر من جانب آخر ، ويسلط عليها نوراً جديداً .. إنه يقرر أن من الفرائض ما هو شاق مرير كريه المذاق ؛ ولكن وراءه حكمة تهون مشقته ، وتسيغ مرارته ، وتحقق به خيراً مخبوءاً قد لا يراه النظر الإنسانى القصير :

« وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم . والله يعلم وأنتم لا تعلمون » .

وإذن فهو يفتح للنفس البشرية نافذة جديدة تطل منها على الحياة وعلى التكاليف وعلى الهدف البعيد .. نافذة تهب منها ريح رخية على النفس الإنسانية عند ما تحيط بها الكروب ،

وتشق عليها الأمور .. إنه من يدرى أن وراء المكروه خيراً ، ووراء المحبوب شراً ؟ إن العليم بالغايات ، المطلع على العواقب هو الله .. خالق الوجود ، العليم بخفاياه .

عند ما تنسم تلك النسمة الرخية على النفس البشرية تهون المشقة ، وتتفتح منافذ الرجاء ، ويطمئن القلب وتعمره الثقة ، ويجنح إلى الطاعة والأداء .

هكذا يواجه الإسلام الفطرة . لا منكراً عليها ما يطوف بها من مشاعر طبيعية ؛ ولكن مربياً لها على الطاعة ، مفسحاً لها فى الرجاء ، لتبذل الذى هو أدنى فى سبيل الذى هو خير ، ولترتفع على ذاتها متطوعة لا مجبرة ، ولتحس العطف الإلهى الذى يعترف بضعفها ، ويعذره ويقدره ، ويحدو لها بالتسامى والتطلع والرجاء .

وهكذا يربى الإسلام الفطرة ، فلا تجزع عند الصدمة الأولى ، ولا تخور عند المشقة البادية . . لأن هنالك غيباً لا تدريه . وقد يكمن فيه الخير بعد الشر ، واليسر بعد العسر ، والراحة الكبرى بعد شديد العناء . ولا تسترسل مع اللذة فقد تعقبها الحسرة ، ويكمن فيها الشر ، وتودى بصاحبها إلى الدمار .

***

ولقد سأل بعض المسلمين عن الشهر الحرام هل يكون فيه قتال ؟ وعن حكم هذا القتال . فجاءهم الجواب : أن القتال فى الشهر الحرام كبيرة ولكن ما فعله المشركون من صد المسلمين عن سبيل الله ، وعن المسجد الحرام هو المبرر للقتال . ذلك أن إخراج المسلمين من دارهم وصدهم عن المسجد الحرام ، وفتنتهم عن دينهم أكبر من القتل . ولقد فعل المشركون ذلك كله ، فقتالهم إذن فى الشهر الحرام أقل من عدوانهم على المسلمين ، وهم بدأوا بالعدوان ، وارتكبوا ما هو أكبر من القتل .

ولقد سبق فى سياق السورة بيان حكم القتال فى الشهر الحرام وفى البيت الحرام . وهو يكرره هنا بمناسبة الحديث عن فريضة القتال ؛ ويزيد عليه جديداً يؤكد هذا الحكم ويعلله .. إن المشركين لمصرون على قتال المسلمين ، فلم يكن موقفهم عام الحديبية فلتة عابرة ، إنما هى خطة مقررة :

« ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا » .

وإذن فهو الإصرار على الحرب وعلى الإيذاء وعلى الفتنة ، حتى يزلزلوا المسلمين عن

دينهم ، ويردوهم من بعد إيمانهم كفاراً . وإذن فالمسلمون لا ينبغى لهم أن يحجموا عن رد العدوان ، احتفاظاً بحرمة الشهر الحرام التى لا يحترمها أعداؤهم المعتدون .

إن المشركين يريدون المؤمنين على كبيرة الكبائر : الردة إلى الكفر بعد الإيمان . الكبيرة التى لا غفران لها ولا تسامح فيها ؛ فليحذر المؤمنون ذلك المصير المحزن الذى يريدهم عليه المشركون :

« ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر ، فأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة ، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » .

وليستمسكوا بالعروة الوثقى التى لا انفصام لها ، وليحتملوا فى سبيلها مشاق الهجرة ومشاق الجهاد ، فأمامهم رحمة الله وغفرانه ، مفتحة أبوابهما ، وإن تعلقهم برحمة الله ورجاءهم فيها ليكفى أن يهبهم الصبر على المشاق ، واحتمال الهجرة والجهاد :

« إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله ، أولئك يرجون رحمة الله ، والله غفور رحيم » .

* * *

ثم يمضى السياق يبين للمسلمين حكم الخمر والقمار .. وكلتاهما لذة من اللذائذ التى كان العرب غارقين فيها ، وسمة من سمات المجتمع الجاهلى الذى عاشوا فيه :

« يسألونك عن الخمر والميسر . قل : فيهما إثم كبير ومنافع للناس . وإثمهما أكبر من نفعهما » .

وإلى ذلك الوقت لم يكن قد نزل تحريم الخمر والميسر بعد . ولكن نصاً فى القرآن كله لم يرد بحلهما . . وهذا النص الذى بين يدينا كان أول خطوة من خطوات التحريم . فالأشياء والأفعال قد لا تكون شراً خالصاً . فالخير متلبس بالشر ، والشر متلبس بالخير فى هذه الحياة . ولكن الحل والحرمة إنما يدوران على غلبة الخير أو غلبة الشر . فإذا كان الإثم فى الخمر والميسر أكبر من النفع ، فتلك علة تحريم ومنع . وإن لم يصرح هنا بالتحريم والمنع .

هنا يبدو لنا طرف من طريقة الإسلام فى علاج النفس البشرية . طريقته التى يمكن

استقراؤها فى الكثير من شرائعه وفرائضه . ولا بأس أن نتحدث هنا عن هـذه الطريقة بمناسبة الخمر والميسر .

عند ما يتعلق الأمر أو النهى بمسألة اعتقادية أو أخلاقية ، فإن الإسلام يقضى فيها بما يريد قضاء حاسماً منذ اللحظة الأولى .

ولكن عند ما يتعلق بعادة شعورية ، أو بوضع اجتماعى ، فإنه يتريث ، ويأخذ الأمر باليسر والتدرج ، حتى يبلغ إلى الهدف الذى يرمى إليه فى رفق وفى هوادة .

فعند ما كانت المسألة مسألة عقيدة كالشرك ، أمضى أمره بتحريمه فى خطوة جازمة قاطعة . كذلك صنع فى تحريم الزنا والسرقة والغش والخيانة . . . الخ . لأن التحريم البات هنا إبطال لأمر ليس عميق الجذور فى أعماق النفس أو أعماق المجتمع ، ولا يترتب عليه انتقال مفاجئ من عادة إلى عادة ، أو من وضع إلى وضع .

فأما فى الخمر والميسر فقد كان الأمر أمر عادة شعورية وإلف وعرف . والعادة تحتاج أحياناً إلى التدرج فى تركها . فبدأ بتحريك الوجدان الدينى والمنطق التشريعى فى نفوس المسلمين ، بأن الإثم فى الخمر والميسر أكبر من النفع ، وفى هذا إشارة إلى أن تركهما أولى .. ثم جاءت الخطوة التالية بتحريم الصلاة على السكارى حتى يعلموا ما يقولون : « يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون » . والصلاة تقع فى خمسة أوقات معظمها متقارب لا يكفى ما بينها للسكر والإفاقة . وفى هذا تضييق لفرص المزاولة العملية لعادة الشرب ، بعد تضييق الفرص الشعورية بما قدم من أن الإثم أكبر من النفع . . حتى إذا تمت هاتان الخطوتان جاء النهى الحازم الأخير بتحريم الخمر والميسر : « إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون » .

وأما فى الرق ، فقد كان الأمر أمر وضع اجتماعى وعرف دولى ، فى استرقاق الأسرى ، وفى استخدام الرقيق . والأوضاع الاجتماعية تحتاج إلى تعديل شامل لمقوماتها وارتباطاتها ، والعرف الدولى يحتاج إلى اتفاقات دولية ، ومعاهدات جماعية .. ولم يأمر الإسلام بالرق قط ؛ ولم يرد فى القرآن نص على استرقاق الأسرى . ولكنه جاء فوجد الرق نظاماً عالمياً ، ووجد استرقاق الأسرى عرفاً دولياً . . فلم يكن بد أن يتريث فى علاج هذا الوضع الاجتماعى القائم ، والنظام الدولى الشامل . . وقد اختار أن يجفف منابع الرق وموارده حتى ينتهى بهذا النظام

كله مع الزمن إلى الإلغاء . دون إحداث هزة اجتماعية لا يمكن ضبطها ولا قيادتها . . بدأ بتجفيف موارد الرق ومنابعه كلها فيما عدا أسرى الحرب الشرعية . ذلك أن المجتمعات المعادية للإسلام كانت تسترق أسرى المسلمين حسب العرف الدولى العام فى ذلك الزمان . وما كان الإسلام قادراً يومئذ على أن يجبر هذه المجتمعات على مخالفة ذلك العرف الدولى . ولو أنه قرر إبطال استرقاق الأسرى لكان هذا إجراء مقصوراً على الأسرى الذين يقعون فى أيدى المسلمين. بينما الأسارى المسلمون يلاقون مصيرهم السيء فى عالم الرق هناك . وفى ذلك إطماع للمعادين للإسلام فى أهل الإسلام . لهذا الوضع الاجتماعى القائم لم ينص القرآن على استرقاق الأسرى بل قال : « فإما مناً بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها » ولكنه كذلك لم ينص على عدم استرقاقهم . وترك الدولة المسلمة تعامل أسراها حسب ما تتفق عليه مع محاربيها ، فتفدى من تفدى من الأسارى من الجانبين ، وتتبادل الأسرى بين الفريقين ، وتسترق من يسترقون المسلمين ، كى لا يصبح الأسارى من المسلمين أرقاء ، والأسارى من الكفار طلقاء ! وذلك إلى أن يتسنى تنظيم هذا العرف باتفاق .. وبتجفيف موارد الرق كلها فيما عدا هذا المورد الذى لا اختيار للإسلام فيه ، يقل العدد .. وهذا العدد القليل أخذ يعمل على تحريره بمجرد أن ينضم إلى الأمة الإسلامية ويقطع صلته بالكفار المحاربين . فجعل للرقيق حقه كاملاً فى طلب الحرية بدفع فدية عنه يكاتب عليها سيده . ومنذ هذه اللحظة يملك حرية العمل وحرية الكسب والتملك ، فيصبح أجر عمله له ، وله أن يعمل فى غير خدمة سيده ليحصل على فديته . ثم له نصيبه من بيت المال فى الزكاة . والمسلمون مكلفون فوق هذا أن يساعدوه بالمال على استرداد حريته .. وذلك غير الكفارات التى لا تقضى إلا بعتق رقبة كالقتل الخطأ والظهار(١) وما إليه .. وبذلك ينتهى وضع الرق نهاية طبيعية مع الزمن ، لأنه عميق الجذور فى التنظيم الاجتماعى والعرف الدولى .

وعلى هذه الطريقة سار الإسلام فى أوامره ونواهيه ، وفى علاج انحرافات النفس وانحرافات المجتمع ، وتقويم الفطرة البشرية وردها إلى سواء السبيل .

***

---

(١) أن يحلف الرجل على امرأته أنها حرام عليه كظهر أمه ...

« ويسألونك ماذا ينفقون ؟ قل : العفو » .

هنـا جاء الجواب وفق السؤال . والعفو : الفضل والزيادة . فـكل ما زاد على الحاجة الشخصية من المال فهو محل للإنفاق . والزكاة وحدها لا تجزئ إذن ولا تبرئ الذمة . إن الزكاة هي حق بيت المال لينفقه في مصارفه المحددة . ولكن يبقى بعد ذلك واجب المسلم لله ولعباد الله . والزكاة قد لا تأخذ الزيادة كلها ، والزيادة كلها محل للإنفاق بهذا النص الواضح، ولقوله عليه الصلاة والسلام : « إن في المـال حقاً سوى الزكاة » حقاً قد يؤديه صاحبه ابتغاء مرضاة الله . فإن لم يفعل واحتاجته الدولة بعد الزكاة أخذته فأنفقته فيما يصلح الجماعة الإسلامية، ويسقط هذا الحق عن كاهل أصحابه ، الذين استبقوا العفو ، وكان عليهم أن ينفقوه :

« كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفـكرون في الدنيا والآخرة » .

فالتفـكير في الدنيا وحدها لا يعطى العقل البشرى ولا القلب الإنسانى صورة كاملة عن الحياة وتـكاليفها وواجباتها . فالدنيا شطر الحياة لا كلها . وبناء السلوك والتفـكير على حساب الشطر دون الـكل، لا ينتهى إلى سلوك صحيح ولا إلى تفـكير سليم . ومسألة الإنفاق بالذات في حاجة إلى حساب الدنيا والآخرة . فما ينقص من مال امرئ بالإنفاق يرد عليه طهارة لقلبه وزكاة لمشاعره ، كما يرد عليه صلاحاً للمجتمع الذى يعيش فيه ، ووئاماً وسلاماً واتزاناً . . . ولـكن هذا كله قد لا يكون بارزاً واضحاً لـكل فرد . وحينئذ يكون الشعور بالآخرة وما فيها من جزاء ، تعويضاً طبيعياً عما نقص من المال في الحياة الدنيا ، ترضى عنه النفس وتطمئن له وتستريح .

* * *

« ويسألونك عن اليتامى . قل : إصلاح لهم خير . وإن تخالطوهم فإخوانـكم . والله يعلم المفسد من المصلح ، ولو شاء الله لأعنتكم . إن الله عزيز حكيم » .

إن التـكافل الاجتماعى هو قاعدة الإسلام الأولى . والأمة المسلمة مكلفة أن ترعى مصالح الضعفاء فيها . واليتامى بفقدهم آباءهم وهم صغار ضعاف أولى برعاية الجماعة وحمايتها . رعايتهـا لنفوسهم ، وحمايتها لأموالهم . . ولقـد كان بعض الأوصياء يخلطون أموال اليتامى بأموالهم ، فيقع الغبن أحياناً على هؤلاء اليتامى وتضيع لهم بعض الحقوق . فنهوا عن هذا . . عندئذ تحرج

الأتقياء عن التعرض لليتامى أصلاً خيفة أن يقعوا فى المحظور . ولو ترك الأمر كذلك لكان غرمه على اليتامى أفدح ، وإضاعتهم لهم أشد . فجاء هذا البيان يردهم إلى الاعتدال فى الأمر ، وإلى تحرى خير اليتامى فى جميع الأوضاع . فالإصلاح لليتامى خير من اعتزالهم ، والمخالطة لا حرج فيها إذا حققت الخير لليتيم . فاليتامى إخوان للأوصياء ، كلهم إخوة فى الإسلام . والمؤمنون إخوة . والله يعلم المفسد من المصلح . فليس المهم هو ظاهر العمل ولكن نيته وثمرته . والله لا يريد إحراج المسلمين وإعناتهم والمشقة عليهم فيما يكلفهم به من الأمور عامة . ولو شاء لكلفهم هذا العنت ، ولكنه لا يريد . إنه عزيز قادر على ما يريد ، ولكنه حكيم لا يريد إلا الخير ولا يأمر إلا بالإصلاح . وفى هذا كان نهيه الأول وكان أمره الأخير .

« وَلاَ تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ . وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ . وَلاَ تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا . وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ . أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ، وَاللهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ ، وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ .

« وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ . قُلْ : هُوَ أَذًى ، فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ ، وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ ، فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللهُ . إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ * نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ ، وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ ، وَاتَّقُوا اللهَ ، وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلاَقُوهُ ؛ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ .

« وَلاَ تَجْعَلُوا اللهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ ، وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * لاَ يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ ، وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ، وَاللهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ .

« لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ . فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ .

« وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ، وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ . إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ . وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ ، إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا . وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ، وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ . وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .

« الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ ، فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ . وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا . إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ . فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ . . تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ، وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ . فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ . وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ .

« وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ؛ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا . وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ . وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللهِ هُزُوًا ؛ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ ، وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ ؛ وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ . ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ . ذَٰلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ ، وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ .

« وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ . وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ، لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَهَا ، لا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا ، وَلا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ . وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ . فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ؛ وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلادَكُمْ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ . وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ .

« وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ؛ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ . وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ .

« وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ . عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِنْ لا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا ، إِلاَّ أَنْ تَقُولُوا قَوْلاً مَعْرُوفاً ، وَلا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ ، فَاحْذَرُوهُ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ .

« لاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً ، وَمَتِّعُوهُنَّ . . عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ ، مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ . وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً ، فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلاَّ أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ . وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى . وَلا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ . إِنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ .

« حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاَةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ * فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَانًا ، فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَاذْكُرُوا اللهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ .

« وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ، فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .

« وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ .

« كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ » .

نحن هنا مع دستور الأسرة . وللأسرة فى الإسلام شأن . فهى المحضن الطبيعى الذى يتولى حماية الفراخ الناشئة ورعايتها ، وتنمية جسدها وعقلها وروحها ، وفى ظله تتلقى مشاعر الحب والرحمة والتكافل ؛ وتنطبع بالطابع الذى يلازمها مدى الحياة ؛ وعلى هديه ونوره تتفتح للحياة ، وتفسر الحياة ، وتتعامل مع الحياة .

والآيات هنا تتحدث عن بعض أحكام الزواج والمعاشرة ، والطلاق والعدة والنفقة والمتعة والرضاعة وما إليها . وفى خلال الحديث عن هذه الشؤون ، وبيان أحكامها وتشريعاتها ، يتوجه القرآن إلى القلب الإنسانى ، يلمس فيه منابت الرحمة ، وينابيع العاطفة ؛ ويصله بالله فى كل خطوة وفى كل اتجاه ؛ ويرفع بهذه الصلة وبتلك اللمسات شعور الإنسان بتلك العلاقة القائمة بين الجنسين . يرفعها عن أن تكون شهوة جسد تنقضى فى لحظة ، إلى أن تكون وظيفة إنسانية ذات أهداف أعلى من تلك اللحظة وأخلد . أهداف تتعلق بحياة المجتمع ، وبقاء البشرية ، كما تتعلق بإرادة الخالق وعبادته ، ومراقبته فى تلك العلاقة جملة وتفصيلاً .

وفى ذلك الدستور الإلهى لتلك العلاقة نستطيع أن نلمح العناية بتوطيد أركان البيت على دعائم وطيدة ثابتة ؛ كما نلمح فى الوقت ذاته التيسير الحكيم على الرجل والمرأة ؛ إذا لم يقدر لتلك العلاقة النجاح ؛ وإذا لم تستمتع تلك الخلية الأولى بالاستقرار . فالله الخبير البصير ، خالق الإنسان ، العالم بتكوينه ، لم يرد أن يجعل هذه الرابطة بين الجنسين قيداً وسجناً لا سبيل إلى الفكاك منه ، مهما اختنقت فيه الأنفاس ، ونبت فيه الشوك ، وغشاه الظلام . لقد أرادها

مثابة وسكناً ؛ فإذا لم تتحقق هذه الغاية فأولى بهما أن يتفرقا ، وأن يحاولاها مرة أخرى. وذلك مع إيجاد الضمانات التشريعية والشعورية كى لا يضار زوج ولا زوجة ، ولا رضيع ولا جنين . وبعد استنفاد جميع الوسائل الممكنة لرد الصفاء والرفرفة إلى ذلك العش ، كلما كان ذلك فى حيز المستطاع .

فلننظر فى هذا الدستور الخالد نظرة تفصيلية ، بعد إذ أجملنا خطوطه ومراميه .

***

الزواج أعمق وأقوى وأدوم رابطة ، تصل بين اثنين من بنى الإنسان ، وتشمل أوسع الاستجابات التى يتبادلها فردان . فلا بد إذن من توحد القلوب، والتقائها فى عقدة لا تحل من قريب . ولكى تتوحد القلوب يجب أن يتوحد ما تنعقد عليه ، وما تتجه إليه . والعقيدة الدينية هى أعمق وأشمل ما يعمر النفوس ، ويؤثر فيها ، ويكيف مشاعرها ، ويحدد تأثراتها واستجاباتها . وإن كان الكثيرون يخدعهم أحياناً كمون العقيدة أو ركودها ، فيتوهمون أنها شعور عارض يمكن الاستغناء عنه يعض الفلسفات الفكرية أو بعض المذاهب الاجتماعية . وهذا وهم وعدم خبرة بالنفس الإنسانية ومقوماتها الحقيقية .

لهذا كله حرم الله التزاوج بين المسلمين والمشركين . حرم أن ينكح المسلم مشركة ، وأن ينكح المشرك مسلمة . حرم أن يربط الزواج بين قلبين لا يجتمعان على عقيدة . حرمه لأنه فى هذه الحالة يصبح رباطاً زائفاً ، واهياً ضعيفاً . وحرمه لأنهما فى هذه الحالة لا يلتقيان فى الله ؛ ولا تقوم على حبه وطاعته عقدة الحياة . والله الذى كرم الإنسان ورفعه على الحيوان ، يريد لهذه الصلة ألا تكون ميلاً حيوانياً ولا اندفاعاً شهوانياً . إنما يريد أن يرفعها حتى يصلها بالله فى علاه ، ويربط بينها وبين مشيئته وإرادته فى نمو الحياة وطهارة الحياة .

من هنا جاء ذلك النص الحاسم الجازم :

« ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمنّ ، ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ؛ ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ، ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم . أولئك يدعون إلى النار ، والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه ، ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون » .

ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن . فإذا آمن فقد زالت العقبة الفاصلة ، وقد التقى

القلبان فى الله ؛ وسلمت الآصرة الإنسانية التى تجمع بين المسلم والمشرك مما يفسدها ويعوقها ويوهنها . سلمت تلك الآصرة وقويت بتلك العقدة الجديدة . عقدة العقيدة .

ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم . فهذا الإعجاب المستمد من الغريزة وحدها ، لا تشترك فيه مشاعر الإنسان العليا ، ولا يرتفع عن حكم الجوارح والحواس ؛ وجمال القلب أعمق وأعلى ؛ حتى لو كانت المسلمة أمة غير حرة ، فإن نسبها إلى الإسلام يرفعها عن المشركة ذات الحسب . إنه نسب فى الله وهو أعلى الأنساب .

ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ؛ ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم . فالقضية هى نفسها . تكرر فى الصورة الأخرى ، توكيداً لها وتدقيقاً فى بيانها . والعلة فى الأولى هى العلة فى الثانية .. إن فريق المشركين والمشركات يدعو إلى النار والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه .. هذه هى العلة فى عمومها . إن الطريقين مختلفان ، والدعوتين مختلفتان ، والهدفين مختلفان . فكيف يلتقى الفريقان فى وحدة عائلية . وطريق المشركين إلى النار ، ودعوتهم إلى النار . والله يدعو إلى الجنة ، فما أبعد دعوتهم إذن من دعوة الله !

ولكن أويدعو أولئك المشركون والمشركات إلى النار ؟ ومن ذا الذى يدعو نفسه أو غيره إلى النار ؟

إنهم لم يدعوا جهرة إلى النار ؛ ولكن الاستجابة لهم تقود إلى النار . فكأنما هم دعوا إليها ، فقادوا من يتبعونهم إلى ذلك القرار !

هنا نتذكر أن الله لم يحرم زواج المسلم من كتابية ـ مع اختلاف العقيدة ـ ولكن الأمر هنا يختلف . إن المسلم والكتابية يلتقيان فى أصل العقيدة فى الله ، وإن اختلفت بعض التفصيلات . ما لم تكن عقيدة الكتابية هى أن الله هو المسيح ابن مريم أو أن الله ثالث ثلاثة نصاً وصراحة . فهؤلاء قد عدهم القرآن فى زمرة الكافرين ، فقال : « لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم » وقال : « لقد كفر الذين قالوا : إن الله ثالث ثلاثة » . فما لم تقل ذلك وتعتقده على هذا الوجه ، بقيت لها صفة الكتابية ، ولو اعتقدت بقداسة المسيح ـ عليه السلام ـ أو قداسة أمه العذراء ، أو قداسة روح القدس ، بصورة غير التى يعتقدها المسلم ، ما دامت لا تشرك بالله .

فأما الأمر فى زواج الكتابى من مسلمة فيختلف فى واقعه ، ومن هنا يختلف فى حكمه .

إن الأطفال يدعون لآبائهم بحكم الشريعة الإسلامية . كما أن الزوجة هي التي تنتقل إلى أسرة الزوج وقومه وأرضه بحكم الواقع . فإذا تزوج المسلم من الكتابية انتقلت هي إلى قومه ودعى أبناؤه منها باسمه ؛ فكان الإسلام هو الذى يسيطر ويظلل جو الوحدة الجديدة . ويقع العكس حين تتزوج المسلمة من كتابى ؛ فتعيش بعيداً عن قومها . وقد يفتنها ضعفها ووحدتها هنالك عن إسلامها . كما أن أبناءها يدعون إلى زوجها ويدينون بدين غير دينها . والإسلام يجب أن يهيمن . وقد جاء هذا القرآن « مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه » .

***

« ويسألونك عن المحيض . قل : هو أذى . فاعتزلوا النساء فى المحيض ، ولا تقربوهن حتى يطهرن ، فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله . إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين نساؤكم حرث لكم ، فأتوا حرثكم أنى شئتم ، وقدموا لأنفسكم واتقوا الله ، واعلموا أنكم ملاقوه ، وبشر المؤمنين » .

وهذه لفتة أخرى إلى تلك العلاقة ؛ ترفعها إلى الله ، وتسمو بأهدافها عن لذة الجسد ، حتى فى أشد أجزائها علاقة بالجسد .. فى المباشرة ..

إن المباشرة فى تلك العلاقة وسيلة لا غاية . وسيلة لتحقيق هدف أعمق فى طبيعة الحياة وأكثر أصالة . هدف النسل وامتداد الحياة ، ووصلها كلها بعد ذلك بالله . والمباشرة فى المحيض قد تحقق اللذة الحيوانية ، ولكنها لا تحقق الهدف الأسمى . فضلاً على انصراف الفطرة النظيفة السليمة عنها فى تلك الفترة . لأن الفطرة السليمة يحكمها من الداخل ذات القانون الذى يحكم الحياة . فتنصرف بطبعها — وفق هذا القانون — عن المباشرة فى حالة ليس من الممكن أن يصح فيها غرس ، ولا أن تنبت منها حياة . والمباشرة فى الطهر تحقق اللذة الطبيعية ، وتحقق معها الغاية الفطرية : « فاعتزلوا النساء فى المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن » .

« فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله » .. فى منبت الإخصاب وحده دون سواه . فليس الهدف هو مطلق اللذة كما أسلفنا . إنما الغرض هو امتداد الحياة . وابتغاء ما كتب الله وتطلب رضاه . « إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين » .

وفى هذا الظل ، يصور لوناً من ألوان العلاقة الزوجية يناسبه ويتسق مع خطوطه :

« نساؤكم حرث لكم » وفى ذلك التعبير الدقيق ما فيه من إشارات إلى طبيعة تلك العلاقة فى هذا الجانب ، وإلى أهدافها واتجاهاتها . نعم إنه لا يستغرق سائر العلاقات بين الزوج وزوجه . وقد جاء وصفها وذكرها فى مواضع أخرى مناسبة للسياق فى تلك المواضع . كقوله تعالى : « هن لباس لكم وأنتم لباس لهن » وقوله : « وجعل بينكم مودة ورحمة » فكل من هذه التعبيرات يصور جانباً من جوانب تلك العلاقة العميقة الكبيرة فى موضعه المناسب . أما مناسبة السياق هنا فيشتق معها التعبير بالحرث . لأنها مناسبة إخصاب وتوالد ونماء .

« فأتوا حرثكم أنى شئتم ،وقدموا لأنفسكم ، واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه » .

إنه حرث فأتوه بالطريقة التى تشاءون ؛ ولكن فى موضع الإخصاب الذى يحقق غاية المباشرة . وفى الوقت ذاته تذكروا الغاية والهدف ، واتجهوا إلى الله فيه ، واستشعروا تقواه فى القلوب ، فيكون عملاً صالحاً تقدمونه لأنفسكم ، واستيقنوا من لقاء الله .. « وبشر المؤمنين » بما ينتظرهم فى ذلك اللقاء الذى لا شك فيه .

هنا نطلع على سماحة الإسلام . الذى يقبل الإنسان كما هو ؛ بغرائزه وضروراته . فلا يحاول أن يحطم فطرته . باسم التسامى والتطهر . ولا يحاول أن يستقذر ضروراته التى لا يد له فيها ، إنما هو مكاف إياها فى الحقيقة لحساب الحياة وامتدادها ونمائها ! إنما يحاول فقط أن يقرر إنسانيته ويرفعها ويذكره بها حتى وهو يلبى دوافع الجسد البحتة . يحاول أن يخلط دوافع الجسد بمشاعر إنسانية أولاً ، وبمشاعر دينية أخيراً ؛ فيربط بين نزوة الجسد العارضة وغايات الإنسانية الدائمة ، ورفرفة الوجدان الدينى الشفيف . ويمزج بينها جميعاً فى لحظة واحدة ، وحركة واحدة ، واتجاه واحد ، ذلك المزج القائم فى كيان الإنسان ذاته ، خليفة الله فى أرضه، المستحق لهذه الخلافة بما ركب فى طبيعته من قوى ، وبما أودع فى كيانه من طاقات . والله يعلم وأنتم لا تعلمون .

***

ثم يمضى السياق من الحديث عن حكم المباشرة فى فترة الحيض ، إلى الحديث عن حكم

الإيلاء ، أى الحلف بالهجران والامتناع عن المباشرة ، وبهذه المناسبة يلم بالحلف فى ذاته ، فيجعل الحديث عنه مقدمة للحديث عن الإيلاء :

« ولا تجعلوا الله عرضةً لأيمانكم أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس ، والله سميع عليم . لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ، ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم ، والله غفور حليم . للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر . فإن فاءوا فإن الله غفور رحيم ؛ وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم » .

إن توقير الله والشعور بجلاله يقتضيان ألا يكون اسمه تعالى عرضة للحالف الكثير به . فكثرة الحلف بالله تغض من جلاله ووقاره فى الألسنة والأسماع . وعن هذه الغضاضة ينهى حتى لو كان الهدف هو عمل البر ، وخوف القلب ، والإصلاح بين الناس . فالاقتصاد فى الحلف بالله أكرم وأتقى وأصلح ، وإسباغ المهابة والجلال على هذا الاسم العظيم أولى ، فلا يحلف به إلا نادرا ، وفى المواقف الجسام ، القليلة بطبيعتها ، لا فى المواقف اليومية المكرورة ، التى تعرض فى حياة الناس كثيراً .

ومع الكراهية للحلف والنهى عنه ، فإن الله يرأف بعباده ، فلا يحاسبهم على اللغو فى الأيمان ، وما تجرى به العادة ويسبق به اللسان . إنما هو الأدب المطلوب والتوقير الواجب . فأما المؤاخذة والعقوبة فلا تكون إلا على نية القلب ، وكسب الضمير « والله غفور حليم » .

وعند الانتهاء من تقرير القاعدة الكلية فى الحلف ، يستأنف الحديث فى جو الأسرة ، موضوع هذا السياق . يستأنفه لبيان الحكم فى تلك الحالة التى تلم بنفوس بعض الأزواج ؛ فيؤلون على أنفسهم ألا يباشروا زوجاتهم فترة طويلة محددة ، أو إلى غير أجل محدود . وفى هذا الهجران ما فيه من إيذاء شديد لنفس الزوجة ، ومن إهدار لكرامتها كأنثى ، ومن جفوة تمزق أوصال العشرة ، وتحطم بنيان الأسرة .

ولم يعمد الإسلام إلى تحريم هذا الإيلاء منذ البداية ؛ إنما لجأ إلى توقيته بحد أقصى . لم يعمد إلى تحريمه لأنه قد يكون ضرورةً نفسيةً فى بعض الحالات لا بد من مسايرتها ، حتى تخف حدتها ، وتذهب شرتها . وقد يكون علاجاً نافعاً فى بعض الأحيان للزوجة الشامسة المستكبرة المختالة بفتنتها وقدرتها على إغراء الرجل وإذلاله ، أو إعناته . بإبائها عليه وامتناعها.

ولكنه لم يترك الرجل مطلق الإرادة كذلك ، لأنه قد يكون باغياً فى بعض الحالات ،

يريد إعنات المرأة وإذلالها ، أو يريد إيذاءها لتبقى معلقة ، لا تستمتع بحياة زوجية معه ، ولا تنطلق من عقالها لتجد حياة زوجية أخرى .

فتوفيقاً بين الاحتمالات المتعددة ، جعل هنالك حداً أعلى للإيلاء ، لا يتجاوز أربعة أشهر . وهذا التحديد قد يكون منظوراً فيه أقصى مدى الاحتمال ، كى لا تفسد نفس المرأة ، فتتطلع تحت ضغط حاجتها الجسدية إلى غير رجلها الهاجر . وقد روى أن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ سأل ابنته عن أقصى مدًى تصبر فيه المرأة عن رجلها فأجابت : أربعة أشهر . فاعتزم ألا يغيب المجاهدون من الجند أكثر من هذه الفترة .. وعلى أية حال فإن الطبائع تختلف فى مثل هذه الأمور . وأربعة أشهر مدة كافية ليختبر الرجل نفسه وميوله . فإما أن يعود إلى زوجه وعشه ؛ وإما أن يظل فى نفوره وعدم قابليته . وفى هذه الحالة ينبغى أن تفك هـذه العقدة ؛ وأن تعاد إلى الزوجة حريتها بالطلاق ؛ وأن يحاول كل منهما أن يبدأ حياة زوجية جديدة مع شخص جديد . فذلك أكرم للزوجة وأعف وأصون ؛ وأروح للرجل كذلك وأجدى . وأقرب إلى العدل والجد فى هذه العلاقة ، التى أراد الخالق بها امتداد الحياة لا تجميد الحياة !

* * *

والآن وقد انتهى السياق إلى الطلاق ؛ فإنه يأخذ فى تفصيل أحكام الطلاق ، وما يتبعه من العدة والفدية والنفقة والمتعة وغيرها فى جميع الحالات .

فأما الحكم الأول فهو حكم الطلقة الأولى :

« والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ؛ ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله فى أرحامهن . إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر . وبعولتهن أحق بردهن فى ذلك . إن أرادوا إصلاحاً . ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف ، وللرجال عليهن درجة . والله عزيز حكيم » .

يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ـ أى ثلاث حيضات أو ثلاثة أطهار من الحيضات على خلاف ـ يتربصن بأنفسهن .. لقد وقفت أمام هذا التعبير الخاص طويلاً . إن المعنى الذهنى المقصود هو أن ينتظرن دون زواج حتى تنقضى ثلاث حيضات أو حتى يطهرن منها . ولكن التعبير يلقى ظلالاً أخرى بجانب ذلك المعنى الذهنى .. إنه يلقى ظلال الرغبة الدافعة إلى استئناف حياة

زوجية جديدة . رغبة الأنفس التى يدعوهن إلى التربص بها والإمساك بزمامها ، مع التحفز والتوفز الذى يصاحب صورة التربص . وهى حالة طبيعية ، تدفع إليها رغبة المرأة فى أن تثبت لنفسها ولغيرها أن إخفاقها فى حياة الزوجيـة لم يكن لعجز فيها أو نقص ؛ وأنها قادرة على أن تجتذب رجلاً آخر ، وأن تنشئ حياةً جديدة .. هذا الدافع لا يوجد بطبيعته فى نفس الرجل ، لأنه هو الذى طلق . بينما يوجد فى نفس المرأة لأنها هى التى وقع عليها الطلاق .

يتربصن بأنفسهن هذه الفترة كى يتبين براءة أرحامهن من آثار الرجل السابق . وهذه البراءة تثبت ثبوتاً قاطعاً بعد ثلاث حيضات . قبل أن يصرن إلى زيجات جديدة « ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله فى أرحامهن إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر » تحت تأثير الرغبة الملحة فى استئناف حياة زوجية أخرى ، كى لا تختلط الأنساب ، ولا يدعى الأبناء إلى الآباء ..

هذا من جهة ، ومن الجهة الأخرى ، فإنه لا بد من فترة معقولة يختبر فيها الزوجان عواطفهما بعد الفرقة ؛ فقد يكون فى قلوبهمـا رمق من ود يستعاد ، وعواطف تستجاش . وقد يكون الطلاق إنما وقع نتيجة نزوة أو غلطة أو كبرياء ! فإذا سكن الغضب ، وهدأت النفس ، استصغرت تلك الأسباب التى دفعت إلى الفراق ، وعاودها الحنين إلى استئناف الحياة . والطلاق أبغض الحلال إلى الله . وهو عملية بتر لا يلجأ إليها إلا حين يخيب كل علاج . وهذه الطلقة الأولى تجربة يعلم الزوجان منها حقيقة مشاعرهما . فإذا اتضح أن استئناف الحياة مستطاع ، فالطريق مفتوح : « وبعولتهن أحق بردهن فى ذلك » أى فى فترة الانتظار والتربص « إن أرادوا إصلاحاً » بهذا الرد ، ولم يكن الغرض هو إعنات الزوجة وإعادة تقييدها فى حياة محفوفة بالأشواك ، انتقاماً منها أو استكباراً واستنكافاً أن تنكح زوجاً آخر .

وللمطلقات من الحقوق فى هذه الحالة مثل الذى عليهن من الواجباب . فهن مكلفن ألا يكتمن ماخلق الله فى أرحامهن . وأزواجهن مكلفون بأن تكون نيتهم فى الرجعة طيبة لاضرر فيها عليهن ولا ضرار . « وللرجال عليهن درجة » أحسب أنها مقيدة فى هذا السياق بحق الرجال فى ردهن إلى عصمتهم فى فترة العدة « إن أرادوا إصلاحاً » وقد جعل هذا الحق فى يد الرجل لأنه هو الذى طلق . وليس من المعقول أن يطلق هو فيعطى حق المراجعة للزوجة ، فتذهب إليه وترده إلى عصمتها ! فهو حق تفرضه طبيعة الموقف . وهى درجة مقيدة بهـذا الموقف كذلك ، وليست مطلقة الدلالة ، كما فهمها الـكثيرون . ومنهم كاتب هذه السطور !

والحكم الثانى خاص بعدد الطلقات ؛ وبحق المطلقة فى تملك الصداق ، وحرمة استرداد شىء منه عند طلاقها إلا فى حالة واحدة . حالة المرأة الكارهة . وهى حالة الخلع التى تريد المرأة فيها أن تشترى حريتها بفدية تدفعها :

« الطلاق مرتان . فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان . ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً . إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله . فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به . تلك حدود الله فلا تعتدوها . ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون »

الطلاق الذى يجوز بعده استئناف الحياة مرتان . فإذا تجاوزهما المتجاوز لم يكن إلى العودة من سبيل إلا بشرط تنص عليه الآية التالية فى السياق . فأما المرة الأولى فقد سبق بيان حكمها وحكمتها . وأما الثانية فهى تجربة أخرى ، وامتحان أخير . فإن صلحت الحياة بعدها فذاك . وإلا فالطلقة الثالثة دليل على فساد أصيل فى حياة ذينك الزوجين لا تصلح معه هذه الحياة .

وعلى أية حال فما يجوز أن يكون الطلاق إلا علاجاً لحالة لا يجدى فيها سواه . فإذا وقع فإما إمساك للزوجة بالمعروف ، واستئناف حياة رضية رخية ، وإما تسريح لها بإحسان لا عنت فيه ولا إيذاء .

ولا يحل للرجل أن يسترد شيئاً من صداق أو نفقة أنفقها فى أثناء الحياة الزوجية ، كى يطلق امرأة لم تصلح حياته معها ولا حياتها معه . ما لم تجد هى أنها كارهة لا تطيق عشرته لسبب يخص مشاعرها وملابساتها الشخصية ؛ وتحس أن كراهيتها له أو نفورها منه ، سيقودها إلى الخروج عن حدود الله فى حسن العشرة ، أو العفة ، أو الأدب . فهنا يجوز لها أن تطلب الطلاق منه ، وأن تعوضه عن تحطيم عشه بلا سبب متعمد منه ، برد الصداق الذى أعطاه لها ، أو بنفقاته عليها كلها أو بعضها . لتشترى حريتها ، وتعصم نفسها من معصية الله وتعدى حدوده ..

« تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون » .

***

ولا بد هنا من وقفة عابرة أمام اختلاف فى تعبيرين قرآنيين فى معنى واحد حسب اختلاف الملابستين .

فى مناسبة سبقت فى هذه السورة عند الحديث عن الصوم ، ورد تعقيب : « تلك حدود الله فلا تقربوها » وهنا فى هذه المناسبة ورد تعقيب : « تلك حدود الله فلا تعتدوها » .. فى الأولى تحذير من القرب ، وفى الثانية تحذير من الاعتداء .. فلماذا كان هذا الاختلاف ؟

فى المناسبة الأولى كان الحديث عن محظورات مشتهاة :

« أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم . هن لباس لكم وأنتم لباس لهن . علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم ، فتاب عليكم وعفا عنكم . فالآن باشروهن ، وابتغوا ما كتب الله لكم ، وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ؛ ثم أتموا الصيام إلى الليل ، ولا تباشروهن وأنتم عاكفون فى المساجد .. تلك حدود الله فلا تقربوها »

والمحظورات المشتهاة شديدة الجاذبية ، فمن الخير أن يكون التحذير من مجرد الاقتراب من حدود الله فيها . اتقاء لضعف الإرادة أمام جاذبيتها إذا اقترب الإنسان من مجالها ؛ ووقع فى نطاق حبائلها !

أما هنا فالمجال مجال مكروهات واصطدامات وخلافات . فالخشية هنا هى خشية تعدى الحدود فى دفعة من دفعات الخلاف ، وتجاوزها وعدم الوقوف عندها . فجاء التحذير من التعدى لا من المقاربة . بسبب اختلاف المناسبة . وهى دقة فى تصوير المواقف ومقتضياتها عجيبة !

***

ثم نمضى مع السياق فى أحكام الطلاق ..

« فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره . فإن طلقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا إن ظنا أن يقيما حدود الله . وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون » .

إن الطلقة الثالثة ـ كما قلنا ـ دليل على فساد أصيل فى هذه الحياة لا سبيل إلى إصلاحه من قريب . إن كان الزوج جاداً عامداً فى الطلاق . وفى هذه الحالة يحسن أن ينصرف كلاهما إلى التماس شريك جديد . فأما إن كانت تلك الطلقات عبثاً أو تسرعاً أو رعونة ، فالأمر يستوجب وضع حد للعبث بهذا الحق الذى قرر ليكون صمام أمن ، وليكون علاجاً اضطرارياً

لا اختيار فيه ، لا ليكون موضعاً للعبث والتسرع والسفاهة ؛ ويجب حينئذ أن تنتهى هذه الحياة التى لا تجد من الزوج احتراماً لها واحتراساً فى المساس بها .

وربما قال قائل : وما ذنب المرأة تهدر حياتها بسبب كلمة تخرج من فم رجل عابث ؟ وقد يكون هذا حقاً . ولكن علاجه لا يكون بأن نرغم مثل هذا الرجل على معاشرة زوجة لا يحترم علاقته بها ولا يوقرها . فنقول له مثلاً : إننا لا نعتمد طلاقك لها ولا نعترف به ولا نقره . . كلا . إن فى هذا من المهانة للزوجة وللعلاقة الزوجية ما لا يقره الإسلام ، الذى يحترم هذه العلاقة إلى حد القداسة . إنما تكون عقوبته أن نحرمه زوجته التى عبث بحرمة علاقتها المقدسة به ، وأن نحرمها فى الطلقة الثالثة عليه . وقد خسر صداقها وخسر نفقته عليها ، وخسر عشرتها بعد ذلك . إلا أن تنكح زوجاً غيره ؛ ثم يطلقها هذا الزوج طلاقاً طبيعياً بعد معاشرته إياها معاشرة زوجية صحيحة كاملة . فإن رأى زوجها الأول ورأت هى أن هذه التجربة الأخيرة القاسية قد ردتهما إلى الصلاح ، وأحيت فى أنفسهما بذور الحب والمودة والصفاء ، عاودا تجربة جديدة . والأمر بعد ذلك موكول إلى عقيدتهما فى القدرة على إقامة حدود الله فى حياتهما الجديدة . فالأمر ليس متروكاً لأهوائهما ونزواتهما ، إنما هو مشدود إلى ذلك الأفق الأعلى ، مربوط بذلك الرباط الأوثق : « وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون » .

« وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن ، فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ؛ ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا ، ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه . ولا تتخذوا آيات الله هزواً . واذكروا نعمة الله عليكم ، وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به ؛ واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شىء عليم » .

إن المعروف والجميل والحسنى يجب أن تسود جو هذه الحياة . سواء اتصلت حبالها ، أو انفصمت عراها . ولا يجوز أن تكون نية الإيذاء والإعنات عنصراً من عناصرها . « ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه » ظلم نفسه لا غيره . فلقد خلقها الله نفساً واحدة وخلق منها زوجها ليسكن إليها . فهى نفس واحدة من يظلمها فقد ظلم نفسه ؛ وقد أهدر كرامتها الإنسانية ، وأساء إلى المعنى الإنسانى الذى يجمع بين الرجل والمرأة .

ولقد قدر الله وهو يخلق الجنسين ، ويجمع بينهما بذلك الرباط المقدس ، أن تكون تلك

الرابطة نعمة ، فلا يجوز أن ينسى الناس نعمة الله عليهم . ولقد أمدهم بكتابه وآياته ليبين لهم . فلا يجوز أن ينسوا آيات الله ، ولا يجوز أن يستهزئوا بها فلا يوقروها ولا يلتزموها .

وفى هذا المجال الذى يتحكم فيه الضمير ، وتحكمه التقوى ، يهيب القرآن بالضمائر وبالقلوب : « واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شىء عليم » .

« وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن ، فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف . ذلك يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر . ذلكم أزكى لكم وأطهر ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون » .

كذلك لا يجوز إذا أوفت المطلقة عدتها ؛ ثم أرادت أن تعود إلى زوجها أو تنكح زوجاً آخر ، أن يحول أهلها أو زوجها السابق دون حقها الطبيعى فى أن تكون عشاً ، وأن تستأنف الحياة الطبيعية التى أرادها الله لها .. وهنا كذلك يستجيش الوجدان والضمير ، بعد النهى والتحذير . « ذلك يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر » ثم يستجيش وجدان العفة والكرامة . فالزواج أعف وأطهر وأحفظ للعرض والحياء : « ذلكم أزكى لكم وأطهر » والله صاحب هذه الشريعة أعرف بطبائع الخلق وغرائزهم ومصالحهم : « والله يعلم وأنتم لا تعلمون » . وهكذا يرفع الأمر كله إلى أفق العبادة . ويطهره من شوائب الأرض وأدران الحياة .

* * *

والحكم الثالث حكم الرضاعة بعد الطلاق . . .

إن دستور الأسرة لا بد أن يتضمن بياناً عن تلك العلاقة التى لا تنفصم بين الزوجين بعد الطلاق . علاقة النسل الذى ساهم كلاهما فيه ، وارتبط كلاهما به . فإذا تعذرت الحياة بين الأبوين فإن الفراخ الزغب لا بد لها من ضمانات :

« والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة . وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف . لا تكلف نفس إلا وسعها ، لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده . وعلى الوارث مثل ذلك . فإن أرادا فصالاً عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما.

وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم ، إذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف . واتقوا الله واعلموا أن الله بما تعملون بصير » .

إن على الوالدة المطلقة واجباً تجاه طفلها الرضيع أن ترضعه حولين كاملين . فذلك هو الأمد الكافى لإكمال الرضاعة ، ولضمان صحة الطفل ونموه . وإن لها فى مقابل ذلك حقاً على أبيه أن يرزقها ويكسوها بالمعروف والمحاسنة ، فكلاهما شريك فى التبعة ، وكلاهما مسئول تجاه هذا الرضيع . هى تمده باللبن وأبوه يمدها بالغذاء ووسائل الحياة لترعاه . وكل منهما يؤدى واجبه فى حدود طاقته « لا تكلف نفس إلا وسعها » . . « لا تضار والدة بولدها » فيستغل الأب عواطفها وحنانها ليدعها وطفلها ، مطمئناً إلى أنها مرغمة بعواطفها وغرائزها أن ترضعه وترعاه . « ولا مولود له بولده » ولا يضار والد بولده بالاستغلال والإثقال وتكليفه ما لا يطاق.

والواجبات الملقاة على الأب تنتقل فى حالة وفاته إلى وارثه الراشد ، فهو المكلف أن يرزق الأم المرضع ويكسوها بالمعروف والحسنى . تحقيقاً للتكافل العائلى الذى يتحقق طرفه بالإرث ، ويتحقق طرفه الآخر باحتمال تبعات المورث جزاء وفاقاً .

فإذا شاء الوالد والوالدة . أو الوالدة والوارث . أن يفطما الطفل قبل استيفاء العامين ؛ لأنهما يريان مصلحة فى ذلك الفطام لسبب صحى أو سواه . فلا جناح عليهما إذا تم هذا بالرضى بينهما وبالتشاور فى مصلحة الرضيع الموكول إليهما رعايته ، المفروض عليهما حمايته .

كذلك إذا رغب الوالد فى أن يحضر لطفله مرضعاً مأجورة حين تتحقق مصلحة الطفل فى هذه الرضاعة . على شرط أن يوفى المرضع أجرها ، وأن يحسن معاملتها ، فذلك ضمان لأن تكون للطفل ناصحة ، وله راعية وواعية .

وفى النهاية يربط الأمر كله بذلك الرباط السماوى . بالتقوى . بذلك الشعور العميق الشفيف . الذى يكل إليه ما لا سبيل لتحقيقه إلا بذلك الشعور اللطيف : « واتقوا الله واعلموا أن الله بما تعملون بصير » فهذا هو الضمان الأكيد فى النهاية . وهذا هو الضمان الوحيد .

***

والحكم الرابع حكم المخلفات بعد موت الأزواج :

« والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً ، فإذا بلغن أجلهن فلا جناح عليكم فيما فعلن فى أنفسهن بالمعروف . والله بما تعملون خبير » .

والمتوفى عنها زوجها كانت تلقى الشىء الكثير من العنت من الأهل والمجتمع وقرابة الزوج بصفة خاصة ؛ وما تزال تلقى هذا العنت حتى اليوم فى بيئات كثيرة . فخفف الإسلام عنها هذا العنت ، بل رفعه كله عن كاهلها ؛ ولم يجمع عليها فقدان الزوج واضطهاد الأهل بعده ، وإغلاق السبيل فى وجهها دون حياة شريفة ، وحياة عائلية مطمئنة .. جعل عدتها أربعة أشهر وعشر ليال . وهى قريبة من عدة المطلقة ، تستبرىء فيها رحمها ؛ ولا تجرح أهل الزوج فى عواطفهم بخروجها لتوها . فأما بعد هذه العدة فلا سبيل لأحد عليها . سواء من أهلها أو من أهل الزوج . ولها مطلق حريتها فيما تتخذه لنفسها من سلوك شريف فى حدود سنة الله وشريعته. فلها أن تأخذ زينتها المباحة للمسلمات ، ولها أن تتلقى خطبة الرجال . ولها أن تزوج نفسها ممن تحب . لا تقف فى سبيلها عادة بالية ، ولا كبرياء زائفة . وليس عليها من رقيب إلا ضميرها ، وإلا خشية الله فى هذا الضمير : « والله بما تعملون خبير » .

***

ثم يأتى حكم الخطبة للنساء المعتدات من وفاة الأزواج ، قائماً على أدب النفس ، وأدب الاجتماع ، ورعاية المشاعر والعواطف ، مع رعاية المصالح والضرورات :

« ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء أو أكننتم فى أنفسكم » .

إن المرأة فى عدتها ما تزال معلقة بذكرى لم تمت ، وبمشاعر أسرة الميت ؛ ومرتبطة كذلك بما قد يكون فى رحمها من حمل لم يتبين ، أو حمل تبين والعدة معلقة بوضعه . وكل هذه الاعتبارات تمنع الحديث عن حياة زوجية جديدة ، لأن هذا الحديث لم يحن موعده ، ولأنه يجرح مشاعر ويخدش ذكريات ..

ومع رعاية هذه الاعتبارات فقد أبيح التعريض — لا التصريح — بخطبة النساء . أبيحت الإشارة البعيدة التى تلمح منها المرأة أن هذا الرجل يريدها زوجة بعد انقضاء عدتها ؛ وأبيحت الرغبة المكنونة التى لا يصرح بها لا تصريحاً ولا تلميحاً . أبيح هذا لأنه يتعلق بميل فطرى ، حلال فى أصله ، مباح فى ذاته ، والملابسات وحدها هى التى تدعو إلى تأجيل اتخاذ الخطوة العملية فيه . والإسلام يلحظ دائماً ألا يحطم الميول الفطرية إنما يهذبها ، ولا يكبت النوازع البشرية إنما يضبطها : « علم الله أنكم ستذكرونهن » علم الله أن هذا سيقع منكم ، لأنه فطرة

قوية فى نفوسكم ، أن تتوجه أشواقكم إلى هؤلاء النساء ، وأن تذكروهن وتفكروا فيهن وتهفوا إليهن .

« ولكن لا تواعدوهن سراً . إلا أن تقولوا قولاً معروفاً » .

لا جناح أن تعرضوا بالخطبة أو أن تكنوا فى أنفسكم رغبة . ولكن المحظور هو المواعدة السرية على الزواج قبل أوان الزواج . ففى هذا مجانبة لأدب النفس، ومخالسة كذلك لأهل الزوج، وللمجتمع ، ولله الذى جعل العدة فاصلاً طبيعياً بين عهدين من الحياة . « إلا أن تقولوا قولاً معروفاً » لا نكر فيه ولا فحش ، ولا مخالفة لحدود الله فى هذا المجال .

« ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله » .

ولم يقل : ولا تعقدوا النكاح . إنما قال : « ولا تعزموا عقدة النكاح » زيادة فى التحرج ، فالعزيمة التى تنشئ العقدة هى المنهى عنها ، لأنها وسيلة مباشرة لعمل لم يحن موعده . ولأنها فى هذا الجو الذى صورناه من قبل وبالقياس إلى الاعتبارات المحيطة بالزوجة المتوفى عنها زوجها.. لا تقل أثراً عن أثر العقدة ذاتها . فالعزيمة منهى عنها كالنهى عن العقد ذاته : « حتى يبلغ الكتاب أجله » .

« واعلموا أن الله يعلم ما فى أنفسكم . فاحذروه »

وهنا يربط بين التشريع وخشية الله المطلع على السرائر . فللهواجس المستكنة وللمشاعر المكنونة هنا قيمتها فى العلاقات بين رجل وامرأة . تلك العلاقات الشديدة الحساسية ، العالقة بالقلوب ، الغائرة فى الضمائر . وخشية الله ، والحذر مما يحيك فى الصدور أن يطلع عليه الله ، هى الضمانة الأخيرة مع التشريع ، لتنفيذ التشريع .

فإذا هز الضمير البشرى هزة الخوف والحذر ؛ فصحا وارتعش رعشة التقوى ، عاد فسكب فيه الطمأنينة إلى الله ، والثقة بعفو الله ورحمته وحلمه وغفرانه « واعلموا أن الله غفور حليم » غفور يغفر خطيئة القلب الشاعر بالله ، الحذر من مكنونات القلوب . حليم لا يعجل بالعقوبة ، فلعل عبده الخاطئ أن يتوب .

***

ثم يجيء حكم المطلقة قبل الدخول . وهى حالة كثيرة الوقوع . فيبين ما على الزوجين وما لهما فى هذه الأحوال :

فإما أن تطلق الزوجة ولم يكن قد فرض لها مهر معلوم . والمهر فريضة . فالواجب هنا على الزوج أن يمتعها . أى أن يمنحها عطية حسبما يستطيع . ولهذا العمل قيمته النفسية بجانب كونه نوعاً من التعويض . إن انفصام هذه العقدة من قبل ابتدائها ينشئ جفوة ممضة فى نفس المرأة ، ويجعل الفراق طعنة عداء وخصومة . ولكن التمتيع يذهب بهذا الجو المكفهر ، وينسم فيه نسمات من الود والمعذرة . ويخلع على الطلاق جو الأسف والأسى ؛ فهى محاولة فاشلة إذن وليست ضربة مسددة ! ولهذا يوصى أن يكون المتاع بالمعروف استبقاء للمودة الإنسانية ، واحتفاظاً بالذكرى الكريمة :

« لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة . ومتعوهن – على الموسع قدره وعلى المقتر قدره – متاعاً بالمعروف حقاً على المحسنين » .

والحالة الثانية أن يكون قد فرض مهراً معلوماً . وفى هذه الحالة يجب نصف هذا المهر المعلوم للزوجة . هذا هو القانون . ولكن الإسلام يدع الأمر بعد ذلك للضمير . يدعه للتفضل والسماح . فللزوجة أن تعفو وتدع نصيبها إذا شاءت ، ولوليها – إن كانت صغيرة – أن يعفو كذلك ، عن تسامح وتراض :

« وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة ، فنصف ما فرضتم . إلا أن يعفون أو يعفو الذى بيده عقدة النكاح » .

إن التنازل فى هذه الحالة هو تنازل الإنسان الراضى القادر العفوّ السمح ، الذى يأنف أن يأخذ من مال رجل قد انفصمت منه عروته . أو الذى يستشعر أن القطيعة قد جاءت من جانبه ، أو لأى سبب من الأسباب . وهو تنازل عن حق معروف معلوم . ومع هذا فإن القرآن لا يترك التوجيه فى هذا المقام إلى أن يسود التجمل والتفضل جوّ هذه العلاقة ناجحة كانت أو خائبة : « ولا تنسوا الفضل بينكم » وأن يربط هذا التوجيه بالخالق العارف بالأعمال وبواعث الأعمال : « إن الله بما تعملون بصير » .

***

ومن ثم ينتقل السياق من أحكام الطلاق والعدة التى لم ينته منها بعد ، والتى ما تزال لها بقية فى السياق . ينتقل من هـذه الأحكام نقلة عجيبة إلى الصلاة والمحافظة عليها والقيام لله فى قنوت . سواء فى حالات الخوف أو الأمن . وذكر الله جزاء على علمه الذى علمنا إياه :

« حافظوا على الصلوات والصلاة الوسـطى . وقوموا لله قانتين . فإن خفتم فرجالاً أو ركباناً . فإذا أمنتم فاذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون »

إنها نقلة عجيبة . فأحكام الطلاق والعدة لم تنته بعد ، ولا يزال طرف منها وراء آية الصلاة :

« والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً . وصية لأزواجهم متاعاً إلى الحول غير إخراج . فإن خرجن فلا جناح عليكم فيما فعلن فى أنفسهن من معروف والله عزيز حكيم . وللمطلقات متاع بالمعروف حقاً على المتقين . كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون »

لقد كان باقياً من أحكام العدة حكم المتوفى عنها زوجها ، وحقها فى وصية تسمح لها بالبقاء فى بيته والعيش فى ماله ، مدة حول لا تخرج ولا تتزوج إن رأت من مشاعرها أو من الملابسات المحيطة ما يدعوها إلى البقاء . مع حريتها فى أن تخرج ، وحريتها فى تصرفها مع نفسها فى حدود المعروف فى غير منكر ولا محرم .

وكان باقياً ذلك الحكم العام فى المتاع بالمعروف للمطلقات جميعاً فى نهاية الحديث عن العدة والطلاق .

كان هذا كله باقياً . فلماذا إذن كانت هذه النقلة العجيبة إلى الصلاة والقنوت والذكر قبل نهاية الأحكام ؟

أشهد أننى وقفت أمام هذه النقلة ستة أشهر أو تزيد ، لا يفتح على فى سرها ؟ ولا أريد أنا أن أتمحل لها ، ولا أقنع كل القناعة بما جاء فى بعض التفاسير عنها ، من أن إدخال الحديث عن الصلاة فى جو الحديث عن الأسرة ، إشارة إلى الاهتمام بأمرها ، والتذكير بها حتى لا تنسى .

لقد بقيت ستة أشهر أو تزيد لا أجاوز هـذه النقلة ، ولا أمضى وراءها . لأن سرها لم يكشف لى كشفاً يستريح ضميرى إليه . وأشهد أنه لم يسترح بعد لما اهتديت حتى اللحظة إليه وهو :

أن القرآن يمضى دائماً فى سياقته للأحكام التشريعية على ربط القلوب بالله الذى فرض هذه

الأحكام . وأن التوجيه إلى الصلاة هنا والمحافظة عليها ، والتوجيه إلى القنوت لله وذكره جزاء ما علمنا .. أن هذا التوجيه اطراد فى طريقة القرآن عند فرض الأحكام .

وشىء آخر هو أن فى جو الأسرة ـ وبخاصة عند ذكر الطلاق وعند ذكر العدة وعند ذكر المتاع ـ من الخوف ومن الأمن ، ما يتناسق مع جو الخوف والأمن الواردين هنا فى أحكام الصلاة « فإن خفتم فرجالاً أو ركباناً » . أى فأدوا الصلاة قائمين أو راكبين كى لا يأخذكم العدو على غرة ـ « فإذا أمنتم فاذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون » وتناسق الأجواء ملحوظ فى أسلوب القرآن ، واضح للعيان[1] .

ولكنى ـ كما قلت مخلصاً ـ لا أستريح الراحة الكافية لما اهتديت إليه . فإذا هديت إلى شىء آخر فأسبينه فى الطبعة التالية . وإذا هدى الله أحداً من القراء ، فليتفضل فيبلغنى مشكوراً بما هداه الله .

أما تخصيص « الصلاة الوسطى » بالذكر ، فالأغلب أنها صلاة العصر . وربما خصت بالتنبيه ، لأن وقتها يجىء بعد الانتهاء من العمل وبعد نومة القيلولة ، فهى كثيراً ما تفوت المصلى .

ولكن خاطراً بشأنها قد انقدح فى ضميرى :

إن « الصلاة الوسطى » ربما كانت بياناً لنوع الصلاة ، وليست إحدى الصلوات . فهى الصلاة الوسطى . التى لا تميل إلى أحد الطرفين : الإفراط والتفريط . والتى تؤدى على وجه الاعتدال والتوسط . الوجه الذى يلحظه الإسلام فى تشريعاته وتوجيهاته جميعاً .

ولكنى لست كذلك على يقين من هذا الوجه فى تفسير الآية . إنما هو خاطر لم أجد ما ينفيه . والله يعلم سر هذا القرآن .

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ ، فَقَالَ لَهُمُ اللهُ : مُوتُوا ؛ ثُمَّ أَحْيَاهُمْ . إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ ، وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ

---

(١) يراجع فصل « التناسق الفنى » فى كتاب : « التصوير الفنى فى القرآن » .

لا يَشْكُرُونَ * وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً ؟ وَاللهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ .

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى ، إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكاً نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ . قَالَ : هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُوا ؟ قَالُوا : وَمَا لَنَا أَلا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ ، وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ؟ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلا قَلِيلاً مِنْهُمْ . وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ * وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ : إِنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً . قَالُوا : أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ ، وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ ؟ قَالَ : إِنَّ اللهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ ، وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ، وَاللهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ ، وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ : إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ، وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلائِكَةُ . إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ .

« فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ : إِنَّ اللهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ ، فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي ، وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي — إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ — فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِنْهُمْ ، فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا : لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ . قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُو اللهِ : كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ ، وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ .

« وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا : رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً ، وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا ، وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللهِ ؛ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ ، وَآتَاهُ

اللهُ المُلْكَ وَالحِكْمَةَ ، وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ . وَلَوْلا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ ؛ وَلَكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى العَالَمِينَ .

« تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالحَقِّ ، وَإِنَّكَ لَمِنَ المُرْسَلِينَ .

كنا فى الدرس الماضى مع شريعة الأسرة ؛ والأسرة جهاز حياة ، ومحاولة لامتداد الحياة، والنسل كفاح مع الموت والفناء فى ميدانهما الأصيل ؛ وهو كفاح مرير تنتصر فيه الحياة ما شاء الله لها أن تنتصر ، وتمتد ما أراد الله لها الامتداد .

من جو الأسرة وشرائعها ينتقل السياق هنا إلى « الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت » فتكون النقلة طبيعية . إننا ما نزال فى جو الحياة والحرص عليها فى ذاتها والحرص على امتدادها . وفى جو الغرائز العميقة فى كيان البشرية ، تتبدى فى صور شتى ؛ وهناك اتصال داخلى بين السياق هنا والسياق هناك ؛ وبين المحاولة الأخيرة والمحاولة الأولى . . إنهما كلتاهما فى سبيل الحياة وبسبب الحياة !

والدرس الحاضر بين أيدينا يتضمن تلك المحاولة : محاولة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت . ويتضمن كذلك قصة عن بنى إسرائيل فى عهد متأخر كثيراً عن عهد موسى ، تسير فى نفس الاتجاه ، وتحدد أسباب النصر وأسباب الهزيمة فى معركة من معارك الحياة والموت ، ثم تكشف فى النهاية عن حكمة ذلك الصراع . فيبدو السياق متماسك الحلقات ، متناسقاً فى الاتجاه .

* * *

« ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم ، وهم ألوف حذر الموت . فقال لهم الله موتوا ، ثم أحياهم » .

لا أريد أن نذهب فى تيه التأويلات عن هؤلاء الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف . من هم ؟ وفى أى أرض كانوا ، وفى أى زمان خرجوا ... فلو كان الله يريد بياناً عنهم لأبان ، كما يجىء القصص المحدد فى القرآن . إنما هذه عظة وعبرة يراد مغزاها ولا تراد أحداثها وأما كنها

وأزمانها . وتحديد الأماكن والأزمان لا يزيد هنا شيئاً على العبرة والمغزى .. إنما يراد أن يقال : إن الحذر من الموت لا يجدى ، وإن الفزع والهلع لا يزيدان حياة ، ولا يمنعان أجلاً ، وإن الله هو واهب الحياة ، وهو آخذ الحياة ، وإنه متفضل فى الحالتين ، حين يهب ، وحين يسترد ؛ والحكمة الإلهية الكبرى كامنة خلف الهبة وخلف الاسترداد ؛ والمصلحة الإنسانية ذاتها متحققة فى هذا وذاك : « إن الله لذو فضل على الناس ، ولكن أكثر الناس لا يشكرون ».

إن تجمع هؤلاء القوم « وهم ألوف » وإن خروجهم من ديارهم — والخروج من الديار « حذر الموت » لا يكون إلا فى حالة هلع وجزع . سواء كان ذلك الخروج خوفاً من عدو مهاجم ، أو من وباء جاثم .. إن هذا كله لم يغن عنهم من الموت شيئاً . « فقال لهم الله موتوا » كيف قال لهم ؟ كيف ماتوا ؟ هل ماتوا بسبب مما هربوا منه وفزعوا ؟ هل ماتوا بصاعقة أو داء ؟ هل ماتوا ميتة الأحياء ، لأنهم صاروا إلى حالة من الهوان والتشتت والشرود كأنها الموت ؟ كل أولئك لم يرد عنه تفصيل . لأنه ليس موضع العبرة . إنما العبرة أن الفزع والجزع ، والخروج والحذر ، لم تغير مصيرهم ، ولم تدفع عنهم الموت ، فلاقاهم .

« ثم أحياهم » كيف ؟ هل بعثهم من موت ؟ هل أعزهم من هوان ؟ هل جمعهم من شتات ؟ هل خلف من ذريتهم خلف يستحقون أن يسموا أحياء ، حيث كان أولئك الخارجون المفزعون الجبناء من أموات الأحياء ؟ كل أولئك لم يرد عنه تفصيل كذلك . فلا ضرورة لأن نذهب وراءه فى التأويل ، لئلا نتيه فى أساطير لا سند لها كما جاء فى بعض التفاسير .

إن الحذر لا يجدى ، وإن الفزع لا يمنع ، وإن الهروب لا يحفظ حياة .. إذن فلا نامت أعين الجبناء :

« وقاتلوا فى سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم » ..

هنا ندرك هدف هذه الحادثة ومغزاها .. ألا لا يقعدن بكم حب الحياة وخوف الموت عن الجهاد فى سبيل الله . فالموت والحياة بيد الله ، فقاتلوا فى سبيل الله .. فى سبيل الله لا فى سبيل الأمجاد الشخصية ، والمنافع الذاتية أو القومية .. فى سبيل الله لا فى سبيل المال ، ولا فى سبيل المجد ، ولا فى سبيل الجاه .. فى سبيل الله لتحقيق كلمة الله ، ولتحقيق العدل الشامل الذى يريده الله .

والجهاد فى سبيل الله بذل وتضحية . فنحن إذن فى الجو ذاته حين نستمر مع السياق :

« من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً ، فيضاعفه له أضعافاً كثيرة ؟ »

كلاهما بذل وتضحية . تضحية بالنفس أو تضحية بالمال . وكلاهما جهاد فى سبيل الله . وحاجة المجتمع إلى بذل المال كحاجة الجيش إلى بذل النفس ؛ بل إن بذل المال لضرورة فى كلتا الحالتين على السواء .

وإذا كان الموت والحياة بيد الله . والحيـــاة لا تذهب بالقتال إذا قدر الله لها البقاء ، فكذلك المال لا يذهب بالإنفاق . لا يذهب ضياعاً . إنما هو قرض لله مضمون يضاعفه الله . « والله يقبض ويبسط » فالفقر والغنى بيده كذلك « وإليه ترجعون » فإليه المرجع بعد ذلك والمـآب .

وإذن فلا فزع من الموت ، ولا فزع من الفقر . إن علينا أن نجاهد فى سبيل الله ، وأن نقدم الأرواح والأموال ؛ وأن نستيقن أن أنفاسنا معدودة ، وأن أرزاقنا مقدرة ؛ وأنه من الخير لنا أن نعيش الحياة قوية طليقة شجاعة ؛ وأن مردنا بعد ذلك إلى الله .

ولا يفوتنى بعد تقرير تلك المعانى النفسية والاجتماعية والإنسانية التى تضمنتها الآية الكريمة، أن ألم بذلك الجمال الفنى فى التعبير ، والتناسق الفنى فى التصوير .

« ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت » إن فى التعبير استعراضاً لهذه الألوف ولهـذه الصفوف . استعراضا تضمنته هاتان الـكلمتان : « ألم تر » وأى تعبير آخر ما كان يرسم أمام الخيال هذا الاستعراض كما رسمته هاتان الـكلمتان العاديتان .

ومن مشهد الألوف المؤلفة ، الحذرة من الموت المتلفتة ، إلى مشهد الموت المطبق الـكامل فى لحظة . فى كلمة : « موتوا » . كل هذا الحذر ، وكل هـذا التجمع ، وكل هذه المحاولة . . كلها ذهبت هباء فى كلمة واحدة : « موتوا » ليلقى ذلك فى الحس عبث المحاولة ، وضلالة الاتجاه .

« ثم أحياهم » هكذا بلا تفصيل كذلك للوسيلة .. إنها القدرة المالـكة زمام الموت وزمام الحياة ، المتصرفة فى شؤون العباد التى لا ترد لها إرادة . وهذا التعبير القصير الحاسم يلقى الظل المناسب على مشهد الموت ومشهد الحياة .

ونحن فى مشهد إماتة وإحياء . قبض للروح وإطلاق . فلما جاء ذكر الإنفاق وذكر المال، كان التعبير : « يقبض ويبسط » متناسقاً فى الحركة مع قبض الروح وإطلاقها ، فى إيجاز كذلك واختصار .

وكذلك يبدو التناسق العجيب فى تصوير المشاهد ، إلى جوار التناسق العجيب فى تحديد المعانى . ولا يكتفى بهذا عن ذاك !

* * *

وفى الاتجاه ذاته يسير السياق ، فيعرض قصة من قصص بنى إسرائيل تصدق الحقيقة الأولى عن بواعث الموت وبواعث الحياة ؛ ونلتقى فيها كذلك بالكثير من سمات بنى إسرائيل التى عرفنا طرفاً منها فيما مضى من هذه السورة :

« ألم تر إلى الملأ من بنى إسرائيل من بعد موسى ؟ » ..

ألم تر ؟ كأنها قصة حاضرة ، ومشهد منظور . فنحن معهم بهذا العرض نسمع ونرى من وراء القرون . .

لقد اجتمع الملأ من بنى إسرائيل إلى نبى لهم . ولم يرد فى السياق ذكر اسم النبى ، لأنه ليس المقصود بالقصة ؛ وذكره هنا لا يزيد شيئاً فى المغزى الذى سيقت من أجله ؛ وقصص القرآن لا يذكر لتسجيل أحداث التاريخ ، إنما يذكر لإبراز العبرة والمغزى . لقد اجتمعوا إلى نبى لهم وطلبوا إليه أن يعين لهم ملكاً يقاتلون تحت إمرته ، ليستردوا أرضهم التى فقدوها ، وعزتهم التى سلبوها ، وليدفعوا الظلم الذى لحق بهم تحقيقاً لإرادة الله فى دفع العدوان :

« إذ قالوا لنبى لهم : ابعث لنا ملكاً نقاتل فى سبيل الله »

ولكن نبيهم كان أعرف بطبيعتهم . طبيعة بنى إسرائيل التى استعرضت هذه السورة صوراً منها علمناها . فإذا هو يريد أن يستوثق من أنهم جادون فيما يقولون ، مستعدون للبذل والتضحية والشجاعة التى يقتضيها هذا المطلب الكبير :

« قال : هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا ؟ » !

ألا ينتظر أن تنكلوا عن القتال بعد أن يفرض عليكم ؟ فأنتم الآن فى سعة من الأمر ، فأما إذا استجبت إليكم — بوصفى نبياً — فتقرر القتال ، فتلك فريضة إذن مكتوبة ، لا سبيل يومئذ إلى النكول عنها .. إنها الكلمة اللائقة بالنبى ، والتأكد اللائق بنبى . فما يجوز أن تكون كلمات الأنبياء وأوامرهم موضع تردد أو عبث أو تراخ . وهو يعلم طبيعة قومه ، فلم يكن له بد إذن من الاستيثاق !

هنا نلمح سمة من سمات بنى إسرائيل : إنها اللجاجة فى ساعة السلم ، والحماسة فى ساعة الأمن . فإذا جد الجد ، وجاء وقت التضحية ، تبخرت الحماسة ، وسكنت اللجاجة :

« قالوا : وما لنا ألا نقاتل فى سبيل الله ، وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا ؟ »

كأنما يستنكرون مقالة نبيهم ، وينفون أسبابها ، ويقررون أن الطريق الواحدة المفروضة عليهم هى القتال ، وأنه لا ضرورة إلى مراجعة فى هذه العزيمة أو جدال !

وإن هى إلا لحظة حتى نطلع على الوجه الآخر ، ونعرف الحقيقة العميقة :

« فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلاً منهم » .

إن القصة بتفصيلاتها لم تعرض بعد . ولكن السياق أجمل بدأها وختامها على هذا النحو ، ليقرر تلك السمة من سمات بنى إسرائيل ، وليستنكر هذا السلوك وهذه الطبيعة ، وليقرر أنها ظالمة للحق ، وظالمة لنفسها ، وظالمة لنبيها : « والله عليم بالظالمين » .

فإذا تقررت هذه الحقيقة عاد السياق يفصل ما أجمل ، ويعرض كيف كان تولى بنى إسرائيل ونكوصهم عن القتال ، الذى طالبوا به وألحوا فيه ، واستنكروا أن يستوثق منهم نبيهم قبل أن يبدأوه .

« وقال لهم نبيهم : إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً . قالوا : أنى يكون له الملك علينا ، ونحن أحق بالملك منه ، ولم يؤت سعة من المال ؟ »

هنا تتكشف سمة أخرى من سمات بنى إسرائيل . . لقد كان مطلبهم الأول أن يكون لهم ملك يقاتلون تحت لوائه . ولقد قالوا : إنهم يريدون أن يقاتلوا فى سبيل الله . فهاهم أولاء ينغضون رؤوسهم ، ويلوون أعناقهم ، ويستنكرون أن يكون طالوت ـ الذى اختاره الله لهم ـ ملكاً عليهم . لماذا ؟ لأنهم أحق بالملك منه ، ولأنه لم يؤت سعة من المال ! والذى يقاتل فى سبيل الله حقاً ، الذى يبذل نفسه فى سبيل الله ، لا يمكن أن يستنكر خيرة الله له ، ولا يمكن أن يتلفت قلبه إلى تلك الأعراض الزائلة : الحسب والمال !

ولكن بنى إسرائيل هم بنو إسرائيل !

لقد كان طالوت رجلاً من عامة الناس ، لم يولد فى بيت ملك ، ولم يرث جاهاً ولا مالاً .

ولكن كانت له صفات أخرى تؤهله للمهمة التى ندبه الله لها ، فأعلنها نبى بنى إسرائيل :

« قال : إن الله اصطفاه عليكم ، وزاده بسطة فى العلم والجسم »

إنه رجل يصلح للقيادة . رجل موهوب فى العلم وموهوب فى القوة . لذلك اختاره الله لهذه المهمة ، دون ذوى الحسب وذوى المال . والبسطة فى العلم مطلوبة فى القائد الرائد فى كل زمان . والبسطة فى الجسم كانت صفة لازمة للقائد فى حروب ذلك الزمان . وهى على أية حال آية القوة الجسدية ، والقوة الجسدية مطلوبة فى كثير من المواقع حتى فى هذه الأيام .

« والله يؤتى ملكه من يشاء ، والله واسع عليم »

فهو « ملكه » وهو مانحه وواهبه ، وهو يختار من عباده من يشاء ، وليس الأمر أمر وراثة فى بيت أو قبيلة ؛ وليست المسألة مسألة جاه أو مال .

ولا يورد السياق : إن كان بنو إسرائيل قد أذعنوا لهذه المعانى ، أم لم يدركوها ؛ ولكنه يستمر فيذكر بشرى يبشر بها نبي بنى إسرائيل قومه تتحقق على يدى طالوت ؛ وتكون آية على اختياره للملك من عند الله :

« وقال لهم نبيهم : إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت ، فيه سكينة من ربكم ، وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة . إن فى ذلك لآيات لكم إن كنتم مؤمنين » .

وكان التابوت قد سلب منهم فيما سلب ، حين غلبوا على أمرهم ، واستبد بهم أعداؤهم المحيطون بهم .. فبشرهم نبيهم أن يرد الله عليهم التابوت ، وفيه آثار آل موسى وآل هارون . وفيه لهم سكينة وطمأنينة ، فإن رده عليهم يرد عليهم ثقتهم فى الله وثقتهم فى أنفسهم ، ويقوى قلوبهم ، ويبعث فيها الأمل من جديد .

ولم يذكر القرآن : إن كان رد التابوت سيكون قبل خوضهم القتال ، أم إنه كناية عن ضمانة النصر لهم فى القتال الذى هم مقدمون عليه ، لأنهم سيستردون أسلابهم ، وهذا معناه انتصارهم .. وتذكر الأساطير الإسرائيلية أن التابوت جاء طائراً قبل المعركة ، ويتابع المفسرون المسلمون هذه الأساطير دون دليل من النص القرآنى . يدفعهم إلى هذه المتابعة قوله : « إن آية ملكه » فيفسرونها على أن الآية جاءت سابقة لتسكت من معارضتهم فى أمر طالوت ، ويحملونها محمل المعجزة الخارقة للعادة لتصديق التحدى . وليس ما يمنع أن يكون الأمر كذلك . ولكن ليس ما يمنع أيضاً أن تكون هذه مجرد بشرى تحققت على أيدى الفئة

الصابرة المؤمنة بعد الموقعة . فلنقف نحن عند النص القرآنى لا نتعداه . فذلك أسلم طريق فى تفسير القرآن الكريم .

ثم نمضى مع القصة إلى نهايتها :

« فلما فصل طالوت بالجنود قال : إن الله مبتليكم بنهر ، فمن شرب منه فليس منى ، ومن لم يطعمه فإنه منى . إلا من اغترف غرفة بيده » .

هنا يتجلى لنا مصداق حكمة الله فى اصطفاء هذا الرجل من عامة الشعب للقيادة ، ومصداق قوله : « وزاده بسطة فى العلم » . . إن الرجل مقدم على معركة ؛ ومعه جيش شعب مغلوب على أمره ، يواجه به جيش شعب قوى غالب . فلا بد إذن من قوة كامنة فى ضمير الشعب المغلوب ، تقف به أمام القوة الظاهرة للشعب الغالب . هـــذه القوة الكامنة لا تكون إلا فى الإرادة . الإرادة التى تضبط الشهوات والنزوات ، وتصمد للحرمان والمشاق ، وتبتغى هدفاً لا تصدها عنه العقبات .. فلا بد للقائد المختار إذن أن يبلو إرادة قومه.وصمود جيشه وصبره . صموده أولاً للرغبات والشهوات ، وصبره على الحرمان والمتاعب . واختار هذه التجربة وهم عطاش ، ليعلم من يصبر معه ممن ينقلب على عقبيه . وصحت فراسته :

« فشربوا منه إلا قليلاً منهم » !

وانفصلوا عنه بمجرد استسلامهم ونكوصهم . انفصلوا عنه لأنهم لا يصلحون للمهمة الملقاة على عاتقــه وعاتقهم . وكان من الخير أن ينفصلوا عن الجيش الزاحف ، لأنهم بذرة ضعف وخذلان . فليست الجيوش بالعدد الضخم ، ولـكن بالقلب الصامد والإرادة الجازمة والإيمان الوثيق .

وهنــا كانت التجربة الأولى قد غربلت جيش طالوت ـ إلى حد ـ ولـكن التجارب لم تكن قد انتهت بعد :

« فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه ، قالوا : لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده » .

هنا جاءت التجربة الحاسمة . تجربة الإيمان بالعقيدة ، والثقة بالله ، والشجاعة فى مواجة القوة المتفوقة . وهذه لا يصمد لها إلا من اكتمل إيمانهم ، فاتصلت بالله قلوبهم . فلما رأى جنود طالوت أنهم قلة بعد ما تخلف منهم لدى النهر من تخلف ، دب فى قلوب بعضهم القلق ، وخافوا قوة عدوهم وكثرته ، وصرحوا ذلك التصريح الخطير : « لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده » .

ولكن الفئة المؤمنة . الفئة الواثقة بالله . الفئة المتصلة بقوة الأزل والأبد . الفئة التى تعلم أن الله لا غالب له ، وأن النصر من عند الله يؤتيه من يشاء . هذه الفئة القليلة لم تيأس ، ولم ترهب كثرة العدد ، ولم تخش الغلب والهزيمة :

« قال الذين يظنون أنهم ملاقو الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله، والله مع الصابرين » .

هكذا : كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة . بهذا التكثير كأنما هى القاعدة. فإنهم ليحسون فى أعماقهم أنها هى القاعدة .أن تكون الفئة المؤمنة قليلة ، ولكنها تكون الغالبة . لأنها تعتز بالله وتصبر على البلاء . ولأنها تمثل القوة الغالبة : قوة الله الغالب على أمره القاهر فوق عباده .

والتعبير بقوله : « يظنون أنهم ملاقو الله » يفيد كما سبق أن ذكرنا : أن مجرد الظن بلقاء الله كاف ليثبت العزائم ، ويشد القلوب ، ويصنع الخوارق ، فكيف باليقين ؟ وليس معناه أن هؤلاء لم يكونوا موقنين . ولكن الإلماع إلى ذلك المعنى البعيد ، هو الذى أورد التعبير هذا المورد ، لما فيه من توكيد .

ثم نمضى مع القصة . فإذا الفئة القليلة المؤمنة هى التى تقرر مصير المعركة . بعد أن تجدد عهدها مع الله ، وتتجه بقلوبها لله ، وتطلب النصر من عند الله وحده دون سواه :

« ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا : ربّنا أفرغ علينا صبرا ، وثبت أقدامنا ، وانصرنا على القوم الكافرين . فهزموهم بإذن الله ؛ وقتل داود جالوت ، وآتاه الله الملك والحكمة ، وعلمه مما يشاء » .

وحين ينتهى السياق إلى هذه الخاتمة الطبيعية . إلى إعلان النصر الأخير للعقيدة الروحية لا للقوة المادية ، وللإرادة المستعلية لا للكثرة العددية . حينئذ يعلن عن الغاية الكبرى من اصطراع تلك القوى . إنه ليس الغنم والأسلاب . إنه ليس الزهو والامجاد . إنما هو الصلاح الأكبر . صلاح الأرض . وإنما هو التمكين للخير بالكفاح مع الشر :

« ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ، ولكن الله ذو فضل على العالمين »

لهذا يمنح الله نصره لمن يؤمنون به ويثقون بقوته . إنهم قليلون غالبا ولكنهم يغلبون . يغلبون لأنهم يمثلون إرادته العليا فى دفع الفساد فى الأرض ، وتمكين الصلاح فى الناس . إنهم ينتصرون لأنهم يمثلون فكرة عليا تستحق الانتصار .

ويعقب على القصة ومغزاها ، بالغرض من إخبار الرسول فى القرآن بها .

« تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين » .

وكثيرا ما يرد القصص فى القرآن لغرض إثبات الرسالة ، إلى جانب أغراض القصص الأصيلة : العبرة والعظة ، والإنذار والتبشير ، وهداية قلوب المؤمنين إلى منابع الإيمان : الثقة بالله ، والاعتماد على الله ، والتوجه بكل حركة وكل خاطرة إليه وحده دون سواه .

انتهى الجزء الثانى ويليه الجزء الثالث
مبدوءا بقوله تعالى : تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض

في ظلال القرآن

الجزء الثالث

بقلم

سيد قطب

الطبعة الأولى

طبع بدار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

بسم الله الرحمن الرحيم

« تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ ٱللهُ ، وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ؛ وَآتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَاتِ ، وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ؛ وَلَوْ شَاءَ ٱللهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَاتُ ؛ وَلَـكِنِ ٱخْتَلَفُوا ، فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ ؛ وَلَوْ شَاءَ ٱللهُ مَا ٱقْتَتَلُوا ، وَلَـكِنَّ ٱللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ .

« يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ ، وَٱلْـكَافِرُونَ هُمُ ٱلظَّالِمُونَ .

« ٱللهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ * لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ، لَهُ مَا فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ . مَنْ ذَا ٱلَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ؟ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ، وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ، وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ .

« لَا إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ، قَدْ تَبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ ، فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَى لَا ٱنْفِصَامَ لَهَا ، وَٱللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * ٱللهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ ٱلظُّلُمَاتِ إِلَى ٱلنُّورِ ؛ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ ٱلطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَاتِ ، أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ .

« أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ ٱللهُ ٱلْمُلْكَ ، إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ : رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ . قَالَ : أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ . قَالَ إِبْرَاهِيمُ : فَإِنَّ ٱللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ ، فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ . فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ ، وَٱللهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّالِمِينَ .

« أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا ، قَالَ : أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ؟ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ . قَالَ : كَمْ لَبِثْتَ ؟ قَالَ : لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ . قَالَ : بَلْ لَبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ ، فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ، وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ ، وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا . فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ : أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » .

« وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ : رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ؟ قَالَ : أَوَلَمْ تُؤْمِنْ ؟ قَالَ : بَلَىٰ ! وَلَٰكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي . قَالَ : فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ؛ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ؛ ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ؛ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ »

كان الدرس السابق استطراداً من تكاليف الأمة المسلمة ، وما كتب عليها من تضحيات للقيام بهذه التكاليف ، إلى حديث عن الموت والحياة ؛ فى سياقه وردت قصة بنى إسرائيل : « إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله » . واختلطت فى السياق قصة الموت والحياة بقصة القتال والنبوة ، واستطرد السياق إلى طرف من قصة داود ...

ونحن فى هذا الدرس الجديد نتابع ذلك الاستطراد . نحن أمام حديث عن جماعة الرسل ودرجاتهم ومعجزاتهم ، واختلاف الناس من بعدهم ، واقتتالهم نتيجة لهذا الاختلاف .

ونحن أمام حديث عن الإنفاق . وكثيراً مايقترن ذكر الإنفاق بذكر القتال . فهو بذل للمال ، والقتال بذل للنفس . ففى الجو اتساق .

ونحن أمام حديث عن « الحى القيوم » الذى « له مافى السماوات ومافى الأرض » من أنفس وأموال ، ورسل وديانات ، وناس وأشياء .

وعلى ذكر الرسل ورسالاتهم واختلاف الناس من بعدهم واقتتالهم يجىء ذكر المبدأ الإسلامى العظيم فى هذا الصدد : « لا إكراه فى الدين » .

وفى جو الرسل والمعجزات ، وجو الملك والقتال ، وجو العقيدة والاختلاف، وجو الموت والحياة ، ترد قصة الملك الذى حاج ابراهيم فى ربه ، وما فيها من ذكر الموت والحياة وذكر المعجزات الكونية ؛ ثم تجىء قصة الذى « مر على قرية وهى خاوية على عروشها قال أنى يحيي هذه الله بعد موتها فأماته الله مئة عام ثم بعثه .. » وقصة ابراهيم فى حواره مع ربه : « رب أرنى كيف تحيي الموتى .. »

وهكذا نجد أنفسنا فى جو خاص ، مستطرد مع جو الدرس السابق فى الجزء الثانى ، ومتسقة كذلك جزئياته وانتقالاته من موضوع إلى موضوع ، فى ظلال ذلك الجو العام .

***

« تلك الرسل » .. لا هؤلاء الرسل .. إنهم جماعة خاصة ، ذات طبيعة خاصة . ثم يجىء التفضيل والتفاضل فى دائرة هذه الجماعة أو هذه الطبيعة ..

فما الرسالة ؟ ماطبيعتها ؟ كيف تتم ؟ لماذا كان هؤلاء وحدهم رسلا وبماذا ؟

أسئلة طالما أشفقت أن أبحث لها عن جواب ! إن حسى ليفعم بمشاعر ومعانى ، لا أجد لها كفاء من العبارات . ولكن لابد من تقريب المشاعر والمعانى بالعبارات !

إن لهذا الوجود الذى نعيش فيه سنناً أصيلة يشير إليها هذا القرآن فيقول : « سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا » هذه السنن هى القوانين الكونية التى أودعها الله الوجود ، ليسير على وفقها ، ويتحرك بموجبها ، ويعمل بمقتضاها .

والإنسان يكشف عن أطراف من هذه القوانين ، كلما ارتقى فى سلم المعرفة ، يكشف عنها — أو يكشف له عنها — بمقدار يناسب علمه المحدود ، المستمد من الملاحظة والتجربة ؛ وهما وسيلتان جزئيتان فى طبيعتهما ، ولكنهما تقودان أحيانا إلى أطراف من القوانين الكلية ، فى آماد متطاولة من الزمان . ثم يظل هذا الكشف جزئيا لأن سر التناسق بين تلك القوانين كلها ، سر الناموس الأزلى الخالد الذى ينسق بين القوانين جميعا ، ذلك السر يظل خافيا لا تهتدى إليه الملاحظة الجزئية ، ولا التجربة الجزئية ، مهما طالت الآماد .

هنا يجىء دور الرسالة . دور الطبيعة الخاصة التى آتاها الله الاستعداد اللدنى لتتجاوب فى أعماقها — بطريقة ما نزال نجهل ماهيتها وإن كنا ندرك آثارها — مع ذلك الناموس الخالد الذى يسير

الكون كله على هداه . هذه الطبيعة الخاصة هى التى تتلقى الوحى ، فتطيق تلقيه ، لأنها مهيأة لاستقباله . إنها تتلقى الإشارة الإلهية التى يتلقاها هذا الوجود ، لأنها متصلة اتصالا مباشراً بناموس الوجود .. كيف تتلقى هذه الإشارة ؟ وبأى جهاز تستقبلها ؟ نحن فى حاجة لكى نجيب أن تكون لنا نحن هذه الطبيعة التى يهبها الله من يشاء من عباده ! و « الله أعلم حيث يجعل رسالته » .

كل الرسل قد أدركوا حقيقة « التوحيد » وكلهم بعثوا بها . ذلك أن إيقاع الناموس الواحد فى حسهم كله ، هداهم إلى مصدره الواحد الذى لا يتعدد ـ وإلا لتعدد الناموس ، وتعدد إيقاعه فى حسهم ، وهم المتصلون اتصالا مباشراً بالناموس الكونى فى أعماقه .

وكان هذا الإدراك فى فجر البشرية ، قبل أن تنمو المعرفة الخارجية ، وقبل أن تتكشف بعض القوانين الكونية .. وكلهم دعا إلى عبادة الله الواحد . لأن هذا هو المنطق الفطرى ، الناشىء من إيقاع الناموس الواحد فى الفطرة الواصلة ، المتصلة بناموس الكون الواحد .

ويوماً بعد يوم تكشفت أطراف من قانون الوحدة الأزلى الخالد فى نظام الوجود . وحدة التكوين ، ووحدة الحركة ، وأخيراً ـ فى هذه الأيام ـ وحدة « الذبذبات » لكل أنواع الذرات ، التى يتألف منها الكون المعروف . . لقد تكشف أن الذرة ـ وهى طاقة ـ هى أساس تكوين جميع القوى والأجسام ، ثم تكشف أن عدد « الذبذبات » الكهربائية واحد فى جميع الذرات . . إنه طرف من قانون الوحدة يتكشف بمقدار ما تطيق الملاحظة والتجربة البشرية أن تبلغ . . أما الطبائع الخاصة الموهوبة فقد أدركت القانون كله فى لمحة ، لأنها تتلقى إيقاعه وتطيق وحدها تلقيه .

إنهم لم يجمعوا الشواهد والأمثلة على تلك الوحدة عن طريق التجارب العلمية ؛ ولكن لأنهم وهبوا جهاز استقبال كامل مباشر ، استقبلوا إيقاع الناموس الواحد استقبالا داخليا مباشرا ، فأدركوا إدراكا مباشرا أن الإيقاع الواحد لابد منبعث عن ناموس واحد ، عن مصدر واحد . واليوم تنبىء وحدة عدد « الذبذبات » الصادرة عن جميع الذرات التى تلقتها أجهزة العلم الحديثة وسجلتها .. تنبىء عن أن ذلك الجهاز اللدنى فى تلك الطبائع الخاصة الموهوبة كان أسبق ، وكان أدق ، وكان أشمل وأكمل ، لأنه أدرك ماوراء وحدة الإيقاع ، من وحدة المصدر ، ووحدة القدرة ، ووحدة المشيئة .

وما أسوق هذا الكلام لأن العلم الحديث قد أثبت طرفا من أطراف وحدة القوانين الكونية. فالعلم يثبت أو ينفي في ميدانه. ونظريات العلم قلب، يكذب بعضها بعضا، ويعدل بعضها بعضا.

وماذكرت شيئا عن وحدة الذبذبات أو وحدة طبيعة الذرات، لأثبت بها صدق الاستقبال لوحدة الناموس في حس الرسل؛ ولكن لأثبت أن الكشف العلمي قد اهتدى – فيما يبدو – إلى طرف من وحدة القوانين الكونية. هذه الوحدة التي لمست حس الرسل من قبل في محيطها الواسع الشامل المباشر. والفطرة اللدنية المتصلة اتصالا مباشراً بقلب الكون، الشاعرة بوحدة نبضه، ووحدة إيقاعه، الملهمة أن وراء وحدة الإيقاع وحدة المصدر، ووحدة القدرة، ووحدة المشيئة.. هذه الفطرة صادقة بذاتها، سواء قالت نظريات العلم اليوم هذا أم لم تقله. فنظريات العلم موضع بحث ومراجعة من العلم ذاته. وهي ليست ثابتة حتى تقاس بها صحة الرسالة؛ والمقياس لا بد أن يكون ثابتا. ومن هنا تكون الرسالة هي المقياس الثابت، لا نظريات العلم التي لا تستقر على حال.

***

هذه الطبائع الخاصة المتصلة بناموس الوجود صلة مباشرة، هي التي تملك أن ترسم للبشرية اتجاهها الشامل. اتجاهها الذي يتسق مع فطرة الكون وقوانينه الثابتة وناموسه الخالد. هي التي تتلقى مباشرة بلا واسطة، فلا تخطيء ولا تنحرف، ولا تكذب ولا تكتم. وهي التي لا تحجب عوامل الزمان والمكان بصيرتها عن إدراك المطلق الذي لا يتقيد بالزمان والمكان.

ولقد شاءت الإرادة العليا التي تبعث بالرسل بين الحين والحين، أن تكشف للبشر شيئا فشيئا عن بعض أسرار النواميس، وأن تأخذ الناس خطوة خطوة في طريق المعرفة الكلية بقدر مايطيقون. حتى إذا كانت الرسالة الأخيرة، كانت الكليات الخالدة قد كشف عنها، وكان عهد الرشد العقلي قد أشرق، وكانت البشرية تملك أن تتابع خطواتها في ظل الخطوط النهائية للرسالة الكبرى. وكانت خطوط الحقيقة الخالدة من الوضوح بحيث لا تحتاج إلى رسالة جديدة. وكان محمد رسول الله وخاتم النبيين.

ترى قد بلغت شيئاً فى تصوير تلك المشاعر والمعانى ، التى تفعم حسى تجاه الرسالة ؟ أرجو . وإلا فليكتف القراء مثلى بتلك المشاعر ذاتها والمعانى !

***

« تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض » . . والتفضيل هنا قد يتعلق بالمحيط المقدر لكل رسول . كأن يكون رسول قبيلة أو أمة أو جيل أو أجيال أو جميع الأجيال . كما يتعلق بالمزات التى يوهبها لشخصه أو لأمته . أو بطبيعة الرسالة ذاتها ومدى شمولها لجوانب الحياة الإنسانية والكونية .

وقد ذكر النص هنا مثالين فى موسى وعيسى ، وأشار إشارة عامة إلى سواهما :

« منهم من كلم الله — ورفع بعضهم درجات — وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس »

ولم يذكر محمداً — صلى الله عليه وسلم — فى صدر الأمثلة ، لأن الخطاب موجه إليه ، وهذا إخبار له عن غيره من الرسل . فقد سبق هذه الآية قوله تعالى خطابا للرسول :

« تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق ، وإنك لمن المرسلين »

وحين ننظر إلى مقامات الرسل — صلوات الله وسلامه عليهم — من ناحية الاستعداد لإدراك الوحدة الكبرى ، ومن ناحية شمول الرسالة لكل جوانبها ، ومن ناحية محيطها وامتدادها ، نجد محمدا — صلى الله عليه وسلم — فى القمة العليا . فالإسلام هو أكمل تصوير لتلك الوحدة . وحدة الخالق الذى ليس كمثله شىء . ووحدة الإرادة التى يصدر عنها الوجود كله بكلمة « كن » . ووحدة الوجود الصادر عن تلك الإرادة . ووحدة الناموس الذى يحكم هذا الوجود . ووحدة الحياة من الخلية الساذجة إلى الإنسان الناطق . ووحدة البشرية من آدم إلى آخر أبنائه فى الأرض . ووحدة الدين الصادر من الإله الواحد إلى البشرية الواحدة . ووحدة الرسل المبلغين لهذه الدعوة . ووحدة المؤمنين الذين لبوا دعوة الدعاة . ووحدة النفس البشرية جسما وعقلا وروحا ، غريزة وميلا وشوقا . ووحدة العمل والعبادة مادام كلاهما متجها إلى الله . ووحدة الدنيا والآخرة دارى العمل والجزاء ...

ومحمد — صلى الله عليه وسلم — هو الذى أطاقت روحه التجاوب المطلق مع الوحدة الكبرى ، كما أطاق عقله تصور هذه الوحدة وتمثلها .

كذلك هو الرسول الذى أرسل إلى البشر كافة ، من يوم مبعثه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . والذى اعتمدت رسالته على الإدراك الإنسانى الواعى دون ضغط حتى من معجزة مادية قاهرة ، ليعلن بذلك عهد الرشد الإنسانى .

ومن ثم كان هو خاتم الرسل . وكانت رسالته خاتمة الرسالات . وهذا ما يعنينى أن أبرزه هنا ، تفسيرا لانقطاع الوحى بعده . فلقد ارتسمت للبشرية فى رسالته تلك الوحدة الكبرى ، وأعلن الناموس الخالد ، الذى لا يتبدل ولا يتحول . ومن ثم لم تعد إلا التفصيلات والتفسيرات ، التى يستقل بها العقل البشرى ولا تستدعى رسالة إلهية أخرى .

***

وبعد فقد اقتتل أتباع « تلك الرسل » ولم يغن توحد طبيعتهم وتوحد طبيعة الرسالة التى تجمعهم عن اختلاف أتباعهم من بعدهم حتى ليقتتلون من خلاف !

« ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات . ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر . ولو شاء الله ما اقتتلوا ، ولكن الله يفعل ما يريد » .

ولكن هذا الاختلاف لم يقع مخالفا للمشيئة الإلهية ، بل وقع وفق سننه المقررة ، ومشيئته المقدرة .

إن اختلاف الطباع والمشاعر والأفكار سنة من سنن الخالق لتنويع الخلق - مع وحدة الأصل والمنشأ - وما كان الله ليجعل عباده جميعا نسخا مكررة كأنما طبعت على ورق « الكربون » !

لا بد إذن لتكون للحياة قيمتها ، وليكون الاختلاف والتقابل وسيلة للتكامل والتنوع ، أن يكون هناك اختلاف فى الطباع والمشاعر والأفكار . ومتى وجد الاختلاف على هذا النحو ، فإنه يستتبع نتائجه ؛ وإحدى نتائجه الاقتتال الذى وقع بين أتباع الرسل . . فهو إذن وفق المشيئة ، بمعنى أنه جار على السنة .

« ولو شاء الله ما اقتتلوا » .

لو شاء أن يجعل التماثل هو القانون لا التنوع ، لما وقع الاختلاف ولما وقع الاقتتال . .

« ولكن الله يفعل ما يريد » .

ولقد أراد أن تجرى السنة بما جرت ؛ فوقع فى الكون مايقتضيه جريان السنة فى طريقها المرسوم ، وفق المشيئة الكبرى لتحقيق حكمة خاصة تجرى بها هذه المشيئة .

***

وعقب ذكر الخلاف والقتال يجيء الأمر للمؤمنين خاصة بالإنفاق مما رزقهم الله . لأن الإنفاق بذل وتضحية يستطرد إليه السياق فى جو القتل والاقتتال .

ويصور الإنفاق هنا كأنه فرصة إن أفلتت لا تعود :

« يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة . والكافرون هم الظالمون » .

« أنفقوا مما رزقناكم » .. فهو إنفاق من مال الله الذى رزقهم إياه .. وهى الفرصة السانحة لتتزايد الأموال وتربح وتربى ، ويضاعف لها فى الجزاء أضعافا ، من قبل أن يأتى يوم لا تتزايد فيه الأموال بالبيع والتجارة ، ولا صداقة فيه كذلك ولا شفاعة .

« والكافرون هم الظالمون » .. ظلموا أنفسهم بتفويت الفرصة ، ولم يتخذوا أسباب التوقى من ذلك اليوم الرهيب ، الذى تبطل فيه الأسباب ، ويتوارى فيه الشفعاء والأصحاب .

ومن ذكر اليوم الآخر الذى لا تجارة فيه ولا صداقة ولا شفاعة ، وذكر الذين يكفرون بهذا اليوم فيظلمون أنفسهم بكفرانه . ينتقل السياق إلى ذكر الله رب هذا اليوم ، الحى القيوم الذى لا تأخذه سنة ولا نوم ، والذى يملك ما فى السماوات وما فى الأرض ، ليقرر أن من كانت هذه صفاته وقدرته وجبروته ، لا يقوم عنده شفيع إلا بإذنه ؛ ولا يغيب عنه شيء من عمل عباده ؛ ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء ؛ وهو المحيط بالسماوات والأرض ، القادر على حفظهما فى يسر ، وهو العلى القدر العظيم الشأن :

« الله لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم ، له ما فى السماوات وما فى الأرض. من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ؟ يعلم مابين أيديهم وما خلفهم ، ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء ، وسع كرسيه السماوات والأرض ؛ ولا يؤوده حفظهما وهو العلى العظيم » .

وفى هذه الآية الواحدة من كليات العقيدة الإسلامية : الوحدانية، والحياة، والقيام بأمر الخلق،

والتنزه عن التراخى بالسنة أو النوم ، وملكية الوجود كله المعبر عنه بما فى السماوات وما فى الأرض ، ونفى الشفاعة عند الله إلا بإذنه .

وفى الآية كذلك تعبير خاص عن شمول السلطان وعن القدرة التى لا يلحقها الكلال : « وسع كرسيه السماوات والأرض ولا يؤوده حفظهما » وقد جاء التعبير فى هذه الصورة الحسية فى موضع التجريد المطلق والتنزيه الكامل ، لأن الصورة هنا تمنح المعنى الذهنى قوة وعمقا . فالكرسى عادة يستخدم فى الملك . يقال جلس على كرسى المملكة . وهو كناية عن مركز الدولة الذى تتبعه أطرافها . فإذا وسع السماوات والأرض ، فهما إذن داخلتان فى سلطانه . وهذا هو المعنى الذهنى . ولكن الصورة التى ترتسم فى الحس من التعبير بالمحسوس أثبت وأمكن . وكذلك التعبير بقوله : « ولا يؤوده حفظهما » فهو كناية عن القدرة الكاملة. ولكنه يجىء فى هذه الصورة المحسوسة ، صورة انعدام الكلال والجهد ، لأن التعبير القرآنى يميل إلى رسم صور للمعانى تجسمها للحس ، فتكون فيه أوقع وأعمق وأحس !

* * *

وبعد . فهذا هو الله سبحانه فى صفاته ؛ وتلك هى الرسل فى وحدة الرسالة التى كلفوها. والبينات واضحة وشاهدة . ولكن حرية الاعتقاد مع هذا كله مكفولة . إنما هذه البينات للإيضاح ، ولبيان الرشد من الغى . فمن شاء فليكفر ومن شاء فليؤمن ، بعد ما تبين الرشد والضلال ، ولكل منهما جزاؤه فى يوم لا بيع فيه ولا خلال :

« لا إكراه فى الدين . قد تبين الرشد من الغى » .

وفى هذا المبدأ العظيم يتجلى تكريم الله للإنسان ، واحترام إرادته وفكره ومشاعره ، وترك أمره لنفسه ، وتحميله تبعة عمله .. وهذه هى أخص خصائص التحرر الإنسانى .

إن حرية الاعتقاد هى أول حقوق الإنسان . ولقد سبق بها الإسلام كل دعوة إلى تحرير الضمير البشرى ، وإلى كفالة حقوق الإنسان .

والتعبير هنا فى صورة النفى المطلق للجنس . جنس الإكراه . فكأنما يقرر الإنكار المطلق للإكراه ، بإنكار وجوده وكونه أصلا . إنه يستبعده من عالم الوجود وعالم الوقوع بهذا التعبير الدقيق ، الذى لا يقوم مقامه أن يقال مثلا : لا تكرهوا أحدا فى الدين ..

وكأنما يعلل إنكار الإكراه فى الدين ، بأنه قد تبين الرشد من الغى ، ووضح الطريق لمن يرى . فليكن الإنسان نفسه هو الحكم ، وليكن للإنسان نفسه الاختيار .

ولا يزيد السياق على أن يلمس الضمير البشرى لمسة توقظه وتشوقه إلى الهدى وتهديه إلى الطريق :

« فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها . والله سميع عليم » .

إن الكفر ينبغى أن يتجه إلى ما يستحق الكفر به وهو « الطاغوت » وإن الإيمان يجب أن يتجه إلى من يجدر الإيمان به وهو « الله » .

والطاغوت صيغة من الطغيان ، تشير هنا إلى كل ما يطغى على الوعى ، ويجور على الحق ، ويحيد عن الصواب . فمن يكفر بهذا كله ويؤمن بالله ، فقد نجا . وتتمثل نجاته فى استمساكه بالعروةالوثقى لا انفصام لها . وهنا نجدنا أمام صورة حسية لمعنى نفسى . إن الإيمان عروة وثيقة لا تنفصم أبدا ؛ ولا يضل المسك بها طريق النجاة . والإيمان فى حقيقته اهتداء إلى الناموس الخالد ، الذى لا يتخلف ولا يتوقف ولا ينفصم ولا يرتطم بالعقبات . فهو إذن عروة النجاة التى تربط بين قلوب المؤمنين وتصلها بالله « والله سميع عليم » .

ثم يمضى السياق يصور فى مشهد حسى متحرك طريق الهدى وطريق الضلال ، يصور كيف يأخذ الله ولى المؤمنين بأيدى المؤمنين فيخرجهم من الظلمات إلى النور ؛ بينما الطواغيت أولياء الكفار تأخذ بأيدى الكفار فتخرجهم من النور إلى الظلمات . . والخيال يتبع هؤلاء وهؤلاء جيئة من هنا وذهابا من هناك ؛ بدلا من التعبير الذهنى المجرد الذى لا يحرك خيالا ولا يلمس حسا ، ولا يخاطب سوى الذهن بالمعانى والألفاظ :

« الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ؛ والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات . أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » .

فإذ أردنا أن ندرك فضل طريقة التصوير القرآنية فلنضع فى مكان هذا المشهد الحسى المتحرك تعبيرا ذهنياً أياكان . لنقل مثلا : الله ولى الذين آمنوا يهديهم إلى الإيمان، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يقودونهم إلى الكفران .. إن التعبير يموت بين أيدينا ويفقد ما فيه من حرارة وحركة وإيقاع !

***

« ألم تر إلى الذى حاج ابراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك ، إذ قال ابراهيم : ربى الذى يحي ويميت . قال : أنا أحي وأميت . قال ابراهيم : فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب . فبهت الذى كفر ، والله لا يهدى القوم الظالمين » .

إنه استطراد فى حديث الآيات على قدرة الله ، وفى جو الموت والحياة .. إن « الذى حاج ابراهيم فى ربه » منكراً لوجوده ـ تعالى ـ طالباً الدليل من إبراهيم على وجوده .. إن هذا المنكر المتعنت ، إنما ينكر ويتعنت للسبب الذى كان ينبغى من أجله أن يؤمن ويتشكر . لأن آتاه الله الملك ! لأن جعل الله فى يده السلطان ! لقد كان ينبغى أن يشكر لولا أن الملك يبطر من لا يقدرون نعمة الله ، ولا يدركون مصدرها فيضعون الكفران فى موضع الشكران ، ويضلون من حيث كان ينبغى أن يكونوا مهتدين .

ألم تر إلى الذى .. إنه تعبير التشنيع والتفظيع ، وإن الإنكار والاستنكار لينطلقان من بنائه اللفظى والمعنوى سواء . فالفعلة منكرة حقا : أن يأتى الحجاج والجدال بسبب النعمة والعطاء !

« قال ابراهيم : ربى الذى يحي ويميت » فالإحياء والإماتة هما الظاهرتان المكرورتان فى كل لحظة ، المعروضتان لحس الإنسان وبصره ، وهما فى الوقت نفسه أبرز خصائص الألوهية القادرة على الإيجاد والإفناء .

ونحن البشر لا نعرف شيئا عن حقيقة الحياة وحقيقة الموت. ولكننا ندرك مظاهرهما فى الأحياء والأموات . ولم تصل البحوث العلمية إلى شىء ذى قيمة فى تحديد ماهية الحياة ، ولم تصل إلى شىء أصلا عن مصدرها ؛ ولكنها فقط تسجل خصائص الجسم الحى التى عرفت كالغذاء والنمو والحركة .

وما كان ابراهيم ـ عليه السلام ـ وهو رسول موهوب تلك الموهبة اللدنية التى وصفناها فى طبيعة الرسالة ـ ليعنى من الإحياء والإماتة ، إلا إنشاء هذه الخصائص إنشاء . فذلك عمل الإله المتفرد الذى لا يشاركه فيه أحد من خلقه . ولكن الذى حاج ابراهيم فى ربه فهمها فهماً سطحيا غشيما ! فهم أن قتل الحى إماتة ، وأن العفو عن المحكوم عليه بالقتل إحياء : « قال : أنا أحي وأميت » .

عند ذاك لم يرد ابراهيم أن يسترسل فى جدل حول معنى الإحياء والإماتة مع رجل هذا مدى تصوره لتلك الحقيقة الهائلة : حقيقة خلق الحياة وسلبها ، وهى السر الذى لم تدركه البشرية إلى يومنا هذا .. وعندئذ عدل عن هذه السنة الكونية الخفية ، إلى سنة أخرى ظاهرة مرئية . وعدل عن طريقة العرض المجرد للسنة الكونية فى قوله « ربى الذى يحيي ويميت » إلى طريقة التحدى وطلب تغيير سنة الله فى قوله : « فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب » ..

« فبهت الذى كفر » .. فالتحدى قائم ، والأمر ظاهر ؛ ولاسبيل إلى سوء الفهم وسذاجة التصور . والتسليم أولى والإيمان أجدر .. ولكن الكبر عن الرجوع إلى الحق يمسك بالذى كفر ، فيبهت وييأس ويتحير . ولا يهديه الله إلى الحق ، لأنه لم يطلب الهداية ، ولم يلتزم القصد والعدل فى شعوره وتفكيره . « والله لا يهدى القوم الظالمين » .

***

وفى سياق الحديث عن الإحياء والإماتة ، وعن آيات القدرة المعجزة تجىء قصة أخرى :

« أو كالذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها ، قال : أنى يحيي هذه الله بعد موتها ؟ فأماته الله مئة عام ثم بعثه . قال : كم لبثت ؟ قال : لبثت يوماً أو بعض يوم . قال : بل لبثت مئة عام ، فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه ؛ وانظر إلى حمارك ــ ولنجعلك آية للناس ــ وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما . فلما تبين له قال : أعلم أن الله على كل شىء قدير » .

من هو « الذى مر على قرية » ؟ ما هذه القرية التى مر عليها وهى خاوية على عروشها ؟ إن القرآن لم يفصح عنهما شيئا ، ولو شاء لأفصح ، ولو كانت حكمة النص لا تتحقق إلا بهذا الإفصاح لما أهمله القرآن : فلنقف نحن ــ على طريقتنا فى هذه الظلال ــ عند تلك الظلال .

إن المشهد لمرتسم فى الخيال . مشهد الموت والبلى والخواء . مرتسم بالوصف : « وهى خاوية على عروشها» . ومرتسم فى مشاعر الرجل الذى مر على القرية ، هذه المشاعر التى ينضح بها تعبيره : « قال : أنى يحيي هذه الله بعد موتها ؟» .

إن القائل ليعرف أن الله هناك . ولكن مشهد البلى والخواء ووقعه العنيف فى حسه جعله يستصعب — حتى على الله — أن تبلغ قدرته بعث الحيـاة فى ذلك الموات ! وهذا أقصى ما يبلغه مشهد من العنف والعمق فى الإيحاء . . . وهكذا يلقى التعبير ظلاله ، فيرسم المشهد كأنما هو اللحظة شاخص تجاه الأبصار !

« أنى يحيى هذه الله بعد موتها ؟ » . . . كيف تدب الحياة فى هذا الموات ؟

« فأماته الله مئة عام ثم بعثه » . . . لم يقل له كيف . إنما أراه فى عالم الواقع كيف ! فالمشاعر والشكوك والهواجس تكون أحياناً من العنف والعمق بحيث لا يجدى فيها البرهان العقلى ، ولا المنطق الوجدانى . ولا الواقع العام الذى يراه العيان . إنما هى التجربة الشخصية الذاتية التى لا محال فيها ولا جدال !

« قال : كم لبثت ؟ قال : لبثت يوما أو بعض يوم » ! وما يدريه كم لبث ، والإحساس بالزمن لا يكون إلا مع الحياة والوعى ؟

« قال : بل لبثت مئة عام » .. وتبعا لطبيعة التجربة ، وكونها تجربة حسية واقعية ، نتصور أنه لا بد كانت هنالك آثار محسوسة تصور فعل مئة عام . هذه الآثار المحسوسة لم تكن فى طعام الرجل ولا شرابه ، فلم يكونا آسنين متعفنين : « فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه » .... وإذن فلا بد أن هذه الآثار المحسوسة كانت متمثلة فى شخصه أو فى حماره .

« وانظر إلى حمارك — ولنجعلك آية للناس — وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحماً » .

أية عظام ؟ عظامه هو ؟ لو كان الأمر كما يقول بعض المفسرين أن عظامه هى التى تعرت من اللحم ، للفت هذا نظره عندما استيقظ ، ووخز حسه كذلك ؛ ولما كانت إجابته : « لبثت يوما أو بعض يوم » .

لذلك نرجح أن الحمار هو الذى تعرت عظامه فصارت هيكلا . ثم كانت الآية هى إقامة هذا الهيكل وكسوته باللحم ورده إلى الحياة ، على مرأى من صاحبه الذى لم يمسه البلى ، ولم يصب طعامه التعفن . ليكون هذا التباين فى المصائر ، والجميع فى مكان واحد ، معرضون لمؤثرات جوية وبيئية واحدة ، آية أخرى على القدرة التى لا يعجزها شىء ؛ وليدرك الرجل كيف يحيى هذه الله بعد موتها !

أما كيف وقعت هذه المعجزة ؟ فكما تقع كل معجزة ! كما وقعت معجزة الحياة الأولى . المعجزة التي ننسى كثيراً أنها وقعت ، وأننا لم نهتد حتى اللحظة إلى كيفية وقوعها . . . وهذا « دارون » أكبر علماء الحياة يظل في نظريته ينزل بالحياة سلما سلما ، ويتعمق أغوارها قاعا قاعا ، حتى يردها إلى الخلية الأولى . . ثم يقف بها هناك . إنه يجهل مصدر الحياة في هذه الخلية الأولى ؛ ولكنه لا يريد أن يسلم بما ينبغي أن يسلم به الإدراك البشري . وهو أنه لابد من واهب وهب الحياة لهذه الخلية الأولى فيقول : « إن تفسير شؤون الحياة بوجود خالق ، يكون بمثابة إدخال عنصر خارق للطبيعة في وضع ميكانيكي بحت ! »

ولكنه يحفل من ضغط المنطق الفطري الذي يلجىء الإدراك البشري إلى الاعتراف بما وراء الخلية الأولى ؛ فيرجع كل شيء إلى « السبب الأول » ولا يقول ما هو هذا السبب الأول ، الذي يملك قوة إيجاد الحياة أول مرة ، وقوة توجيه الخلية الأولى في طريقها الذي افترض هو أنها سارت فيه ، دون أي طريق آخر غير الذي كان !

ونعود إلى معجزة القرية لنسأل : وما الذي يفسر أن ينال البلى شيئاً ويترك شيئاً في مكان واحد وفي ظروف واحدة ؟ إن معجزة خلق الحياة أول مرة ، أو معجزة رجعها كذلك ، لا تفسران هذا الاختلاف في مصائر أشياء ذات ظروف واحدة .

ثم نجيب بسؤال : فما لنا نحاكم القدرة المطلقة إلى قانون نحن قائلوه ، مستمد من تجاربنا المحدودة وإدراكنا المحدود ؟ وهبه قانونا من قوانين الكون أدركناه ، فمن ذا الذي قال لنا : إنه قانون كلي ، وأن ليس وراءه قانون سواه ؟

***

« وإذ قال ابراهيم : رب أرني كيف تحيي الموتى . قال : أو لم تؤمن ؟ قال : بلى ! ولكن ليطمئن قلبي . قال : فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ، ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ؛ ثم ادعهن يأتينك سعيا ؛ واعلم أن الله عزيز حكيم » .

وأخيراً فهاهو ذا ابراهيم . ابراهيم الأواه الحليم . ابراهيم المؤمن الخاشع العابد الخليل .. ها هو ذا يسأل ربه أن يريه : كيف يحيي الموتى . إنه يريد التجربة العملية الذاتية التي ترسب في أعماق الحس بذاتها ، وتسكت كل هاجسة وكل خالجة .

« رب أرنى كيف تحيي الموتى » .. « قال : أو لم تؤمن ؟ » وهو سؤال لابراهيم يكافىء سؤاله . فهو من هو إيماناً وقرباً من الله . ثم هو يطلب أن يرى . فظاهر سؤاله كظاهر السؤال الذى وجه إليه . أما الحقيقة فهو أنه كان قد آمن ، والحقيقة أن ربه يعلم أنه مؤمن . ولكن ابراهيم كان يطلب الاطمئنان على إيمانه ، وتثبيته فى وجدانه . وكان السؤال الذى وجه إليه كأنه إنكار عليه أن يكون فى حاجة إلى ما يطمئن قلبه ، بعد ما بلغ ما بلغ من القرب إلى ربه .

وعلى أىّ فقد استجاب ربه للهفته ، ومنحه التجربة التى تطمئن قلبه . وأمره أن يختار أربعة من الطير ، فيميلهن إليه ويضمهن حتى يتأكد من شياتهن وميزاتهن . ثم يفرق أجزاءهن على الجبال المحيطة به القريبة منه ـ وهذا هو الذى يتصوره العقل عمليا ، فليس من الممكن لابراهيم أن يطلب الجبال النائية ليقضى السنوات الطوال فى طلبها فى ذلك العصر الذى أسرع وسائله الراحلة ـ ثم يدعوهن إليه ، فتتجمع الأجزاء مرة أخرى ، وترتد إليهن الحياة، ويعدن إليه ساعيات . . وقد كان .

كيف كان ؟ إنها المعجزة التى كنا نتحدث عنها . والقدرة المطلقة التى تنفذ مشيئتها. ومشيئتها هى الناموس الذى تختاره وهو لا يقيدها .

وليس هذا التسليم استسلاما إلى خرافة ، أو انقيادا إلى تيه لا دليل فيه للعقل البشرى . إنما هو احترام العقل البشرى ذاته ، يوجب عليه أن يعمل فى المحيط الذى يملك وسائل العمل فيه ، وأن يسلم بعد ذلك بما يدعوه منطقه ذاته بالتسليم به .

إن فى هذه الأرض حياة لايدرى هـذا العقل من أين جاءت ، ولا كيف اتصلت بالأرض فانبعثت الخلية الحية الأولى . وعلى فرض أنه تتبع الخليـة الأولى فى خط سيرها تتبعا واقعيا — لا فرضا ولا نظرية — فإن جذوة الحياة الأولى لايزال مصدرها عليه خافيا ، ولا يزال غير قادر بوسائله الذاتية على إدراك هذا المصدر .

ولما كانت وسائله التى يملكها كلها ، إنما هى تالية فى نشأتها لوجود جذوة الحياة ، كما أنهـا نابعة من هذه الجذوة ونموها وتطورها . فلو لم توجد هـذه الجذوة فى الخلية الحيـة ، ولو لم تبلغ هذه الخلية أن تكون إنسانا ـ على نحو من الأنحاء على فرض دارون أو على أى تصـور آخر لوجود الحياة الإنسانية ـ لولا هذا لما وجدت جميع الوسائل المهيأة للعقل البشرى ..

لما كان الأمر كذلك فإن وسائل العقل البشرى تعد نتيجة جزئية لوجود جذوة الحيـاة .

والنتيجة الجزئية لا يمكن أن تدرك السبب الكلى الذى ينشئها وينشىء سواها من الجزئيات الأخرى . فالجزء لا يدرك الكل ولا يحيط به . ومن ثم فالعقل البشرى يتجاوز حدود طاقته ، ويتجاوز حدود وسائله ، ويتجاوز الميدان الذى يعمل فيه ، إذا هو حاول إدراك كيفية الحياة والموت ، وكيفية الإحياء والإماتة ، وإذا هو تحكم فوضع قانونا عاما لهذا كله لمجرد أن تجاربه الجزئية قد قادته إلى قانون غالب .

ومن ثم تبدو الرسالة أصدق من العقل البشرى المحدود ،وأولى بالتصديق فيما تنبىء به عن القوانين الكونية الكبرى ، لأنها تتلقى إيقاع الناموس الأكبر تلقيا مباشرا ، لا تستمده من جزئيات التفكير البشرى وتجاربه المحدودة . ويبدو أن تسليم العقل البشرى بهذا الإنباء أقوم وأكثر احتراما للعقل البشرى ذاته ، من الإنكار المطلق ، الذى لا سند له إلا أن هذا العقل لم يدرك !

« مَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ ؛ وَٱللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ ؛ وَٱللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * ٱلَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللهِ ، ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى ، لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ، وَلَاهُمْ يَحْزَنُونَ * قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى ، وَٱللهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ * يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَٱلْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ ٱلنَّاسِ ، وَلَا يُؤْمِنُ بِاللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ؛ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ ، فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا ، لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا ؛ وَٱللهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَافِرِينَ * وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ٱبْتِغَاءَ مَرْضَاةِ ٱللهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ ، أَصَابَهَا وَابِلٌ ، فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ ؛ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ، وَٱللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ ، لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ

الثَّمَرَاتِ ، وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ ، وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ ؛ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ ؟ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ ، وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ ، وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ * الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ ؛ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ ، وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيراً ، وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ * وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ * إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ ، وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ .

« لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ؛ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ ، وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ * لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الْأَرْضِ ، يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ ، تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ ، لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً ؛ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ .

« الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » .

كان الدرس الماضى والذى قبله استطراداً مع فكرة الموت والحياة ، وفكرة الرسل والرسالات ؛ فى خلال التكاليف والواجبات المفروضة على الأمة المسلمة ، والشرائع والقوانين

التي تنظم حياتها ؛ والتي تضمنتها هذه السورة منذ أن اتجه الخطاب إلى تلك الأمة ، لتربيتها وإعدادها للمهمة العظمى المنوطة بها ؛ كما أسلفنا في الجزء الأول من هذه الظلال .

ولم يكن هذا الاستطراد كله خروجا عن الموضوع الأصيل : موضوع إعداد هذه الأمة بالتشريعات وتربيتها بالتوجيهات ، لحمل التكاليف . تكاليف الوصاية على هذه البشرية ، والنهوض بأعباء هذه الوصاية . فقد كان استطرادا إلى تثبيت القلوب المؤمنة على التضحيات ؛ وتطمينها من ناحية الحياة والموت ؛ وتكليفها ألا يكون الإكراه على الدين وسيلتها للجهاد ؛ وتعريفها طبيعة الرسل والرسالات ... إلى آخر هذه الأغراض التي استعرضناها في الدرسين الماضيين .

فالآن يسير السياق في جو التكاليف الصريحة ، ولكنه يظللها بظلال شفة لطيفة . . . إنها الدعوة إلى البذل والإنفاق . ولقد ترددت هذه الدعوة من قبل . فالآن يرسم دستور الصدقة في تفصيل وإسهاب . يرسم هذا الدستور مظللا بظلال حبيبة أليفة . ويبين آداب الصدقة: آدابها النفسية والاجتماعية . الآداب التي تحول هذه الصدقة عملا تهذيبياً لنفس معطيها ، وعملا نافعا مربحاً لآخذها ؛ وتحول المجتمع عن طريقها إلى أسرة فيها التعاون والتكافل والتواد والتراحم ، وترفع البشرية إلى مستوى كريم : المعطى فيها والآخذ على السواء .

فلنستعرض هذا الدستور الكريم فقرة فقرة ، وتوجيها توجيها :

***

« مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل ، في كل سنبلة مئة حبة ؛ والله يضاعف لمن يشاء ، والله واسع عليم »

إن الدستور لا يبدأ بالفرض والتكليف ؛ إنما يبدأ بالحض والتأليف . . إنه يستجيش المشاعر والانفعالات الحية في الكيان الإنساني كله . . . إنه يعرض صورة من صور الحياة النابضة النامية المعطية الواهبة . صورة الزرع . هبة الأرض أو هبة الله . الزرع الذي يعطي أضعاف ما يأخذه . ويهب غلاته مضاعفة بالقياس إلى بذوره . . « حبة أنبتت سبع سنابل ، في كل سنبلة مئة حبة » . . . إن المعنى الذهني للتعبير ينتهي إلى عملية حسابية تضاعف الحبة الواحدة إلى سبعمئة حبة . . . أما الصورة التي يرسمها التعبير فهي أوسع من هذا وأجمل ؛

وأكثر استجاشة للمشاعر وتأثيراً فى الضمائر . . . إنه مشهد الحياة النامية . مشهد الطبيعة الحية. مشهد الزرعة الواهبة . . . ثم مشهد العجيبة فى عالم النبات : العود الذى يحمل سبع سنابل ، والسنبلة التى تحوى مئة حبة . . .

وفى موكب الحياة النامية الواهبة يتجه الضمير البشرى إلى البذل والعطاء . إنه لا يعطى بل يأخذ ، وإنه لا ينقص من ماله بل يزاد . . وتمضى موجة العطاء والنماء فى سبيلها تضاعف الأحاسيس التى استثارها مشهد الزرع والحصيلة . . إن الله يضاعف لمن يشاء . يضاعف بلا عد ولا حساب . يضاعف من رزقه الذى لا يعلم أحد مداه ، ومن رحمته التى وسعت كل شىء : « والله واسع عليم » يعلم النوايا ، ويثيب بقدرها ، ولا يقف بالثواب عند حدود الحساب !

ولكن أى إنفاق هذا الذى ينمو ويربى ؟ وأى عطاء هذا الذى يضاعف الله من ثوابه لمن يشاء ؟

إنه الإنفاق الذى يرفع المشاعر الإنسانية ولا يشوبها . الإنفاق الذى لا يؤذى كرامة ولا يخدش شعوراً . الإنفاق الكريم المنبعث عن أريحية ونقاء ، المتجه إلى الله ابتغاء مرضاة الله : « الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون »

والمن عنصر كريه لئيم ، وشعور خسيس واط . فالنفس البشرية لا تمن بما أعطت ، إلا رغبة فى استعلاء كاذب ، أو رغبة فى إذلال الآخذ . وكلاهما إحساس لا يجيش فى قلب طيب كريم . وهو كفيل بأن يحيل الصدقة أذى للواهب وللآخذ على السواء . أذى للواهب بما يثير فى نفسه من كبر وخيلاء ، أو رغبة فى رؤية أخيه ذليلا له كسيراً لديه ، وأذى للآخذ بما يثير فى نفسه من انكسار وانهزام ، ومن رد فعل بالحقد والانتقام . . . وما أراد الإسلام بالصدقة مجرد سد الخلة وملء البطن وتلافى الحاجة . . كلا ! إنما أرادها تهذيباً وتزكية وتطهيراً لنفس المعطى ، واستجاشة لمشاعره الإنسانية وارتباطه بأخيه الفقير فى الإنسانية وفى الله . . كما أرادها ترضية وتندية لنفس الآخذ ، وتوثيقا لصلته بأخيه فى الإنسانية وفى الله ... والمن يذهب بهذه المشاعر كلها ، ويحيل الصدقة سما وناراً ، فهو أذى وإن لم يصحبه أذى آخر باليد أو باللسان. هو أذى فى ذاته يمحق الصدقة ، ويمزق المجتمع ، ويثير السخائم والأحقاد .

وبعض الباحثين النفسيين فى هذه الأيام ، يقررون أن رد الفعل الطبيعى فى النفس البشرية للإحسان هو العداء فى يوم من الأيام !

وهم يعللون هذا بأن الآخذ يحس بالنقص والضعف أمام المعطى ؛ ويظل هذا الشعور يحز فى نفسه ؛ فيحاول الاستعلاء عليه بالتجهم لصاحب الفضل عليه وإضمار العداوة له ، لأنه يشعره دائما بنقصه وضعفه .. وبأن المعطى يريد أن يشعر دائما بأنه صاحب فضل على من أعطاه . وهو الشعور الذى يزيد من ألم صاحبه الآخر حتى يتحول إلى عداء ..

وقد يكون هذا كله صحيحا فى المجتمعات التى لاتسودها روح الإسلام . أما هذا الدين فقد عالج المشكلة على نحو آخر . عالجها بأن يقرر فى النفوس أن المال مال الله ؛ وأن الرزق الذى فى أيدى الواجدين هو رزق الله . فإذا أعطى الواجد من ماله شيئا فإنما من مال الله أعطى ؛ وإذا أسلف حسنة فإنما هى قرض لله يضاعفه له أضعافا كثيرة . وليس المحروم الآخذ إلا أداة وسببا لينال المعطى الواهب أضعاف ماقدمت يداه ! ثم شرع هذه الآداب التى نحن بصددها الآن ، توكيدا لهذا المعنى فى النفوس ، حتى لايستعلى معط ، ولا يتخاذل آخذ . فكلاهما آكل من رزق الله . وللمعطين أجرهم من الله إذا هم أعطوا فى سبيل الله ، وابتغاء لرضاه ، متأدبين بالأدب الذى رسمه « ولاخوف عليهم » من فقر ، ولامن حقد ، « ولاهم يحزنون » على ما أنفقوا فى الدنيا ، ولا على مصيرهم فى الآخرة ..

وتوكيداً للمعنى الذى سلف من حكمة الصدقة . توكيدا لأن الغرض منها هو تهذيب النفوس ، وترضية القلوب ، وربط الواهب والآخذ برباط الحب فى الله .. يقول فى الآية التالية :

« قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى . والله غنى حليم »

يقرر أن الصدقة التى يتبعها الأذى لا ضرورة لها : وأولى منها كلمة طيبة ، وشعور سمح . كلمة طيبة تضمد جراح القلوب وتفعمها بالرضى والبشاشة ، ومغفرة تغسل أحقاد النفوس وتحل محلها الإخاء والصداقة . فالقول المعروف والمغفرة فى هـذه الحالة يؤديان الوظيفة الأولى للصدقة : تهذيب النفوس وتأليف القلوب .. وهو يغفل كلمة المن هنا ويضيفه على الأذى . لأن الأذى هو الثمرة المرة للمن لا محالة .

ولأن الصدقة ليست تفضلا على الآخذ ، إنما هى قرض لله .. عقب على هذا بأن « الله غنى » فلا يطلب صدقة يتبعها أذى ، « حليم » لا يعجل بالعقاب ولا يجازى على الأذى أذى عاجلا ، إلا حيث يقتضى الحلم الجزاء .

وعند ما يصل التأثر الوجدانى غايته ، بعد استعراض مشهد الحياة النامية الواهبة ، مثلا للذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ، دون أن يتبعوها منا ولا أذى لعباد الله ؛ وبعد التلويح بأن الله غنى عن ذلك النوع المؤذى من الصدقه ، لا يطلبه ولا يرضاه .. عندما يصل التأثر الوجدانى غايته بهذا وبذاك ، يتوجه السياق خطابا للذين آمنوا ألا يبطلوا صدقاتهم بالمن والأذى . ويرسم لهم مشهدا عجيبا ، أو مشهدين عجيبين ، يتناسقان مع المشهد الأول ، مشهد الزرع والنماء . يصوران طبيعة الإنفاق الخالص لله . والإنفاق المشوب بالمن والأذى . على طريقة التصوير الفنى فى القرآن ، التى تعرض المعنى صورة ، والأثر حركة ، والحالة مشهدا شاخصا للخيال :

« يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذى ينفق ماله رئاء الناس ، ولا يؤمن بالله واليوم الآخر ؛ فمثله كمثل صفوان (١) عليه تراب فأصابه وابل (٢) فتركه صلدا ، لا يقدرون على شىء مما كسبوا ؛ والله لا يهدى القوم الكافرين . ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله ، وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين ؛ فإن لم يصبها وابل فطل (٣) ، والله بما تعملون بصير »

هذا هو المشهد الأول

مشهد كامل مؤلف من منظرين متقابلين شكلا ووضعا وثمرة . وفى كل منظر جزئيات ، يتسق بعضها مع بعض من ناحية فن الرسم وفن العرض ، ويتسق كذلك مع ما يقابله من المشاعر والمعانى التى رسم المنظر كله لتمثيلها وتشخيصها بالمحسوسات .

نحن فى المنظر الأول أمام قلب صلد « لا يؤمن بالله واليوم الآخر » فلا يستشعر نداوة الإيمان وبشاشته . ولكنه يغطى هذه الصلادة بغشاء من الرياء « كالذى ينفق ماله رئاء الناس » .. هذا القلب الصلد المغشى بالرياء يمثله حجر صلد لا خصب فيه ولا ليونة ، يغطيه تراب يحجب صلادته عن العين ، كما يحجب الرياء صلادة القلب عن الحس .. « فأصابه وابل فتركه صلدا » وذهب بالتراب القليل الذى يغطى حقيقته ، فانكشفت صلادته وجدبه وقساوته ، ولم ينبت زرعة ولم يثمر ثمرة . كذلك القلب المرائى الذى يغشيه الرياء ، ولا يقدر على شىء ولا ينتفع بشىء مما ينفقه بوحى من هذا الرياء .

أما المنظر الثانى المقابل له فى المشهد العجيب .. فقلب آخر عامر بالإيمان ، ندى ببشاشته

---

(١) صفوان : أى حجر صلد أملس (٢) وابل : مطر غزير . (٣) مطر خفيف

ينفق المال « ابتغاء مرضاة الله » وينفقه عن ثقة ثابتة فى الخير، نابعة من النفس عميقة الجذور فيها .. وإذا كان ذلك القلب الصلد وعليه ستار من رياء ، يمثله صفوان صلد عليه غشاء من تراب .. فهذا القلب المؤمن تمثله جنة . جنة خصبة فى مقابل حفنة التراب . وجنة تقوم على الربوة فى مقابل الحجر الذى تقوم عليه حفنة التراب ! ليكون المنظر متناسق الأشكال ! فإذا جاء الوابل لم يذهب بالتربة الخصبة هنا كما ذهب بغشاء التراب هناك . بل أحياها « فآتت أكلها ضعفين » أحياها كما تحيي الصدقة القلب المؤمن فيزكو ويزداد إيمانا بالله ، ويزكو ماله كذلك ويزداد . « فإن لم يصبها وابل » غزير « فطل » من الرذاذ يكفى فى التربة الخصبة للإخصاب والنماء .

إنه المشهد الكامل المتقابل المناظر ، المنسق الجزئيات ، المعروض بطريقة معجزة فى التناسق والأداء . المشهد الممثل بمناظره الشاخصة لكل خالجة فى القلب الإنسانى وكل خاطرة ، المصور لمصائر المشاعر والوجدانات بما يقابلها من الحالات والمحسوسات .. ولما كان المشهد مجالا للبصر والبصيرة كان التعقيب عليه من جنسه : « والله بما تعملون بصير » كمالا فى التنسيق ، ودقة فى التصوير .

فأما المشهد الثانى فتمثيل لنهاية المن والأذى ، كيف يمحق آثار الصدقة محقاً ، فى وقت لايملك صاحبها قوة ولا عوناً ، ولا يستطيع لذلك المحق ردا . تمثيل لهذه النهاية البائسة فى صورة موحية عنيفة الإيحاء . كل مافيها عاصف بعد أمن ورخاء :

« أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجرى من تحتها الأنهار ، له فيها من كل الثمرات ، وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء ؛ فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت ؟ كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون » .

هذه الصدقة وقد خرجت عن رضى ، ووصلت محروما .. هذه هى ظليلة وارفة مخصبة مثمرة . إنها « جنة من نخيل وأعناب تجرى من تحتها الأنهار ، له فيها من كل الثمرات » هذه هى فى حياة المعطى والآخذ وفى حياة الجماعة الإنسانية ذات روح وظل ، وذات خير وبركة ، وذات غذاء ورى ، وذات زكاة ونماء .. فمن ذا الذى يود أن تكون له حسنة ثم يرسل عليها المن والأذى يمحقها محقاً ، كما لو كانت جنة « فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت » .. ومتى ؟ فى أشد ساعاته عجزا عن إنقاذها،وحاجة إلى ظلها ونعمائها : « وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء » !

من ذا الذى يود هذا ؟ ومن ذا الذى يفكر فى ذلك المصير ثم لايتقيه : « كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون » .

وهكذا يقوم المشهد الشاخص ، بما فيه أول الأمر من رضى ورفه ومتعة ، وما فيه من نضارة وخصب وجمال . ثم بما يعصف به عصفا من إعصار فيه نار .. يقوم هذا المشهد العجيب بالإيحاء الشعورى الرعيب ، الذى لايدع مجالا للتردد فى الاختيار ، قبل أن تذهب فرصة الاختيار ، وقبل أن يصيب الجنة الوارفة إعصار فيه نار !

وبعد فإن التناسق الدقيق الجميل الملحوظ فى تركيب كل مشهد على حدته ، وفى طريقة عرضه وتنسيقه .. هذا التناسق لايقف عند هذه المشاهد فرادى . بل إنه ليمد رواقه فيشمل المشاهد جميعا من بدء هذه المشاهد فى مطلع هذا الدرس إلى منتهاها .. إنها تعرض جميعا فى محيط زراعى ! حبة أنبتت سبع سنابل . صفوان عليه تراب فأصابه وابل . جنة بربوة فآتت أكلها ضعفين . جنة من نخيل وأعناب .. حتى الأمطار والأعاصير التى تكمل محيط الزراعة لم يخل منها محيط العرض الفنى المثير ... إنه القرآن . إنه القرآن ...

* * *

ويسير السياق خطوة أخرى فى دستور الصدقة ، ليبين نوعها وطريقتها ، بعدما بين آدابها والمشاعر النفسية التى يجب أن تصاحبها :

« يأيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ؛ ولاتيمموا الخبيث منه تنفقون . ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه . واعلموا أن الله غنى حميد » .

إن الأسس التى ظهر لنا من قبل أن الصدقة تقوم عليها وتنبعث منها ، لتقتضى أن يكون الجود بأفضل الموجود ، وبأطيب الكسب ؛ فلا تكون بالدون الذى يعافه صاحبه ، فيتصدق به ، ولا بالخبيث الذى يجىء من غير طريق الحلال ، فيحسب صاحبه أن التصدق منه يطهره ، أو أن التصدق به كله يرفع عنه وزر الكسب الحرام ، أو يطهر بقية المال . إنه لا يجوز أن يخرج المرء لله ما يأنف هو أن يأخذه من سواه ؛ وما لا يقبله إلا بنقص فى تقديره أو فى ثمنه تعويضا عما فيه من عيب .. « واعلموا أن الله غنى حميد » غنى لا يقبل إلا الطيب وإلا الجيد . حميد يتقبل الطيبات ويشكرها ويجزى عليها بالحسنى .

ولما كان الكف عن الإنفاق ، أو التقدم بالردىء والخبيث ، إنما ينشأ عن دوافع السوء ،

وعن تزعزع اليقين فيما عندالله ،وعن الخوف من الإملاق الذى لا يساور نفسا متصلة بالله معتمدة على الله .. كشف الله للذين آمنوا عن هذه الدوافع لتبدولهم عارية ، وليعرفوا من أين تنبت فى النفوس ، وما الذى يثيرها فى القلوب .. إنه الشيطان :

« الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء » .

الشيطان يخوفكم الفقر فيثير فى نفوسكم الحرص والشح والتكالب ؛ ومن التكالب تستحلون كل كبيرة للحصول على المال ، أو لاتقاء الإملاق . والفحشاء كل معصية تفحش أى تتجاوز الحد ، وإن كانت قد غلبت على أنواع خاصة من المعاصى . ولكنها هنا على إطلاقها الأول غالبا ، فهى ثمرة من ثمار خوف الفقر . وخوف الفقر كان يؤدى أحيانا إلى وأد البنات وهو فاحشة، كما يؤدى إلى السحت وأ كل الحرام وهو فاحشة . والبخل ذاته فاحشة ولو لم يستتبع إلا حبس المال .

« والله يعدكم مغفرة منه وفضلا . والله واسع عليم » .

فى رحاب الله تجدون المغفرة إذا أذنبتم ؛ وتجدون فضلا يتجاوز المغفرة إلى المثوبة إذا تبتم ، ولجأتم إليه ، وعذتم به من وسوسة الشيطان .

والله لا يرزق المال وحده ؛ إنما يمنح ما هو أغلى وأقوم :

« يؤتى الحكمة من يشاء، ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا » .

أوتى القصد والاعتدال فلا يفحش ولا يتعدى الحدود ؛ وأوتى إدراك العلل والغايات ، فلا يضل فى تقدير الأمور . والحكمة فى عمومها أقصى درجات المعرفة وأفضلها ، فهى هبة ضخمة وخير كثير . هكذا بالإطلاق فى اللفظ دون تحديد « وما يذكر إلا أولو الألباب » .

***

ذلك نوع الصدقة . فأما طريقتها : فلتكن نفقة أو نذرا ، ثم لتكن سراً أو جهراً . فالله يعلم مخرجها ، ويعلم النية المصاحبة لها . وإن كان أفضل الصدقة عنده الصدقة الخفية ، فى حالة إعطائها مباشرة للفقراء . أما الذين لا يوفون بحق النعمة التى أنعم الله بها عليهم ، ولا يخرجون شيئا من أموال الله التى فى أيديهم فهم الظالمون الذين يتوعدهم الله بالعذاب :

«وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه . وما للظالمين من أنصار . إن تبدوا

الصدقات فنعما هى ، وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ، ويكفر عنكم من سيئاتكم . والله بما تعملون خبير » .

وإخفاء الصدقة حين تكون لفرد معين أو لأفراد معينين خير من غير شك ؛ لأنها أحفظ للكرامة ؛ وأكثر تناسقا مع البواعث الكريمة التى يجب أن تنبعث منها فكرتها . فأما حين تكون صدقة عامة تعطى لبيت المال للإنفاق منها ، أو تقدم لمشروع جماعى لا يتعين المنتفع به باسمه وشخصه ، فربما كانت العلنية هنا خيرا ، إذا كانت مدعاة للآخرين أن يجودوا ، وأن يتسابقوا إلى الخير ؛ مع التجرد من نية الرياء والفخر : « والله بما تعملون خبير » بالنوايا والاتجاهات والبواعث فى جميع الأحوال .

* * *

ومن ثم لفتة من خطاب الذين آمنوا إلى خطاب الرسول – صلى الله عليه وسلم – لفتة لتقرير مبدأ سام من مبادىء الإسلام الإنسانية . إن الإسلام لا يقرر مبدأ الحرية الدينيةوحده ، ولا ينهى عن الإكراه على الدين فحسب . إنما يقرر ما هو أبعد . يقرر السماحة الإنسانية الكبرى . يقرر حق الفقراء فى المال ، دون نظر إلى عقيدتهم ، ويدعو إلى إعطائهم كسواهم ، ويقرر أن ثواب المعطين محفوظ عند الله ، ما دام الإنفاق ابتغاء وجه الله . وهى وثبة بالعلاقات البشرية ، لا ينهض بها إلا الإسلام :

« ليس عليك هداهم ، ولكن الله يهدى من يشاء ، وما تنفقوا من خير فلأنفسكم وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله ، وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون » .

« ليس عليك هداهم » فذلك بيد الله ، فلتفسح لهم صدرك ، ولتفض عليهم سماحتك ..

ثم يتوجه الخطاب بعد هذه اللفتة إلى المؤمنين يؤكد لهم معنى الصدقة وطبيعتها . إنها خير للمعطين .. خيرمعجل بما فيهمن تزكية وتهذيب « وما تنفقوا من خيرفلأنفسكم »وهى لا تكون إلا ابتغاء وجه الله . فتلك طبيعتها الأصيلة : « وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله » ولن يضيع منها شىء ، ولن يظلم من يقدم خيرا بين يديه عند الله : « وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون » .

ثم يخص بالذكر مصرفا من مصارف الصدقة ؛ ويعرض صورة شفة عفة كريمة نبيلة لطائفة

من المؤمنين ، صورة تستجيش المشاعر ، وتحرك القلوب ،لإدراك نفوس أبية بالمدد فلا تهون ، وبالإسعاف فلا تضام ، وهى تأنف السؤال وتأبى الكلام :

« للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله ، لايستطيعون ضرباً فى الأرض ، يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف ، تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافا . وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم » .

لقد كان هذا الوصف ينطبق على جماعة من المهاجرين الذين تركوا وراءهم أموالهم وأهليهم، وأحصروا فى المدينة لا يملكون مالا ، ولا يستطيعون تجارة .. ولكن النص عام ، ينطبق على سواهم فى جميع الأزمان. ينطبق على الكرام المعوزين ، الذين تكتنفهم ظروف تمنعهم من الكسب ، وتمسك بهم كرامتهم أن يسألوا العون . إنهم يتجملون كى لا تظهر حاجتهم حتى ليحسبهم الجاهل بما وراء الظواهر أغنياء ، لتعففهم عن كشف الحاجة للناس . ولكن ذا البصيرة والحس المرهف يدرك ماوراء التجمل . فالمشاعر النفسية تبدو على سيماهم وهم يدارونها فى حياء .

إنها صورة عميقة الإيحاء تلك التى يرسمها النص القصير لذلك النموذج الكريم من البشر . وهى صورة كاملة ترتسم على استحياء ! وكل جملة تكاد تكون لمسة ريشة ، ترسم الملامح والسمات ، وتشخص المشاعر والحركات . وما يكاد الإنسان يتم قراءتها حتى تبدو له تلك الوجوه وتلك الشخصيات كأنما يراها . وتلك طريقة القرآن فى رسم النماذج الإنسانية ،حتى لتكاد تخطر على الورق نابضة حية !

هؤلاء الفقراء الكرام الذين يكتمون الحاجة كما يغطون العورة ، لن يكون إعطاؤهم إلا سرا وفى تلطف لا يخدش إباءهم ولا يجرح عزتهم .. ومن ثم كان التعقيب : « وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم » الله وحده الذى يعلم السر ولا يضيع عنده الخير .

***

وأخيرا يختم دستور الصدقة فى هذه السورة بنص عام يشمل كل طرائق الإنفاق ، وحكم عام يشمل كل منفق لوجه الله :

« الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار ، سرا وعلانية ، فلهم أجرهم عند ربهم ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

ويبدو التناسق فى هذا الختام فى عموم النصوص وشمولها سواء فى صدر الآية أم فى ختامها .. الذين ينفقون أموالهم هكذا بوجه عام .. بالليل والنهار سرا وعلانية، لتشمل جميع الأوقات وجميع الحالات .. فلهم أجرهم عند ربهم هكذا إطلاقا .. ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون . لا خوف عليهم من أى مخوف ولا يحزنون لأى سبب..إنه التناسق فى ختام الدستور يوحى بذلك الشمول والتعميم .

« الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ؛ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا : إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا . وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا . فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ ؛ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ .

« إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ ، لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ؛ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ * وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ ؛ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ . إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ؛ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ ، وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ » .

الطرف الآخر المقابل للصدقة التى عرض دستورها فى الدرس الماضى . الطرف الكالح الطالح هو الربا ..

الصدقة نزول عن المال كله بلا عوض ولا رد . والربا استرداد للدين ومعه زيادة حرام مقتطعة من جهد المدين أو من لحمه . من جهده إن كان قد عمل بالمال الذى أخذه ديناً فربح نتيجة لعمله هو وكده . ومن لحمه إن كان قد أخذ المال للنفقة منه على نفسه وأهله ولم يستربحه شيئاً . فهو الطرف الآخر للصدقة .. الطرف الكالح الطالح الذى تقشعر منه الأريحية الإنسانية .

لذلك عرضه السياق مباشرة بعد دستور الصدقة . عرضه عرضا منفراً ، يكشف عما فى عملية الربا من شناعة ، ومن جفاف فى القلب ؛ ويصور المصير الذى ينتظر أكلة الربا فى الدنيا والآخرة ؛ تصويرا حسيا مفزعا تتوقاه النفوس . وآذن المؤمنين الذين يأكلون الربا ولاينتهون عنه بحرب من الله ورسوله . وهو تهديد يزلزل القلوب ويفزع الضمائر .

« ويجرى الإسلام فى كل هذا على مبادئه فى المال والأخلاق ومصالح الجماعة . فالمال وديعة فى يد صاحبه ؛ وهو موظف فيه لخير الجماعة جميعاً ، فليس له أن يقلب الوظيفة إضرارا بالناس وابتزازا يتحين ساعة احتياجهم ، ويستغل ضعف موقفهم ، فيأخذ منهم أكثر مما أعطاهم ؛ وقد تكون الحاجة هى حاجة الطعام للحياة ، وحاجة الدواء للعلاج ، وحاجة النفقة للعلم ولغير العلم ؛ فإما أن يتعطل هذا كله ، وإما أن يتحكم صاحب المال فى المحتاج إلى المال ، فيمنحه القليل ، ويسترد منه الكثير ؛ ويظلمه بذلك جهده ، فيكد ويعمل ليؤدى للمرابى رباه ، أو يتضاعف الدين عاما بعد عام .

« هذا الجزء الفائض يستمتع به صاحب المال ، وهو لم يعمل شيئا سوى أنه صاحب مال ! إنه العرق والدم يلغ فيهما بشراهة ، ويمتصهما فى نهم وهو قاعد . والإسلام الذى يقدس العمل ، ويجعله السبب الأساسى للملك والربح ، لايسيغ أن يفيد المال قاعد ، ولا أن يلد المال المال . إنما يلد المال الجهد ، وإلا فهو حرام .

« ويلحظ الإسلام طهارة خلق الفرد كما يلحظ المودة بين الجماعة . فما يأكل الربا فرد له خلق وضمير ، ومايشيع الربا فى الجماعة وتبقى فيها مودة وتعارف . والذى يمنحنى الدينار ليسترده منى دينارين هو عدوى ، فما أطيب له نفسا ، وما أحمل له ودا ؛ والتعاون أصل من أصول

المجتمع الإسلامى ، يهدمه الربا ويوهن أساسه . لذلك يكرهه الإسلام .

« وثمة حكمة أخرى تبرز لنا فى هذا العصر الحديث لتحريم الربا – ربما لم تكن بارزة حينذاك : ذلك أن الربا وسيلة لتضخيم رؤوس الأموال تضخيما شديدا ، لا يقوم على الجهد ، ولا ينشأ من العمل ، مما يجعل طائفة من القاعدين يعتمدون على هذه الوسيلة وحدها فى تنمية أموالهم وتضخيمها ؛ فيشيع بينهم الترهل والبطالة والترف ، على حساب الكادحين الذين يحتاجون للمال فيأخذونه بالربا فى ساعة العسرة . وينشأ عن ذلك مرضان اجتماعيان خطيران : تضخيم الثروات إلى غير حد ، وتفريق الطبقات علوا وسفلا بغير قيد ؛ ثم وجود طبقة متعطلة مترهلة مترفة ، لا تعمل شيئا وتحصل على كل شىء ؛ وكأنما المال الذى فى يديها فخاخ لصيد المال ، دون أن تتكلف حتى الطعم لهذه الفخاخ ؛ إنما يقع فيها المحتاجون عفوا ، ويساقون إليها بأقدامهم تدفعهم الضرورات !

« إنما يعطى المحتاجون قرضا بلا فائدة – إن لم يعطوا صدقة بلا رد – لأن هذه هى الطريقة التى تنمى المودة ، وتليق بالمروءة ، وتكفل التضامن بين الجماعة غنيها وفقيرها ، قادرها وعاجزها ، فلا فضل للمال فى ذاته ، إنما هو الانتفاع به والجهد فيه ، فوجوده فى يد لا يبرر أن تحصل به لذاته على فائدة ، والذى يقترضه هو الذى يجهد فيه ، فيجب أن تعود غلة الجهد لصاحب الجهد ، وأن يعود المال مفردا – بلا زيادة – لصاحب المال . (إلا فى شركة تحتمل الربح والخسارة) .

« وإنه ليستوى أن يكون الدين للاستهلاك أو الإنتاج فى عرف الإسلام ؛ فإنه إن كان للاستهلاك – أى لينفقه المدين على حاجاته الضرورية – فإنه لا يجوز أن يرهق برد فائض عن دينه ، فحسبه أن يرد أصل الدين عند الميسرة . وإن كان للإنتاج ، فالأصل أن الجهد الذى يبذله هو الذى ينال عليه الربح ، لا المال الذى يستدينه . فالمال لا يربح إلا بالجهد ، والجهد هو المعول عليه فى الإسلام . لذلك يحرم الربا فى جميع الأحوال ، ويحتم إقراض المستقرض لضروراته فى جميع الأحوال » . (١)

فأما إذا شاء صاحب المال أن ينتفع باشتراك رأس ماله مع جهد المستدين فى الربح ، فإن الإسلام لا يأبى عليه هذا ؛ ولا يحرمه أن يكون لرأس ماله نصيب من الربح – حين يربح –

(١) عن كتاب العدالة الاجتماعية فى الإسلام للمؤلف ص ١٢١ – ص ١٢٣ .

باعتبار أنه هو كسب ماله هذا بجهد ، فمن حق هـذا الجهد أن ينال نصيبا من الربح حين يسلمه إلى آخر ليعمل فيه . ولـكن الإسلام يشترط فى هذه الحالة صورة من صور المشاركة فى العمل بين صاحب الجهد الأول ـ أى رأس المال ـ وصاحب الجهد الثانى ، فيشتركان معاً فى الربح وفى الخسارة . بحيث لا يكون رأس المال هو الرابح دائماً ، سواء ربحت العملية أم خسرت .

وكثيراً ما نسمع ـ فى هـذه الأيام ـ أن الربا ضرورة اقتصادية لا مفر منها ، لأن النظام الاقتصادى العالمى كله قائم عليها ، وهى الوسيلة الوحيدة لتمويل المشروعات الـكبرى ، عن طريق البنوك ، التى لا بد أن تعطى المودعين فوائد ثابتة ، وأن تأخذ هى من المستقرضين فوائد ثابتة كذلك كى يمكن أن تقوم .

« فلنفرض أن الدولة سنت تشريعا يلغى فوائد المال الثابتة فى البنوك والشركات والمشروعات العامة والاستقراضات الشخصية ، فما الذى يقع حينذاك ؟

« يقع أن أصحاب رؤوس الأموال لا يجدون أمامهم لتنمية أموالهم إلا طريقين عامين : الأول أن يستثمروها بأنفسهم فى صناعة أو تجارة أو زراعة . والثانى أن يستثمروها فى شركات مساهمة تربح أسهمها أو تخسر . وكلا الطريقين يقرهما الإسلام ، ولا تخسر بهما الحياة الاقتصادية شيئاً .

« ولـكن قد يخشى أن يحجم المولون من إيداع أموالهم فى البنوك . وهـذه البنوك هى التى تمول المشروعات الضخمة فى الغالب . وهذا خطر وهمى ، نراه مجسما لأننا لا نرى إلا الطرق الأوربية فى استخدام المال .. فهناك أولا الميل الفطرى إلى تنمية المال ، وهو لا ينمو إلا باستغلاله على وجه من الوجوه . وهذا الميل الفطرى ضمان لعدم حبس رأس المال » (١)

وهكذا نرى أن شـناعة العملية الربوية ليست ضرورة من ضرورات الحياة الاقتصادية . وأن الإنسانية التى انحرفت عن النهج قديماً حتى ردها الإسلام إليه بثورته الروحية والاقتصادية ، هى الإنسانية التى تنحرف اليوم الانحراف ذاته ، ولا تفىء إلى النهج القويم الرحيم السليم .

فلننظر كيف كانت ثورة الإسـلام على تلك الشناعة التى ينفر منها طبع الإنسان ، متى استقام !

* * *

---

(١) المصدر السابق ص ٢٦٤ ، ص ٢٦٥ .

« الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس . ذلك بأنهم قالوا : إنما البيع مثل الربا . وأحل الله البيع وحرم الربا » .

إنها الحملة المفزعة ، والتصوير المرعب : « لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس » . . وما كان أى تهديد معنوى ليبلغ إلى الحس ما تبلغه هذه الصورة المجسمة: صورة المصروع الممسوس المعروفة بين الجماهير . والنص يعتمد على أنها معروفة ، فلا يزيد على أن يقول « يتخبطه الشيطان » .. أما المعانى التى ترمز إليها هذه الصورة المتحركة بتلك الحركة العنيفة فإنها لا تخطر للذهن إلا بعد فترة تأمل ، يخلص فيها الحس من الفزع الذى يلقيه التصوير المجسم المحسوس ! فهذا الفزع هو المقصود أولا بالتعبير على طريقة التصوير . هو المقصود ليستجيش مشاعر المرابين ، فيخرجها من مألوف العادة فى النظام الاقتصادى ، ومن المصلحة المادية التى يحققها لهم هذا النظام . وهذا الخروج فى حاجة إلى هزة عصبية عنيفة !

ولقد مضت معظم التفاسير على أن المقصود بالقيام فى هذه الصورة المفزعة ، هو القيام يوم القيامة ، على أن هذه الصورة تكاد تكون واقعة فى هذه الدنيا . .

إن جنون المرابى بالمال ، ووساوسه التى تساور نفسه فى كل لحظة من الحرص عليه ، وهواجسه حول العمليات الربوية التى يقوم بها ، لقريبة من المس عند الكثيرين ممن نعرفهم من المرابين !

فأما فى العالم الذى يصبح الربا أساس اقتصادياته ، فلقد شهدت البشرية ما هو أعنف من المس والتخبط . . شهدت الحروب التى تكاد تنشأ نشأة مباشرة من النظام الربوى . وهى نوع من المس والتخبط . فإنه لكى تستطيع بيوت المال أن تدفع فائدة للمودعين وتضاعف هى أرباحها ، فإنها تسعى فى أن تعقد قروضا للحكومات وللشركات كذلك . ثم تتبع هذه الخطوة بخطوة استعمارية لضمان رؤوس الأموال المستخدمة فى بعض الأقطار .. والاستعمار طريق من طرق الحرب المباشرة ! .. ثم إنها كثيرا ما تسعى لإثارة الحروب لأن الحرب تحتاج إلى استهلاك مفرقعات وما يشبه المفرقعات من المواد الهالكة ؛ وهذا يهيىء الجو لرؤوس الأموال المكدسة فى بيوت المال أن تعمل وتربح ، والبشرية كلها تذوق الويلات ! .. وألف باب وباب يؤدى بالبشرية إلى التخبط والدمار ، وهى تسير فى طريق الربا ، يقودها الشيطان أو يتخبطها الشيطان !

ولقد اعترض المرابون — فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم — على تحريم الربا . اعترضوا على هذا التحريم بحجة أن هذا البيع الذى يعده الإسلام حلالا ، هو عملية كعملية الربا : « ذلك بأنهم قالوا : إنما البيع مثل الربا » ذلك أنه يحقق ربحاً للتاجر ، لأنه يشترى بأرخص ويبيع بأغلى ! وهى مغالطة واضحة. فالعملية التجارية قابلة للربح والخسارة ؛ والمهارة الشخصية والجهد الشخصى هما مناط الربح والخسارة . وما كان هـذا الاحتجاج إلا صورة من صور الاعتراض المنبعث من المصلحة الشخصية : « وأحل الله البيع » لانتفاء السبب الكامن فى الربا « وحرم الربا » .

« فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى ، فله ما سلف وأمره إلى الله »

والموعظة قد جاءت بالفعل فى هذا التشريع للجميع . فما المقصود من قوله : « فمن جاءه موعظة من ربه » ؟ إن المقصود: فمن بلغت هذه الموعظة إلى قلبه ، فوعاها وانتفع بها « فانتهى » « فله ما سلف » مما أكل من ربا . ولم يرد الإسلام أن يحدث هزة اقتصادية واجتماعية فجعل التشريع للمستقبل ، ولم يجعل له أثراً رجعيا . وهى قاعدة تشريعية أساسية سبقت بها الشريعة الإسلامية التفكير التشريعى الحديث، وقررتها فى كل نواحى التشريع .

« ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » .

ولعل كثيرين يغريهم طول الأمد وجهل الموعد ، فيبعدون من حسابهم حساب الآخرة ! فها هو ذا السياق ينذر بالمحق للربا فى الدنيا والآخرة جميعا ، ويبشر بأن الصدقات هى التى تربو وتزكو :

« يمحق الله الربا ويربى الصدقات »

ويصم من يأكل الربا بعد تحريمه بالكفر والإثم ، وينذره بكراهية الله سبحانه له ، وبغضه وعداوته :

« والله لا يحب كل كفار أثيم » .

وفى الصفحة المقابلة للتهديد والإنذار ، يعرض السياق صفحة أخرى للحض والتبشير . صفحة رضية رخية كلها أمن وكلها اطمئنان :

« إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ، لهم أجرهم عند ربهم، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون »

والعنصر البارز فى هذه الصفحة هو عنصر « الزكاة » . عنصر البذل بلا عوض ولا رد . والسياق يحيطه بصفات الإيمان ، والعمل الصالح ، وإقامة الصلاة ، لأنها العناصر التى تتسق معه فى النفس المؤمنة ، وتؤلف هذه الصفحة الرضيه المقابلة لصفحة الربا الـكالحة ، وترتب عليه الأمن بلا خوف ، والسـعادة بلا حزن ، جزاء وفاقا للواهبين الباذلين ، فى مقابل التهديد والـكره للمرابين المستغلين !

ومن ثم ينتقل السياق من أسلوب العرض للصفحتين المتقابلتين إلى أسلوب الخطاب المباشر للذين آمنوا ، والتهديد المباشر لمن لا يذرون الربا ؛ التهديد الذى تفزع له كل نفس بشرية ، تجد نفسها أمام حرب من الله ورسوله . حرب رهيبة معروفة المصـير مقررة العاقبة . فأين الإنسان الضعيف الفانى من تلك القوة العاتية الجبارة التى تسحق وتمحق ؟

« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ، وذروا ما بقى من الربا . إن كنتم مؤمنين . فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله » .

يا للهول ! وإذن فهى التقوى والخوف اللذان ينجيان . « اتقوا الله » وهى الهزة العنيفـة للضمير . « إن كنتم مؤمنين » فما يعيش الإيمان والربا فى قلب واحد . فإما أن يكون إيمان فهو الخوف من الله واتقاء وعيده وتجنب حربه . وإما أن لا يكون ، فهى الحرب إذن من الله ورسوله للكافرين .

« وإن تبتم فلـكم رؤوس أموالـكم لا تظلمون ولا تظلمون »

فهى التوبة إذن عن خطيئة وقعت ، لا عن مجرد نظام كان متبعاً فألغى . إنها خطيئة من خطيئات الجاهلية كبقية الخطايا التى نهاهم الإسلام عنها . وهى خطيئة نفسية وخطيئة اجتماعية فى كل وقت وفى كل مكان . خطيئـة تنتج آ ثارها فى مشاعر الأفراد وفى أخلاقهم وفى تصورهم للحياة ؛ وتنتج آثارها فى حياة الجماعة وعلاقاتها الاجتماعية ؛ وتنتج آ ثارها فى حياة الإنسانية كلها على النحو الذى أسلفنا .

واسترداد رأس المال مجردا عدالة لا تظلم الدائن ولا المدين .مالم تكن المشاركة ـ فى صورة من الصور ـ فتكون المقاسمة فى الربح والخسارة ، وهى عدل كذلك لا يأباه الإسلام .

« وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة »

ذلك أن إبطال الربا يفقد شطراً من حكمتـه ، إذا كان الدائن سيروح يضايق المدين ،

ويشدد عليه الخناق ، وهو معسر لايملك السداد . فهنا كان الأمر ـ فى صورة شرط وجواب ـ بالانتظار عليه حتى يوسر ويقدر على الوفاء . وكان بجانبه التحبيب فى التصدق بهذا الدين كله أو بعضه عند الإعسار :

« وأن تصدقوا خير لكم . إن كنتم تعلمون »

وكان التعقيب على هذا كله بالدعوة إلى اتقاء اليوم الذى يرجعون فيه إلى الله ؛ يوم التوفية الكبرى على كل ما كسبت الأيدى والنفوس فى هذه الحياة ، حيث لا ظلم ولا محاباة :

« واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ؛ ثم توفى كل نفس ما كسبت ، وهم لا يظلمون »

وهو تعقيب يتناسق مع جو المعاملات . جو الأخذ والعطاء . جو الكسب والجزاء . إنه التصفية الكبرى للماضى جميعه بكل ما فيه . والقضاء الأخير فى الماضى بين كل من فيه . فلتكن تقواه ملحوظة فى كل عملية تتم فى هذه الحياة ...

« يَـٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ؛ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ؛ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ ـ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللهُ ـ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ ؛ وَلْيَتَّقِ ٱللهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا ، فَإِنْ كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا ، أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ . وَٱسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ ، فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَاءِ ، أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا ٱلْأُخْرَى ؛ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا ؛ وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ ـ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا ـ إِلَى أَجَلِهِ . ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ ٱللهِ ، وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ ، وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا . إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ ، فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ؛ وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ ؛ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ؛ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ ؛ وَٱتَّقُوا ٱللهَ ، وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللهُ ، وَٱللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ ، وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ

مَقْبُوضَةٌ ؛ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضاً فَلْيُؤَدِّ الَّذِى اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ ، وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ ؛ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ؛ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ * لِلَّهِ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ ، وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِى أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ ، فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ » .

والآن إلى أحكام الدَّين : القرض الحسن بلا ربا ولا فائدة . وأحكام المعاملات التجارية الحاضرة: التجارة الحلال المبرأة من الربا .

وإن الإنسان ليقف فى عجب وإعجاب لطريقة التشريع القرآنية : حيث تتجلى الدقة العجيبة فى الصياغة حتى ما يبدل لفظ بلفظ ، ولا يقدم نص أو يؤخر عن موضعه . وحيث لا تطغى هـذه الدقة فى تأدية الأغراض التشريعية على طلاوة التعبير وعذوبته . وحيث يربط التشريع بالوجدان الدينى ربطا لطيف المدخل دون الإخلال بترابط النص من ناحية الدلالة القانونية . وحيث يلحظ كل المؤثرات المحتملة فى موقف أى من الطرفين ، فينفى هذه المؤثرات كلها احتفاظا بسلامة التعاقد. وحيث لا ينتقل من نص إلى نص إلا وقد استوفى النقطة التشريعية بحيث لا يعود إليها إلا حيث يقع ارتباط بين موضوع وموضوع يقتضى الإشارة الرابطة بينهما .

إن الإعجاز فى صياغة آيات التشريع هنا لهو الإعجاز فى صياغة آيات الإيحاء والتصوير ، بل هو أوضح وأقوى ، لأن الغرض هنا دقيق ، ولولا الإعجاز ما حقق الدقة المطلقة والجمال الفنى المطلق هذا التحقيق .

ذلك كله فوق سبق التشريع الإسلامى بهذه المبادىء للتشريع المدنى بحوالى عشرة قرون ، كما يعترف بذلك الفقهاء المحدثون .

* * *

« يأيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه » .

ذلك هو المبدأ العام الذى يريد تقريره . فالكتابة أمر مفروض بالنص غير متروكة للاختيار

فى الدين لأجل ، لحكمة سيأتى بيانها فى نهاية النص .

« وليكتب بينكم كاتب بالعدل » .

وذلك تحديد للشخص الذى يقوم بالكتابة ، فهو كاتب، وليس أحد المتعاقدين . وحكمة استدعاء ثالث ليكتب ، هى الاحتياط والحيدة المطلقة . وهذا الكاتب لابد أن يكتب بالعدل فلا يميل مع أحد الطرفين ، ولا ينقص أو يزيد فى النصوص .

« ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله » .

فالتكليف هنا من الله ـ بالقياس إلى الكاتب ـ كى لا يتأخر ولا يأبى ولا يثقل العمل على نفسه . فتلك فريضة إلهية بنص التشريع ، حسابه فيها على الله . وهى وفاء لفضل الله عليه إذ علمه كيف يكتب « فليكتب» كما علمه الله .

وهنا يكون الشارع قد انتهى من تقرير مبدأ الكتابة فى الدين ، ومن تعيين من يتولى الكتابة ، ومن تكليفه بأن يكتب ، ومع التكليف ذلك التذكير اللطيف بنعمة الله عليه ، وذلك الإيحاء بأن يلتزم العدل كما علمه الله .. وهنا ينتقل إلى فقرة تالية يبين فيها كيف يكتب :

« وليملل الذى عليه الحق . فإن كان الذى عليه الحق سفيها أو ضعيفا ، أو لا يستطيع أن يمل هو ، فليملل وليه بالعدل » .

إن المدين ـ الذى عليه الحق ـ هو الذى يملى على الكاتب اعترافه بالدين وقدر الدين ، وشرطه وأجله . . . ذلك خيفة أن يقع الغبن على المدين لو أملى الدائن فزاد فى الدين ، أو قرب فى الأجل ، أو ذكر شروطا معينة فى مصلحته ، والمدين فى موقف ضعيف قد لا يملك معه المعارضة فيقع عليه الغبن . فإذا كان المدين هو الذى يملى لم يمل إلا ما يريد الارتباط به عن طيب خاطر، ودون استحياء وموافقة على غير رضى . فإذا كان سفيها أو ضعيفا أولا يستطيع أن يمل هو لسبب آخر من الأسباب المختلفة الحسية أو العقلية فليملل ولى أمره القيم عليه . . « بالعدل » كذلك . والعدل يذكر هنا لزيادة الدقة ؛ فربما تهاون الولى ولو قليلا ، لأن الدين لا يخصه شخصيا .

وبذلك ينتهى الكلام عن الكتابة من جميع نواحيها ، فينتقل الشارع إلى نقطة أخرى فى العقد . نقطة الشهادة :

« واستشهدوا شهيدين من رجالكم ، فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون

من الشهداء . أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى » .

إنه لا بد من شاهدين على العقد . ولكن ظروفا معينة قد لا تجعل وجود شاهدين أمرا ميسورا . فهنا ييسر التشريع فيستدعى النساء للشهادة . وهو إنما دعا الرجال لأنهم هم الذين يزاولون الأعمال عادة ، وهم الأخبر بالمعاملات المدنية غالبا . فأما حين لا يوجد اثنان فليكن رجل واحد وامرأتان . ولكن لماذا امرأتان ! إن النص لا يدعنا للتخمين . ففى مجال التشريع يكون كل نص محددا واضحا معللا . « أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى » وإذن فهو خوف النسيان أو الضلال أى الخطأ فى إدراك موضوع العقد إذا قام نزاع . فإذا حدث هذا من واحدة ذكرتها الثانية فتذكرت .. ذلك أن المرأة عادة بعيدة عن هذه الموضوعات المدنية مشغولة بسواها . فلا بد من هذا الاحتياط عند الاستشهاد بها فيها . وربما كان الأمر كذلك متعلقا بشدة تأثر المرأة بانفعالاتها — نظرا لأن وظيفة الأمومة تقتضى أن تكون المرأة شديدة الاستجابة الوجدانية الانفعالية ، فتنمو فيها هذه الناحية ، بينما الشهادة فى حاجة إلى تجرد كبير من الانفعال ، ووقوف عند الوقائع بلا تأثر ولا إيحاء . ووجود امرأتين فيه ضمانة أن تذكر إحداهما الأخرى — إذا انحرفت مع أى انفعال ، فتتذكر وتفىء إلى الوقائع فى ذاتها .

وكما وجه الخطاب فى أول النص إلى الكتاب ألا يأبوا الكتابة ، يوجهه هنا إلى الشهداء ألا يأبوا الشهادة .

« ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا » .

فتلبية الدعوة إلى الشهادة إذن فريضة وليست تطوعا . فهى وسيلة لإقامة العدل وإحقاق الحق . ووسيلة المفروض مفروضة كذلك . لأن الفرض لا يقوم إلا بها . والله هو الذى يفرضها هنا كى يلبيها الشهداء عن طواعية تلبية وجدانية بدون تضرر ، وبدون تفضل على المتعاقدين أو على أحدهما إذا كانت الدعوة من أحدهما أو كليهما .

وهنا ينتهى الكلام عن الشهادة ، فينتقل الشارع إلى غرض آخر . غرض عام للتشريع . يؤكد ضرورة الكتابة سواء كبر الدين أم صغر . ويعالج ما قد يخطر للنفس من استثقال الكتابة وتكاليفها بحجة أن الدين صغير لا يستحق . ثم يعلل تشديده فى وجوب الكتابة تعليلا وجدانيا وتعليلا عمليا :

« ولا تسأموا أن تكتبوه ـ صغيرا أو كبيرا ـ إلى أجله . ذلكم أقسط عند الله ، وأقوم للشهادة ، وأدنى ألا ترتابوا » .

لا تسأموا .. فهو إدراك لانفعالات النفس الإنسانية حين تحس أن تكاليف العمل أضخم من قيمته. ذلكم أقسط عند الله : أعدل وأفضل. وهو إيحاء وجدانى بأن الله يحب هذا ويؤثره.. وأقوم للشهادة فالشهادة على شيء مكتوب أقوم من الشهادة الشفوية ، لأن الذاكرة تضل وتنسى ؛ وشهادة رجلين أو رجل وامرأتين أقوم كذلك للشهادة وأصح من شهادة الواحد ، أو الواحد والواحدة .. وأدنى ألا ترتابوا . ألا ترتابوا فى صحة البيانات التى حواها العقد ، وألا ترتابوا فى أنفسكم أو فى سواكم إذا ترك الأمر بلا قيد .

وهكذا تنكشف حكمة هذه الإجراءات كلها ، ويقتنع المتعاملون بضرورة هذا التشريع ودقة أهدافه وصحة إجراءاته . وأنها ليست مجرد تحكم قانونى لا يحمل وراءه غرضا ..

ذلك شأن الدين المسمى . أما التجارة الحاضرة فهى مستثناة من قيد الكتابة ، وتكفى فيها شهادة الشهود ، تيسيرا للعمليات التجارية ، التى يعرقلها التعقيد ، والتى تتم فى سرعة وتتكرر فى أوقات قصيرة . لأن الإسلام وهو يشرع للحياة كلها قد راعى كل ملابساتها ، وكان شريعة عملية لا تعقيد فيها ولا تعويق لجريان الحياة فى مجراها :

« إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم ، فليس عليكم جناح ألا تكتبوها وأشهدوا إذا تبايعتم » .. ويلاحظ أن الإعفاء من الكتابة رخصة لا جناح فيها .

والآن وقد انتهى تشريع الدين المسمى ، والتجارة الحاضرة ؛ والتقى كلاهما عند شرطى الكتابة والشهادة ، فإنه يقرر حقوق الكتاب والشهداء كما قرر واجباتهم . لقد أوجب عليهم ألا يأبوا الكتابة أو الشهادة فالآن يوجب لهم الحماية والرعاية ، ليتوازن الحق والواجب فى أداء التكاليف العامة :

« ولا يضار كاتب ولا شهيد. وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم » .

لا يقع ضرر على كاتب أو شهيد بسبب أدائه لواجبه الذى فرضه الله عليه . وإذا وقع فإنه يكون خروجا منكم عن شريعة الله ومخالفة عن طريقه . وهو احتياط لا بد منه ، لأن الكتاب والشهداء معرضون لسخط أحد الفريقين المتعاقدين فى أحيان كثيرة ؛ فلا بد

من تمتعهم بالضمانات التى تطمئنهم على أنفسهم ، وتشجعهم على أداء واجبهم بالذمة والأمانة والرضى فى كل آن .

ثم - وعلى عادة القرآن فى إيقاظ الضمير واستجاشة الشعور كلما هم بالتكاليف ، ليستمد التكليف دفعته من داخل النفس ، لا من ضغط النص - يدعو المؤمنين إلى تقوى الله فى النهاية، ويذكرهم بأن الله هو المتفضل عليهم ، وهو الذى يعلمهم ويرشدهم ، ليقوموا بحق هذا الإنعام بالطاعة والرضى والإذعان :

« واتقوا الله ، ويعلمكم الله،والله بكل شىء عليم » .

ثم يعود المشرع إلى تكملة فى أحكام الدين ، أخرها فى النص لأنها ذات ظروف خاصة . فلم يذكرها هنالك فى النص العام . ذلك حين يكون المتعاملان على سفر ، فلا يجدان كاتبا . فتيسيرا للتعامل ، مع ضمانات الوفاء ، رخص الشارع فى التعاقد الشفوى بلا كتابة ، مع تسليم رهن ضامن للدين :

« وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتبا فرهان مقبوضة » .

وهنا يستجيش الشارع ضمائر المؤمنين للأمانة والوفاء بدافع من تقوى بالله . فذلك هو الضمان الأخير لتنفيذ التشريع كله ، ولرد الأموال والرهائن إلى أصحابها ، والمحافظة التامة عليها :

« فإن أمن بعضكم بعضا فليؤد الذى اؤتمن أمانته ، وليتق الله ربه » .

وفى ظل هذه الاستجاشة يتم الحديث عن الشهادة - عند التقاضى فى هذه المرة لا عند التعاقد . لأنها أمانة فى عنق الشاهد وضميره :

« ولا تكتموا الشهادة ، ومن يكتمها فإنه آثم قلبه » .

ويتكىء التعبير هنا على القلب،فينسب إليه الإثم، تنسيقا بين الإضمار للإثم والكتمان للشهادة ؛ وكلاهما عمل يتم فى عالم الضمير . ويعقب عليه بتهديد خفى بأن ليس هناك خاف على الله :

« والله بما تعملون عليم » .

ثم يستمر السياق فى توكيد هذه الإشارة ، وتفصيل هذا المعنى :

« لله ما فى السماوات وما فى الأرض ؛ وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله ،

فيغفر لمن يشاء ، ويعذب من يشاء ، والله على كل شىء قدير »

وهكذا يعقب على التشريع المدنى البحت بذلك التوجيه الوجدانى البحت ، ويربط بين تشريعات الأرض وتوجيهات السماء فى القلب البشرى بذلك الرباط الوثيق ، المؤلف من الخوف والرجاء فى خالق الأرض والسماء .

« آمَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ؛ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ، لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ؛ وَقَالُوا : سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ، غُفْرَانَكَ رَبَّنَا ، وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ * لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ، لَهَا مَا كَسَبَتْ ، وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ . رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ، رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا ، رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ، وَاعْفُ عَنَّا ، وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ، أَنْتَ مَوْلَانَا ، فَانْصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَافِرِينَ » .

« آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون »

إنها لفتة عجيبة شيئاما . فما كان يجول فى الخاطر أن إيمان الرسول بما أنزل إليه يحتاج إلى ذكر ، كالبديهيات التى لا يلتفت إليها العقل لأنها بديهيات . وما كان الرسول يستطيع أن يدعو الناس إلى شىء لم يؤمن به ، فدعوته ذاتها تؤدى هذا المعنى أبلغ أداء .

إذن فيم عبر عن البديهية التى لم يجل عكسها فى الأذهان ؟

أحسب أن ذكرها هنا ذو وقع عظيم فى نفوس المؤمنين .. أن يجدوا الله سبحانه وتعالى يصفهم بما يصف به الرسول — صلى الله عليه وسلم — ويقفهم معه مرة فى صف واحد فى ميدان الإيمان !

ثم يمضى السياق فيؤكد هذا الإيحاء ، ويكشف عن نوع الإيمان :

« كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا نفرق بين أحد من رسله ، وقالوا : سمعنا وأطعنا ، غفرانك ربنا وإليك المصير » .

إنها الوحدة الكبرى . طابع العقيدة الإسلامية الخاص . والإيمان بسائر الكتب والرسل ، بلا تفريق بين الرسل . والسمع والطاعة والإنابة إلى الله ، واليقين بيوم الحساب .

إنه الإسلام العقيدة اللائقة بأن تكون ختام العقائد وآخر الرسالات. العقيدة التي تصور خط الهداية المتصل الواصل بأيدى رسل الله جميعا . المتدرج بالبشرية فى مراقى الصعود ، الكاشف لها عن الناموس الخالد بقدر ما تطيق . حتى يأتى الإسلام ، فيعلن وحدة الناموس كاملة ، ويدع للعقل البشرى التفصيل والتطبيق .

ثم هى العقيدة التى تعترف بالإنسان إنساناً ، لا حيواناً ولا ملكا ولا شيطانا . تعترف به كما هو بكل ما فيه من ضعف وكل ما فيه من قوة ، وتأخذه وحدة مؤلفة من جسد ذى نوازع ، وعقل ذى تقدير ، وروح ذى أشواق؛ وتفرض عليه من التكاليف ما يطيق ، وتراعى التنسيق بين التكاليف والطاقة بلا مشقة ولا إعنات . ثم تحمل الإنسان بعد ذلك تبعة اختياره للطريق الذى يختار :

« لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت »

ومن ثم ينطلق الدعاء الخافق الواجف أن يخفف الله عن تلك النفس مالا تطيق . وتنتهى السورة بهذا الدعاء : رجاء فى التجاوز عن الخطأ والنسيان ، وفى تخفيف التكاليف والآصار ، وفى العفو والمغفرة والرحمة والنصر على الكفار :

« ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا . ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا . ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به ، واعف عنا ، واغفر لنا ، وارحمنا ، أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين » .

***

وبعد فهذا ختام سورة البقرة . السورة التى بدأت بقوله تعالى : « ألم : ذلك الكتاب لا ريب فيه ، هدى للمتقين . الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون » لتنتهى بقوله تعالى :

« آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون ، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله ، وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير » .. وهو ختام يتناسق مع البدء كأنهما دفتا كتاب !

وهى السورة التى حوت الكثير من تكاليف الأمة المسلمة ، وتشريعاتها فى شتى شؤون الحياة .. وفى ختامها يجىء ذلك النص المفصح عن الحد الفاصل بين النهوض بالتكاليف والنكول عن أدائها ؛ ويسجل أن الله لا يريد إعنات هذه الأمة ولا إثقالها : « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ، لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت »

وهى السورة التى ورد فيها بعض قصص بنى إسرائيل ، وما أنعم الله به عليهم من فضل ، وما قابلوا به هذا الفضل من جحود ؛ وما كلفهم به الله من كفارات بلغ بعضها حتى القتل : « فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم » .. وفى ختامها يرد ذلك الدعاء الخاشع من المؤمنين : « ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ، ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ، واعف عنا ، واغفر لنا ، وارحمنا . أنت مولانا ، فانصرنا على القوم الكافرين »

وأخيرا فهى السورة التى بدأت بعرض نماذج للنفس المؤمنة والنفس الكافرة والنفس المنافقة. وهى تنتهى بدعاء النفوس المؤمنة الإيمان كله ، الإيمان الخالص لوجه الله ، لا رياء فيه ولا نفاق .. دعاء هذه النفوس بالنصر « على القوم الكافرين »

انه التوافق المطلق الدقيق بين البدء والختام منسقا أبدع تنسيق ،

سورة آل عمران مدنية
وآياتها ٢٠٠ نزلت بعد الأنفال

بسم الله الرحمن الرحيم

« الم * اللهُ لا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ * نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ * مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ ، وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ . إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ؛ وَاللهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ * إِنَّ اللهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ * هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ ، لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ ، مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ؛ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ، وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ ـ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ ، كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا ـ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ * رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ؛ وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ * رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ .

« إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ ٱللهِ شَيْئًا ؛ وَأُولَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ * كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ، فَأَخَذَهُمُ ٱللهُ بِذُنُوبِهِمْ ، وَٱللهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ .

« قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ * قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ، فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ ، يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ ؛ وَٱللهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ . إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي ٱلْأَبْصَارِ .

« زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَاتِ مِنَ ٱلنِّسَاءِ وَٱلْبَنِينَ ، وَٱلْقَنَاطِيرِ ٱلْمُقَنْطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ ، وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ ، وَٱلْأَنْعَامِ وَٱلْحَرْثِ . ذَٰلِكَ مَتَاعُ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا ، وَٱللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ ٱلْمَآبِ * قُلْ : أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَٰلِكُمْ ؟ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ ، خَالِدِينَ فِيهَا ، وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ ، وَرِضْوَانٌ مِنَ ٱللهِ ، وَٱللهُ بَصِيرٌ بِٱلْعِبَادِ * ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ : رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ * ٱلصَّابِرِينَ وَٱلصَّادِقِينَ وَٱلْقَانِتِينَ وَٱلْمُنْفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ .

« شَهِدَ ٱللهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ، وَٱلْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا ٱلْعِلْمِ ، قَائِمًا بِٱلْقِسْطِ ، لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ * إِنَّ ٱلدِّينَ عِنْدَ ٱللهِ ٱلْإِسْلَامُ ؛ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ـ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ـ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ ٱللهِ فَإِنَّ ٱللهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ * فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ؛ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ وَٱلْأُمِّيِّينَ : أَأَسْلَمْتُمْ ؟ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ ٱهْتَدَوْا ؛ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَاغُ ، وَٱللهُ بَصِيرٌ بِٱلْعِبَادِ .

« إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ ٱللَّهِ ، وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ ، وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ .

« أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ ٱلْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ، ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ * ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا : لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ ؛ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ * فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ؟

« قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ ، تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ ، وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ ، وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ ، وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ ، بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ؛ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ؛ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ .

« لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ؛ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيْءٍ — إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً — وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُ ؛ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ * قُلْ : إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ، وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ، وَٱللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً ؛ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُ ، وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ .

« قُلْ : إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

« قُلْ : أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ . فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ »

فى هـذا الدرس الأول من سورة « آل عمران » نجدنا أمام إيقاعات متنوعة حول عقيدة التوحيد. التوحيد فى شتى معانيه وصوره . توحيد الله الذى : «لا إله إلا هو الحى القيوم» وتوحيد الدين : « نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان » . وتوحيد معنى الدين : « إن الدين عند الله الإسلام » .. « فإن حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن » .

كذلك نجدنا أمام إيقاعات وجدانية نابعة من تلك العقيدة ، ممثلة مرة فى تصوير علم الله الكامل : « لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء » . ومرة فى لمس الوجدان فى أعماقه: « هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء » . ومرة فى ابتهال إلى الله الذى بيده كل شىء : « قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء ، ، وتعز من تشاء وتذل من تشاء ، بيدك الخير إنك على كل شىء قدير ، تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل ، وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى ، وترزق من تشاء بغير حساب » .

وفى هـذا السياق نجد التحذيرات من فتنة الشهوات ، ومن فتنـة الهوى ، ومن فتنة القوة ، ومن فتنة الكفار : « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث »... « فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ، ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ... » .. « قد كان لكم آية فى فئتين التقتا فئة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأى العين والله يؤيد بنصره من يشـاء ... » .. « لا يتخذ المؤمنون الكافرين أوليـاء من دون المؤمنين . ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء ... »

وهكذا نجدنا أمام إيقاعات تتناول العقيدة من جوانب شتى ، وتؤلف من مجموعها لحناً واحداً يمس أوتار القلب البشرى ، فيوقظه ، ويوحى إليه ، ويوجهه فى النهاية إلى الله ، وإلى دين الله الواحد ، الذى انتهى إلى صورته الأخيرة فى الإسلام ، الذى جاء به محمد من عند الله ، مصدقا لما بين يديه من التوراة والإنجيل .. فلنأخذ فى شىء من التفصيل .

***

« ألم . الله لا إله إلا هو الحى القيوم . نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه ،

وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس ، وأنزل الفرقان »

سبق فى تفسير مطلع سورة البقرة ، تسجيل الرأى الذى نرتضيه فى تفسير هذه المطالع من الحروف : « ألف . لام . ميم » وما إليها .. وهذا التفسير يسير معنا هنا فى مطلع آل عمران بطريقة أخرى . فإنه لم ينص هنا صراحة على أن : « ألف . لام . ميم » هى الكتاب – أى من الجنس الذى بنى منه لفظ هذا الكتاب وعباراته – ولكن أشير إلى هذا المعنى إشارة تالية فى قوله : « نزل عليك الكتاب بالحق » .

ولما كان جو هذه السورة كلها جو توجيه إلى العقيدة ، وبيان لها ،وجدل حولها مع أهل الكتاب ، وتثبيت للمسلمين عليها مهما يمسهم من قرح ، أو يصبهم من فتنة .. فقد جاء بدؤها إيذانا بهذا الجو السائدفيها : « الله لا إله إلا هوالحى القيوم » كما جاء ختامها : « ياأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » .

« الله لا إله إلا هو » ذلك هو الأصل الكبير الذى تلتقى عنده الرسالات كلها ، والذى يوقع سياق هذه السورة شتى الإيقاعات حوله ، لينتهى منها إلى وحدة ذلك الأصل فى الديانات جميعا .

« الحى القيوم » .. الحى الحياة الذاتية التى لا تستمد من مصدر ، الأزلية التى لم تبدأ بعد عدم ، الأبدية التى لا تنتهى إلى أجل .. القيوم الذى يقوم به غيره ، ويستمد منه ، ويفتقر إليه . وهما صفتان لازمتان للوحدانية الأولى . ولكنهما تذكران هنا لأن السياق يتجه إلى توحيد الإله ، وتوحيد الاتجاه ، وتوحيد المصدر الذى تستمد منه الرسالات ، والأنبياء ، وتقوم به الحياة والأحياء .

« نزّل عليك الكتاب بالحق » .. فالحق أساسه وقوامه ومادته وغايته . الحق فى العقيدة بوحدانية الخالق . والحق فى إعلان الناموس الواحد . والحق فى تصور الوجود والحياة. والحق فى الشريعة والنظام . والحق فى المعاملة والسلوك .. وبالجملة فهو الحق المطلق الذى لا يتجزأ ولا يتحول . فهو الحق الواحد الثابت الذى لا يحتاج إلى وصف ولا إلى إضافة أو تخصيص .

« مصدقا لما بين يديه » .. هذا الكتاب الذى نزل بالحق يصدق ما بين يديه من الديانات التى سبقته وامتدت إلى زمانه . يصدقها فى أصولها ، فهى صورة من صور الحق ، جاء بها الرسل مناسبة لزمانها ، محققة لأغراضها فى ذلك الزمان ؛ وكلما تغيرت الحاجة جاء طور من

الديانة جديد . يتفق فى أصله ويختلف فى فروعه تدرجا مع الحاجات . مع تصديق اللاحق للسابق فى أصل الوحدانية الكبير .

« وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان » .. فهى كلها من مصدر واحد : التوراة والإنجيل والقرآن الذى يفرق بين الحق والباطل . فرقا نهائيا أخيرا . وهى كلها هدى للناس . ذات هدف واحد كما أنها ذات أصل واحد ومصدر واحد .

« إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد ، والله عزيز ذو انتقام » .

إن الذين كفروا جميعا ، الذين كفروا بأية رسالة فى حينها ، الذين لم يؤمنوا أصلا ، أو الذين لم يؤمنوا بالصورة الأخيرة من الدين الواحد ، حينما جاءت هذه الصورة الجديدة على يدى رسول جديد ، اتباعا لسنة الله التى اقتضت الكشف حينا بعد حين عن صورة بعد صورة من الدين الإلهى الواحد الخالد على مر الدهور .. « لهم عذاب شديد .. والله عزيز » قادر لا يغلبه أحد « ذو انتقام » لا يدع الكفار يكفرون بدينه ثم يفلتون من عقابه .

* * *

« إن الله لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء » .. وتوكيد عدم الخفاء ، خفاء « شىء » بهذا الإطلاق « فى الأرض ولا فى السماء » بهذا التعميم .. هذا التوكيد يتفق أولا مع الوحدانية والحياة والقوامة التى سلف ذكرها ؛ كما يتفق مع التهديد العنيف فى الآية السابقة ، فلن يفلت « شىء » من علم الله ، ولن يمكن التفلت إذن من الجزاء الدقيق على كل شىء ، ولا التهرب من وجه الله الذى يمتد علمه إلى كل شىء فى الأرض والسماء .

وفى سياق العلم الدقيق ، بالخفى والدقيق ، يلمس المشاعر الإنسانية لمسة رقيقة عميقة ، لأنها تتعلق بالنشأة الأولى للإنسان .

النشأة المجهولة فى ظلام الغيب وظلام الأرحام . هنالك حيث لا علم للإنسان ولا قدرة ولا إدراك :

« هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء . لا إله إلا هو العزيز الحكيم » .

هكذا « يصوركم » يمنحكم الصورة كما يشاء — ويمنحكم الخصائص المميزة التى تجعل لكم صورة

معينة بمحض إرادته . وحده « لا إله إلا هو » . « العزيز » القادر على الصنع والتصوير . « الحكيم » الذى يعرف فيم يصور ، ولم يصور ، وماذا وراء الصور والأشكال .

وحين يرتجف الحس بهذه اللمسات العميقة . حين يبلغ تصوير العلم الخفى والحكمة المطلقة إلى إرهاف المشاعر وإيقاظها .. حينئذ يتعرض السياق إلى بيان دقيق عن الكتاب الذى نزله الله بالحق ؛ بيان يتعلق بالعلم والحكمة ، ويتعلق باليقين والزيغ ، ويتعلق بالمحكم والمتشابه فى ذلك الكتاب :

« هو الذى أنزل عليك الكتاب ، منه آيات محكمات هن أم الكتاب ، وأخر متشابهات . فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ، ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله — وما يعلم تأويله إلا الله — والراسخون فى العلم يقولون آمنا به ، كل من عند ربنا ، وما يذكر إلا أولو الألباب »

هذا الكتاب الذى أنزله الله على نبيه — صلى الله عليه وسلم — هذا الفرقان الذى يفرق بين الحق والباطل ، فيه أصول دقيقة للعقيدة والشريعة ، مفهومة المدلولات ، مدركة المقاصد ، وهى أصل هذا الكتاب . وفيه سمعيات وغيبيات تشتبه مدلولاتها على التصور البشرى ، ويصعب إدراك ماهياتها وكيفياتها لأنها فوق وسائل الإدراك الذهنى ..

وهنا يختلف موقف الناس ، حسب استقامة فطرتهم وزيغها . . فأما الذين فى قلوبهم انحراف وضلال عن سواء الفطرة ، فيتركون الأصول الواضحة الدقيقة التى تقوم عليها العقيدة والشريعة ، ويجرون وراء المتشابه الذى يعول فى تصديقه على الإيمان بصدق صاحب الرسالة ، وعلى التسليم بحدود العقل البشرى وطاقته ، ثم على استقامة الفطرة التى تدرك بالإلهام المباشر صدق هذا الكتاب كله وأنه نزل بالحق جميعه . يجرون وراء هذا المتشابه لأنهم يجدون فيه مجالا للبعد به عن حقيقته ، وإيقاع الفتنة بالتأويلات المزلزلة للعقائد ، والخلافات التى تنشأ عن بلبلة الأفكار ، فيما لا مجال للفكر الإنسانى فى تأويله — وما يعلم تأويله إلا الله — فهو سبحانه الكامل العلم ، المحيط بما وراء الظاهر . .

وأما الراسخون فى العلم ، الذين بلغ من علمهم أن يعرفوا مجال العقل فيقفوا عنده ، ولا يخوضوا فيما لا يعلمون ، أما هؤلاء فيقولون : « آمنا به كل من عند ربنا » يدفعهم إلى هذا الإيمان المطلق أنه من عند ربهم ، فهو إذن حق وصدق ؛ فهم يدركون أن ربهم أعلم ، وأن

علمهم محدود ، وأنه من العلم ألا يخوض الإنسان فيما لا يعلم ، وفيما لا تؤهله وسائله وأدواته البشرية لعلمه .. وهذا تصوير صحيح للراسخين فى العلم ؛ فما يتبجح وينكر إلا السطحيون ، الذين تغرهم قشور العلم ، فيتوهمون أنهم أدركوا كل شىء ، وأن ما لم يدركوه لا وجود له ، أو يفرضون إدراكهم على الحقائق ، فلا يسمحون لها بالوجود إلا على الصورة التى أدركوها ، أما العلماء حقا فهم أكثر تواضعا ، وأقرب إلى التسليم بعجز العقل البشرى عن إدراك حقائق كثيرة ، تكبر طاقته وترتفع عليها : « وما يذكر إلا أولو الألباب »وكأنه ليس بين أولى الألباب والرجوع إلى الحق إلا أن يتذكروا فيعودوا إلى الصواب .

عندئذ تنطلق ألسنتهم وقلوبهم فى ابتهال إلى الله ، أن يثبتهم على الحق ، وألا يزيغ قلوبهم بعد الاهتداء ، وأن يسبغ عليهم رحمته وفضله . ويتذكرون يوم الجمع الذى لاريب فيه،والموعد الذى لن يخلفه الله :

« ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ، وهب لنا من لدنك رحمة ، إنك أنت الوهاب . ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه . إن الله لا يخلف الميعاد »

* * *

وعندما يبلغ السياق ذكر اليوم الذى لاريب فيه ، يرتد إلى الكافرين بهذا اليوم وما فيه . يرتد إليهم ليقرر أنهم وقود النار ، بهذا التعبير الذى يسلبهم كل خصائص الإنسان ومميزاته ، ويصورهم فى صورة الحطب والخشب وسائر « وقود النار » !

والأموال والأولاد مظنة حماية ووقاية ، ولكنهما لا يغنيان شيئا فى ذلك اليوم الذى لا ريب فيه :

« إن الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا » .

لا بل إن الأموال والأولاد ومعهما الجاه والسلطان لا تغنى شيئاً فى الدنيا ؛ كمثل آل فرعون والذين كذبوا من قبلهم بآيات الله إذ أخذوا فلم يغن عنهم أحد من الله :

« كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآياتنا ، فأخذهم الله بذنوبهم ، والله شديد العقاب »

وإذن فمصير الذين كفروا وكذبوا دعوة محمد — صلى الله عليه وسلم — هو مصير من سبقهم : أخذ شديد فى الدنيا ، وعذاب سيء فى الآخرة ؛ وعلى الرسول أن ينذرهم هذا وذاك :

« قل للذين كفروا : ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد » .

وقد لا يصدقون ـ فى قوتهم ومنعتهم ـ أنهم سيغلبون . فقل لهم يا محمد : إن المثل قد وقع أمامكم فى حرب وقعت بين فئتين : مؤمنة وكافرة . وكانت نهايتها نصر المؤمنين . والغالب أنها إشارة لغزوة بدر الكبرى :

« قدكان لكم آية فى فئتين التقتا . فئة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة . يرونهم مثليهم رأى العين . والله يؤيد بنصره من يشاء . إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار » .

ولقد كان الكفار يرون المسلمين قليلا عددهم ، ويرون أنفسهم مثليهم ـ وهم كانوا نحو ثلاثة أمثالهم فى الحقيقة ـ ومع هذا فإن الله أيد المؤمنين بنصره . وفى هذا عبرة للمتبصرين .

* * *

ولما كانت شهوات الدنيا ، ورغائب النفوس ، ودوافع الغريزة ، هى التى تشغل الناس فى الغالب عن التبصر و الاعتبار ؛ وتدفع بهم دفعاً إلى اللذائذ القريبة المحسوسة ، وتحجب عنهم الآفات البعيدة ؛ وتغلظ حسهم فتحرمهم متعة التطلع إلى ما وراء اللذة القريبة .. ولما كانت هذه الرغائب والدوافع ـ مع هذا ـ طبيعية وفطرية ، والإسلام لا يميل إلى كبتها وقتلها ، ولكن إلى ضبطها وتنظيمها ، وتخفيف حدتها واندفاعها .. فإنه يعرض إلى جوارها على امتداد البصر ألوانا من لذائذ الحس والنفس ، ينالها من يحاولون ضبط أنفسهم فى هذه الحياة عن الاستغراق فى لذائذها المحببة ، لتبقى لهم إنسانيتهم الرفيعة ، ويبقى لهم اتصالهم بما وراء الواقع القريب .

وفى آية واحدة يجمع السياق هنا أحب شهوات الأرض إلى نفس الإنسان : فى النساء والبنين ، والأموال والخيل والأرض المخصبة والأنعام .. وهى خلاصة للرغائب الطبيعية ، إما بذاتها ، وإما بما تستطيع أن توفره لصاحبها من لذائذ أخرى .. وفى الآية التالية يعرض لذائذ الآخرة : جنات تجرى من تحتها الأنهار . وأزواج مطهرة . وفوقها رضوان من الله .. وذلك كله لمن يمد ببصره إلى أبعد من لذائذ الأرض ، ويصل قلبه بالله على النحو الذى يعرضه السياق :

« زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين ، والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، والخيل المسومة ، والأنعام والحرث . ذلك متاع الحياة الدنيا ، والله عنده حسن المآب . قل : أؤنبئكم بخير من ذلكم ؟ للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، خالدين فيها ،

وأزواج مطهرة ، ورضوان من الله ، والله بصير بالعباد : الذين يقولون : ربنا إننا آمنا ، فاغفر لنا ذنوبنا ، وقنا عذاب النار . الصابرين والصادقين والقانتين والمستغفرين بالأسحار »

« زين للناس » .. والتعبير بالمجهول هنا يراد به أن تركيبهم الفطرى قد تضمن هذا الميل ، فهو أصيل فى فطرة « الناس » . وهذا تقرير للواقع من أحد جوانبه . ففى الإنسان هذا الميل العميق ، وهو جزء من تكوينه الأصيل ، لا حاجة إلى إنكاره ، ولا استنكاره فى ذاته ؛ فهو ضرورى للحياة البشرية كى تتأصل وتنمو وتطرد ؛ ولكن الواقع يشهد كذلك بأن فى فطرة الإنسان استعداداً آخر للتسامى . . هذا الاستعداد الثانى يهذب الاستعداد الأول ، وينقيه من الشوائب ، ويجعله فى الحدود المأمونة التى لا يطغى فيها جانب اللذة الحسية على الروح الإنسانية وأشواقها البعيدة .. والاتجاه إلى الله ، وتقواه ، هو خيط الصعود والتسامى إلى تلك الأشواق البعيدة .

« زين للناس حب الشهوات » فهى شهوات مستحبة مستلذة . وليست مستقذرة ولا كريهة . والتعبير لا يدعو إلى استقذارها وكراهتها . إنما يدعو فقط للتطلع إلى آفاق أخرى .. وهنا يمتاز الإسلام بمراعاته للفطرة وقبولها بواقعها ، ومحاولة تهذيبها لا كبتها وقمعها . والذين يتحدثون فى هذه الأيام عن أضرار « الكبت » وعن العقد النفسية التى تنشأ عنه ، يقررون أن السبب الرئيسى للكبت ليس هو الضبط ، وليس هو تعليق الفعل وعدم تنفيذه . ولكن هو استقذار دوافع الفطرة الأصيلة واستنكارها من الأساس . مما يوقع الفرد تحت ضغطين متعارضين : ضغط من شعوره الذى كونه الإيحاء أو كونه الدين أو كونه العرف ـ بأن دوافع الغريزة والفطرة دوافع قذرة لا يجوز وجودها أصلا ، وإذا وجدت فهى خطيئة وهى دافع شيطانى تتحتم مقاومته . وضغط من هذا الدافع الذى لا يغلب لأنه عميق فى الفطرة ، ولأنه ذو وظيفة أصيلة فى كيان الحياة البشرية ، لا تتم إلا به ، ولم يخلقه الله عبثا فى الفطرة .. وعندئذ تتكون « العقد النفسية » . . فأما الإسلام فقد ضمن سلامة الكائن الإنسانى من هذا الصراع بين شطرى النفس البشرية : بين نوازع الشهوة واللذة وأشواق الارتفاع والتسامى . وحقق لهذه ولتلك نشاطها المستمر فى حدود التوسط والاعتدال .(١)

« زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث . . . »

---

(١) راجع بتوسع كتاب « الإنسان بين المادية والإسلام » للأستاذ محمد قطب .

والنساء والبنون شهوة من شهوات النفس الإنسانية قوية .. وقد قرن إليهما القناطير المقنطرة من الذهب والفضة . . ونهم المال هو الذى ترسمه صورة القناطير المقنطرة من الذهب والفضة . ولو كان يريد مجرد الميل أو الرغبة لقال : والأموال . أو والذهب والفضة . ولكن صورة القناطير المقنطرة تلق ظلا خاصا هو المقصود . ظل النهم الشديد بتكديس الذهب والفضة لأن التكديس ذاته شهوة . وذلك بغض النظر عما يملك المال توفيره لصاحبه من الشهوات الأخرى .

ثم قرن إليها الخيل المسومة . . والخيل ماتزال — حتى فى عصر الآلة المادى اليوم — زينة محببة مشتهاة . ففى الخيل جمال وفتوة وانطلاق وقوة ، وفيها ذكاء وألفة ومودة . وحتى الذين لايركبونها فروسية ، فإن مشهدها يعجبهم ! مادام فى كيانهم حيوية تجيش لمشهد الخيل الفتية .

وقرن إلى تلك الشهوات الأنعام والحرث ، وهما يقترنان عادة فى الذهن والواقع . الأنعام والحقول المخصبة . والحرث شهوة بما فيه من مشهد الإنبات والنماء . وإن تفتح الحياة فى ذاته لمشهد حبيب .

« ذلك متاع الحياة الدنيا » . . ذلك كله الذى عرضه السياق من اللذائذ المحببة . ذلك كله متاع الحياة الدنيا . لا الحياة الرفيعة ولا الآفاق البعيدة . متاع هذه الأرض . فأما من أراد الذى هو خير . خير من ذلك كله . خير لأنه أرفع فى ذاته ، وخير لأنه يرفع النفس ويصونها من الاستغراق فى الشهوات والانكباب على الأرض فى هذه الحياة . . من أراد الذى هو خير فعند الله من المتاع ما هو خير :

« قل : أؤنبئكم بخير من ذلكم ؟ للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار — خالدين فيها — وأزواج مطهرة ، ورضوان من الله . والله بصير بالعباد »

وهذا المتاع الذى تذكره الآية هنا ، هو نعيم حسى فى عمومه . ولكن هنالك فارقا أساسيا بينه وبين متاع الدنيا . . إنه متاع لايناله إلا الذين اتقوا . الذين كان خوف الله وذكره فى قلوبهم . وشعور التقوى شعور مهذب للروح والحس جميعا . شعور ضابط للنفس أن تستغرقها الشهوات ، وأن تنساق فيها كالبهيمة . فالذين اتقوا ربهم حين يتناولون هذا المتاع الحسى يتناولونه بحس التقى المرهف النظيف العفيف . وفيه عوض كامل عن متاع الدنيا وفيه زيادة . .

فإذا كان متاعهم فى الدنيا حرثا مخصبا معطيا ، فى الآخرة جنات كاملة تجرى من تحتها الأنهار . وهى فوق هذا خالدة مقابل ذلك الحرث الزائل .

وإذا كان متاعهم فى الدنيا نساء وبنين ، فى الآخرة أزواج مطهرة ، وفى طهارتها فضل وميزة على شهوات الدنيا .

فأما الخيل المسومة والأنعام ، وأما القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، فقد كانت فى الدنيا وسائل لتحقيق لذائذ . فأما فى نعيم الأخرى فلا حاجة إلى هذه الوسائل . لذلك لم يرد لها هنا مقابل . . ولـكن هنالك ماهو أكبر من كل لذة ومن كل شهوة . هنالك « رضوان من الله » رضوان يعدل الحياة الدنيا والحياة الأخرى كليهما ويربى . رضوان . بكل ما فى اللفظ من نداوة ، وبكل ما فى معناه من حنان .

« والله بصير بالعباد » . . بصير بحقيقة فطرتهم وما ركب فيها من ميول ونزعات . بصير بما يصلح لهذه الفطرة من إيحاءات وتوجيهات . بصير بتصريفها فى الحياة وبعد الحياة .

ثم وصف لهؤلاء العباد : العباد الذين اتقوا ربهم ، والذين يستحقون ذلك الرضوان : « الذين يقولون : ربنا آمنا ، فاغفرلنا ذنوبنا ، وقنا عذاب النار »

وفى دعائهم مانيم عن تقواهم . فهو إعلان للإيمان ، وطلب للغفران ، وتوق من النيران . وهـذه التقوى تستتبع سلوكا واقعيا فى الحياة ، ولا تقف عند مجرد التوقى بالمشاعر والتعبيرات :

« الصابرين ، والصادقين ، والقانتين ، والمنفقين ، والمستغفرين بالأسحار »

وفى كل صفة من هذه الصفات تتحقق سمة ذات قيمة فى حقيقة الحياة الرفيعة .

فى الصبر ترفع على الألم واستعلاء على الشكوى . كما فيه تسليم لله واستسلام لما يريد .

وفى الصدق اعتزاز بالحق الذى هو قوام الخلق ، وإباء للانحراف عن الناموس ، والالتواء عن الجادة ، وترفع عن الضعف ، فما الـكذب إلاضعف عن كلمة الحق ، اتقاء لضرر ، أواجتلابا لمنفعة . وكلاهما لايليق بالمؤمن المستند إلى الخالق الحق .

وفى القنوت لله والخضوع له تحقيق لـكرامة النفس باتجاهها إلى الإله الواحد الذى لايعبد سواه . واعترافها بالنعمة ، ولا يعرف النعمة ويرضاها دون غضاضة إلا الـكريم ، الذى يعرف للـكرامة معناها العميق الدقيق .

وفى الإنفاق تحرر من استذلال المال ، وانفلات من ربقته ، وإعلان لحقيقة الأخوة الإنسانية على شهوة اللذة الشخصية ، وتكافل بين الناس يليق بعالم يسكنه الناس .

والاستغفار بالأسحار بعد هذا كله يلقى ظلالا رفافة ندية عميقة . ولفظة الأسحار فى ذاتها ترسم ظلال هذه الفترة من الليل قبيل الفجر . الفترة التى يصفو فيها الجو ويرق ويسكن ، وتترقرق فيها خواطر النفس وخلجاتها الدفينة . فإذا انضمت إليها صورة الاستغفار ألقت تلك الظلال المنسابة فى عالم النفس وفى ضمير الوجود سواء .

هؤلاء الصابرون ، الصادقون ، القانتون ، المنفقون ، المستغفرون بالأسحار . . لهم رضوان من الله . وهم أهل لهذا الرضوان . . ظله ومعناه . .

* * *

وهنا وقد شفت الأرواح ، ورفت الظلال ، وشمل الجو كله استشراف لله ذى الجلال . . هنا يلقى السياق بالقضية الأولى التى من أجلها جاء السياق . قضية الألوهية الواحدة التى لاشريك لها ولا ريب فيها . القضية التى يوقع السياق حولها إيقاعات متنوعة فى هذه السورة منذ بدئها إلى الختام . . يلقيها فى صورة مختصرة حاسمة ، متناسقة مع تلك الظلال :

« شهد الله أنه لاإله إلا هو — والملائكة وأولو العلم — قائما بالقسط . لا إله إلا هو العزيز الحكيم » .

شهد الله . ومن أعظم شهادة من الله ؟ ولكن شهادة الله على وحدانيته لا تستجيب لها إلا القلوب التى رفت بالإيمان ، وامتلأت بوجود الله . وهى تجىء هنا بعد التمهيد الذى أسلفته الآية قبلها ، ومن ثم تتسق مع ظلالها .

شهد الله أنه لاإله إلا هو ، وشهد الملائكة ، وشهد أولو العلم — وهؤلاء إنما شهدوا بعلمهم . فالعلم الصحيح هو معرفة نواميس الكون — بقدر مايطيق البشر — ومن عرف هذه النواميس أدرك وحدانية الله [1] . . شهدوا فعلا أو شهدوا حكما . فهذه الشهادة حقيقة فى فطرتهم ، بمجرد إدراكهم للناموس حسبما تطيقه طبيعتهم ؛ ومن ثم فهى شهادة واقعة يعبر عنها بصيغة الماضى ، لثبوتها ، حقيقة وحكما .

---

(١) سبق تفصيل الحديث فى هذه النقطة عند تفسير قوله تعالى : « تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض »

« قائما بالقسط » قائما بالعدل ، مقيما له ، محققا لوجوده ؛ والوحدانية هى المحقق المطلق للعدل المطلق . فأيما اثنان حكما فى أمر أو أمرين اختلف الحكم ، ولم يتحقق العدل الثابت الموحد ، لعدم توحد المصدر . ومن ثم كان ذكر القسط مع ذكر الوحدانية ترابطا طبيعيا بين حقيقتين كليتين ، لاتقوم إحداهما إلا بالأخرى .

« لاإله إلا هو العزيز الحكيم » والعزة والحكمة من محققات العدل والقسط . فالعدل فى حاجة إلى قوة تنفذه ، وإلى حكمة تقرر قواعده ، وقواعد تنفيذه .

***

وإذا توحد الإله ، فلا بد أن يتوحد هديه ، وأن تتوحد العقيدة التى يريد الناس عليها ، ولقد كان :

« إن الدين عند الله الإسلام »

فهى عقيدة واحدة ، وحقيقة واحدة ، يدين الله بها عباده ، منذ أن بعث فيهم رسله . . الاستسلام المطلق لله . إسلام القلب والضمير وإسلام الحركة والعمل .. فلا متجه للناس إلا إليه ، ولا غاية لهم إلا وجهه ، ولا حكم بينهم إلا لشريعته .

ومنذ أن جاء الرسل ، وهم يدعون إلى هذا الإسلام بمعناه الشامل الذى بيناه هنا ، والذى تثبته هذه الآية وآيات كثيرة أخرى .

إنه إسلام واحد ، وعقيدة واحدة ، جاء بها الرسل جميعا منذ فجر الحياة :

« وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم — بغيا بينهم — »

فهذا الاختلاف الذى وقع لم يقع نتيجة اختلاف فى العقيدة الواحدة والدين الواحد . ولم يقع نتيجة جهل بكتاب الله . إنما وقع نتيجة البغى والظلم بين الذين أوتوا الكتاب . البغى على الحق ، والبغى على الرسل ، والبغى فيما بين بعضهم وبعض .

وإذا كان البغى هو السبب ، فالتهديد لهم أنسب :

« ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب »

ومن ثم أمر للرسول صلى الله عليه وسلم ، أن يختصر طريق الجدل مع الذين أوتوا الكتاب

والكفار سواء ، وأن يدعوهم جميعا إلى هذا الدين الواحد .. إلى الإسلام بمعناه الشامل .. وإلى الصورة الأخيرة من هذا الإسلام كما جاء بها خاتم الرسل . فإن أسلموا فبها وإلا انقطع الجدل وبطل المحال :

« فإن حاجوك فقل : أسلمت وجهى لله ومن اتبعن ؛ وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين : أأسلمتم ؟ فإن أسلموا فقد اهتدوا ، وإن تولوا فإنما عليك البلاغ . والله بصير بالعباد »

إنها دعوة مسالمة شاملة . دعوة لا تحمل إلا قوة الحقيقة الكامنة فيها ، وقوة الصدق فى توجيهها ، والإخلاص فى اتجاهها .. إن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا يدعو أحدا إلى خطة إلا وقد ارتضاها لنفسه ، وارتضاها لمن اتبعه . فهو لا يدعوهم إلى عبودية لشخصه ، ولا إلى خضوع لسلطانه . إنما يدعوهم أن يسلموا وجوههم لمن أسلم له وجهه ، ليتساوى وإياهم فى الاستسلام المطلق لرب العباد . فإن أسلموا فقد اهتدوا . وإن تولوا فقد أدى واجبه . وما عليه إلا البلاغ . وأمرهم بعد ذلك إلى الله ، البصير بعباده ، العارف بما ركبوا عليه من ميول ونزعات .

ولكن السياق لا يدع أمرهم مجهلا ؛ فهو يقرر المصير الذى ينتظرهم إذا كذبوا . ولكنه لا يوجه القول إليهم نصا ، لأن المجال مجال إقناع لهم لا تهديد مباشر . إنما يجعل هذا التهديد مغلفا بالعموم والشمول . ليحذر من يحذر ويخاف من يخاف :

« إن الذين يكفرون بآيات الله ، ويقتلون النبيين بغير حق ، ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس .. فبشرهم بعذاب أليم .. أولئك الذين حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين » .

والكفر بآيات الله وقع من قبل، ووقع للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ من أهل الكتاب ومن عرب الجاهلية ـ الأميين ـ وقتل الأنبياء وقع من بنى إسرائيل وغير بنى إسرائيل ، وقع بغير حق ـ فأى حق فى تقتيل الهداة المرشدين الذين لا يسألون الناس أجراً ، ولا يطلبون ملكا ، ولا يدعون إلى غير الله ؟ ـ وقتل الذين يأمرون بالقسط من الناس ، وقع فى جميع عصور الطغيان والاستبداد .. ولكن السياق يوجه القول عاما ، ليكون حكمه عاما ، وليغلف التهديد بهذا الشمول ، لأن المقام كما قلنا مقام دعوة بالحسنى لأهل الكتاب والأميين . فلم يوجه إليهم التهديد نظرا لهذا المعنى .

أولئك حبطت أعمالهم وخابت فى الدنيا ؛ وحقت عليهم الخيبة فى الآخرة .. « وما لهم من ناصرين » ينقذونهم من هذا المصير .

***

وعند تقرير هـذا المصير ، بهذا الشمول والتعميم ، يتجه السياق إلى موقف بعض أهل الكتاب من دعوة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لهم إلى كتاب الله ، ليحكم بينهم فى خلافاتهم ، ويردهم إلى الطريق الحق الذى لاعوج فيه ولا خلاف ؛ فالرسالة الجديدة تحدد أصول الدين الواحد ، الذى اختلفوا فيـه من بعد ما جاءهم العلم . ولـكنهم لا يستمعون إلى هذه الدعوة ، اعتمادا على دعوى لا ترتـكن إلى أساس : دعوى بأن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودات ! وهى خرافة لا تتفق مع سنة الله وعدل الله ، وفرية يدعونها فى دينهم ودين الله منها برىء . فـكيف إذا لاقوا جزاءهم العادل فى يوم لا ريب فيه ؟

« ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الـكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ؛ ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون ؟ ذلك بأنهم قالوا : لن تمسنا النار إلا أياما معدودات ، وغرهم فى دينهم ما كانوا يفترون . فـكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه ، ووفيت كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ؟ » .

« ألم تر ؟ » صيغة فيها تعجيب وتشهير . والموقف يستحق التعجيب والتشهير . فهؤلاء الذين أوتوا نصيبا من الـكتاب هم أولى الناس أن يستجيبوا إذا دعوا إلى كتاب الله ليحكم بينهم . فليس لهم شىء من عذر الأميـين الذين لا يعلمون شيئاً عن الدين . ولـكنهم يتولون وهم معرضون !

والعلة فى هذا السلوك أعجب . فهم أهل كتاب ؛ ومع ذلك يعتنقون خرافة لا تستند إلى أساس ، ولا تتفق مع فـكرة الإيمان بعدالة الله التى لا تحابى أحداً من عباده بحال .

فـكيف يكون الحال « إذا جمعناهم ليوم لاريب فيه » وجرى العدل الإلهى مجراه « ووفيت كل نفس ما كسبت » بلا ظلم ولا محاباة « وهم لا يظلمون » كيف يكون الحال ؟ سؤال يلقيه السياق بلا جواب . وقد أوحى من قبل بالجواب .

يلقيه ويتوجه إلى ابتهال خاشع ، يسلم الأمر كله لله ، ويوجه النفس والجوارح إلى مشاهد وسنن ، الأمر فيها كله إلى الله ، والقدرة فيها كلها لله :

« قل : اللهم مالك الملك . تؤتى الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء . بيدك الخير . إنك على كل شيء قدير . تولج الليل فى النهار ، وتولج النهار فى الليل ؛ وتخرج الحى من الميت ، وتخرج الميت من الحى ؛ وترزق من تشاء بغير حساب » .

نداء خاشع ، فى تركيبه اللفظى إيقاع الدعاء ، وفى ظلاله المعنوية روح الابتهال ، وفى التفاتاته إلى مظاهر الكون استجاشة للمشاعر فى رفق وإيناس .

وهو إنابة إلى الله الذى بيده ملكوت كل شيء . مالك الملك المطلق وحده دون سواه . وهو يعطى ملك هذه الدنيا لمن يشاء ، وينزعه ممن يشاء ـ وقد سن سنته ليكون من يعطى له الملك مستحقا لما أعطى ، ومن ينزع منه الملك مستحقا للحرمان بعد الوجدان . مستحقا لهذا وذاك بفعله وعمله وسلوكه ونيته وضميره حسب سنة الوجدان والحرمان ـ وعلى هذه السنة يعز من يشاء ويذل من يشاء . . والخير دائما فى جريان السنة مجراها فللخير المطلق كانت هذه السنة التى لا تتبدل . فمن سلك سبيل الوجدان وجد ، ومن سلك سبيل الحرمان حرم . والأمر فى ذلك كله إلى سنة الله ومشيئة الله ؛ وهى تحقق الخير الكلى سواء فى هذا أو ذاك ، ومن وراء ما يصيب الأفراد من سراء ومن ضراء .

أما القسم الثانى من ذلك الابتهال الخاشع ، فيلتفت إلى دورة الفلك ، ودورة الحياة ، التفاتة يرتعش لها الوجدان :

« تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل . وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى » .

إنها الحركة الخفية المتداخلة التى لا يملك أحد وقفها ولا ضبطها ولا تقسيمها وتحديدها . . إن دخول الليل فى النهار أو دخول النهار فى الليل ، إنما يتم فى تدرج وتداخل لا يمكن فيه فرز اللحظات وفصل التغيرات . شيئا فشيئا يتسرب غبش الليل إلى وضاءة النهار ؛ وشيئا فشيئا يتنفس الصبح فى غيابة الظلام ! وكلاهما مشهد مكرور ؛ ولكن التعبير يعرضه هنا كأنما هو جديد لم تلحظه عين ، ولم يشهده حس . وكم فى هذا الكون العجيب من مشهد ارتجفت له المشاعر كلها أول مرة ، ثم خفت الرجفة على المنظر المعاد ؟ !

كذلك الحياة والموت . يدب أحدهما فى الآخر طويلا ، قبل أن يقال هذا قد حي ، وهذا قد مات . إن الحيــاة رحلة طويلة وكذلك الموت ـ رحلة تتداخل فى رحلة تداخل النور والظلام .. كل لحظة تمر على الحى يدب فيه الموت إلى جانب الحياة ، وتبلى منه خلايا فتذهب ميتة لتدخل فى مرحلة حياة جديدة فى جسم آخر ، وتدخل إليه خلايا لتحيا جاءته من موات . بلى وتجدد ، وتجدد وبلى . فى كل لحظة بل فى كل ثانية من ثوانى الليل والنهار . أما نهاية المرحلة : مرحلة الموت أو مرحلة الحياة ، فليست سوى الإعلان الأخير لنهاية ملايين الملايين من الميتات والحيوات !

***

بعد هــذا الابتهال الخاشع يتوجه الخطاب إلى المؤمنين خاصة ، وقد عرفوا مصير الذين يكفرون بآيات الله فتوجهوا بابتهالهم إلى الله . يتوجه الخطاب إليهم ، ألا يتخذوا الـكافرين أولياء من دون المؤمنين . إلا فى حالات الاضطرار ، فيباح أن يتقوهم فى الظاهر بالولاء ، لا فى الباطن وفى الضمير . ويحذرهم الله نفسه ، وهو يعلم خفايا الضمير ، ويحذرهم يوم تجد كل نفس ماعملت من خير محضرا وما عملت من سوء . ويرسم لهم طريق النجاة بحب رسول الله وطاعته . وهما دليل حب الله وطاعته . فما الرسول إلا من عند الله وهاديهم إلى الله :

« لايتخذ المؤمنون الـكافرين أولياء من دون المؤمنين : ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء ـ إلاأن تتقوا منهم تقاة ـ ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير . قل : إن تخفوا مافى صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ، ويعلم مافى السماوات وما فى الأرض ؛ والله على كل شىء قدير . يوم تجد كل نفس ماعملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لوأن بينها وبينه أمدا بعيدا ؛ ويحذركم الله نفسه ، والله رؤوف بالعباد . قل : إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لـكم ذنوبكم والله غفور رحيم . قل : أطيعوا الله والرسول . فإن تولوا فإن الله لا يحب الـكافرين » .

إن النهى هنا عن اتخاذ المؤمنين أولياء من دون الـكافرين نهى حاسم جازم : « ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء » فالـكفر انفلات من العروة التى تربط فطرة الإنسان بقانون الوجود ، وتشده إلى الله خالق الوجود ، وخالق الرابطة بين فطرة الحياة وقانون الـكون الأصيل . واتخاذ الـكافرين أولياء من دون المؤمنين ؛ معناه اتباعهم فى هذا التيه ، الذى لاهادى فيه

ولا عروة تربط السالكين ! ومن هنا « فليس من الله فى شىء » . أما حالات الاضطرار التى تلجىء مؤمنا أن يظهر الولاء لكافر فهى حالات مستثناة . ولا خوف منها ما دام الضمير عامراً بالله ، متصلا بعروته فى الحياة .

ولما كان الأمر متروكا للنيـة والضمير ، فهنا موضع التذكير والتحذير : « ويحذركم الله نفسه » وهو تعبير عجيب غير مألوف إلا فى هـذا المقام . لأن التحذير من الله صادر من الله . وهو أوقع فى الحس ، وأدل على إرادة الخير والرحمة للناس : « ويحذركم الله نفسه والله رؤوف بالعباد » .

ومن ثم يفتح لهم الطريق إلى الله ، ليلقوه على حب وقبول وصفح وغفران :

« قل : إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم » .

ويدعوهم إلى طاعة الله والرسول ، خيفة أن يسلكوا الطريق الآخر الذى حذرهم إياه ، والذى ينتهى إلى كراهية الله لهم فلا يستمتعون بلقياه ولا برضاه :

« قل: أطيعوا الله والرسول . فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين »

« إِنَّ ٱللهَ ٱصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى ٱلْعَالَمِينَ * ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ ، وَٱللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَةُ عِمْرَانَ : رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّراً ؛ فَتَقَبَّلْ مِنِّى إِنَّكَ أَنْتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ * فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ : رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ ، وَٱللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ، وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنْثَىٰ ، وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّى أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَانِ ٱلرَّجِيمِ * فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ ، وَأَنْبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً ، وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ؛ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً . قَالَ : يَامَرْيَمُ ، أَنَّىٰ لَكِ هَذَا ؟ قَالَتْ : هُوَ مِنْ عِنْدِ ٱللهِ ، إِنَّ ٱللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ * هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ، قَالَ : رَبِّ هَبْ لِى مِنْ

لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ * فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّى فِى الْمِحْرَابِ : أَنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ * قَالَ : رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِى غُلَامٌ ، وَقَدْ بَلَغَنِىَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِى عَاقِرٌ ؟ قَالَ : كَذَلِكَ اللّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ . قَالَ : رَبِّ اجْعَلْ لِى آيَةً . قَالَ : آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا، وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِىِّ وَالْإِبْكَارِ .

« وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ : يَامَرْيَمُ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ * يَامَرْيَمُ اقْنُتِى لِرَبِّكِ وَاسْجُدِى وَارْكَعِى مَعَ الرَّاكِعِينَ .

« ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ، وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ، وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ .

« إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ : يَامَرْيَمُ إِنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ، وَجِيهًا فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ * وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِى الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ * قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ؟ قَالَ : كَذَلِكِ اللّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ، إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ * وَرَسُولًا إِلَى بَنِى إِسْرَائِيلَ ، أَنِّى قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ، أَنِّى أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللّهِ ، وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ ، وَأُحْيِى الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللّهِ ، وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ؛ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ، وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللّهَ وَأَطِيعُونِ * إِنَّ اللّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ .

« فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ: مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ ؟ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ: نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ آمَنَّا بِاللهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ * رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ .

« وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ * إِذْ قَالَ اللهُ: يَاعِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ، وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ، وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ * فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ * وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ، وَاللهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ .

« ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ .

« إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ ، خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: كُنْ . فَيَكُونُ * الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ * فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ: تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ ، وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ ، وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ، ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ .

« إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ ؛ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللهُ ، وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ » .

كانت القاعدة التي يدور عليها الحديث في الدرس الماضي هي قاعدة وحدة الدين ، وتسمية هذا الدين الواحد بالإسلام : « إن الدين عند الله الإسلام » .

وكان الطريق الذي رسمه ذلك الدرس في نهايته إلى الله هو : « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم » .

فالآن يمتد السياق إلى بيان عن اصطفاء الله لبعض خلقه : آدم ونوح وآل ابراهيم وآل عمران. ويقف وقفة طويلة أمام آل عمران يعرض فيها قصة ولادة مريم، وطرفا من قصة عيسى يكشف عن حقيقة مولده ، وحقيقة دعوته ؛ وينتهى إلى أنها هى « الإسلام » بمعناه الواسع الذى أسلفنا بيانه ، وأنها كانت حلقة من سلسلة هذا الإسلام ، التى انتهت برسالة محمد عليه الصلاة والسلام .

هذا الطرف الذى يعرض هنا من قصة عيسى ـ عليه السلام ـ يذكر مولده بدون تفصيل (كالذى فى سورة مريم) لينتهى منه إلى معجزاته وإلى دعوته . لأن المقصود فى هذا السياق هو حقيقة مولده وحقيقة دعوته فى معرض الإثبات لوحدة الدين الإلهى الخالد ، الذى دعا إليه رسله جميعا ، والذى لا يقبل سواه بديلا . وهو الإسلام المطلق لله وحده بلا شريك .

والقصص يجىء فى القرآن مرتبطا بالسياق ، متناسقا معه ؛ وهذا التناسق هو الذى يحدد الحلقة التى تذكر من القصة ، والقدر الذى تعرض به فى كل موضع حسب الغاية التى يؤديها القصص فى هذا السياق .

* * *

يبدأ هذا الدرس ببيان من وقع عليهم الاختيار لحمل الرسالة الواحدة منذ بدء الخليقة ، ليقرر أنهم ذرية بعضها من بعض ، كلهم ذوو خصائص واحدة تؤهلهم لحمل الرسالة . وليس من الضرورى أن تكون ذرية النسب ـ وإن كان نسب الجميع يتحد فى آدم ـ إنما هى رابطة الاصطفاء من الله والاختيار ، ورابطة الاستعداد اللدنى لحمل الرسالة ـ كما بينا ذلك عند استعراض آية : « تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض » فى أول هذا الجزء ـ فهذا الاستعداد اللدنى هو الآصرة التى تجمع هؤلاء المصطفين الأخيار ، على مدار الزمان منذ أن خلق الله الإنسان :

« إن الله اصطفى آدم ونوحا، وآل ابراهيم ، وآل عمران على العالمين : ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم » .

ولقد ذكر السياق آدم ونوحاً فردين ، وذكر آل ابراهيم وآل عمران أسرتين . إشارة إلى أن آدم بشخصه ونوحا بشخصه هما اللذان وقع عليهما الاصطفاء ، فأما إبراهيم وعمران

فقد كان الاصطفاء لهما ولذراريهما كذلك . ولكن القاعدة التى تقررت من قبل فى سورة البقرة عن آل ابراهيم ، قاعدة أن وراثة النبوة والبركة فى بيته ليست وراثة الدم إنما هى وراثة العقيدة : « قال ومن ذريتى ؟ قال لا ينال عهدى الظالمون » هذه القاعدة التى شرحناها هناك فى موضعها فى الجزء الأول تؤيد ماذهبنا إليه هنا من معنى الذرية ، وتخصص هذا المعنى .

ويلاحظ هنا أن السياق يذكر آل ابراهيم ، دون أن يذكر موسى أو إسرائيل – وهما من آل ابراهيم – كما يذكر آل عمران ويفصل قصصهم بعض التفصيل . ذلك أن السياق هنا يستطرد إلى الجدل حول عيسى ابن مريم – كما سيأتى فى الدرس التالى – وحول ابراهيم ، فلم تكن هناك ضرورة لذكر موسى فى هذا المقام أو إسرائيل .

***

« إذ قالت امرأة عمران : رب إنى نذرت لك ما فى بطنى محررا فتقبل منى إنك أنت السميع العليم » .

وهذا النص يكشف لنا عن قلب « امرأة عمران » – أم مريم – وما يعمره من إيمان ، ومن توجه إلى الله بأعز ما تملك ، وهو ذلك الجنين الذى تحمله فى بطنها ، خالصا لله ، محرراً من كل اتجاه إلا الاتجاه إلى الله . وهذا الدعاء الخاشع بأن يتقبل الله منها نذرها – وهو فلذة منها – ينم عن ذلك الإسلام الخالص لله ، والتوجه إليه كلية ، والتجرد إلا من ابتغاء قبوله ورضاه .

« فلما وضعتها قالت : رب إنى وضعتها أنثى . والله أعلم بما وضعت . وليس الذكر كالأنثى . وإنى سميتها مريم ، وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم »

لقد كانت تنتظر ولداً ذكراً ، فالنذر للمعابد لم يكن معروفا إلا للصبيان ، ليخدموا المعبد وينقطعوا للعبادة ؛ ولكن ها هى ذى تجدها أنثى ، فتتوجه إلى الله فى نغمة أسيفة : « رب إنى وضعتها أنثى » .. « والله أعلم بما وضعت » « وليس الذكر كالأنثى » . . ولقد كان الطبيعى أن تقول : وليست الأنثى كالذكر .. ولكنها لشدة ما عاشت بخيالها ومشاعرها ورغائبها مع الولد الذكر الذى كانت ترجوه لتهبه للمعبد وللعبادة ، توازن بين الذكر الذى تمنته والأنثى التى

وضعتها ! ثم تستمر بعد هذه الجملة المعترضة التى تنم عن دفين رغائبها ، تستمر فى مناجاتها لربها:
« وإنى سميتها مريم ، و إنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم » .

« فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتاً حسنا » .

جزاء هذا الإخلاص الذى يعمر قلب الأم ، وإعداداً لها أن تستقبل نفخة الروح ، وكلمة الله ، وأن تلد عيسى ابن مريم على غير مثال فى خلق الله جميعا .

« وكفلها زكريا » .. جعلها من نصيبه فى الكفالة ؛ وسيشير السياق فيما بعد إلى أن غيره كان يزاحمه فى هذه الكفالة ويجادله . ولكنه فاز بها ، وكان أهلا لها .

« كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا ، قال : يامريم أنى لك هذا ؟ قالت: هو من عند الله . إن الله يرزق من يشاء بغير حساب » .

لقد كانت مجدودة مرزوقة ، يهيىء الله لها من يسارع إلى توفير الرزق لها من طعام وسواه . حتى إن كافلها وعائلها ليعجب كيف تم لها هذا ومن أين توافر : « قال يامريم أنى لك هذا ؟ » . وهى فى خشوع المؤمن ، وفى تفويض الأمر كله للخالق ، وفى الثقة بأن كل ما يصلها من خير إنما هو من عند الله وبإرادة الله ، لا تذكر فى موضع الإفضال إلا الله : « قالت هو من عند الله ، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب » . فكل شىء من عنده ، ولا قدرة لسواه ، ولا رزق لولاه .

عندئذ تحركت فى نفس زكريا الشيخ تلك الرغبة الفطرية الدفينة فى كل نفس، الرغبة فى الذرية . الرغبة فى الخلف .. الرغبة التى لا تموت حتى فى نفوس العباد الزهاد الذين وهبوا أنفسهم للعبادة ونذروها للمعابد . إنها الفطرة التى فطر الله الناس عليها ، لحكمة عليا فى امتداد الحياة وارتقاء الحياة على امتداد الأجيال :

« هنالك دعا زكريا ربّه ، قال : رب هب لى من لدنك ذرية طيبة ، إنك سميع الدعاء » .

لقد كان زكريا يعرف أنه شيخ طاعن فى السن ، وأن امرأته عاقر ، ولكن الرغبة الفطرية جرفته فتوجه إلى الله بالدعاء :

« فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب ، أن الله يبشرك بيحي مصدقا بكلمة من الله، وسيداً وحصوراً ، ونبيا من الصالحين » .

لقد استجيبت الدعوة من ذلك القلب الطاهر فى لحظة اللهفة والتوجه إلى الله بحرارة . وبشر زكريا بمولود ذكر نص على اسمه قبل مولده ، ونص على أنه سيصدق بالرسول الممثل لكلمة الله – عيسى ابن مريم – وعلى أنه قد كتب له أن يكون سيدا ذا مقام ، حصورا يحصر نفسه دون الشهوات ، ويملك نزعاته دون الانفلات . ثم هو بعد ذلك كله نبي صالح فى الأنبياء .

وهنا يستيقظ زكريا إلى الواقع ، الذى جرفته رغبته الحارة بعيدا عنه . وينتبه إلى أنه شيخ طاعن فى السن وامرأته عاقر فأنى لهما بغلام :

« قال : رب أنى يكون لى غلام ، وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقر ؟ »

وقد دهشته المفاجأة فغفل عن أن الله قادر على أن يفعل مايشاء ، وأن علمه هو قاصر ، فهذه الظواهر التى يذكرها والتى يحسبها قانونا مطردا قد لا تكون كذلك عند الله . ونحن – بنى الإنسان – إنما نرتب أحكامنا على مشاهداتنا وتجاربنا .. وهى مشاهدات ليست استقصائية وتجارب ليست نهائية . فإذا قلنا : إن هنالك قوانين ثابتة فهو قول نسبي كذلك ، مستند إلى معرفتنا الناقصة . وليس لنا أن نكذب بما يقع مخالفا لهذا القانون ؛ لأننا عاجزون عن الاستقصاء الحقيقى الكامل الذى نجزم بعده بأن ما اهتدينا إليه هو القانون النهائى الذى لا قانون سواه !

ولقد كان زكريا إنسانا وهو يدهش لهذه المفاجأة ، فنبه إلى الحقيقة التى هو حرى بأن يدركها بوصفه نبيا ، ولكن المفاجأة أذهلته عنها :

« قال : كذلك الله يفعل ما يشاء » .

ولكنه لشدة لهفته على تحقيق هذه البشرى ، ولغرابة المفاجأة على نفسه وهو يؤمن بها ولا يراها ، راح يطلب إلى ربه أن يجعل له علامة ظاهرة تطمئن قلبه وتسكن لهفته :

« قال : رب اجعل لى آية »

إنه لا يشك ولكن يريد ليطمئن قلبه إلى دلالة ملموسة .. هنا يوجهه الله سبحانه إلى طريق

الاطمئنان الحقيقى ، ويخرجه من ملابسات البيئة البشرية التى تحيط به . إن آيته أن يحتبس لسانه ثلاثة أيام إذا هو اتجه إلى الناس ، وأن ينطلق إذا توجه إلى الله يذكره ويسبحه ، ومتى اتصلت الروح بالله فقد اطمأنت واستقرت ، وعرفت أن كل شىء على الله هين ، وأن لا شىء يعجز هذه القدرة التى أنشأت هذا الوجود .

« قال : آيتك ألا تكلم النـاس ثلاثة أيام إلا رمزا ، واذكر ربك كثيرا ، وسبح بالعشى والإبكار » .

ثم يرتد السياق إلى مريم ـ بعد عرض تلك الخاطرة التى خطرت لزكريا عند ما وجد مريم ترزق من عند الله ؛ وما حقق الله له من رغبة فى الذرية الطيبة ووهبه يحيى .. يرتد السياق ليذكر نداء الملائكه لمريم ـ بإذن ربهم ـ وتوجيهها الوجهة التى تتفق مع اصطفاء الله لها ، ونعمته عليها :

« وإذ قالت الملائكة : يامريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نسـاء العالمين . يامريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين »

« إن الله اصطفاك » فاختارك لمهمة عظمى ، فى تلقى كلمة الله وولادة المسيح على غير مثال . و « طهرك » لتكونى خالصة له ، مبرأة من الدنس ، ناجية من الشيطان ورجس الشيطان ، « واصطفاك على نساء العالمين » بهذا الاختيار للمعجزة التى تتم على غير مثال ..

والإشارة إلى الطهر هنا ضرورية لما لابس مولد عيسى ـ عليه السلام ـ من شبهات ، لم يتورع اليهود أن يلصقوها بمريم ، معتمدين على أن هذا المولد لا مثال له فى عالم الناس ، ناسين أن مانحسبه نحن قاعدة نهائية ، وقانوناً كونيا قد لا يكون كذلك ، لأننا بشر نبنى أحكامنا على مشاهداتنا . والله الذى وضع للـكون ناموسه هو الذى يعلم ، وهو وحده الذى يحكم ، وهو وحده الذى يفعل ما يشـاء . وما يفعله موافق للناموس الذى اختاره ، وإن كنا نحن لا نعلم سر هـذا الناموس الشامل فى كثير من الأحيان ، فنسمى الحادث معجزة أو خارقة . وهو كذلك بالقياس إلى قدرتنا ، وبالقياس إلى علمنا المحدود بالقانون الـكونى . وهو بالقياس إلى الخالق سبحانه أمر عادى يجرى وفق الناموس الذى أراد .

وفى نهاية الشطر الأول من قصة مريم يشير السياق إلى حكمة مساقه ، إثباتاً للوحى الذى ينبىء محمدا — صلى الله عليه وسلم — بما لم يكن حاضره من أنباء الغيب ، فى ذلك الزمن البعيد:

« ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك . وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم ، وما كنت لديهم إذ يختصمون » .

وهى إشارة إلى ما كان من تسابق سدنة الهيكل إلى كفالة مريم ، ونجاح زكريا فى أن تكون من نصيبه . والنص هنا يشير إلى حادثة لم تذكرها التوراة ولم تذكرها الأناجيل — التى بين أيدينا — حادثة إلقاء الأقلام ، أقلام سدنة المعبد، لمعرفة من تكون مريم من نصيبه . والنص لا يفصل الحادث ، فلنا أن نعرف أنهم اتفقوا على طريقة ما — بواسطة إلقاء الأقلام — فمن نزل قلمه على وضع خاص أو هيئة خاصة كانت مريم من نصيبه ، كما نصنع نحن الآن فى « القرعة » أو كما كانوا يصنعون فى الأقداح . . المهم أن نعرف أنه كان هناك سباق واختصام بشأن كفالة مريم ، ثم شاء الله أن يكون زكريا كافلها « وكفلها زكريا » لتنشأ النشأة الجديرة بتلقى الكلمة وولادة المسيح عليه السلام .

وكل ذلك من أنباء الغيب ، التى لم يكن الرسول حاضرها ، ولم يكن يعلمها . فإخباره بها — فى القرآن — دليل على وحى من الله يعلمه بما كان مما لم يشهده ولم يعلمه من أنباء ذلك الزمان .

***

والآن نجىء إلى طرف من قصة مولد عيسى :

« إذ قالت الملائكة : يامريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم ، وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين ، ويكلم الناس فى المهد وكهلا ومن الصالحين » .

إن كل خلق فى هذا الكون يخلق بكلمة « كن » أى بتوجه الإرادة الخالقة إلى إيجاده : « إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون » والمسيح خلق أراد الله إيجاده ، فكان ، بتلك الكلمة ، أى بتوجه الإرادة .

ولكن النص هنا على أنه كلمة الله — وشأنه فى هذا كشأن كل كائن — إنما جاء لغرابة مولده بالقياس إلى ما اعتاد البشر من الأسباب والمسببات . وقد أثرت هذه الغرابة على مريم ذاتها

ـ وهى من هى اتصالا بالله ـ حين أحست صورة مولده من نسبة اسمه إليها هى : « عيسى ابن مريم » ومن توكيد ولادته بالنص على اسمه وصفته ، وتكليمه للناس وهو فى المهد والكهولة . . أثرت هذه الغرابة عليها فإذا هى تسأل فى دهشة وإنكار :

« قالت : رب أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر ؟ »

فجاءها الجواب بالحقيقة الأولية التى نغفل نحن البشر عنها لطول ألفتنا للأسباب والمسببات كما ندركها بتجاربنا المحدودة :

« قال : كذلك الله يخلق ما يشاء . إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون » فالناموس الأول هو انطلاق المشيئة ، وتحقق ما تتجه إليه بمجرد هذا التوجه الذى يعبر عنه بكلمة « كن » تقريبا للأمر فى تصورنا نحن البشر .

ثم يمضى الملك يخبر مريم بما قدره الله لابنها الذى تبشر به :

« ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ، ورسولا إلى بنى إسرائيل أنى قد جئتكم بآية من ربكم أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير ، فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله ، وأبرىء الأكمه والأبرص وأحيى الموتى بإذن الله ، وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم . إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين . ومصدقا لما بين يدى من التوراة ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم . وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون . إن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم »

وننظر فى هذا البيان عن رسالة المسيح ومعجزاته ـ كما بشرت بها مريم ـ فنقف عند عدة أمور .

الأول : أن رسالة عيسى ـ عليه السلام ـ رسالة محلية فى بنى إسرائيل . وهذا مايقرره نص فى أحد الأناجيل التى بين أيدينا يقول : « لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة » (١) وقد جاءت موافقة لما تتطلبه هداية بنى إسرائيل فى فترة محدودة من الزمان ، لها مقتضيات خاصة لاتوجد فى كل زمان ومكان . ومن هنا كانت رسالة محدودة بزمانها ، ومحدودة بمكانها ، ومقيدة كذلك بواقع بنى إسرائيل فى الزمان والمكان .

الثانى : أن المعجزات التى شاء الله اجراءها على يد المسيح كانت تتعلق بمنح الحياة أو ردها

---

(١) انجيل متى : إصحاح ١٥ آية ٢٤ .

أو رد العافية ـ وهى درجة من درجات الحياة ـ فهى فى صميمها تتسق مع مولد عيسى ، ومنحه الوجود والحياة على غير مثال مما يعرفه البشر . فمعجزاته من نوع مولده ، وكلها يصدق بعضها بعضا . وإذا كان الله قادرا أن يجرى معجزة منح الحياة أو ردها على يد أحد خلقه على غير مثال ، فهو قادر على خلق ذلك الخلق ذاته من غير مثال .

الثالث : هو جهر المسيح بأن الله هو ربه ورب قومه ، وأن معجزاته من صنع إلهه لا من صنعه ، ودعوتهم إلى عبادة الله وحده ، وتقواه وطاعته . . ولهذا التوكيد قيمته هنا نظرا لما لابس مولد عيسى من شبهات ، تحولت فيما بعد إلى ترهات وخرافات .

الرابع : أنه كان من أهداف رسالة عيسى عليه السلام إلى بنى إسرائيل ، أن يخفف عنهم بعض القيود والأثقال التى فرضها الله عليهم ، بسبب غلظ قلوبهم ، وعناد أرواحهم ، وأنهم « شعب صلب الرقبة » كما ورد فى عبارات « العهد القديم » كتاب اليهود المقدس الذى بين أيدينا الآن .

* * *

من بشارة الملك لمريم بابنها المنتظر وصفاته ورسالته ومعجزاته ، ينتقل السياق مباشرة إلى إحساس عيسى بالكفر من بنى إسرائيل . .

وهذه الفجوات ترد فى القصص القرآنى على طريقة العرض التمثيلى للقصة كأنها فصول من رواية ، يدل التالى منها على ما كان فى الفجوة المتروكة من حوادث ومن أحاديث ، فيكسب العرض جمالا فنيا واضحا ، ويتجنب التكرار فى الحوادث والعبارات .

وهنا فجوة من هذه الفجوات فى السياق . فإنه لم يذكر أن عيسى قد ولد ، ولا كيف علم الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل . ولا كيف دعا قومه . ولا كيف حقق معجزاته . . ليدع الخيال يكمل هذه الحلقات ويستمتع باستعراضها ، وهو قادر على إكمالها بما قبل الفجوة وبعدها كما يسدل الستار ثم يرفع بين فصلين من فصول العرض التمثيلى .[1]

« فلما أحس عيسى منهم الكفر قال : من أنصارى إلى الله ؟ قال الحواريون نحن أنصار الله ، آمنا بالله ، واشهد بأنا مسلمون . ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين » .

---

(١) يراجع فصل القصة فى القرآن فى كتاب : « التصوير الفنى فى القرآن »

لقد تبين عيسى الكفر من بنى إسرائيل على الرغم من تلك المعجزات التى لاتتهيأ لبشر ، والتى تشهد بأن يد الله وراءها ، وأن قوة الله تؤيدها ، وتؤيد من جاءت على يده . وعلى الرغم من أن المسيح جاء ليخفف عن بنى إسرائيل بعض القيود والتكاليف . . عندئذ دعا دعوته : « من أنصارى إلى الله ؟ » من أنصارى للوصول إلى الله والاتصال به والتمسك بدينه ؟ ولابد لكل صاحب عقيدة أو فكرة من أنصار يحملون دعوته ، ويحامون دونها ،ويبلغونها إلى من يليهم ، ويقومون عليها بعده .. « قال الحواريون : نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون »

هنا يبلغ السياق إلى غايته التى اتجه إليها منذ ابتداء هذا الدرس : « واشهد بأنا مسلمون » فهؤلاء الحواريون الذين استجابوا إلى دعوة المسيح ، وأعلنوا انتصارهم لله وللرسول الذى جاءهم من عنده ، دليلا على إيمانهم بالله — والإيمان الحق يستتبع نتائجه من نصرة الدين والذود عنه — هؤلاء الحواريون يطلبون إلى عيسى أن يشهد بأنهم « مسلمون » . مسلمون بالمعنى الشامل المقصود من لفظ الإسلام . إسلام الوجه والضمير لله دون سواه . وهذا هو الغرض البارز فى السياق كله فى هذه السورة جميعا .

ذلك كان قول الحواريين أنصار عيسى ومريديه . فأما الجاحدون من بنى إسرائيل فقد مكروا به وكادوا له ، وبيتوا أمرا :

« ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين »

والمشاكلة هنا فى اللفظ هى وحدها التى تجمع بين تدبيرهم وتدبير الله ، لتسخر بمكرهم إذا كان الذى يواجهه هو تدبير الله ضده ، فأين هم من الله ؟ وأين مكرهم من تدبير الله ؟

لقد أرادوا قتل عيسى وصلبه، وأراد الله أن يتوفاه وفاة عادية ، وأن يرفعه إليه كما يرفع أرواح الصالحين من عباده ، وأن يطهره من مخالطة الذين كفروا ومن البقاء بينهم وهم رجس ودنس ، وأن يكرمه فيجعل الذين اتبعوه فوق الذين كفروا به ، ومايزال المسيحيون أعلى من اليهود حتى يومنا هذا وحتى يوم القيامة كما وعد الله ، متى كانوا مسيحيين حقا ، ومتبعين لتعاليم عيسى :

« إذ قال الله ياعيسى إنى متوفيك ورافعك إلىّ ، ومطهرك من الذين كفروا ، وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة . ثم إلى مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون » .

ولما كنا أمام طائفتين : طائفة مؤمنة أعلنت انتصارها لدين الله ورسوله المسيح — عليه

السلام ـ وطائفة مكرت فخاب مكرها . فإن الله يخبر المسيح بمصير كلتا الطائفتين :

« فأما الذين كفروا فأعذبهم عذابا شديدا فى الدنيا والآخرة ومالهم من ناصرين . وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ، والله لا يحب الظالمين » .

مالهم من ناصرين . لأنهم لم ينصروا دين الله ، ولم يستجيبوا لاستنصار رسوله فى الحياة . والله لا يحب الظالمين، الذين مكروا بعيسى وأرادوا الاعتداء عليه وهو يدعوهم إلى النجاة .

كان هذا إخبارا من الله لعيسى .. وهنا يسكت السياق عما وقع بعد ذلك على طريقة القصص القرآنى فى ترك فجوات فى العرض يملؤها الخيال .. ومتى قال الله ما قال ، فإن ما قاله مؤكد الوقوع لا محالة . وقد كان ما أراده الله كما أراده .

لذلك ينتهى السياق بالإشارة إلى بعض أغراض القصة فى القرآن :

« ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم » .

فهو إذن وحى من عند الله ، لم يكن للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ به من علم ، لولا أن علمه الله .

* * *

وحين يصل السياق إلى هذا الحد من قصة عيسى ابن مريم تكون النفوس متهيأة لإدراك الحقيقة فى مولده ـ وإن كانت على غير مثال معروف ـ إنها حقيقة أولية معروفة لها سابقة مثلها غريبة ، إذا كان مألوف الناس هو الحكم والمقياس :

« إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم ، خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون »

فالمكونات المادية لآدم هى من نوع ذلك التراب. والتربة الأرضية تحتوى على جميع العناصر التى يتألف منها جسد الإنسان عند تحليله ، وعند خلوه من الحياة التى تجعل منه هذا الجسم الحى المعروف . ولا يزيد عليها إلا ذلك الجوهر اللطيف الذى لا يدرى أحد كنهه حتى اللحظة الحاضرة . جوهر الحياة المجهولة الكنه والمنشأ والمصير . وبها تتم كينونة الجسم الحى ؛ وبدونها هو من تراب ، لأن تركيبها من تركيبه، وفيه كل عناصرها المادية التى يعرفها التحليل .

وآدم أبو البشر خلقه الله من تراب ، فجسده لا يحتوى عنصرا زائدا لا تحتويه تربة الأرض

التى منها خلق . أما الحياة الزائدة على هـذا التراب ، والتى تتمم كينونته وتعلن عن وجوده الحى ، فقد جاءته من الـكلمة . جاءته من توجه الإرادة إلى إحيائه وإيجاده على هذه الهيئة الإنسانية الخاصة . هذه الإرادة التى يعبر عنها بكلمة «كن» لتقريبها إلى تصور البشر المحدود .

فماذا فى خلق عيسى من غرابة وماذا فى مولده من شذوذ ، حين يقاس إلى خلق آدم ، ومنحه الحياة ابتداء فى هذا الوجود ؟

« فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم ، فقل : تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ، ونساءنا ونساءكم ، وأنفسنا وأنفسكم ؛ ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الـكاذبين ».

وقد دعا النبي صلى الله عليه وسلم من يحاجونه من النصارى – وذكر أنهم وفد من نصارى نجران – إلى هـذا الاجتماع الحاشد ، ليبتهل الجميع إلى الله أن ينزل لعنته على الـكاذب من الفريقين . فأبوا وانصرفوا ، لأنهم خافوا أن تحل بهم لعنة الله ، ويحق عليهم محقه ، كما نصحهم كهانهم فى ذلك الحين .

وفى النهاية يجىء التعقيب على القصة معلنا الغاية النهائية منها : إثبات الوحدانية لله ونفى الشركة والبنوة عنه تعالى :

« إن هذا لهو القصص الحق ، وما من إله إلا الله . وإن الله لهو العزيز الحكيم » .

« فإن تولوا » بعدما تبين الحق ، من هذا الاستعراض والبيان ، فهو الإفساد إذن للحقائق والعقائد ، وأمرهم إلى الله لا يخفى عليه منهم شىء « فإن الله عليم بالمفسدين » .

« قُلْ يَا أَهْلَ الْـكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَـكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلا اللهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ .

« يَا أَهْلَ الْـكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِى إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ؟ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ؟ * هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَـكُمْ بِهِ عِلْمٌ

فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ ؟ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا ، وَاللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ .

« وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ ، وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ؟ * يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ؟ * وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ . قُلْ : إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللهِ أَنْ يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ . قُلْ : إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ .

« وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِماً ، ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ ؛ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ * إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

« وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ ؛ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ ؛ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَاداً لِي مِنْ دُونِ اللهِ وَلَٰكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ

الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ * وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا. أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ؟

« وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ. قَالَ: أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَٰلِكُمْ إِصْرِي؟ قَالُوا: أَقْرَرْنَا. قَالَ: فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ * فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ.

« قُلْ: آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا، وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ، وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ * وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ * كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ؟ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ * خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِ. أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ.

« لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ، وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ ».

انتهى الدرس السابق بعرض طرف من قصة عيسى ابن مريم ، يشهد بأن مولد عيسى ـ على غرابته ـ هو أمر عادى بالقياس إلى قدرة الخالق ومشيئته ؛ وإذن فلا مجال لتأليه عيسى أو عبادته .

وانتهى كذلك بطلب المباهلة ـ وهى الاجتماع والابتهال إلى الله أن ينزل لعنته على الكاذب فى دعواه ـ وقيل : إن القوم أبوها خوفا من اللعنة وإشفاقا !

فالآن يتجه السياق إلى دعوة أخرى لأهل الكتاب . دعوة إلى التوحيد بلا زيادة . كما يتجه إلى بيان المحاولات التى يبذلها أهل الكتاب لرد المسلمين عن هذا التوحيد . وينتهى إلى كلمة فاصلة حاسمة : « ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه » بعد أمر للرسول صلى الله عليه وسلم أن يعلن إيمان المسلمين بكل ما أنزل الله باعتباره دينا واحدا . دين التوحيد لله . ودين الإسلام الذى لا يقبل من أحد سواه .

وفى ذلك تتجلى سمة الإسلام الأصيلة . إنها العقيدة فى وحدانية الله ، وفى وحدة الدين الذى بعث به رسله جميعاً . كل رسول يأتى مصدقا لما بين يديه . مع تلبية رسالته للمقتضيات الجديدة التى تلت رسالة من قبله ؛ حتى يجىء محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيجىء بهذا الدين فى صورته الأخيرة الكاملة الشاملة ؛ مؤمنا بكل ما سبقه من كتب ، لأنها صور متتابعة من تلك الرسالة الواحدة .

***

« قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ، ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » .

إنها دعوة منصفة من غير شك ، إنها دعوة إلى مجرد التوحيد . وهوا لقدر المشترك بين الأديان جميعا ، وبين الرسالات جميعاً . وهو القدر الذى لا يتحقق الإيمان بدونه فى أى دين من أديان الله . فهى كلمة منصفة تسوى بين المؤمنين بالأديان جميعا ، ولا يأباها أحد وهو

مؤمن . وهى كفيلة بتنقية عقيدة الجميع من الخرافة والضلالة . فلا عبادة إلا لله وحده بلا شريك ؛ ولا ربوبية لغير الله ، دون أحد من خلقه ، ملكا كان أم رسولا .

لقد أمر الله رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يجهر بهذه الدعوة ليلتقى المؤمنون بالأديان جميعها على تلك الكلمة السواء . ويفيئوا إلى عقيدة التوحيد الخالصة المجردة التى لا تجعل الناس بعضهم أربابا لبعض وكلهم من خلق الله . . فإن استجابوا فهم قريبون إذن من الإسلام . إسلام الوجه والضمير لله وحده دون سواه ـ وإن تولوا وأبوا ـ « فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » موحدون لله ، لا نستسلم إلا لله .

***

ولقد كان تعصب اليهود والنصارى كل لدينه ، يدعو كلا الفريقين أن يحاول اعتبار ابراهيم يهوديا أو نصرانيا ، تقوية لدينه ، بضم ابراهيم إليه ! وهى محاولة مضحكة ، فإبراهيم سابق على اليهودية وكتابها التوراة ، وعلى النصرانية وكتابها الإنجيل ، فلا مجال للاحتجاج بأنه كان معتنقاً إحداهما . وهؤلاء اليهود والنصارى إنما يجادلون فيما ليس لهم به علم ، فهم لا يكتفون بالجدل حول موسى وعيسى وديانتيهما ، وهو ما يعلمونه ، بل يتجاوزون هذا إلى الخوض فيما لا يعلمون . فهو الجدل إذن لذات الجدل ، وهو الغرض يملى عليهم الرأى دون تحقيق :

« يا أهل الكتاب لم تحاجون فى إبراهيم ، وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده ؟ أفلا تعقلون ؟ ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم ، فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم ؟ والله يعلم وأنتم لا تعلمون . ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانيا، ولكن كان حنيفاً مسلماً ، وما كان من المشركين » .

وما دام ابراهيم قد كان حنيفا مائلا عن الشرك ، مسلما يتجه إلى التوحيد الخالص ، فليس لأى من اليهود أو النصارى إذن أن يدعى وراثته ولا الولاية على دينه ، وهم يبعدون عن عقيدته ، ويجعلون من العزير ربا ، ومن المسيح ربا ، مبتعدين بذلك عن التوحيد الخالص الذى هو دين ابراهيم .. إنما يكون محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن معه من المسلمين هم أولى الناس

بإبراهيم ، لأن عقيدتهم عقيدته ، وتوحيدهم لله توحيده . والأمر هنا أمر عقائد لا أمر نسب ودم . فالذين آمنوا بإبراهيم فى حياته ، واتبعوه فى توحيده ، والذين آمنوا بمحمد من بعد ، واتبعوه كذلك فى توحيده .. هؤلاء وأولئك هم أولى الناس بإبراهيم ؛ والله بعد ذلك هو ولى الجميع ، لأنهم أمة واحدة وملة واحدة :

« إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبى والذين آمنوا . والله ولى المؤمنين .

***

ثم يأخذ السياق فى بيان الرغبة العميقة فى نفوس أهل الكتاب أن يضللوا المؤمنين ، ويعموا عليهم الحق ، وينكروا ما لا سبيل إلى إنكاره من آيات الله البينات :

« ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم ، وما يضلون إلا أنفسهم وما يشعرون »

إن رغبتهم فى إضلال المؤمنين عن الهدى هى فى ذاتها ضلالة . فهم حين تجول فى خواطرهم هذه الرغبة إنما يضلون أنفسهم ، ويبعدونها عن الحق والهدى . ولكنهم لا يشعرون ، لأنهم مشغولون بتضليل المؤمنين . وما ينبع التضليل من قلب فيه هدى ، وما تجيش هذه الرغبة إلا فى قلب ضال ، يزيد من ضلالته أنه لا يشعر بالضلال !

ومن ثم يوجه الخطاب إليهم ، مسجلا عليهم الكفر بآيات الله وهى واضحة ظاهرة فى الرسالة الإلهية الأخيرة ؛ وتلبيس الحق بالباطل لستره وتشويهه وكتمانه عن الناس . وهم بما لديهم من الكتاب يعلمون الحق الذى جاء به محمد ، لأنه فى صميمه متفق مع ما بين أيديهم ، زائد عليه ما هو أرقى وأتم ، وهى شهادة له بأنه الحق الذى لا مراء فيه :

« يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون ؟ يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون ؟ » .

كذلك يعرض بعض المحاولات التى يبذلها فريق من أهل الكتاب لبلبلة عقائد المسلمين وتشكيكهم فيما هداهم الله من الدين :

« وقالت طائفة من أهل الكتاب : آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون » .

وهى طريقة ماكرة لئيمة . فإن إظهار الإيمان بالإسلام ثم الرجوع عنه ، يوقع بعض ضعاف العقول والقلوب فى بلبلة واضطراب . وبخاصة أن العرب كانوا أميين ، وكانوا يظنون أن أهل الكتاب أعرف منهم بمسائل الدين والعقيدة . فإذا رأوهم يؤمنون ثم يرتدون ، حسبوا أنهم إنما ارتدوا بسبب اطلاعهم على نقص فى هذا الدين ! وتأرجحوا بين اتجاهين فلم يكن لهم ثبات على حال . وما تزال هذه الخدعة تتخذ حتى اليوم ذريعة لبلبلة الأفكار واضطراب الصفوف فى الحروب وغير الحروب .

ويمضى هؤلاء الكائدون يؤكدون على إخوانهم أن يكون إيمانهم بالإسلام تظاهراً لإتمام الخدعة ، وألا يؤمنوا حقيقة إلا لأتباع دينهم :

« ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم »

وهنا يأمر الله نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يردهم إلى الحقيقة التى غفلوا عنها وهم يؤكدون على إخوانهم أن يحتفظوا بإيمانهم بعقيدتهم الخاصة ، وأن يتظاهروا بالإسلام تظاهرا : حقيقة أن الهدى الحق هو هدى الله ، وأن الإيمان الحق هو الذى يدعون إليه :

« قل : إن الهدى هدى الله »

ثم يمضى السياق يعرض أقوالهم بعد هذا الاعتراض :

« أن يؤتى أحد مثلما أوتيتم ، أو يحاجوكم به عند ربكم »

وإذن فهى الأثرة وهو الحرص على أن ينفردوا بأنهم أصحاب كتاب وأصحاب دين ؛ وهى الخشية أن يؤتى أحد مثلما أوتوا .. هذه واحدة . أما الأخرى فهى الخوف من أن تقوم الحجة للمسلمين عليهم عند الله ، إذا هم اعترفوا بما فى الإسلام من حق يصدق ما بين أيديهم .

وهى مشاعر لا تصدر عن إيمان صحيح ، ولا عن معرفة بحقيقة الرسالات والحكمة الكامنة وراءها . وليس إنكارهم على المسلمين ما يعلمونه من أمر دينهم بمانع أن يكون ذلك فضلا يصلهم من ربهم ، فالفضل فضل الله ، وهو الذى يمنحه لمن يشاء كيف شاء :

« قل : إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم . يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم » .

***

ولما كان الكلام فى الآيات السابقة عاما لأهل الكتاب ، وفيهم الصالحون والطالحون ، أراد ألا يظلم الصالحين ، وأن يميزهم ويذكرهم بالخير جزاء سلوكهم الخير ، إنصافا لهم وللحق والعدل الذى يتوخاه الإسلام مع أصحابه وأعدائه على السواء :

« ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ، ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائما . ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل ، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون » .

فمنهم إذن الأمين الذى يؤدى الأمانة ويرد الوديعة ، مهما تكن عظيمة ثمينة . والإنصاف يقتضى أن تثبت هذه الصفة لهذا الفريق .

ومنهم الخائن الماطل الذى لا يؤدى الأمانة إلا تحت الضغط والإلحاح والمراقبة . هؤلاء يفلسفون خيانتهم وغدرهم بأنه لا حرج عليهم أن يغدروا بهؤلاء العرب الأميين الذين لا كتاب لهم ! ويزعمون أن دينهم يأمرهم بهذا — كما يقول اليهود — وما من دين يمكن أن يقر الغدر والخيانة : « ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون » .

وهنا يقول القرآن كلمته فى الوفاء بالعهد وفى خيانة المواثيق ، ويقرر مبدأ من مبادئه الرفيعة التى تجعل العنصر الأخلاقى أساسا للسلوك مع الناس جميعا . مع الأصدقاء والأعداء سواء . وهذه إحدى خصائص الإسلام فى كل معاملاته ، لا تتخلف مع عدو أو صديق :

« بلى من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين . إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا ، أولئك لا خلاق لهم فى الآخرة ، ولا يكلمهم الله ، ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم » .

ونلمح هنا أن الوفاء بالعهد مرتبط بالتقوى . فهو إذن مسألة ضمير ومسألة شعور . ومن ثم لا تتخلف فى التعامل مع عدو أو صديق ، لأنها متصلة بعامل آخر ، متصلة بالله ، نابعة من تقواه ، بلا نظر إلى من يتعامل معهم ، وبلا تفرقة فى المعاملة بين هذا وذاك .

ونلمح كذلك أن الذين يخيسون بالعهد ، ويغدرون بالأمانة ، إنما يخيسون بعهد الله وأيمانهم بالله ، فالعلاقة فى هذا بينهم وبين الله ، لا بينهم وبين الناس . ومن ثم فلا نصيب لهم عند الله فى الآخرة ، أن كانوا يبغون بالغدر والنكث بالعهد نصيبا قليلا فى الدنيا ، ولا رعاية لهم من الله فى الآخرة ، جزاء استهانتهم بعهده فى الدنيا . فهو جزاء من نوع العمل ، ولقد اشتروا

ثمنا قليلا غنموه فى حياتهم مع الناس، فجزاؤهم أن يفوتهم نصيبهم كله فى تعاملهم مع خالق الناس.

ونجد هنا أن القرآن قد سلك طريقة التصوير وهو يعبر عن إهمال الله لهم فى الآخرة جزاء إهمالهم لعهده فى الدنيا . فهو يعبر عن هذا الإهمال بأن الله لايكلمهم ولاينظر إليهم ولا يطهرهم . وهى أعراض معروفة للإهمال الإنسانى. ومن ثم يتخذها القرآن وسيلة لتجسيم الموقف وتصوير المعنى المجرد للإهمال الإلهى فى صورة حسية تؤثر فى الوجدان البشرى أعمق مما يؤثر التعبير الذهنى .

* * *

وفريق آخر من أهل الكتاب يعتمد على أمية العرب ، ويزيد فى الكتاب ما ليس منه ، ويقرأ هذه الزيادات بترنيم وتنغيم ليوهم السامعين أنه بعض ما فى الكتاب ، ويقول : إنه من عند الله كذبا وهو يعلم أنه يكذب على الله :

« وإن منهم لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وماهو من الكتاب ، ويقولون : هو من عند الله وما هو من عند الله ، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون » .

ويبدو أن المقصود هم أولئك الذين يؤلهون عيسى ابن مريم ، ويزعمون أنه أمرهم بعبادته. والله يقول : إن آية كذب هذا الادعاء أنه محال أن يؤتى الله الكتاب والحكم والنبوة لرجل، ثم يقول هذا الرجل للناس : اعبدونى من دون الله . فالله يختار رسله من طبيعة خاصة ؛ فما يمكن أن يكذبوا وما يمكن أن يكفروا ، وما يمكن أن يدعوا الناس إلى شرك . إنما يدعونهم إلى الله وحده ، ويطلبون منهم أن يكونوا ربانيين منسوبين إلى الرب وحده ، متجهين إليه دون سواه :

« ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ، ثم يقول للناس : كونوا عبادا لى من دون الله ، ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون . ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا . أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون ؟ » .

* * *

ومن ثم ينتقل السياق إلى تقرير كلية من كليات العقيدة الإسلامية . هى الكلية التى يدور

عليها هذا الدرس وما قبله . كلية الوحدة بين الرسالات المتتالية ، وتصديق كل رسالة لسابقتها ، وتعاون الرسالات جميعا على تحقيق الفكرة الدينية الواحدة .

ولكنه يختار الأسلوب التصويرى لهذا المعنى المجرد . فإذا نحن أمام مجتمع الرسل – صلوات الله وسلامه عليهم – والله سبحانه يأخذ عليهم الميثاق أنه مهما آتى أحدهم من كتاب وحكمة ، فإن عليه أن يؤمن بالرسول الذى يتلوه وأن يناصره ويعاضده :

« وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ، ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه . قال : أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى ؟ قالوا : أقررنا . قال : فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين » .

إن هذا الميثاق لقائم . ولكنه قائم فى طبيعة الرسالات : فى تضامنها جميعا ، وفى توحد أساسها جميعا ، وفى تسلسلها جميعا ، وفى تمهيد كل رسالة للرسالة التى تليها ، هذا التمهيد الذى يعد تعميقا لها وتوثيقا . ولكن الأسلوب التصويرى هو الذى يرسم هذا المشهد ، ويجعله فى صورة حوار ، وفى صورة قبول وإيجاب ، تعميقاً للمعنى الذهنى المجرد المستفاد من طبيعة الرسالات .

وإذن فما دام الرسل جميعا متضامنين ، متعاونين ، متعاهدين – بحكم طبيعة الرسالة – مع الله أن يصدق بعضهم بعضا ، وأن ينصر بعضهم بعضاً .. ما دام ذلك كذلك :

« فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون . أفغير دين الله يبغون ، وله أسلم من فى السماوات والأرض طوعا وكرهاً وإليه يرجعون ؟ » .

إن دين الله واحد ، تعاقدت عليه الرسل جميعا ، وعهد الله واحد أخذه على الرسل جميعا . والإيمان بالدين الجديد هو الوفاء بهذا العهد ، والإسلام هو هذا الدين الأخير ، فمن تولى عنه فقد تولى عن دين الله الذى يتحتم على المؤمنين بالله جميعا أن يستجيبوا له . إنه الإسلام . والإسلام هو ناموس الوجود . الذى يشترك فى الاستجابة له كل موجود . لا الناس وحدهم . ولكن السموات كذلك والأرضون . وهذا الوجود كله محكوم بذلك الناموس . فهو مسلم لا يخرج على إرادة الله ومشيئته ، سواء رضيت نفسه بهذا الناموس فلباه ، أم كرهته وبقيت مسيرة به لا تتخطاه .. وإليه المرجع فى النهاية وإليه المصير .

إنها صورة شاملة عميقة للإسلام والاستسلام ، صورة كونية كاملة تأخذ بالمشاعر وترجف

لها الضمائر. صورة ذلك الناموس الأزلى الذى يحكم الكائنات جميعها حية أو جامدة ، ويردها إلى سنن واحد وشرعة واحدة وإرادة واحدة « وإليه يرجعون » فى نهاية المطاف .

إن هذه الحرية الواسعة للكائنات ، وهذا المجال الفسيح الذى تزاول فيه نشاطها ، وتسبح منه فى أفلاكها . . إن وراء هذا كله ذلك الناموس الذى يسلم له الجميع ، والذى يكمن وراء الجميع .

* * *

ولما كانت الأمة المسلمة هى الأمة المدركة لذلك الناموس ، العارفة بوحدة الرسل والرسالات ، فإن الله يأمر نبيها ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يعلن فى تفصيل وتحديد ، إيمان أمته بجميع الرسالات قبل الإسلام ، وبجميع الرسل قبل محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ ليبين بذلك حدود الإسلام كما تعنيه رسالته. الإسلام الذى لا يقبل الله من الناس سواه :

« قل : آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ، ونحن له مسلمون . ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين »

هذا هو الإسلام فى سعته وشموله لكل الرسالات قبله ، وفى احترامه لكافة الرسل قبل رسوله . وفى توحيده لدين الله كله ، ورجعه جميع الدعوات وجميع الرسالات إلى ذلك الأصل الواحد ، والإيمان بها جملة كما أرادها الله للعباد .

فأما الذين أدركوا هذه الوحدة وعلموا أن رسالة محمد حق بحكم تصديقها لما بين أيديهم ، وهو النبى الأمى وهم أهل الكتاب العارفون بطبيعة الديانات ، ولكنهم مع هذا كفروا بعد هذا الإدراك ، وارتدوا عن الحق وقد شهدوه . . هؤلاء لا يهديهم الله لأنهم رأوا الهدى فتنكبوه وكانوا يملكون أن يتبعوه ، وظلموا الحق وظلموا أنفسهم بهذا التنكب فاستحقوا جزاء الظالمين :

« كيف يهدى الله قوما كفروا بعد إيمانهم ، وشهدوا أن الرسول حق ، وجاءهم البينات ، والله لا يهدى القوم الظالمين . اولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولاهم ينظرون »

ولكن الإسلام ـ مع هذا ـ يفتح باب التوبة ، فلا يغلقه فى وجه ضال يريد أن يتوب ، ولا يتطلب منه إلا أن يطرق الباب ، بل أن يدلف إليه بدون استئذان ، وإلا أن يفىء إلى حمى ربه ويعمل صالحا فيدل على أن التوبة صادرة من قلبه :

« إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم »

فأما الذين لايتوبون ولا يثوبون . الذين يصرون على الكفر ويزدادون كفرا . . هؤلاء قد أفلتت منهم الفرصة ، وأغلقت دونهم الأبواب . فإذا ماتوا كفارا فلن تقبل منهم فدية ولو كانت ملء الأرض ذهبا ، وهو أقصى مايتخيل المرء أن يقدمه من فداء ؛ ولن يجدوا ناصرا ولا معينا ، بعد أن ضيعوا الفرصة وأهملوا المتاب :

«إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفرا لن تقبل توبتهم وأولئك هم الضالون . إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا ولو افتدى به . أولئك لهم عذاب أليم ومالهم من ناصرين »

***

وفى معرض الكفر والإيمان . وعندما يفترق طريقاهما وينفرجان . هنا يقرن القرآن بهذه القضية الكبرى من قضاياه ، قضية أخرى يحفل بها الإسلام كثيرا ، ويقرنها بأصل العقيدة فيه فى مواضع كثيرة ، دليلا على الصلة بينها وبين مكمن العقيدة . . إنها قضية البر والإنفاق . فالبر ثمرة الإيمان الظاهرة . فهى تذكر كثيرا كلما ذكر الإيمان :

« لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون . وما تنفقوا من شىء فإن الله به عليم »

إن الذين لايلحظون هذه الصلة الخفية بين الإيمان والبر لايلحظون تناسق السياق فى هذا الموضع . ولكن الذى يتتبع هذا القرآن ، يجد هذا الارتباط كثيرا متواترا فيه . فهى إشارة مقصودة لا فلتة عابرة . إن البر ثمرة الإيمان . فلا عجب إذن أن يقترن ذكره بذكر الإيمان.

[انتهى الجزء الثالث ويليه الجزء الرابع مبدوءاً بقوله تعالى :

كل الطعام كان حلا لبنى إسرائيل]

كتب للمؤلف

١	ـ فى ظلال القرآن	(فى ثلاثين جزءاً)	دار إحياء الكتب العربية .
٢	ـ العدالة الاجتماعية فى الإسلام	(طبعة ثالثة)	دار الإخوان للطباعة والصحافة
٣	ـ معركة الإسلام والرأسمالية	(« ثانية)	« « « «
٤	ـ السلام العالمى والإسلام	(« أولى)	مكتبة وهبة شارع إبراهيم بعابدين
٥	ـ التصوير الفنى فى القرآن	(« ثالثة)	دار المعارف
٦	ـ مشاهد القيامة فى القرآن	(« ثانية)	« «
٧	ـ النقد الأدبى : أصوله ومناهجه	(« أولى)	دار الفكر العربى
٨	ـ أشواك	(« «)	دار سعد بالفجالة
٩	ـ طفل من القرية	(« «)	لجنة النشر للجامعيين
١٠	ـ الأطياف الأربعة	(بالاشتراك مع إخوته)	« « «
١١	ـ القصص الدينى	(بالاشتراك مع الأستاذ السحار)	« « «
١٢	ـ الشاطىء المجهول	(شعر)	... نفد
١٣	ـ كتب وشخصيات	(نقد)	... «
١٤	ـ مهمة الشاعر فى الحياة	(«)	... «
١٥	ـ نقد كتاب مستقبل الثقافة	(«)	... «
١٦	ـ المدينة المسحورة	(قصة)	... «

الكتب التالية

(١) نحو مجتمع إسلامى   (٢) أمريكا التى رأيت

(٣) حلم الفجر (شعر)   (٤) قافلة الرقيق (شعر)

ولكن الإسلام – مع هذا – يفتح باب التوبة ، فلا يغلقه فى وجه ضال يريد أن يتوب ، ولا يتطلب منه إلا أن يطرق الباب ، بل أن يدلف إليه بدون استئذان ، وإلا أن يفىء إلى حمى ربه ويعمل صالحا فيدل على أن التوبة صادرة من قلبه :

« إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم »

فأما الذين لايتوبون ولا يثوبون . الذين يصرون على الكفر ويزدادون كفرا . . هؤلاء قد أفلتت منهم الفرصة ، وأغلقت دونهم الأبواب . فإذا ماتوا كفارا فلن تقبل منهم فدية ولو كانت ملء الأرض ذهبا ، وهو أقصى مايتخيل المرء أن يقدمه من فداء ؛ ولن يجدوا ناصرا ولا معينا ، بعد أن ضيعوا الفرصة وأهملوا المتاب :

«إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفرا لن تقبل توبتهم وأولئك هم الضالون . إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا ولو افتدى به . أولئك لهم عذاب أليم ومالهم من ناصرين »

***

وفى معرض الكفر والإيمان . وعندما يفترق طريقاهما وينفرجان . هنا يقرن القرآن بهذه القضية الكبرى من قضاياه ، قضية أخرى يحفل بها الإسلام كثيرا ، ويقرنها بأصل العقيدة فيه فى مواضع كثيرة ، دليلا على الصلة بينها وبين مكمن العقيدة . . إنها قضية البر والإنفاق . فالبر ثمرة الإيمان الظاهرة . فهى تذكر كثيرا كلما ذكر الإيمان :

« لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون . وما تنفقوا من شىء فإن الله به عليم »

إن الذين لايلحظون هذه الصلة الخفية بين الإيمان والبر لايلحظون تناسق السياق فى هذا الموضع . ولكن الذى يتتبع هذا القرآن ، يجد هذا الارتباط كثيرا متواترا فيه . فهى إشارة مقصودة لا فلتة عابرة . إن البر ثمرة الإيمان . فلا عجب إذن أن يقترن ذكره بذكر الإيمان.

[انتهى الجزء الثالث ويليه الجزء الرابع مبدوءا بقوله تعالى :

كل الطعام كان حلا لبنى إسرائيل]

كتب للمؤلف

١	ـ فى ظلال القرآن	(فى ثلاثين جزءاً)	دار إحياء الكتب العربية .
٢	ـ العدالة الاجتماعية فى الإسلام	(طبعة ثالثة)	دار الإخوان للطباعة والصحافة .
٣	ـ معركة الإسلام والرأسمالية	(« ثانية)	« « « «
٤	ـ السلام العالمى والإسلام	(« أولى)	مكتبة وهبة شارع إبراهيم بعابدين.
٥	ـ التصوير الفنى فى القرآن	(« ثالثة)	دار المعارف
٦	ـ مشاهد القيامة فى القرآن	(« ثانية)	« «
٧	ـ النقد الأدبى : أصوله ومناهجه	(« أولى)	دار الفكر العربى
٨	ـ أشواك	(« «)	دار سعد بالفجالة
٩	ـ طفل من القرية	(« «)	لجنة النشر للجامعيين
١٠	ـ الأطياف الأربعة	(بالاشتراك مع إخوته)	« « «
١١	ـ القصص الدينى	(بالاشتراك مع الأستاذ السحار)	« « «
١٢	ـ الشاطىء المجهول	(شعر)	... نفد
١٣	ـ كتب وشخصيات	(نقد)	... «
١٤	ـ مهمة الشاعر فى الحياة	(«)	... «
١٥	ـ نقد كتاب مستقبل الثقافة	(«)	... «
١٦	ـ المدينة المسحورة	(قصة)	... «

الكتب التالية

(١) نحو مجتمع إسلامى — (٢) أمريكا التى رأيت

(٣) حلم الفجر (شعر) — (٤) قافلة الرقيق (شعر)

في ظلال القرآن

الجزء الرابع

بقلم

سيّد قطب

الطبعة الأولى

طبع بدار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

بسم الله الرحمن الرحيم

« كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ، إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ، قُلْ: فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَمَنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ.

« قُلْ: صَدَقَ اللهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ * فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا، وَللهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ.

« قُلْ: يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَاللهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ * قُلْ: يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ؟ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ.

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ * وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ؟ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ، وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ * وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا، وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا، وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ، وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ. فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ

أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ؟ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ .

« تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ، وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعَالَمِينَ * وَلِلّٰهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ .

« كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ، تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ ، وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ ، مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ * لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى ، وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ * ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَمَا ثُقِفُوا ، إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ ، وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ ، وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ . ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ ، وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ، ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ * لَيْسُوا سَوَاءً ، مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ * يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ، وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ .

« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئاً ، وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ، وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ ، لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا ؛ وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ ، قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ . قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ * هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ ، وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا : آمَنَّا ، وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ

مِنَ الْغَيْظِ . قُلْ: مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ ، إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ، وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ، وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ » .

نحن مانزال مع أهل الكتاب منذ أوائل هذه السورة .. ومرة بعد مرة يتضح من السياق كتمانهم للحق الذى يعلمونه ، وجدالهم بالباطل حول إبراهيم وديانته ، وحول محمد ورسالته ، ومرة بعد مرة يجبهم القرآن بالحجة ، ويكشف عما فى جدالهم من انحراف .

فالآن يعرض السياق لمسألة أخرى من هذا الطراز . يعرض لمسألة ما حرمه الله عليهم فى التوراة تشديداً عليهم فى دينهم ، جزاء على ما كانوا يأتونه من عناد وعصيان ، وهم يدعون أن هذا التحريم لم يكن لهذه الأسباب ، إنما كان لأن جدهم إسرائيل ـ وهو يعقوب عليه السلام ـ كان قد حرمه على نفسه ، فبقى محرما على أبنائه .

فإذا جبههم القرآن بكذب ما يدعون ، دعاهم إلى اتباع ملة جدهم إبراهيم ، إن كانوا صادقين فى دعواهم أنهم إنما يتمسكون بما هم عليه لأنه دين أجدادهم ؛ وبين لهم أن دين محمد هو دين إبراهيم ، وأن بيت إبراهيم فى مكة هو البيت الذى يتوجه إليه محمد وقومه .

ومن ثم يترك السياق أهل الكتاب هؤلاء لما هم فيه ، ويتجه بالخطاب إلى الأمة المسلمة ـ كما سبق أن رأينا مثل ذلك فى سورة البقرة ـ مبينا لهذه الأمة تكاليفها ، آخذا فى إعدادها الكامل للجهاد فى سبيل ما حملت من أمانة ، محذراً إياها من خديعة أهل الكفر والضلالة ، ومن الركون اليهم والثقة بهم ، محرضا إياها على التضحية والصبر والجهاد ، مثبتا أقدامها على المكاره والمصاعب فى الطريق .

وهكذا حتى نهاية هذا الدرس . بل حتى نهاية هذه السورة .. فلنمض مع السياق القرآنى فى هذا الشوط منذ الآن :

***

« كل الطعام كان حلا لبنى إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة . قل : فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين »

وإذن فقد كان الطعام كله حلالا لبنى إسرائيل — إلا ماحرم إسرائيل على نفسه — كان ذلك قبل أن تنزل التوراة ، وقبل أن يسجل الله على بنى إسرائيل ما ارتكبوا من آثام استحقوا عليها هذا التحريم وهذا الحرمان . فإذا أحل الله للمسلمين فى الإسلام ما كان قد حرمه على بنى إسرائيل،فذلك عودة إلى الأصل فى الإباحة . فكل الطعام كان مباحا لبنى إسرائيل — إلاما اختار أبوهم أن يمنع نفسه منه فصار سنة من بعده لأبنائه — إنما هم الذين تسببوا فى حرمان أنفسهم ما كان فى أصله مباحا ، بما ارتكبوا من المعاصى ، فجاء التحريم خاصا بهم عقابا لهم . ولقد جاء عيسى عليه السلام ليحل لهم بعض الذى حرم عليهم ، فلم يستمعوا له ؛ ثم جاء محمد — صلى الله عليه وسلم — فإذا هم ينكرون عليه اباحة تلك المحرمات ، مدعين أنها محرمة منذ عهد أبيهم إسرائيل فهى إذن محرمة إلى الأبد ، لا يجوز أن ينسخ تحريمها فى ديانة تجىء !

« قل : فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين »

والتوراة شاهدة عليهم بأن إسرائيل لم يحرم على نفسه إلا أطعمة معينة ، وبأن ماحرم عليهم فى التوراة إنما حرم بمناسبات أخرى ، بعد وفاة أبيهم . والقرآن يجبههم بهذا فلا يملكون له دفعا ، فيسجل عليهم الافتراء ، ويسجل عليهم عاقبة الافتراء :

« فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك ، فأولئك هم الظالمون »

ويترك جزاء الظالمين مبهما . فكأنما وصف الظلم ذاته عقوبة . والواقع إنه لكذلك ، وبخاصة حين يكون مبعثه هو الافتراء على الله ، والادعاء على شرائعه بغير ما أراده ، وهم يعلمون أنهم كاذبون . إنه فى ذاته عقوبة ، لأن الضلال عن الحق والإصرار على هذا الضلال ، مؤذ لنفس صاحبه قبل أن يكون مؤذيا للآخرين ، يجفف فيها ينابيع الخير ، ويتركها فاسدة آسنة جامدة منحرفة عن الطريق السليم .

« قل : صدق الله » . . وإن الله لصادق . ولكن المناسبة هنا حاضرة لتقرير هذه الحقيقة . تقريرها لا لذاتها فهى مقررة . ولكن لما يريد أن يرتبه عليها من اتجاه :

« فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين »

إن مايدعونه من الاستمساك بديانة آبائهم لكذب وافتراء . فلقد كشف الله عن حقيقة ماحرم إسرائيل على نفسه ، وما حرم عليهم الله بسبب من أعمالهم وعنادهم وعصيانهم . ولقد كذبوا فى دعواهم وصدق الله فى بيانه . والله يأمرهم أن يستمسكوا بديانة آبائهم الصحيحة حقاً .

ودين إبراهيم هو الأصل ، وعليه كان يعقوب ، وهو هو دين محمد . فلئن ، أرادوا الصدق حقا فعليهم بدين إبراهيم ، وعليهم إذن أن يدينوا بالإسلام الذى ترجع جذوره إلى ملة إبراهيم ، وأن يتوجهوا إلى البيت الذى بناه ، والذى هو أول بيت خصص للعبادة ، وكتب لمن يلوذون به الأمن ، فقام كالواحة الظليلة فى الهاجرة ، يأوى إليه الخائفون فتسكن من حولهم المخاوف ، وتظلهم سكينة الأمن والقرار ، وتشملهم راحة الطمأنينة والسلام :

« إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين . فيه آيات بينات مقام إبراهيم ، ومن دخله كان آمنا ، ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ، ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين » .

هنا يأخذ القرآن أهل الكتاب بدعواهم . . إن كل حجتهم فى رفض الإسلام أنهم إنما يتبعون دين إسرائيل ودين إبراهيم . وإن كل حجتهم فى إنكار ماجاء به القرآن من تيسير وإباحة لما كان محرما عليهم فى التوراة ، أن إسرائيل قد حرمه على نفسه فهم مأخوذون بما أخذ به نفسه من تحريم . . فها هو ذا يلزمهم الحجة . . إن التوراة لتشهد ضدهم فى مسألة التحليل والتحريم؛ وإن ملة إبرهيم لتدعوهم إليها ممثلة فى الإسلام . وإن محمداً ليدعوهم إلى بيت إبراهيم ومقامه ليتوجهوا إليه ويحجوا . وإنه لأول بيت خصص لعبادة الله إن كانوا حريصين حقا على ديانة أوائلهم ومناسكهم وآثارهم . وإنه لبيت مبارك فيه للناس هدى ، وفيه للخائف أمن ، فما يثنيهم عنه إلا العناد وإلا الكفر :

« ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين » . .

وماهذه التكاليف إلا لخير البشر ، لا يعود على الله منها شىء ، وما هو فى حاجة إلى العباد . فليعملوا لأنفسهم إن كانوا عاملين .

وإن الأمر ليبلغ بهم أن يصدوا غيرهم عن الطريق . ولايدعوا الأمور تسير فى خطوطها المستقيمة . إنهم يبغونها معوجة ، ويحيدون بها عن الاستقامة ، وهم يعلمون الحق ، ويرونه رأى العين . فهو الإصرار إذن على الضلال بلا حجة ولا سبب ولا دليل :

« قل : يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله ، والله شهيد على ماتعملون ؟ قل : يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن ، تبغونها عوجا وأنتم شهداء ؟ وما الله بغافل عما تعملون » .

* * *

وحين يبلغ السياق إلى هذا الحد . حين يتبين أن أهل الكتاب لايأبون الإسلام لأن لهم عليه شبهة ، أو لأن عندهم فيه شكا ، أو لأن لهم فى إبائه حجة . إنما يأبونه عنادا ، ويتقولون عليه افتراء ، والتوراة بين أيديهم تجبههم وتكذب دعاواهم . . حين يتبين هذا كله يدع الله أهل الكتاب وشأنهم ، ويتوجه بالخطاب إلى الذين آمنوا ، يحذرهم فتنة أهل الكتاب وكيدهم ، وما يبيتون للمؤمنين من سوء ، وما يريدونهم عليه من ضلال ؛ وينهاهم عن الركون إليهم ، أواتباع رأيهم ، لأنهم لايقودونهم إلا إلى ضلال :

« يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين » .

وياله من منكر أن يكفر المؤمنون بعد إيمانهم ، وآيات الله تتلى عليهم ، ورسوله فيهم ؟ ألا إنه لأنكر النكر أن يصير :

« وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ؟ »

أجل إنها لكبيرة أن يغلب الكفر الإيمان ، ودواعى الإيمان حاضرة ، وآيات الإيمان حاضرة ، ورسول الله الذى يدعو إلى الإيمان قائم بالدعوة بين المؤمنين . . وإنها إذن لبعيدة أن يسلموا قيادهم لأئمة الكفر . وإذن فليمسكوا بحبل الله ويعتصموا بالله . لايحيدون عنه إلى رأى يأتيهم من أهل الكتاب ، ولا إلى مشورة منهم ، ولا إلى طريقة من طرائق حياتهم وتفكيرهم . والله قد اختار لهم الخير ، وهداهم سواء السبيل :

« ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم »

هدى إلى الناموس الذى لا يخطىء ولا يتخلف ، وهدى إلى الطريق الواحد الذى ينتهى إلى الحق الخالد ، وهدى إلى الصواب لأنه يسير فى طريقه الذى لاعوج فيه . وإذا كان أهل الكتاب يبغونها عوجا ، فهذا هو الصراط المستقيم فى متناول المؤمنين ، لايتركه ويلجأ إلى مشورة مخالفيه فى الدين ، وإلى طريقتهم فى الحياة وطريقتهم فى التفكير إلا من لايستشعر فى ضميره حقيقة دينه ، ومن لا يرتبط قلبه بإلهه .

ثم لفتة روحية من لفتات القرآن التى يهز بها القلوب :

« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته » . . .

إنها لفتة إلى الصلة بالله وتقواه. التقوى! ذلك الشعور الوجدانى العميق اللطيف. « اتقوا الله حق تقاته » . . اتقوا الله كما يجب أن يتقى . . ويدعها هكذا مبهمة . . يدعها لكل قلب يحسها كما يطيق ، ويتصورها كما يملك ، ويجتهد فيها ما استطاع . وكلما أوغل القلب البشرى فى هذا الطريق تكشفت له آفاق ، وجدت له أشواق . وكلما اقترب من الله بتقواه ، تيقظ شوقه إلى مقام أرفع مما بلغ ، ومرتبة وراء ما ارتقى ؛ وتطلع إلى المقام الذى يفنى عنده فلا يحس بالآماد .

« ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون »

والموت غيب لايدرى إنسان متى يدركه . فمن أراد ألا يموت إلا مسلما فسبيله أن يكون منذ اللحظة مسلما ، وأن يكون فى كل لحظة مسلما . فإنه لايدرى إن كان الموت قابعا خلف النفس الذى يتردد ، والذى قد يخرج فلا يدخل ، أو يدخل فلا يخرج .

« واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا . واذكروا نعمة الله عليكم ، إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم ، فاصبحتم بنعمته إخوانا ؛ وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها . كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون »

وكذلك تجىء الدعوة إلى الوحدة بعد الدعوة إلى الإسلام . فالوحدة فى الله هى جوهر العقيدة الإسلامية ، والارتباط بحبل الله هو وسيلة الوحدة .. والتعبير يسميه اعتصاما فيرسم صورة الالتجاء من خطر الفرقة إلى عصمة الوحدة . إنها عملية احتماء والتجاء واعتصام . والحياة الدنيا متاهة . متاهة شهوات ، ومتاهة عداوات . والاعتصام بحبل الله فيها عصمة والالتجاء إليه فيها نجوة .. هذا الحبل هو شريعة الله وتقوى الله ، والتحاب فى الله ، والاتجاه إلى الله .. فكلها تؤدى إلى التماسك حول محور واحد ، والتجاذب بجاذبية واحدة ، والاتجاه إلى قبلة واحدة ، والتجمع حول هدف واحد ، تسعى له الأمة كلها وتتوخاه .

ويذكر الله المسلمين بنعمة عليهم . نعمة تاليف القلوب ، ورأب الصدوع ، والارتفاع على حزازات الصدور ، والتفانى فى غاية أسمى من الشخصيات الزائلة والامجاد الفارغة ، والفخر بالعصبيات والأنساب .. وإنها لمعجزة تلك التى تحول شتات العرب فى جاهليتهم وحدة ، وعداوتهم فى الجاهلية مودة ، وتربط على قلوبهم هذا الرباط الذى لم تشهد له البشرية من قبل أو من بعد نظيرا .

والنص هنا يعمد إلى مكمن المشاعر والروابط : « القلب » فلا يقول فألف بينكم ، إنما ينفذ إلى المكمن العميق : «فألف بين قلوبكم» وهو تعبير مصور مقصود . كذلك يرسم النص صورة لما كانوا عليه . بل مشهدا حيا متحركا يتملاه الخيال ، ويتوقع فى كل لحظة حركة كانت ستكون، لو لم تدركهم معجزة الإيمان :

« وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها » .

فيتصور الخيال هؤلاء الأناسى على شفا حفرة من النار ؛ ويظل يتوقع حركة السقوط المتوقعة ، حتى تتم حركة الإنقاذ المفاجئة . والمشهد شاخص حتى تتبعه القلوب واجفة خافقة والعيون تتملاه !

« كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون » .

وهو بيان بالعبارة وبيان بالصورة . وبيان للعقل والقلب والضمير .

***

« ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ؛ وأولئك هم المفلحون » .

إنها تكاليف الأمة المسلمة ، تأتى الدعوة إليها بعد الإعراض عن خطاب أهل الكتاب ، وبعد دعوة المؤمنين أن يحذروا فتنتهم إياهم عن دينهم القويم ، والهتاف بهم للاعتصام بحبل الله، والاتجاه على هداه .. وما كان ذلك كله إلا استعدادا لأداء الأمانة والنهوض بعبئها فى الجماعة :

الدعوة إلى الخير ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، تنتدب له طائفة ، يدعوها القرآن أمة تعظيما لها وتكثيرا . . وإنها لفريضة على الأمة المسلمة كلها ؛ ولكنها فريضة لا تملك الأمة كلها أن تنهض بها ، لأنها تحتاج إلى استعداد خاص ، وإلى إعداد خاص. فواجب الأمة إذن أن تندب لها من ينهض بها ، وتعينه كذلك عليها. وعندئذ فقط تسقط الفريضة عن الجماعة الإسلامية متى نهض بها القادرون عليها ، المهيأون لها .. « وأولئك هم المفلحون » المفلحون فى دعوتهم لأنهم يدعون إلى الخير . المفلحون فى حياتهم لأنهم ينفقونها فى أداء فريضة جامعة مكتوبة على الأمة المسلمة . المفلحون فى أخراهم بما قدموا بين أيديهم من حسنات .

والدعوة إلى الخير ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر .. تكليف ليس بالهين ولا

باليسير ، إذا نظرنا إلى طبيعته ، وإلى اصطدامه بشهوات الناس ونزواتهم . وفيهم الجبار المتكبر، وفيهم الحاكم المتسلط ، وفيهم الهابط الذى يكره الصعود .. ولكنه مع ذلك تكليف محبب إلى النفس المؤمنة بالله ، التى لا تعتز إلا به ولا تخشى إلا إياه. إنه يشعر هذه النفس بأن لها فى الحياة وظيفة ، وبأنها لا تعيش لذاتها المحدودة ، إنما تعيش لوظيفة أكبر ، ولمحيط أوسع، ولأفق أعلى من واقع الأرض ، وحدود الحياة .. على أن هذا التكليف هو السبيل لضمان وحدة الأمة وتماسكها وتكافلها ، وتوحيد مفاهيمها للدين ومفاهيمها للحياة . فقد تضل الجموع إذا لم تجد بينها هؤلاء الهداة ٠ .

« ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات ، وأولئك لهم عذاب عظيم ، يوم تبيض وجوه وتسود وجوه . ، فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ؛ وأما الذين ابيضت وجوههم ففى رحمة الله هم فيها خالدون» .

وهكذا نحن ما نزال فى جو الدعوة إلى الوحدة..أولا بالاعتصام بحبل الله . وثانيا بتخصيص طائفة من الهداة . وثالثا بالتحذير من الفرقة ، والاعتبار بالذين تفرقو واختلفوا من بعد ماجاءهم البينات ، وما ينتظرهم من عذاب عظيم ، فى ذلك اليوم الذى تبيض فيه وجوه وتسود فيه وجوه . .

وهنا يرسم السياق مشهدا من المشاهد القرآ نية الفائضة بالحياة .فنحن فى مشهد هول. ذلك الهول يتمثل لا فى ألفاظ ولا فى أوصاف ، ولكنه يتمثل فى آدميين أحياء ، وفى وجوه وسحن وسمات .. هذه وجوه قد أشرقت بالنور ، وفاضت بالبشر ، حتى لتبيض من البشاشة والإشراق ..وتلك وجوه كمدت من الحزن ، واغبرت من الغم، حتى لتسود من الكآبة والانقباض.. وليست مع ذلك متروكة إلى ما هى فيه ، ولكنه التبكيت والتأنيب :

« أ كفرتم بعد إيمانكم ؟ فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون » .

« وأما الذين ابيضت وجوهم ففى رحمة الله هم فيها خالدون » .

وهكذا ينبض المشهد بالحياة وبالحركة وبالحوار .. فإذا هو مشهد مجسم حاضر لا معنى مجرد باهت :

وتلك طريقة القرآن ...

« تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق . وما الله يريد ظلما للعالمين . ولله ما فى السماوات وما فى الأرض، وإلى الله ترجع الأمور » .

تلك الصور . تلك الحقائق . تلك المصائر .. تلك آيات الله وبيناته لعباده . نتلوها عليك بالحق. فهى حق فيما تقرر من مقدمات ونتائج . وهى حق فيما تعرض من تصرفات وجزاءات . وما يريد الله بها أن يوقع بالعالمين ظلما ، فهو غنى عن ظلمهم . وهو الذى يملك ما فى السماوات وما فى الأرض وإليه مصير الأمور . إنما يريد الله بترتيب الجزاء على العمل أن يحق الحق ، وأن يجرى العدل ،وأن ينال كل إنسان جزاء ما أحسن أو أساء.فهذا أجدر شىء بعالم لم يخلق عبثا. إنما خلق بالحق ، ليعيش بالحق وينتهى إلى الحق . والحق يقتضى أن يكون لكل عمل جزاؤه ، وأن يكون لكل شىء وزنه ، وألا يترك الناس سدى ، وألا يكون الخير والشر سواء ..

* * *

ومن ثم عودة إلى خطاب الأمة المسلمة ، يعرفها قدرها فى هذه الأرض ، كى تنهض بواجبها عن بينة ؛ ويعرفها بم استحقت هذا القدر ، وبم كانت لها هذه المنزلة :

« كنتم خير أمة أخرجت للناس . تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله » .

« كنتم خير أمة أخرجت للناس » .. أخرجت .. إنه لتعبير يلفت النظر . لفظ أخرج ، وبناؤه للمجهول .. وهو يكاد يشى باليد الخفية المدبرة . تخرج هذه الأمة إخراجا ؛ وتدفعها إلى الظهور دفعا من ظلمات الغيب ، ومن وراء الستار السرمـدى الذى لا يعلم ما وراءه إلا الله .. إنهـا لفظة تصور حركة خفية المسرى لطيفة الدبيب . حركة تخرج على مسرح الوجود أمة ! فيالها من يد قادرة مدبرة ، تشى بها لفظة مصورة معبرة !

أما لماذا كانت هذه الأمة خير أمة أخرجت للناس .. فإنها لم تكن محاباة ، ولم تكن جزافا ولم تكن كما قالت يهود : شعب الله المختار . ولو كفر وفجر وغـدر . . كلا ! إنما هو العمل الإيجابى لإصلاح الحياة وترقية الحياة . وإنما هو الجزاء الحق على العمل الحق :

« تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله »

إنه النهوض بتكاليف الأمة الخيرة . الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بكل ما فيهما من

مشقة ، وبكل ما حولها من متاعب ، وبكل ما فى طريقهما من أشواك . إنه التعرض للشر، والتحريض على الخير .. وكلاهما متعب شاق . ولكن كلاهما ضرورى لإقامة مجتمع صالح ، وتحقيق حياه تستحق أن تعاش .. ثم هو الإيمان بالله .. وقد تأخر فى النص لأنه يجىء هنا كالباعث للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . فما يصبر على تكاليفهما إلا مؤمن يبتغى وجه الله ، ويرتكن فى كفاحه لله . فهذا الإيمان هو السند الباقى للدعاة ، وهم يواجهون طاغوت الشر فى عنفوانه وجبروته ، ويواجهون طاغوت الشهوة فى عرامتها وشدتها ، ويواجهون هبوط الأرواح وكلل العزائم وثقلة المطامع . وزادهم هو الإيمان ، وعدتهم هى الإيمان . وكل زاد سواه ينفد ، وكل عدة سواه تنهار ..

« ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم » .

ولا ستعصموا بهذا الإيمان فى وجه المطامع والشهوات ، التى قادتهم إلى الخلاف ، وقادتهم إلى الزيغ والانحراف ؛ ثم قادتهم فى النهاية إلى الإعراض عن آيات الله البينات .

« منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون » .

المؤمنون الذين انتهوا إلى الإسلام ، يقودهم إيمانهم الحق بما بين أيديهم من الكتاب . والفاسقون الذين خرجوا عن الطريق ، ولم يسايروا منطق كتابهم فحادوا عن الإيمان .

* * *

ومن ثم تهوين وتصغير من شأن أهل الكتاب الفاسقين فى نفوس المؤمنين :

« لن يضروكم إلا أذى ، وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون . ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا ، إلا بحبل من الله وحبل من الناس ، وباءوا بغضب من الله ، وضربت عليهم المسكنة . ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ، ويقتلون الأنبياء بغير حق . ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » .

« لن يضروكم إلا أذى » .. فلن يكون ضررا عميقا ولا أصيلا يتناول أصل الدعوة ، أو يؤثر فى المكانة ، أو يجلى عن الأرض .. إنما هو أذى عارض ، وألم ذاهب .. فأما حين يشتبكون معكم فى قتال فالهزيمة مكتوبة عليهم والنصر ليس من نصيبهم .. ذلك أنه قد ضربت عليهم الذلة وكتبت لهم مصيرا . فهم فى كل أرض يذلون لا تعصمهم إلا ذمة الله وذمة المسلمين ، ذلك حين يدخلون فى هذه الذمة فتعصم دماءهم وأموالهم ، وتنيلهم الأمن والطمأنينة . وباءوا بغضب

الله . كأنما رجعوا من رحلتهم يحملون هذا الغضب عن جدارة واستحقاق ! وكتبت عليهم المسكنة تعيش فى ضمائرهم ، وتكمن فى مشاعرهم ..

ولقد وقع ذلك كله بعد نزول هذه الآية . فما كانت معركة بين المسلمين وأهل الكتاب إلا كتب الله فيها للمسلمين النصر ـ ما حافظوا على دينهم واستمسكوا بعقيدتهم ـ وكتب لأهل الكتاب المذلة والهوان . إلا أن يعتصموا بذمة المسلمين . ولقد رعى المسلمون ذمتهم دائما ، وكانوا عند كلمتهم ، فمن استعصم بذمتهم عصم ، ومن استظل بلوائهم لم تدركه لأواء .

ويكشف القرآن الكريم عن سبب هذا القدر المكتوب على أهل الكتاب، فإذا هو الكفر بآيات الله ، وقتل الأنبياء بغير حق ، المنبعثان بدورهما عن العصيان والاعتداء . وإذن فهو الجزاء العدل . إنه الذلة فى مقابل التمرد ، والمسكنة فى مقابل التطاول . والهزيمة فى مقابل الاعتداء .. جزاء وفاقا وما ربك بظلام للعبيد .

* * *

وإنصافا للقلة الخيرة من أهل الكتاب ، يعود النص عليهم بالاستثناء ، فيقرر أن أهل الكتاب ليسوا جميعا سواء ، وليسوا جميعا فى هذه الصورة القاتمة التى أسلفها السياق :

« ليسوا سواء . من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون . يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويسارعون فى الخيرات وأولئك من الصالحين . وما يفعلوا من خير فلن يكفروه ، والله عليم بالمتقين »

وهى صورة وضيئة لمن آمنوا من أهل الكتاب . فقد آمنوا إيمانا صادقا عميقا ، فاستحقوا هذا الاستثناء من تلك الصورة القاتمة الذليلة .. إنهم أمة مستقيمة على الهدى ، قائمة بالعبادة ، مؤمنة بالله واليوم الآخر ، ناهضة بتكاليف الأمة المسلمة من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . سباقة إلى الخير مسارعة فيه .. «وأولئك من الصالحين » وهو وصف يمهد له العمل ويقرره الواقع .. وإذن فهم مجزيون على صلاحهم ، ولن يضيع عليهم ما قدمت أيديهم : « وما يفعلوا من خير فلن يكفروه » والله يعلم ما فى القلوب ويجازى عليه « والله عليم بالمتقين » فالجو جو تقوى بما فيه من تلاوة آناء الليل وسجود، وإيمان بالله واليوم الآخر ، ونهوض بالتبعات . مما ينبعث عن التقوى حين تشمل القلوب ، وتغمر الأرواح .

هذا فى جانب . وفى الجانب الآخر الكافرون . الكافرون الذين لن تنفعهم أموالهم ولا أولادهم . ولن تنفعهم نفقة ينفقونها فى الدنيا ، ولن ينالهم شىء منها فى الآخرة ، فهى حابطة هالكة ليس لهم فيها نصيب ..

ولكن التعبير القرآنى لا يذكرها هكذا . إنما يرسم مشهدا حسيا ينبض بالحركة ويفيض بالحياة .

« إن الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا ، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . مثل ما ينفقون فى هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته ، وما ظلمهم الله ، ولكن أنفسهم يظلمون » .

وننظر فإذا نحن أمام حقل تهيأ للإخصاب ، ثم إذا العاصفة تهب . إنها عاصفة باردة ثلجية . تحرق هذا الحرث بما فيها من صِر — واللفظة ذاتها كأنما هى مقذوف يلقى بعنف فيصور معناه بجرسه النفاذ — وإذا الحرث كله مدمر خراب . .

إنها لحظة تم فيها كل شىء . تم فيها الدمار والهلاك . وإذا الحرث كله يباب ! ذلك مثل ما ينفق الذين كفروا فى هذه الدنيا . ومثل ما بأيديهم من نعم الأموال والأولاد .. كله إلى هلاك وفناء ، دون ما متعة حقة ودون ما جزاء .

* * *

وفى نهاية الدرس الذى ابتدأ بيانا لما فى سلوك أهل الكتاب من انحراف ، وكشفا لما فى جدالهم من مغالطة . واتجاها للمسلمين أن ينهضوا بتكاليفهم دون أن يلقوا بالا إلى المنحرفين المغالطين .. فى نهاية هذا الدرس يجىء التحذير للمؤمنين من أن يتخذوا من أعدائهم هؤلاء بطانة ، وأن يجعلوا منهم أمناء على أسرار المسلمين ومصالحهم وهم لهم عدو .. يجىء هذا التحذير فى صورة شاملة خالدة ، ما نزال نرى مصداقها فى كل وقت وفى كل أرض . صورة رسمها هذا القرآن فتغفل عنها أهل القرآن ، فأصابهم من غفلتهم وما يزال يصيبهم الشر والأذى والهوان :

« يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ، ودوا ما عنتم ، قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر . قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون . ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم ، وتؤمنون بالكتاب كله ، وإذا لقوكم قالوا آمنا ، وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل

من الغيظ . قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور . إن تمسسكم حسنة تسؤهم ، وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها . وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا. إن الله بما يعملون محيط».

إنها صورة كاملة السمات ، ناطقة بدخائل النفوس ، وشواهد الملامح ، تسجل المشاعر الباطنة والانفعالات الظاهرة ؛ وتسجل بذلك كله نموذجا بشريا مكرراً فى كل زمان وفى كل مكان . ونستعرضها اليوم وغدا فيمن حول المسلمين من أعداء يتظاهرون للمسلمين بالمودة ، فتكذبهم كل خالجة وكل جارحة . وينخدع المسلمون بهم فيمنحونهم الود والثقة ، وهم لا يريدون للمسلمين إلا الاضطراب والخبال ، ولا يقصرون فى إعنات المسلمين وبذر الشوك فى طريقهم ، والكيد لهم والدس ، ماواتتهم الفرصة فى ليل أو نهار .

والمسلمون فى غفلة عن أمر ربهم بألا يتخذوا من هؤلاء بطانة ، وألا يجعلوا منهم حفظة لأسرارهم وهم عليها غير مؤتمنين . . المسلمون فى غفلة عن أمر ربهم هذا يتخذون من أمثال هؤلاء مرة خبراء فنيين ، ومرة أساتذة ومربين ، ومرة حلفاء ومستشارين .

والمسلمون فى غفلة عن تحذير الله لهم يوادون من حاد الله ورسوله ، ويفرغون أسرارهم وأخبارهم لأعداء دينهم ، الذين لا يرضيهم شىء كما يرضيهم العنت يحل بالمسلمين ، والفرقة تأكل صفوفهم ، والخداع يذهب بهم إلى الفخاخ المنصوبة . .

والمسلمون فى غفلة من دينهم يؤلفون جماعات الصداقة بينهم وبين أعدائهم هؤلاء . ويفتحون لهم صدورهم وقلوبهم ، والله سبحانه يقول :

« ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم ، وتؤمنون بالكتاب كله ، وإذا لقوكم قالوا : آمنا ، وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ »

والله سبحانه يقول :

« إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها »

ومرة بعد مرة تصفعنا التجارب المرة ، ولكننا لا نفيق . . مرة بعد مرة تظهر الجاسوسية علينا والخيانة لنا فى أعداء ديننا الذين ائتمناهم على أسرارنا . ومرة بعد مرة نكشف عن المكيدة تلبس أزياء مختلفة . ومرة بعد مرة تنفلت ألسنتهم فتنم عن أحقادهم التى لا يذهب بها ود يبذله المسلمون ، ولا تغسلها سماحة تفيض بها نفوسهم . . ومع ذلك نعود فنأمن أعداء ديننا ونشاركهم أسرارنا ، ونفتح لهم قلوبنا . وتبلغ بنا المجاملة ان نجاملهم فى عقيدتنا ، وأن

ننزل فى سبيل إرضائهم عن شعائرنا . . ومن هنا يحل علينا جزاء المخالفين عن أمر الله . ومن هنا نذل ونضعف ونستخذى . ومن هنا نلقى العنت الذى يسر أعداءنا ، ونلقى الخبال الذى يودونه لنا . .

وها هو ذا كتاب الله يدعونا دعوته الخالدة الباقية :

« يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا بطانة من دونكم لايألونكم خبالا . ودوا ما عنتم . قدبدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر »

وهاهو ذا كتاب الله يعلمنا كيف نتقى كيدهم ، وندفع أذاهم ، وننجو من الشر الذى تكنه صدورهم ، ويفلت على ألسنتهم منه شواظ :

« وإن تصبروا وتتقوا لايضركم كيدهم شيئا . إن الله بما يعملون محيط »

فهوالصبر والعزم والصمود أمام قوتهم إن كانوا أقوياء . وأمام مكرهم وكيدهم إن سلكوا طريق الوقيعة والخداع . إنه الصبر والتماسك لا الانهيار والتخاذل . ولا التنازل عن العقيدة كلها أو بعضها مرضاة لهم ، وكسبا لودهم الذى لاوجود له ، ولا يمكن أن تنطوى عليه صدورهم للأمة المسلمة فى مكان أو زمان . . ثم هو الصلة بالله وحده ، والخوف من الله وحده . هوتقوى الله التى تربط القلوب به وتوجهها إليه . وحين يتصل القلب بالله فإنه سيحقر كل قوة غيرقوته ، وستشد هذه الرابطة من عزيمته فلا يستسلم من قريب ، ولا يخشى كيدا ولا يبالى عدوا ؛ ولايتخلى عن عقيدته فى سبيل إرضاء المخالفين له فى العقيدة ؛ ولا يركن إليهم طمعا فى نصرهم ـ وما النصر إلا من عند الله ـ ولا اتقاء لشرهم « إن الله بما يعملون محيط » .

هذا هو الطريق . . العزيمة والتقوى . التماسك والارتباط بالله . وما استمسك المسلمون فى تاريخهم كله بعروة اللهوحدهاإلا عزوا وانتصروا ، ووقاهم الله كيد أعدائهم ، وجعل كلمة الله هى العليا . وما استمسك المسلمون فى تاريخهم كله بعروة أعدائهم ، واستمعوا إلى مشورتهم ، واتخذوا منهم بطانة وأصدقاء ومستشارين وخبراء . إلا كتبالله عليهم الهزيمة ، ومكن لأعدائهم فيهم ، وأذل رقابهم لهم ، وأذاقهم وبال أمرهم . . والتاريخ كله شاهد على أن كلمة الله خالدة ، وأن سنة الله لاتتخلف ؛ فمن عمى عن سنة الله المشهودة فى الأرض ، فلن ترى عيناه إلا آيات الذلة والانكسار .

« وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ، وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا، وَاللهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ.

« وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ، فَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ: أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ * بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ * وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ، وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ، وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ * لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ * لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ، أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ * وَلِلهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ، وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ.

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً، وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ * وَأَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ.

« وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ، وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ * وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ، وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللهُ؟ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا، وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ.

« قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ، فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ * هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ.

« وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ . وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ، وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا ، وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ *وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ * أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ * وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ ، فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ *وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ . أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ؟ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ، وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ * وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا . وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا ، وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا ، وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ * وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ، فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ * وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا : رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا ، وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا ، وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ * بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ * سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا ، وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ، وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ* وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ ، حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ ، وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ ، مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ، ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ، وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ ، وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ* إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ ، فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ ، وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ *

ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاساً يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ، وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ، يَقُولُونَ: هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ؟ قُلْ: إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ، يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَالَا يُبْدُونَ لَكَ، يَقُولُونَ: لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا. قُلْ: لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ، وَلِيَبْتَلِيَ اللهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ، وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ، وَاللهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا، وَلَقَدْ عَفَا اللهُ عَنْهُمْ. إِنَّ اللهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ.

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى: لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا، لِيَجْعَلَ اللهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ، وَاللهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ، وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ * وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللهِ تُحْشَرُونَ.

« فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ، وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ، فَاعْفُ عَنْهُمْ، وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ، وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ، فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ، إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ.

« إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ، وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ؟ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ.

« وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ، وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ.

« أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ؟ * هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللهِ، وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ.

« لَقَدْ مَنَّ ٱللهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ ، وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ ، وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ : أَنَّى هَـٰذَا ؟ قُلْ : هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ، إِنَّ ٱللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللهِ ، وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ * وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا ، وَقِيلَ لَهُمْ : تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَوِ ادْفَعُوا ، قَالُوا : لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ ، هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ ، يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ، وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ * ٱلَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا : لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا . قُلْ : فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ .

« وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ ٱللهِ أَمْوَاتًا ، بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ ٱللهُ مِنْ فَضْلِهِ ، وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ ٱللهِ وَفَضْلٍ ، وَأَنَّ ٱللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ * ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا لِلهِ وَٱلرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ * ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ : إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا ، وَقَالُوا : حَسْبُنَا ٱللهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ * فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ ٱللهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ ، وَٱتَّبَعُوا رِضْوَانَ ٱللهِ ، وَٱللهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ » .

انتهى الدرس الماضى بتحذير الله للمؤمنين أن يتخذوا بطانة من دونهم لا يألونهم خبالا . ووعدهم بألا يمسهم من هؤلاء كيد إذا هم صبروا على كيدهم ، واتقوا الله فلم يخافوا سواه ، ولم يركنوا إلا إليه ، ولم يتخذوا من أعداء دينهم أولياء ، ولا أصدقاء .

وهنا يستمر السياق فى هذا الجو بتصوير غزوة أحد ، وما وقع فيها من اضطراب فى صفوف المسلمين ، ومن أراجيف قبل المعركة وفى ثناياها .. والذى وقع فى غزوة أحد إنما هو نموذج

من أفاعيل المنافقين الذين كانوا مندسين فى صفوف المؤمنين ، حتى ميزهم الله بالمحنة ، وعزلهم بالشدة .. وهذا النموذج إنما هو تطبيق وتصديق لذلك التحذير .

والآن نحن أمام غزوة أحد ، وقد استغرق الدرس الذى بين يدينا نحو ثلاثة « أرباع » قرآنية .. وهو درس طويل أردنا أن يستوعب كل ما جاء عن هذه الغزوة وما لابسها . وهو يعرض نموذجا قرآنيا كاملا لطريقة القرآن فى عرض الأحداث . .

إن السياق القرآنى لايعرض الحادثة عرضا تاريخيامسلسلا بقصد التسجيل.إنما هو يعرضها للعبرة والتربية واستخلاص المعانى الكامنة وراء الحوادث ، ورسم سمات النفوس وخلجات القلوب ،وتصوير الجو الذى صاحبها ، والسنن الكونية التى تحكمها ، والمبادىء الإنسانية التى تحققها . . وبذلك تستحيل الحادثة محورا أو نقطة ارتكاز لثروة ضخمة من المشاعر والسمات والنتائج والاستدلالات . يبدأالسياق منها ، ثم يستطرد حولها، ثم يعود إليها ، ثم يجول فى أعماق الضمائر وفى أغوار الحياة . ويكرر هذا مرة بعد مرة ، حتى ينتهى بالقصة إلى خاتمتها، وقد ضم جناحيه على حفل من المعانى والدلائل والآيات والتوجيهات ، لم تكن القصة إلا وسيلة إليها ، ونقطة ارتكاز تتجمع حواليها .

وهكذا سنجد غزوة أحد فى هذا السياق .

* * *

« وإذ غدوت من أهلك تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال ، والله سميع عليم ، إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا ، والله وليهما ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون » .

إنه التذكير ، واستعادة الحادث بملابساته ليجسم هذه الذكرى :

« وإذ غدوت من أهلك تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال » .

وكان ذلك حين علم الرسول — صلى الله عليه وسلم — بمسيرة قريش إلى المدينة . فجلس يستشير أصحابه فى الخطة ، وكان بعضهم — وعلى رأسه عبد الله بن أبى — يرى أن يبقى المسلمون فى المدينة ، ويدعوا المشركين يهاجمونهم وهم فى قلب مدينتهم متحصنين بها ، متمكنين من مراكزهم فيها . بينما كان بعض الشباب المشتاق إلى لقاء الله ، وبخاصة من فاتتهم غزوة بدر ، وهم فى شوق إلى الجهاد ، يرون أن يخرج جيش المسلمين ليلتقى بجيوش المشركين خارج المدينة .

ولقد ألح هذا الفريق على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وأظهر من الحماسة والتدافع حتى غلب رأيهم وظهر ، فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلبس لامته ودرعه .

وبينما الرسول فى داره يعد عدته ، أحس هؤلاء المتحمسون شيئاً من الندم ، أن يكونوا بتشددهم واندفاعهم قد حملوا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — على خطة لا تستريح إليها نفسه . حتى إذا خرج عليهم ، عرضوا عليه ما جال فى نفوسهم ، وفوضوا إليه الأمر ، إن شاء أقام وهم معه ، وإن شاء خرج فكانوا فى الطليعة .

وهنا يلقى الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — درسا من دروسه النبوية العالية .. إن للإنسان أن يتريث ويستشير ، ويقلب أوجه الرأى ماشاء. أما حين ينتهى من مرحلة الاستشارة والتفكير ، ثم يختار خطة ويعتزم ، فلا سبيل بعد ذلك إلى تردد ، ولا إلى إعادة الأخذ والرد . ولكن ليمض فيما اعتزم فالعودة إلى تقليب وجوه الرأى بعد هذا إنما هى ضعف وتردد ينتهيان إلى التأرجح الدائم الذى لا ينقطع .. قال — عليه الصلاة والسلام — «ما ينبغى لنبى إذا لبس لامته أن يرجع حتى يحكم الله له » ..

ثم غدا النبى — صلى الله عليه وسلم — من بيت عائشة فى ألف من أصحابه ، ولم يبعدوا حتى انفصل عبد الله بن أبى بثلث الجيش مغضبا أن الرسول لم يأخذ برأيه ، واستمع إلى الشباب من أهل المدينة ؛ وقال متهكما : « لو نعلم قتالا لا تبعناكم » فدل بهذا على أن قلبه لم يخلص للعقيدة ، وأن شخصه ما يزال يملأ قلبه ، ويطغى على العقيدة فى ذلك القلب ، الذى ينفسح إما لحب الذات وإما لحب الله .

وكادت طائفتان من الأوس والخزرج أن تضعفا بتأثير هذه الحركة من عبد الله بن أبى وجماعته . وليس أقتل لروح الجيش من مثل هـذه الحركات المريبة ، والمعركة على الأبواب . ولكن الله تولاهما ، فمضتا مع الرسول ، لم تستجيبا لهذا الضعف الطارىء بسبب فعلة المنافقين! حتى بلغ جيش المسلمين إلى الشعب من جبل أُحد . وأعد الرسول خطته المعروفة ، بجعل الرماة على الجبل ، كى لا يؤخذ المسلمون من ظهورهم ، وأمرهم ألا يبرحوا مكانهم هذا أيا كان مصير المعركة ، قال لهم الرسول : « انضحوا الخيل عنا ، ولا نؤتين من قبلكم ، والزموا مكانكم إن كانت النوبة لنا أو علينا ، وإن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم» وجعل ظهره وعسكره إلى أحد وقال : « لا يقاتلن أحد حتى نأمره بالقتال » .

إلى هذه الحوادث تشير الآية :

« وإذ غدوت من أهلك تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال »

وما يكاد ينتهى من هذه الإشارة حتى يعقب عليها بأحد التعقيبات القرآنية . تلك التى تجعل الحادثة وسيلة لربط القلب الإنسانى بالله :

« والله سميع عليم » .. يسمع الحوار ويعلم النيات ، ويحيط بالموقف كله ومن فيه .

« إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا »

وما تكاد تنتهى الإشارة حتى يجىء التعقيب القرآنى :

« والله وليهما . وعلى الله فليتوكل المؤمنون »

فمن مستلزمات الإيمان أن يتوجه المؤمنون إلى الله ، وأن يعتمدوا ـ وقد أعدوا ما فى طوقهم ـ عليه وحده . والله هو الولى والناصر والمعين .

* * *

هكذا يبدأ الحديث عن الغزوة التى لم ينتصر فيها المسلمون وقد كادوا . وهى قد بدأت بذلك التخاذل ، وبتغليب الأثرة الشخصية على العقيدة ، وبذلك الضعف الذى كاد يدرك طائفتين أخريين من المسلمين . ثم بالمخالفة عن الخطة العسكرية وعن أمر الرسول ـ كما سيجىء .

ولأن هذه الغزوة لم تنته بالنصر ، فإن السياق يبدؤها على هذا النحو ، وقبل أن يخطو خطوة أخرى فيها يذكر المؤمنين بموقعة أخرى ، وبمصير آخر ـ موقعة بدر الكبرى ـ لكى لا يلوح شبح الهزيمة لهم ـ ولو فى الذكرى ـ إلا وطائف النصر يلوح فى مخيلاتهم ويشد من عزيمتهم ، ويذكرهم بأسباب النصر التى أهملوها ، والتى لو تمسكوا بها لأصابوا فى الثانية ما أصابوا فى الأولى :

« ولقد نصركم الله ببدر ـ وأنتم أذلة ـ فاتقوا الله لعلكم تشكرون . إذ تقول للمؤمنين : ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين ؟ بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين . وما جعله الله إلا بشرى لكم ، ولتطمئن قلوبكم به ؛ وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم »

إن صورة النصر هنا هى التى يريد السياق أن يثيرها فى النفوس ، مع ملابساتها ومع

الأسباب التى كفلت هذا النصر أو صاحبته ، لتكون حاضرة قبل استعراض صورة الهزيمة الأخيرة وملابساتها وأسبابها كذلك .

ولقد تحقق النصر فى بدر — على قلة العدد وضعف العدة وذل المركز الذى كان فيه المسلمون قبل هذه الموقعة ، وهم إما لاجئون من أهل مكة مهاجرون ، وإما قلة من أهل المدينة يحيط بهم اليهود المتربصون .

لقد تحقق هذا النصر مع هذه الملابسة .. وقبل أن يقول : كيف تحقق ؟ يجئ التعقيب القرآنى المألوف :

« فاتقوا الله لعلكم تشكرون » ..

إن ذكرى النصر تثير النشوة والفخار .. فلتتوجه القلوب من فورها إلى الله خاشعة تختلج بمشاعر التقوى ، فتقودها هذه المشاعر الخاشعة إلى شكر الله على ذلك النصر ، لا إلى المباهاة بالنصر والفخر .. إنه الأدب النفسى الذى يأخذ القرآن به المسلمين دائماً فى مواقف الفتح والنصر ، ليهذب من شرة النفوس التى يزدهيها النصر والفتح فطرة وطبعاً . والله أعلم بهذه النفوس . فإذا استثار فى الضمائر مشاعر التقوى والشكر والتواضع مضى يستثير بقية صور المعركة وملابساتها الأخرى .. مضى يذكرهم تشجيع الرسول لهم وتثبيته لقلوبهم :

« إذ تقول للمؤمنين : ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين ؟ بلى أن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين(١) »

وينص السياق بعد ذلك على أن قول الرسول هذا كان على سبيل البشارة لتطمئن القلوب به وتقوى . أما النصر فهو من عند الله ، وبمشيئة الله — أما التطمين والبشرى وما يحدثان فى القلوب من قوة وما يثيران فيها من ثبات وشجاعة .. أما هذا كله فليس إلا وسائل وملابسات . والنصر فى النهاية معقود بمشيئة الله التى تمنحه لمن يستحقه ويتوخاه :

« وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله »

أما كيف يشارك الملائكة فى المعركة ؟ فهذا يقتضى أن ندرك نحن من هم الملائكة . ولقد أسلفنا الحديث فى مناسبات شتى عن هذا الموضوع ، وانتهينا فيه إلى قاعدة تقوم على أن طبيعة

---

(١) لهم سيماء يعرفون بها ويتميزون .

العقل البشرى ليست مهيأة لإدراك ماهية هذه المخلوقات ، فهى بالتالى غير مهيأة لإدراك كيفية نشاطها وتأثيره فى الماديات .

فعلينا إذن أن نقف عند الإخبار الإلهى لانتعداه . دون أن ندخل عقولنا البشرية فى متاهة من الفروض والتصورات ، لايمسك بها تصورنا البشرى المحكوم بقوانين خاصة ، لاتدخل فى نطاقها تلك الفروض والتصورات .

والله عزيز قادر على أن يهب النصر لمن يشاء ، ويحطم القوى التى تواجهه مهما يكن مظهرها من القوة . حكيم يهب النصر لمن يستحقه ، ويحطم القوى التى تستحق التحطيم . وتتحقق بتحطيمها حكمة الله .

ثم يكشف عن بعض حكمة النصر بصفة عامة فى حروب المسلمين والكافرين :

« ليقطع طرفا من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين — ليس لك من الأمر شىء — أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون » .

إنها حكمة يريدها الله ويحققها . لذلك بادر باخراج إرادة الرسول ورغبته من المجال : « ليس لك من الأمر شىء » قبل أن ينتهى من بيان الأغراض التى يحققها النصر ، ومن أجلها يتم

« ليقطع طرفا من الذين كفروا » . .

فينقص من عددهم بالقتل أو ينقص من أرضهم بالفتح ، أو ينقص من أموالهم بالغنيمة .

« أو يكبتهم فينقلبوا خائبين » . .

أى يصرفهم مهزومين أذلاء ، فيعودون خائبين مقهورين .

« أو يتوب عليهم » . .

فإن انتصار المسلمين قد يكون للكافرين عظة وعبرة ، فيقودهم إلى الإيمان والتسليم ، فيتوب الله عليهم من كفرهم ، ويختم لهم بالإسلام والهداية .

« أو يعذبهم . فإنهم ظالمون » . .

يعذبهم بنصرة المسلمين عليهم أو بأسرهم ، أو بموتهم على الكفر الذى ينتهى بهم إلى العذاب . . جزاء لهم فإنهم ظالمون . على معنى من معانى الظلم التى سبق إيضاحها عند أمثال هذا التعبير .

وعلى أية حال فهى حكمة يريدها الله . والأمر كله لله . وليس لبشر منه شىء . حتى رسول الله .

لذلك يختم الموضوع بنص عام يتجاوز النصر والهزيمة، ويتجاوز المؤمنين والكافرين. ليشمل السماوات والأرض والناس أجمعين:

« ولله ما فى السماوات وما فى الأرض، يغفر لمن يشاء، ويعذب من يشاء، والله غفور رحيم »

وإذا كان الغفران والعذاب موكولين لمشيئة الله المطلقة، فإن العمل والمحاولة موكولين لمشيئة الفرد. وقد وعد الله المؤمنين الثواب على العمل الصالح، والغفران عند التوبة النصوح. كما أنذر الكفار بالعقاب على كفرهم، والمذنبين على ذنوبهم .. وترتيب الثواب على الإحسان، والعقاب على الكفران داخل فى مشيئة الله، محقق لهذه المشيئة. فلا يقولن أحد: مادام الغفران والعذاب موكولين للمشيئة فعلام أحاول، إن هذا لمخالف للإدراك الصحيح لمعنى المشيئة، ومخالف لما أمر الله به، من العمل والاستعداد وبذل الجهد والطاقة.

« والله غفور رحيم » ..

فغفرانه ورحمته أقرب وأعم من عقابه وعذابه. وإليهما ينتهى أمر الناس. فالرجاء فى عفو الله ورحمته أولى، والأمل فى غفرانه ورضوانه أجدر. على أن يكون ذلك الرجاء دافعا إلى رحابه، وذلك الأمل حاديا إلى بابه. ومن توجه إلى الله بقلب سليم، ونية صادقة، فتحت فى وجهه الأبواب. ورحمة الله لا خازن لها ولا حجاب.

***

وفى ظلال هذه الإيقاعات الشعورية، التى جاءت استطرادا لحديث النصر والهزيمة .. فى ظلال هذه الإيقاعات؛ وقبل أن يرتد السياق إلى المعركة وما كان فيها. يعرض طائفة من موجبات العذاب، وطائفة من دواعى الرحمة، وطرفا من طريق التوبة والمغفرة، وصورا من النعيم ووسائل هذا النعيم:

إنه يعرض أكل الربا بوصفه موجبا من موجبات النار، وتركه بوصفه من دواعى الفلاح.

ويعرض طاعة الله والرسول بوصفها سبيلا إلى الرحمة.

ويعرض هذه الطاعة مع الإنفاق فى السراء والضراء وكظم الغيظ والعفو عن الناس بوصفها سبباً من أسباب المغفرة وجنة عرضها السماوات والأرض.

ويعرض التوبة والاستغفار وعدم الإصرار على المعصية بوصفها من دواعى الغفران وجنة تجرى من تحتها الأنهار.

وقد قلنا فى مطلع هذا الدرس : إن استعادة ذكرى المعركة لم تكن إلا مناسبة لإيحاءات وتوجيهات . ليست القصة إلا محوراً لها ووسيلة إليها .. ومن ثم هذه الاستطرادات إلى بناء النفوس وتهذيبها وتوجيهها ، كلما تهيأ الظل الذى تعرض فيه تلك الإيحاءات والتوجيهات . فلنستعرضها واحدة واحدة فى هذا المجال :

« يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة ، واتقوا الله لعلكم تفلحون . واتقوا النار التى أعدت للكافرين » .

ولقد سبق الحديث عن الربا فى الجزء الثالث من هذه الظلال ، من ناحية طبيعته وحكمة تحريمه فلا نكررها هنا (١) . ولكن نقف عند الأضعاف المضاعفة . فإن قوما يريدون فى هذا الزمان أن يتواروا خلف هذا النص ويتداروا به ، ليقولوا : إن المحرم هو الأضعاف المضاعفة ، أما التسعة فى المئة فليست أضعافاً مضاعفة ، وليست داخلة فى نطاق التحريم !

ونبدأ فنحسم القول بأن الأضعاف المضاعفة وصف لواقع ، لاشرط يتعلق به التحريم ؛ والنص الذى سبق فى سورة البقرة قاطع فى حرمة أصل الربا بلا تحديد : « وذروا ما بقى من الربا » أيا كان .

فإذا انتهينا من تقرير المبدأ فرغنا لهذا الوصف ، لنقول : إنه فى الحقيقة ليس وصفاً تاريخيا فقط للعمليات الربوية التى كانت واقعة فى الجزيرة ، والتى قصد إليها النهى هنا بالذات . إنما هو وصف ملازم للنظام الربوى ، أيا كان سعر الفائدة .

إن النظام الربوى معناه إقامة الاقتصاد كله على هذه القاعدة . ومعنى هذا أن العمليات الربوية ليست عمليات مفردة ولا بسيطة . فهى عمليات متكررة من ناحية ، ومركبة من ناحية أخرى . فهى تنشىء مع الزمن والتكرار والتركيب أضعافاً مضاعفة بلا جدال . والبديهيات الرياضية تثبت هذا الذى نقول .

إن النظام الربوى يحقق باستمرار هذا الوصف . فليس هو قاصرا على العمليات التى كانت متبعة فى جزيرة العرب ؛ إنما هو وصف ملازم لنظام الفائدة فى كل زمان .

---

(١) ص ٣٢ إلى ص ٣٧ من الجزء الثالث من ظلال القرآن .

والنص هنا يقرن ترك هذا النظام الآثم بتقوى الله ، ويقرنه كذلك بالفلاح . ويلوح بالنار التى أعدت للكافرين .

فأما تقوى الله فالأمر فيها ظاهر . فما يأكل الربا إنسان يخشى الله ، ويستشعر عدله ، ويقيم صلاته بالناس ومعاملاته على هذا الأساس . إن النظام الربوى نظام مادى فاجر ، لايعترف بالعنصر الأخلاقى الذى يقيم الإسلام نظامه كله عليه ؛ ولا يعترف بآصرة إنسانية تربط أفراد هذا المجتمع ؛ ولا يعترف بمعنى من معانى الرفق والرحمة بالعباد .. فتوجيه القلب هنا إلى تقوى الله عند مطالبته بترك الربا توجيه مفهوم يجىء فى خير أوان .

وكذلك الفلاح .. فهو ثمرة طبيعية للتقوى — ومن مقتضياتها ترك النظام الربوى المقيت — الفلاح فى الدنيا والآخرة : فلاح الفرد وفلاح الجماعة .. (ولقد سبق الحديث فى الجزء الثالث عن فعل الربا بالمجتمعات وويلاته البشعة التى ذاقتها البشرية مرات ومرات . فلنرجع إلى هذا المعنى هناك لندرك معنى الفلاح هنا واقترانه بترك نظام الربا والرجوع فى المعاملات إلى التقوى)

وأما التلويح بالنار ، والتعريض بالكفر .. فإن لهما معنى دقيقاً فى هذا المجال . إن النهى عن الربا كله قاطع جازم . فالتعريض بالكفر هنا والتلويح بالنار ، على أثر النهى عن أكل الربا ، وتفظيعه بأنه أضعاف مضاعفة — وهو وصف ملازم له كما أسلفنا — يشير إلى أن فى الربا روح الكفر وظله . وأن اتقاء النار التى أعدت للكافرين يقتضى اتقاء هذا الأكل الجارم الآثم للأضعاف المضاعفة فى الربا ، وهو أكل كما قلنا متحقق دائم .

« وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون »

وطاعة الله والرسول واجبة فى كل شىء . ولكن التقفية بها هنا على النهى عن أكل الربا ، تحمل معنى خاصاً فى هذا المجال ، فهى تحمل معنى التوكيد للنهى السابق ، توكيد الطاعة والامتثال لله فيه . عسى أن تقودهم الطاعة إلى الرحمة ، وتعصمهم من التهديد بالعذاب ، ومن النار التى أعدت للكافرين .

ولقد سبق فى سورة البقرة (١) أن رأينا السياق هناك يجمع بين الحديث عن الربا والحديث عن الصدقة ، بوصفهما الوجهين المتقابلين للعلاقات الاجتماعية فى الميدان الاقتصادى .

---

(١) الجزء الثالث من الظلال.

فهنا نجد شيئا من هذا الجمع السريع أيضا بلا تطويل . لأن الكلام عنهما وعن سواهما ليس إلا استطرادا فى إطار قصة أحد .

وبعد النهى عن أكل الربا أضعافا مضاعفة ، والتحذير من النار ، والدعوة إلى التقوى اعلها تعود إلى الرحمة .. بعد هذا يجئ الأمر بالمسارعة إلى المغفرة وإلى جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين .. ثم يكون الوصف الأول للمتقين أنهم الذين ينفقون فى السراء والضراء ، وهم الفريق المقابل لمن يأكلون الربا أضعافا مضاعفة ، ثم تجئ بقية الأوصاف :

« وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين : الذين ينفقون فى السراء والضراء ، والكاظمين الغيظ ، والعافين عن الناس و الله يحب المحسنين . والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم . ومن يغفر الذنوب إلا الله ؟ ولم يصروا على مافعلوا وهم يعلمون . أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين »

والتعبير هنا يصور أداء هذه الطاعات فى صورة حسية . يصوره سباقا إلى هدف أو جائزة تنال .. « وسارعوا إلى مغفرة من ربكم » .. « وجنة » تجسم كذلك بالمساحة « عرضها السماوات والأرض » لتبرز فى الحس ، وتأخذ حيزها فى المخيلة . على طريقة التصوير الفنى فى القرآن .. « أعدت » هذه الجنة العريضة الفسيحة وهيئت « للمتقين » .. ثم يأخذ فى بيان صفات المتقين :

« الذين ينفقون فى السراء والضراء »

وما يدفع النفس الشحيحة بطبعها ، المحبة للمال ، إحدى الشهوات التى زينت للناس . ما يدفعها إلى إنفاق المال هكذا بسخاء وتكرار « فى السراء والضراء » إلا دافع أقوى من شهوة المال .. دافع التقوى ، ذلك الشعور اللطيف العميق ، الذى تشف به الروح وتخلص من ثقلة الضرورة ، وأوهاق الشهوة ، وأغلال الحرص . وتنطلق من تلك القيود كلها فتجود بالمال فى سخاء وتكرار .

« والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس »

كذلك تعمل التقوى فى هذا الحقل الجديد بنفس البواعث ونفس المؤثرات . فالغيظ انفعال بشرى ، تصاحبه أو تلاحقه فورة فى الدم ، فهو إحدى دفعات التكوين البشرى وإحدى ضروراته . وما يغلبه الإنسان إلا بتلك الشفافية المنبعثة من إشراق التقوى . وبتلك القوة الروحية المنبعثة من التطلع إلى أفق أعلى وأوسع من آفاق الذات والضرورات .

وكظم الغيظ هو المرحلة الأولى . وهى وحدها لا تكفى . فقد يكظم الإنسان غيظه ليحقد ويضطغن ، فيتحول الغيظ الفائر إلى إحنة فائرة ، ويتحول الغضب الظاهر إلى حقد دفين .. وإن الغيظ والغضب لأنظف وأطهر من الحقد والضغينة .. لذلك يستمر النص ليقرر النهاية الطليقة لذلك الحقد الكظيم فى نفوس المتقين .. إنها العفو . العفو السمح الجميل :

« والعافين عن الناس » ..

إن الغيظ وقر على النفس حين تكظمه ؛ وشواظ يلفح القلب ودخان .. فأما حين تصفح النفس ويعفو القلب ، فهو الانطلاق من ذلك الوقر ، والرفرفة فى آفاق النور ، والبرد على القلب والسلام فى الضمير .

« والله يحب المحسنين »

والذين يجودون بالمال فى السراء والضراء محسنون . والذين يجودون بالعفو والسماحة بعد الغيظ والكظم محسنون .. « والله يحب المحسنين » والحب هنا هو التعبير الودود الحانى ، المشرق المنير ، الذى يتناسق مع ذلك الجو اللطيف الوضىء الكريم ؛

ثم ننتقل إلى صفة أخرى من صفات المتقين :

« والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم — ومن يغفر الذنوب إلا الله — ولم يصروا على مافعلوا وهم يعلمون »

يا لسماحة هذا الدين !

إن المتقين فى أعلى مرتبة من مراتب المؤمنين .. ولكن سماحة هذا الدين ورحمته بالإنسان تسلك فى عداد المتقين — وهم من هم — تسلك فى عدادهم : « الذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم » والفاحشة أبشع الذنوب وأكبرها . ولكن سماحة هذا الدين لا تطرد من يهوون إليها من رحمة الله .. ولا تجعلهم فى ذيل القافلة . قافلة المؤمنين .. إنما ترتفع بهم إلى أعلى مرتبة . مرتبة المتقين . على شرط واحد . شرط يكشف عن طبيعة هذا الدين ووجهته .. أن يذكروا الله فيستغفروا لذنوبهم . وألا يصروا على مافعلوا ويتبجحوا بالمعصية فى غير حياء .

إن هذا الدين ليدرك ضعف هذا المخلوق البشرى الذى تهبط به ثقلة الجسد أحيانا إلى درك الفاحشة ، وتهيج به فورة اللحم والدم فينزو نزوات الحيوان فى حمى الشهوة .. يدرك ضعفه

هـذا فلا يقسو عليه ، ولا يبادر إلى طرده من رحمة الله حين يظلم نفسه فلا يوردها موارد الخير والفضيلة ، بل حين يرتكب الفاحشة .. المعصية الكبيرة .. وحسبه أن شعلة الإيمان ما تزال فى روحه لم تنطفىء ، وأن نداوة الإيمان ما تزال فى قلبه لم تجف .. وإذن فما يزال هذا المخلوق الضعيف الخاطىء المذنب بخير .. إنه سائر فى الدرب لم ينقطع به الطريق .. فليعثر ما شاء له ضعفه أن يعثر . فهو واصل فى النهاية ما دامت الشعلة معه . ما دام يذكر الله ولا ينساه ، ويستغفره ولا يتبجح بمعصيته .

إنه لا يغلق فى وجه هذا المخلوق الضعيف الضال باب التوبة ، ولا يتركه منبوذا حائرا فى التيه ، ولا يدعه مطرودا خائفا من المآب . إنه يطمعه فى المغفرة ، ويدله على الطريق . ويأخذ بيده المرتعشة ، ويسند خطوته المتعثرة ، وينير له الطريق ، ليفىء إلى الحمى الآمن الوارف الظلال .

شىء واحد يتطلبه ، ألا يجف قلبه ، وتظلم روحه ، فينسى الله .. وما دام يذكر الله ؛ ما دام فى روحه ذلك المشعل الهادى ؛ وفى ضميره ذلك الهاتف الحادى ؛ وفى قلبه ذلك الندى البرود . فسيطلع النور فى روحه من جديد ، وسيثوب إلى الحمى الآمن من جديد ، وستنبت بذرة الإيمان الهامدة من جديد .

إن طفلك الذى يخطىء ويعرف أن السوط لا سواه فى الدار ، سيروح آبقا شاردا لا يثوب إلى الدار أبدا . فأما إذا كان يعلم أن بجانب السوط يدا حانية تربت على ضعفه حين يعتذر من الذنب ، وحين يستغفر من الخطيئة . فإنه سيعود !

وهكذا يأخذ الإسلام ذلك المخلوق البشرى الضعيف فى لحظات ضعفه .. فإنه يعلم أن فيه بجانب الضعف قوة ، وبجانب ثقلة الجسد رفرفة الروح . وبجانب النزوات الحيوانية أشواقا ربانية .. فهو يعطف عليه فى لحظة الضعف ليأخذ بيده إلى مراقى الصعود . ويربت عليه فى لحظة العثرة ليحلق به إلى الأفق من جديد . ما دام هذا المخلوق لا ينسى الله ، ولا يصر على الخطيئة وهو يعلم أنها الخطيئة . والرسول ـ صلى الله عليه وسلم يقول : « ما أصر من استغفر وإن عاد فى اليوم سبعين مرة (١) »

والإسلام بهذا لا يدعو الى الترخص . إنما يقيل عثرة الضعف ، ويستثير فى النفس البشرية الرجاء . كما يستثير فيها الحياء . فالمغفرة من الله ـ ومن يغفر الذنوب إلا الله ؟ ـ تخجل ولا

---

(١) رواه أبو داود والترمذى والبزار فى مسنده من حديث عثمان بن واقد . وفى سنده صحابى مجهول . لكن ابن كثير فى تفسيره صححه وقال : « حديث حسن » .

تطمع ، وتثير الاستغفار ولا تثير الاستهتار . فأما الذين يستهترون ويصرون ، فهم هنالك خارج الأسوار ، موصدة فى وجوههم الأسوار .

وهكذا يجمع الإسلام بين الهتاف للبشرية إلى الآفاق العلا؛ والرحمة بهذه البشرية أن تكلف ما لا تستطيع . ويفتح أمامها باب الرجاء أبدا ، ويأخذ بيدها إلى أقصى ما لا تستطيع (١) .

* * *

بهذا ينتهى ذلك الاستطراد فى هذا الموضع ؛ ويرتد السياق إلى غزوة أحد وملابساتها .

لقد حدث فى هـذه الغزوة أن هزم المسلمون ، وأن أصيبوا فى أرواحهم وأبدانهم بأذى كثير . قتل منهم سبعون صحابيا جليلا ، وكسرت رباعية الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ وشج وجهه ، وأصيب بالجراح الكثيرون .

والقرآن الكريم هنا يرد المسلمين إلى سنن الله فى الأرض . فهم ليسوا بدعا فيها ؛ وهذه الحياة متصلة الأواصر ، والنواميس التى تحكمها واحدة لا تتخلف ؛ والأمور لا تمضى جزافا ، إنما تتبع تلك النواميس الثابتة . فإذا هم درسوها وأدركوا مغازيها ، تبينت لهم الأهداف وتكشفت لهم المصائر ، واطمأنوا إلى ثبات النظام الذى تتبعه الأحداث ، واستشرفوا ما يخبئه لهم المستقبل على ضوء ما كان فى الماضى ، ولم يعتمدوا على مجرد كونهم مسلمين لينالوا النصر والتمكين ، بدون أسباب النصر وقوانينه كما يفعل اليوم كثيرون !

والسنن التى يشير إليها السياق هنا ويوجه أبصارهم وبصائرهم إليها هى :

عاقبة المكذبين على مدار التاريخ .. ومداولة الأيام بين الناس حتى لا تدوم على حال .. والابتلاء لتمحيص السرائر وامتحان مدى الصبر على الشدائد ، واستحقاق النصر للصابرين والمحق للكافرين ..

وفى خلال استعراض تلك السنن تحفل الآيات بالتشجيع على الاحتمال والمواساة فى الشدة ، والتأسية على القرح الذى لم يصبهم وحدهم ، إنما أصاب أعداءهم كذلك ، وهم أعلى من أعدائهم هدفا واعتقادا ، وأهدى منهم طريقا ونهجا ، والعاقبة بعد لهم والدائرة على الكافرين :

« قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين . هذا

---

(١) يراجع كتاب السلام العالمى والإسلام ، فصل : سلام الضمير .

بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين . ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين . إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله ، وتلك الأيام نداولها بين الناس ، وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء ، والله لا يحب الظالمين . وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين . أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ؟ ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون » .

إن القرآن ليربط ماضى البشرية بحاضرها ، وحاضرها بماضيها . . وهؤلاء العرب الذين وجه إليهم القول أول مرة لم تكن حياتهم، ولم تكن معارفهم — قبل القرآن — لتسمح لهم بمثل هذه النظرة الشاملة . لولا هذا القرآن الذى أنشأهم به الله نشأة أخرى ،وخلق بهمنهم أمة تقود الدنيا ..

إن النظام القبلى الذى كانوا يعيشون فى ظله ، ماكان ليقود تفكيرهم إلى الربط بين سكان الجزيرة ، فضلا على الربط بين سكان هذه الأرض؛ فضلا على الربط بين السنن التى تجرى وفقها الحياة جميعا..فها هو ذا القرآن ينقلهم من عزلة القبيلة ، وارتجال الفكرة ، إلى رابطه البشرية واطراد السنة . وهى نقلة بعيدة ، لم تنبع من عوامل البيئة ، إنما حملتها إليهم هذه العقيدة ، بل حملتهم إليها ، وارتقت بهم إلى مستواها فى نصف جيل . على حين أن غيرهم من معاصريهم لم يرتفعوا إلى هذا الأفق من التفكير إلا بعد قرون وقرون .

« قد خلت من قبلكم سنن، فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين . . هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين » .

أجل .. هذا بيان للناس . للناس كافة . فهو نقلة بشرية بعيدة ما كانوا يبالغيها لولا هذا البيان الهادى ، الذى لا يهتدى به ولا يتعظ إلا الذين تفتحت أرواحهم ، وأرهفت مداركهم ، بذلك الشعور العميق الهادى المنير : شعور التقوى فى نفوس المتقين .

قد خلت من قبلكم سنن .. وهى هى التى تحكم الحياة . وهى هى التى قررتها المشيئة العليا. فما تم منها فى غير زمانكم فسيتم فى زمانكم ، وما انطبق منها على مثل حالكم فهو كذلك سينطبق على حالكم .. فسيروا فى الأرض .. فالأرض كلها وحدة ، والأرض كلها مسرح للبشرية المتحدة المنشأ والمصير . سيروا فيها فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين .. وهى عاقبة تشهد بها آثارهم فى هذه الأرض ، وسيرهم التى يتناقلها خلفهم هناك .. ولقد ذكر القرآن الكريم كثيرا منها فى مواضع متفرقة ؛ بعضها حدد مكانه وزمانه وأشخاصه، وبعضها أشار إليه بدون تفصيل..

وهنا يشير هذه الإشارة المجملة لأننا فى معرض سنن مجملة وقضية مجملة .. وماجرى للمكذبين بالأمس سيجرى مثله للمكذبين اليوم . فلتطمئنوا إذن إلى العاقبة وأنتم تعرفون المصير :

« ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون . إن كنتم مؤمنين » .

وهكذا يمهد لهذا التوجيه بمصائر المكذبين من قبل ، وبتقرير أن سنة الله لا تتخلف فى أمثالهم من المكذبين الذين يواجهون الرسول — صلى الله عليه وسلم — ومن معه من المجاهدين.

لا تهنوا — من الوهن والضعف — ولا تحزنوا — لما أصابكم ولما فاتكم — وأنتم الأعلون .. عقيدتكم أعلى من عقيدتهم ، فأنتم تسجدون لله وهم يسجدون لشىء من خلقه أو لبعض من خلقه . وواجبكم فى الأرض أعلى من واجبهم . فأنتم الأوصياء على هذه البشرية كلها ، الهداة لهذه البشرية كلها ، وهم شاردون عن الهدى ، ضالون عن الطريق . ومكانكم فى الأرض أعلى من مكانهم ، فلكم وراثة الأرض التى وعدكم الله ، وهم إلى الفناء والنسيان صائرون .. فإن كنتم مؤمنين بهذا كله فأنتم الأعلون . وإن كنتم مؤمنين بهذا كله فلا تهنوا إذن ولا تحزنوا ، فإنما هى سنة من سنن الله أن تصابوا وتصيبوا ، على أن تكون لكم العقبى بعد الجهاد الطويل:

« إن يمسسكم قرح (1) فقد مس القوم قرح مثله » .

إما إشارة إلى غزوة بدر ، وقد مس القرح فيها قريشا وسلم المسلمون . وإما إشارة إلى مطلع غزوة أحد هذه. وقد انتصر فيها المسلمون أول الأمر حتى هزم المشركون، وتابعهم المسلمون يضربون أقفيتهم ، لولا أن الرماة خرجوا على أمر الرسول واختلفوا فيما بينهم ، فأصاب المسلمين ما أصابهم فى نهاية المعركة ، جزاء وفاقا لهذا الاختلاف وذلك الخروج ، وتحقيقا لسنة من سنن الله التى لا تتخلف . إذ كان اختلاف الرماة وخروجهم ناشئين من الطمع فى الغنيمة . والله قد كتب النصر لمن يجاهدون فى سبيله ، لا ينظرون إلى شىء من عرض هذه الدنيا من الزهيد أو الثمين! وتحقيقا كذلك لسنة أخرى من سنن الله فى الأرض : مداولة الأيام بين الناس فتكون لهؤلاء يوما ، ولأولئك يوما . وبذلك يتبين المؤمنون .

« وتلك الأيام نداولها بين الناس ؛ وليعلم الله الذين آمنوا ، ويتخذ منكم شهداء . والله لا يحب الظالمين . وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين » .

إن الشدة بعد الرخاء ، والرخاء بعد الشدة ، هما اللذان يكشفان عن معادن النفوس ، فيتبين المؤمنون ويمتازون من المنافقين المستورين . والله يعلم هؤلاء وهؤلاء. ولكن انكشافهم

(1) جراح وآلام .

يجعل هذا العلم متعلقا بأعمالهم بعد أن كان متعلقا بنواياهم . والإسلام يعتبر العمل دائما ويحاسب عليه ، فهو يجرى هنا على قانونه .

ومداولة الأيام ، وتوالى الشدة والرخاء ، وسيلة عملية لا تخطىء ، ومحك صادق لا يظلم . والرخاء فى هذا كالشدة . فكم من نفوس تصبر للشدة وتتماسك ، ولكنها تتراخى بالرخاء وتنحل ؛ والنفس المؤمنة حقا ، تصبر للضراء ولا تستخفها السراء ؛ وتتجه لله فى الحالين، وبهذا تستحق صفة الإيمان ، باتجاهها إلى الله فى جميع الأحوال ، ويقينها أن ما أصابها من خير أو شر فبإذن الله .

« ويتخذ منكم شهداء » ..

وهو تعبير عجيب عن معنى عميق .. إن الشهداء لمختارون. يختارهم الله من بين المجاهدين ، ويتخذهم له — سبحانه — ويجعلهم كذلك شهداء على الناس . فما هى رزية ولا مصيبة أن يستشهد من يستشهد ، إنما هو اختيار وانتقاء وتكريم واختصاص .. إن هؤلاء هم الذين اختصهم الله ليكونوا له ، وليخلصوا لجواره.. وهكذا أدرك المجاهدون فى سبيل الله هذا المعنى، فكان الاستشهاد فى حسهم نعمة يتسابقون إليها ؛ غير كارهين للحياة ، ولكن متطلعين لما هو خير من الدنيا وما فيها . . لقاؤهم لله ، واختصاصه بهم فى علاه .

ولما كانت مداولة الأيام ، لمعرفة المؤمنين وكشف المنافقين ، وترتيب الجزاء على ما يكشف عنه الابتلاء . . لما كان هذا كله عدلا فقد جاء التعقيب مناسباً لهذا المعنى :

« والله لا يحب الظالمين »

ومن ثم فهو لايظلم أحدا ، ومن عدله المطلق أن يرتب الجزاء على الأعمال الظاهرة ، ولا يكتفى بالنية المضمرة ، ولا يأخذ عباده بها وحدها ، وهو أعلم بحقيقتهم وبما سيكون منهم قبل أن يكون .

ثم يستمر السياق بعد تقرير هذه الحقيقة يكشف عن حكمة الابتلاء .

« وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين »

والتمحيص درجة تجىء بعد العلم . فإنها عملية فرز للمؤمنين وتمييز ، ليكونوا ظاهرين بارزين معزولين عن الكافرين ، الذين كانوا ينافقون ويخفون حقيقتهم . فالآن يتميز الناس إلى فريقين اثنين ظاهرين : المؤمنين وقد خلصت قلوبهم لله ، والكافرين وهؤلاء يمحقهم الله ،

تحقيقا لسنته فى المكذبين . حتى إذا تحققت هذه السنة كان واضحا أن الذين حل بهم المحق والهلاك هم الكافرون بلا شك فى حقيقتهم ، والذين كتب لهم النصر والبقاء هم المؤمنون بلا شبهة فيهم . وسجلت الأرض أن سنة الله جارية كما عهدها الناس فى جميع القرون .

ثم تأتى خاتمة هذا الاستعراض للسنن الباقية . تجىء فى صورة استفهام مفصح عن السنة الأخيرة : أن لابد لحملة كل دعوة من الجهاد ومن الصبر على تكاليف هذا الجهاد وتضحياته . وأن لابد من تمحيص دعواهم فى الاستعداد للتضحية بتعريضهم للتضحية . فالنصر لا يأتى رخيصا ولاهينا ، والجهاد ليس دعاوى وليس كلاما . وما يستحق النصر إلا الذين يؤدون ثمنه ، فيبرهنون على أنهم أهل له ، وأهل للدعوة التى يحملونها .

ولقد كان الله قادرا على أن يمنح النصر لنبيه ولدينه منذ أول لحظة . ولكن الذين يتلقون النصر رخيصا يبيعونه كذلك رخيصا . والذين لا يصمدون للابتلاء ولا يصبرون للشدة لا يصلحون حملة للدعوة ولا حماة لها حين تتعرض بعد ذلك للاضطهاد .

وكل دعوة جديدة لابد أن تجد معارضين ومضادين . فإذا لم يكن أصحابها مؤمنين بها إلى الحد الذى يضحون فيه بأنفسهم ولا يضحون بها ، لم يكونوا أهلا للنصر ، لأنهم ليسوا أهلا للثبات عليها والاستمرار .

فإذا داهمتهم الشدة فصبروا ، وأوذوا فى أعز شىء لديهم فصمدوا . وبذلوا كل ما فى طوقهم من جهد ، جاءهم النصر من عند الله عن استحقاق ، وجاءهم الجزاء على إيمانهم وصبرهم وجهادهم كذلك عن استحقاق :

« أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ، ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ؟ ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه . فقد رأيتموه وأنتم تنظرون »

وكنتم تشتاقون إلى القتال والجهاد ، وترغبون فى التضحية والاستشهاد . فقد رأيتموه وأنتم تنظرون . لتعرفوا حقيقة ما تمنيتم ، وتروا مقدار صدقكم فى أنفسكم . وتختبروا مدى قدرتكم . فلا يكون قولكم بعدئذ إلا بمقدار ما تطيقون . ولتزنوا كل لفظ وكل دعوى بميزان طاقتكم على الاحتمال . . وإنها لتربية عالية للمؤمنين . .

***

ثم يمضى السياق شوطا آخر فى تربية نفوس المسلمين على احتمال الشدائد ، وتثبيتها على الإيمان أيا كانت النوائب ، حتى لو بلغت النائبة أن تكون فى محمد — صلى الله عليه وسلم — نبيهم وقائدهم . مشيرا إلى شىء مما حدث منهم فى ساحة المعركة إشارة تأنيب على الجزع ؛ وتأكيد لتوقيت الأجل ؛ وتخيير بين جزاء الدنيا وجزاء الآخرة ؛ وتمثيل بمواقف أسلافهم من المؤمنين بالرسل قبلهم ممن صبروا فى الجهاد لم يصبهم وهن ، فاستحقوا الجزاء الأوفى فى الدنيا والآخرة جميعا :

« وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ؟ ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا ، وسيجزى الله الشاكرين . وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا ، ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ، ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها ، وسنجزى الشاكرين . وكأى من نبى قاتل معه ربيون كثير ، فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله ، وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين ؛ وما كان قولهم إلا أن قالوا : ربنا اغفر لنا ذنوبنا ، وإسرافنا فى أمرنا ، وثبت أقدامنا ، وانصرنا على القوم الكافرين . فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة ، والله يحب المحسنين »

إن الآية الأولى هنا تشير إلى واقعة حدثت فى غزوة أحد . ذلك حين انكشف ظهر المسلمين بعد أن ترك الرماة أماكنهم من الجبل ، فركبه المشركون ، وأوقعوا بالمسلمين ، وكسرت رباعية الرسول صلى الله عليه وسلم . وشج وجهه ، ونزفت جراحه ؛ حينئذ نادى ابن قمئة من المشركين : إن محمدا قد قتل .. وكان لهذه الصيحة وقعها الشديد على المسلمين ، فانقلب الكثيرون منهم عائدين إلى المدينة منهزمين ، لولا أن ثبت الرسول صلى الله عليه وسلم فى قلة من الرجال ؛ وجعل يناديهم وهم منقلبون ، حتى فاءوا إليه ، وثبت الله قلوبهم ، وصرف المشركين عنهم كما سيجىء .

وهنا يردهم القرآن الكريم إلى الحقيقة التى أذهلتهم الأحداث عنها .. إن محمداً ليس إلا رسولا من عند الله ليبلغهم ما كلفه الله . والله باق لا يموت . أما محمد فله أجل محدود ، ثم يموت كما ماتت الرسل قبله . والدين باق لأنه من عند الله الذى لا يموت . وما ينبغى أن يرتدوا عن هذا الدين إذا فارقهم محمد أو ينقلبوا على أعقابهم . ومن ينقلب على عقبيه فهو الخاسر ، الذى لم يعرف نعمة الإيمان ولم يشكر الله عليها . ومن عرف هذه النعمة فشكر واهبها فسيجزيه الله على شكره بالحسنى :

« وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم . ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا ، وسيجزى الله الشاكرين »

إن الإسلام هنا يسير على منهجه فى تجريد العقيدة وإخلاصها لله ، وعدم ربطها بشخص من البشر ، حتى شخص الرسول — صلى الله عليه وسلم — وهو من هو منزلة عند الله .

إن البشر إلى فناء ، والعقيدة إلى بقاء ، لأنها مرتبطة بالله سبحانه ، فهى باقية ماشاء الله لها البقاء . والمسلم الذى يحب الرسول — صلى الله عليه وسلم — وقد كان صحابته يحبونه الحب الذى لم تعرف له البشرية نظيرا . الحب الذى يفدونه معه بحياتهم أن تشوكه شوكة ؛ ومازال الكثيرون من أمته فى كل زمان وفى كل مكان يحبونه ذلك الحب العجيب بكل كيانهم ، وبكل مشاعرهم ، حتى ليأخذهم الوجد من ذكراه . . هذا المسلم الذى يحب محمداً — صلى الله عليه وسلم — ذلك الحب ، يجب أن يفرق بين شخص الرسول الكريم والعقيدة التى أبلغها وتركها للناس بعده ، باقية بعد لقائه لله سبحانه ، ممتدة لاتنقطع إلا أن يشاء الله .

« وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل »

وشأنه شأن هؤلاء الرسل . حياة محدودة بأجل . وموت ينتظر كل البشر .

« أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ؟ »

سؤال فيه استنكار لما كان منهم ، وفيه توجيه إلى وجوب التفرقة بين حياة الرسول وحياة العقيدة . وفى التعبير تصوير حسى للارتداد يزيده وضوحا : « انقلبتم على أعقابكم » فهذه الحركة الحسية فى الانقلاب تجسم المعنى كأنه منظر مشهود . إذ المقصود هنا ليس حركة الارتداد الحسية بالهزيمة فى المعركة ، ولكن حركة الارتداد النفسية التى صاحبتها حينما نادى مناد : أن محمدا قد مات . فأحس بعض المسلمين أن لاجدوى إذن فى قتال المشركين ، وموت محمد سيهدم هذا الدين ! فهذه الحركة النفسية يجسمها التعبير هنا، فيصورها حركة ارتداد على الأعقاب .

« ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا »

فإنما هو الخاسر ، الذى يؤذى نفسه ، فيختار الدنيّة ، ويدع العليّة ، ويتنكب طريق الرشاد . وانقلابه لن يضر الله . فالله غنى عن الناس وعن إيمانهم ، ولكنه — رحمة منه بالعباد — يجزى الذين يعرفون نعمة الإيمان ، ويقدرونها ، فيشكرون الله على هدايتهم إليها . يجزيهم بالخير على إيمانهم ، ولو أن كفرانهم لايضره شيئا .

ثم يلمس السياق مكمن الخوف من الموت فى النفس البشرية لمسة موحية ، تطرد ذلك

الخوف ، وتبعد عوامل الفزع والجزع . . إن لكل نفس كتابا مؤجلا ، ولن تموت حتى تستوفى الأجل المكتوب . فالخوف والحرص لا يطيلان أجلا ؛ والشجاعة والجهاد لا يقصران عمرا :

« وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلا »

فلا كان الجبن ولا نامت أعين الجبناء ، والأجل مكتوب لاينقص منه يوم ولا يزاد .

وإذا كان العمر مكتوباً والأجل مرسوماً ، فلينظر الإنسان : أيريد أن يقعد عن تكاليف الإيمان ، وأن يحصر همه كله فى هذه الأرض ، وأن يعيش لهذه الدنيا وحدها . أم يريد أن يتطلع إلى أفق أعلى ، وأن يعمل للآخرة فى هذه الدنيا ، وأن يرجوما فيها ويؤثره على لذائذ الأرض وجزائها :

« ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ، ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها » .

وشتان بين ثواب وثواب ، وشتان بين حياة وحياة .. إن الذى يعيش لهذه الأرض وحدها ليحيا حياة الديدان والدواب والأنعام . وإن الذى يتطلع إلى أفق أعلى ليحيا حياة الإنسان الذى كرمه الله وفضله على كثير ممن خلق .

« وسنجزى الشاكرين »

الذين يدركون نعمة التكريم الإلهى للإنسان ، فيرتفعون عن مدارج الحيوان ، ويشكرون الله على تلك النعمة ، فينهضون بتبعات الإيمان .

ثم يضرب الله للمسلمين مثلا من المؤمنين قبلهم ، الذين صدقوا فى إيمانهم ، وقاتلوا مع أنبيائهم ، فصمدوا للمحنة ، ولم يجزعوا عند الابتلاء ، وتأدبوا — وهم مقدمون على الموت — بأدب المؤمنين فى هذا المقام . مقام الجهاد . فلم يزيدوا على أن يستغفروا الله من ذنوبهم ، وأن يجسموا أخطاءهم فيعدوها إسرافا فى أمرهم ، وأن يطلبوا من الله الثبات والنصر . . وبذلك نالوا الثواب فى الدارين ، جزاء إحسانهم فى الدعاء ، وإحسانهم فى العمل . . وكانوا مثلا للمؤمنين يضربه الله للمسلمين :

« وكأى من نبى قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله ، وما ضعفوا وما استكانوا . والله يحب الصابرين . وما كان قولهم إلا أن قالوا : ربنا اغفر لنا ذنوبنا ، وإسرافنا

فى أمرنا ، وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين . فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة ، والله يحب المحسنين »

لقد كانت الهزيمة فى غزوة أحد هى أول هزيمة تصدم المسلمين ؛ الذين نصرهم الله ببدر وهم قليل ؛ فكأنما وقر فى نفوسهم أن النصر فى كل موقعة هو الأمر الطبيعى الذى لايتخلف ، أيا كانت الأحوال والظروف . فلما أن صدمتهم أحد فوجئوا بالابتلاء كأنهم لاينتظرونه . وكان هذا الجزع من الهول الذى لم يثبت له إلا القليلون .

لهذا طال الحديث حول هذه الواقعة فى القرآن الكريم ؛ واستطرد السياق هنا وهناك يأخذ المسلمين بالتأسية تارة ، وبالتأنيب تارة ، وبالمثل تارة . . كل ذلك تربية لنفوسهم وإعدادا ؛ فالطريق أمامهم طويل ، والتجارب أمامهم شاقة ؛ والتكاليف عليهم باهظة ؛ والأمر الذى يندبون له عظيم .

والمثل الذى يضربه لهم الله هنا مثل عام ، لايحدد فيه نبيا ، ولا يحدد فيه قوما . فالمراد أن يعلموا أن الصفة الملازمة للمؤمنين حقا فى كل عهد هى تلك الصفة التى يعرضها السياق . وأنها متواترة مطردة فى السابقين :

« وكأى من نبى قاتل معه ربيون كثير . فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا »

كم من نبى قاتل معه أبرار أتقياء كثيرون فما ضعفت نفوسهم لما أصابهم من البلاء والكرب والشدة والقتل والجراح ؛ وماضعفت قواهم عن الاستمرار فى الكفاح ، وما استسلموا للجزع ولا للأعداء . . وهذا هو اللائق بالمؤمن التقى البار ، الذى ينافح عن عقيدة ، ويكافح فى سبيل الله .

« والله يحب الصابرين »

الذين لا تضعف نفوسهم ، ولا تتضعضع قواهم ، ولا تلين عزائمهم ، ولا يستكينون أو يستسلمون للشدائد والأعداء .

وإلى هنا كان السياق قد رسم الصورة الظاهرية لهؤلاء الربيين فى موقفهم من الشدة والابتلاء . فهو يمضى بعدها يرسم الصورة الباطنية لنفوسهم ومشاعرهم ، وأدبهم فى حق الله ، وهم

يواجهون الهول الذى يذهل النفوس ، ويقيدها بالخطر الواقع لاتتعداه ؛ ولكنه لايذهل هذه النفوس المختارة عن التوجه إلى الله . . لاالتطلب النصر أول ماتطلب ، وهو مايتبادر عادة إلى النفوس . . ولكن لتطلب العفو والمغفرة ، ولتعترف بالذنب والخطيئة ، قبل أن تطلب الثبات والنصر فى القتال :

« وما كان قولهم إلا أن قالوا : ربنا اغفر لنا ذنوبنا ، وإسرافنا فى أمرنا ، وثبت أقدامنا ، وانصرنا على القوم الكافرين » .

إنهم لم يطلبوا ثوابا ولاجزاء ولانعمة ولاثراء . لم يطلبوا ثواب الدنيا ولاثواب الآخرة . . إنهم ينهضون بتكاليف الإيمان فى أدب وخشية وتقوى . . إنهم لايرجون إلا غفران الذنوب ، وتثبيت الأقدام ، والنصر على القوم الكافرين . فحتى النصر لايطلبونه لأنفسهم ، إنما يطلبونه هزيمة للكفر وعقوبة للكافرين .

هؤلاء الذين لم يطلبوا لأنفسهم شيئا ، أعطاهم الله من عنده كل ما يتمناه طلاب الدنيا ، وخير ما يتمناه طلاب الآخرة مجتمعين :

« فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة »

لقد أحسنوا الأدب ، وأحسنوا العمل :

« والله يحب المحسنين »

* * *

ولقد كانت هزيمة المسلمين الجزئية فى أحد ، مجالا لدسائس الكفار والمنافقين فى المدينة ، ممن انتهزوا هذه الفرصة ، ليثبطوا من عزائم المسلمين ، ويخوفوهم عاقبة السير مع محمد ، ويصوروا لهم مخاوف القتال وعواقب الجهاد .. لذلك حذر الله الذين آمنوا هذه الفتنة ، وخوفهم عاقبة الاستماع للدسيسة ؛ وصور لهم النهاية البائسة لهذا الاستماع ، وهى الكفر والخسران ، وشدد من عزائمهم بتذكيرهم أن الله هو مولاهم وناصرهم ، وهو القوى الذى لايخذل أولياءه :

« يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين . بل الله مولاكم ، وهو خير الناصرين »

وهى قاعدة لاتختص بزمانها ولا مناسبتها ؛ بل تمتد فى الزمان والمكان مادام الإنسان . إن صاحب العقيدة الذى لاتعصمه عقيدته من طاعة الكافرين ، والاستماع إلى مشورتهم والثقة فيهم ، ليتنازل عن عقيدته منذ الخطوة الأولى . إنها الهزيمة الروحية أن يركن صاحب العقيدة إلى أعداء عقيدته . الهزيمة بادئ ذى بدء ، فلا عاصم له من الهزيمة فى النهاية ، والارتداد على عقبيه إلى الكفر ، دون أن يحس أنه فى طريقه إلى هذا المصير .

إن المؤمن الحق يجد فى عقيدته غناء عن رأى أعدائه ، وفى هديها غنى عن مشورتهم . والمسلم على وجه خاص يجد فى عقيدته من السعة والدقة والشمول مالا يحوجه إلى رأى أعدائه ، ومايغنيه عن مشورتهم فى كل شؤون الحياة . والدرس الذى ألقاه القرآن الكريم على أوائل المسلمين مايزال قائما للتابعين وتابعى التابعين إلى يوم الدين .

ومن يطلب العزة والنصر على هدى من عقيدته ، وعلى ثقة بإلهه . فالله مولاه والله ناصره « وهو خير الناصرين » .

ثم يمضى السياق يثبت قلوب المسلمين ، ويبشرهم بخذلان أعدائهم وإلقاء الرعب فى قلوبهم؛ ويصرح بسبب الخذلان . فهو إشراكهم بالله ما لم ينزل به سلطانا ،واعتمادهم على آلهة لم يمنحها الله قوة ، ولم يهبها سلطة ، ولم يضع فى فكرتها ما يستحق التمكين .

والتعبير : «ما لم ينزل به سلطانا» ذو معنى عميق . وهو يصادفنا مكررا فى القرآن الكريم، فلنقل عنه كلمة هنا ، تفيد فى كل موضع على وجه الإجمال :

إن أية فكرة ، أو عقيدة ، أو اتجاه ، أو عمل . . إنما تحيا وتتحقق وتؤثر بمقدار ما تحمل من قوة كامنة . هذه القوة تتوقف على مقدار ما فيها من الحق ، أى بمقدار مافيها من التقاء مع سنن الكون التى أرادها الله لهذا الكون . ومن ثم فالله ــ خالق هذه السنن ــ هو الذى يمنح الفكرة أو العقيدة ، أو الاتجاه أو العمل تلك القوة ؛ ويمنحها ذلك السلطان،الذى تنفذ به وتتحقق وتؤثر فى محيط الحياة . يمنحها القوة والسلطان بمقدار ما فيها من اتفاق مع السنن الكونية التى قررها الله .

وهنا فى هذا المثال ، نجد تلك الآلهة التى يشركون بها . . ماذا تحمل فكرتها من قوة ؟ أو بتعبير آخر ما مقدار اتفاقها مع سنن الله الكونية ؟

إن الله الواحد ، خلق هذا الكون ، لينتسب إلى الله الواحد ، وليخضع لمشيئته الواحدة..

فكل فكرة تخرج على هـذه السنة . سنة التوحيد . هى فكرة زائفة ، مناقضة لسنة الله فى الكون . ومن ثم فهى لا تحمل قوة ، ولا يصاحبها سلطان . أى لا تملك أن تؤثر فى مجرى الحياة ؛ بل لا تملك حق الحياة .

وما دام أولئك الكفار يعتمدون على هذه الآلهة التى لم ينزل الله بها سلطانا ولم يمنحها قوة ، فبهذا السبب سيلقى الله فى قلوبهم الرعب ويخذلهم أمام المؤمنين ، لأن لهؤلاء عقيدة ذات سلطان ، وذات قوة ، لاتفاقها مع سنة الله ، واتساقها مع مشيئته :

« سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا » .

ذلك فى الدنيا . أما فى الآخرة فهناك المصير المحزن البائس الذى يليق بالظالمين .

« ومأواهم النار وبئس مثوى الظالمين ! » .

ولما كان هذا وعدا موكولا إلى المستقبل . فإن الله سبحانه لا يكلهم إليه وحده وهم فى جو الهزيمة ؛ إنما يردهم إلى مصداق هذا الوعد فى الماضى . فى غزوة أحد نفسها . فلقد كان لهم النصر فى أوائلها ؛ ولقد استحر القتل فى المشركين حتى ولوا الأدبار ، وتركوا الغنائم . ولم ينقلب النصر هزيمة للمسلمين إلا حين ضعفت نفوس الرماة أمام إغراء الغنائم ؛ وتنازعوا فيما بينهم ؛ وخالفوا عن أمر رسولهم وقائدهم .. وهنا يستطرد السياق فيصور لهم حالهم فى الهزيمة . لأن فى تصوير الهزيمة هنا بعد النصر عبرة ، تهز وجدانهم ، وتثير ندمهم ، وتردهم إلى السنة المثلى فى طاعة الرسول ، وفى مقاومة الضعف النفسى ، وفى الاتحاد والتماسك ؛ إذ يرون أسباب النصر وأسباب الهزيمة مجسمة فى صور ووقائع وأحداث : وبذلك يعود السياق إلى قصة المعركة من جديد :

« ولقد صدقكم الله وعـده إذ تحسونهم (١) بإذنه . حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر ، وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون . منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة . ثم صرفكم عنهم ليبتليكم . ولقد عفا عنكم ، والله ذو فضل على المؤمنين . إذا تصعدون ولا تلوون على أحد ، والرسول يدعوكم فى أخراكم ؛ فأثابكم غما بغم لكى لا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم . والله خبير بما تعملون . ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسا يغشى طائفة منكم ؛ وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية ، يقولون : هل لنا من الأمر من شىء ؟ قل : إن الأمر كله لله ، يخفون فى أنفسهم ما لا يبدون لك ، يقولون : لو كان لنا من الأمر شىء ما قتلنا ها هنا . قل : لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم ؛ وليبتلى

---

(١) تستأصلونهم بالقتل .

الله ما فى صدوركم ، وليمحص ما فى قلوبكم . والله عليم بذات الصدور . إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ، ولقد عفا الله عنهم ، إن الله غفور حليم » .

إن التعبير هنا ليرسم مشهدا كاملا لمسرح المعركة ، ولجو الهزيمة . مشهدا لا يترك حركة فى الميدان ولا خاطرا فى النفس ، ولا سمة على الوجوه إلا ويسجلها . . وكأنما العبارات شريط مصور يمر بالبصر ، ويحمل فى كل لحظة حركة جديدة ، نابضة . وبخاصة حين يصور حركة الإصعاد والهروب فى دهش وذعر واضطراب ؛ ودعاء الرسول للمنهزمين المرتدين عن الميدان؛ يصحب ذلك حركة النفوس وما يدور فيها من خوالج وخواطر ومطامع وانفعالات .

« ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه » .

وكان ذلك فى مطالع المعركة ، حيث بدأ المسلمون يقتلون المشركين ويحمدون حسهم قبل أن يلهيهم الطمع فى الغنيمة عن الطاعة للقائد .

« حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة » .

وهو تقرير لحال الرماة ، وقد ضعف فريق منهم عن صد إغراء الطمع فى الغنائم ؛ ووقع النزاع بينهم وبين من يرون الطاعة المطلقة لأمر رسول الله ، وانتهى الأمر إلى العصيان ، بعد ما شاهدوا بأعينهم طلائع النصر .. منقسمين إلى فريقين : فريق يريد غنيمة الدنيا ، وفريق يريد ثواب الآخرة .. وما كان لجيش ينقسم على نفسه فى ميدان المعركة هكذا أن يظل فى انتصاره . وبخاصة أن الخلاف كان على عرض من أعراض الدنيا ، والمعركة معركة عقيدة أولا وأخيرا .

« ثم صرفكم عنهم ليبتليكم » .

أى صرف قوتكم وبأسكم عن المشركين ؛ فانهزمتم وفررتم ، ليكون فى هذا ابتلاء لكم وامتحان ، بما أصابكم منهم من الكر عليكم ، والإيقاع بكم ..

« ولقد عفا عنكم ، والله ذو فضل على المؤمنين » .

عفا عما وقع منكم من ضعف أمام شهواتكم ، وعصيان لأمر رسولكم ، وخروج على النظام الذى وضعه لكم .. ثم ما وقع كذلك من فرار وانقلاب عن ميدان المعركة حين قيل:

إن محمداً قد مات ، ومن يأس من جدوى المقاومة بعد محمد .. وكلها زلات تحسب على المؤمنين . . عفا الله عنكم ، فضلا منه ومنة وتجاوزا عن ضعفكم البشرى الذى لم تصاحبه نية سيئة ولا إصرار .. « والله ذو فضل على المؤمنين »

ثم تأتى حلقة من المشهد الحافل بالحركة .

« إذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم فى أخراكم »

والعبارة ترسم صورة حركتهم الحسية وحركتهم النفسية فى ألفاظ قلائل . . فهم مصعدون هربا ، فى اضطراب ورعب ودهش ، لايلتفت أحد إلى أحد من الهول ، ولا يجيب أحد داعى أحد من الذعر . والرسول يدعوهم وهم مصعدون . . إنه مشهد كامل فى ألفاظ قلائل .

وكانت النهاية أن يجزيهم الله على الغم الذى تركوه فى نفس الرسول بفرارهم ، غما يملأ صدورهم على ما كان منهم ، وعلى تركهم رسولهم يصيبه ما أصابه ، وهو ثابت دونهم ، وهم عنه فارون . . ذلك كى يتعلموا ألا يحفلوا بشىء يفوتهم ، ولا يحزنوا لأذى يصيبهم . فهذه التجربة التى مرت بهم ، وذلك الندم الذى ساور نفوسهم ، وذلك الغم الذى استشعروه فيما فعلوه . . كل أولئك سيصغر فى نفوسهم كل مايفوتهم من عرض ، وكل مايصيبهم من مشقة ؛ ويجعلهم أدق تقديرا للأمور كلها ، خيرها وشرها ، بعد هذه التجربة الأليمة :

« لكى لا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم » .

والله المطلع على الخفايا ، يعلم حقيقة أعمالكم ودوافعكم وتأثراتكم :

« والله خبير بما تعملون » .

ولقد أعقب هول المعركة وذعرها ، وهرجها ومرجها سكون كالذى يعقب العاصفة . سكون فى نفوس المؤمنين الذين ندموا وأحسوا خطأهم وتابوا إلى ربهم . وشملهم الله بنعاس لطيف يستسلمون إليه مطمئنين .

والتعبير عن هذه الظاهرة يشف ويرق وينعم حتى ليصور بجرسه وظله ذلك الجو الساكن الوديع :

« ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسا يغشى طائفة منكم » .

هكذا « أمنة » .. « نعاسا » .. « يغشى » وكلها تلقى ستارا رقيقا شفيفا على الأعضاء والجوالج والعيون ، وترسم ذلك الجو الآمن الذى أنزله الله على المؤمنين .

أما ذوو الإيمان المزعزع ، الذين شغلتهم أنفسهم وأهمتهم ، والذين لم يتخلصوا من تصورات الجاهلية ، فهؤلاء ما زالوا فى قلق وفى فزع ، يحسون أنهم مضيعون ، لا يملكون لأنفسهم شيئا ، إنما هم لقى مهمل ، بدليل أن القتل قد نال بعضهم دون مشيئتهم ، وقد دفعوا دفعا إلى هـذا البلاء الذى لا إرادة لهم فيه :

« وطائفة قد أهمتهم أنفسهم ، يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية ، يقولون : هل لنا من الأمر من شىء ؟ » .

وذلك شعور من لا يربط نفسه بعقيـدة يعرف على ضوئها طريقه ، ويقـدر من الحياة موقفه ؛ وتصور من لا تربطه بالله رابطة ، ومن لا يعرف حدود قدرته وقدرة خالقه .

« قل : إن الأمر كله لله » . .

فلا أمر لأحد . لا لهم ولا لسواهم . فالأمر كله لله والقدرة كلها لله .

على أن سؤالهم ذاك إنما يخفى وراءه معنى يكتمونه ؛ يريدون ليقولوا : إنهم إنما دفعوا دفعا إلى مصير لم يختاروه ؛ ولم يستشاروا فيه .

« يقولون : لو كان لنا من الأمر من شىء ما قتلنا هاهنا » .

هنا يجيئهم القرار الحاسم الصارم ، ويـكشف لهم عن الحقيقة العميقة الدقيقة .. إن الأجل مكتوب لا يستقدم ولا يستأخر ، فإذا حم الأجل سعى صاحبه بنفسه إليه ، وجاءه بقدميه ، لا يسوقه أحد ، ولا يدفعه إلى مضجعه المقسوم :

« قل : لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم » .

ياللتعبير العجيب .. «إلى مضاجعهم» .. فهو مضجع إذن ذلك الرمس تستريح فيه الجنوب ، وتسكن فيه الخطى ، وينتهى إليه الضاربون فى الأرض . مضجع يأتون إليه طائعين ، فعـلام الجزع إذن من المضجع الساكن الأمين ؟ !

فأما الموت فأمره ذاك . ليس الجهاد هو الذى يسببه ، ولـكنه الأجل هو الذى يستدعيه .

أما ذلك الذى أصابهم من الابتلاء فلحـكمة أخرى :

« وليبتلى الله ما فى صدوركم ، وليمحص ما فى قلوبكم » .

فليس كالمحنة امتحان يكشف ما فى الصدور ، ويصهر القلوب فينفى عنها الزيف والرياء ، ويكشفها على حقيقتها بلا طلاء .

« والله عليم بذات الصدور » .

عليم بالأسرار الملازمة للصدور ، المختبئة فيها ، المصاحبة لها حتى ليعبر عنها بذات الصدور . ولـكنه ـ كما سلف ـ يريد أن يكشف للناس عنها ، ليتعلق علم الله بالعمل لا بالنية ، وليحاسب على الأعمال لا على مجرد النيات .

ولقد علـم الله دخيلة الذين هزموا وفروا يوم التقى الجمعان فى غزوة أحـد .. إنهم كانوا ضعفاء أمام الشدة . كانت لهم دخائل من معاصى ارتكبوها ، فظلت نفوسهم مزعزعة بسببها، فدخل عليهم الشيطان من ذلك المنفذ ، واستزلهم فزلوا :

« إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا » .

وهو تصوير لحالة النفس البشرية حين ترتكب الخطيئة ، فتفقد ثقتها فى قوتها ، ويضعف بالله ارتباطها ، ويختل توازنها وتماسكها ، وتصبح عرضة للوساوس والهواجس ، ما لم تسارع إلى ذكر الله واستغفاره والتوبة إليه ، ليعود إليها أمنها واطمئنانها وتماسكها .

ولقد عفا الله عن هؤلاء الذين استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا . ولم يحل عليهم غضبه ، فسامحهم ، وغفر لهم .

« إن الله غفور حليم » .

* * *

وبمناسبة استعراض مشهـد الفزع والجزع ، يرتد السياق إلى الذين آمنوا ، يدعوهم إلى الانتصار على الخوف ، ويشجعهم على المضى فى الجهاد ، ويحذرهم أن يكونوا كالـكافرين الذين لا يدركون سنن الله ، ولا يعرفون أن الموت والحياة محكومان بالأجـل المـكتوب ، فيقولون لإخوانهم إذا خرجوا للـكسب أو للغزو : لو كانوا عندنا ماماتوا وما قتلوا ؟ ويتحسرون على أن تركوهم يخرجون .. ويعد الذين يستشهدون فى سبيل الله مغفرة ورحمة ، والجميع محشورون إلى الله على كل حال . ثم يوجه القول إلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يدعوه إلى العفو عنهم فيما كان منهم ، وإلى استغفار الله لهم ؛ كما يدعوه إلى مشاورتهم فى الأمر ـ حتى بعد ما بدر منهم

من اختـلاف فى الرأى ، وضعف عن احتمال تبعاته ؛ ويذكره أن رحمتـه بهم هى التى جمعت قلوبهم حوله ، فلو كان فظا غليظ القلب لانفضوا من حوله . ثم يرتد الخطاب إلى المؤمنين ليقرر لهم أن النصر والخذلان بيد الله دون سواه ، فليتوكلوا عليه وحده،فالمؤمنون يتوكلون على الله بحكم إيمانهم وإليه يتوجهون :

«يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا ، وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا فى الأرض أو كانوا غزى : لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ، ليجعل الله ذلك حسرة فى قلوبهم ، والله يحى ويميت ، والله بما تعملون بصير . ولئن قتلتم فى سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون ،ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون . فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظا غليظ القلب لا نفضوا من حولك ، فاعف عنهم ، واستغفر لهم ، وشاورهم فى الأمر ؛ فإذا عزمت فتوكل على الله ، إن الله يحب المتوكلين . إن ينصركم الله فلا غالب لـكم ، وإن يخذلـكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده ؟ وعلى الله فليتوكل المؤمنون » .

إن قول الـكافرين : «لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا» ليـكشف عن الفارق الأساسى بين موقف صاحب العقيدة وغيره من الحياة كلها وأحـداثها وسرائها وضرائها . إن صاحب العقيدة لمطمئن إلى ماتأتى به الأحداث ، لأنه يعلم أن لن يصيبه إلا ما كتب الله له ؛ فهو لايتلقى الضراء بالجزع ، ولايتلقى السراء بالزهو ، ولا تطـير نفسه لهـذه أو لتلك . إنه الاطمئنان والاستقرار فى كل الأحوال .. فأما الذى يفرغ قلبه من العقيدة فى الله فهو أبدا مستطار . أبدا فى قلق . لأنه غير مشدود إلى محور ثابت ، وغير متصل بالسنة الراسخة .

« لو كانوا عندنا ماماتوا وما قتلوا » :

يقولونها لأنهم محجوبون عن الأسباب الحقيقية للموت والحياة . لايرون إلا الملابسات الظاهرة التى يعتقدونها عللا وأسبابا .

« ليجعل الله ذلك حسرة فى قلوبهم » .

فإحساسهم بأن خروج إخوانهم ليضربوا فى الأرض طلبا للرزق ، أو ليغزوا ويقـاتلوا فيقتلوا . إحساسهم بأن هذا الخروج هو سبب الموت أو القتل ، يذهب بأنفسهم حسرات أن لم يمنعوهم من الخروج ! ولو كانوا يعلمون السبب الحقيقى وهو استيفاء الأجل ما تحسروا ، ولفاءوا إلى الله راضين أو صابرين .

« والله يحي ويميت » .. فبيده إعطاء الحياة ، وبيـده استرداد ما أعطى : فى الموعد الذى يضربه والأجل الذى يحـدده . سواء كان الناس فى بيوتهم أو فى ميادين الـكفاح للعيش أو للعقيدة .

فيا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا فيما يعتقدون :

« والله بما تعملون بصير » .. عالم بدخائل الصدور .

على أنكم لو قتلتم ـ فى سبيل الله ـ أو متم ، فإن مغفرة الله لـكم ، ورحمته بكم،خيرمن حياة أولئك الـكفار المقطوعة الصلة بالله ، الهابطة إلى الأرض ، ومما يجمعون فيها من مال ومتاع . وإنـكم لمحشورون إلى الله على كل حال سواء متم ميتة عادية ، أو قتلتم فى الجهاد . فخير إذن أن تلقوا الله وقد نهضتم بتكاليف الإيمان ؛ وجاهدتم فى سبيله حتى وافاكم الأجل الموعود ، الذى لا ينقص منه الجهاد .

وقبل أن يتمم توجيهاته للذين آمنوا عن النصر والهزيمة وأسبابهما الأصيلة يتوجه إلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفى نفسـه شىء من القوم خالفوا عن أمره ، وضعفوا أمام إغراء الغنيمة ، ووهنوا إذ سمعوا نبأ كاذبا عن مقتله . وانقلبوا على أعقابهم مهزومين وتركوه يثخن بالجراح ، وهو صامد لا يتزعزع .. يتوجه إلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يذكره نعمة الله عليه وعلى المسلـين أن جعل قلبه رحيما بهم ، لينا معهم. ولو كان فظـا غليظ القلب لنفروا منه وشردوا .. ذلك ليستجيش هذه الرحمة الـكامنة فى صدره ـ عليه الصلاة والسلام ـ فتغلب ما فى نفسـه منهم .. ثم يدعوه أن يعفو عنهم ويستغفر الله لهم ، ويشاورهم فى الأمر كما كان يشاورهم .. حتى إذا اعتزم ـ بعد المشاورة ـ لم يتردد ، ومضى متوكلا على الله لا يتلفت .

« فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك،فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر . فإذا عزمت فتوكل على الله . إن الله يحب المتوكلين »

وهـكذا يقرر الإسلام مبدأ الشورى فى الحـكم . حتى ومحمد الرسول هو الذى يتولاه . وهو نص جازم قاطع ، لايترك للأمة المسلمة شكا فى أن الشورى مبدأ أساسى ، لايقوم حكم الإسلام على أساس سواه . . أما كيف تتم هذه الشورى . فذلك متروك لمقتضيات الحياة ، واختيار الأمة المسلمة حسبما تراه .

وينتهى هذا النص بتثبيت قلوب المؤمنين ، وردها إلى الله وحده ، فبيده النصر والخذلان .

« إن ينصركم الله فلا غالب لكم ، وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده ؟ »

ولقد سبق بيان سنة الله فى النصر والهزيمة . وأنه لايعطى النصر إلا لمن يستحقه ، ولا يكتب الهزيمة إلا لمن يستحقها كذلك . وأن هذا وذلك تحقيق لمشيئته ، لأنه تحقيق لسنته التى لاتتخلف ولا تحابى .

« وعلى الله فليتوكل المؤمنون » ..

والاتكال على الله يقتضى أولا تحقيق أوامره فى إعداد العدة وبذل الجهد . فإن من لايطيع أوامر الله لايتكل عليه بداهة . إنما يكون الاتكال للمطيع ، وإنما يقبل الاتكال من المؤمن . والمؤمن هو الذى يسمع الأمر ويتوخاه . . وعلى هذا الأساس فلنفهم معنى الاتكال على الله ، حيثما ورد فى القرآن الكريم . ولنفهم كيف تتحقق مشيئة الله ، بتحقيق السنن التى أرادها ، وأمر الناس أن يدركوها ، وأن يتبعوها ، وأن تكون حياتهم واتجاهاتهم معها على وفاق .

***

ولقد كان من بين العوامل التى جعلت الرماة يزايلون مكانهم من الجبل ، خوفهم ألا يقسم لهم الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الغنائم ، وأن يعدهم لم يشاركوا فى القتال ! كذلك كان بعض المنافقين قد تكلموا بأن بعض غنائم بدر من قبل قد اختفت ، وهمسوا باسم الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى هذا المجال :

فهنا يأتى السياق بحكم عام ينفى عن الأنبياء عامة إمكان أن يغلوا . . أى أن يخونوا ويحتجزوا شيئا من أموال الغنائم أو سواها :

« وما كان لنبى أن يغل ، ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة ، ثم توفى كل نفس ما كسبت ، وهم لايظلمون »

وطبيعى أن قوله : « ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة » لايدخل فى عداده الأنبياء ، لأنه نفى من أول الأمر إمكان وقوع ذلك منهم أصلا . إنما هو حكم موجه لغير الأنبياء . وقد كان الرجل من المسلمين يقع فى يده الثمين من الغنيمة ، وهو وحده لايراه أحد ، فيأتى إلى أميره بكل ماوجد لايغل شيئا ، خشية أن ينطبق عليه هذا النص . وهكذا ربى القرآن المسلمين تلك التربية الكاملة التى تكاد أخبارها تحسب فى الأساطير .

ثم يستطرد السياق إلى موازنات سريعة بين الفريق الذى يطلب رضى الله ويؤثره على عرض الدنيا ، ويتبع الطريق الذى يحقق ذلك الرضى ؛ والفريق الذى يتنكب الطريق ، فيؤوب بسخط الله ، وينتهى إلى جهنم وساءت مصيرا . ويقرر أن مقام أولئك عند الله غير مقام هؤلاء ، وأن الله مطلع على عمل الجميع ، بصير بما وراءه من نيات :

أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله ، ومأواه جهنم وبئس المصير ؟ هم درجات عند الله ، والله بصير بما يعملون »

وهذا الاستطراد هنا ليس غريبا على الجو . جو الطمع فى عرض الدنيا،وجو الغنائم والأمانة فى أدائها أو الخيانة . . فهو توجيه إلى ابتغاء رضوان الله ، وهو خير من كل عرض .وتحذير من سخط الله الذى لا ينفع معه ثراء . ولما كانت الموازنة بين من يبتغون رضى الله ومن ينتهون إلى سخطه ، كان جزاء هؤلاء وهؤلاء هو القرب والبعد من الله ، : « هم درجات عند الله » وهذا وحده جزاء .

***

ثم يرتد السياق إلى صميم المعركة وما جرى فيها ، وما لابسها من مشاعر وانفعالات . يعود إلى تذكير المسلمين بأنهم إن كانوا قد أصيبوا فى أحد ، فقد أصابوا قبل ذلك فى بدر فينبغى إذا ذكروا الغرم أن يذكروا الغنم . وقبل أن يأخذ السياق فى هذا يبدأ فيذكرهم بالنعمة الكبرى . النعمة التى لا تقاس إليها تضحية ولا مشقة . نعمة الإيمان . ونعمة إرسال الرسول الذى هداهم إليه . فهذه وحدها ترجح كل ما يحل بهم من محنة :

« لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم ، يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة . وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين »

إنها المنة الكبرى ، والنعمة العظمى ، أن ينتقلوا من الضلال المبين الذى كانوا فيه ، ويرتفعوا على ذلك المستوى الهابط الذى لا يليق بالإنسان . . وهو يعبر تعبيرا مجملا عن ذلك الذى كانوا فيه ، بأنه ضلال مبين . ولكن هذا الإجمال يفصله شيئا ما ورد قبله من عمل الرسول فيهم : « يتلو عليهم آياته » فيرفع مداركهم « ويزكيهم » فيطهرهم من دنس الشرك والمعصية والهبوط الإنسانى « ويعلمهم الكتاب » فينقلهم من الجهالة إلى المعرفة « والحكمة » فيهديهم

إلى الرشد والإدراك السليم . . لقد كانوا محرومين من هذا كله . . كانوا فى ضلال مبين . .

وليس هذا هو كل مايعطيه النص من ظلال . . إنه يتضمن تعبيرا دقيقا عميق الدلالة :

« لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم » . .

لم يقل رسولا منهم . ولكن « من أنفسهم » إنها الصلة الروحية العميقة إذن هى التى تجمع بينهم وبين الرسول . صلة النفس بالنفس فى أعماقها : لاصلة الفرد بالفرد فى ظاهرها . ثم إن فى هذه المنة تكريما لهم وللبشرية معهم . إن الرسول منهم . بل من أنفسهم . فلهم من اختيار الله لواحد منهم ، ولنفس من نفوسهم معنى من معانى التكريم بلا جدال . نعم إن الاختيار قد وقع على شخص الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولكن الرسول نفس منهم ، فظلال التكريم الإلهى تشملهم .

فهذه فى ذاتها منة ونعمة ، تضاف إلى تلك النقلة التى نقلهم إياها الرسول ، غير متعال عليهم ولا متفضل ، لأنه واحد منهم ، ونفس من أنفسهم ، تربطهم به تلك الصلة العميقة الجذور ، ويضمهم إلى نفسه ذلك النسب الأصيل فى الشعور .

وهكذا يكون ذكر هذه النعمة الكبرى خير مقدمة للموازنة بين ما أصابهم من خسارة ، وما تحقق لهم من كسب بهذه الرسالة . . ثم تجىء بعدها الموازنات التفصيلية :

« أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم : أنى هذا ؟ قل هو من عند أنفسكم . إن الله على كل شىء قدير . وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله ، وليعلم المؤمنين ، وليعلم الذين نافقوا ، وقيل لهم : تعالوا قاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا . قالوا : لو نعلم قتالا لاتبعناكم . هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان ، يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم ، والله أعلم بما يكتمون . الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا : لو أطاعونا ماقتلوا . قل : فادرأوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين » .

لقد سلف ذكر المنة الكبرى والنعمة العظمى . فهنا يجىء السؤال الاستنكارى :

« أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم : أنى هذا ! »

يجىء هذا السؤال الاستنكارى فى موضعه . فأين مكان هذه المصيبة الصغيرة بالقياس إلى تلك النعمة الكبيرة ؟ على أن هذه المصيبة ذاتها قد أصابوا هم مثليها من قبل فى بدر . فعجيب ومستنكر أن يستنكروا إصابتهم بشىء مما أصابوا ، وأن يسألوا كيف يقع هذا وكيف يكون ؟

كأنما كانوا يحسبون أن النصر مضمون لهم ، مهما يكن تصرفهم وبعدهم عن أسباب النصر الحقيقية من استعداد وطاعة وانتصار على شهوات النفوس ومطامعها وثبات للشدة واتجاه إلى الله :

« قل : هو من عند أنفسكم » ..

فأنفسكم هى التى ضعفت عن الإغراء ، وهى التى أعجلتكم عن الصبر ، وهى التى قادتكم إلى الهزيمة فى المعركة الحربية ، بعد ما هزمت فى معركة المطامع والمطامح : فذلك تأويل كيف وقع هذا ، وكيف أصابكم ما أصابكم .

« إن الله على كل شىء قدير » ..

قادر على أن يهبكم النصر ، حين تنتصرون على شهواتكم وعلى إغراء العرض الزائل . وقادر على أن يديل عليكم أعداءكم ، لحكمة كامنة . حكمة تكشف عنها الآية التالية فى النص :

« وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله .. وليعلم المؤمنين . وليعلم الذين نافقوا ... »

ولقد ورد شبيه لهذا المعنى فى سياق استعراض المعركة من قبل ، ولكنه هنا يضيف جديدا ، ويفصل ما أجمل فى شأن المنافقين :

« وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم : تعالوا قاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا ، قالوا : لو نعلم قتالا لاتبعناكم »

أولئك هم جماعة عبد الله بن أبى بن سلول رأس النفاق . الذين خذلوا المسلمين قبل أن تبدأ المعركة ، والذين انعزلوا عن الجيش وارتدوا ، فلما دعوا أن يقاتلوا أو يدافعوا قالوا فى تهكم : لو نعلم قتالا لاتبعناكم . كأنهم يردون بهذا التهكم على عدم أخذ النبى – صلى الله عليه وسلم – بمشورة كبيرهم . فكأنما يقولون : لو كنا نعلم قتالا ولنا فى القتال دور ، لأخذتم برأينا !

« هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان . يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم »

هم منافقون يقولون غير ما يكتمون . والمنافق أقرب إلى الكفر منه إلى الإيمان . فالنفاق والإيمان لا يجتمعان ولا يقتربان .

« والله أعلم بما يكتمون » .

ثم يستمر السياق يستعرض ما كان من هؤلاء المنافقين فى ذلك اليوم الذى أراد الله أن يكشف فيه عن نفاقهم ، ويظهره على الملأ ، ولو أنه يعلم ما يكتمون :

« الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا : لو أطاعونا ما قتلوا » ..

فهم لا يكتفون بأن يقعدوا ، بل يشيعون الفشل والتردد فى نفوس الآخرين ، فيدعونهم إلى القعود مثلهم اتقاء للموت ، كأن الخروج للقتال هو سبب الموت ..

عندئذ يجبههم ويتحداهم بأمر واقع لا نكران فيه :

« قل : فادرأوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين » ..

والموت يصيب القاعدين كما يصيب المجاهدين . فإن كانوا صادقين فليدرأوا عن أنفسهم الموت بقعودهم . وما هم بمستطعين .

إنه تحد يتلقاهم به سريعا . وقبل أن يكمل الآية القصيرة . لأن مقالتهم تلك خطيرة ، وماكرة ، وكفيلة بأن تشيع التردد والندم على الخروج للجهاد ، وبخاصة حين تذكر عقب الهزيمة ، وفى النفوس ضعف الهزيمة ، وفى الجو رائحتها وظلها .. لهذا جاء ذلك التحدى القاطع الذى يكشف الكذب ، ويفضح الدسيسة .

على أن الذين يستشهدون ، لا تنتهى حياتهم ، ولا يموتون ميتة القاعدين :

« ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا ، بل أحياء ـ عند ربهم ـ يرزقون . فرحين بما آتاهم الله من فضله ، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولاهم يحزنون . يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لايضيع أجر المؤمنين »

إن النص على أن الشهداء ليسوا أمواتا بل أحياء عند ربهم ، يتكرر فى القرآن الكريم . والشهيد لايغسل لطهارة جسمه تبعا لهذه القاعدة . قاعدة أنه حى عند الله .

ولكننا ـ فيما ترى أعيننا وفيما تحكم مقاييسنا المادية ـ نرى الشهداء يموتون ، وتفارقهم تلك الحياة الحيوانية المعروفة .. فكيف نوفق بين ما نؤمن به من قول الله سبحانه ، وماتراه أعيننا وتدركه مقاييسنا الأرضية ؟

إن النص يهدينا إلى ذلك التوفيق .. إنه يقرر أنهم أحياء « عند ربهم » وإذن فهى حياة لاندرى نحن كنهها ، لأنها ليست حياة عندنا . إننا نعرف لوناً من ألوان الحياة التى شاهدناها بوسائلنا البشرية المحدودة . وقد كررنا أن الذى ندركه نحن ليس هو آخر ما يحويه الوجود من مدركات . وحياة الشهداء « عند ربهم » وكلمة « عند » قد تدل على القرب من الله ، كما قد يكون معناها « فى اعتبار الله » وهى فى كلتا الحالتين تثبت للشهداء حياة ، من نوع غير ما نعرفه فى هذه الحياة .

فإذا نحن تتبعنا النص ، وجدنا أن لهذه الحياة سمات يجب أن نردها هى الأخرى إلى تصورات غير تصوراتنا البشرية ..

نجد أن هؤلاء الشهداء « يرزقون » . فلا نملك أن نحدد نوع الرزق ولا كنهه . أهو من نوع ما فى الدنيا ؟ أم هو من نوع مافى الحياة الآخرة ؟ وإذا كان فما هو وما طبيعته ؟ كل هذا لانملك الإجابة عليه بالتحديد .

ونجد هؤلاء الشهداء « فرحين بما آتاهم الله من فضله » فنقف كذلك أمام الفرح لاندرى طبيعته . أهو فرح من نوع ماكانوا يفرحون فى الأرض ؟ أم هو فرح روحى مجرد عن انفعالات الجسد ؟ أم هو غير هذا وذاك ؟ وكذلك « ما آتاهم الله من فضله » أهو الشهادة التى تعفيهم من الحساب وتدخلهم الجنة ؟ أم هو الرزق الذى سبقت الإشارة إليه ؟ كل ذلك غيب نؤمن به ولا ندرى كنهه . وكل تحديد له تكهن يحتاج إلى الدليل .

ونجد أن هؤلاء الشهداء يستبشرون بأن إخوانهم المؤمنين الذين خلفوهم فى الدنيا لاخوف عليهم ولاهم يحزنون . . يستبشرون بنعمة الله وفضله . وقد عرفوها وتأكدوا أن الله يمنحهما عباده لأن الله لايضيع أجر المؤمنين .. وإذن فهم ما يزالون على اتصال بإخوانهم « الذين لم يلحقوا بهم » بعد ، يهمهم أمرهم ، ويستبشرون بالخير الذى سيصيبهم ، والذى نالهم هم وعرفوه ، وتأكدوا أن الله سيمنحه لزملائهم كما منحهم إياه .. وإلى هذا الحد يقف إدراكنا فلا نتعداه .

على أية حال نحن ننتهى إلى حقيقة مقررة لاريب فيها .. وهى أن الذين يستشهدون فى سبيل الله لا تنقطع حياتهم بالموت ، كما تنقطع حياة الذين يموتون ميتة القاعدين .. فهم باستشهادهم أربح من هؤلاء القاعدين ، وأطول حياة . لأن حياتهم فى الأرض تمتد ـ على نحو لا ندركه ـ بحياة أخرى عند ربهم . فيها استمتاع برزق الله ، و فرح بفضله ، واستبشار بمصير زملائهم الأحياء ..

ولكن أى الأحياء ؟ إنهم أولئك الذين لم تزلزلهم المحنة ، ولم تقعدهم الجراحات عن مواصلة الكفاح ، ولم يرهبهم تجمع الأعداء ، وإرجاف الناس بهذا التجمع ، وهم مثخنون بالجراح :

« الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح ، للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم . الذين قال لهم الناس : إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم . فزادهم إيمانا . وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل . فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء، واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم » .

إنها صورة قوية للنفس المؤمنة، فحين تتم حقيقة الإيمان فى النفس الإنسانية ، تهون عقبات الدنيا ، وتصغر آلام الدنيا ، وتتضاءل مخاوف الدنيا ، وترتفع هذه النفس على جميع الاعتبارات وجميع الملابسات وجميع التصورات المنبعثة من اللحم والدم ، ومن هذه الأرض التى يلصق بها اللحم والدم :

« الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح » ..

وما القرح حين تتطلع النفس إلى آفاق الاستشهاد ؟ إن النفس حين ترى الموت فى سبيل الله أمنية ، تصبح جميع الآلام سهلة هينة .. وهؤلاء المؤمنون كانت غزوة أحد قد أثخنتهم بالجراح ؛ ولكن الرسول — صلى الله عليه وسلم — فى بعد نظره وحسن تقديره لخوالج النفوس خشى أن تكر عليهم قريش بعد انصرافها طمعا فى ضعفهم بعد الهزيمة . كما أنه — صلوات الله عليه — لم يرد أن تكون الهزيمة هى آخر ما تنطوى عليه جوانح المسلمين . فنادى فى اليوم التالى لانتهاء الغزوة ورحيل قريش .. نادى أصحابه ليخرجوا ويعسكروا خارج المدينة ، كى تعلم قريش أن المسلمين لم يضعفوا ، وأنهم على استعداد للقتال إن وسوس لقريش الطمع بمعاودة الهجوم ؛ ثم لكى تشتد عزائم المسلمين ، ويستردوا ثقتهم بأنفسهم ، وثقتهم فى الهجوم من جديد .. عندئذ استجاب للرسول أولئك الذين تصفهم الآية هذا الوصف الموحى: « الذين استجابوا لله والرسول من بعدما أصابهم القرح » . . « الذين قال لهم الناس : إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم، فزادهم إيمانا وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل »

وكان ما قدره الرسول — صلى الله عليه وسلم — بنافذ بصيرته قد وقع ، فإن قريشا ندمت على ذهابها والمسلمون ضعاف ، وهمت أن تعود فتدخل عليهم المدينة . وعلم المسلمون بهذا . علموا أن قريشا عائدة .. وقال لهم الناس . « إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم » فهم فى عدد كثير ، وهم فى صحة وقوة .. ولكن ما الذى يخشاه من وهب نفسه لله ، ونوى الشهادة فى سبيل الله ؟ إنه لا يخاف شيئاً وهو يعتمد على الله :

« فزادهم إيمانا ، وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل » ..

لم يزعزع التهديد ثقتهم بالله ، ولا ثقتهم بالعاقبة . بل زادهم إيمانا واعتمادا على الله واكتفاء به ، وتسليما لأمره . . وكان ما لا بد أن يكون . كان هذا الإيمان منهم مثار رهبة لقريش حين علمت بخروج الرسول — صلى الله عليه وسلم وجيشه — فعلمت أن فيهم قوة وجلدا ، فرضيت من

الغنيمة بالإياب وانصرفت ؛ وخلت طريق المسلمين :

« فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء » ..

« واتبعوا رضوان الله » ..

ساروا على النهج الذى ينتهى إلى رضوان الله ؛ وقادهم هذا الرضوان إلى العمل الدائب فى سبيل الاحتفاظ به .. والذى يحس رضوان الله يبيع نفسه كلها ليشريه ، ويضحى بكل الاعتبارات الأرضية ليظل أهلا له .

« والله ذو فضل عظيم » ..

يهب هذا الرضوان لمن يعملون له ؛ ويسيرون على النهج الذى يصلهم به . وهو فضل من الله عظيم .

« إِنَّمَا ذَٰلِكُمْ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ ، فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ . إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * وَلَا يَحْزُنْكَ ٱلَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي ٱلْكُفْرِ ، إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا ٱللَّهَ شَيْئًا ، يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي ٱلْآخِرَةِ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا ٱلْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ ، إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا ، وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ .

« مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ، وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ ، وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ ، فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ، وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ .

« وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ ، بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ ، سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا : إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ . سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ، وَنَقُولُ : ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ *

ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ ، وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ * الَّذِينَ قَالُوا : إِنَّ اللهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ . قُلْ : قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ ، فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ؟* فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ *

« كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ، وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ، وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ .

« لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ، وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا ، وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ * وَلَقَدْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ ، فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ ، وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ، فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ * لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا ، فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » .

انتهى السياق فى الدرس الماضى بنهاية الأحداث فى غزوة أحد . وكانت نهاية الأحداث هى صورة الشجاعة الكريمة ، بعد صورة الهزيمة . صورة : « الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح » . . « الذين قال لهم الناس : إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا ، وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل » . .

ففى هذا الدرس يستمر السياق فى تشجيع المؤمنين على النهوض بتبعات رسالتهم الشاقة . .

يبدأ أولا بالكشف عن أسباب الخوف فى النفس الإنسانية ، ليعرف المؤمنون مأتى الخوف . ومتى عرفوه اجتنبوه .

ويثنى بالتسرية عن الرسول – صلى الله عليه وسلم – فى شأن الذين يسارعون فى الكفر فيطمئنه بأنهم لن يضروا الله شيئا ، وأنهم غير معجزى الله ، إنما هو يملى لهم ليفتنهم . .

ثم يثبت المؤمنين على الابتلاء . لأن وراءه حكمة . . حتى يميز الله الخبيث من الطيب . .

وبعدها يكشف عن مصير اليهود الذين يبخلون بأموالهم إذا دعوا إلى البذل ويقولون : إن الله فقير ونحن أغنياء ! ويكذبون بدعوة الرسول – صلى الله عليه وسلم – معتذرين بطلب معجزات خاصة ، وهم قتلوا من قبل أنبياءهم الذين جاءوهم بما طلبوا من معجزات ! فليس تكذيبهم للرسول أول تكذيب . وليس هو بأول رسول لقى التكذيب .

وفى ظلال المعركة ، التى ما يزال السياق مغموراً بها ، يقرر أن كل نفس ذائقة الموت . فلا خوف من الجهاد والقتال . والعبرة بما تلقاه النفوس بعد الموت من جزاء .

وفى نهاية هذا الدرس ينبىء الله المسلمين أن تكاليف الدعوة لن تقف عند ما أصابهم فى أحد . فإن فى الابتلاء بقية . وأنهم سيصابون فى الأموال والأنفس . وأنهم سيسمعون مايسوءهم من أهل الكتاب ومن المشركين . فلابد من الصبر حتى النهاية . . أما أهل الكتاب الذين خانوا الأمانة فحسابهم على الله . ولهم عذاب أليم .

وهكذا نحن ما نزال أولا فى ظلال المعركة . وما نزال أخيرا فى الظلال العامة لسورة آل عمران ، التى أسلفنا الحديث عنها فى مطلع السورة . . فلنأخذ فى شىء من التفصيل :

***

« إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه . فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين »

إن مصدر الخوف هو الشيطان ، الذى يفرغ قلوب أوليائه من الإيمان بالله ، والثقة فى نصرته . ومن ثم تصبح هواء . ويحل الجبن فيها محل الشجاعة ، والحرص على الحياة وأعراضها محل الرجاء فيما عند الله وهو خير وأبقى . . وما يؤمن قلب بالله ثم يستشعر الخوف من قوة أرضية مهما عظمت واستطالت . وما يتطلع قلب إلى ماعند الله ثم يحرص على شىء مما فى هذه الدنيا ، وما يثق قلب فى رحمة الله ، ثم يخشى عوزا أو هزيمة أو أذى من خلق الله .

وما دام أولياء الشيطان هؤلاء يواجهون المسلمين – وهم منخوبو الأفئدة – فلا على المسلمين منهم ، وليس للمسلمين أن يخشوهم .

« فلا تخافوهم وخافون . إن كنتم مؤمنين » . فالإيمان بالله يقتضى ألا يخافوا سواه . ويملأ قلوبهم شجاعة وثقة واطمئنانا إلى المصير .

إن القوة المهتدية ، المتصلة بمصدرها الأول ، التى تستقى من النبع الأصيل هى القوة الحقيقية . وما عداها هواء :

« ولا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر ، إنهم لن يضروا الله شيئاً » . .

ولا تحزن كذلك إذا ما شهدت الكافرين يسارعون فى الكفر ، ويبلغون فيه أشواطاً بعيدة ، كأنما هم فى سباق . إنهم مهما كثروا ومهما بلغوا من الكفر والعناد لن يضروا دعوتك ، ولن يضعفوا جبهتك . .

ولكن التعبير هنا يأخذ طريقاً عجيباً :

« إنهم لن يضروا الله شيئا » . .

لم يقل : إنهم لن يضروك شيئا . . لقد أضاف الموقف كله إلى الله سبحانه ، ونسب القضية كلها إليه ، ليشعر الرسول — صلى الله عليه وسلم — أن قضية هذه الدعوة فى يد أقوى ، وفى جناب أرفع . فلا عليه أن يكفر من يكفر ، وأن يبالغ فى الكفر . فليمض هو فى رسالته ، والله يتولى قضيته ودعوته . . ولن يضروا الله شيئا : ومن هم حتى يضروا الله ؟ !

وما بالهم إذن — فى ظاهر الأمر — ذوى قوة وذوى مال ؟ إن ذلك كله إلا ابتلاء :

« يريد الله ألا يجعل لهم حظا فى الآخرة . ولهم عذاب عظيم . إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان لن يضروا الله شيئا ، ولهم عذاب أليم » .

إنهم يسارعون فى الكفر ويبالغون . ولقد كانوا يملكون الإيمان . كانوا يملكونه فعلا ، فعوامل الإيمان فى النفس ، ودلائله فى الكون ، تجعل الإيمان هو الفطرة الكامنة فى كل إنسان . ولكنهم اشتروا به الكفر الذى يسارعون فيه ويبالغون . لذلك قدر الله حرمانهم من حظ الآخرة : « يريد الله ألا يجعل لهم حظا فى الآخرة » . . وماهم ببالغين بكفرهم العنيف البليغ أن يضروا دعوة الله . لأنهم لن يبلغوا أن يضروا الله الذى أراد لهذه الدعوة النجاح .

« ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم خير لأنفسهم ، إنما نملى لهم ليزدادوا إثما . ولهم عذاب مهين »

وإذا كان الله لا يأخذهم بكفرهم ومسارعتهم فى الكفر ، وإذا كان يعطيهم حظا فى الدنيا . .

فلا يحسبن الذين كفروا أن هذا الإملاء والإمهال خير لهم .: والتعبير يقول : « خير لأنفسهم » فإن أنفسهم هى التى تتأثر بالإملاء لهم ، فتزداد كفرا وغرورا ومعصية :

« إنما نملى لهم ليزدادوا إثما » :

ولو كانوا يستحقون أن يخرجهم الله من غمرة النعمة بالابتلاء الموقظ ، لابتلاهم .. إنما هم اشتروا الكفر بالإيمان ، واختاروا طريق الكفر وسارعوا فيه . فلم يعودوا يستحقون أن يوقظهم الله بالابتلاء من غمرة النعماء !

وإذا كانوا اليوم فى نعمة وعز وجاه . فإنما ينتظرهم جزاء يعدل هذا كله ، ويعكس هذا كله:

« ولهم عذاب مهين » :

والإهانة هنا هى المقابل لما هم فيه من تكريم ظاهرى يملى لهم الله فيه ، لينتهى بهم إلى العذاب والهوان .

ومن هنا يتكشف أن الابتلاء من الله نعمة لا تصيب إلا من يريد الله له الخير ، فإذا أصابت المؤمنين ، فإنما تصيبهم لخير يريده الله بهم ، ولحكمة تحقق هذا الخير من أية طريق .

ولقد شاءت حكمة الله أن يميز المؤمنين من المنافقين الذين يندسون فيهم، ويتشبهون بهم وهم ليسوا منهم . فابتلاهم . وما كان الله ليتركهم مختلطين مشتبهين . ولكنه كذلك ما كان ليطلعهم على الغيب الذى يعلمه من ضمائر الناس ونياتهم . فهذا الغيب لله. وللناس الظاهر . ولكن الله يختار الرسل ليبلغوا الدعوة ، فيؤمن من يؤمن ويكفر من يكفر . ويجاهد المسلمون لنشر الدعوة ، ويقع الابتلاء الذى يكشف المؤمنين حقا والمنافقين الذين يتظاهرون بالإيمان . ويتميز المؤمنون والكافرون بالأعمال الظاهرة التى تناط بها الأحكام :

« ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه ، حتى يميز الخبيث من الطيب . وما كان الله ليطلعكم على الغيب . ولكن الله يجتبى من رسله من يشاء ، فآمنوا ، بالله ورسله . وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم » .

وهذه الدعوة إلى الإيمان تأتى فى نهاية الآية مع أن مطلعها موجه إلى المؤمنين .. ذلك أن الآية قد كشفت عن علة من علل اختيار الرسل ، واجتبائهم . هى تمييز الخبيث من الطيب. ومن ثم توجهت إلى المخاطبين مرة أخرى تدعوهم إلى الإيمان بالرسل، توكيدا لإيمانهم بعد ما كشف لهم عن قيمته ،ودعاهم إلى أن يبلغوا فى إيمانهم درجة التقوى ، وبشرهم بالأجر العظيم . لأنه فى صدد ذكر الامتحان والبلاء . فى هذا الأجر عوض وجزاء.

***

والدعوة إلى بذل المال تقترن كثيرا بالحديث عن الجهاد والتضحيات . . فالجهاد فى حاجة إلى من يجودون بأموالهم حاجته لمن يجودون بأرواحهم . ومن ثم يستطرد السياق هنا — وهو يكشف للمؤمنين عن حكمة الابتلاء فى الأرواح والأجسام ، وأنها كانت ليميز الله الخبيث من الطيب — يستطرد إلى الحديث عن الذين يبخلون بأموالهم ، ويحسبون أن الاحتفاظ بها خير لهم ، فينفى هذا الحسبان الكاذب ، ويقرر أن ما كنزوه سيطوقونه يوم القيامة نارا . . وهو تهديد فظيع . . ثم يقرر أنهم ذاهبون وتاركوه ، وأن لله ميراث السماوات والأرض ، فهو وحده الحى الباقى بعد أن يزول الجميع . وإذن فهذا الكنز إلى أمد قصير . فمن الخير لأصحابه أن يقدموه بين أيديهم ذخرا ، بدل أن يطوقوه يوم القيامة نارا ، ثم هو فى النهاية راجع إلى الوارث الباقى الواحد الذى لايموت :

« ولايحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هوخيرا لهم ، بل هوشر لهم ، سيطوقون مابخلوا به يوم القيامة ، ولله ميراث السماوات والأرض ، والله بما تعملون خبير » .

والتعبير يزيدهذا البخل شناعة حين يذكر أنهم « يبخلون بما آتاهم الله من فضله » . فهم لايبخلون بمال أصيل لهم . فقد جاءوا هذه الدنيا لايملكون شيئا · ولا جلودهم . فآتاهم الله من فضله وأغناهم . حتى إذا طلب إليهم أن ينفقوا فى سبيله شيئا مما آتاهم ، ووعدهم — مع ذلك — عوضا عنه أجرا فى الآخرة ، لم يذكروا فضل الله عليهم ، وبخلوا بالقليل الذى وعدهم أن يضاعفه لهم أضعافا كثيرة ، وحسبوا أن كنزه فى أيديهم خير لهم . وهو شر لهم . شر فظيع مخيف : « سيطوقون مابخلوا به يوم القيامة » وياليتهم مع هذا سيحتفظون به ، فهم ذاهبون وتاركوه : « ولله ميراث السماوات والأرض » فيالها من خسارة ! وياله من عذاب !

ثم يشير السياق إلى جماعة من يهود ، وجدوا فى أيديهم المال ، فحسبوا أنفسهم أغنياء عن الله ، فلا حاجة بهم إلى جزاء ، ولا إلى أضعاف كثيرة . وحسبوا أن الله يطلب إلى الناس أن ينفقوا بعض ما آتاهم فى سبيله لأنه افتقر ! وهو تصور يدل على الغباء كما يدل على سوء الأدب فى حق الله .

« لقد سمع الله قول الذين قالوا : إن الله فقير ونحن أغنياء » . .

ثم يتبع هذا الخبر بالتهديد :

« سنكتب ما قالوا » . .

فلن يذهب قولهم فى الهواء . ولن ينسى . ولن يمضى بلا جزاء . وسنضم هذا القول إلى جريمة أخرى من جرائمهم . جريمة شنعاء : قتلهم الأنبياء بغيرحق . . وضم ذلك القول إلى جريمة القتل يوحى بشناعته وبشاعته .

« سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق . ثم نقول : ذوقوا عذاب الحريق . ذلك بما قدمت أيديكم ، وأن الله ليس بظلام للعبيد » ..

والنص على الحريق هنا مقصود لتبشيع ذلك العذاب وتفظيعه ، ولتجسيم مشهد العذاب بهوله وتأججه وضرامه . . جزاء على الفعلة الشنيعة : قتل الأنبياء بغير حق . الأنبياء الذين جاءوهم بالهدى ليوقوهم العذاب . . وجزاء على القولة الشنيعة : إن الله فقير ونحن أغنياء . . وجزاء على أن آتاهم المال من فضله ، فإذا هم جاحدون أغبياء .

« ذوقوا عذاب الحريق » ..

ذوقوه جزاء عادلا على ما فعلتم وعلى ماقلتم :

« ذلك بما قدمت أيديكم ، وأن الله ليس بظلام للعبيد » ..

والتعبير بالعبيد هنا . . رد على تمردهم وتبجحهم وعتوهم . . فهاهم أولاء فى عذاب الحريق يعرفون أنهم عبيد . وأن ما يلقونه من العذاب هو جزاء حق . وأن الله ليس بظلام للعبيد !

هؤلاء الذين قالوا : إن الله فقير ونحن أغنياء . والذين قتلوا أنبياءهم بغير حق . هم الذين يزعمون أنهم لايؤمنون بمحمد – صلى الله عليه وسلم – لأن الله عهد إليهم ألا يؤمنوا لرسول حتى يأتيهم بقربان يقدمونه ، فتقع المعجزة وتهبط نارتأ كل هذا القربان ، على نحو ما كانت معجزة بعض أنبياء بنى إسرائيل . ومادام محمد لم يقدم لهم هذه المعجزة ، فهم على عهدهم مع الله ! ! !

هنا يجبههم القرآن بالواقع التاريخى . . لقد قتلوا هؤلاء الأنبياء الذين جاءوهم بالمعجزات التى طلبوها وزيادة :

« قل : قد جاءكم رسل من قبلى بالبينات وبالذى قلتم . فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين ؟ »

إنما هو الكذب والالتواء والإصرار على الكفر . والتبجح بعد ذلك والادعاء على الله ،

« فإن كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاءوا بالبينات والزبر (١) والكتاب المنير » . فلست أول رسول يلقى التكذيب . فتلك شيمة الأقوام مع أنبيائهم الذين جاءوهم بعلامات

---

(١) الصحائف المتفرقة المنزلة من السماء . والتى لاتؤلف كتابا مسلسلا . إنما هى صفحات متفرقة .

بينة ، وصحائف من عندالله منزلة ، وكتاب هاد كالتوراة والإنجيل . . فلاعليك أن يكذبوك . فلست بدعا من الرسل . وإن هذا لهو طريقكم المرسوم !

***

وفى ظلال المعركة التىلايزال السياق متأثرا بها ، ثم فى ظلال التكاليف المفروضة على الأمة المسلمة فى كفاحها مع الكفار وأهل الكتاب ، وفى جهادها لتحقيق أهداف الدعوة ومايقتضيه من تضحيات . . فى هذه الظلال يقرر أن الموت نهاية كل حى ، وأنه متربص بكل نفس . فالقاعدون ملاقوه كالمجاهدين ، والجبناء واردوه كالشجعان . . إنما المعول عليه هو المصير . فكل نفس ستلقى أجرها من نوع ما عملت . والنار متعرضة فى طريق الجميع . فمن أدركته العناية بما قدم من عمل صالح فزحزح عنها فهو الفائز . . أما الحياة الدنيا وكل ما فيها فهى متاع الغرور الذى يغر ولا يدوم :

« كل نفس ذائقة الموت ، فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز ، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور »

إن فى التعبير هنا تجسيما وتشخيصا يحتاج إلى أن نقف عنده لحظة . .

« كل نفس ذائقة الموت » . .

فكأنما هو جرعة تذاق .. فياله من مذاق !

« فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز » . .

ولفظ « زحزح » بذاته يصور معناه بجرسه ، ويرسم هيئته ، ويلقى ظله . . لكأنما لجهنم جاذبية تشد إليها من يقترب منها . فهو فى حاجة إلى من يزحزحه قليلا قليلا ليخلصه من جاذبيتها المنهومة ! فمن أمكن أن يزحزح عن مجالها ، ويستنقذ من جاذبيتها ليدخل الجنة . فقد فاز . ونجا من الغول الواقف بالمرصاد .

« وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » . .

إنهمتاع . ولكنه ليس متاع الحقيقة ، ولا متاع الصحو والإدراك . . إنه متاع الغرور . المتاع الذى ينشئه الغرور والخداع ، فيخيل لأصحابه أنه متاع .

وبعد أن تكون النفوس قد تهيأت بهذا المشهد لتلقى الموت الذى تذوقه كل نفس لامحالة ،

حيث يبدو الموت على هذا النحو بداية لانهاية . بداية لها مابعدها . والعقدة كلها فيما وراء هذه البداية . عقدة النار التى تنتظر كالغول الجبار !

بعد هذا يذكر للمؤمنين أنهم لابد مبتلون فى أموالهم وأنفسهم ، ولابد سامعون من الذين أوتوا الكتاب من قبلهم ومن الذين اشركوا أذى كثيرا . . بعد أن تكون نفوسهم قد اطمأنت ، واستعدت لكل ما يصيبها من ابتلاء :

« لتبلون فى أموالكم وأنفسكم ، ولتسمعن من الذين أتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا » ..

إنها سنة العقائد والدعوات .. لا بد من بلاء ، ولا بد من صبر ومقاومة وصمود .

ذلك لكى يثبت على الدعوة أصلب أصحابها عودا ، فهؤلاء هم الذين يصلحون لحملها إذن والصبر عليها فى مستقبلها ، فهم عليها مؤتمنون .

وذلك لكى تعز عليهم هذه الدعوة وتغلو بقدر ما يصيبهم فى سبيلها من عنت وبلاء،وبقدر ما يضحون فى سبيلها من عزيز وغال . فلا يفرطوا بعد ذلك فيها مهما تكن الأحوال .

وذلك لكى يصلب عود الدعوة وعود الدعاة . فالمقاومة هى التى تستثير القوى الكامنة ، وتنميها وتجمعها وتوجهها .. والدعوات الجديدة فى حاجة إلى هذه الاستثارة لتتأصل جذورها .

وذلك لكى يشعر المعارضون لها أن لابد فيها من خير ولا بد فيها من سر يجعل أصحابها يلاقون فى سبيلها ما يلاقون وهم صامدون .. فعندئذ ينقلب هؤلاء المعارضون إلى تلك الدعوة أفواجا ، كما يحدث فى نهاية المطاف .

إنها سنة الدعوات .. وما يصبر على ما فيها من مشقة ، ويحافظ فى ثنايا الصراع على تقوى الله ، فلا يشطو ولا يعتدى وهو يرد الاعتداء . ولا ييأس أو يقطع أمله فى الله وهو يعانى الشدائد، إلا أولو العزم :

« وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور » .

***

وبمناسبة ذكر أهل الكتاب وإيذائهم للمؤمنين .. يذكر أن الله قد أخذ عليهم ميثاقا حين أعطاهم الكتاب أن يبينوه للناس ولا يكتموه . فأية مفارقة تلك التى تجعلهم بدل أن ينفذوا

هذا الميثاق يؤذون المسلمين الذين يؤمنون بالكتاب ؟

« وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه » ..

فما الذى كان ؟

« فنبذوه وراء ظهورهم ، واشتروا به ثمنا قليلا » ..

والتعبير يجسم إهمالهم لهذا الميثاق الذى أخذه عليهم ، وللكتاب الذى أعطاه لهم مع هذا الميثاق. يجسمه فيجعله نبذا وراء الظهور . ويجعل ابتغاء النفع المادى بهذا الإهمال بيعا له بثمن قليل .

« فبئس ما يشترون ! » ..

ثم يشير إلى شىء من سلوك المنافقين منهم مع الرسول — صلى الله عليه وسلم — إذ كانوا يتخلفون عن الغزو معه، فإذا أصيب المسلمون فرح المتخلفون بقعودهم ونجاتهم من البلاء ، وإذا غنم المسلمون حاول المتخلفون أن يثبتوا لأنفسهم فضلا فى النصر ليس لهم ، وأحبوا أن يسمعوا الثناء عليهم وهم لم يفعلوا ما يستحق الثناء ..

« لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا . فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم » .

وإن هذا النص ليصور نموذجا من الناس نجدهم فى كل مكان وزمان . نموذج الرجال الذين يعجزون عن احتمال تبعة الرأى ، وتكاليف العقيدة . فيقعدون متخلفين عن الكفاح . . فإن خسر المكافحون وهزموا رفعوا هم رؤوسهم وشمخوا بأنوفهم، ونسبوا إلى أنفسهم التعقل والحصافة والأناة .. أما إذا انتصر المكافحون وظهروا ، فإن أصحابنا أولئك يتظاهرون بأنهم كانوا من مؤيديهم ، وينتحلون لأنفسهم فضلا فى النصر ، ويحبون أن يثنى عليهم الناس بما لم يفعلوه ، وأن ينسبوا إليهم فضلا لا يد لهم فيه .

إنه نموذج من نماذج البشرية يقتات الجبن والادعاء . نموذج يرسمه التعبير فى لمسة أو لمستين، فإذا ملامحه واضحة للعيان، وسماته خالدة فى الزمان .. وتلك طريقة القرآن .

هؤلاء الناس يؤكد الله للرسول — صلى الله عليه وسلم — أنهم لا منجاة لهم من العذاب ، فالعذاب الأليم ينتظرهم . ولا مفر لهم منه . والله الذى يتوعدهم هو مالك السماوات والأرض ، فأين المفازة إذن وكيف النجاة ؟

« ولله ملك السماوات والأرض ، والله على كل شىء قدير » ..

« إنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ ، وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ : رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هٰذَا بَاطِلًا ، سُبْحَانَكَ ! فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ * رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ : أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ ، فَآمَنَّا . رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا ، وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا ، وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ * رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ ، وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ * فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ ، بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ ، فَالَّذِينَ هَاجَرُوا ، وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ ، وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي ، وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا ، لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ، وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللهِ ، وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ .

« لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ ، ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ * لٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللهِ ، وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ .

« وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ ، وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ ، وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ ، خَاشِعِينَ لِلهِ ، لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ، أُولٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ . إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا ، وَصَابِرُوا ، وَرَابِطُوا ، وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » .

نحن فى الدرس الختامى فى سورة « آل عمران » .. السورة التى كان سياقها فى معظمه بيانا للعقيدة ، وجدالا عنها ، وتثبيتا عليها .. فهذا الختام يتسق مع جو السورة كلها ، وظلالها المتفرقة فى ثناياها . ويتصل مباشرة بآخر آية فى الدرس السابق : « ولله ملك السماوات والأرض والله على كل شىء قدير » .

هذا الدرس يبدأ بعرض حقيقة عميقة . إن فى خلق السماوات والأرض لآيات كافية للإيمان بخالق الأرض والسماوات . وإن مجرد التأمل فى هذه الآيات عن إدراك ووعى ، ليقود إلى الإيمان بالله ، والإيمان بالآخرة ، فى غير عناء ولا التواء .

ثم يثنى بوعد قاطع من الله للذين جاهدوا فى سبيله ، وثبتوا على الأذى وقاموا بتكاليف الدعوة ، أن يعوضهم من ذلك كله ثوابا حسنا والله عنده حسن الثواب . بينما الذين كفروا يتمتعون قليلا فى الدنيا ومأواهم جهنم وبئس المهاد . مهما كان لهم من السلطة والمظهر والحركة الدائبة فى التجارة وسائر مظاهر الحياة .

ويستثنى من هذا المصير فريقا من أهل الكتاب مؤمنين خاشعين لا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا كأولئك الذين سبق ذكرهم فى سياق السورة .

وينتهى بدعوة الذين آمنوا إلى الصبر والمصابرة والمرابطة والتقوى .. فى نهاية المطاف .. إنه ختام يناسب جو السورة كلها . فلنلق نظرة تفصيلية على ذلك الختام ..

***

« إن فى خلق السماوات الأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب . الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ، ويتفكرون فى خلق السماوات والأرض : ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك ! فقنا عذاب النار ... »

ما الآيات التى فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار ؟ ما الآيات التى يطلع عليها أولو الألباب عندما يتفكرون فيها ؟ وما علاقة التفكر فى هذه الآيات بذكرهم الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ؟ وكيف ينتهون من التفكير فيها إلى ذلك الدعاء الخاشع الواجف : « فقنا عذاب النار ... » إلى نهاية ذلك الدعاء ؟

إن التعبير هنا يرسم صورة حية من الاستقبال السليم للمؤثرات الكونية فى الإدراك السليم .

وصورة حية من الاستجابة السليمة لهذه المؤثرات المعروضة للأنظار والأفكار بالليل والنهار .

ومتى توجه الإدراك الإنسانى فى صدق وإخلاص وحساسية لتأمل الآيات الكونية التى تحيط به فى الطبيعة ، فإنه يستقبل تلك المؤثرات فى يسر ، ويستجيب لها فى طواعية ..

والسياق يقرن بين العبادة الخاشعة الهادئة المستغرقة :

« الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم » ..

وبين التفكر فى خلق السماوات والأرض :

« ربنا ماخلقت هذا باطلا سبحانك » ..

فيسلك هذا التفكر مسلك العبادة . كما يرسم صورة للحظة . الاستقبال والاستجابة .

فهذه الصورة تمثل صفاء القلب ، وشفافية الروح ، وتفتح الإدراك واستعداده لتلقى الآيات الكونية الكامنة فى هذا الوجود .. إن لحظة العبادة على ذلك النحو هى لحظة اتصال ؛ ولحظة استقبال . فلا عجب أن يكون الاستعداد فيها لإدراك الآيات الكونية أكبر ، وأن يكون مجرد التفكر فى خلق السماوات والأرض ملهما للحقيقة الإلهية الكامنة فيها ، ولإدراك أنهما لم تخلقا عبثا ولا باطلا .

إن لهذا الكون حقيقة . . فليس هو خداع حواس — كما يقول بعض الفلاسفة من الناس ! — فهو موجود . وهو يسير وفق ناموس . فليس متروكا للفوضى . وهو يمضى لغاية فليس متروكا للمصادفة . وقد خلق لغرض فلم يكن لهوا :

« ربنا ما خلقت هذا باطلا . سبحانك » . .

وأصحاب الألباب . أصحاب الإدراك . يفتحون بصائرهم لاستقبال آيات الله الكونية . ولا يقيمون الحواجز ، ولا يغلقون المنافذ بينهم وبين هذه الآيات . ويتوجهون إلى الله بقلوبهم قياما وقعودا وعلى جنوبهم ، فتتفتح بصائرهم وتشف مداركهم ، وتتصل بحقيقة الكون التى أودعها الله إياه ، وتدرك غاية وجوده وعلة نشأته بالإلهام الذى يصل بين القلب البشرى ونواميس هذا الوجود .

ومشهد السماوات والأرض ، ومشهد اختلاف الليل والنهار ، لو فتحنا له بصائرنا وقلوبنا وإدراكنا . لو تلقيناه كمشهد جديد تتفتح عليه العيون أول مرة ، لارتعشت له رؤانا ، ولاهتزت له مشاعرنا ، ولأحسسنا أن وراء مافيه من تناسق لابد من يد تنسق ، ووراء مافيه من

نظام ، لابد من عقل يدبر ، ووراء مافيه من إحكام لابد من ناموس يتحكم . وأن هذا كله لا يمكن أن يكون خداعا ، ولا يمكن أن يكون جزافا ، ولا يمكن أن يكون باطلا .

ولا ينقص من اهتزازنا للمشهد الكونى الرائع أن نعرف أن الليل والنهار ناشئان من دورة الأرض حول الشمس . ولا أن تناسق الأرض والسماوات مرتكز على الجاذبية أو غير الجاذبية .. هذه فروض عقلية لا تقدم ولا تؤخر فى استقبال هذه العجيبة الكونية ، والنواميس الهائلةالتى تسير على وفقها ، وتحفظ بمقتضاها . وهذه النواميس هى آية القدرة ، وآية الحق فى خلق السماوات والأرض . وأنها لم تخلق عبثا ولم تترك سدى .

والسياق يصور خطوات الحركة النفسية التى ينشئها مشهد السماوات والأرض ومشهد اختلاف الليل والنهار فى مشاعر ذوى الألباب .. إنهم بمجرد التفكر واستقبال الآيات الكونية تتوجه أرواحهم إلى الله بالتسبيح فى ارتعاشة وجدانية ينبعث عنها دعاء خافق واجف مرتاع :

« ربنا ماخلقت هذا باطلا . سبحانك . فقنا عذاب النار . ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته وما للظالمين من أنصار . ربنا إننا سمعنا مناديا ينادى للإيمان : أن آمنوا بربكم ، فآمنا . ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار . ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ، ولا تخزنا يوم القيامة . إنك لاتخلف الميعاد »

فما العلاقة الوجدانية بين إدراك ما فى خلق السماوات والأرض من حق ، وبين هذه الارتعاشة المنطلقة بالدعاء ؟

إن إدراك الحق الذى فى خلق هذا الكون معناه — فى تلك البصائر المدركة — أن هناك غاية ، وأن هناك سننا لا تتخلف ، وأن هناك جزاء على اتباع هذه السنن وعلى الحيدة عنها .. لذلك تقفز إلى مخيلاتهم صورة النار ، فيكون الدعاء إلى الله أن يقيهم منها هو الخاطر الأول المصاحب لإدراك الحق الكامن فى هذا الوجود .. وهذه لفتة عجيبة فى التعبير القرآنى لتداعى المشاعر عند ذوى البصائر .. ثم تنطلق ألسنتهم بهذا الدعاء الطويل الخاشع الواجف الراجف ، ذى النغم العذب والموسيقى المنسابة ، والحرارة البادية فى المقاطع والأنغام .

ولابد من وقفة أمام هذا الدعاء : لابد من وقفة أمام قولهم فيه : « ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته » وقولهم : « ولاتخزنا يوم القيامة » .. إن خشيتهم للنار إنما هى خشية من الخزى الذى يصيب أهل النار . وهذه الارتعاشة التى تصيبهم تصيبهم حياء من الخزى الذى ينال أهل النار . فهى ارتعاشة منشؤها الحياء من الله أكثر من لذع النار .

ولابد من وقفة أخرى أمام هذا الدعاء . .

إن كل سورة من سور القرآن تغلب فيها قافية معينة للآيات . والقوافى فى القرآن غيرها فى الشعر . فهى ليست حرفا متحدا ولكنها مد متشابه مثل : « بصير . حكيم . مبين . مريب » أو « الألباب . الأبصار . النار . قرار » أو « خفيا . شقيا . شرقيا . شيئا » .

وتغلب القافية الأولى فى مواضع التقرير ، والثانية فى مواضع الدعاء ، والثالثة فى مواضع الحكاية . .

وسورة آل عمران تغلب فيها القافية الأولى . ولم تبعد عنها إلا فى موضعين : أولهما فى أوائل السورة . وفيه دعاء . والثانى هنا عند هذا الدعاء الجديد .

وذلك من بدائع التناسق الفنى فى تعبير القرآن .. فهذا المد يمنح الدعاء رنة رخية ، وعذوبة صوتية ، تناسب جو الدعاء المنغم المرتل .

هذه ظاهرة فنية نسجلها . وهناك ظاهرة أخرى ..

إن عرض هذا المشهد . مشهد التفكر والتدبر فى خلق السماوات والأرض ، يناسبه دعاء خاشع مرتل طويل النغم ، عميق النبرات ، فيطول عرض المشهد على الخيال والأسماع . فيؤثر فى الوجدان ، بما فيه من خشوع وتنغيم وتوجه وارتجاف .. وهنا طال المشهد بعباراته ، وطال بنغماته .. ثم طال بالرد عليه والاستجابة له :

« فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى – بعضكم من بعض – فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا فى سبيلى ، وقاتلوا وقتلوا ، لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، ثوابا من عند الله والله عنده حسن الثواب .. لا يغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد . متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد . لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها نزلا من عند الله . وما عند الله خير للأبرار »

فمن ذا الذى لاتحدثه نفسه فى أثناء هذا المشهد الطويل الثابت ، الذى يبدأ بالتفكر فى خلق السماوات والأرض ، وبذلك الدعاء الفائض بالخشوع والخضوع ، الحافل بالتأثر العميق . وينتهى بذلك الرد العظيم ، المفصل لتضحيات المؤمنين ، وللجزاء الذى ينتظرهم يوم الدين . والجزاء الذى ينتظر غيرهم من الكافرين . . من ذا الذى لاتحدثه نفسه أن يسلك نفسه فى موكب أولى الألباب هؤلاء ، يدعو دعاءهم الخاشع ، وينال جزاءهم العظيم ؟

***

فإذا انتهى المشهد الواجف بالاستجابة المطمئنة عاد السياق إلى أهل الكتاب يقرر أن فريقا منهم يؤمن إيمان المسلمين . وقد انضم إلى موكبهم . ويذكر من صفات هذا الفريق الخشوع لله . ليتسق هذا مع المشهد السابق وكله خشوع . كما يذكر أنهم لايشترون بآيات الله ثمنا قليلا كإخوانهم الذين ذكروا من قبل . وتنسيقا للجو . جو الشراء والبيع . يذكر أنهم سيوفون أجورهم دون إبطاء ، وأن الله سريع الحساب :

« وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم ، وما أنزل إليهم ، خاشعين لله ، لايشترون بآيات الله ثمنا قليلا . أولئك لهم أجرهم عند ربهم . إن الله سريع الحساب »

ذلك لتصفية الحساب فى السورة كلها مع أهل الكتاب قبل الختام : فمنهم ذلك الفريق المنحرف الذى انحاز إلى موكب الكفر . ومنهم هذا الفريق المؤمن الذى انحاز إلى موكب الإيمان . .

***

ثم يجىء الختام . . فيتوجه السياق إلى المؤمنين أن يصبروا على تكاليف الدعوة . وأن يصابروا من يكافحونهم من أعدائها ، فلا يتزحزحوا من قريب . وأن يرابطوا فى الثغور وغير الثغور من مواطن الهجوم والدفاع . وأن يتقوا الله فى ذلك كله ، لايخرجهم اضطهاد الأعداء لهم عن الحق والعدل ، ولا تخرجهم البأساء والضراء عن الصبر والثقة ، ولا يخرجهم النصر والغنيمة عن التواضع لله ورجاء الآخرة . كالربيين الذين قاتلوا مع أنبيائهم من قبل . وعرضت السورة صورة من أدبهم مع الله فى ساعة العسرة والتضحية :

« يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » . .

إنه ختام يتناسق مع جو السورة كلها ، ويلخص توجيهاتها ويقرر اتجاهها . .

سورة النساء مدنية
وآياتها ١٧٦ نزلت بعد الممتحنة

بسم الله الرحمن الرحيم

« يا أيها النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ، وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ، وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ، وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً * وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ ، وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ ، وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوباً كَبِيرًا * وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ، فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ . ذَٰلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا * وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً ، فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَرِيئاً * وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِيَاماً ، وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفاً * وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ، وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافاً وَبِدَاراً أَنْ يَكْبَرُوا ، وَمَنْ كَانَ غَنِيّاً فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ، فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ ، وَكَفَى بِاللهِ حَسِيباً .

« لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ، وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ

وَالْأَقْرَبُونَ ، مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيباً مَفْرُوضًا * وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ ، وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا .

« وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ ، فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا .

« يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ . فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ . وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ . وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ . إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ . فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ ، وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ — مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ — آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ، فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ — إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ — فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ — مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ — وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ — إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ — فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ — مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ — وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ ، وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ ، فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ . فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ — مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ — وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ .

« تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ، وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ » .

هذه السورة ـ سورة النساء ـ أحسب أنها سميت كذلك لأنها تضمنت تقرير حقوق أساسية للنساء ، بل إنشاء هذه الحقوق إنشاء ، مما سيأتى بيانه فى ثنايا استعراضنا لهذه السورة .

وليست السورة كلها مقصورة على هـذا الموضوع الذى أخـذت اسمها منه . فإنها تشمل موضوعات أخرى فى محيط أوسع من علاقة الرجال والنساء ، ومن علاقات الأسرة عامة ؛ ولكن المحور الذى تدور عليه هذه الموضوعات كلها هو تنظيم علاقات بنى الإنسان ، تارة بينهم وبين خالقهم ـ سبحانه ـ وتارة بين بعضهم البعض . أفراداً وجماعات ، وعقائد وديانات ، وشعوبا ودولات .. وهناك سمة بارزة فى هذه العلاقات . سمة التكافل والتعاون والتضامن ، حتى حين تدعو بعض الآيات إلى الجهاد ، وتحرض على القتال .. فالقتال الذى يحرض عليه هنا إنما شرع لدفع الأذى والظلم عن الضعفاء الذين لا يملكون عن أنفسهم دفاعا .

هذه الروح تسود السورة كلها ، وتبرز فى كل توجيهاتها وتشريعاتها .. ومن ثم كان بدؤها ذلك البدء الموحى بوحدة الخالق ، ووحدة الخلق ، وباستجاشة المشاعر الإنسانية التى تربط بين بنى البشر جميعا ، ثم التى تربط بين أفراد الأسرة الواحـدة . . الأولى لأن السورة تضم أحـكاما كثيرة لتنظيم الروابط العامة ؛ والثانية لأنها تضم كذلك أحكاما كثيرة لتنظيم روابط الأسرة الواحدة .. وبخاصة كفالة الضعاف فى الأسرة أو فى البشرية ، وحمايتهم ورعايتهم فى كنف الجماعة .

فلنسر مع السورة منذ افتتاحها بهـذا النداء الذى يخاطب الناس بإنسانيتهم ، ويستجيش وجداناتهم بما بينهم وبين ربهم من صلة . وبما بينهم وبين ذوى أرحامهم من وشيجة . ..

* * *

« ياأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ؛ واتقوا الله الذى تساءلون به ، والأرحام . إن الله كان عليكم رقيبا » ..

إنه افتتاح موح مثير لشتى العواطف وشتى الانفعالات . افتتاح يستجيش أعماق المشاعر الدينية والإنسانية والعائلية جميعا .

الخطاب : « ياأيها الناس » .. فهو خطاب لهذا المعنى فى نفوسهم . خطاب للمعنى الإنسانى الذى يشمل الناس جميعا ، ويؤلف بين الناس جميعا ، ويميز جنسهم كذلك عن بقيـة الأحياء والـكائنات .

« يا أيها الناس اتقوا ربكم » .. فهى استجاشة لشعور التقوى بالإشارة إلى صلة الربوبية بين الناس ورب الناس .. والتقوى هى ذلك الشعور اللطيف العميق ، الذى يرهف المشاعر والقلوب ؛ فإذا هى على استعداد للتلبية والطاعة والتطوع والاتصال .

« اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة » .. فهى الوحدة فى الرب الخالق ، والوحدة فى الإنسانية التى بدأت « من نفس واحدة » .. هكذا « من نفس » . فالنفس هى قوام هذا الجنس ، وهى أعمق ما فى هذا الكيان ، وهى أرق ما فى هذه البشرية ، وهى مكمن المشاعر والوجدانات والروابط والصلات . فإذا كان الناس جميعا يلتقون فى هذه النفس الواحدة ، التى تلتقى فى الخالق الواحد ؛ فهى إذن صلة عميقة الجذور بعيدة الأصول ؛ وهى إذن صلة لا تنفصم ولا تنقطع ، وهى إذن صلة عزيزة كريمة تستجاش بها الضمائر ، وتلمس بها الوجدانات .

« خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها » .. فالوشيجة التى تربط بين المرء وزوجه هى أقرب من رابطة الزواج وأوثق . إنها علاقة البضعة من الجسم ووشيجة اللحم والدم . تصور هكذا محسوسة : « خلق منها زوجها » وإن كان المقصود هو وحدة الطبيعة الإنسانية فى الزوجين : الذكر والأنثى ، لأن الحديث كان عن « النفس » فنوع الصلة مشتق من خصائص النفس ، ولكن تصويرها هكذا محسوسة ، كأن الزوج قد اشتق من الزوج . يلقى ظلا أعمق وشعورا أقوى بعمق هذه الصلة وتوثقها (١) .

« وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء » .. فالناس إذن كلهم أسرة واحدة ، يتصلون بهذه الآصرة ، وتضمهم رحم واحدة .

وحين يصل السياق إلى استجاشة مشاعر الناس بهذه اللمسات الموحية ، يناشدهم الله الذى خلقهم ، ويناشدهم الرحم التى تجمعهم . يناشدهم أن يتقوا الله الذى يسأل به بعضهم بعضا ، وأن يتقوا الأرحام التى بثتهم فى الأرض جميعا :

« واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام » .. وتقوى الله مفهومة ومعهودة . أما تقوى

---

(١) ليس فى النص ما يحتم أن تكون النفس هى آدم ، والزوج هى حواء ، وأن تكون حواء قد خلقت من ضلع آدم .. إلى آخر هذه التصورات التى جاءتنا من أساطير « العهد القديم » فكلمة الزوج تطلق على كلا الزوجين والمقصود هو الجنسان لا الفردان .. أما الأحاديث التى ورد فيها خلق المرأة من ضلع أعوج فهى تعبر على طريق المجاز للايضاح والتمثيل .

الأرحام فهى تعبير عجيب ، يلقى ظله الشعورى فى النفس ، ثم لا يجد المرء مايشرح به ذلك الظل ! . . اتقوا هذه الأرحام .. أرهفوا مشاعركم للإحساس بحقها ، وتوقى هضمها ، والتحرج من خدشها ومسها . . توقوا أن تؤذوها وأن تجرحوها وأن تغضبوها . أرهفوا حساسيتكم بها وتوقيركم لها ، وحنينكم إلى نداها وظلها . .

ثم ينتهى ذلك الافتتاح المؤثر الموحى القوى بإيحاء آخر يتعلق بتقوى الله التى ذكرهم بها آنفا . فيعمق هذه التقوى ، ويضيف إلى أسبابها سببا فيه معنى التنبيه والتحذير :

« إن الله كان عليكم رقيبا » . . فهو بانتظار ماتفعلون بعد هذا النداء المؤثر العميق . والرقابة أقصى درجات الملاحظة . والله هو الذى يراقب . وهو العليم بالظواهر والسرائر . فياله من تحذير !

***

من هذا الافتتاح القوى المؤثر يبدأ ببيان تكاليف التكافل فى حياة الأسرة وفى حياة الجماعة . يبدأ فيأمر الأوصياء على اليتامى أن يردوا إليهم أموالهم كاملة سالمة متى بلغوا سن الرشد وألا ينكحوا القاصرات اللواتى تحت وصايتهن طمعاً فى أموالهن . أما السفهاء الذين يخشى من إتلافهم للمال إذا هم تسلموه ، فلا يعطى لهم المال . لأنه فى حقيقته مال الجماعة فلا يجوز أن تسلمه لمن يفسد فيه . فلنتتبع هذه الأحكام بالتفصيل :

« وآتوا اليتامى أموالهم . ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب . ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوباً كبيراً »

أعطوا اليتامى أموالهم التى تحت أيديكم — متى أصبحوا راشدين قادرين على التصرف فيها . ولا تعطوهم الردىء فى مقابل الجيد . كأن تأخذوا أرضهم الجيدة وتعوضوهم عنها أرضا رديئة ، أو ماشيتهم ، أو أسهمهم ، أو أى نوع من أنواع المال فيه الجيد وفيه الردىء . وكذلك لا تأكلوا أموالهم بضمها إلى أموالكم كلها أو بعضها . . إن ذلك كان ذنباً عظيما . وجزاء الذنوب معروف . والله عليكم رقيب .

« وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ماطاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع . فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة ، أو ما ملكت أيمانكم . ذلك أدنى ألا تعولوا »

إن خفتم ألا تعدلوا فى نكاح اليتيمات اللواتى تحت وصايتكم. كأن يكون الدافع لكم على الزواج بهن هو الطمع فى مالهن ، لا الحب والمودة والرغبة فى معاشرتهن . أو كأن تكون فوارق السن بينكم وبينهن كبيرة . أو كأن تهضموهن حقوقهن فى مهر أمثالهن .. وفى الأولى ظلم لهن بحرمانهن مودة القلب ، واحترام الزوجية ، وحقوق العشرة . وفى الثانية ظلم بعدم التكافؤ الشعورى والحيوى بينكم وبينهن . وفى الثالثة ظلم بنقص حقوقهن المادية والأدبية كأترابهن .. إن خفتم ألا تعدلوا فى اليتيمات فاطلبوا الزواج فى سواهن من النساء .

وبمناسبة الحديث عن الزواج امتد السياق إلى بيان حدود المباح من الزوجات فإذا هو : « مثنى وثلاث ورباع » ولكن بشرط العدل بينهن . العدل فى المعاملة وفى الحقوق الظاهرة . أما العدل فى الشعور الباطن فلا قبل به لإنسان ولا تكليف به لإنسان ، ما اتقى إظهاره فى المعاملة وتأثيره على الحقوق المتعادلة . فإن وجد فى نفسه ضعفا عن ذلك العدل ، وخاف ألا يقدر على تحقيقه ، فالحلال واحدة فقط . وما سواها محظور : « وإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة » .. والنص الشرطى يحتم هذا المعنى هنا ، ويعلله بأن ذلك ، أى التحديد بواحدة فى هذه الحالة، أقرب إلى اجتناب الظلم والجور ؛ ذلك أدنى ألا تعولوا (١) والظلم حرام ، فالوسيلة إليه حرام . واجتناب الظلم واجب ، فالوسيلة إليه واجبة . والوسيلة إليه هنا هى التعدد ، والوسيلة إلى اجتنابه هى التوحد .

ولست بهذا أميل إلى التضييق فى تعدد الزوجات . إنما أنا أستقرىء النص القرآنى معانيه ومراميه . إن التعدد فى أصله رخصة . وهى رخصة ضرورية لحياة الجماعة فى حالات كثيرة . وهى صمام أمن فى هذه الحالات ، ووقاية ليس فى وسع البشرية الاستغناء عنها . ولم تجد البشرية حتى اليوم حلا أفضل منها . سواء فى حالة اختلال التوازن بين عدد الذكور وعدد الإناث عقب الحروب والأوبئة التى تجعل عدد الإناث فى الأمة أحيانا ثلاثة أمثال عدد الذكور . أو فى حالات مرض الزوجة أو عقمها ورغبة الزوج فى الإبقاء عليها أو حاجتها هى إليه . أو فى الحالات التى توجد فى الرجل طاقة حيوية فائضة لا تستجيب لها الزوجة . أو لا تجد كفايتها فى زوجة واحدة .. وكلها حالات فطرية وواقعية لا سبيل إلى تجاهلها . وكل حل فيها غير تعدد الزوجات يفضى إلى عواقب أوخم خلقيا واجتماعيا . فالتعدد ضرورة تواجه ضرورة . ومع

---

(١) أى تجوروا .

هذا فهى مقيدة فى الإسلام باستطاعة العدل فى الحدود التى بيناها . وهـو أقصى مايمكن من الاحتياط (١)

« فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملـكت أيمانكم » .. فإما واحدة من الحرائر . وإما ما ملـكت أيمانكم من إماء .

ولقد سبق أن وقفنا فى الجزء الثانى من هذه الظلال وقفة قصيرة أمام مسألة الرق إجمالا ، فلعله يحسن أن نلم هنا بمسألة التسرى بالإماء .

إن الزواج من أمة لايحتاج إلى القول بأنه رد لاعتبارها وكرامتها الإنسانية . فأما التسرى ففيه إهانة لآدميتها مافى ذلك شك أيضا .

ولـكن الضرورة التى أباحت استرقاق الأسرى ـ والتى عرضناها هناك ـ هى ذاتها التى اقتضت إباحة التسرى ، لأن مصير المسلمات حين يؤسرن كان كذلك بل هو شر من ذلك . فهى المعاملة بالمثل إذن ، حتى يمكن الاتفاق على نظام لأسرى الحرب خير من ذلك النظام الذى كان يسود العالم يومذاك .

على أنه يحسن ألا ننسى أن هؤلاء الأسيرات المسترقات لهن مطالب فطرية ، يحسب حسابها فى حياتهن . فإما أن تتم عن طريق الزواج ـ حين يتحررن ـ وإما أن تتم عن طريق التسرى مادام نظام استرقاق الأسرى بضروراته قائما .

أما ماحدث فى أيام بنى أمية وبنى العباس ومن بعدهم ، من تلك الحيوانية الشهوانية ، حيث كانت القصور تزدحم بالجوارى والسرارى ، عن طريق الشراء . فقد لعبت فيه النخاسة دورا هاما . والإسلام برىء منه ، وهو مخالف لروح الشريعة بلا جدال .

« وآتوا النساء صدقاتهن نحلة (٢) فإن طبن لـكم عن شىء منـه نفسا ، فكلوه هنيئاً مريئاً » ..

وهو استطراد آخر فى مسألة الزواج ، يحـدد فيه حق المرأة فى صداقها ، فيجب أن تعطى هذا الصداق وتقبضه . فإذا شاءت أن تنزل عن شىء منه بعد قبضه عن طيب نفس ، فهو عندئذ فقط حلال للزوج هنىء مرىء .

---

(١) يراجع بتوسع فى هذه المسألة فصل « سلام البيت » من كتاب : « السلام العالمى والإسلام » .
(٢) ملكا خالصا منحولا لها مسلما ليدها .

وحكمة قبضه كاملا – قبل التنازل عن شيء منه – هو تمكينها من حقها ، حتى إذا ردت منه جزءا ردته عن رضى حقيقى ، وعن اختيار كامل . أما لو تركت منه هذا الجزء قبل قبضه فربما كانت هناك شبهة اضطرار ، فى أنها تنزل عن جزء لتحصل على البقية . . والعلاقات بين الزوجين يجب أن تقوم على رضى كامل ، واختيار مطلق ، وسماحة نابعة من القلب ، زائدة على الفريضة .

فإذا انتهى من هذ الاستطراد عاد إلى أموال اليتامى ، يفصل فى أحكام ردها إليهم ، بعد أن قرر فى الآية الأولى مبدأ الرد على وجه الإجمال . .

إن هذا المال ولو أنه مال اليتامى . إلا أنه قبل هذا مال الجماعة . أعطاه الله لها لتقوم به . فالجماعة هى المالكة الأولى للمال . واليتامى أو مورثوهم إنما يملكون حق الانتفاع بهذا المال ماداموا عليه أمناء ، وماداموا قادرين على تدبيره وتثميره . أما السفهاء الذين لايحسنون التصرف ، فهم محرومون من هذا التصرف ، الذى يعود فى هذه الحالة إلى من يحسن التصرف فيه من الجماعة ، مع مراعاة درجة القرابة لليتيم ، تحقيقا للتكافل العائلى ، الذى هو جزء من التكافل العام ، وللسفيه حقه فى الرزق والكسوة وحسن المعاملة :

« ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما ، وارزقوهم فيها واكسوهم ، وقولوا لهم قولا معروفا » .

ويتبين السفه وعدمه بالاختبار بعد البلوغ ، فمتى تبين الرشد فليسارع الأوصياء بدفع المال إلى أصحابه ؛ وليحذروا أن يأكلوه بأن يأخذوا منه فى مقابل الوصاية فوق حاجتهم . إن كانوا فقراء. ليحصلوا على أكبر قسط قبل أن يكبر اليتامى ! أما الغنى فيجب أن يعف عن مال اليتيم ، وألا يأخذ أجرا على القوامة . ومنعا للشبهة فقد حتم الإشهاد على تسليم المال لليتامى :

« وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح ، فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم . ولا تأكلوها – إسرافا وبدارا أن يكبروا – ومن كان غنيا فليستعفف ، ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف . فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم »

ثم يختم الآية بخاتمة قرآنية تربط القلوب بالله ، وتذكرها خشية الله على طريقة القرآن . وتتضمن هنا معنى المحاسبة والجزاء ، فى صدد الحساب والوفاء : « وكفى بالله حسيبا » . .

***

ولقد كانوا فى الجاهلية لايورثون البنات ، ولا الصبية . . لأن هؤلاء وهؤلاء لايركبون فرسا ، ولا يردون عاديا ! فإذا شريعة الله تجعل الميراث فى أصله حقا لذوى القربى جميعا ـ حسب مراتبهم وأنصبتهم المبينة فيما بعد ـ وذلك تمشيا مع نظرية الإسلام الأساسية فى التكافل الاجتماعى ، وحسب قاعدة الغنم بالغرم . فما دام القريب مكلفا إعالة قريبه إذاافتقر ، فعدل إذن أن يرثه إن ترك مالا ، بحسب درجة قرابته وتكليفه به .

هذه هى القاعدة فى الإرث بصفة عامة . . ولقد نسمع فى هذه الأيام لغطا كثيرا حول مبدأ الإرث . ولكن إدراك الأسس التى يقوم عليها النظام الاجتماعى الإسلامى تضع حدا لهذا اللغط . . إن قاعدة هذا النظام هى التكافل . . ولكى يقوم هذا التكافل على أسس وطيدة راعى الإسلام أن يقوم على أساس الميول الفطرية الثابتة فى النفس البشرية . ولما كانت روابط الأسرة ـ القريبة ثم البعيدة ـ روابط فطرية حقيقية لاتقبل المراء ، فلقد جعل التكافل فى محيط الأسرة فى مقدمة خطوات التكافل الاجتماعى العام . فإذا عجزت هذه الخطوة أوقصرت ، جاءت الخطوة التالية فى محيط الجماعة المحلية المتعارفة لتكملها . فإذا عجزت هذه جاء دور الدولة لتتولى كل من قصرت دون إعالتهم وكفالتهم الكاملة جهود الأسرة وجهود الجماعة المحدودة . وبذلك لا يلقى العبء كله على عاتق الجهاز الحكومى . . أولا لأن التنظيمات الصغيرة والمحلية أقدر على تلبية الحاجات بسرعة وبدقة فى محيطها ، من الجهاز الحكومى الضخم . وثانيا لأن التكافل فى محيط الأسرة أو فى محيط الجماعة الصغيرة يخلق مشاعر لطيفة رحيمة ، تنمو حولها فضائل التعاون نموا طبيعيا غير مصطنع . وثالثا لأن التكافل فى محيط الأسرة بخاصة ينشىء آثارا طبيعية تلائم الفطرة . فشعور الفرد بأن جهده الشخصى سيعود أثره على ذوى قرابته وبخاصة ذريته ، يحفزه إلى مضاعفة الجهد ، فيكون نتاجه للجماعة ، لأن الإسلام لايقيم الفواصل بين الفرد والجماعة ، فكل ما يملك الفرد هو فى النهاية ملك للجماعة كلها بقدر ما تحتاج . . وهذه القاعدة الأخيرة تقضى على كل الاعتراضات السطحية فى توريث من لم يتعب ولم يبذل جهداً . . فهذا الوارث هو امتداد للمورث من جهة ، ثم هو كافل لهذا المورث لو كان محتاجا . . ثم فى النهاية هو وما يملك للجماعة فى وقت حاجتها تمشيا مع قاعدة التكافل العام .

هـذا بالاختصار مايقال عن مبدأ الإرث فى ذاته نكتفى به هنا[١] . أما نظام التوريث فسيرد بعد قليل :

« للرجال نصيب مماترك الوالدان والأقربون ، وللنساء نصيب مماترك الوالدان والأقربون — مما قل منه أو كثر — نصيبا مفروضا »

هذا هو المبدأ العام الذى أعطى الإسلام به المرأة منذ أربعة عشر قرنا حق الإرث كالرجل من ناحية المبدأ . كما حفظ به حقوق الصغار الذين كانت الجاهلية لاتعرفها لهم . لأن الجاهلية كانت تنظر إلى الأفراد حسب قيمتهم العملية فى الحرب والإنتاج . أما الإسلام فجاء بمبدئه الإنسانى الذى ينظر إلى الأفراد حسب قيمتهم الإنسانية أولا ، ثم حسب تكاليفهم العائلية والاجتماعية أخيرا .

ولما كان نظام التوريث — كما سيجىء — يحجب فيه بعض ذوى القربى بعضا ، فيوجد ذووقرابة ولكنهم لا يرثون ، لأن من هم أقرب منهم سبقوهم فحجبوهم . فإن السياق يقرر للمحجوبين حقا غير محدد — إذا هم حضروا قسمة التركة — تطييبا لخاطرهم ، واحتفاظا بالروابط العائلية والمودات القلبية . . كذلك يقرر لليتامى والمساكين مثل هذا الحق — تمشيا مع قاعدة التكافل العام خطوة أخرى فى محيط الجماعة — :

« وإذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين ، فارزقوهم منه ، وقولوا لهم قولا معروفا » .

***

وقبل أن يأخذ السياق فى تحديد أنصبة الورثة ، يعود ليحذر من أكل أموال اليتامى . . يعود إليه فى هذه المرة ليلمس الوجدان لمستين قويتين : أولاهما تمس مكمن الرحمة الأبوية والإشفاق الفطرى على الذرية الضعاف . والثانية تمس مكان الرهبة من النار والخوف من السعير فى مشهد حسى مفزع :

---

(١) يراجع هذا الموضوع فى كتاب العدالة الاجتماعية فى الإسلام : فصل « سياسة المال » .

« وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم ، فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا . إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا ، وسيصلون سعيرا »

وهكذا تمس اللمسة الأولى شغاف القلوب . قلوب الآباء المرهفة الحساسية ، بتصور ذريتهم الضعاف مكسورى الجناح ، لا راحم لهم ولا عاصم ، كى يعطفهم هذا على اليتامى الذين وكلت إليهم أقدارهم بعد أن فقدوا الآباء . فهم لايدرون أن تكون ذريتهم غدا موكولة إلى غيرهم من الأحياء .

أما اللمسة الثانية فهى صورة حسية مفزعة . صورة النار فى البطون . وصورة السعير فى النهاية . . إن هذا المال — مال اليتيم — لهو نار . وإنهم ليأكلون هذه النار ! وإن مصيرهم لإلى السعير . فهى النار إذن تشوى البطون والجلود . هى النار إذن من باطن وظاهر . . هى النار مجسمة فى هذا المشهد تكاد تحسها البطون وتكاد تراها الأبصار . . . !

***

والآن نجىء إلى نظام التوارث . حيث يبدأ بتقرير المبدأ العام : « للذكر مثل حظ الأنثيين » ثم يأخذ فى التفريع ، وتوزيع الأنصبة فى ظل هذا المبدأ العام ، الذى ينطبق تماما كلما اتحدت الدرجة .. ويستغرق هذا التفصيل آيتين : أولاهما خاصة بالمواريث من الأصول والفروع ، والثانية خاصة بحالات الزوجية والكلالة ..

« يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين ، فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ماترك ، وإن كانت واحدة فلها النصف ، ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك — إن كان له ولد — فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث ، فإن كان له إخوة فلأمه السدس ، من بعد وصية يوصى بها أودين . آباؤكم وأبناؤكم لاتدرون أيهم أقرب لكم نفعا . فريضة من الله . إن الله كان عليما حكيما » .

« ولكم نصف ماترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد ، فإن كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها أودين ، ولهن الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد ، فإن كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم من بعد وصية توصون بها أودين ، وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس ، فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء

فى الثلث من بعد وصية يوصى بها أودين . غير مضار ، وصية من الله ، والله عليم حليم » .

هذا النظام الإسلامى فى التوريث هوأعدل نظام عرفته البشرية .. يبدو ذلك حين نوازنه بالنظم التى تجعل الميراث كله للابن الأكبر ، أو التى تجعل الميراث كله للرجال دون النساء ، أو دونهن ودون الأطفال .

إن النظام الإسلامى يرعى معنى التكافل العائلى كاملا ، فكل ذوى القرابة أصحاب حق فى الإرث ، كما أن عليهم واجب الكفالة عند الحاجة .. وذلك فوق تحقيقه للتكافل فى الأسرة ، يقوم بعملية تفتيت الثروة على رأس كل جيل ، فلا تتكدس الثروة فى يد واحدة بينما الذين حرموا الميراث لايجدون .. ويحقدون ..

وهو يعطى الرجل حسب أعبائه ويعطى المرأة وفق أعبائها . فليست المسألة مسألة محاباة جنس على حساب جنس . فالرجل يتزوج امرأة فيكلف إعالتها . أما هى فإما أن تقوم بنفسها فقط ، وإما أن يقوم بها رجل عند الزواج . ، فالرجل مكلف أكثر من ضعف تكاليفها فى الحقيقة .

وهو يبدأ بالفروع قبل الأصول . بالأولاد قبل الآباء . لأن الأصول قد يرثون من جهات أخرى ، أو يقوم بهم أبناؤهم الآخرون ، وهم كبار قادرون على الكسب أو شيوخ بقى من حياتهم القليل . أما الذرية فلايرثون إلامن جهة أصولهم غالبا ، وهم عادة صغار ، أوهم يستقبلون حياة ممتدة ذات تكاليف ، فهم أولى بالرعاية .

وهكذا يحقق نظام الإرث الإسلامى أغراضا اجتماعية ، وشعورية ، وعملية ، لايحققها أى نظام آخر من النظم التى عرفتها البشرية . ويتمشى مع الفطرة دون تعسف ، ودون جور ، ودون إهمال للمصالح المتعادلة المتوازنة فى حياة الجماعة البشرية .

وليس هناك مايدعونا هنا – فى الظلال – أن ندخل فى قضايا المواريث . فالنصوص مفهومة . والخلافات فى التطبيق خلافات فقهية لا نتعرض لها .. إنما نقف أمام لفتات تتعلق بالمبادىء العامة التى نتوخاها ..

– إن الأب يأخذ السدس كالأم فى حالة وجود ذرية للمتوفى : « ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد » .. كذلك يتحد نصيب الأخ والأخت من الأم فى الكلالة (١)

(١) الميت يورث كلالة : أى لاولد له ولا والد . والكلالة الضعف . وذلك تعبير عن ضعف القرابة لبعدها فى هذه الحالة .

فيكون السدس : « وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت ، فلكل واحد منهما السدس » - ومفهوم أنهما من الأم فلو كانا من الأب أو شقيقين لورثا بالتعصيب كل الثروة بعد أصحاب الفروض - وفى كلتا الحالتين يخالف الأصل العام : للذكر مثل حظ الأنثيين ..

إن الحكمة التى اقتضت أن يكون للذكر مثل حظ الأنثيين فى حالة الأولاد وفى حالة الزوجين حيث يرث أحدهما الآخر ، لا وجود لها هنا .

ففى حالة الأولاد يكون الإرث الآتى لهما من الوالدين هو المصدر الأساسى لإرثهما بينما للوالدين قد توجد جهات أخرى ومورثون آخرون .. فضلا على أن الإرث العائد عليهما من أولادهما هو فضلة زائدة فى حياتهما ، لم تكن منتظرة فى حسابهما . فالمنتظر عادة أن يرث الأولاد أبويهم ؛ كما أن الوالد - ولو أنه هو العائل لزوجته (الأم) فإنه غير معتمد على هذا الإرث فى معيشتهما ، فليس من موجب لأن يعطى ضعف نصيبها . وهما فى آخر حياتهما فى العادة .

وكذلك الأمر فى حالة الأخ والأخت لأم . فإن مصدر إرثهما الرئيسى من ناحية عصبتهما لا من ناحية الرحم . فهما لا يعتمدان على هذا المصدر الأخير حتى يعطى الأخ ضعف نصيب الأخت . أما فى إرثها من ناحية العصب . أى إرثها لأخ شقيق أو من الأب [1] فللذكر مثل حظ الأنثيين لأنه المورد الرئيسى لها .

« آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب نفعاً » .. وهى لفتة قرآنية لتطييب النفوس تجاه هذه الفرائض . فهنالك من تدفعهم دفعة الغريزة البحتة إلى إيثار الأبناء على الآباء ، لأن الضعف الفطرى تجاه الأبناء أكبر . وفيهم من يغالب هذا الميل بالمشاعر الأدبية الأخلاقية فيميل إلى إيثار الآباء .. وفيهم من يحتار ويتأرجح بين الضعف الفطرى والشعور الأخلاقى .. فأراد الله سبحانه أن يسكب فى هذه القلوب كلها راحة ورضى بتسليم الأمر كله لله ، ولما يفرضه الله ، وأن يشعرها أن العلم كله لله : « آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا » فدعوا الأمر لله ، واجعلوا القسمة بيده حسب فرائضه ، واطمئنوا إلى واسع علمه ، وعميق حكمته : « فريضة من الله إن الله كان عليما حكيما » .

فى كل حالة من حالات التوريث قدم الدين والوصية ، للوفاء بالدين ولتنفيذ الوصية قبل التوارث .. والأمر فى الدين واضح فهو يتعلق بحق الآخرين ؛ فلابد أن يستوفى من مال

---

(٢) كما سيرد فى آخر آية فى هذه السورة فى تكملة حكم الكلالة .

المورث الذى استدان ، توفية بحق الدائن ، وتبرئة لذمة المدين . والإسلام يشدد فى إبراء الذمة من الدين ، كى تقوم المعاملات على أساس من الثقة ، ويطمئن الدائنون إلى الوفاء فى الحياة وبعد الموت سواء . وهذا الاطمئنان ضرورى للثقة التى تقوم عليها المعاملات .. وأما الوصية فلأن إرادة المورث تعلقت بها لحكمة خاصة . وقد جعلت الوصية لتلافى بعض الحالات التى يحجب فيها بعض الورثة بعضا ، وقد يكون المحجوبون معوزين ، أو تكون هناك مصلحة عائلية فى توثيق العلاقات بينهم وبين الورثة . . والوصية لاتكون لوارث ، ولا تكون فى غير الثلث . وفى هذا ضمان ألا يجحف المورث بالورثة فى الوصية .. ومع هذا فإن النص يدعو إلى أن لايقصد بالوصية الإضرار بالورثة : « غير مضار » ويجعل هذا « وصية من الله » تمشيا مع جو الوصية . ويجعل التعقيب : « والله عليم حليم » لتوكيد أن وصية الله هذه واجبة الاتباع ، لأنها صادرة من العليم الحليم .

ثم يجىء التعقيب الأخير على شرعة المواريث :

« تلك حدود الله ؛ ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، وذلك الفوز العظيم ، ومن يعص الله ورسوله ، ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها ، وله عذاب مهين » . .

لبيان أن هذه الأحكام للوقوف عندها وتنفيذها كاملة بلا مجاوزة ولا تقصير ، وبلا تبديل ولا تغيير . وجزاء الطاعة فيها هو الخلود فى هذه الجنات تجرى من تحتها الأنهار ، والفوز فى هذه الدنيا بصلاح الذرية والأسرة والمجتمع ، والفوز فى الآخرة بهذا النعيم . وجزاء عصيانها وتعديها الخلود فى النار . ثم المهانة جزاء على العصيان والتعدى .

وهذه القسمة جاءت فى القرآن مفصلة هكذا ، ثابتة مقررة ، لأن التكافل العائلى أصل من أصول النظام الاجتماعى فى الإسلام ، ولأن التوزيع على هذا النحو يتمشى مع الفطرة الثابتة فى النفس البشرية ، فهو دائم إذن لايحتاج إلى تعديل .

والأحكام التى وردت فى الشريعة مفصلة ومحددة هى الأحكام الخاصة بمثل هذه الأصول الثابتة فى نظام المجتمع الإسلامى ، القائمة على أصول فطرية ثابتة فى نفس الإنسان ، بغض النظر عن اختلاف المكان أو اختلاف الزمان .

« وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ ، فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ ؛ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ ، أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا * وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَآذُوهُمَا ، فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا . إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا .

« إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ، ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ ؛ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ، وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ : إِنِّي تُبْتُ الْآنَ ، وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ . أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا ، وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ — إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ — وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ، فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا * وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ ، وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا . أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ؟ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ ، وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ؟

« وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا .

« حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ ، وَبَنَاتُكُمْ ، وَأَخَوَاتُكُمْ ، وَعَمَّاتُكُمْ ، وَخَالَاتُكُمْ ، وَبَنَاتُ الْأَخِ ، وَبَنَاتُ الْأُخْتِ ، وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ ، وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ ، وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ ، وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي

دَخَلْتُمْ بِهِنَّ ـ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ـ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ ، وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ ـ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ـ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا * وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ . . . » .

يتناول هذا الدرس جوانب جديدة فى ميدان التكافل الاجتماعى فى حياة الأسرة وفى حياة الجماعة .

يتناول الجانب الأخلاقى لوقاية المجتمع عاقبة الانحلال الخلقى .. مرة بالعقوبة ، ومرة بالترغيب فى التوبة وفتح أبوابها لمن أراد ..

ويتناول جانب الحقوق الأدبية والمادية للمرأة لإبطال عادات الجاهلية الجائرة فى حقها .. مرة بالتشريع ، ومرة بالتوجيه الوجدانى المؤثر ..

ويتناول جانبا من جوانب تنظيم الأسرة ببيان المحرمات من النساء .. منهن من كان محرما فى الجاهلية فأقر الإسلام هذا التحريم . ومنهن من كان مباحا فرأى الإسلام تحريمه من جديد ..

وكل هـذه الجوانب يتمشى مع سياق السورة كلها ومع موضوع الأسرة الذى يشغل منها حيزا كبيرا ..

* * *

« واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم ؛ فإن شهدوا فأمسكوهن فى البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا . واللذان يأتيانها منكم فآذوهما ، فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما . إن الله كان توابا رحيما » .

كان هذا فى أول أمر الإسلام .. كانت عقوبة التى تأتى الفاحشة ، ويشهد عليها أربعة شهود رؤية ، أن تمسك فى البيت لا تخرج حتى الوفاة ، عقابا لها ووقاية للمجتمع منها . وأن الرجل والرجل يأتيان الفاحشة شاذة يؤذيان ـ ولم يحدد نوع الإيذاء ولا حده ـ حتى يتوبا ويصلحا ..

ولقد عدلت هذه العقوبة فيما بعد وحددت . فلا نتعرض هنا لهذا النص .الذى استقر الأمر فيه على حدود معينة ، سيأتى فيما بعد بيانها فى موضعها .

ونخلص إلى الآيتين التاليتين فى السياق : آيتى التوبة .

« إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ، ثم يتوبون من قريب ، فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليما حكيما . وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال : إنى تبت الآن ، ولا الذين يموتون وهم كفار . أولئك اعتدنا لهم عذابا أليما » .

ولقد سبق فى هذا الجزء حديث عن التوبة يصلح لهذا الموضع كذلك . ولكن التعبير هنا يزيد معنى جديدا . إن قبول هذه التوبة حق للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب. حق كتبه الله سبحانه على نفسه ، رحمة منه وفضلا ، وهو يقول : « إنما التوبة على الله .. »فهى الرحمة البالغة السابغة التى تجعل التفضل حقا للمتفضل عليهم مكتوبا لهم على خالقهم متى ثابوا إليه متطوعين غير مكرهين .

والذين يعملون السوء بجهالة هم الذين يرتكبون الذنوب . وهناك ما يشبه الإجماع على أن الجهالة هنا معناها الضلالة عن الهدى طال أمدها أم قصر ، ما دامت لا تستمر حتى تبلغ الروح الحلقوم .. وهذا تفسير : « ثم يتوبون من قريب » أى قبل أن يتبين لهم الموت . متى ثابوا إلى الله وهم يأملون فى امتداد الحياة . فهذه التوبة حينئذ هى توبة الندم ، مع نية العمل الصالح والتكفير . فأما توبة الذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال : إنى تبت الآن · فهى توبة المضطر الذى لجت به الغواية ، وأحاطت به الخطيئة ، والذى يتوب لأنه لم يعد لديه متسع لارتكاب الذنوب ! وهذه لا يقبلها الله لأنها لا تنشىء صلاحا فى القلب ، ولا صلاحا فى الحياة . والتوبة إنما تقبل لأنها الباب المفتوح الذى يثوب إليه الشاردون ؛ فيستردون أنفسهم من تيه الضلال ، وتستردهم البشرية من حزب الشيطان . ليعملوا فى الحياة عملا صالحا إن قدر لهم امتداد فى العمر ، أو ليعلنوا — على الأقل — انتصار الهداية على الغواية. إن كان الأجل ينتظرهم من حيث لا يشعرون أنه لهم بالوصيد .

أما الذين يموتون وهم كفار .. فأولئك قد قطعوا ما بينهم وبين التوبة ، وقطعوا ما بينهم وبين المغفرة · إن بدا لهم يوم الحساب أن يطلبوا المتاب ، أو أن يطلبوا المآب !

« أولئك اعتدنا لهم عذابا أليما » .. أحضرناه وأعددناه وهيأناه . فهو فى الانتظار ، فلن تكون مهلة للإعداد والإحضار !!!

***

والموضوع الثانى فى هذا الدرس هو موضوع المرأة ..

لقد كان العرب فى جاهليتهم وكانت المجتمعات البشرية الأخرى من حولهم ، تعامل المرأة معاملة سيئة ، ولا تعرف لها حقوقها الإنسانية ، فتنزل بها عن مرتبة الرجل نزولا شنيعا ، يدعها أشبه بالسلعة منها بالإنسان . فجاء الإسلام ليرفع عنها هذا كله، ويردها إلى مكانها الطبيعى فى كيان الأسرة وفى نظام الجماعة البشرية . المكان الذى يتفق مع المبدأ العام الذى قرره مفتتح سورة النساء : « الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء » .. ثم ليرفع مستوى المشاعر الإنسانية فى الأسرة ، من المستوى الحيوانى إلى المستوى الإنسانى ، ويظللها بظلال الاحترام والمودة والعاطفة والتجمل .. وليوثق الروابط والوشائج فلا تنقطع عند الصدمة الأولى وعند الانفعال الأول :

« يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ، ولا تعضلوهن [1] لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن — إلا أن يأتين بفاحشة مبينة — وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ، ويجعل الله فيه خيرا كثيرا . وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا ، أتأخذونه بهتانا وإثما مبينا ؟ وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض ، وأخذن منكم ميثاقا غليظا ؟ ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف. إنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا »

كان بعضهم فى الجاهلية إذا مات الرجل منهم فأولياؤه أحق بامرأته إن شاء بعضهم تزوجها ، وإن شاءوا زوجوها ، وإن شاءوا لم يزوجوها ، فهم أحق بها !

وكان بعضهم إذا توفى عن المرأة زوجها فجاء وليه فألقى عليها ثوبه منعها من الناس ؛ فإن كانت جميلة تزوجها ، وإن كانت دميمة حبسها حتى تموت فيرثها ! أو تفتدى نفسها منه بمال !

---

(١) تمسكوهن فى البيوت دون تزويج وتضاروهن وتؤذوهن .

وكان بعضهم يطلق المرأة ويشترط عليها ألا تنكح إلا من أراد حتى تفتدى نفسها منه بما أعطاها كله أو بعضه !

وكان بعضهم إذا مات الرجل حبسوا امرأته على الصبي فيهم حتى يكبر فيأخذها !

وكان الرجل تكون اليتيمة فى حجره يلى أمرها ، فيحبسها عن الزواج ، رجاء أن تموت امرأته فيتزوجها، أو يزوجها من ابنه الصغير طمعا فى جمالها أو فى مالها !

وهكذا وهكذا ، مما لا يتفق مع النظرة الإنسانية الكريمة،ومما يهبط بإنسانية المرأة وإنسانية الرجل على السواء . ويحيل العلاقة بين الجنسين علاقة تجار أو علاقة بهائم ..

ومن هذا المستوى الهابط رفع الإسلام تلك العلاقة إلى ذلك المستوى العالى الكريم اللائق بكرامة الآدميين ، الذين كرمهم الله وفضلهم على كثير من العالمين .

حرم الإسلام ذلك العضل ، وجعل للمرأة حريتها الكاملة فى اختيار من تعاشره ابتداء أو استئنافا . وأطلقها من الإمساك بها للإضرار — إلا فى حالة الإتيان بالفاحشة ، وذلك قبل أن يتقرر حد الزنا المعروف — وجعل العشرة بالمعروف فريضة على الرجال . حتى فى حالة الكراهة. ونسم فى هذه الحالة نسمة الرجاء فى غيب الله وفى علم الله . كى لا يطاوع المرء هواه وانفعاله ، فيبت ما بينه وبين زوجه من علاقة . فما يدريه أن هنالك خيرا فيما يكره هو لا يدريه :

« فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا » .. وهى لمسة وجدانية قوية ، تعلق النفس بالله ، وتهدىء من فورة الغضب ، وتفثأ من حدة الكره ، حتى يعاود الإنسان نفسه فى هدوء ، وحتى لا تكون العلاقة الزوجية ريشة فى مهب الرياح . فهى مربوطة العرى بالعروة الوثقى . العروة الدائمة . العروة التى تربط بين قلب الإنسان وربه ، وهى أوثق العرى وأبقاها .

فإن تبين بعد الصبر والتقدير أن الحياة لا تستطاع ، وأنه لا بد من تلمس حياة جديدة فعندئذ تنطلق المرأة بما أخذت من صداق ، لا يجوز استرداد شىء منه ولو كان قنطارا من ذهب ..

« وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج ، وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا» .

لا تأخذوا منه شيئا ، فليس هنالك وجه من حق لاسترداده ، ولا ريب فى أنه إثم واضح ومستنكر لا شبهة فيه :

« أتأخذونه بهتانا وإثما مبينا ؟ » .

ومن ثم لمسة وجدانية عميقة ، وظل من ظلال الحياة الزوجية وريف ، فى تعبير موح عجيب :

« وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض ؟ » ..

ويدع « أفضى » بلا مفعول . يدع اللفظ مطلقا ، يشع كل معانيه ، ويلقى كل ظلاله . ولا يقف عند حدود الجسد ، بل يشمل العواطف والمشاعر والوجدانات والتصورات ، والتجاوب فى كل صورة من صور التجاوب . يدع اللفظ يرسم عشرات الصور لتلك الحياة المشتركة آناء الليل وأطراف النهار .. وفى كل اختلاجة حب إفضاء . وفى كل نظرة ود إفضاء . وفى كل لمسة جسم إفضاء . وفى كل اشتراك فى ألم أو أمل إفضاء. وفى كل تفكير فى حاضر أو مستقبل إفضاء. وفى كل شوق إلى خلف إفضاء . وفى كل التقاء فى طفل إفضاء ..

كل هذا الحشد من التصورات والظلال والأنداء والمشاعر والعواطف يرسمه ذلك التعبير الموحى العجيب : « وقد أفضى بعضكم إلى بعض » ؛ فيتضاءل بجانبه ذلك المعنى المادى الصغير ، ويخجل الرجل أن يطلب بعض ما دفع وهو يستعرض فى خياله وفى وجدانه ذلك الحشد من صور الماضى ، فى لحظة الفراق الرهيب .

ثم يضم إلى ذلك الحشد من المشاعر عاملا آخر من نوع آخر ..

« وقد أخذن منكم ميثاقا غليظا » ..

هو الموثق الذى يستحل به الرجل معاشرة المرأة : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله . وما تحل امرأة لرجل فى الإسلام إلا بهذا الميثاق . . الميثاق الغليظ كما يصوره هنا فى صورة حسية ليجسمه ، ويستعظم نقضه وقطعه والنكث به .

وفى النهاية يحرم تحريما باتا أن ينكح الأبناء مانكح آباؤهم من النساء . وقد كان ذلك فى الجاهلية حلالا . وكان سببا من أسباب عضل النساء أحيانا حتى يكبر الصبى فيتزوج امرأة أبيه ، أو إن كان كبيرا تزوجها بالوراثة كما يورث الشىء !

ويبدو من حكمة هذا التحريم ثلاثة اعتبارات ــ وإن كنا نحن البشر لا نحيط بكل علل التشريع ــ أولها أن امرأة الأب فى مكان الأم . والثانى ألا يخلف الابن أباه فيصبح أبوه فى خياله ندا له . وكثيرا ما يكره الزوج زوج امرأته الأول فطرة وطبعا . والثالث ألا تكون

هناك شبهة الإرث لزوجة الأب ، وهو معنى كريه يهبط بإنسانية المرأة والرجل سواء . وهما من نفس واحدة ، وإهانة أحدهما إهانة للآخر بلا مراء .

لهذه الاعتبارات الظاهرة – ولغيرها مما يكون لم يتبين لنا بعد – جعل هذا العمل شنيعا غاية الشناعة . جعله فاحشة . وجعله مقتا أى بغضا وكراهية . وجعل طريقه طريقا سيئا رديئا : إلا ما كان قد سلف منه فى الجاهلية قبل أن يرد التحريم فى الإسلام :

« ولا تنكحوا مانكح آباؤكم من النساء – إلا ماقد سلف – إنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا »

* * *

وبمناسبة تحريم زوجات الآباء يحدد السياق سائر أنواع المحرمات من النساء :

« حرمت عليكم أمهاتكم ، وبناتكم ، وأخواتكم ، وعماتكم ، وخالاتكم ، وبنات الأخ ، وبنات الأخت ، وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم ، وأخواتكم من الرضاعة ، وأمهات نسائكم ، وربائبكم اللاتى فى حجوركم من نسائكم اللاتى دخلتم بهن – فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم – وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم ، وأن تجمعوا بين الأختين إلا ماقد سلف – إن الله كان غفورا رحيما – والمحصنات من النساء » .

ولم يذكر النص علة للتحريم ، لاعامة ولاخاصة ، فكل مايذكر من علل ، إنما هو استنباط ورأى وتقدير . .

فقد تكون هناك علة عامة . وقد تكون هناك علل خاصة لكل صنف . وقد تكون هنالك علل مشتركة بين بعض الأنواع .

وعلى سبيل المثال يقال : إن الزواج من الأقربين فى الدم يضوى الذرية ويضعفها مع امتداد الزمن . لأن مواضع الضعف الوراثية قد تتركز وتتأصل فى الذرية . على عكس ما إذا تركت الفرصة للتلقيح الدائم بدماء أجنبية ، تضاف امتيازاتها ، فتجدد حيوية الأجيال واستعداداتها الجسمية والعقلية . .

أو يقال : إن بعض هذه الطبقات المحرمة كالأمهات والبنات والأخوات والعمات والخالات

وبنات الأخ وبنات الأخت والأمهات والأخوات من الرضاعة ، وأمهات النساء وبنات الزوجات ـ وهن الربائب فى الحجور ـ يراد أن تكون العلاقة بها علاقة دائمة لأنها علاقة رعاية وعطف ، أو احترام وتوقير . فلا تترك لما يجد فى الحياة الزوجية من خلافات تؤدى إلى الطلاق والانفصال . فتخدش تلك العواطف التى يراد لها الدوام .

أو يقال : إن بعضها كالربائب اللواتى فى الحجور ، والأخت مع الأخت . . لا يراد خدش المشاعر البنوية أو الأخوية فيها . فالأم التى تحس أن ابنتها قد تزاحمها فى زوجها وكذلك الأخت ، لا تستبقى عاطفتها البريئة المطمئنة تجاه بنتها التى تشاركها الحياة أو أختها التى تتصل بها اتصالا دائما ، فتثير غيرتها ومخاوفها .

أو يقال فى حلائل الأبناء من الأصلاب . . إن العاطفة بين الأب وابنه لا يجوز أن تخدش ، بالغيرة التى تكون بين الزوجين المتعاقبين للمرأة الواحدة .

وأيا ما كانت العلة . فنحن نسلم بأن اختيار الله لابد له من حكمة ، نعلمها أو نجهلها سواء . ومتى كان النص قاطعا فهو حكم لاتتوقف طاعته على أن نعرف علته . .

أما المحصنات من النساء ـ وهن المتزوجات ـ فالأمر فيهن واضح ، لأنه يتعلق بحماية الحياة الزوجية كلها . والأمر فيها لا يحتاج إلى إيضاح . فالإسلام يقيم نظامه الاجتماعى على أساس الأسرة ويوفر لها كل أنواع الضمانات . . .

[تم الجزء الرابع ويليه الجزء الخامس
مبدوءا بقوله تعالى : والمحصنات من النساء]

كتب المؤلف

١ ـ فى ظلال القرآن	(فى ثلاثين جزءاً)	دار إحياء الكتب العربية .
٢ ـ العدالة الاجتماعية فى الإسلام	(طبعة ثالثة)	دار الإخوان للطباعة والصحافة .
٣ ـ معركة الإسلام والرأسمالية	(« ثانية)	« « « «
٤ ـ السلام العالمى والإسلام	(« أولى)	مكتبة وهبة شارع إبراهيم بعابدين.
٥ ـ التصوير الفنى فى القرآن	(« ثالثة)	دار المعارف
٦ ـ مشاهد القيامة فى القرآن	(« ثانية)	« «
٧ ـ النقد الأدبى : أصوله ومناهجه	(« أولى)	دار الفكر العربى
٨ ـ أشواك	(« «)	دار سعد بالفجالة
٩ ـ طفل من القرية	(« «)	لجنة النشر للجامعيين
١٠ ـ الأطياف الأربعة	(بالاشتراك مع إخوته)	« « «
١١ ـ القصص الدينى	(بالاشتراك مع الأستاذ السحار)	« « «
١٢ ـ الشاطىء المجهول	(شعر)	... نفد
١٣ ـ كتب وشخصيات	(نقد)	... «
١٤ ـ مهمة الشاعر فى الحياة	(«)	... «
١٥ ـ نقد كتاب مستقبل الثقافة	(«)	... «
١٦ ـ المدينة المسحورة	(قصة)	... «

الكتب التالية

(١) نحو مجتمع إسلامى — (٢) أمريكا التى رأيت

(٣) حلم الفجر (شعر) — (٤) قافلة الرقيق (شعر)

فى ظلال القرآن

الجزء الخامس

بقلم

سيد قطب

الطبعة الأولى

طبع بدار إحياء الكتب العربية
عيسى البابى الحلبى وشركاه

بسم الله الرحمن الرحيم

« والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم ـ كتاب الله عليكم ـ وأحل لكم ، ما وراء ذلكم ، أن تبتغوا بأموالكم ، محصنين غير مسافحين ، فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة ، ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة ، إن الله كان عليما حكيما * ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات ، والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض ، فانكحوهن بإذن أهلهن ، وآتوهن أجورهن بالمعروف ، محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان ؛ فإذا أحصن فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب.. ذلك لمن خشي العنت منكم ، وأن تصبروا خير لكم ، والله غفور رحيم * يريد الله ليبين لكم ، ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم ، والله عليم حكيم * والله يريد أن يتوب عليكم ، ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما * يريد الله أن يخفف عنكم ، وخلق الإنسان ضعيفا .

« يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ـ إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم ـ ولا تقتلوا أنفسكم . إن الله كان بكم رحيما * ومن يفعل ذلك عدوانا وظلما فسوف نصليه نارا ، وكان ذلك على الله يسيرا * إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم ، وندخلكم مدخلا كريما .

« ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض ـ للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن ـ واسألوا الله من فضله . إن الله كان بكل شيء عليما * ولكل جعلنا موالي مما ترك الوالدان والأقربون ، والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم . إن الله كان على كل شيء شهيدا .

« الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ، فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللهُ ؛ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ ، وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ ، وَاضْرِبُوهُنَّ ، فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً . إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيراً * وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِنْ أَهْلِهَا ، إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحاً يُوَفِّقِ اللهُ بَيْنَهُمَا . إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا » .

كانت نهاية الدرس الماضى هى بيان المحرمات من النساء — بعد عرض طرف من دستور الأسرة منذ بدء هذه السورة — وآخر المحرمات كن « المحصنات من النساء » .

ففى هذا الدرس الجديد يبين السياق ما يحل من النكاح ، وشروطه ، وحكمة حله . كما يبين الفرق فى عقوبة الفاحشة بين الحرائر والإماء .

وبمناسبة حرمة الأعراض يتحدث كذلك عن حرمة الأموال والدماء . . والإسلام يجمع الحرمات الثلاثة فى كثير من نصوص القرآن والسنة لما بينها من اتصال .

ثم يستطرد إلى طرف من دستور الأسرة — فيما يختص بالقوامة وحفظ نظام البيت وتماسكه وإدارته ، ووسائل التوفيق بين الزوجين حين يدب فيه الشقاق .

وبهذا الدرس ينتهى الحديث عن النساء وعن الأسرة فى هذه السورة . إلا فى موضعين اثنين — فيما بعد — يردان فى سياقها بمناسبة استفتاء عن النساء ، واستفتاء عن الكلالة .

والآن فلنمض مع موضوعات الدرس الجديد .

***

« والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم — كتاب الله عليكم — »

فالمحصنات من النساء نكاحهن محرم مادمن فى عصمة أزواجهن ، لأن الأمر يتعلق بحماية الحياة الزوجية كلها — كما قلنا فى نهاية الجزء الرابع من هذه الظلال — والأمر فيها لا يحتاج إلى

إيضاح . ولا يستثنى من ذلك القيد إلا سبايا الحرب ؛ فهؤلاء يجوز إهدار العلاقة القائمة بينهن وبين أزواجهن — وهم فى دار الحرب — وقد ذكرنا من قبل علة هذه المعاملة للأسرى ؛ وقررنا أن الإسلام كان فى هذا يأخذ بمبدأ المعاملة بالمثل ، لا أن استرقاق الأسرى مبدأ من مبادئه الثابتة . وقد كانت الحرائر من نساء المسلمين وبناتهم يلقين حين يقعن فى الأسر مثل هذا المصير بدون رحمة ، فلم يكن قادرا — يومئذاك — أن يحرر أسراه ، قبل أن يضمن المعاملة بالمثل هناك .

فهؤلاء السبايا كان يكفى استبراء أرحامهن ، ولو كن متزوجات ، وقد انفصلن بالسبي عن رجالهن فى دار الحرب ، وتقطعت بينهم الأسباب .

وفى نهاية بيان المحرمات من النساء يجىء التعقيب القرآنى : « كتاب الله عليكم » لتوكيد الحكم ، وإقراره فى القلوب . فهو عهد يأخذه الله عليهم ، لا مجرد أمر . والعهد أقوى لأن فيه معنى الشرط والتراضى . فمن العسير نقضه . وهكذا تأتى مثل هذه التعقيبات القرآنية لتوجيه الضمائر بعد تشريع الأحكام .

« وأحل لكم ، ماوراء ذلكم ، أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين »

فيما وراء ذلك التحريم ، وفيما عدا ذلك المحظور ، حلال أن تطلبوا المتاع بالنساء ، بما تؤدون لهن من فروض ، ولكن عن طريق الإحصان ، لا عن طريق السفاح .

وفى تسمية النكاح المشروع إحصانا لفتة نفسية ، فهو حماية من المعصية ، ووقاية من النزوة ، كما أنه حماية ووقاية من نوازل الحياة ، وضرورات المعاش ، وابتذال الحاجة . ولذلك سمى الرجل محصنا — بصيغة الفاعل — وسميت المرأة محصنة — بصيغة المفعول — لأن الرجل هو الذى يقوم للمرأة بهذا الإحصان . على أوسع معانيه . وإن كانت هى تقوم بإحصانه فى دائرة الدوافع الفطرية (١) .

وكذلك فى تسمية الفاحشة سفاحا لفتة معنوية . فالسفح أصلا ضد القمة . وإراقة ماء الحياة فى غير نكاح شرعى هى أولا سفح لهذا الماء بمعنى إراقته . وهى كذلك هبوط إلى السفح فى تذوق الحياة وتصورها ، وفى معالجة لذة الجسد والاستمتاع بها . وهى

---

(١) هناك قراءات ورد فيها كلمة محصنات مصوغة للفاعل . بمعنى أنهن يحصن أزواجهن من الفاحشة . وأنا أوثر القراءة الأولى لأنها تتضمن معنى أشمل كما بينا .

سفاح لأنها مفاعلة بين الجنسين كلاهما يهبط فيها إلى السفح ، وكلاهما يريق ماء الحياة بلا جدوى .

ولما كان متاع الرجل بالمرأة مجرد إطلاق لطاقة فائضة فيه لا تعقبها تكاليف ولا متاعب . بينما متاع المرأة بالرجل يعقبه متاعب الحمل ومشقات الولادة وتكاليف الرضاعة . . فإن نصيب الرجل فى هذا المتاع يبدو خالصا ، ومتاع المرأة يبدو مشوبا . لذلك كان من الحق إذن أن يؤدى الرجل من ماله عوضا يسوى كفتى الميزان بقدر المستطاع . هذا العوض هو المهر والنفقة وما إليها . وكان من العدل أن تصبح هذه فريضة ملزمة ، لاتطوعا متروكا للرغبة . فإذا أديت الفريضة فلا جناح عليهما إذا هما تراضيا على التنازل عن شىء منها ، أو على زيادتها ، فذلك شأنهما وحدهما ، بعد أن يتحقق العدل الذى قرره الله ، لتحقيق شىء من التعاون فى هذه الشركة الإنسانية :

« فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة ، ولاجناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة . إن الله كان عليما حكيما »

وهذا التعقيب : « إن الله كان عليما حكيما » يجىء هنا فى مكانه ، لأن تقرير هذه الفريضة ، وتقرير المبادىء التى سبقتها فى العلاقة بين الجنسين ، كلها مستمدة من العلم ومن الحكمة ، قائمة على العلم بأحوال النفس البشرية ، وعلى الحكمة فى علاجها ، وتقرير مايصلح لها ويصلحها من النظم والفرائض والتكاليف .

« ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات ، فما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات . والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض . فانكحوهن بإذن أهلهن ، وآتوهن أجورهن بالمعروف ، محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان . فإذا أحصن فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب ـ ذلك لمن خشى العنت منكم ، وأن تصبروا خير لكم ، والله غفور رحيم »

فمن لم يقدر لسبب من الأسباب على نكاح الحرائر المؤمنات ، فله أن يتزوج من الإماء المؤمنات . والسياق هنا يستجد معنى جديدا للإحصان ، فهو يجعل الحرية إحصانا ، لما فيها من صيانة وكرامة . فالمحصنات هنا هن الحرائر ، اللواتى أحصنتهن الحرية ، وصانتهن من

الابتذال ، وحفظهن من السقوط . . ولـكنه كذلك يبرز فيما يختص بالإماء الجانب الإنسانى ، كى لا يحس أحد أن آدميتهن مهدرة ، أو أنهن من الناحية الإنسانية البحتة هابطات ، أو من نوع أو مستوى آخر غير مستوى الحرائر والأحرار . . إن الرق صفة عارضة بسبب ملابسات حربية ونظامية ، وليست صفة أصيلة تطعن فى أصل الرقيق وطبعه ومنزلته الإنسانية ـ على نحو ما كانت الشرائع والنظم الأخرى المعاصرة للإسلام تعتقد ـ ومن ثم يسميهن القرآن هنا « فتياتـكم » ولا يقول إماءكم . ثم يعقب على هذا بما يثبت وحدة الأصل الإنسانى بين الجميع أحرارا وأرقاء : « بعضكم من بعض » لاستبعاد كل شعور بالتعالى أو الاحتقار . . ثم يسمى موالى هؤلاء الفتيات أهلا يجب استئذانهم فى نـكاح فتياتهم : «فانـكحوهن بإذن أهلهن» . . ثم يجعل مهورهن فريضة يجب أن تؤدى إليهن فى سماحة وكرامة : « وآتوهن أجورهن بالمعروف » . . ثم ينص على أن المتاع بهن عن طريق الإحصان لاعن طريق السفاح (وهو أن تـكون المرأة لـكل من يريدها) ولاعن طريق الخدانة (وهوأن يكون للمرأة صاحب واحد) إنما هو طريق النـكاح الشرعى الحلال . . كل أولئك لـكى يرفع درجة الرقيق إلى المرتبة الإنسانية فيما يختص بالجانب الإنسانى .

فأما حين يعرض للعقوبة على السقوط فى الفاحشة فهنا يضع فى حسابه حالة الرق التى تجعل الأمة أقل قدرة على صيانة نفسها من الحرة . ويقدر أن الرق يقلل من الحصانة النفسية ، لأنه يغض من الشعور بالـكرامة . والشعور بالـكرامة عصمة لأنه يثير الإباء فى نفس الحرة . كما يقدر الحالة الاجتماعية والاقتصادية واختلافها بين الحرة والأمة ، وأثرها فى جعل الأخيرة أكثر تسامحا فى عرضها وأقل تقديرا للمعنويات ، لأن هبوط المستوى الاجتماعى والاقتصادى يقلل من الشعور بالمعنويات . . يقدر الإسلام هذا كله فيجعل حد الرقيقة ـ بعد إحصانها ـ فى الفاحشة نصف حد الحرة التى لم تتزوج : « فإذا أحصن فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب » ـ أى خمسون جلدة ـ فأما قبل أن يحصن فعليهن التأديب لا الحد . . كل أولئك رعاية لواقع حياتهن السيء ، وتقديرا لما يحيط بهذه الحياة من ملابسات (١) .

---

(١) ذلك على الضد مما كان معمولا به فى القانون الرومانى حينذاك من تشديد العقوبة كلما انحطت الطبقة وساءت الظروف . حيث يقول : « ومن يستهو أرملة مستقيمة أوعذراء ، فعقوبته إن كان من بيئة كريمة مصادرة نصف ماله . وإن كان من بيئة ذميمة فعقوبته الجلد والنفى من الأرض » . . مدونة جوستنيان ص ٣١٧ ، ترجمة عبد العزيز فهمى .

وقد شرع الله نكاح الفتيات المؤمنات هؤلاء تخفيفا عمن يخشى المشقة فى مغالبة دوافع الفطرة ، ممن لا يملكون نكاح الحرائر ، فمن استطاع أن يصبر ويغالب فهو خير له : « ذلك لمن خشى العنت منكم ، وأن تصبروا خير لكم ، والله غفور رحيم » . . وليس ذلك كراهية لنكاح الإماء فى ذاته ، ولكن لتلك الملابسات الاجتماعية التى كانت تجعلهم ينظرون إلى أبناء الأمة نظرة أدنى من نظرتهم إلى أبناء الحرة . ونظرا للواقع من أن الإماء أقل صونا لأعراضهن من الحرائر . . وعلى أية حال فإن مسألة الرق كلها بالقياس إلى الإسلام مسألة ملابسة تاريخية — كما قررنا — وليست أصلا من أصوله . وقد انتهت بإمكان عقد معاهدات تمنع استرقاق الأسرى . فلم يعد الإسلام يبيح اليوم الاسترقاق لانتهاء الأسباب التاريخية التى اضطرته إليه فى ذلك الأوان . .

والآن بعد انتهاء السياق من أحكام التحريم والتحليل السابقة يقرر أن الله يريد بها أن يبين للأمة المسلمة طريقها وهو طريق الأمم المؤمنة قبلها ، فليست فيه بدعا . ويريد بهذا البيان أن يهدى المسلمين فيمهد لهم سبيل التوبة عما أخطأوا فيه أو يخطئون :

« يريد الله ليبين لكم ، ويهديكم سنن الذين من قبلكم ، ويتوب عليكم ، والله عليم حكيم »

ثم يقرر أن الله يريد أن يتوب عليهم ، ليوازن بين ما يريده الله بهم من الخير ، وما يريده بهم الذين يتبعون الشهوات ، ويجعلون فى يدها قيادهم ، ولا يملكون إرادتهم أمام شهواتهم :

« والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما »

والتعبير باتباع الشهوات يلقى ظلا خاصا فهم مقودون بهذه الشهوات ، وهم لها تبع ، ولا إرادة لهم إزاءها ولا حرية . فهم نوع من الرقيق يجىء ذكرهم بعد الرقيق .

ويكشف عن حكمة الله فى هذه الشرائع ، وأنها هى التخفيف على البشر ، لأنه يعلم ضعفهم أمام دوافع الفطرة القاهرة ، فينظم لهم تصريف هذه الدوافع فى مجال مأمون ، وفى جو طاهر ، وفى مستوى رفيع ، ولا يكلفهم عنتا فى كبتها ، ولا يطلقهم كذلك ينحدرون استجابة لها :

« يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا »

* * *

فإذا انتهى السياق من حرمة الأعراض ، وأوجه استحلالها ، وسنة الله فيها .. عطف على حرمة الأموال وحرمة الدماء .. وهى الحرمات الثلاثة التى يحفل بها الإسلام ، ليأمن الناس فى المجتمع على أعراضهم وأموالهم ودمائهم ، وهى أعز ما يملكونه فى هذه الحياة :

« يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ـ إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم ـ ولا تقتلوا أنفسكم . إن الله كان بكم رحيما . ومن يفعل ذلك عدوانا وظلما فسوف نصليه نارا . وكان ذلك على الله يسيرا » .

فالتجارة حلال ، وهى وسيلة مشروعة لتنمية المال . هذه التنمية يلجأ إليها البعض بأكل الحرام . والنهى هنا ليس عن أكلهم لأموالهم بالباطل . ولكن عن أكلهم لأموال غيرهم . وكذلك ليس عن قتلهم لأنفسهم ولكن عن قتلهم لغيرهم .. إلا أن التعبير يسوقه هذا المساق ليوحى بأن مصلحة الذين آمنوا واحدة ، فمن يأكل مال أخيه بالباطل فكأنما أكل مال نفسه ، أو كأنما أكل مال المؤمنين جميعا وهو واحد منهم . ومن قتل نفسا مؤمنة ، فكأنما قتل نفسه ، أو كأنما قتل أنفس المؤمنين جميعا وهو نفس منها .. ذلك ليستجيش فى الضمير تلك المشاعر الأخوية ، وتلك الحساسية تجاه أموال المؤمنين وأنفسهم جميعا ، وليرسم صورة مستنكرة لمن يأكل مال أخيه أو يعتدى على نفسه ..

ثم يعقب على هـذا بأن الله بهم رحيم . فليكن كل منهم بصاحبه رحيما : « إن الله كان بكم رحيما » .. ثم بالتهديد : « ومن يفعل ذلك عدوانا وظلما فسوف نصليه نارا . وكان ذلك على الله يسيرا » فمن لم يصلح معه التذكير فقد ينفعه التحذير .

وفى النهاية يختم آيات التحريم كلها بذلك الترغيب الجامع فى اجتناب ماحرم من الأعراض والأموال والدماء ـ وكلها كبائر ـ بأنهم إذا اجتنبوا كبائر ما نهوا عنه ، فسوف يغفر لهم ما دونها من السيئات ، ويتلقاهم فى الآخرة بالتكريم :

« إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما »

* * *

وبسبب من أكل أموال الناس بالباطل يتصل الحـديث عن الحسد وتمنى ما فى أيدى الآخرين . فهذا الإحساس ليس بعيدا عن الدوافع التى تدفع الناس أن يأكل بعضهم مال بعض :

« ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض . للرجال نصيب مما اكتسبوا ، وللنساء نصيب مما اكتسبن . واسألوا الله من فضله إن الله كان بكل شىء عليما » .

وتروى روايات كثيرة فى سبب نزول هذه الآية .. وعلى أية حال فإن ذكر الرجال ونصيبهم والنساء ونصيبهن يوحى بأن هؤلاء أو هؤلاء تمنى بعضهم نصيب الآخر . والأرجح أن يكون النساء هن اللواتى تمنين فضل الرجال عليهن فى الميراث ، وفى غنائم الحرب . . وليس لهن فيها نصيب ، لأنه ليس عليهن جهاد .. ولكن العبرة بعموم النص لا بخصوص السبب . والنص هنا عام ينهى عن تمنى ما فى أيدى الآخرين من فضل ، ويأمر بالتوجه إلى فضل الله . تكريما للنفس عن التطلع ، وتنقية للضمير من الحسد ، وتبرئة للقلب من الحقد . وتوجيها للفرد إلى الله الذى لا تغلق خزائنه ولا تنفد .

وليس فى هذا تخدير للفقراء ليتركوا الأغنياء وغناهم ، ويكتفوا بالتطلع إلى رزق السماء . إنما المقصود هو صيانة أرواحهم من التهاوى والضعف ، ومن الحسد والحقد ، أمام الثراء والأثرياء .. أما حقوق الفقراء فى أموال الأغنياء فيكفلها لهم التشريع عن طريق آخر غير طريق التطلع والتمنى : والتمنى هو التطلع العاجز السلبى ، الذى لا يدفع إلى جهد ولا محاولة. فأما الرغبة فى الثراء عن طريق العمل ، فهى رغبة حميدة مشروعة ، لأنها تدفع إلى الإنتاج والنماء والصلاح . وهى ابتغاء فضل الله ، الذى لا يستحقه إلا العاملون . والله هو العليم بمداخل النفوس ومسارب الأحاسيس ، ومسالك الخير فى الحياة : « إن الله كان بكل شىء عليما » .

وإذا كانت المرأة لا ترث إلا نصف الرجل فقد كشفنا عند استعراض آيات الإرث عما نراه من حكمة ذلك التشريع . وإذا كانت لا تساهم فى الغنيمة ولم يكتب عليها الجهاد ، فإنما ذلك لأن وظيفتها فى إنجاب الذرية ، وفى تنشئة الأجيال ، وفى منح المحضن الأول جوه وعطره .. لأن وظيفتها فى هـذا كله مقدمة على الجهاد . . ولها فى مقابلها فرائض على الرجل تحقيقا للعدل فى الحقوق والواجبات .

هذا وللرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن .. نصيب .. فليس كل ما يكسبونه يتمتعون به لأنفسهم ، إنما يستمتعون منه بنصيب فى حياتهم ، ثم يتركون ما تبقى منه وراءهم ، يرثه عنهم أولياؤهم :

« ولكل جعلنا موالى مما ترك الوالدان والأقربون » . .

موالى يرثون هؤلاء وهؤلاء ، ويؤول إليهم منهم ومنهن نصيب. فلكل من الرجال والنساء حق فى الـكسب وحق فى الإرث فلا يتمن أحد ما فضل الله به بعضهم على بعض .

« والذين عقدت أيمانـكم فآتوهم نصيبهم . إن الله كان على كل شىء شهيدا »

قيل : إن هذا النص يشير إلى ما كان فى الجاهلية : أن يتحالف الرجل مع الرجل على تبادل النجدة على أن يرث الحليف السدس من الميراث . وقيل : إنه يشير إلى ما كان فى صدر الإسلام من المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار والتوارث فيما بينهم .. وذلك قبل أن يقصر الإرث على ذوى القربى .. ومعناه أن هؤلاء الذين قام بينكم وبينهم اتفاق قبل قصر الميراث على الأهل ، عليكم أن توفوا لهم بنصيبهم وفاء بتلك الأيمان « إن الله كان على كل شىء شهيدا » .

* * *

وأخيرا نجىء إلى دستور البيت وتنظيم السلطات فيه .. والإسلام يسير على قاعدة توحيد القيادة فى كل عمل ، حتى إذا كان اثنان فى مهمة فليكن أحدهما أميرا .. وذلك منعا لتنازع القيادة والرأى والاتجاه .

والمجتمع شركة لا بد فيها من مدبر . فمن يكون المدبر فى المجتمع ؟ إن المرأة بحكم وظيفتها مشغولة بالمحضن الذى ينشىء المستقبل . وهذه الوظيفة تقتضى أولا أن تقضى المرأة فترات طويلة بين الحمل والرضاع محجوبة عن المجتمع وما يجرى فيه . وتقتضى ثانية أن تنمو فى نفسها العواطف والانفعالات أكثر مما ينمو التفكير والتدبير ، لأن هذا أصلح للوظيفة التى تؤديها .

فلم يكن بد إذن أن تكون القوامة فى هذه الشركة للرجل . لأن وظيفته تقتضى أن يلابس المجتمع فى معظم أوقاته فيتعرف مداخله ومخارجه ، كما تقتضى أن تنمو عضلاته وأفكاره أكثر من عواطفه وانفعالاته .. وكل هذا يجعله أقدر على وظيفة القوامة ماديا ومعنويا . وقد فضل فى الميراث لما عليه من تبعات ، وفضل فى الغنيمة لأنه يشارك فى الجهاد بعدما تفرغ له . وألزم فى مقابل هذا بفرائض للمرأة من المال . وعلاقة المال بالقوامة ظاهرة .. والأمر فى النهاية منوط بحسن توزيع العمل ، وحسن سير الشركة الـكبرى . شركة الحياة :

« الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم » .

وإذ تقررت القوامة للرجل بأسبابها هـذه ، فإن السياق يتجه إلى بيان سياسة الشركة فى الأسرة بين الرجال والنساء .

« فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله . واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن . فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا . إن الله كان عليا كبيرا . وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها . إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما إن الله كان عليما خبيرا » .

إن الصالحات سيحافظن على الهدوء والسكون والموافقة ويجتنبن الشغب والتمرد والنشوز ، وسيحافظن كذلك على أعراضهن وحرمات رجالهن فى غيبتهم ، مستعينات بحفظ الله لهن ورعايته .

وأما اللواتى تبدو عليهن أعراض النشوز والمخالفة فالخطوة الأولى فى ردهن إلى الطاعة والاتفاق هى العظة والتضحية . فإذا أبينها فالهجر فى المضاجع . ولعل الحكمة فى هذا هى أن قدرة الرجل على هجر المرأة الناشز فى المضجع .. وهو مثار الدوافع الفطرية ، ومكان غلبة المرأة وفتنتها .. يطامن من اغترارها بنفسها ، وزهوها بفتنتها ؛ ويردها إلى شىء من الحكمة والتواضع ، ويهبط بهذا النشوز — والنشوز فى معناه اللغوى الارتفاع — ويقلل من حدته . فتصلح الحياة بعد ذلك .

فأما حين لا تجدى هذه الوسيلة النفسية . فقد تجدى وسيلة أخرى فى دفع هذا النشوز وخفضه .. وسيلة التأديب بالضرب الخفيف الذى لا يؤذى .. وبعض النساء يستجبن إلى هذه الوسيلة كما تدل الشواهد ، لأن فيهن انحرافاً معينا — قليلا أو كثيرا — يجعل هذا علاجا نافعا .. وليس المقصود هو الإهانة ، ولكنه مواجهة الانحراف الذى تثبته الشواهد الكثيرة .

« فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا » .. ويعقب على هذا بالتهديد الخفى ،ليطامن الرجال من أنفسهم ، ويقفوا عند حدهم ، ولا يتعالوا بقوتهم : « إن الله كان عليا كبيرا » ..

ولكن الداء قد يكون أعمق ، فلا تجدى هذه الوسائل جميعا . أو قد يأتى بعضها بعكس المقصود منه فينشىء بين الزوجين شقاقا . فقبل أن يصل الأمر إلى هذا الحد ، يشير الإسلام باستخدام الوسيلة الأخيرة ، استبقاء للعقدة المقدسة ، وحفاظا عليها من الانتقاض .. أن يختار حكم من أهلها وحكم من أهله ، يتشاوران فى الأمر ، ويقومان بالنصيحة ، ويحاولان الإصلاح. فإذا كان الزوج والزوجة يريدان إصلاحا ولا ينويان شرا ، إذا كانا قد انساقا وراء انفعالاتهما

الموقوتة .. فإن الله سيوفق بينهما على أيدى الحكمين . « إن الله كان عليما خبيرا » يعلم أحوال النفوس ويعرف خباياها . وقد يستكبر الزوج أو الزوجة عن الرجوع إلى الحق إذا تركا وشأنهما . فيكون وجود الحكمين فرصة للتراجع منهما أو من أحدهما . وفرصة لاستئناف حياة طيبة . قبل اللجوء إلى الافتراق فإن أبغض الحلال إلى الله الطلاق ...

« واعْبُدُوا اللهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً ، وَبِالْوَالِدَيْنِ إحْساناً ، وَبِذِى الْقُرْبَى ، وَالْيَتَامَى وَالْمَساكِينِ ، وَالْجَارِ ذِى الْقُرْبَى ، والْجَارِ الْجُنُبِ ، وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ ، وَابْنِ السَّبِيلِ ، وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً * الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ، وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ ، وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً * وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ ، وَلاَ يُؤْمِنُونَ باللهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ؛ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِيناً فَسَاءَ قَرِيناً * وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللهُ ؛ وَكَانَ اللهُ بِهِمْ عَلِيماً * إنَّ اللهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ، وَإنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا ، وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً * فَكَيْفَ إذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هٰؤُلاَءِ شَهِيداً ؟ * يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ ، وَلاَ يَكْتُمُونَ اللهَ حَدِيثاً .

« يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلاَ جُنُباً — إلاَّ عَابِرِى سَبِيلٍ — حَتَّى تَغْتَسِلُوا ؛ وإنْ كُنْتُمْ مَرْضَى ، أَوْ عَلَى سَفَرٍ ، أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ ، أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاءَ ، فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً ، فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ . إنَّ اللهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا .

« أَلَمْ تَرَ إلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلاَلَةَ ، وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ ؟ * وَاللهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ ، وَكَفَى بِاللهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللهِ نَصِيرًا * مِنَ

الذينَ هادُوا يُحرِّفُونَ الكَلِمَ عَنْ مَواضِعِهِ ، وَيقُولُونَ : سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ، وَاسْمَعْ غيْرَ مُسْمَعٍ ، وَرَاعِنَا ، لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْناً فى الدِّينِ . وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا : سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ، وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا ، لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ وَأَقْوَمَ ؛ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ ، فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً .

« يا أَيُّها الَّذينَ أُوتُوا الْكِتابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهاً ، فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبارِها ، أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحابَ السَّبْتِ ؛ وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً * إِنْ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاء ؛ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدِ افْتَرى إِثْماً عَظِيماً .

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ ؟ بَلِ اللهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاء ، وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً * انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ ؛ وَكَفَى بِهِ إِثْماً مُبِيناً .

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ والطَّاغُوتِ ، وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا : هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً ؟ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ ؛ وَمَنْ يَلْعَنِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيراً * أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنْ الْمُلْكِ فَإِذاً لاَ يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيراً ؟ * أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتاهُمْ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ ؟ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ ، وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكاً عَظِيماً * فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ ؛ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيراً * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَاراً ، كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ . إِنَّ اللهَ كَانَ عَزِيزاً حَكِيماً * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ، لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ ، وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً » .

نحن فى هذا الدرس أمام علاقات إنسانية أوسع من علاقات الأسرة ، التى كنا حيالها فى الدرس الماضى ؛ وإن كانت تبدأ بشىء من علاقات الأسرة فيما يختص بالوالدين ؛ والسياق هنا يتناول رعاية طوائف شتى فى المجتمع الإنسانى إلى جوار الوالدين ، ويحث على الإحسان إليهم ابتغاء مرضاة الله ، لا رياء واختيالا ومباهاة ..

ويربط السياق هذا البر بعبادة الله تعالى ، إشارة إلى الرابطة الأولى التى يلتقى عندها العباد جميعا . رابطتهم فى الله خالقهم ورازقهم . على النحو الذى بدأت به هذه السورة .

ومن عبادة الله يستطرد إلى أمور تتعلق بالعبادة وبالعقيدة ، وبعلاقات بعض العقائد ببعض، وبعض الأقوام ببعض .. ذلك مع الترغيب والترهيب الذى يصاحب هذه الموضوعات فى القرآن، ويشدها جميعا إلى الله سبحانه .

***

« واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا . وبالوالدين إحسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين، والجار ذى القربى ، والجار الجنب ، والصاحب بالجنب وابن السبيل ، وما ملكت أيمانكم . إن الله لايحب من كان مختالا فخورا ... »

إن التشريعات كلها فى الإسلام والتوجيهات ، إنما تنبثق من نبع واحد ؛ وترتكز على ركيزةواحدة . إنها تنبثق من نبع العقيدة فى الله ؛ وترتكز على الوحدة المميزة لهذه العقيدة.. ومن ثم يتصل بعضها ببعض ، ويتناسق بعضها مع بعض ، ويصعب فصل جزئية منها عن جزئية، وتصبح دراسة أى منها ناقصة بدون الرجوع فيها إلى أصلها الكبير الذى تلتقى عنده وهو تلك العقيدة .

من العقيدة فى الله تنبع كل التصورات الأساسية للعلاقات الكونية والحيوية والإنسانية ، تلك التصورات التى تقوم عليها التشريعات الاجتماعية والاقتصادية؛ والتى تؤثر فى علاقات الناس بعضهم ببعض ، فى كل مجالى النشاط فى الأرض ؛ والتى تكيف ضمير الفرد وواقع المجتمع ؛ والتى تجعل المعاملات عبادات ــ بما فيها من مراقبة لله ــ والعبادات قاعدة للمعاملات ــ بما فيها من تطهير للسلوك ــ والتى تحيل الحياة فى النهاية وحدة متماسكة مردها كلها إلى الله .

هذه السمة الأساسية فى العقيدة الإسلامية ، تبرز هنا فى تصدير آية الإحسان إلى الوالدين

والأقربين وغيرهم من طوائف الناس ، بعبادة الله وتوحيده؛ثم فى الجمع بين قرابة الوالدين وقرابة هذه الأصناف كلها من طوائف البشر ،متصلة هذه وتلك بعبادة الله و توحيده . وذلك بعد أن جعل هذا التوحيد وتلك العبادة واسطة ما بين دستور الأسرة القريبة فى نهاية الدرس الماضى، ودستور العلاقات البشرية الواسعة فى هذا الدرس الجديد ، ليصلها جميعا بتلك الآصرة التى تضم الأواصر جميعا .

« واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا » .. شيئا .. ليكون النهى أعم ، ولكى ينزل ماسوى الله فى مجال العبادة منزلة الشىء حتى لو كان عاقلا !

ثم ينطلق إلى الإحسان للوالدين على التخصيص ، ولذى القربى على التعميم. ومعظم الأوامر تتوجه إلى توصية الذرية بالوالدين ، وقلما توصى الوالدين بالذرية .. ذلك أن الفطرة تركز فى كيان الآباء والأمهات رعاية الذرية الضعاف ، تنفيذا لمشيئة الله فى امتداد الحياة ، وفى هـذه الفطرة الكفاية والغناء ، فلا حاجة إلى وصية ولا أمر . فأما الأبناء فهم فى حاجة إلى دافع من العقيدة والمروءة والتوجيه ليلتفتوا إلى الخلف وهم مدفوعون إلى الأمام فى زحمة الحياة ! وليتوجهوا إلى الجيل الذى أخلفهم ، وهم مشغولون بالجيل الذى يخلفهم ! ومن ثم تجىء هذه الوصايا لتوقظ وجدانهم إلى ما قد يفوتهم ، وهم مندفعون إلى المستقبل — مهملون للماضى — مع تيار الحياة .

كذلك يلحظ فى هـذه الآية وفى كثير غيرها أن التوجيـه إلى البر يبدأ بذوى القربى وبالعشيرة القريبة، ثم يمتد منها إلى بقية المحتاجين إلى الرعاية ، أو المستحقين، وتلك طريقة الإسلام. وهى تتفق أولا مع الفطرة وتسايرها، ثم تتفق ثانيا مع تنظيمه الاجتماعى ، من جعل التـكافل يبدأ فى محيط الأسرة ثم ينساح فى محيط الجماعة . كى لا يركز هذا التـكافل كله فى يد الدولة الضخمة ، إلا عندما تقتضى ذلك ضرورة . فالوحدات الصغيرة أقدر على تحقيق هذا التـكافل فى وقته المناسب ، وفى سهولة ويسر ، وفى تراحم وود . يجعل جو الحياة أليق ببنى الإنسان .

وهنا يبدأ الإحسان بالوالدين، ومنهما إلى ذوى القربى ، ومنهم إلى اليتـامى والمساكين — ولو أنهم أبعد مكانا من الجار ، ذلك أنهم أشد حاجة وأولى بالرعاية — ثم الجار القريب فالجار البعيد — مقدمين على الصاحب الملاصق المقرب — لأن الجار قربه ثابت أما الصاحب فلقاؤه على فترات — ثم الصاحب الملاصق، فابن السبيل العابر ، وهو غريب، والغريب فى حاجة إلى الرعاية،

حتى ولو لم يكن محتاجا من ناحية المال . ثم الرقيق الذين جعلتهم الملابسات ملك اليمين . ولكنهم يتصلون بتلك الآصرة الإنسانية التي لا تنقطع ، والتي تربط بينهم وبين الوالدين وذي القربى وسائر أصناف البشر المستحقين للرعاية ..

«إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا : الذين يبخلون ، ويأمرون الناس بالبخل ، ويكتمون ما آتاهم الله من فضله . وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا . والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ، ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر . ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا» .

اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وأحسنوا إلى البشر قريبهم وبعيدهم « إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا » . لا يحب « الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله » . لا يحب « الذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر » .

وهكذا تتضح مرة أخرى تلك السمة الأساسية للعقيدة الإسلامية ، وهي ربط كل مظاهر السلوك ، وكل علاقات المجتمع بالعقيدة . فعبادة الله وتوحيده يتبعها الإحسان إلى البشر ، ابتغاء وجه الله ، وفي أدب ورفق يتحقق معها الإحسان . والكفر بالله واليوم الآخر يصاحبه الاختيال والفخر ، والبخل والأمر بالبخل ، وكتمان فضل الله وعدم إباحته للناس ، والإنفاق – حين يكون إنفاق – اختيالا ورياء ينشأ عنهما الإيذاء لا الإحسان ..

والتعبير يقول : إن الله لا يحب هؤلاء .. ذلك أن الاختيال والفخر والرياء والبخل والحث على البخل ، وكتمان الفضل ... كلها صفات تثير الكره . والله سبحانه لا ينفعل انفعال الكره أو الحب كالبشر . والمقصود طبعا هو ما يتبع الكره من الإيذاء وما يتبع الحب من الإحسان . ولما لم يكن هؤلاء محسنين ، فإن الله لا يحبهم . أي لا يحسن إليهم . ولكن التعبير ينص على عدم الحب هنا ليثير انفعال الكراهية لهذه الخلائق ، ولهذه الأصناف من المخلوقات !

إن هؤلاء المختالين الفخورين على الناس ، المتعالين في الأرض ، لأنهم لا يعبدون الله ، فيتعلموا من عبادته التواضع في معاملة العباد .. إن هؤلاء لا يكفيهم أن يبخلوا بما يملكون ، فهم يدعون غيرهم إلى البخل – وذلك طبيعي فصاحب كل صفة يحب أن يشاركه فيها الآخرون ، ولا سيما حين تكون هذه الصفة مما ينتقده الناس ، كي لا يكون فيها وحده تحت لاذع النظرات ، وقارس النقدات – وهم بهذا البخل يكتمون ما آتاهم الله من فضله ، فلا يكشفونه للناس ، ولا

يشاركهم الآخرون فيه (١) . وهم حين ينفقون شيئا من مالهم ينفقونه رياء ، لا ابتغاء وجه الله، وارتقابا لثوابه . ذلك أنهم « لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر » .. ومن ثم يتلقاهم التهديد والتنديد فى التعقيب على كل آية : مرة : « إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا » .. ومن لا يحبه الله فياويله من أذاه . وثانية : « وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا » .. والإهانة هى الجزاء المقابل للفخر والاختيال . ويظهر التعبير هنا سبب العذاب وينص على صفتهم الأصيلة فيسميهم « الكافرين » حتى قبل أن يصرح فى الآية التالية بأنهم « لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر » ليدل على أن هذه الصفات هى صفات الكافرين ، وأنها تنبع من الكفر وتتصل به ، كما يتصل الإحسان بالإيمان . وثالثة : « ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا » .. ليدل على أن هذه التصرفات مبعثها إيحاء الشيطان ، ويزيد فى تقرير هذا المعنى بجعل الشيطان قرينا ورفيقا ومصاحبا ، وساءت هذه صحبة تنتهى بصاحبها إلى مصير الشيطان !

وحين ينتهى من تجميع هذه الجرائر الناشئة عن ذلك السلوك الذميم ، يسأل فى استنكار :
« وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر ، وأنفقوا مما رزقهم الله » ؟

نعم ؟ ماذا عليهم ؟ ما الذى يخشونه فى هذا الاتجاه، حتى يباعدوه ويلجأوا إلى ذلك الطريق وفيه كل تلك الجرائر ؟ إن الإنسان لا يركب ذلك المركب الخشن ، ولا يحتمل كل تلك التبعات إلا وهو مضطر ، يتقى ما هو أكبر !

ومراعاة لهذا الجو يجىء التعبير فى هذه الصورة .. وإلا فهذا الطريق هو الطريق الأولى، ومزيته ليست مجرد أن ليس عليهم فيه شىء . بل أن لهم فيه خيرا ، وأنه سبيل الإيمان والطاعة والنجاة والبر بين الناس .. « وكان الله بهم عليما » يعلم نياتهم ومرامى أعمالهم ، إن كانت لوجه الله ، أو إن كانت رئاء ومباهاة .

ثم يعقب على التهديد والاستنكار بمشهد من مشاهد القيامة يجسم هذا التهديد ويشخصه فى حركة حسية وحركة شعورية . يجسم التهديد بالعذاب المهين المعد للكافرين . ويجسم التهديد

---

(١) قد نزلت هذه الآية فى قوم من اليهود يبخلون بمالهم ويدعون غيرهم إلى البخل ويكتمون ما عندهم من الكتاب الذى يدل على رسالة محمد — صلى الله عليه وسلم — وصدقه . ولكن النص عام فنفسره نحن بما هو عام .

بسوء المصير المقترن بمصير الشياطين . ويجسم التهديد بكراهية الله للمختالين الفخورين الذين يكتمون ما آتاهم الله من فضله . ومشاهد القيامة فى القرآن تجئ فى السياق دائما متسقة مع السياق (١) :

« إن الله لايظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ، ويؤت من لدنه أجرا عظيما . فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ؟ يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض . ولا يكتمون الله حديثا »

إنه يمهد هنا لمشهد القيامة بأن الله لايظلم مثقال ذرة . وإذن فهو العدل المطلق يسود الموقف ، وأنه يضاعف الحسنات ويؤتى فضلا عنها أجرا من لدنه عظيما . فهى الرحمة إذن لمن يستحقون الرحمة ، والفضل المطلق لمن كانوا يرجون الفضل . . وبذلك يرسم الجو العام الذى يعرض المشهد فيه .

فإذا كانت هذه هى الحال ، وهذه هى القاعدة ، فكيف يكون حالهم إذن : « إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ؟ » . . وعندئذ يرتسم المشهد شاخصا . وتقف وجها لوجه أمام الخلائق وعلى كل أمة منها شهيد . وهؤلاء الكافرون المختالون الفخورون الباخلون الآمرون بالبخل ، الذين يكتمون فضل الله ولا يبتغون وجه الله . . هؤلاء هم واقفين فى الساحة والرسول عليهم شهيد . . هؤلاء هم بكل مافعلوا وبكل ماقالوا وبكل ما أنكروا وبكل ما استكبروا . . هؤلاء هم فى حضرة الخالق الذى كفروا به ، وفى مواجهة الرسول الذى عصوه . . فكيف ؟ ؟ ؟

إنه موقف خزى ومهانة قبل كل شىء ، وموقف اعتراف لايجدى فيه الإنكار ، ولا يمكن فيه الكتمان . . والسياق يصور جو المشهد بحالة نفسية وانفعال وجدانى يتفقان مع تلك المعانى : «يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض . ولا يكتمون الله حديثا» . . يودون لو تسوى بهم الأرض ، فلا يكون لهم وجود بارز ، بل يندمجون بهذه الأرض وينطوون ، فرارا من الخزى الذى يغمر المشهد ويطويه . ويقرون لله ويعترفون فى مقابل ما كانوا فى الحياة الدنيا يكتمون .. وإن أى تعبير عن حالهم ، وسوء مصيرهم ، ومايعانونه من انفعالات ساحقة ،

---

(١) يراجع بتوسع كتاب : « مشاهد القيامة فى القرآن »

ما كان ليبلغ فى تجسيمه وتشخيصه مايبلغه هذا المشهد الكظيم الكئيب .

***

ولقد بدأ هذا الدرس بعبادة الله وتوحيده ، ليقرن بالعبادة والتوحيد ذلك البر بالناس . ثم استطرد لبيان منهج الآخرين الذين لا يوحدون الله ولايعبدونه . . فالآن وقد أوصل هؤلاء إلى مصيرهم المنتظر ، بذلك المشهد المجسم المصور . . يعود إلى مشهد من مشاهد العبادة ، ويرسم الأدب اللائق به ، والاستعداد الطهورى الذى يمهد له ، والرخص التى تجعل أداءه ميسورا فى جميع الأحوال :

«يا أيها الذين آمنوا لاتقربوا الصلاة وأنتم سكارى ـ حتى تعلموا ماتقولون ـ ولاجنبا ـ إلا عابرى سبيل ـ حتى تغتسلوا . وإن كنتم مرضى أو على سفر ، أو جاء أحد منكم من الغائط ، أو لامستم النساء ، فلم تجدوا ماء ، فتيمموا صعيدا طيبا ، فامسحوا بوجوهكم وأيديكم . إن الله كان عفوا غفورا »

لقد كانت هذه إحدى مراحل تحريم الخمر . المرحلة الوسيطة ، بين التنفير منها لأن إثمها أكبر من نفعها وبين التحريم البات لأنها رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه [1] . وكانت مهمة هذه المرحلة الوسيطة هى قطع عادة الشراب ، بحظره قرب أوقات الصلاة ، وهى موزعة على مدار النهار . وبذلك تنقطع عادة الشراب عند من كانوا يشربون فى مواعيد خاصة . وكسر العادة هو الخطوة النفسية الحاسمة فى إبطالها . لأن معظم من يتناولون الخمر وأخواتها ، إنما يتناولونها لأنها أصبحت عادة لهم ، فى مواعيد خاصة ومناسبات . والعادة هى أعسر عقبة فى سبيل تركها . وكسر العادة هو الخطوة الحاسمة كما أسلفنا . وقد راعى الإسلام هذه الأسس النفسية فى إبطال العادات النفسية والجسدية . والله أعلم بخلقه وبطباعهم المركوزة فى الفطرة . . وذلك كله بالإضافة إلى مايجب للصلاة وهى وقوف بين يدى الله من أدب يتنافى مع حالة الشراب .

وهذه المرحلة تذكر هنا فى هذا السياق ، لأن الخمر أكثر شىء دفعا إلى الفخر والاختيال ، وفقدان الاتزان واضطراب التصورات . . وجو العبادة يجب أن ينزه عن هذا كله ، فلا تشوبه شائبة من صفات من ورد ذكرهم من المختالين الفخورين الذين لا يحبهم الله .

---

(١) وردت هذه المراحل فى الجزء الثانى عند الكلام عن قوله تعالى : « يسألونك عن الخمر والميسر . . الخ »

ثم يمضى السياق فى بيان الطهارات الواجبة فى جو العبادة . . فيحظر الصلاة على الجنب سواء من مباشرة امرأة أومن احتلام قبل الاغتسال . والأمر هنا أمر تهيؤ نفسى واستعداد ؛ وفصل للحظة المتاع الجسدى عن لحظة العبادة بعمل يوحى للنفس بهذا الفصل وهو الغسل . والإسلام لايستقذر دوافع الفطرة ولا ينكرها ؛ ولكنه فقط يحب أن تتهيأ النفس للوقوف بين يدى الله بحالة شعورية خاصة ، وأن تخلص من الدوافع الذاتية كلها فى لحظة العبادة وتتوجه بكاملها خالصة لله . ومن ثم يكون الغسل من الجنابة ـ وليس فيها من القاذر الظاهرة ما فى البول أو الغائط ـ لهذا الاعتبار فيما نحسب . وما نبلغ من حكمة تشريع الله إلا مايبلغ إليه الاجتهاد . فأما حين يصبح الاغتسال شاقا ـ كما فى حالة عابر السبيل الذى لايستقر ولا يجد وسائل الاغتسال ميسورة ـ فإن التهيؤ يتم بوسيلة أخرى لاتحقق نظافة حسية وهى التيمم ، مما يساعد على ذلك التعليل الذى أوردناه .

هذا التيمم يجزىء فى حالة المرض الذى يجعل استعمال الماء ضارا ، أو يجعل استجلاب الماء شاقا . وفى حالة السفر التى سبق ذكرها . سواء كان الواجب هو الغسل كما فى حالة الجنابة ، أو الوضوء كما فى حالة قضاء الحاجة . ذلك حين لايوجد الماء أو حين يوجد ولكن استعماله يؤذى . وهو ضربة بالكفين على صعيد طاهر يمسح بها الوجه واليدان إلى المرفقين ، أو ضربتان واحدة للوجه وواحدة لليدين . وكل منهما يجزى . « إن الله كان عفوا غفورا » يعفو عن ضرورات الناس ويغفر لهم التقصير والاضطرار . .

ولابد أن نقف أمام بعض التعبيرات الرائقة فى هذا النص . .

ذلك حين يعبر عن قضاء الحاجة بقوله : « أوجاء أحد منكم من الغائط » ـ والغائط مكان منخفض غائر كانوا يتخذونه لقضاء الحاجة ـ فلايقول إذا عملتم كذا وكذا ، بل يكتفى بالعودة من هذا المكان كناية عما تم فيه . ومع هذا لايسند الفعل إلى المخاطبين ، فيقول : أو جئتم من الغائط ، بل يقول : أوجاء أحد منكم من الغائط . زيادة فى أدب الخطاب ولطف الكناية . ليكون هذا نموذجا للناس فى الأدب حين يتخاطبون .

وحين يعبر عما يكون بين الرجل والمرأة بقوله : « أو لامستم النساء » والتعبير بالملامسة أرق وأحشم وأرقى . والملامسة قد تكون مقدمة للفعل أوتعبيرا عنه . وعلى أية حال فهو أدب

عال يضرب به الله للناس فى الحديث عن مثل هذه الشؤون . عند ما لا يكون هناك مقتض للتعبير بالألفاظ المباشرة المكشوفة .

وحين يعبر عن الصعيد الطاهر بأنه الصعيد الطيب . ليشير إلى أن الطاهر طيب ، والنجس خبيث . . وهو إيحاء لطيف المدخل إلى النفوس .

***

ومن الحديث عن أدب العبادة ينتقل السياق إلى تعجيب الرسول — صلى الله عليه وسلم — من بعض أهل الكتاب ؛ ومنهم من يشترى الضلالة ، ويريد أن يضل المؤمنين . ومنهم من يحرف الكلم عن مواضعه ، ويجانب الأدب فى خطاب الرسول ، فيقول له ألفاظا ذات مدلول ظاهر طيب ومدلول باطن خبيث . . فتكون الصلة فى هذا الانتقال هى صلة التعليم والتهذيب العام ، الذى تعرض فيه أنماط الأدب والسلوك :

« ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يشترون الضلالة ، ويريدون أن تضلوا السبيل . والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا . من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ، ويقولون : سمعنا وعصينا ، واسمع — غير مسمع — وراعنا ، ليا بألسنتهم وطعنا فى الدين . ولو أنهم قالوا : سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيرا لهم وأقوم ، ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون . إلا قليلا . »

ألم تر إلى هؤلاء — وما أعجب أمرهم وأجدره بالالتفات ! — إنهم أعطوا نصيبا من الكتاب — وهو التوراة فالمقصود غالبا بهذا التعجيب هنا هم اليهود — والتوراة جزء من كتاب الله الخالد . الكتاب الذى أعطى الرسل منه أجزاء بحسب حاجة العصر ، ثم كملت كلها فى الرسالة الأخيرة فى هذا القرآن . . أعطوا هذا النصيب ، وكان المنتظر أن يحصلوا منه على الهدى . ولكنهم راحوا « يشترون الضلالة » وفى أيديهم الهدى ! راحوا يشترونها عمدا وقصدا ، فهم لا يضلون عن خطأ ولا عن جهل ، إنما يضلون عن نية وعمد كمن يشترى وهو يريد ما يشتريه !

وهم لا يشترون الضلالة لأنفسهم فحسب ؛ إنما يريدون كذلك « أن تضلوا السبيل » . السبيل المستقيم الواصل الذى تسلكون . . وهو يذكره دون وصف ، ليشعرهم أن سبيلهم هو السبيل ، وما عداه متاهة وضلال ، ليحذروا المضللين . ثم يصف هؤلاء المضللين بوصفهم

الذى يستحقه عملهم ، وهو أنهم أعداء للمؤمنين ؛ ويثبت قلوب المؤمنين ويطمئنهم من أعدائهم هؤلاء ، فهو أعلم بأعدائهم ، وهو ناصرهم ووليهم ، فلن يصيبهم منهم أذى « وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا » .

ثم يعين ويحدد أهل الكتاب المقصودين فى هذا الموضع بأنهم « من الذين هادوا » ويذكر طرفا من سلوكهم وانحرافهم وسوء أدبهم ، وعاقبة هذا كله عليهم . . فهم « يحرفون الكلم عن مواضعه » فيقولونه فى غير معانيه ووجوهه . يقولون : « سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا » . . وقولهم « سمعنا » مفهوم أما قولهم : « عصينا » فربما كان المقصود هو تعبير فعلهم لا تعبير لسانهم — كما قلنا من قبل فى مثل هذا التعبير — فقد كانوا لا يواجهون الرسول — صلى الله عليه وسلم — بهذه الصراحة ؛ ولكنهم يلتوون فى القول ويتوقحون فى الفعل على عادة يهود . وقد كانوا يقولون للرسول : « اسمع — غير مسمع — » وظاهرها : غير مأمور بالسمع أو غير سامع ما تكره . وباطنها : فاقدا للسمع غير قادر عليه ! كما كانوا يقولون : « راعنا » ويقصدون بها لفظة تقاربها فى العبرية ذات معنى كريه . . وهكذا كانوا يلوون ألسنتهم رغبة فى إيذاء الرسول — صلى الله عليه وسلم — وطعنا فى دينه ، مع تظاهرهم بالأدب من قولهم سمعنا ، واسمع غير مسمع . وهذا ما يرجح ماذهبنا إليه من أن «عصينا» كانت لسان حالهم لا لسان مقالهم فى خطاب الرسول .

يحكى السياق عنهم هذا السلوك المنحرف الذميم ، ويضع أمامه السلوك المستقيم اللائق : «ولو أنهم قالوا : سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيرا لهم وأقوم» بما فيه من أدب وصراحة واستقامة . ولكنهم لم يفعلوا لأن الله كتب عليهم اللعنة والطرد من الرحمة والبعد عن أسبابها . وذلك بسبب كفرهم والكفر معناه التغطية ، وقد غطوا أبصارهم وبصائرهم عن النور والهداية وكفروا ؛ فلعنهم الله بسبب هذا الكفر . إلا قليلا منهم نجوا من هذه اللعنة . فكان من نصيبهم الإيمان .

ومن ثم يتجه الخطاب إلى أهل الكتاب يدعوهم إلى المسارعة إلى الإيمان قبل أن يحل عليهم عقاب الله المرتقب لمن يصر على الكفر . ذلك أن كل ذنب يمكن اغتفاره إلا الشرك بالله . هذا الشرك الذى يزاولونه هم ، بما يدعون من أساطير :

« يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم ، من قبل أن نطمس وجوها

فنردها على أدبارها ، أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت . وكان أمر الله مفعولا . إن الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر مادون ذلك لمن يشاء . ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما . »

يا أيها الذين أوتوا الكتاب .. يا أيها الذين أعطوا مصباح الهداية .. يا أيها الذين كان عليهم أن يكونوا أول المؤمنين .. يا هؤلاء « آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم » وليس غريبا عما ألفتم ، وليس بعيدا عما أوتيتم . . آمنوا « من قبل أن نطمس وجوها فنردها على أدبارها » فطمس الوجوه وتنكير معالمها هو الجزاء المناسب لمن يطمسون الكتاب ويحرفون الكلم عن مواضعه . وهو الصورة التى تتسق مع تلك الصورة فى جوها وفى شكلها . ولشناعة هذا التهديد لم يوجهه إليهم فى الخطاب ـ وهو يدعوهم إلى الإيمان ـ بل أطلقه « نطمس وجوها» لينطلق إلى من يصر منهم على ما هم فيه « أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت » وقد علمنا أنه قيل لهم : « كونوا قردة خاسئين » وقد قلنا : إنه ليس من الضرورى أن يكونوا قد مسخوا قردة بالفعل ، إنما قد انحطت رتبتهم البشرية فى الإدراك والشعور . وهذا الانحطاط يؤثر فى السمات والملامح ويطبعها بطابع ملحوظ . فكذلك طمس الوجوه هنا فإنه يمكن تحقيقه عن هذا الطريق . فإن الإدراك واللاحية والحساسية تطبع ملامح الوجوه بطابع خاص ينطمس فيها حين ترتكس المشاعر وتتجمد القلوب ! .. « وكان أمر الله مفعولا » فإذا شاء فلا راد لمشيئته ، ولا معوق لما يريد .

يا أيها الذين أوتوا الكتاب سارعوا إلى الإيمان من قبل أن يتحقق هذا التهديد . إن الله لا يتسامح فى أن تشركوا به . إنه قد يعفو عن كل كبيرة فى ظل الإيمان . فأما خارج حدود الإيمان فلا غفران : « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء » فكل كبيرة مع الإيمان يرجى منها متاب وترجى لها مغفرة . أما مع الشرك فالصلة بالله مقطوعة والطريق إلى الله مغلق . والشرك جريمة عظيمة . وافتراء على الحق والعقل والفطرة « ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما » افتراه افتراء بلا سبب ولا موجب . فالفطرة موصولة بالله ، لا يصرفها عن الإيمان به إلا الافتراء والتزوير .

ثم يعود السياق إلى تعجيب الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ من أمرهم فى خلة أخرى . إنهم يزكون أنفسهم ، ويشهدون لها بالطهارة والهداية . وهم على ما هم عليه . فما أشد افتراءهم على الله ، الذى ينسبون إليه أنه عنهم راض ، وأنهم شعبه المختار !

« ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم . بل الله يزكى من يشاء ولا يظلمون فتيلا . انظر كيف يفترون على الله الكذب وكفى به إثما مبينا » .

إنهم يتولون تزكية أنفسهم والشهادة لها ، ويزعمون اختيار الله لهم من بين خلقه . وليس هذا من وظيفتهم ولا من شأنهم . ليس من وظيفتهم أن يشهدوا لأنفسهم ، وليس من شأنهم أن يتحدثوا عن رأى الله فيهم . فالله وحده يختار من يشاء ويثنى عليه ويرفعه عنده مقاما. وسكوتهم وتركهم الأمر لله لا يضيع عليهم حقا ، « ولا يظلمون فتيلا » والفتيل هو الخيط الرفيع الذى يكون فى شق النواة ــ فهم لا يظلمون مقدار هذا الفتيل الضئيل . « انظر كيف يفترون على الله الكذب » واعجب كيف يجرأون على هذه الفعلة النكراء التى تكفى وحدها ــ حتى ولو لم يكن لهم ذنب سواها ــ لأن تحسب عليهم ذنبا ضخما واضحا : « وكفى به إثما مبينا »

ثم تعجيب آخر لفعلة أخرى :

« ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ؛ ويقولون للذين كفروا : هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا » .

فهؤلاء الذين أوتوا الكتاب ــ وهى صفة تذكر وتكرر لزيادة التعجيب منهم فهم يفعلون ما يفعلون والكتاب معهم ، ولو كان غيرهم لكان ذلك غير مستنكر ، ولكنهم هم وقد أوتوا نصيبا من الكتاب أمرهم عجيب ! ــ هؤلاء يؤمنون بالسحر وبالكهانة كما يؤمنون بغير شريعة الله ،حتى ليقولون عن الكفار :هؤلاء أهدى سبيلا من محمد وأتباعه. وهم بقولهم هذا كأنما آمنوا بما يؤمن به المشركون حتى ولو لم يكونوا حقيقة من المؤمنين بالجبت والطاغوت . فالعبرة بتصورهم للعقائد ،والعبرة بموقفهم من أهل هذه العقائد. وما داموا يقفون فى صف الذين كفروا ضد الذين آمنوا ، فكأنما ارتضوا شريعة هؤلاء الكفار ومعتقداتهم ، وآثروها على شريعة المسلمين وعقيدتهم . ولعل هــذا هو المقصود من هذا التعبير .. وهو عجيب ومستنكر ومرذول .

ومن ثم يبادرهم باللعنة ، ويكشف لهم عن سوء المصير :

« أولئك الذين لعنهم الله . ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا »

ثم يعقب على موقفهم هذا بسؤالين استنكاريين : أحدهما للنفى والثانى للتقرير. فأما أولهما فينفى أن يكون لحكمهم هذا وزن أو قيمة أو أثر ، فهم لا يملكون من الأمر شيئا ، حتى يحرموا من يشاءون . ولو ملكوا لحرموا الناس جميعا من أتفه الأشياء ، لما ركب فى طبيعتهم من بخل ، وما ركز فى فطرتهم من كزازة :

« أم لهم نصيب من الملك فإذاً لا يؤتون الناس نقيرا [١] » .

كلا ! ليس لهم من الملك نصيب . ولا لهم فى تصريف الملك شأن . فلا حرج على المؤمنين أن يقولوا عنهم وعن الكفار ما يشاءون . فمرد الأمر ليس لهم . ولا لهم منه نصيب .

وأما ثانيهما فيقرر أنهم إنما يقولون ما قالوا حسداً لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يؤتيه الله الرسالة ، وحسدا للذين آمنوا أن ينالوا على يديه الهداية :

« أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ؟ »

ثم يعقب على هذا التقرير بأن الأمر طبيعى ، ونعمة الله ليست وقفا على أحد . إنما ينالها من يستحقها بالإيمان ، ويحرم منها من يضيعها بالكفران. ولقد من الله على آل إبراهيم بالكتاب والحكمة والملك العظيم . فمنهم من آمن بالكتاب ومنهم من أعرض وصد ، ولكل منها جزاؤه ، بلا محاباة ومن غير تعديل فى سنن الله :

« فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما . فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنه . وكفى بجهنم سعيرا . إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب . إن الله كان عزيزا حكيما . والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، خالدين فيها أبدا ، وأزواج مطهرة ، وندخلهم ظلا ظليلا » .

إنهم يحسدون الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ على الرسالة . وهم من آل إبراهيم الذين آتاهم الله الكتاب والحكمة والملك العظيم . فهم أصلا ليسوا بمحرومين ، وإيتاء الرسالة ليس أمرا غريبا عليهم غير مألوف. والله الذى آتاهم الكتاب هو الذى آتى محمدا الكتاب، واختاره كما اختار إبراهيم ، فلا عجب فى اختيار بشر ليكون رسولا ، ولا داعى للحسد ـ ذلك الانفعال الخبيث الخسيس ـ والكتاب الذى أوتيه محمد من جنس الكتاب الذى أوتوه ، ومع هذا فقد كان منهم من آمن به ، وكان منهم من صد عنه ..

وهنا يعجل لهم بمصير الذين صدوا عنه ، لأنه أولى بالتعجيل : « وكفى بجهنم سعيرا» كفى بها سعيرا ينتظر هؤلاء الذين صدوا عنه ، وكان أولى أن يقبلوا لا أن يصدوا . فالإنسان يقبل

---

(١) النقرة الصغيرة التى تكون فى ظهر النواة ، ومنها تنبت .

على المألوف له ، ولا يصد عنه .. كفى بجهنم سعيرا . نارا مسعرة مؤججة . يبرزها لهم فى هذه الصورة المفزعة المخيفة ، تعجيلا بالمصير ، قبل أن يأخذ فى التفصيل ..

والتفصيل مشهد بشع فظيع : « إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب » .. إنه مشهد لا يكاد ينتهى . مشهد شاخص متكرر ، يشخص له الخيال ، ولا ينصرف عنه حتى لو أراد . فللهول جاذبية تشد إليه النفوس والأبصار. والسياق يرسم ذلك المشهد دائما متكررا بلفظ واحد : « كلما » ويرسمه كذلك عنيفا مفزعا بجملة قصيرة : « نضجت جلودهم » ويرسمه خارقا مفاجئا بجملة قصيرة أخرى : « بدلناهم جلودا غيرها » ويجمل التعبير كله فى جملة شرطية واحدة ترسم المشهد المخيف العنيف .

ذلك جزاء الكفر – وقد تهيأت أسباب الإيمان – « ليذوقوا العذاب » .. « إن الله كان عزيزا حكيما » قويا قادرا ، وحكيما يضع لكل حالة جزاءها ، ولكل داء دواءه .

وفى مقابل هذا السعير المتأجج ، فى مقابل مشهد النار والجلود المنضجة المبدلة كلما نضجت ، ليعود الألم من جديد ، ويعود الإنضاج من جديد ، ويعود تذوق العذاب من جديد.. فى مقابل هذا المشهد المكروب الملهوف . . نجد « ظلا ظليلا » يتفيأه الذين آمنوا وعملوا الصالحات فى جنات ندية « تجرى من تحتها الأنهار » ونجد فى المشهد دواما وثباتا « خالدين فيها أبدا » ولكنه دوام وثبات من لون آخر آمن مطمئن مستروح فى الظلال الظليلة ، ومستروح كذلك بظلال أخرى : « وأزواج مطهرة » وتجىء لفظة « مطهرة » لتغشى جو المتاع بالشفافية الرائقة ، وتنقيه من الحس الغليظ ، وتنسق بينه وبين الظل الظليل فى ذلك المشهد الندى الوريف الجميل .

« إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا ، وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ . إِنَّ اللهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ . إِنَّ اللهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً .

« يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِى الْأَمْرِ مِنْكُمْ . فَإِنْ

تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول — إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر — ذلك خير وأحسن تأويلا .

« ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ، يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت — وقد أمروا أن يكفروا به — ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا * وإذا قيل لهم : تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول ، رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا * فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله : إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقا * أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم ، فأعرض عنهم ، وعظهم ، وقل لهم في أنفسهم قولا بليغا .

« وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع — بإذن الله — ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك ، فاستغفروا الله ، واستغفر لهم الرسول ، لوجدوا الله توابا رحيما * فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ، ويسلموا تسليما * ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه — إلا قليل منهم — ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيرا لهم ، وأشد تثبيتا * وإذا لآتيناهم من لدنا أجرا عظيما * ولهديناهم صراطا مستقيما * ومن يطع الله والرسول ، فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين . وحسن أولئك رفيقا * ذلك الفضل من الله ، وكفى بالله عليما . »

كانت نهاية الدرس الماضي مشهداً من مشاهد العذاب ، لقوم أوتوا الكتاب ، فكذبوا به ، وقالوا للذين كفروا : هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا . حسدا من عند أنفسهم . فحادوا بذلك عن الحق في حكمهم متأثرين بذلك الحسد الذي يملأ نفوسهم .

وهذا الدرس الجديد يأخذ فى رسم قواعد الحكم ، وقواعد التنظيم الاجتماعى فى السلم والحرب ، ويحدد السلطات ، وينظم الإجراءات فى المجتمع ـ وهو الموضوع الذى يكاد يستغرق ماتبقى من هذه السورة ـ فهو يفتتح هذا كله بضرورة أداء الأمانات إلى أهلها ، والحكم بين الناس بالعدل ، غير متأثر هذا الحكم بهوى ولا بحسد . وبذلك يربط بين أواخر الدرس الماضى وأوائل هذا الدرس . ثم يمضى فى طريق التنظيم العام للمجتمع الإنسانى فى السلم والحرب .

ويحتوى هـذا الدرس على التكليف بأداء الأمانات ، والحكم بين الناس كافة بالعدل ، وطاعة الله وطاعة الرسول وأولى الأمر . ويعرض صورا للمنافقين الذين يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت لا إلى شريعة الله وحكم رسول الله . ويقرر أن الرسل لم يرسلوا ليكونوا مجرد دعاة وهداة ، إنما أرسلوا ليطاعوا ولينفذوا مالديهم من شرع الله . وأن الناس لا يكونون مؤمنين حتى يتقبلوا حكم الشريعة على يدى الرسول بالرضى والتسليم ، وحتى يردوا مايختلفون فيه إلى الله والرسول . ويبشر الطائعين بالأجر العظيم والمستقبل الكريم .. وبذلك يضع الخطوط الرئيسية فى نظام الحكم ، واختصاص السلطات ، ومرد الحاكمين والمحكومين . .

***

« إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل . إن الله نعما يعظكم به . إن الله كان سميعا بصيرا » .

إن هذا النص القصير ليضع القاعدة الأولى لنظام الجماعة البشرية ـ الذى يريده الإسلام ـ كما يضع القاعدة الأولى لنظام الحكم فى هذه الجماعة . .

إن أداء الأمانات إلى أهلها ليشمل أساس الاعتقاد ، وأساس العبادة ، وأساس التعامل ، وأساس العلاقات كلها بين الناس . وإنه ليصعب أن يتقصى الإنسان مدلولات هذا الأمر و « ما صَدَقاتِه » فحسبنا أن نشير فيه إلى الكليات .

إن أول أمانة ترد إلى أهلها هى أمانة الإيمان . فالفطرة البشرية قد أعطيت أسباب الإيمان . بما يربط بين طبيعة البشر وطبيعة هذا الكون من قوانين متحدة ، تعمل معاً فى تعاون وتوافق واتساق . وإن وحدة التكوين ، ووحدة النشأة ، ووحدة المصير ، لتشير كلها إلى وحدة

المشيئة التى صدر عنها الكون ، وصدرت عنها الحياة ، وصدر عنها الإنسان . وفطرة البشر تحس هذه الوحدة بكليتها ، وتتجه إلى الاعتقاد فى إله بطبيعتها . . فهى أمانة إذن أن تحافظ على هذا الإيمان ، فلا تضيعه ، ولا تنحرف عن طريقه . أمانة ترد إلى أهلها . . ترد إلى الله . .

ورد هذه الأمانة لايقف عند حد الاعتقاد الصامت الساكن ، إنما ينسحب على العمل المعبر عن ذلك الإيمان الكامن . فإحسان العمل والسلوك والتوجه بهما إلى الله سبحانه ، واهب الحياة ، وميسر الخير لفاعله ، هو أمانة ترد إلى أهلها فى صورة عمل ، بعد ردها إلى أهلها فى صورة اعتقاد . .

وأمانة التعامل مع الناس . سواء فى مجال الآداب الشخصية ، أوفى مجال المعاملات المادية . هى الأمانة الواقعية المنبثقة عن الأمانة الوجدانية . وهى تشمل مجالى الحياة كلها فى محيط الأسرة ، وفى نشاط الجماعة ، وفى علاقات الأمم والدول والحكومات . . إنها أمانة الفرد للفرد . والفرد للجماعة ، والدولة للدولة . أمانة الحاكم للمحكومين ، والرعية للراعى ، أمانة الزوجين والصاحبين والعشيرين والوالد والمولود .

وكلها ترجع إلى الأمانة الكبرى التى ناطها الله بهذا المخلوق الإنسانى ، وهو يمنحه خلافة الأرض ، ويسلمه قيادها ، ويقول له : اعمل هنا ، وهناك الحساب . .

فأما الحكم بالعدل فالنص يجرده من كل شائبة ، ويطلقه عدلا « بين الناس » لا بين المسلمين ، ولابين أهل الكتاب . . إنه حق لكل إنسان بوصفه إنسانا . فهذه الصفة التى يلتقى فيها البشر جميعا ، أعداء وأصدقاء ، مؤمنين وكفارا ، سودا وبيضا ، عربا وعجما . هذه الصفة وحدها هى منبع هذا الحق ومناطه . والأمة المسلمة قيمة عليها فى هذه الأرض مطالبة بتكاليفها . . وهذا هو نصيبها الزائد فى رد هذه الأمانة ، فالعدل أحد الأمانات الكبرى التى يجب أن ترد للناس جميعا بدون استثناء . . هذا هو نصيبها الزائد : أن تتكفل بتحقيق هذا العدل ، وأن تبذل له التضحيات التى يقتضيها ، وأن تحتمل الآلام الناشئة عن تلك التبعة الثقيلة دون أن يكون لها من العدل إلا ما لسائر الناس !

وذلك هو أساس الحكم فى الإسلام ، كما أن الأمانة المطلقة هى أساس الحياة .

« إن الله نعما يعظكم به » . . ولنقف أمام هذا التعبير لحظة . . إن الأصل أن يقال : إن مايعظكم الله به نعما هو . . ولكن التعبير يقدم لفظ الجلالة فيجعله اسم إن ويجعل نعما ومتعلقاتها كأنها خبر بعد حذف الخبر : ذلك ليوحى بشدة الصلة بين الله وبين هذا الذى يعظهم به . .

ثم إنها لم تكن عظة إنما كانت أمرا . ولكن التعبير يسميه عظة لأن العظة أبلغ إلى القلب ، وأسرع إلى الوجدان ، وأقرب إلى التنفيذ المنبعث عن التطوع لا الإرغام .

« إن الله كان سميعا بصيرا » . . فالقضية هنا قضية سمع وبصر : قضية قضاء وعدالة . وهما فى حاجة إلى الاستماع البصير ، وإلى حسن التقدير ، وإلى مراعاة العوامل والملابسات ، وإلى البحث وراء الحق فى المقولات والقرائن والأحوال .

* * *

وبعد ، فالأمانة المطلقة والعدل المطلق . . ما مناطهما ؟ كيف السبيل إلى تصورهما وتحديدهما ؟ ثم كيف السبيل إلى تطبيقهما وتحقيقهما : هل نترك تحديد الأمانة والعدل إلى تعارف الناس واصطلاحهم ؟ لقد يكون هذا مأمون العاقبة فى بعض الجزئيات التى تعرض فى الحياة ، فأما الأصول الكبرى والحدود الأولى فليس عرف الناس واصطلاحهم بمقياس . فكثيرا ما تنحرف الفطرة ، وكثيرا ما يتحكم الهوى ، وكثيرا ما تختل المعايير ذاتها فتصبح غير صالحة للقياس . أم هل نترك ذلك للعقل البشرى ؟ والعقل البشرى أداة غير ثابتة ، لأنه يتأثر بالأهواء ، ويتأثر بالملابسات ، بل يتأثر بما يطرؤ على الأجسام من آفات ، وبما يكون فى الجو من تقلبات ! وما زال هذا العقل البشرى ينقض اليوم ما أبرمه بالأمس ، ويبرم اليوم ما كان قد نقض . .

إنه لابد من معيار ثابت للأمانة ومعيار ثابت للعدل — على وجه خاص — معيار لا يتأثر بما يحيط بالبشر ، وبما يخالط العقل ، وبما يلابس حياة الناس . .

والإسلام يضع هذا المعيار الثابت فى هذا النص القصير :

« يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم . فإن تنازعتم فى شئ فردوه إلى الله والرسول . إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر . ذلك خير وأحسن تأويلا » . .

وفى هذا النص يضع الأساس الكامل لنظام الحكم فى الإسلام . إن الحاكمية لله وحده . فشريعته هى الدستور الأساسى . والله واجب الطاعة فشريعته واجبة التنفيذ . وعلى الذين آمنوا أن يطيعوا الله ابتداء ، وأن يطيعوا الرسول — بما له من صفة الرسالة — فطاعته إذن هى من طاعة الله الذى أرسله بهذه الشريعة ، وسنته وقضاؤه — على هذا — جزء من الشريعة واجب النفاذ . فأما أولو الأمر فالنص يجعل طاعتهم تبعية — لا أصلية — فلا يكرر لفظ الطاعة عند ذكرهم ،

ليدل على أن طاعتهم مستمدة من طاعة الله ورسوله ، ومن القيام على شريعة الله ورسوله. وليس لهم طاعة فيما وراءها ، لأن الطاعة لهم تبعية لا أصلية ، ومستمدة من أصل ، وليست هي بذاتها أصلا . . ونصوص السنة تتواتر لتوكيد هذا المعنى الذى يشير إليه بناء النص القرآنى . . وقد ورد : « إنما الطاعة فى المعروف »[1] . . « السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره ، ما لم يؤمر بمعصية ، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة »[2] . . « ولو استعمل عليكم عبد يقودكم بكتاب الله اسمعوا له وأطيعوا »[3] .

هذا فيما ورد فيه نص محدد من الكتاب والسنة . فأما ما يقع الخلاف عليه لأن النص ليس قاطعا فيه ، أو لأنه لم يرد فيه نص . . فرده إلى الله ورسوله . أى إلى الأصول الكلية لشريعة الله ورسوله ـ بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ـ وفى هذا المجال وحده يعمل العقل البشرى بالقياس ، وهو مطمئن إلى المعيار الثابت الذى ترد إليه الأمور .

وبهذا يرسى القرآن الكريم قواعد الحكم فى الإسلام على أساسها الركين .

وبهذا يقرر كذلك حدود الإيمان . فمن لم يتبع هذا المنهج فليس متبعا لنهج الإسلام : « إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر » فعلامة الإيمان ومقتضاه اتباع ذلك النهج ، وإقامة الحكم على ذلك الأساس .

«ذلك خير وأحسن تأويلا» ذلك هو الخير وذلك هو الإدراك الأفضل والتفسير الأحسن لمنهج الحكم فى الإسلام ، ولتحقيق الأمانة والعدل فى ذلك النظام .

***

وحين ينتهى السياق من تقرير هذه القاعدة الكلية ، يلتفت إلى الذين ينحرفون عنها ، ويرجعون إلى أصول غير أصولها ، ويتحاكمون إلى غير شريعة الله ، وهم يزعمون أنهم مؤمنون . . يلتفت إليهم بتعجيب الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ من أمرهم ، متضمنا هذا التعجيب تنديدا بمسلكهم ، وتحذيرا لهم من إضلال الشيطان لهم ، وتنبيها للرسول فى شأنهم :

---

(١) فى الصحيحين من حديث الأعمش .
(٢) أخرجه الشيخان من حديث يحيى القطان .
(٣) رواه مسلم من حديث أم الحصين .

ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ، يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت ـ وقد أمروا أن يكفروا به ـ ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا . وإذا قيل لهم : تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا : فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ، ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقا ؟ أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم فى أنفسهم قولا بليغا » .

ألم تر إلى الذين يزعمون الإيمان ، ثم يسلكون غير طريق الإيمان ؟ ذلك إذ يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت . . فالطاغوت إذن هو كل شرع غير شريعة الله ، وكل حكم غير حكمه . . فهو طاغوت من الطغيان ، لأن العدل فيه لا يتحقق ؛ ولأنه لا يحمل مقياسا ثابتا للعدل غير خاضع للهوى والانحراف والضلال . . إنهم يزعمون الإيمان وهم على غير طريقه ، وكذلك كل من يأبى أن يتحاكم إلى شريعة الله ، وكل من يحكم بغيرها كائنا ما كان القانون الذى يحكم به ، مادام لا يستمد من ذلك المعيار الثابت للعدل المطلق فى الحياة . . « وقد أمروا أن يكفروا به » بذلك الطاغوت . بذلك الحكم الذى لا يستمد من ذلك المعين ، ولا يرجع إلى ذلك الأصل الكبير . . وإنهم ليتجهون هذا المتجه ، وينهجون ذلك النهج ، لأن الشيطان رائدهم « ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا » لا يرجعون منه ولا يهتدون .

« وإذا قيل لهم : تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا » . . كان ذلك على عهد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وما يزال هؤلاء المنافقون يعيشون فى أرض الإسلام ، وما يزالون ينفرون ويصدون عمن يدعوهم إلى شريعة الله ، وإلى حكم الرسول . وما يزالون يتحاكمون إلى الطاغوت ، عن جهل مرة وعن هوى مرات !

« فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ، ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقا » . . كيف يكون حالهم وموقفهم منك ، إذا أصابتهم مصيبة ، بسبب انحرافهم عن النهج القويم ، ثم جاءوك يحلفون بالله ما أردنا بالتحاكم إلى سواك إلا الإحسان إلى الناس والتوفيق بينهم ، وإزالة الخلاف ، وفض النزاع ؟

لقد كان هذا يقع على عهد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وما يزال يقع . ما تزال حجة الذين يريدن أن يتحاكموا إلى الطاغوت ، وأن ينحرفوا عن النهج الثابت . . ما تزال حجتهم هى التوفيق وإزالة الخلاف وفض النزاع ! . .

« أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم » .. أولئك يخفون نياتهم الحقيقية ،ويكتمون بواعثهم الأصيلة ، ويحتجون بهذه المعاذير، والله يعلم كوامن الضمائر وما تنطوى عليه الصدور ، ولكن الله لا يدعو الرسول أن يجبههم بما يعلمه الله عنهم . إنما يدعوه أن لا يحفل بهم ، ومع ذلك لا يحرمهم الموعظة والنصيحة :

« فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم فى أنفسهم قولا بليغا » .. لا تحفل باتجاهاتهم ، ولا يهمك شأنهم ؛ ولكن قدم لهم الموعظة . وقل لهم قولا بليغا يبلغ إلى أعماق نفوسهم ، وينفذ إلى قرارة قلوبهم . فقد يهتدون .

والتعبير العجيب : « وقل لهم فى أنفسهم » تعبير مصور . كأنما القول يودع مباشرة فى الأنفس ، ويستقر مباشرة فى القلوب ..

***

« وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله ، ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما . فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ، ويسلموا تسليما » ..

« وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله» .. إن الرسول ليس واعظا يلقى كلمة ويمضى، إن الاحترام الضرورى لكلمة الله التى يحملها الرسول يقتضى أن يضمن الله لهذه الكلمة النفاذ. وما يطاع الرسول لذاته وبذاته ولكنه يطاع بإذن الله وشرعه . فقد جاء الرسول ليطاع لا لتهمل أوامره ، ولا لتكون موكولة لمجرد التأثر الوجدانى . جاء ليبين شريعة الله ويقوم على تنفيذها ، ويأخذ الناس بطاعتها احتراما لأمر الله أن تبتذله الأهواء .

ومن هنا كان الإسلام عقيدة وشريعة ؛ وكان إيمانا فى القلب ونظاما فى المجتمع ؛ وكانت وظيفة خليفة الرسول أن يؤدى مهمة الرسول فى شطرها الثانى ، وهو القيام على تنفيذ الشريعة لتتحقق الطاعة الدائمة للرسول ، كما أراد الله أن تكون .

«ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم » بالانحراف عن المنهج السوى ، والتحاكم إلى الطاغوت ، « جاءوك » مستغفرين تائبين « واستغفر لهم الرسول » ليقبل الله توبتهم .. وهو يظهر هنا لفظ الرسول بدل ضميره ، ليبرز صفته هذه ، وليقرر أنها مناط الرجعة إليه منهم ، ومناط

استغفاره كذلك لهم .. لو أنهم عادوا إلى الله « لوجدوا الله توابا رحيما » يقبل التوبة عن عباده، ويرحم ضعفهم ، ويعفو عن خطئهم ، ويفتح أبوابه دائما للعائدين ..

ومرة أخرى يؤكد أن الإيمان لا يتحقق إلا بسلوك منهجه . وأن التحاكم إلى شريعة الله هى الطريق .. ولكنه فى هذه المرة يوضح صفة هذا التحاكم . فهى ليست مجرد الخضوع القهرى ، إنما هى كذلك الاطمئنان والرضى والقبول : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما » .

إنه اقتناع الوجدان ، واطمئنان الضمير ، وتسليم الرضى بذلك التحكيم ..

كان ذلك حين كان الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يحكم بشخصه . فأما بعد جواره للرفيق الأعلى فشرعته وسنته بعده . ولا وربك ما يؤمن أحد لا يتحاكم إلى شرعته وسنته ، ولا يجد فى نفسه الاطمئنان والرضى والقبول والتسليم .

***

ثم يشير السياق هنا إلى مناسبة كانت حاضرة عند نزول هذه الآيات ، وعند سن هذه القاعدة . فلقد كانت الأحداث التى نزلت فى شأنها هذه الآيات متعلقة ببنى إسرائيل فى المدينة . فالسياق يشير إلى أن هذه الأحكام الإسلامية أقل مشقة من بعض ما كلفت به إسرائيل فى ديانتها. فقد كتب عليهم فى فترة من الفترات أن يقتلوا أنفسهم ليتطهروا (١)، وكتب عليهم أن يخرجوا من ديارهم ليقاتلوا .. وهم كانوا يقولون دائما إذ يدعون إلى حكم الله : إنهم سيرجعون إلى ما عندهم فى التوراة . فالسياق هنا يقول : إنهم لودعوا إلى مثل ما دعتهم إليه التوراة ما أجابوا ـ إلا قليل منهم ـ ولو أنهم استجابوا لدعوة الإسلام ـ وهى أيسر ـ لكان خيرا لهم ،وأشد تثبيتا لإيمانهم ، ولنالوا جزاء طاعتهم خيرا كثيرا :

« ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه ـ إلا قليل منهم ـ ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيرا لهم وأشد تثبيتا ؛ وإذاً لآتيناهم من لدنا أجرا عظيما ، ولهديناهم صراطا مستقيما » .

---

(١) ورد ذكر هذا فى الجزء الأول.

ذلك أن هذا الذى يوعظون به ، إنما هو الصورة الأخيرة لشريعة الله التى نالوا منها طرفا، موقوتا بزمانه وبمكانه ، فمن اتعظ بالصورة الأخيرة ـ وهى أيسر مشقة ـ فقد أطاع طاعة كاملة، وعمـل بالخطة الدائمة ، واطمأن إلى المنهج الأخير .

والتعبير يكرر أنها عظة لتبلغ إلى مكمن العقيدة فى أعمـاق الضمير . ويقرر أن الأجر العظيم «من لدنا» ـ لا من عندنا ـ زيادة فى قرب مصدره من الله، وإيناسا للقلوب بهذا القرب الذى تفيده كلمة « لدن » وتزيد به على كلمة « عند » ليشترك هذا فى لمس الوجدان واستجاشته فى معرض التأثير والإيحاء .

* * *

وفى النهاية تجىء تلك اللمسة الشامـلة لقلوب المؤمنين ، تشوقهم إلى ذلك الأفق الرفيع الحبيب ، الذى يرقى إليه الطائعون لله والرسول :

« ومن يطع الله والرسول ، فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين . وحسن أولئك رفيقا . ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما »

إنه ذلك الأفق الوضىء الذى تتشوف إليه الأرواح ، وتهفو إليه القلوب . أفق الرفقة والصحبة للنبيين والصديقين والشهداء والصالحين .. وها هو ذا على سموقه وارتفاعه ووضاءته فى متناول من يريد .. فما هى إلا طاعة الله والرسول ، فإذا الأفق الشاهق السامى قريب .

إن الطاعة ليست أمرا وليست تكليفا فى هذه المرة، إنما هى وسيلة التسامى إلى ذلك المرتقى، وأداة الوصول إلى ذلك الحمى ، والتقدمة بين يدى ذلك الأمل الحبيب .

« ذلك الفضل من الله » .. فهو جزاء لا يستحقه الإنسان عن جهد ، فما يبلغ الجهد وحده أن يكون هذا جزاءه . إنما هو الفضل من الله يساعف الجهد ، ويضاعف الجزاء .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ ، فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعاً * وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ : قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيداً *

وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ ٱللهِ لَيَقُولَنَّ ـ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ ـ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ، فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيماً .

« فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَاةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْآخِرَةِ ، وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيماً * وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَاءِ وَٱلْوِلْدَانِ ، ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ: رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا ، وَٱجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ، وَٱجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا ؟ * ٱلَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللهِ ، وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّاغُوتِ ، فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ ٱلشَّيْطَانِ ، إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً .

« أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ : كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ ، وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَاةَ وَآتُوا ٱلزَّكَاةَ ؛ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللهِ ، أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ؛ وَقَالُوا : رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ ؟ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ ؟ قُلْ : مَتَاعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ ، وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ ٱتَّقَى ، وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا * أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ ٱلْمَوْتُ ـ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ ـ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا : هَٰذِهِ مِنْ عِنْدِ ٱللهِ ؛ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا : هَٰذِهِ مِنْ عِنْدِكَ . قُلْ : كُلٌّ مِنْ عِنْدِ ٱللهِ ، فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً ؟ * مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللهِ ، وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ؛ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ، وَكَفَى بِٱللهِ شَهِيداً * مَنْ يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللهَ ، وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً * وَيَقُولُونَ: طَاعَةٌ ، فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِي تَقُولُ ، وَٱللهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ، فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللهِ ، وَكَفَى بِٱللهِ وَكِيلًا * أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْآنَ ؟ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ ٱللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ ٱخْتِلَافاً كَثِيرًا * وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ ؛ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ، وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللهِ عَلَيْكُمْ

وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا * فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ، وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ ، عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا، وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا .

« مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا ؛ وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا ، وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتاً * وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا . إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً * اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ، لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ . وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ؟ » .

كان الدرس الماضى درس الأمانة والعدل والطاعة والنظام بصفة عامة ، وفى أمور الحياة كلها ، وفى أساس السلوك الإنسانى ..

فالآن يصل بنا السياق فى هذا الدرس إلى تطبيق لهذه القواعد فى شؤون القتال والجهاد — والأمة المسلمة يومئذ كلها جيش يجاهد فى سبيل الله ؛ وتكاليفها إلى يوم القيامة تعرضها لأن تحمل تبعة الجهاد فى أى زمان .

هنا ينبه المؤمنين أن يأخذوا حذرهم دائما حين يواجهون الأعداء ، وأن يأخذوا حذرهم كذلك تجاه المبطئين والمعوقين — من المنافقين — داخل الجيش الإسلامى .

ثم يثبت قلوبهم على الجهاد ، ويقرر لهم وجهتهم فيه ، فهم لا يقاتلون لأنفسهم ، إنما يقاتلون لنصرة الضعفاء ودفع العدوان ؛ وهم لا يقاتلون عدوا ذا مبدأ أو عقيدة ، فأعداؤهم يقاتلون فى سبيل الطاغوت ، بينما هم يقاتلون فى سبيل الله .

ويندد بقوم كانوا يتحرقون إلى القتال ويطلبونه وهم قلة فى مكة ، فلما كتب عليهم القتال خافوا وودوا أن لو تأخر هذا التكليف ليستمتعوا فترة أخرى بالسلم والرخاء . ويندد كذلك بالمنافقين الذين يظهرون الطاعة للرسول حتى إذا خرجوا من عنده بيتوا أمرا غير الذى أعلنوه . ثم هم يتلقفون الشائعات فيذيعونها دون تدبر ودون تحقق ، لا يرجعون فيها إلى الرسول — صلى الله عليه وسلم — وإلى أصحاب الأمر المسؤولين .

وفى النهاية يتجه الأمر إلى الرسول الكريم أن يمضى فى طريقه مجاهدا لا يعبأ بشىء من هذا كله . والله معه ينكل بالكافرين تنكيلا .

ولكنه لا يختم هذا الدرس قبل أن يدعو إلى السلام وإلى الشفاعة الحسنة — بجانب القتال والجهاد — ويذكر الناس أن الله جامعهم إلى يوم القيامة ، وأن مردهم كله إلى الله ..

* * *

« يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم ، فانفروا ثبات ، أو انفروا جميعا . وإن منكم لمن ليبطئن .. »

إنها الوصية الأولى للمحاربين ، أن يأخذوا حذرهم ، وألا يغفلوا لحظة فيؤخذوا خدعة أو بغتة ، وألا يخرجوا إلى الجهاد حين يخرجون أفرادا يسهل تصيدهم ، أو فوضى يسهل أخذهم . إنما يخرجون جماعات منظمة ، أو ينفرون جميعا وقيادتهم معهم .. وذلك لا ينفى أن هناك أعمالا حربية تستدعى انتداب فرد أو فردين . ولكنه يتحدث هنا عن النفرة للحرب ، أى الخروج العلنى للعمليات الحربية .

انفروا جماعات وفق نظام معين ، أو انفروا جميعا ؛ ولا ينفر بعضكم ويتثاقل بعضكم ، ففى هذا التثاقل تثبيط للعزائم ، وتوهين للخطة ، وإيقاع للاضطراب فى النفوس والصفوف . وخذوا حذركم لا من العدو الخارجى وحده ، ولكن من هؤلاء المعوقين المبطئين المثبطين . سواء كانوا يبطئون أنفسهم — أى يقعدون بها متثاقلين — أو يبطئون غيرهم معهم ، وهى أشد وأنكى . ولفظة : « ليبطئن » مختارة هنا بكل ما فيها من ثقل وتعثر . وإن اللسان ليتعثر فى حروفها وجرسها حتى يأتى على آخرها ، وهو يشدها شدا ، وإنها لتصور الحركة النفسية المصاحبة لها تصويرا كاملا بهذا التعثر والتثاقل فى جرسها . وذلك من بدائع التصوير الفنى فى القرآن الذى يرسم حالة كاملة بلفظة صغيرة [1] .

« وإن منكم لمن ليبطئن ، فإن أصابتكم مصيبة قال : قد أنعم الله علىّ إذ لم أكن معهم شهيدا . ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن — كأن لم تكن بينكم وبينه مودة — ياليتنى كنت معهم ، فأفوز فوزا عظيما » .

---

(١) يراجع فصل « التناسق الفنى » فى كتاب : التصوير الفنى فى القرآن .

هؤلاء هم بكل بواعثهم ، وبكل طبيعتهم ، وبكل أعمالهم وأقوالهم . هؤلاء هم مكشوفين للأعين، كما لو كانوا قد وضعوا تحت مجهر يكشف النيات والسرائر، ويكشف البواعث والخواطر. هؤلاء هم كما كانوا على عهد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكما يكونون فى كل زمان وفى كل مكان . هؤلاء هم الضعاف المنافقون الملتوون الذين لا يعرفون غاية أعلى من مصالحهم ، ولا أفقا أعلى من ذواتهم ؛ فهم يديرون الدنيا كلها على محور واحد وهم هم هذا المحور الذى لا ينسونه فى لحظة من اللحظات !

إنهم يبطئون ويتلكأون ولا يصارحون ، ليمسكوا العصا من الوسط كما يقولون ! فإن أصابت المجاهدين محنة ، وابتلوا ذلك البلاء الذى يصادف المجاهدين فى ثنايا الطريق ، فرح المتخلفون ، وحسبوا أن فرارهم من هذا البلاء نعمة ، لا يخجلون أن ينسبوها إلى الله ، الذى يخالفون عن أمره ، ويقعدون عن نصرة شريعته ! وهى نعمة ظاهرها فيه الرحمة وباطنها من قبله العذاب . هى نعمة عند من لا يدركون لماذا خلقوا ، ولا يتطلعون إلى آفاق أعلى من مواطىء الأقدام فى هذه الأرض كالنمال . هى نعمة عند من لا يحسون أن البلاء فى طريق الجهاد لإعلاء كلمة الله فضل يختص به الله من يشاء من عباده ، ليرتفعوا على ضعفهم البشرى ، ويستشرفوا حياة يملكونها ولا تملكهم ، ويتطلعوا إلى حياة فى الأرض أرفع ، وإلى رضوان من الله أكبر.

فأما إذا كانت الأخرى فانتصر المجاهدون ، الذين خرجوا مستعدين للبلاء ، ونالهم فضل من الله ، بالنصر والغنيمة والرضوان .. ندم المتخلفون أن لم يكونوا شركاء فى معركة رابحة ! وتمنوا أن لو نفروا مع المجاهدين ، لينالوا من الغنيمة وليفخروا بالنصر .. فتلك هى المعانى الهابطة التى تجول فى مثل تلك النفوس .

« ليقولن ـ كأن لم تكن بينكم وبينه مودة ـ ياليتنى كنت معهم فأفوز فوزا عظيما » .. ولم تكن فى حقيقة الأمر بينه وبينهم مودة. ولكن القرآن يتهكم بهذه المودة السطحية . مودة النفاق.التى كانوا يتظاهرون بها ، حتى كشفت الوقائع عنها !

وهكذا يرتسم ذلك النموذج الإنسانى المتكرر فى بنى الإنسان فى كل زمان ومكان . يرتسم فى هذه الكلمات المعدودات والأسطر القلائل . ويبقى شاخصا فى الزمان ، ممثلا فى الواقع وفى الأذهان .

ثم يمضى السياق يحاول أن يرفع هذه الجبلة الهابطة ، وأن يوقظ فيها المعانى الرفيعة . وأن يصور لها الخير الذى ينتظرها لو تركت ما هى فيه من شراء الدنيا بالآخرة ؛ وقاتلت فى سبيل الله ، لا فى سبيل المطامع القريبة :

« فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة . ومن يقاتل فى سبيل الله ، فيقتل أو يغلب ، فسوف نؤتيه أجرا عظيما » .

فليقاتل فى سبيل الله . فالإسلام لايعرف قتالا إلا فى هذا السبيل . إنه لايعرف القتال للغنيمة ولا يعرف القتال للسيطرة ، ولا يعرف القتال للمباهاة . . إن الله يريد أن يتحقق العدل والخير والحق فى هذه الأرض ، وأن يتحقق هذا كله بيد الإنسان ليكون مستحقا لخلافة الله فى أرضه ، ومستحقا لثمرات العدل والحق والخير . فالإنسان لايستمتع بهذه الثمرات ، ولا يعرف قدرها ، إلا إذا بذل فى سبيلها ما بذل من التضحيات . . وذلك سبيل الله الذى لا يعترف للمسلم بالجهاد إلا فيه . فليقاتل فى سبيل الله أولئك الذين يبيعون الآخرة ويشرون بها الدنيا . ليقاتلوا فى هذا السبيل ليرتفعوا عن مستواهم الهابط الذى هم فيه . ليرتفعوا إلى المستوى اللائق بالإنسان خليفة الله فى هذه الأرض . ليقاتلوا ولن تذهب جهودهم وتضحياتهم بلاجدوى أوبدون مقابل . فإن من يقاتل فى هذا السبيل ، بهذه النية ، ولتلك الغاية ثم يستشهد بالقتل ، أو يكتب له النصر والغلبة ، فله فى كلتا الحالتين أجر عظيم . أجر لا يفصله السياق هنا ، بل يدعه هكذا مجملا ، ينطوى على كل ما تنتظره الأنماط المتعددة من نفوس الناس ، من ألوان الأجر فى الدنيا وفى الآخرة سواء .

ثم يلتفت السياق إلى المسلمين . يلتفت من أسلوب الحكاية عن أولئك المبطئين الضعاف المنافقين ، إلى أسلوب الخطاب للذين آمنوا الذين بدأ معهم الخطاب . يلتفت إليهم ليستجيش مروءة نفوسهم ، وحساسية قلوبهم تجاه المستضعفين من الرجال والنساء والولدان ، الذين يقاسون المظالم والهوان ، والذين يتطلعون إلى الخلاص وهم ضعاف ، والذين يدعون الله أن يخرجهم من قبضة الظلم ومن دار العدوان : (١)

---

(١) كان ذلك خاصا بمن بقى فى مكة من مستضعفى المسلمين . وهى حال تنطبق على كل مسلم مستضعف فى أى أرض وفى أى زمان .

« وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان ، الذين يقولون : ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها ، واجعل لنا من لدنك وليا ، واجعل لنا من لدنك نصيرا ؟ » . .

ما الذى يمكن أن يقعدكم عن القتال فى سبيل الله ، واستنقاذ هؤلاء المستضعفين من الرجال والنساء والولدان ؟ هؤلاء الذين ترتسم صورهم فى مشهد مثير للنخوة ، وللكرامة ، ولعاطفة الرحمة فى آن ؟ هؤلاء الذين يتوجهون إلى الله ، ولا ناصر لهم سواه .. فلتكونوا أنتم رسل النجدة ، بجهادكم فى سبيل الله .

ومشهد المرأة الكسيرة والوليد الضعيف ، مشهد مؤثر مثير . لا يقل عنه مشهد الشيوخ المستضعفين ، الذين لا يملكون أن يدفعوا ، ووقار السن يزيد مشهد الضعف تأثيرا فى النفوس .. وهذا المشهد كله معروض فى مجال الدعوة إلى الجهاد . وهو وحده يكفى . فهو لذلك لا يدعوهم دعوة مباشرة . بل يفرض أن المشهد بذاته يدعوهم ، ويسأل فقط : ما الذى يعوقكم عن الاستجابة لهذه الصرخات ؟ وهو أسلوب عميق الوقع بعيد الغور فى مسارب النفوس .

ثم .. لمسة نفسية أخرى لا تقل عن هذه الأولى ..

إن اقتناع المقاتل بأنه يقاتل للحق ولغاية نبيلة ، وبأن عدوه معتد أو يبتغى غاية خسيسة . . عامل قوى فى رفع قواه المعنوية ، وفى إقدامه على التضحية باطمئنان . فإذا أضيف إلى هذا الاقتناع أنه ليس على الحق فقط ، إنما هو كذلك أقوى ، وسنده أكبر ، وذخيرته أوفر ، وأن عدوه موهون القوى ، منخوب القلب ، مستند إلى هواء .. فإن هذه الروح المعنوية ترتفع إلى ذروتها بهذا الإيحاء . فإذا كان هذا الإيحاء قائما على حقيقة فى الواقع القريب ، وفى حساب الكون البعيد ، فإن النصر مقطوع به للمجاهدين المحقين الأقوياء .. وكذلك يعرض القرآن موقف الذين آمنوا وأعدائهم فى هذا السياق :

« الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله ؛ والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت . فقاتلوا أولياء الشيطان . إن كيد الشيطان كان ضعيفا . »

وفى لحظة ترتسم الأهداف ؛ وتتضح الخطوط فى الميدان ؛ ويقف الذين آمنوا تحت راية الحق المطلق « يقاتلون فى سبيل الله » لإقرار شريعته ، وتحقيق عدله الذى مر وصفه ، وأداء الأمانة التى بدأ بها السياق كله . ويقف الذين كفروا تحت راية الباطل المطلق « يقاتلون فى

سبيل الطاغوت » لتغليب الباطل على الحق ، والطغيان على العدل ، معرضين عن الأمانة التى ناطها الله بالإنسان فى الأرض .. يقف المسلمون مستندين إلى قوة الله وحمايته ورعايته . ويقف الكافرون ووليهم الشيطان .. فأين قوة الشيطان من قوة الله ؟ وأين كيد الشيطان من تدبير الله ؟ « فقاتلوا أولياء الشيطان . إن كيد الشيطان كان ضعيفا » .

إن مصير المعركة معروف ، ونهايتها مكشوفة .. فما على المؤمن إلا أن يؤدى واجبه . والنصر مضمون ، تشهد به جميع الملابسات والظروف .

وعند ما ينتهى السياق من عرض الموقف فى هذه الصورة الحاسمة الواضحة الخطوط .. يلتفت إلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بل إلى كل أحد ، يعجّبه من قوم كانوا يطلبون أن يؤذن لهم فى القتال ـ فى وقت كانت الحكمة تقتضى الصبر حتى تتعادل الكفتان أو تتقاربا ، فقيل لهم : « كفوا أيديكم » واصبروا ، « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » وانتظروا أمر الله :

« ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » ..

فما أعجب هؤلاء القوم وقد جاءت اللحظة التى يرتقبونها ، وقيل لهم : الآن جاهدوا والقوا الأعداء :

« فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية » ..

وخشية الله هى الدرجة القصوى التى يستشعرها قلب إنسان ، فكيف وهم يخشون الناس أشد منها ؟ !

« وقالوا : ربنا لم كتبت علينا القتال ؟ لولا أخرتنا إلى أجل قريب ؟ »

إنها صورة زرية ـ فوق أنها عجيبة ـ صورة هذا الخوف وهذا الفزع ، وهذا العتاب المتخاذل المرتجف ، وممن ؟ من قوم كانوا يطلبون الإذن بالقتال ، وكانوا يُكفون كفا عن القتال !

هنا يتلقاهم القرآن بالبيان أولا . ثم بالتأنيب أخيرا . يبين لهم أولا حقيقة متاع الدنيا الذى يتشبثون بالحياة من أجله ، ويخافون أن يموتوا ويتركوه ؛ ويبين لهم أن الموت والحياة بيد الله ، وأن الحذر لا يجدى . وأن الجبن لا يطيل الحياة .. ثم يكشف أخيرا عن سوء إدراكهم وفساد تصوراتهم للحياة كلها بجملتها ، وما يقع للناس فيها ، وما يصيبهم من خير أو شر فى ثناياها ، ويصمهم بأنهم لا يكادون يفهمون شيئا :

« قل : متاع الدنيا قليل ، والأخرة خير لمن اتقى ، ولا تظلمون فتيلا . أينما تكونوا يدرككم الموت ، ولو كنتم فى بروج مشيدة .. وإن تصبهم حسنة يقولوا : هذه من عند الله ، وإن تصبهم سيئة يقولوا : هذه من عندك . قل : كل من عند الله . فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا ؟ »

«قل : متاع الدنيا قليل» .. قليل فى زمنه ، قليل فى مقداره ، قليل فى حقيقته . « والآخرة خير لمن اتقى » والتقوى تجىء هنا فى وقتها المناسب وفى موضعها المناسب ، لتدل هؤلاء الخائفين المفزعين على الموضع الذى تحسن فيه التقوى ، والجانب الذى تكون تقواه مبعث تكريم للإنسان لامبعث هوان .. إنها تقوى الله . والآخرة خير لمن اتقاه · خير من متاع الدنيا القليل ، ففيها متاع طويل ، ومتاع جميل ، ومتاع أصيل . «ولا تظلمون فتيلا» .. فلا خوف من غبن فى الدنيا ولا فى الآخرة قليل أو أقل من القليل .

« أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة » :

والموت وراءكم ، سواء جاهدتم أم قعدتم . فلا كان الجبن والجبناء . والجبن لا يعصمهم من الموت الذى يتبع خطى البشر كالمارد الجبار ، ويدركهم ولو كانوا فى بروج مشيدة . فلا يعصمهم منه عاصم ، ولا يقيهم منه واق .

يبين لهم هذا البيان ، ويكشف لهم عن حقيقة الموت والحياة .. ثم يمضى فى كشف تصوراتهم ومافيها من فساد ، يتفق مع هذا الخوف ، ويتسق مع هذا المقال . إنهم يريدون أن يلمزوا الرسول - صلى الله عليه وسلم - بأنه مشؤوم عليهم . فإذا لقوا خيرا من نماء فى الزرع ، أورواج فى التجارة ، أو نصرا فى حرب قالوا : هذا من عند الله · أما إذا أصابهم مايسوءهم من هذا كله أو من سواه ، فإنهم يقولون : هذا من شؤم محمد ، أو بسبب إشارته أو أوامره أو خططه !

إنه سوء التصور للوقائع والأسباب ، وسوء إدراك لعمل الرسول وعمل الله .. « قل : كلٌ من عند الله» .. وكل مايقع فى هذه الأرض ، وكل مايصيبهم من خير أو شر ، راجع إلى الناموس الذى وضعه الله للكون ، وللسنة التى لا تتخلف ولا تتغير : «فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا» ؟ !

والأمر المعروض هنا ليس حديثا ، إنما هو قضية الموت والحياة ، وقضية النعمة والبلاء ،

وقضية مشيئة الله ومشيئة الإنسان .. ولكن النص يقول : « فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا » لأن قولتهم تلك تدل على جهالة عميقة ، حتى لكأنهم لا يفقهون حديثا ـ أيّ حديث ـ فهم لا يفقهون حتى وسيلة عرض القضية ، وهى الحديث !

وإن صورة من الغباء والاستغلاق والبهامة لترتسم شاخصة من خلال هذا التعبير . « فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا ؟ ! »

فإذا رد عليهم هذا الرد المشخص المصور عاد يفصل قضية النعمة والبلاء ، وقد قرر من قبل أنهما راجعان إلى الله وإلى سنته فى الحياة . فالآن يقرر أن :

« ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك » ..

فكيف يتفق هذا وذاك ؟

إن الجهة غير متحدة فى النصين. إن النص الأول يقرر أن كل ما يقع فى الكون من الأحداث مصدره الله . وقد قلنا من قبل : إن الله خالق هذا الكون ، وجعل له ناموسا خاصا ، وسنة لا تتخلف ولا تتبدل . فكل ما يقع فى هذا الكون محكوم بذلك الناموس جار على هذه السنة . فهو إذن وفق مشيئة الله .

هذه المشيئة اقتضت أن يكون للإنسان إرادة تختار الطريق الذى يؤدى إلى الحسنة أو الطريق الذى يؤدى إلى السيئة ، فحين يختار الطريق الأولى يرضى الله عنه ويحقق له الخير الذى قصد إليه ، فتكون الحسنة التى تصيبه من الله . وحين يختار الطريق الثانية يبعد عن الله فتصيبه السيئة وتكون هذه من عنده .. وكلتاهما فى النهاية من عند الله ، لأنهما تجريان على سنته ، ووفق مشيئته ، ومشيئته هى التى جعلت هذه السنة نافذة .

وإذن لا يكون هناك تعارض بين النصين لاختلاف الجهة فيهما كما رأينا .

« وأرسلناك للناس رسولا . وكفى بالله شهيدا » .

وفى حدود الرسالة تنحصر مهمتك ، فليس ما يصيبهم من النعمة ولا ما يصيبهم من البلاء داخلا فى حدود هذه الرسالة . إنما هو من أمر الله وعمل الله . « وكفى بالله شهيدا » مطلعا على ما يعملون وما يصيبهم جزاء عملهم . وعلى ما يواجهونك به وما أنت إلا رسول .

فإذا فصل بين مجال عمل الله ، وحدود اختصاص الرسول .. عاد ليقرر الأصل الاعتقادى ، والأصل التشريعى فى الإسلام ، وهو أن طاعة الرسول من طاعة الله ، وأنها فريضة تقوم على

صفة الرسالة واستمدادها من الله . ثم ليقرر من جديد أن وظيفة الرسول هى الرسالة وتكاليفها. فمن تولى عنها فهو ومصيره . وما الرسول عليه بحفيظ ولا رقيب مكلف أن يحفظه من التولى ولا من سوء المصير:

« من يطع الرسول فقد أطاع الله . ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا »

فالطاعة إذن للرسول لا فكاك منها لمن يريد أن يكون مؤمنا بالله . . ولكن أولئك القوم الذين سلف الحديث عن بعض تصرفاتهم وبعض تصوراتهم يظهرون الطاعة ، ويبيتون المعصية :

« ويقولون : طاعة . فإذا برزوا من عندك ، بيت طائفة منهم غير الذى تقول . والله يكتب ما يبيتون . فأعرض عنهم وتوكل على الله . وكفى بالله وكيلا »

يقولون طاعة . . والتعبير هنا يوحى بأنهم يظهرون منتهى الطاعة ، بحيث يلخص ردهم كله فى كلمة : « طاعة » كأن لم يقولوا سواها لشدة تظاهرهم بمدلولها . . حتى إذا خرجوا من مجلس الرسول — صلى الله عليه وسلم — راح جماعة منهم يبيتون ، والمقصود أنهم يدبرون فى خفية كالذى يدبر فى الليل والظلام . راحوا يبيتون غير الذى قالوا ، ويرتبون كيف لا ينفذون ما اتفقوا عليه .

وبينما هم فى تبييتهم وفى ظلمتهم ، يظنون أنفسهم فى خفية ، إذا النص يفاجئهم بأن الله معهم يكتب ما يبيتونه فى الظلام ! والتعبير هنا يرسم صورة . صورتهم يتخافتون ويمكرون بينما التسجيل الكتابى يحصى عليهم كل ما يخفون ! وهى صورة مخيفة من جانب وداعية إلى السخرية من غفلتهم من الجانب الآخر .

وما دام الأمر كذلك فلا عليك منهم ، ولا داعى لأن تحفلهم . « فأعرض عنهم وتوكل على الله » والله يكفيك شرهم ، والله وكيل عنك ضدهم « وكفى بالله وكيلا » .

« أفلا يتدبرون القرآن ؟ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » . .

ومجىء هذا النص هنا بعد النص على أن طاعة الرسول من طاعة الله ، وبعد ذكر أن هؤلاء القوم يقولون طاعة ثم يبيتون غير ما يقولون . . يوحى بأن تصرفهم هذا مبنى على ظنهم أن الرسول يشرع لهم من عند نفسه — وإذن تجوز معصيته — وأن هذا القرآن الذى يتضمن الشرائع والتكاليف إنما هو من عند محمد ومن صنعه : لذلك يسألهم فى استنكار أن يتدبروا القرآن . فلو تدبروه لعلموا أنه من عند الله . «ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا» .

إن النسق فى هذا القرآن يوحى بوحدة مصدره ، وباستواء هذا المصدر . سواء فى ذلك نسق التعبير ، أو نسق التقدير .

فهذا المستوى الفائق فى تعبيره ، والتناسق الفنى فى تصويره ، واستواء هذا التناسق فى مستوى واحد غير متفاوت .. يقطع بأنه ليس عملا إنسانيا . فالإنسان لا يستوى على أفق معين فى كل أحواله . ولابد من ارتفاع وانخفاض ، ولابد من ضعف وقوة ، فى أحوال الإنسان . (١)

كذلك نسق التقدير . الفكرة الواحدة المطردة ، الكامنة وراء كل تشريع وكل توجيه . التى تلتقى عندها الشعائر التعبدية بالوجدانات الاعتقادية ، بأصول السلوك بقواعد التشريع .. هذا النسق لا يطرد هكذا فى عمل بشرى على الإطلاق ، ولا فى تفكير بشرى على الإطلاق . (٢)

« ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » .. اختلافا فى المستوى سواء فى التعبير أو التقدير . واختلافا فى الفكرة الكلية التى تتمشى فى كل جزئية تمشيا مطلقا . والقرآن شاهد بذاته — من هذه الناحية — على أنه يستحيل أن يكون من عند غير الله . ولكن الأمر فى حاجة إلى تدبر وفقه وفهم لإدراك هذه الأسرار التى لا تبدو إلا للمتدبر الفاقه البصير . لذلك يدعوهم إلى التدبر لا إلى مجرد النظر الذى لا يغنى عن عمق التفكير .

ثم يعود السياق إلى القوم يكشف عن سلوكهم ، الناشىء عن اضطراب طبيعتهم ، فإذا هم قوم خفاف ؛ يتلقفون كل ما يسمعون ، فيملأون به الدنيا أقاويل وإشاعات ، لا يكلفون أنفسهم التثبت من صحتها ، ولا يسألون أنفسهم ماذا وراءها ، ولا ماينشأ عن الإذاعة بها ، ونشرها فى وسط الجماعة وهى مشتبكة فى قتال ، أو وهى تتهيأ للقتال . ثم يدل على المنهج الواجب فى مثل هذه الأحوال :

« وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ؛ ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم » .

إن سلاح الإشاعات ليس جديدا فى هذه الأيام ، وحرب الأعصاب ليست من مبتكرات هذا العصر . وهاهو ذا القرآن يندد بالقوم : « إذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به »

---

(١) يراجع بتوسع فصل : « التناسق الفنى » فى كتاب التصوير الفنى فى القرآن .
(٢) أرجو أن يوفق الله إلى إخراج كتاب : « فكرة الإسلام عن الكون والحياة والإنسان » لتفصيل هذا الإجمال .

فإن أخبار النصر وأخبار الهزيمة. أخبار الاستعداد من هنا أو من هناك. أخبار الكر والفر فى المعركة. أخبار المؤن وطرقها ومقدارها ... قد لا يرى من لا يعلم ضررا فى إذاعتها. بينما يتسقط العدو كل جزئية صغيرة ليؤلف من مجموعها علما يقينيا أو خيطا يقوده إلى العلم بأسرار عدوه. وقد تتخذ وسيلة لبث الذعر، أو إشاعة الفوضى، أو التثبيط والتخذيل، أو الاعتماد الكاذب على كفاية الجند أو العدة أو الذخيرة أو المؤن فى جهة من الجبهات، وهى ضعيفة... ومن ثم فالخطة المثلى هى أن لا يسمع الإنسان كل ما يقال. وحتى إن سمعه لا يذيعه. إنما يرده إلى أهل الخبرة الذين يقدرون قيمته أولا من ناحية الصدق والكذب، ويقدرون قيمته من ناحية ما يذاع وما لا يذاع، ويفيدون منه ويدفعون ضرره.

« ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم » .. لعلموه علما أكيدا، بدل الجهد فى الاستنباط والتأويل على غير علم ولا أساس؛ ولاستراحوا من هذا العناء، وعرفوا وجه الحق فيه من أهل الذكر وهم مستريحون مريحون.

« ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلا » ..

فسبيل الشيطان هو سبيل الرجم بالغيب، والظن الذى لا يقوم على يقين، والأخذ بشوارد الأقاويل التى تفضى إلى المتاهة فى الظنون .. ولولا فضل الله عليكم ورحمته، بالتوجيه إلى النهج القويم، وبتثبيت القلوب والعقول، لطرتم وراء الأقاويل كل مطار، ولضللتم فى شتى المسالك والمهالك بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير.

وعند ما ينتهى السياق من عرض سلوك القوم، ويكشف كذلك عن النهج القويم فى مثل هذا الموقف، ويقرر أن فضل الله ونعمته هى التى تحرسهم وتبعدهم عن طريق الشيطان، وتمسكهم على التثبت واليقين ..

عندئذ يلتفت إلى الرسول — صلى الله عليه وسلم — يقول له:

« فقاتل فى سبيل الله، لا تكلف إلا نفسك، وحرض المؤمنين. عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا، والله أشد بأسا، وأشد تنكيلا ».

أما وذلك مسلك أولئك القوم. وهذا هو النهج القويم الذى تتبعه أنت ويتبعه المؤمنون بفضل من الله ورحمة منه .. فدعك من القوم إذن وانهج نهجك المهدى، وقاتل فى سبيل الله،

مؤديا واجبك ، غير ملتفت إلى من ينكل عن واجبه .. قاتل فى سبيل الله ـ فلست مكلفا إلا نفسك تقوم عليها حتى تؤدى واجبها ـ وواجبك أن تقاتل فى سبيل الله وأن تحرض المؤمنين على القتال ، فإذا أديت ما عليك فدع الباقى لله . « عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا » . . عسى .. أى افعل هذا راجيا بعملك أن يكف الله بأس الذين كفروا .. « والله أشد بأسا وأشد تنكيلا » فلتطمئن إذن إلى العاقبة ، مادمت قد أديت واجبك ووكلت العاقبة لله .

وإن هذا لهو دستور النصر ـ كما تقرره سنة الله ـ لابد أن يؤدى البشر واجبهم ، قبل أن يتوجهوا إلى الله بدعاء أو رجاء ، وقبل أن يدعوا الأمر لله .. إنهم يعملون وهم موقنون أن الأمور كلها بيد الله ، وأن النجاح معقود بيمين الله ، ولكن الله قد كلفهم أن يعملوا ، وأن يبذلوا ما فى طوقهم . فلابد من طاعة لله فى تكليفه ، تجعلهم مستحقين لنصر الله واستجابته . والذى لاينفذ الأوامر ، ولا ينهض بالتكاليف ، لا ينتظر أن يسمع الله حين يدعوه ، أو يرجوه ، فالطاعة هى عربون الاستجابة .. وعلى هذا الأساس يعمل الإنسان غير مغتر بعمله ، ويتكل على الله ، غير متواكل فى اتكال .

* * *

تلك صفحة القتال ، بما فيها من طاعة للأوامر ، ونهوض بالتكاليف ، وإخلاص فى الأداء ، وتثبت من كل خبر ويقين ، واعتماد على الله بعد النهوض بالتكاليف ، وثقة فى النصر ، بعد هذا وذاك ..

فلا يدع السياق هذه الصفحة مفتوحة ، ولا ينتقل إلى الصفحات التى تليها والتى هى منها بسبب ، قبل أن يفتح الصفحة الأخرى فى كتاب الإنسانية . صفحة الود والتعاون والسلام :

« من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ، ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها وكان الله على كل شىء مقيتا . وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها إن الله كان على كل شىء حسيبا »

فليشفع الإنسان الشفاعة الحسنة ؛ ليصل خيرا إلى من يستحق الخير ، غير مضار لبرىء ، أو مضيعا حقا على صاحب حق ، أو معطلا لحد من حدود الله . فهذه هى الشفاعة الحسنة التى تنفع ولا تضر . وليتق الشفاعة السيئة التى تؤدى إلى أكل مال بالباطل ، أو تعويق صاحب

مكان عن مكانه ، أو إهدار لحرمة من حرمات الله والناس . فإن لصاحب الأولى نصيبا طيبا من شفاعته ، ولصاحب الأخرى وزرا يحتمله من سيئته . « وكان الله على كل شيء مقيتا » يطعم المحسن من حسنته والمسيء من سيئته ، ليذوق كل منهما ما كسبه وما جناه . لذلك اختار التعبير كلمة « مقيت » من القوت ، ليكون التذوق المباشر هو الجزاء للثمار الحلوة والمرة على السواء .

وإذا كنتم تقاتلون من يسيء ، وتنكلون بمن يعادى .. فلتحيوا من يحييكم ، ولتنشروا السلام حيثما أمكن السلام : « وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها » تشجيعا على إفشاء السلام ، وتأليفا للقلوب ، وجزاء على المحاسنة بأكثر منها . وليكن لنفوسكم فى هذا أنس من وحشة الحروب ، واطمئنان من حذر القتال ، وهدوء من مشقة الجهاد .. والله حسيب على كل شيء ، يحاسب على الكلمة ونيتها ، وعلى ردها وما وراءه .. وكلمة « حسيبا » تناسب من الناحية الظاهرة تلك العملية الحسابية بالزيادة وبالمثل فى : « فحيوا بأحسن منها أو ردوها » زيادة على المعنى النفسى الكامن فى السياق .

وينتهى ذلك الدرس بصفحتيه . صفحة القتال وصفحة السلام .. ينتهى إلى تلك الآصرة الواحدة التى تربط بين بنى الإنسان جميعا ، والتى تربط بين الدنيا والآخرة ، وبين العمل والجزاء .. الآصرة فى الله الواحد ، الذى يرجع إليه الجميع ، ويتجمع بين يديه الجميع : الله الذى يعد بالنصر فيتحقق ، ويعد بالجزاء فلا يخلف . ومن أصدق من الله حديثا :

« الله لا إله إلا هو ، ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ومن أصدق من الله حديثا » ؟

« فَمَا لَكُمْ فِى الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ ، وَاللهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا ؟ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللهُ ، وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً ؟ * وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا ، فَتَكُونُونَ سَوَاءً ؛ فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِى سَبِيلِ اللهِ ؛ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ، وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا * إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ ، أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ ؛ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ ؛ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ

يُقَاتِلُوكُمْ ، وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ ، فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا * سَتَجِدُونَ
آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ ، كُلَّمَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا ؛
فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ ، وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ
ثَقِفْتُمُوهُمْ ، وَأُولَٰئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا .

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا ـ إِلَّا خَطَأً ـ وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ
رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ ، وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ ـ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا ـ فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ
وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ ؛ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ
مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ ؛ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ . تَوْبَةً
مِنَ اللَّهِ ، وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا
فِيهَا ، وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا ؛ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ
أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا ، تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ
كَثِيرَةٌ ، كَذَٰلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا . إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا
تَعْمَلُونَ خَبِيرًا .

« لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ـ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ ـ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ . فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ، وَكُلًّا
وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ، وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا * دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً
وَرَحْمَةً ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا * إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ ، قَالُوا :
فِيمَ كُنْتُمْ ؟ قَالُوا : كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ . قَالُوا : أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً
فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ؟ فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ، وَسَاءَتْ مَصِيرًا * إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ
وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ ، لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً ، وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا * فَأُولَٰئِكَ

عَسَى اللهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ ، وَكَانَ اللهُ عَفُوًّا غَفُورًا * وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ؛ وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ، ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ ، فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ ، وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا .

« وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ - إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا - إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا * وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ ، فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ ، فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ ، وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ ، فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ ، وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ ، وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ . وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ ، فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً . وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى ، أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ ؛ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ . إِنَّ اللهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا * فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ ؛ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ . إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا .

« وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ . إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ؛ وَتَرْجُونَ مِنَ اللهِ مَا لَا يَرْجُونَ ، وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا » .

كان الدرس الماضى درس النظام والطاعة فى زمن القتال ، مع التعاون والمودة بين المؤمنين . وقد انتهى برد الناس جميعا إلى الله الواحد ، الذى لا يكذب حديثه ، ولا يخلف وعده .

وهذا الدرس الجديد يبدأ بموضوع ذى علاقة قوية بالنظام ، فهو يستنكر أن ينقسم المؤمنون إلى فئتين ورأيين فى معاملة المنافقين ، الذين دار عليهم الحديث فى الدرس الماضى .

ثم يقرر الأحكام الواضحة فى معاملتهم ، وفى معاملة سواهم من الطوائف التى تواجه المسلمين .
فمنهم من يجب قتاله وقتله ، ومنهم من يجب تركه ومسالمته .

ثم يقرر حرمة قتل المؤمنين بعضهم بعضا . فإن كان ذلك عن خطأ فهو يبين طريقة التكفير ومقدار الديات . وإن كان عن عمد ، فتلك هى الكبيرة التى لا تغتفر .

ويدعو إلى التحرز فى مواجهة الآخرين بالقتال والقتل ، حتى لا يقع المسلمون فى خطيئة قتال من أسلموا ، فلا بد من التبين والتأكد .

ومن ثم يستطرد لتمجيد المجاهدين والمهاجرين فى سبيل الله ؛ وتقبيح المتخلفين ، الذين لا يفرون بدينهم إلى الله .

وبمناسبة الجهاد يمنح المجاهدين رخصة القصر فى الصلاة ؛ ويبين لهم كيف يؤدون صلاة الجماعه فى وقت الخوف ، وفى وقت الأمن .

ثم يحثهم على مواصلة الجهاد ، ويشجعهم على المضى فيه ، على الرغم من آلامهم. فإن أعداءهم يألمون كذلك . ولكن المؤمنين يرجون وجه الله ، والكافرين لا يرجون شيئا ، فالذين آمنوا أولى بالمصابرة والمضى ، حتى يحققوا كلمة الله ، ويلقوا منه ما يرجوه المجاهدون الصابرون.

***

« فما لكم فى المنافقين فئتين ، والله أركسهم بما كسبوا ؟ أتريدون أن تهدوا من أضل الله ، ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا ؟ »

قيل : نزلت هذه الآية والآيات التى بعدها فى طائفة من المنافقين تظاهروا بالإسلام ليدخلوا المدينة ، ويقضوا حاجاتهم مع المسلمين ، ثم خرجوا فارتدوا إلى الكفار . وقد انقسم المسلمون فى الحكم عليهم إلى فئتين : فئة ترى أنهم مسلمون بإعلانهم للإسلام ، وفئة ترى أنهم كافرون بارتدادهم إلى الكفار .. فجاء القرآن يستنكر هذا الانقسام فى الرأى ، ويبين للمسلمين عن حقيقة القوم ، وأنهم منافقون أوقعهم الله بسبب أعمالهم ونياتهم ، فسقطوا فى هاوية الكفر والضلال ؛ وينكر على المسلمين أن يحاولوا هداية هؤلاء الضالين بعد ما انتهوا إلى طريق الضلال ، ولم يعد هنالك رجاء من عودتهم إلى الهدى ، فإنهم لما بيتوا النية السيئة ، وحادوا عن الاستقامة والأمانة ، حقت عليهم سنة الله ، فى إضلال من يسلك طريق الضلالة ، فلم يعد أحد من البشر بقادر على إخلاف سنة الله ، وتحويلها ووقف مفعولها :

إن مشيئة الله اقتضت — كما ذكرنا مرارا — أن من يختار لنفسه طريق الهدى ، ويتبع النور الذى وضعه الله فى هذا الطريق ، برسالة الرسل ، وبهداية العقل ، وباستعداد الفطرة . . فإن الله يهديه وييسر عليه الوصول . وأن من يختار طريق الغواية، ويحجب عن بصيرته النور ، ويهمل وحى عقله وهداية الرسل ، ويبعد فى هذا الطريق .. فإن الله يدعه فى طريقه، فيضل.. ولا يملك أحد أن يوقف هذه السنة الإلهية عن العمل : « ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا »

وقيمة تقرير هذه الحقيقة هى إثارة اليقظة فى ضمير الإنسان ، ليسأل نفسه دائما : فى أى طريق يسير ؟ وليحاول دائما ألا يغفل وألا يستنيم على شهواته ودفعاته وغواياته ؛ وأن يكبح جماحها ويعود إلى الطريق السوى كلما انحرف عن الطريق ؛ وألا يعتمد على أن ما قدر له من هداية أو من غواية لا بد أن يكون . فإنه لا يدرى ما قدر له . ولا بد إذن من أن يحاول بنفسه . فسنة الله التى لا تتخلف قد شاءت أن تكون له القدرة على اختيار الطريق . فأيما مصير اتجه إليه فهو تحقيق لمشيئة الله ، التى وهبته القدرة على الاختيار ، ثم كلفته أن يختار .

ولقد نوت هذه الطائفة من المنافقين الشر ، وبيتت الخديعة ، وكان أمامها أن تؤمن إيمانا صادقا ، وأن تلحق بركب المسلمين ؛ ولكنها حادت عن هذا النهج ، واختارت الضلال ، فحق عليها الضلال ، ونفذت فيهم إرادة الله الأزلية : أن من يسلك هذا الطريق يضل ولا يعود ..

« ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء » ..

تلك غايتهم ، وتلك أمانيهم ، وهذا ما يريدونه للمؤمنين ويبيتونه ، وهو شر ما يريده قوم بالمؤمنين . فهم إذن لا يستحقون أن يختلف المسلمون فى أمرهم ، وأن يلتمسوا المعاذير لهم ، وأن يحاولوا ردهم إلى الهدى ، وقلوبهم تحتوى هذه النية الخبيثة ، فهم ليسوا بغافلين ، ولا مخطئين . إنما هم خاطئون مبيتون للشر ، عامدون .

« فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا فى سبيل الله . فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم . ولا تتخذوا منهم وليا ولا نصيرا »

وكيف يتخذ منهم المسلمون أولياء ونصراء ، وهم يبيتون لهم هذا الشر العظيم ؟ إن ائتمانهم وفى نفوسهم هذه النية السيئة هو استسلام للخديعة ، وتمكين للمؤامرة ، فما يجوز أن يأمنهم المسلمون « حتى يهاجروا فى سبيل الله » ويقطعوا ما بينهم وبين الكفر والكفار من صلة ،

وينحازوا إلى وطن الإسلام والمسلمين . « فإن تولوا » فذلك الدليل المادى على أنهم لا يريدون إلا الشر علانية . « فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم » دفعا لهـذا الشر الذى استعلن من إبائهم الهجرة إلى المسلمين . الهجرة البريئة فى سبيل الله لا فى سبيل المصلحة أو فى سبيل الخديعة « ولا تتخذوا منهم وليا ولا نصيرا » لأن العدو لا يكون وليا ، والشانىء لا يكون نصيرا .

ولم يكن هذا الحكم هو حكم المنافقين بوجه عام . فلقد كان المنافقون يعيشون فى المدينة ، بين ظهرانى المسلمين ، وكان المسلمون مأمورين أن يقبلوا منهم ظاهر إسلامهم متى أعلنوه . إنما هو حكم خاص بهذه الفئة ـ فيما يبدو ـ لأنهم ليسوا من أهل المدينة ، إنما دخلوها متظاهرين بالإسلام لغرض معين ، ثم خرجوا فانضموا إلى الكفار . فهم إذن خطر إذا تركوا يدخلون ويخرجون . فتقرر هـذا الحكم بخصوصهم . وهو القتل حيثما وجدهم المسلمون . أما أهل المدينة ، فإن شرهم على أية حال أخف ، لأنهم بين أيدى المسلمين فى كل وقت ، هم وأموالهم ومساكنهم . فالاحتياط قائم . ومن ثم يكتفى منهم بإعلان الإسلام ، وترك النوايا لله . لأنها غير ظاهرة للناس . فاما أولئك الذين دخلوا ثم خرجوا ، فنيتهم ظاهرة ، فإذا دعوا إلى الهجرة فى سبيل الله فأبوا . فذلك إذن هو اليقين .

ثم يستثنى النص ـ حتى من هؤلاء ـ من تكون بينهم صلة وبين قوم عقد المسلمون معهم ميثاقا بعدم الاعتداء . فهذا الميثاق يمنع المسلمين لا من القتال معهم فحسب ، بل مع من يعاهدهم كذلك ، ولو كان من أولئك المنافقين :

« إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق »

وهكذا تحول المواثيق بين المسلمين وبين قتال من يتعاهدون معهم ، حتى عندما يكون هناك احتمال الضرر للمسلمين . ما دام الميثاق قائما ، لم ينقضه الطرف الآخر ، ولم ينبذه المسلمون علانية . وهم لا ينبذونه إلا عند خوف الخيانة من الآخرين .

إنها الأمانة المطلقة التى دعا السياق إليها فى أوائل هذه الدروس . وإنه الوفاء المطلق الذى يقيم عليه الإسلام علاقاته بالناس جميعا .. ورعاية المواثيق إلى هذا الحد الدقيق هى التى تجعل التعامل مع الدولة المسلمة مضمونا ؛ وتيسر إقامة علاقات دولية ثابتة ، لا تتعرض قواعدها للزعزعة كما بدت للدولة مصلحة فى نقض المعاهدات والمواثيق ؛ وتجعل السلم الشريفة قاعـدة الحياة ، فلا تثور الحروب إلا لتقرير الحق والعدل ، ودفع الظلم والطغيان والفتنة ، لا للأهواء والشهوات والمصالح والمغانم ، التى لا ترجع إلى مبدأ ولا قانون .

هنالك كذلك فريق آخر يمنع الإسلام قتالهم ، ولو كانوا يدخلون أرض الإسلام ويخرجون. هم الذين يتحرجون وتضيق صدورهم أن يقاتلوا المسلمين أو يقاتلوا قومهم الذين يعادون المسلمين ويشتبكون معهم فى قتال. أى أولئك الذين يختارون الحياد لأن هنالك ملابسات تجعلهم يضيقون صدرا بقتال المسلمين أو قتال الآخرين ، الذين تربطهم بهم صلات الدم أو المصلحة أو السكنى :

« أو جاءوكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم »

والله — سبحانه وتعالى — يطامن من حماسة المسلمين تجاه هؤلاء القوم ، فيذكرهم بأن الله لو شاء لسلطهم عليهم ، ولجعلهم فى صفوف أعدائهم ، يقاتلون ولا يحايدون ؛ وإذن فمادامو قد اختاروا الحياد والعزلة وعدم القتال ، وجنحوا إلى السلم ، فلا يجوز أن تمتد إليهم يد المسلمين :

« ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم . فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم ، وألقوا إليكم السلم ، فما جعل الله لكم عليهم سبيلا »

وهكذا يرحب الإسلام بكل بادرة للسلام ، مادام الآخرون لا يعتدون ، ولا يبغون فى الأرض ، ولا يفتنون الناس عن دينهم ، ولا يظلمون الضعفاء من الناس . فليست الحرب غاية فى الإسلام إنما هى ضرورة لتأمين الخير والعدل والإيمان (١) .

ولكن هناك طائفة ثالثة ، لا يتسامح معها الإسلام هذه السماحة . لأنها طائفة شريرة كالأولى ، وليست مرتبطة بميثاق مثلها. إنما هى طائفة تريد أن تأكل على جميع الموائد ؛ وهى لا تضمر الخير للمسلمين ، ولا تكف عن حربهم تحرجا كالثانية ، ولكن مراوغة لتحقيق مصالح قريبة:

« ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم . كلما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها . فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ، ويكفوا أيديهم ، فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم ؛ وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطانا مبينا »

إن هؤلاء الآخرين يتظاهرون بالمودة للمسلمين حين يخالطونهم ، ويعلنون حقيقة نياتهم

---

(١) عدل بعض هذه الأحكام فيما يختص بمشركى العرب فى سورة التوبة . وسنعرض له حين نواجهها إن شاء الله .

عندما يرجعون إلى قومهم. وذلك لكى يأمنوا جانب الفريقين ، ويحققوا مصالحهم هنا وهناك . هذا عنصر خطر غير مأمون ، مختلف فى بواعث حياده عن الفريق الثانى من الذين « جاءوكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم » عن نية خالصة ، وشعور صادق . هذا الفريق من الناس كلما عاد إلى أرض الكفار وفتن عن الإسلام الذى يتظاهر به ، وقع بشدة فى هاوية الكفر والفتنة . وإذن فلا أقل من أن يعتزلوا المسلمين فلا يقاتلوهم ، ويعلنوا حيادهم وميلهم إلى السلم فى صراحة . ذلك وإلا فهم خطر ينبغى القضاء عليه ، فعلى المسلمين ألا يسمحوا لهم بالتسلل إليهم ، وأن يقتلوهم حيثما وجدوهم . فهم مطلقو الأيدى بإزاء هذا الفريق الخطر غير المأمون .

والحكمة فى هذا الحكم ، هى الاحتياط ، وكشف الموقف ، وقطع خط الرجعة على الخادعين والمستغلين . الذين لا يعلنون موقفهم ، ليعاملهم المسلمون وأعداؤهم على أساسه . والمسلمون فى النهاية هم الذين ينالهم الأذى بسبب هذا الغموض .

وفى هذه القواعد نجد أسس المعاملات الدولية بين المسلمين وغير المسلمين ، قائمة على الوضوح والصراحة والاستقامة ؛ قائمة كذلك على الوفاء والأمانة والمسالمة ، فلا يتقرر قتال إلا حينما تدعو الضرورة إلى قتال .

* * *

ذلك فى المنازعات الدولية . فأما بين المسلمين فلا قتل ولا قتال ، لسبب كائنا ما كان . إن دم المسلم على المسلم حرام . حرام البتة . وما يمكن أن يوجد سبب مهما عظم يبيح القتال بين المسلمين . وليس المسلم مسلطا على المسلم فى أية حال من الأحوال (عدا القصاص بطبيعة الحال) إن المبدأ لمستبعد من أساسه فلا يمكن أن يكون بحال :

« وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا — إلا خطأ » ..

فالمبدأ فى ذاته هو المنفى والمستبعد . إلا أن يقع ذلك عن خطأ لا يمكن التحرز منه . وفى هذه الحالة تترتب الفدية وحدها ، أو الفدية وعتق رقبة مؤمنة :

« ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله — إلا أن يصدقوا — فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن ، فتحرير رقبة مؤمنة . وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة . فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله ، وكان الله عليما حكيما » .

وهنا تواجهنا ثلاث حالات : اثنتان منها يفترض النص وقوع القتل الخطأ على مؤمن . أما الثالثة فيفترض وقوع القتل الخطأ على فرد من قوم معاهدين أو ذميين ولو لم يتوافر شرط الإيمان :

فالحالة الأولى أن يقع الخطأ على مؤمن أهله مؤمنون . ويجب عندئذ تحرير رقبة مؤمنة ودية تسلم إلى أهله .. فأما تحرير الرقبة المؤمنة ، فهو إشارة إلى أن تحرير نفس هو إحياء لها في حس الإسلام ، لأنه يعيدها إلى جو الحياة الإنسانية الكريمة الذى هبطت عنه لسبب من الأسباب . وهى كفارة عمن قتل نفسا مؤمنة ، لأنه يرد إلى الحياة الكريمة نفسا مؤمنة . وأما الدية فتسكين لثائرة النفوس وشراء لخواطر الأهل المفجوعين ، وتعويض لهم عن شىء مما فقدوا ، مادام رد الحياة ذاتها مستحيلا . وهى واجبة إلا أن يتنازلوا عنها صدقة وإحسانا .

والحالة الثانية ، أن يقع القتل الخطأ على مؤمن أهله كفار معادون للمسلمين. ففى هذه الحالة لا دية . لأنه لا يجوز أن يدفع المسلمون مالهم لعدوهم ليحاربهم به ، ويتقوى عليهم بسببه . ولكن تحرير رقبة مؤمنة ، تعويضا للحياة وللمؤمنين عن ذلك القتيل .

والحالة الثالثة ، أن يقع القتل الخطأ على فرد من قوم معاهدين أو ذميين معصومى الدم بحكم مابينهم وبين المسلمين من ميثاق . ولا يذكر النص إن كان هو مؤمنا أو كافرا أو ذميا . مما يشعر بأن الميثاق يسوى بين الجميع فى الدية والفدية . وأنه يرتفع إلى مرتبة الإيمان فيما يختص برعاية حقوق المعاهدين . وهى قمة فى رعاية العهد سامقة بلا جدال .

فمن لم يجد رقبة يعتقها ودية يدفعها . فعليه صيام شهرين متتابعين «توبة من الله» وهنا نجدنا أمام صفحة أخرى جديدة . إنها صفحة تطهير نفس القاتل بحبسها عن شهواتها شهرين متتابعين ، تتوجه فيهما إلى الله ، واهب الحياة «وكان الله عليما حكيما» عليما بمسارب النفوس، حكيما فى تقدير مايصلحها من العلاج .

ذلك القتل الخطأ . فأما القتل العمد . فهو الكبيرة التى لا ترتكب مع إيمان . فما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا عمدا :

« ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها ، وغضب الله عليه ولعنه ، وأعد له عذابا عظيما »

إنه يضاد إرادة الله فى هذه الحياة — بلا ضرورة ولا مبرر — ومن ثم هذا الغضب وهذه اللعنة وهذا العذاب العظيم الخالد . إنه يحارب الله واهب الحياة . ويحارب الفطرة الكامنة فى كيانه ذاته ، الفطرة التى ترتجف لإزهاق حياة. أية حياة .

واحترا سامن وقوع القتل ـ ولو كان خطأ ـ يأمر الله المسلمين إذا خرجوا غزاة ، ألا يبدأوا بقتال أحد حتى يتبينوا ويتأكدوا إن كان قد أسلم وهم لا يعلمون . ولقد حدث أن عدا جماعة من غزاة المسلمين على رجل بعدما أقرأهم السلام ، ظنا منهم أنه عدو لهم ، واستاقوا غنما كانت معه إلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ غنيمة . فنزلت هذه الآية :

« يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم فى سبيل الله فتبينوا ، ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا ، تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة ، كذلك كنتم من قبل ، فمن الله عليكم ، فتبينوا . إن الله كان بما تعملون خبيرا »

إن عرض الحياة الدنيا لا يجوز أن يدخل للمسلمين فى حساب إذا خرجوا يجاهدون فى سبيل الله . إنه ليس الدافع إلى الجهاد ولا الباعث عليه . والله سبحانه يذكر الذين آمنوا ويمن عليهم أن طهر نفوسهم ورفع أهدافهم ، فلم يعودوا يغزون ابتغاء عرض الحياة الدنيا كما كانوا من قبل فى جاهليتهم . لقد كانوا كذلك فمن الله عليهم ، ورفعهم ، وجعل جهادهم لمعان أرفع ولغايات أنبل . وعند الله مغانم كثيرة ، أكثر من مال الناس ، وأكبر مما فى أيدى الناس . وهى التى يرجوها المجاهد فى سبيل الله ، عندما يخرج لجهاد « إن الله كان بما تعملون خبيرا » يعلم خبيئة النفس وبواعثها للعمل ، وغاياتها الدفينة التى لا تكشف عنها للناس .

* * *

وإذ بين للمسلمين كيف يتعاملون مع الآخرين ، وكيف يتعاملون فيما بينهم ؛ وإذ تبين أنهم سيقاتلون ، وسيجاهدون فرقا متعددة من الكفار والمنافقين . . أخذ فى تمجيد الجهاد ورفعه درجات على القعود . فبناء العقيدة الجديدة ، وبناء الأمة التى تحرس هذه العقيدة ، يحتاج إلى تكاليف فى النفس والمال ؛ ويحتاج إلى تجنيد جميع القادرين ، وليس الوقت وقت قعود ولا راحة . وما يستوى المجاهدون والقاعدون ولو كانوا جميعا من المؤمنين :

« لا يستوى القاعدون من المؤمنين ـ غير أولى الضرر ـ والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم . فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة ؛ وكلا وعد الله الحسنى ، وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما . درجات منه ومغفرة ورحمة . وكان الله غفورا رحيما »

فأما أولو الضرر الذى لا يقدرون على جهاد ، فلهم عذرهم ، ولا تثريب عليهم . وأما القادرون الذين يقعدون فمن الطبيعى أن يمتاز عليهم المجاهدون بأموالهم وأنفسهم — وإن كان للجميع فضل إيمانهم وجزاؤهم على هذا الإيمان « وكلا وعد الله الحسنى » ولكن للمجاهدين درجة أعلى منزلة ، تتبعها درجات من الأجر العظيم « ومغفرة ورحمة » والمسلم فى حاجة دائمة إلى المغفرة والرحمة حتى لو كان مجاهدا فى سبيل الله بالمال والنفس ، فما يبلغ إنسان أن يوفى الله حقه من الشكر والعبادة على نعمائه . وما يبلغ إنسان أن يجعل كل عمله وكل نيته بمنجاة من الزلل طوال حياته . فما أحوج الإنسان إلى مغفرة الله ورحمته ، مهما تبلغ حسناته وتوفيقاته « وكان الله غفورا رحيما » وقد ناسب ذكر هذه اللفتة هنا إلى جوار درجات الأجر العظيم ، ليدرك المجاهدون — فضلا على سواهم — أن مغفرة الله ورحمته ، هى التى تبلغهم هذه المنزلة ، وهى التى تمنحهم هذا الأجر ، وأن جهادهم لا يؤهلهم وحده لكل ما وعدوا به ، ولكنه يؤهلهم لمغفرة الله ورحمته . وهذه اللفتة كثيرا ما يعقب بها بعد الجهاد وبعد النصر ، تذكيرا للمجاهدين والمنتصرين ، كى لايأخذهم الزهو ، ولاينسوا أن الفضل كله من الله ، وأنهم استحقوا هذا الفضل بإخلاص قلوبهم لله ، فليبقوا على هذه الصلة ، ولا يشوبوها بشائبة .

ثم يعرض السياق لطائفة أخرى ، طائفة ذلت نفوسها ، وقعدت هممها ، فآثرت احتمال الهوان فى أرضها ، على الهجرة فى سبيل الله . وهى قادرة على أن تنجو منه ، بتضحية بعض المصالح ، لو آثرت الكرامة . . يعرض لهذه الطائفة فيصور مصيرها وجزاءها تصويرا مهينا ، يتلاءم مع مهانتها :

« إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم ، قالوا : فيم كنتم ؟ قالوا : كنا مستضعفين فى الأرض . قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ؟ فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا . إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان ، لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا . فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم ، وكان الله عفوا غفورا »

إنه التوبيخ على قعود الهمة ، وضعف العزيمة ، والرضوخ للذل ، والاحتجاج بالضعف ، حيث لايقوم عذر حقيقى من هذا الضعف .

وهو لايسميهم مظلومين ، إنما يسميهم « ظالمى أنفسهم » فهم الذين استكانوا للظلم يقع عليهم ، فلا يدفعونه ، ولا يهجرون الأرض التى تذيقهم الظلم — إن عجزوا عن دفعه فيها —

فهم إذن ظالمو أنفسهم ، وكان فى وسعهم أن ينصفوها . لقد ظلموا أنفسهم حين تركوا الظالمين يظلمونها . ولقد ظلموها مرة أخرى حين قبلوا لها هذا الهوان ، وأرخصوا ما أعزه الله فى الإنسان .

ومن ثم يسألون فى استنكار وفى احتقار : « فيم كنتم ؟ » فى أى شىء وفى أى شأن قضيتم حياتكم ؟ فما لحياتكم وجود ، وما لحياتكم ثمرة . . هكذا يقول لهم الذين يتوفونهم من الملائكة ، وهم على هذه الحال من ظلم أنفسهم . وما يعذرهم أن يقولوا : « كنا مستضعفين فى الأرض » فهو اعتذار لا يقره الإسلام ، ولا يتفق مع روح القوة والاستعلاء التى يبثها فى النفوس « قالوا : ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ؟ » . . إن الاستسلام للضعف جريمة ، فلا تصلح الجريمة أن تكون معذرة ! : « فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا » .

فأما المستضعفون حقا من عجزة الرجال الذين لا يملكون دفاعا ولا يستطيعون هجرة ، ومن النساء والولدان : « لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا » أما هؤلاء جميعا فهنالك رجاء فى عفو الله عنهم . والعفو والمغفرة أقرب فى جانب الله من المؤاخذة والعقوبة : « وكان الله عفوا غفورا » . . وهم معذورون مضطرون والله لا يؤاخذ المضطر . ولكن النص يجعل المسألة موضوع رجاء وترجيح ، ليدل على ضخامة الجريمة . جريمة الاستسلام للذل ، حتى ليكاد المضطر فيها أن يناله العقاب . .

هذا هو الإسلام . . عقيدة استعلاء ، وعقيدة كبرياء . استعلاء على الضعف والذل والظلم ، وكبرياء على الطغاة والظالمين ، وعلى الضرورات التى تخضع بعض الناس للطغاة والظالمين .

وذلك هو الطبيعى المنتظر من عقيدة تجعل العزة لله ولرسوله وللمؤمنين . وتجعل القوة كلها لله ولمن يلوذون بكنفه ويعتمدون على نصرته . وتجعل غاية الحياة هى إعلاء كلمة الله فى الأرض ، بما فيها من حق وعدل وكرامة . وتجعل عرض الحياة الدنيا كلها أهون على نفس المؤمن من جناح بعوضة . وتجعل الحياة أوسع وأكبر من المنافع الشخصية ومن الضرورات الشخصية . ومن ثم تنطلق الروح الإنسانية من كل قيودها وأثقالها ، تكافح القيود والأغلال ، التى تحد من قيمتها أو من كرامتها . وهذا هو الإسلام .

ولكى يطلق الإسلام الروح الإنسانية من ضغط الخوف الذى قد يقعد بها عن الاستمتاع بتلك الحرية ، فإنه يرفع عنها هذا العبء إطلاقا ، فيعد من يهاجر فى سبيل الله أن أعباءه كلها

تنتقل عن كاهله ، وتصبح فى ضمانة الله ، محمولة على قوته وفضله،منذ الخطوة الأولى فى الهجرة، كائنة ماكانت الأحوال :

« ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغما كثيرا وسعة . ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ، ثم يدركه الموت ، فقد وقع أجره على الله .وكان الله غفورا رحيما » .

من يهاجر فى سبيل الله لن تضيق به الأرض . ففى الأرض متنفس ومنطلق.وفى الأرض رحابة وسعة . وما تضيق الأرض فى وجه الإنسان إلا حين تضيق همته، ويتقلص رجاؤه فى الله،وتمسكه القيود والمخاوف فى دار الهوان .. وإذن فما هو ذا الضمان :«ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى اللهورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله»فهو فى ضمان الله الذى لا ينقض.وقداستحق المغفرة والرحمة « وكان الله غفورا رحيما » .

ولا بد من هذا الضمان المطلق ، لكى يلقى الإنسان عن نفسه المخاوف والوساوس ،ويهون على نفسه المتاعب والمصاعب ، ويخرج من قفص الخوف الذى يمسك به حيث يفرط فى دينه ، أو فى كرامته ، أو فى حقوقه .. والله يدعوه إلى إحدى الحسنيين : إما حياة كريمة فى أرض طليقة واسعة ، وإما أجر موفور ومغفرة ورحمة إن أدركه الأجل فى الطريق .. وما الذى يرجوه إنسان فى الدنيا أو الآخرة أكبر مما يحققه له هذا الضمان !

***

ثم يستطرد السياق إلى رخصة يبيحها الله للمهاجرين الضاربين فى الأرض .. رخصة القصر فى الصلاة :

« وإذا ضربتم فى الأرض ، فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة — إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا — إن الكافرين كانوا لكم عدوا مبينا »

إن المهاجر الضارب فى الأرض فى حاجة إلى صلة دائمة بربه،تعينه على ماهو فيه . والصلاةهى أقرب الصلات ، وهى التى يدعو القرآن إلى الاستعانة بها على الشدائد والملمات . ومن ثم يجىء ذكرها هنا فى إبانها المناسب ، وفى وقت الحاجة إليها والاضطرار . فما أحوج الخائف فى طريق المهجر إلى أن يطمئن قلبه بذكر الله . وما أحوج المهاجر من أرضه أن يلتجىء إلى حمى الله.. غير أن الصلاة الكاملة وما فيها من قيام وقعود وركوع وسجود،قد تعوق المهاجر عن وجهته ،

حيث يفتنه الذين كفروا ،أو تمكن لهم منه وهو راكع أو ساجد ، فيأخذوه ، أو قد تلفت إليه أنظارهم فى الطريق فيحبسوه أو يؤذوه .. ومن ثم هذه الرخصة للمهاجر الضارب فى الأرض أن يقصر من الصلاة . والمعنى الذى نختاره لقصر الصلاة هنا هو المعنى الذى اختاره الإمام الجصاص [١] . وهو أنه ليس القصر فى عدد الركعات المرخص به للمسافر إطلاقا ، والمعتبر صلاة تامة ، إذا صلى المسافر ركعتين بدل أربع – كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم دائما فى كل سفر – إنما هو القصر فى صفة الصلاة ذاتها ، فالرخصة هى فى القيام بلا حركة ، وفى القعود للتشهد ، وفى الركوع والسجود . فرخص للمهاجر الخائف من فتنة الكفار له أن يصلى سائرا وراكبا ، وأن يومىء للركوع والسجود . وذلك هو المناسب للسياق ، لمجىء هذه الرخصة فى صدد الهجرة ، وللتعقيب عليها بقوله : « إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا » . وجعل الصلاة ركعتين ليس متوقفا على هذا الشرط . فهو المتبع فى كل سفر ، وفى جميع الظروف والأحوال والملابسات .

وبمناسبة صلاة المهاجر الخائف من الفتنة يجىء حكم صلاة الخوف فى أرض المعركة :

« وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة ، فلتقم طائفة منهم معك ، وليأخذوا أسلحتهم ؛ فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم . ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك ، وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم . ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم ، فيميلون عليكم ميلة واحدة . ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر ، أو كنتم مرضى ، أن تضعوا أسلحتكم . وخذوا حذركم . إن الله أعد للكافرين عذابا مهينا » .

إنها الصلاة السلاح الأول من أسلحة النصر فى المعركة ، فما يجوز إغفالها وتأجيلها ، كما لا يجوز إغفال أى سلاح . ومن ثم هذا البيان لصفتها فى أرض القتال.ومن ثم ذكرها وتفصيل أمرها فى هذا المجال .

إن المتأمل فى أسرار هذا القرآن يطلع على عجب من اللفتات النفسية النافذة إلى أعماق الروح البشرية . ومنها هذه اللفتة إلى الصلاة فى ساحة المعركة . إن السياق يجىء بها هنا لا لمجرد بيان الحكم الفقهى فى صفة صلاة الخوف. ولكن لبيان صلتها كذلك بالمعركة وأسلحة النصر..

(١) كتاب أحكام القرآن للإمام الجصاص الحنفى ، الجزء الثانى طبعة المطبعة البهية ص٣٠٧ ، ص٣٠٨

والقرآن الكريم وهو يربى هذه الأمة المسلمة،ويعدها لتكاليف وظيفتها الشاقةفى الأرض. وظيفة القوامة على هذه الإنسانية ، وتوجيهها إلى الخير والصلاح ، وإقامتها على الحق والعدل .. يعتمد فى هذه كلها على يقظة روحها ، واتصالها الدائم بخالقها . ومن ثم يجعل التوجه إلى الله والصلة به فى الصلاة ، عونها وسندها فى جميع الأحوال .

وللتوفيق بين ضرورات القتال ، وما يجب له من تهيؤ وحذر ، لمواجهة مكائد العدو وهجماته المباغتة . وبين اتخاذ عدة النصر كاملة وفى أولها الصلة بالله فى الصلاة . يجىء هذا الحكم هنا فى صفة صلاة الخوف مع رسول الله ؛ ومع خلفائه ، وأئمة المسلمين السائرين على سنته .

وتختلف آراء الفقهاء فى تفصيل صفة صلاة الخوف ، أخذا من هذا النص ، ولكننا نكتفى بالصفة العامة هنا ، فلا ننساق مع تلك التفصيلات .

إذا كنت فيهم فأممتهم فى الصلاة ، فلتقم طائفة منهم تصلى معك الركعة الأولى – على حين تقف طائفة أخرى بأسلحتها مستعدة لكل مفاجأة – فإذا أتمت هذه الركعة فلتذهب وتأخذ مكان الحراسة ؛ ولتستمر أنت فى صلاتك الركعة الثانية ، ولتأت الطائفة الثانية لتصلى معك هذه الركعة . فإذا سلمت – والصلاة ركعتان لا أربع تبعا للسنة العامة فى السفر – جاءت الطائفة الأولى فقضت الركعة الثانية التى فاتتها وسلمت ، وأخذت مكان الحراسة ، ثم جاءت الطائفة الثانية فقضت الركعة الأولى التى فاتتها وسلمت .(١)

والسياق يكشف عن حكمة هذا الاحتياط : « ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة » .. وهذه الرغبة فى نفوس الكفار تجاه المسلمين دائمة، ليست مقصورة على زمان ولا على مكان . والسنون تتوالى والقرون تمر ، فإذا هى تؤكد هذه الحالة النفسية التى لا تتغير . والتى توجب الحذر والاستعداد والتهيؤ : « وخذوا حذركم » لتنفذوا مشيئة الله فى الكفار : « إن الله أعد للكافرين عذابا مهينا » يتحقق بعضه على أيديكم ، إذا اتبعتم النصيحة ، ونهضتم بالتكاليف ، وكنتم دائما فى موقف القوة والاستعداد .

« فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم . فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة . إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا » ..

---

(١) هذا هو الوجه الذى نختاره . وهناك صفات كثيرة لهذه الصلاة . حسب اختلاف آراء الفقهاء .

إنها الصلة الدائمة بين الله والمجاهدين فى سبيل الله ؛ الصلة التى تتمثل فى الصلاة ، كما تتمثل فى ذكر الله فى جميع الأحوال : « قياما وقعودا وعلى جنوبكم » والتى لا يشغل القلب عنها حرب ولا كرب . فهى سلاحه فى الحرب ،وهى ملاذه فى الكرب .

فأما حين الاطمئنان « فأقيموا الصلاة » أقيموها كاملة تامة على أصولها المتبعة . « إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا » فريضة ذات وقت محدد لأدائها . فمتى زالت أسباب الرخصة فى صفة من صفاتها عادت إلى صفتها الدائمة المفروضة .

ويختم السياق آيات الجهاد هنا بالتشجيع على متابعته حتى النهاية ؛ ويلمس القلوب المؤمنة لمسة عميقة موحية ، فى منطق وجدانى ينفذ إلى أعماق هذه القلوب :

« ولا تهنوا فى ابتغاء القوم . إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون ، وترجون من الله مالا يرجون . وكان الله عليما حكيما » .

إنهن كلمات معدودات ، تضع الخطوط الحاسمة ، وتكشف عن الشقة البعيدة ، بين جبهتى الصراع ..

إن المؤمنين يحتملون الألم والمشقة والقرح فى القتال. ولكنهم ليسوا وحدهم الذين يحتملون. إن أعداءهم كذلك يتألمون .. ولكن شتان ما بين هؤلاء وهؤلاء . إن المؤمنين يتوجهون إلى الله بجهادهم، يملأ قلوبهم الرجاء فى نصره وفى فضله . فأما الكفار فهم ضائعون لا تصلهم بالله صلة ، ولا ينير قلوبهم فيه أمل . فإذا صبر الكفار على آلام الحرب ، فما أجدر المسلمين بالصبر على تكاليف الجهاد . فلا تهنوا فى ابتغاء القوم فإن أمامكم رجاء منيرا كريما ، ليس للقوم منه نصيب .

وإن هذا لهو فضل العقيدة فى الله فى كل كفاح . فهناك لحظات تعلو فيها المشقة على الطاقة ، فيحتاج القلب الإنسانى إلى مدد يستعلى به على ضعفه ، ويضاعف به قوته وطاقته على الاحتمال . ولن يكون هذا المدد إلا من ذلك المعين الذى لا ينضب لحظة ولا يغيض ، وإلا من تلك القوة التى لا تضعف لحظة ولا تغيب . « وكان الله عليما حكيما » يعلم كيف تحس المشاعر ، ويصف للنفس ما يطب لها من الضعف ، وما يقويها فى لحظة الكلال .

« إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ ٱلْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ ٱللَّهُ ؛ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً * وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ، إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيماً * وَلَا تُجَادِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ . إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيماً * يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ ، وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ ، وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ ٱلْقَوْلِ ، وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطاً * هَا أَنْتُمْ هَٰؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا ، فَمَنْ يُجَادِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ ، أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ؟ * وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ، ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَحِيماً * وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ ، وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً * وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ، ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا ، فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِيناً * وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ ، وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ ، وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ ؛ وَأَنْزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ ، وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ ، وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً .

« لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ ، أَوْ مَعْرُوفٍ ، أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَاءَ مَرْضَاةِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيماً * وَمَنْ يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَى ، وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى ، وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ، وَسَاءَتْ مَصِيرًا * إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ؛ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا .

« إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا ، وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا * لَعَنَهُ ٱللَّهُ ، وَقَالَ : لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيباً مَفْرُوضاً * وَلَأُضِلَّنَّهُمْ ، وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ ، وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ ٱلْأَنْعَامِ ، وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ . وَمَنْ يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِيناً * يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ، وَمَا يَعِدُهُمُ

الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا * أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ، وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا .

« وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ، وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ، وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ؟

« لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ . مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ، وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا * وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ — وَهُوَ مُؤْمِنٌ — فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ ، وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا * وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ، وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ؟ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا * وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا . »

كان الدرس الماضى درس الهجرة فى سبيل الله ؛ ودرس الجهاد بكل ما فيه من تكاليف ومشقات . وبكل ما يستتبعه من عداء أقوام ، واتقاء أقوام . .

ولقد سبق أن قلنا فى أوائل هذه السورة : إن التكافل الإنسانى هو الذى يلون جوها كله حتى حين يتحدث السياق عن القتال والجهاد . فهو قتال لإقامة العدل ورفع الظلم عن الضعاف الذين لايستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا .

ولقد سبق الحديث عن الطاعة والنظام والحرب والقتال توجيه قوى إلى الأمانة والعدل :

« إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل »

فالآن بعد انتهاء الحديث عن الهجرة فى سبيل الله والقتال وما يستتبعه من عداوات ومن خصومات ، يعود السياق ليتحدث عن الحكم بين الناس ، وليذكر بالعدل الذى لا يؤثر فيه عداء ولا اختلاف عقيدة ، ولينهى عن الوقوف إلى جانب الخائنين الذين يختانون أنفسهم . مشيرا بذلك إلى حادثة وقعت فى عهد الرسول — صلى الله عليه وسلم — واتهم فيها يهودى اتهاما ظالما ، فجاءت الآيات فى صدر هذا الدرس لتبرئته — على ما سنفصل فيما بعد — محافظة على ذلك المبدأ الأساسى فى الإسلام : مبدأ العدل المطلق لجميع الناس .

ومن ثم دعوة إلى طاعة الرسول فى أحكامه وتحذير من مشاقته، التى تؤدى إلى اتباع سبيل غير سبيل المؤمنين ، وإلى الإشراك بالله والركون إلى الشيطان ، الذى توعد بإضلال فريق من عباد الله بالأمانى والوعود ، التى تخدعهم عن الجزاء الذى ينال المحسن وينال المسىء .

وفى نهاية الدرس تجىء القاعدة الإسلامية فى العمل والجزاء : أن صاحب السوء مجزى به ، وصاحب الإحسان ، ولا محاباة فى جزاء ، ولا تبديل لسنة الله ، التى لا تتبع أمانى أحد ولا دعاواه .

ثم تمجيد للإسلام الخالص . إسلام الوجه كله لله مع الإحسان فى العمل ، وهى ملة إبراهيم وملة سائر المسلمين ، وهى الإسلام المطلق لله الذى له ما فى السماوات والأرض بلا شريك .

* * *

« إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق ، لتحكم بين الناس بما أراك الله . ولا تكن للخائنين خصيما »

روى أن هذا القول نزل فى رجل سرق درعا من بيت جاره ، فلما خاف أن تظهر عليه رمى بها فى دار يهودى . فلما وجدت الدرع أنكر اليهودى أن يكون أخذها ، وجاء بشهود من اليهود على أن سارقها رماها بداره تخلصا منها ، فأعان قوم سارقها على اليهودى ، وجاءوا إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقنعونه بأن يحاج عن صاحبهم ويجادل ، أمام اتهام اليهودى له ؛ فمال الرسول إلى قولهم — لأن ظاهر الأمر يؤيدهم — فأطلعه الله على جلية الأمر ، وتدبير المدبرين ، ونهاه عن مخاصمة اليهودى ، وأمره بالاستغفار مما كان منه من ميل . ومن عليه أن هداه إلى الحق ، وأبطل إضلال المضلين .

وهكذا نرى أن غيرة الله على الحق والعدل المطلقين من كل ميل ، المنزهين من كل شائبة ، قد اقتضت إيراد اثنتى عشرة آية فى تلك الحادثة الفردية . ذلك أنها نموذج لكل قضية يمكن أن يعترض طريق العدالة المطلقة فيها اختلاف العقيدة ، وتكاتف بعض الناس لهذا السبب على إخفاء الحقيقة .

« إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق » فهو حق ، وتنزيله حق ، وقد جاء ليحق الحق ؛ جاء لتحكم به بين الناس . وقد أطلعك الله وعلمك كيف تحكم ، فاحكم على حسب ما أراك الله « ولا

تـكن للخائنين خصيما » تجادل عنهم وتدفع ، وقد خانوا أمانة الله ألا يعتدوا على الناس ، وخانوا أمانتك أن يصدقوك ولا يكذبوك . وخانوا أنفسهم ، فأوردوها طريق المعصية وطريق الخيانة .

« واستغفر الله . إن الله كان غفورا رحيما » . .

استغفره مما هممت به من ميل إلى تصديق الخائن وتكذيب البرىء ، قبل التأكد الـكامل والتثبت من حقيقة دعوى الفريقين .

« ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم ، إن الله لا يحب من كان خوانا أثيما . يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول ، وكان الله بما يعملون محيطا . ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم فى الحياة الدنيا ، فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة ؟ أم من يكون عليهم وكيلا ؟ »

إننا نحس فى التعبير صرامة ، يفوح منها الغضب للحق ، والغيرة على العدل ؛ تبدو هذه الصرامة فى صيغة النهى « لا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم » ونلمحه فى وصف الخائنين بأنهم « يختانون أنفسهم » وفى تعليل ذلك النهى : « إن الله لا يحب من كان خوانا أثيما » .

وهم خانوا سواهم فى ظاهر الأمر ، ولـكنهم فى الواقع يختانون أنفسهم ـ ولفظ يختان أقوى من يخون فى التعبير ـ يختانونها مرتين : الأولى حين يخونون إخوانهم وهم منهم ، فـكأنما خانوا أنفسهم . والثانى حين يرتـكبون الإثم فيعرضون أنفسهم للجزاء فى الدنيا والآخرة ، وهى خيانة للنفس من غير شك . . ذلك فضلا على تلويث هذه النفس بالخيانة . وهو خيانة لها وتحقير . . والله لا يحب الخوان الأثيم . وللتعبير بعدم الحب هنا قيمته ، لأن المؤامرة ضد اليهودى والجدل عن السارق من المسلمين كان منشؤهما البغض والحب . فالله يعلن أنه لا يحب الخوان الأثيم ، فلا يجوز أن يحبه أحد ، ولا أن يجادل عنه أحد ، والله قد كرهه واجتواه .

ويعقب الوصف بالخيانة والإثم بيان منفر لسلوك هذا الفريق من الناس : إنهم « يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله » . . فيجبنون عن مواجهة الناس بخيانتهم وإثمهم ، ولا يخجلون من الله « وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول » وهى صورة زرية من جانب ، وداعية إلى السخرية من جانب آخر . زرية بما فيها من ضعف والتواء وخوف من الناس ؛ وداعية إلى السخرية بما فيها من غفلة عن رؤية الله لهم ، وهم يبيتون ما يبيتون من خيانة ومؤامرة

« وكان الله بما يعملون محيطا » فالإحاطة هنا ترسم صورة للعلم المطلق والقدرة المطلقة ، فكل ما يعملونه محوط بعلم الله وقدرته ؛ وهم من الغفلة بحيث يدبرون فى الظلام ، ويحسبون أنهم فى نجوة من العيون !

فإذا كان هذا شأنهم ؛ وكان الله مطلعا على خياناتهم ومؤامراتهم ؛ فماجدوى أن يجادل عنهم فريق من المسلمين فى هذه الدنيا ؟ ترى سيجادلون الله عنهم يوم القيامة ، وهو العليم بأمرهم المحيط بمكرهم ؟ ومن ذا الذى يجرؤ على أن يجادل الله عنهم يوم القيامة :

« ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم فى الحياة الدنيا ، فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة ، أم من يكون عليهم وكيلا ؟ »

اللهم لا مجادل عنهم ولا وكيل ، فهو عبث إذن بلا جدوى أن يدافع عنهم أحد فى هذه الحياة ، وهم مأخوذون بما كسبوا أمام الله ، لا أمام خلق الله .

وإذ يتبين أن الجدل عنهم فى هذه الدنيا عبث لايجدى ، وأن جزاءهم فى الآخرة بيد الله المطلع على أعمالهم ونواياهم . يوجه الله الناس إلى الطريق المجدى . إن باب التوبة مفتوح فلم لا يلجونه ؟ إن الله غفور رحيم ، فما على المذنب إلا أن يتوجه إليه بالتوبة ، فذلك وحده هو الطريق :

« ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما »

فلاضرورة إلى الالتواء ، ومحاولة الجدل فى هذه الدنيا والدفاع . إن الطريق ميسر وممهد . فمن يعمل سوءا ينال به سواه ، أو يظلم نفسه بمعصية لاتتعداه . فليتوجه إلى الله يستغفره ، وسيجد الله غفورا رحيما . يغفر ذنبه ، ويرحم ضعفه ، ويتقبله فى حماه . .

وكل إنسان مأخوذ بما تكسب نفسه ؛ فلن ينفعه أن يجادل عنه أحد ، ولن يشاركه فى حمل وزره أحد :

« ومن يكسب إثما فإنما يكسبه على نفسه ، وكان الله عليما حكيما »

يعلم ما تكسب كل نفس ، ويعلم ما يصلح من الجزاء ، وما يحقق العدل والقسط .

« ومن يكسب خطيئة أو إثما ، ثم يرم به بريئا ، فقد احتمل بهتانا وإثما مبينا »

احتمل بهتانا فى رمى سواه البرىء ، بما اقترف هو من خطيئة أو إثم ؛ واحتمل إثماعظيما ، فيما اقترف أولا من الإثم أو الخطيئة ، وفى ما اختار من طريق معوج غير طريق الاعتراف والمتابة . وقد احتمل هذا وذاك وزرا كأنه ثقل يحمله ، وما أثقله من وزر !

« ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك ، وما يضلون إلا أنفسهم ، وما يضرونك من شىء ؛ وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة ، وعلمك مالم تكن تعلم ، وكان فضل الله عليك عظيما » .

وهكذا يمن الله على رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن بين له خبيئة الأمر ، ولم يمكن المتآمرين أن يخدعوه عن الحق ، وأن يضلوه عن معرفة الحقيقة ، وعن تحقيق العدالة .. لقد أرادوا تضليل الرسول ، وهم فى الحقيقة لا يضلون إلا أنفسهم عن اتباع المنهج القويم ، وما هم بضارين الرسول فى شىء ، لأن الله يطلعه على مايدبرون ، إنما يضرون أنفسهم بتوريطها فى الذنوب . «وأنزل عليك الكتاب والحكمة» .. « وعلمك مالم تكن تعلم » .. « وكان فضل الله عليك عظيما » .

وبمناسبة الحديث عن المؤامرات التى تجرى فى السر ، ويتناجى فى شأنها المبيتون والماكرون . يقرر السياق هنا أن معظم نجوى الناس لا خير فيها . وأن النجوى الخيرة هى التى تتعلق بالحض على صدقة ، أو أمر بالمعروف ، أو إصلاح بين الناس . وأن أجر من ينهض بهذا لوجه الله لا رياء ولا سمعة ولا شهرة أجر عظيم :

« لا خير فى كثيرمن نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس . ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة اللهفسوف نؤتيه أجرا عظيما »

ويدع الصدقة والمعروف والإصلاح مجملة لا يفصل أنواعها ؛ ويدع كذلك الأجر العظيم مجملا لا يذكر نوعه ولا صفته .. لأن الغرض هو التوجيه العام ، بلا تفصيل ولا تحديد فى هذا المقام .

فأما الذين لا يبتغون مرضاة الله . فيشاقون الرسول ويغاضبونه ـ ورضى الرسول من رضى الله ـ فإن لهم مصيرا سيئايناسب جريمتهم . وجريمتهم هى الكفر بعينه ، وهى الشرك الذى يغفر الله كل ذنب سواه ، لمن يشاء ، ولكنه لا يغفره بحال من الأحوال :

« ومن يشاقق الرسول من بعد ماتبين له الهدى ، ويتبع غير سبيل المؤمنين ، نوله ماتولى ، ونصله جهنم وساءت مصيرا . إن الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر مادون ذلك لمن يشاء . ومن يشرك بالله ، فقد ضل ضلالا بعيدا »

إن من يأخذ طريقا مضادا لطريق الرسول ، ويتبع سبيلا غير سبيل المؤمنين ، إنما يختار الطريق الآخر ، طريق الشرك والضلال . عندئذ يحقق الله له ما ابتغاه من سلوك هذا الطريق ! لقد قصد إلى الكفر فليكن له الكفر ، وليكن له ماوراءه فى الطريق من جزاء : «ونصله جهنم وساءت مصيرا » .. ولم هذا ؟ لأن ماأتوه من ذنب غير قابل للمغفرة - إنه الشرك بالله والكفر ، ومن يسلك طريقه فقد أوغل فى الضلالة ، وبعد عن الاهتداء .

(هذا لمن أصر بطبيعة الحال على الشرك ، فأما من آمن وعمل صالحا ، فالإسلام يجب ماقبله، والعمل الصالح مع الإيمان له جزاؤه الذى لا يضيع) ..

وعند ذكر الشرك بالله هنا يتبعه السياق بشىء من تفصيل طبيعته ومظاهره - كما كانت عند ما نزل القرآن - هذه المظاهر التى قد تختلف من أرض لأرض ومن عصر لعصر . ولكن طبيعتها واحدة من وراء الظواهر والأشكال :

« إن يدعون من دونه إلا إناثا ، وإن يدعون إلا شيطانا مريدا ، لعنه الله ، وقال : لأتخذن من عبادك نصيبا مفروضا ، ولأضلنهم ولأمنينهم ، ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ، ولآمرنهم فليغيرن خلق الله » ..

فلقد كان العرب يدعون آلهتهم الكبار : « اللات والعزى ومناة » إناثا . كما كانوا يدعون الملائكة بنات الله ويشركون بها . هذه هى الأشكال . أما الحقيقة الكامنة وراء الأشكال ، فهى أنهم إنما يدعون الشيطان ويستوحونه ويستمدون منه هذا الضلال . ذلك الشيطان الذى لعنه الله وطرده ، والذى توعد جزاء طرده ، أن يستهوى فريقا معينا من عباد الله ، وأن يضلهم عن الهدى ، ويمنيهم السعادة أو اللذة أو المغفرة فى الطريق الذى يحدوهم إليه .. ثم يعود السياق إلى بعض أشكال الغواية التى يدفع الشيطان إليها فريقا من الناس : ذلك ماكان يفعله العرب من تمزيق آذان بعض الأنعام ليصبح ركوبها وأكلها بعد ذلك حراما - دون أن يحرمه الله عليهم - إنما حرمتها الأساطير . ومن تغيير خلق الله وفطرته بقطع بعض أجزاء الجسد أو تغيير

شكلها فى الحيوان أو الإنسان . كخصاء العبيد ، ووشم الجلود .. وما إليها من التغيير والتشويه الذى حرمه الإسلام .

ثم يعود السياق إلى التعميم ، وإلى الوقوف أمام الطبيعة الكامنة وراء الشرك،وهى الخضوع لاستهواء الشيطان .

« ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله فقد خسر خسرانا مبينا . يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا » ..

وإذن فهى حالة استهواء معينة هى التى تنحرف بالفطرة البشرية عن الإيمان والتوحيد ، إلى الكفر والشرك . ولولا هذا الانحراف لسارت الفطرة فى طريقها ، ولكان الإيمان هو هتاف الفطرة وحاديها فى الطريق ..

وإذن فإن حداء الشيطان واستهواءه الخادع سيغر من يستمع له ، ويقوده إلى مأوى لا مفر منه ولا فكاك . أما هتاف الإيمان وأضواؤه فستقود المؤمنين إلى ما وعدهم ربهم وهو أصدق القائلين :

« أولئك مأواهم جهنم ، ولا يجدون عنها محيصا .والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، خالدين فيها أبدا ، وعد الله حقا ، ومن أصدق من الله قيلا؟ »

والصدق المطلق هنا فى وعد الله ، يقابل الغرور الخادع ، والأمانى الكاذبة فى وعد الشيطان . وشتان بين من يثق بالله ومن يثق بالشيطان !

ثم يعقب السياق بقاعدة الإسلام الكبرى فى العمل والجزاء .. إن ميزان الثواب والعقاب ليس موكولا إلى الأمانى . إنه يرجع إلى أصل ثابت ، وسنة لا تتخلف ، وقانون لا يحابى . قانون يستوى أمامه المسلمون وأهل الكتاب ، وسنة تجرى على هؤلاء وهؤلاء ، ولا تقف أمام أمنية لهؤلاء أو هؤلاء : إن صاحب السوء مجزى بالسوء ، وصاحب الحسنة مجزى بالحسنة، ولا محاباة فى هذا ولا مماراة :

« ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب. من يعمل سوءا يجز به ، ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا . ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا » .

هذا هو القانون الثابت ، وهذه هى السنة النافذة . فلا يعلق أحد نفسه بالأمانى الخادعة وليختر طريقه على هدى ، وفى وضح النور ، بلا جدال ولا محال !

فإذا انتهى إلى تقرير هذه القاعدة الأصيلة ، فى هذه الصورة الحاسمة راح يحبب فى الإسلام. إسلام الوجه خالصا لله مع الإحسان . وراح يرد هذا الإسلام إلى أصل قديم ، يضم المسلمين وأهل الكتاب : « ملة إبراهيم حنيفا » الذى فاز بالقرب من الله قربا شديدا : « واتخذ الله إبراهيم خليلا » والله لا يتخذ خلانا ـ على نحو ما يعهد البشر ـ إنما هو الأثر المترتب على الصداقة ، وهو القرب والرضوان .

وبعد فما أجدر الناس أن يخلصوا أنفسهم لله، وأن يسلموا له بلا شريك .وكل ما فى السماوات والأرض له ، وهو بكل شىء محيط :

« ولله ما فى السماوات وما فى الأرض ، وكان الله بكل شىء محيطا »

فلمن يتوجه الناس غيره ، ومن ذا الذى يعصمهم من الله ، فى هذه الأرض وفى تلك السماوات سواه ؟

« وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى النِّسَاءِ . قُلِ : اللهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ ، وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِى الْكِتَابِ فِى يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ ، وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ ، وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ ، وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ . وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ ، فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِهِ عَلِيماً * وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضاً فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ، وَالصُّلْحُ خَيْرٌ ، وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ ؛ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا * وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ، فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ ؛ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيماً * وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللهُ كُلاًّ مِنْ سَعَتِهِ ، وَكَانَ اللهُ وَاسِعاً حَكِيماً » .

« وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ؛ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ : أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ . وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا * إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ ؛ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيراً .

« مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا ، فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ؛ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً بَصِيراً » .

« إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله » .. كانت هذه فاتحة الدرس الماضى ؛ ثم مضى الدرس كله حول هذا المحور مع شىء من الاستطراد .

وهذا الدرس الجديد ليس إلا امتدادا للموضوع فى جانب من جوانب الحكم ، فهو رد على استفتائهم للرسول — صلى الله عليه وسلم — وجواب يأتيهم من عند الله ، فى معاملة اليتيمات واليتامى . وفى حالة إعراض الزوج عن زوجه ونشوزه .

ثم تعقيب من تلك التعقيبات القرآنية ، التى تصل القلب بالله ، وتنوط بهذه الصلة كل علاقات الأرض ، وكل تصرفات الإنسان .

***

« ويستفتونك فى النساء ، قل : الله يفتيكم فيهن ، وما يتلى عليكم فى الكتاب فى يتامى النساء اللاتى لا تؤتونهن ما كتب لهن ، وترغبون أن تنكحوهن ، والمستضعفين من الولدان ، وأن تقوموا لليتامى بالقسط ، وما تفعلوا من خير ، فإن الله كان به عليما »

ولقد سبق فى مفتتح هذه السورة أن أوصى الله فى شأن اليتيمات : « وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء » وأوصى فى شأن اليتامى « وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ، ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم ... »

فإلى هذه الوصايا يشير السياق هنا : « وما يتلى عليكم فى الكتاب » . . ولقد توجه بعض المسلمين إلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالأسئلة بعد نزول الآيات الأولى . فكان الجواب هو هذه الإشارة إلى تلك الآيات ، وما فيها من أحكام . وجعل التعقيب : « وما تفعلوا من خير فإن الله كان به عليما » لربط قلوبهم بالله ، وتوجيهها إلى الخير ابتغاء وجه الله ، والله عليم بهذا الخير مثيب عليه ، فلن يضيع عليهم شىء مما يفعلون من خير مع اليتامى واليتيمات .

ثم يستمر السياق فى تفصيل بعض الأحكام فى محيط الأسرة :

«وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا أو إعراضا فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا . والصلح خير . وأحضرت الأنفس الشح . وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا . ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم . فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة ؛ وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفورا رحيما . وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته ، وكان الله واسعا حكيما » .

إن القلوب تتقلب ، وإن المشاعر تتغير ، فإذا خشيت المرأة أن تصبح مجفوة ، وأن تؤدى هذه الجفوة إلى الفراق ، أو إلى الإعراض ، وتركها كالمعلقة لا هى متزوجة ولا هى مطلقة . فليس هنالك من حرج أن تتراضى هى وزوجها على أن تتنازل له عن شىء من فرائضها المالية أو الحيوية تجاهه . إذا كان فى ذلك صلاح الأمر بينهما ، والإبقاء على عقدة النكاح ، وعلى المودة فى صورة من صور المودة .

فإن لم يكن هذا علاجا ناجحا ، فالفرقة إذن هى العلاج . ويحسن أن تتم فى هدوء وتراض ، وأن يتجه كلاهما إلى الله يطلب غناه وسعته ، « وكان الله واسعا حكيما » .

والنصوص هنا ـ فى هذا المعرض الدقيق ، معرض المشاعر والوجدانات والعلاقات القلبية ـ تترفق فى العرض والتوجيه ، وتحاول أن تلمس المشاعر والقلوب ؛ وتتعدد هذه اللمسات على طرائق شتى : « والصلح خير » . . « وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا » . . « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم ، فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة » . . « وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفورا رحيما» . . « وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته » . . كل أولئك ليعالج بهذه اللمسات تقلب القلوب ؛ وليندى بالتقوى جفافها . فالأسرة ـ فى اعتبار الإسلام ـ هى المحضن ، الذى يجب أن ينسم عليه نسمات الرحمة والمودة والحنان .

ومن هذه اللمسات أن يعقب على ذلك كله بأن الأمر كله لله ، وأن له ما فى السماوات والأرض ، وبأن الله وصى المسلمين ومن قبلهم من أهل الكتاب بالتقوى . . إلى آخر ماتحتويه الآيات التالية فى السياق :

« ولله ما فى السماوات وما فى الأرض ؛ ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم : أن اتقوا الله . وإن تكفروا فإن لله ما فى السماوات ومافى الأرض ، وكفى بالله وكيلا . إن يشأ يذهبكم — أيها الناس — ويأت بآخرين ، وكان الله على ذلك قديرا . من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة ، وكان الله سميعا بصيرا »

فالوصية التى تذكر هنا هى تقوى الله . هى وصية الله للذين أوتوا الكتاب من قبل وللمسلمين . . التقوى ذلك الإحساس الخاص برقابة الله ، وبأن الله أقرب إلى الإنسان من نفسه ؛ وما يشعه ذلك الإحساس فى القلب البشرى من حساسية وإرهاف . . فهنا يجمل هذه الوصية ويفردها ، لأن الجو فى حاجة إلى مشاعر التقوى وحساسية الوجدان .

« وإن تكفروا فإن لله ما فى السماوات وما فى الأرض » فهو غنى عنكم : « إن يشأ يذهبكم — أيها الناس — ويأت بآخرين » يحققون وصيته إذا أنتم لم تحققوها . . « وكان الله على ذلك قديرا »

وإذا كنتم تتعجلون ثواب الدنيا « فعند الله ثواب الدنيا والآخرة » جميعا . وابتغاء ثواب الدنيا يقتضى التوجه لله كابتغاء ثواب الآخرة ، لأنه هو الذى يعطى هذا وذاك . وله مافى السماوات وما فى الأرض . وما من أحد يملك عطاء ولا حرمانا سواه . .

إن الجو كله جو توجيه للمشاعر والاتجاهات إلى الله . لكى تستشعر القلوب أنها ملك يديه ، وأن الخير كله فى ابتغاء رضاه ، وفى تنفيذ وصاياه . .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ، إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا ، فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا ، وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا .

« يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ، وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيداً * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْراً لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً .

« بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً * الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ، أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ؟ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً * وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ، إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ. إِنَّ اللهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً * الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللهِ قَالُوا : أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ؟ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا : أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ؟ فَاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَلَنْ يَجْعَلَ اللهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا * إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ، وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ ، وَلَا يَذْكُرُونَ اللهَ إِلَّا قَلِيلاً * مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَٰؤُلَاءِ ، وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا .

« يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ، أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً مُبِيناً * إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً * مَا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ ؟ وَكَانَ اللهُ شَاكِراً عَلِيماً » .

نحن ما نزال فى جو الأمانة والعدل منذ دروس كثيرة فى هذه السورة . والسياق يتناول موضوعات متنوعة ، ولكن الجو الذى يظللها جميعا هو ذلك الجو ، فى صور وألوان شتى .

ففى الدرس الماضى كنا مع الأمانة والعدل فى موضوع النساء : « فى اليتامى والنساء اللاتى لاتؤتونهن ما كتب لهن وترغبون أن تنكحوهن » . وكان الأمر الإلهى : « وأن تقوموا لليتامى بالقسط » . وكنا مع الزوجات : « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم » ، وكان الأمر الإلهى : « فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة » .

وفى الدرس الذى قبله كنا مع قصة اليهودى المظلوم الذى بلغت غيرة الله على الحق والعدل فى شأنه أن ينزل قرآنا على نبيه يبرىء فيه ذلك المظلوم ، ويندد بالذين يختانون أنفسهم ، وينهى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يجادل عنهم : « ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم إن الله لا يحب من كان خوانا أثيما » .

ومن قبل كان الحديث عن أحكام فى القتل والقتال ، ودعوة إلى الجهاد لدفع الظلم عن الضعاف « الذين يقولون : ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها » وإحقاق للحق فى هذه الأرض ، أيا كانت تكاليف هذا الحق .

. . ذلك كله منذ أن أورد السياق تلك الدعوة الأساسية الكبرى : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل . إن الله نعما يعظكم به . إن الله كان سميعا بصيرا » .

فالآن نجدنا فى ذلك الجو نفسه . نجد أمرا للمؤمنين أن يكونوا قوامين بالقسط شهداء لله . ونجد السياق يربط بين القيام بالقسط والشهادة لله وبين الإيمان بالله ورسوله والكتاب الذى نزل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبل . ونجد حديثا عن النفاق والمنافقين والكفر والكافرين لايبعد كثيرا عن جو الشهادة لله والتمحض لله .

وهكذا تقوم تلك الروابط الظاهرة أو الخفية فى الانتقالات من معنى إلى معنى ، ومن موضوع إلى موضوع ، داخل الإطار العام الذى يربط تلك المعانى ويظلل هذه الموضوعات .

***

« يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ، ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين . إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما . فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا . وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا »

إنها الأمانة التى نيطت بكم فى الأرض « يا أيها الذين آمنوا » أمانة القسط والعدل ، ودفع البغى والظلم ، فلتنهضوا بها ، بل لتكونوا « قوامين » لا تكلون ولا تفترون عن القيام . لتكونوا : «قوامين بالقسط» غيرمتعلق هذا القسط بأمر دون أمر ، ولا بقضية دون قضية . إنما هو القسط المطلق ، والعدل المجرد . .

وكونوا « شهداء لله » . . فهى إذن حسبة لله ، لا لحساب أحد من المشهود عليهم أوالمشهود لهم . وهى إذن تجرد لله من كل ميل ومن كل هوى ومن كل مصلحة . وهى إذن وظيفة عند الله لا عند قاض ولا متقاض .

ومتى كانت لله على هذا النحو فقد خلصت من كل تأثير . وقد تجردت عن النفس والوالدين والأقربين : « ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين » كما تجردت عن كل الاعتبارات والقيم الأرضية المتعلقة بدنيا الناس : « إن يكن غنيا أوفقيرا فالله أولى بهما » فمايهم أن يكون المشهود له أو عليه غنيا أو فقيرا ، وقد ارتفع الأمر كله عن أن يكون لملابسات هذه الأرض دخل فيه منذ أن دعوا إلى التجرد عن كل شىء سوى الله ، ومنذ أن دعوا إلى أن يكونوا «شهداء لله» . فأين يذهب الميل إلى النفس أو الميل إلى الوالدين والأقربين فى هذا المرتقى العلوى الكريم؟ وأين تذهب اعتبارات الغنى والفقر فى هذا المجال الإلهى العظيم ؟

وإلا تكن الشهادة لله ، فهى إذن للهوى : « فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا » لا تتبعوا الهوى فيمنعكم أن تعدلوا ، ويلوى بكم عن العدل ، أو يصدكم عن الحق : « وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا» . . وهو تهديد خفى يدركه الذين آمنوا ولا يجهلونه . إنه التهديد بخبرة الله العميقة بالنوايا والاتجاهات ، والتهديد بعاقبة هذه الخبرة حين تلتوى الطوايا وتفسد النيات ، وحين ينصرف الناس عن العدل المطلق إلى الهوى والشهوات .

* * *

ومن الأمر بالقسط ، والتجرد لله ، والخلاص من الهوى ، والتهديد الخفى بما وراء اللى والإعراض . . من هذا إلى الأمر بالإيمان بالله ورسوله والكتاب الذى نزل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبل . وتهديد الذين يكفرون بشىء من هذا بسوء العاقبة والضلال البعيد :

« ياأيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله ، والكتاب الذى نزل على رسوله ، والكتاب الذى أنزل من قبل . ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا» .

ذلك أنه إن لا يكن تجرد لله ، وقيام بالقسط الذى أمر به الله،فهو إذن الكفر بما نزل الله ، وباليوم الآخر الذى يجد الناس فيه جزاءهم العادل من الله .

إن هنالك ارتباطا خفيا بين التمحض لله والتجرد فى الآية السابقة ، وبين الأمر بالإيمان هنا وتهديد من يحيدون عن هذا الإيمان . إن قضية العدل مرتبطة ارتباطا وثيقا بقضية الإيمان . فمن لم يقم بالقسط ، ومن لم يشهد لله ، فهو فى سبيله إلى الضفة الأخرى . ضفة الكفر بالله ، والتنكر لما أنزل الله : « ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا » لا ترجى منه أوبة ، ولا تنتظر بعده هداية . لأنه « بعيد » موغل فى التيه والظلام !

على أن الكفر الذى يسبق الإيمان يغتفر . فالذى لم يشهد النور معذور إذا هو أدلج فى الظلام . فأما الكفر بعد الإيمان فهو الكبيرة التى لا غفران لها ولا معذرة فيها . إن الكفر حجاب فمتى سقط فقد اتصلت الفطرة بالخالق، واتصل الشارد بالركب ، واتصلت النبتة بالينبوع. فالذين يرتدون بعد الإيمان إنما يفترون على الفطرة ، ويلجون عمدا فى الغواية ، ويذهبون مختارين إلى التيه والضلال . فلا غفران بعد ذلك ولا هداية ، وهم قادوا أنفسهم متطوعين إلى هناك ، وبخاصة حين يتكرر منهم الكفر بعد الإيمان :

« إن الذين آمنوا ثم كفروا ، ثم آمنوا ثم كفروا ، ثم ازدادوا كفرا لم يكن الله ليغفر لهم ، ولا ليهديهم سبيلا »

وازديادهم فى الكفر نتيجة طبيعية لهذا التأرجح ، وللضلال بعد الهدى وهو المؤهل الأخير لذلك المصير العادل المحتوم .

* * *

وإذا لم تتجرد النفس لله ، لم تخلص من ضغط القيم والأوضاع فى هذه الأرض ، ولم ترتفع على المصالح والمغانم ، ولم تستشعر الطلاقة والكرامة أمام القيم وأمام الأشخاص .. ومن ثم يكون النفاق .. وما النفاق إلا الضعف عن المواجهة ، نتيجة الخوف والطمع ، وثمرة التقيد بملابسات الأرض ومصالح الأرض . فهنا لك مناسبة بين التجرد لله وما فيه من طلاقة ، وبين الحديث عن النفاق الناشىء عن ثقلة الضرورة :

« بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما . الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين . أيبتغون عندهم العزة ؟ فإن العزة لله جميعا »

إن النفاق مرحلة بين الإيمان والكفر . ولقد سبق الأمر للذين آمنوا أن يتمحضوا لله ، وسبق الوعيد للذين كفروا بعد إيمانهم أن لا مغفرة ولا هداية . فالآن يجيء دور المنافقين الذين يظهرون الإيمان ، ولكنهم لايتمحضون لله ، إنما يتخنسون للكفار ، لأنهم لايثقون بالله ، والله — جل جلاله — يسأل فى استنكار : لم يضع هؤلاء المنافقون أنفسهم هذا الموضع ؟ لم يتخذون الكافرين أولياء وهم يدّعون الإيمان ؟ : « أيبتغون عندهم العزة » ويطلبون عندهم النصرة والمنعة ؟ « فإن العزة لله جميعا » فمن استعز به وحده عز ، ومن طلب نصرته وحده انتصر . وما للكفار من عزة يمنحونها سواهم ، وقد ذهب الله بالعزة جميعا ، فلم يبق منها للكفار فتيلا !

ألا إنه لسند واحد للنفس البشرية إن ارتكنت إليه استعلت على كل ما سواه . إنه التجرد لله ، والثقة بالله ، والالتجاء إلى الله . ألا وإنها لعبودية واحدة إن لا تطمئن إليها النفس راحت تبذل كرامتها كل حين ، وراحت تستعبد لقيم شتى ، وأشخاص شتى ، ومخاوف شتى . ولم يعصمها من العبودية عاصم . ولكنها عبودية لعباد الله . لا لله . . . !

وما يستعز المؤمن بغير الله وهو مؤمن . وما يطلب النصرة عند أعداء الله من يؤمن بالله . وما أحوج رجالا من المسلمين ، يستعينون بغير الله أن يتدبروا هذا القرآن ، وأن يدركوا أن للقوة مصدرا واحدا لا يتعدد ، وأن للعزة ينبوعا واحدا لا يتعداه . .

* * *

وأول مراتب النفاق أن يجلس المؤمن إلى أعداء دينه ؛ وأن يسمع منهم الاستهزاء بآيات الله ، فيسكت ويتغاضى . . يسمى ذلك تسامحا ، أو يسميه سعة صدر ، وسعة أفق ، أو يسميه تحررا من التعصب وحرية رأى . . وهى هى الهزيمة الداخلية تدب فى أوصاله ؛ وهو يموه على نفسه فى أول الطريق حياء منها أن تأخذه متلبسا بالضعف والتخاذل !

إن الحمية لله ولدين الله ولآيات الله هى آية الإيمان . وماتفتر هذه الحمية ، إلا وينهار بعدها كل سد ، وينداح بعدها كل حاجز ، وينجرف الحطام الواهى عند دفعة التيار . وإن الحمية لتكبت فى أول الأمر عمدا ، ثم تهمد ، ثم تخمد ، ثم تموت .

فمن سمع الاستهزاء بدينه بين قوم ، فإما أن يدفع ، وإما أن ينسلخ عن القوم إذا لم تكن له بهم طاقة . فأما التغاضى والسكوت فهو أول مراحل الهزيمة . وهو المعبر بين الإيمان والكفر على طريق النفاق :

« وقد نزل عليكم فى الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ، ويستهزأ بها ، فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره . إنكم إذاً مثلهم . إن الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعا »

ثم يأخذ فى بيان بعض سمات المنافقين :

« الذين يتربصون بكم ، فإن كان لكم فتح من الله قالوا : ألم نكن معكم ؟ وإن كان للكافرين نصيب قالوا : ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين ؟ فالله يحكم بينكم يوم القيامة . ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا . إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم ، وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ، ولايذكرون الله إلا قليلا ؛ مذبذبين بين ذلك ، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا »

فالسمة الأولى للمنافقين هنا هى إمساك العصا من وسطها ، والزلفى للمسلمين ولأعدائهم حسب مقتضيات الموقف ، وإيهام هؤلاء وهؤلاء أن للمنافقين دورا إيجابيا ، ونفعا واقعيا ، فلا يحسن الاستغناء عن خدماتهم ، ولا إهمالهم أو معاداتهم : « فإن كان لكم فتح من الله قالوا : ألم نكن معكم » نطلب لكم النصر والفتح ! وإن كان للكافرين نصيب قالوا لهم : « ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين » فحمينا ظهوركم ، وأحطناكم بعوننا ومساعدتنا ؟ وهكذا يأكلون على المائدتين ، ويخادعون الفريقين .

والسمة الثانية أنهم لا يؤدون العبادات بحرارة وإيمان « وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولايذكرون الله إلا قليلا » . فليس هو الانبعاث الذاتى وليس هو الشوق إلى لقاء الله فى الصلاة . إنما هو مراءاة الناس ليقول الناس : قد صلوا ! فهم يذكرون الناس كثيرا « ولايذكرون الله إلا قليلا »

ومن ثم فهم لايطمئنون إلى الله ، ولا يثبتون على قرار مكين . ومن ثم فهم مزعزعون حائرون . ومن ثم فهم لا يستشعرون لأنفسهم وجودا مستقلا ، ولا أهدافا ذاتية ، ولا كرامة تعصمهم من الملق والرياء .

ومن ثم يرسم لهم هذه الصورة المهتزة المتأرجحة المهينة : « مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء »

وفى ثنايا استعراض سماتهم وحركاتهم يدمغهم بأنهم يخادعون الله . . وهى غفلة لا تصدر عن واع . . فالله مطلع على النوايا والأسرار ، وما تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء . فمحاولتهم خداع الله عبث وغفلة . « والله خادعهم » والله لا يخدع أحدا . ولكنه يدعهم وما هم فيه ، حتى يصطدموا بالعاقبة ، وهذا معنى الخداع .

وفى نهاية الاستعراض يقرر أنهم بهذه الذبذبة التى لا تستقر على حال ، وبذلك الرياء والنفاق ، وبذلك الخداع الذى يحاولونه مع الله قد اختاروا طريق الضلال ، وقد حقت عليهم سنة الله فى أن يضلوا متى سلكوا هذا الطريق ، وأبعدوا فيه ، وسنة الله لا تتخلف : « ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا » ومن حقت عليه سنة الله فلن يؤوب من هذا الضلال .

***

كذلك ترد فى ثنايا استعراض سمات المنافقين ، وهم يمسكون بالعصا من الوسط ، ويتملقون الكافرين والمؤمنين ، حقيقة ضخمة ما أجدر أن نتدبرها طويلا ، وأن نتأملها طويلا :

« ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا » . .

إنه وعد من الله قاطع ، وحكم من الله جامع . . إنه متى استقرت حقيقة الإيمان فى نفوس المؤمنين ، وتمثلت عملا فى واقع حياتهم كما يجب أن تكون ، فلن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا . ولن يغلب المؤمنون غلبة حقيقية ، ولن يهزموا إلا هزيمة ظاهرية ووقتية ، والنصر لهم مكتوب من عند الله لا يضيع .

هذه حقيقة يقررها الله ، ووعد لا يتخلف لمن استقرت فى نفسه حقيقة الإيمان بالله . ولكننا قد نرى الظاهر يخالفها فى بعض الأحيان . .

وأنا أقرر فى ثقة بوعد الله لا يخالجها شك . . أن الهزيمة لا تلحق المؤمنين ، ولم تلحقهم فى تاريخهم كله إلا وهناك ثغرة فى حقيقة الإيمان ، إما فى الشعور وإما فى العمل . وبقدر هذه الثغرة تكون الهزيمة الوقتية ، ثم يعود النصر للمؤمنين . ففى « أُحد » كانت الثغرة فى ترك الطاعة للرسول — صلى الله عليه وسلم — وفى الطمع فى الغنيمة . وفى « حنين » كانت الثغرة فى الاعتزاز بالكثرة لا بالثقة المطلقة فى عون الله : « ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن

عنكم شيئا » . ولو ذهبنا نتتبع كل مرة تخلف فيها النصر عن المسلمين فى تاريخهم لوجدنا شيئا من هذا نعرفه أو لا نعرفه . . أما وعد الله فحق فى كل حين .

نعم . إن المحنة قد تكون للابتلاء . ولكن الابتلاء إنما يجىء لحكمة هى استكمال حقيقة الإيمان ، وإيقاظ كوامنه فى الصدور ، فمتى اكتملت تلك الحقيقة ، ومتى انبعثت بالابتلاء قوية ، جاء النصر وتحقق وعد الله .

على أننى إنما أعنى بالهزيمة معنى أشمل من مدلولها الظاهرى . إنما أعنى بالهزيمة هزيمة الروح ، وكلال العزيمة ، فالهزيمة فى معركة لا تكون هزيمة إلا إذا تركت آثارها فى النفس همودا وكلالا وقنوطا . فأما إذا بعثت الهمة ، وأذكت الشعلة ، فهى مقدمة للنصر ، ودافعة إلى الاستعلاء .

إن غلبة الكفار علينا لا تتم يوم يغلبوننا فى معركة ، ولكن يوم يغلبون أرواحنا فنراهم قوة لا تقهر ، ونرانا إلى جانبهم ضعافا لا أمل لنا فى انتصار .

وحين يقرر النص القرآنى الكريم أن الله لن يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلا . فإنما يشير إلى أن الروح المؤمنة هى التى تنتصر ، والفكرة المؤمنة هى التى تسود . وإنما يدعو المسلمين أن يستكملوا حقيقة الإيمان فى نفوسهم شعورا ، وفى حياتهم عدة وعملا ، وألا يعتمدوا على مجرد أنهم مسلمون . فالنصر ليس للعنوانات ، إنما هو للحقائق التى خلف العنوانات .

وليس بيننا وبين النصر فى أى زمان وفى أى مكان ، إلا أن نستكمل حقيقة الإيمان . ومن حقيقة الإيمان ألا نركن إلى أعدائنا ، وألا نطلب العزة إلا من الله . ولا يقولن أحد : نتقوّى بهم حتى نتقوّى ! فإن هذه القولة بذاتها هى الخطوة الأولى فى طريق الهزيمة . فالضعف لا يلد إلا الضعف . والقوة لا تكون إلا بالله الذى وعد ووعده الحق . « ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا » .

هذا الوعد يكفى بذاته لتقرير حقيقته وتعليلها . . وهو يتفق كذلك مع حقيقة الإيمان وحقيقة الكفر فى هذه الحياة . . إن الإيمان صلة بالقوة الكبرى التى لا تضعف ولا تفنى ؛ وإن الكفر انقطاع عن تلك القوة التى لا قوة سواها . فطبيعى ألا يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا . لأن هذا لو كان — ولن يكون — فإن معناه أن قوة ظاهرة محدودة فانية تملك أن تغلب قوة موصولة بمصدر القوة فى هذا الكون جميعا . . وهو ما لم يكن ولن يكون أبدا .

غير أنه يجب أن نفرق دائما بين حقيقة الإيمان ومظهر الإيمان . إن حقيقة الإيمان قوة حقيقية ثابتة ذات أثر فى النفس وفيما يصدر عنها من العمل . وهى حقيقة كفيلة بأن تواجه

حقيقة الكفر المنعزلة المبتوتة المحدودة فتقهرها . ولكن حين يتحول الإيمان إلى مظهر، فإن حقيقة الكفر قد تغلبه إذا هى صدقت وعملت فى عالم الواقع . لأن حقيقة أى شىء أقوى من مظهر أى شىء فى هذا الوجود !

ونحن اليوم مع خصومنا وأعدائنا نمثل مظهر الإيمان يواجه حقيقة الكفر . لهذا هم يغلبوننا . إنهم يكفرون بالله ويؤمنون بالمادة . والمادة حقيقة ولوأنها صغيرة . فهم يواجهوننا بحقيقة الإيمان بشىء ما ـ ولو كان هذا الشىء صغيرا ـ ونحن نواجههم بغير إيمان لا بحقيقة كبرى ولا بحقيقة صغرى . فأما يوم أن نحقق فى نفوسنا وفى واقعنا حقيقة الإيمان بالله ذى الجلال فلن يغلبوننا أبدا « ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا »

وإذا كان مظهر النفاق فى المنافقين أن يتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، فإن الله ينهى الذين آمنوا أن يتجهوا هذا المتجه ؛ ويحذرهم أن يستحقوا بطشه وتنكيله بهذا النفاق.

« ياأيها الذين آمنوا لاتتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين . أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا ؟ »

والله صاحب السلطان المبين على المؤمنين وعلى غير المؤمنين . على العصاة وعلى التائبين . على المنحرفين والمستقيمين . . ولكن المقصود هنا هو البطش والتنكيل . ليريهم أن اتخاذ الكافرين أولياء لا يأتى لهم بنصر ، ولايمكن لهم فى الأرض ، ولايحقق لهم العزة التى يرجونها من أضل طريق .

ويعقب على هذا النهى والتحذير بتصوير المنافقين فى صورة زرية هابطة تدعو إلى التحقير والتنفير:

« إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ، ولن تجد لهم نصيرا »

فى الدرك الأسفل . . إنها صورة تتفق مع ثقلة الأرض التى تشدهم إليها فلا يرتفعون إلى حيث يتجردون لله ويعتزون بالله . ثقلة المطامع والرغائب التى تهبط بهم إلى تملق الكافرين ومداراة المؤمنين ، والوقوف فى ذلك الموقف المهين . فمن ثقلة نفوسهم ، وثقلة ضروراتهم ، وثقلة مطامعهم ، تجىء صورة الدرك الأسفل من النار ، بلا أعوان هنالك ولا أنصار . جزاء وفاقا يرسمه التعبير على طريقة التصوير .

« إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله ، وأخلصوا دينهم لله ، فأولئك مع المؤمنين . وسوف يؤتى الله المؤمنين أجراً عظيما » .

وفى مواضع أخرى كان يكتفى بأن يقول : إلا الذين تابوا وأصلحوا . فالإصلاح يتضمن الاعتصام بالله وإخلاص الدين لله . ولكنه هنا يفصل وينص على الاعتصام والإخلاص، لأنه بصدد نفوس ضعيفة منافقة مختلطة المشاعر والاتجاهات . فناسب أن يؤكد عند ذكر التوبة والإصلاح معنى التخلص من تلك المشاعر المذبذبة ، ومن تلك الأخلاق المتخلخلة . ليكون فى الاعتصام بالله وحده قوة وتماسك ، وفى الإخلاص لله وحده خلوص وتجرد . . بذلك تخف تلك الثقلة التى تهبط بالمنافقين إلى الدرك الأسفل، ويرتفع التائبون منهم إلى مصاف المؤمنين المعتزين بالله ، المستعلين بالإيمان . والارتفاع إلى هذا المستوى جزاء على التوبة واف . ولكن فضل الله عظيم ، فهو يعد التائبين الأجر الذى أعده للمؤمنين : « وسوف يؤتى الله المؤمنين أجراً عظيما »

* * *

وفى نهاية التحذير والتبشير ، فى نهاية العقاب والثواب ، تجىء تلك الآية العجيبة :

« مايفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم ؟ وكان الله شاكرا عليما »

نعم ! مايفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم ؟ إن عذابه لجزاء على الجحود والكفران ؛ لا شهوة للتعذيب ، ولا رغبة فى التنكيل ، تعالى الله عن الشهوات والرغبات . فمتى اتقيتم بالشكر والإيمان ، فهنالك النعيم والغفران . هنالك رحمة الله الواسعة التى لا تضيق بالواردين ، وهنالك فضل الله الشامل الذى لا يرد التائبين .

« وكان الله شاكرا عليما » وهو الخالق الرازق المنعم المتفضل ، ولكنه يشكر لعبده الصالح عمله الطيب — شكرا يناسب ألوهيته فيثيب وينعم — فما بال العبد لا يشكر ، وهو مغمور بآلاء الواهب الكريم ، العليم بكل خالجة فى نفسه وبكل هاتف فى حناياه ؟ .

(انتهى الجزء الخامس ، ويليه الجزء السادس ،
مبدوءاً بقوله تعالى: « لا يحب الله الجهر بالسوء »)

كتب للمؤلف

١	ـ فى ظلال القرآن	(فى ثلاثين جزءاً)	دار إحياء الكتب العربية .
٢	ـ العدالة الاجتماعية فى الإسلام	(طبعة ثالثة)	دار الإخوان للطباعة والصحافة .
٣	ـ معركة الإسلام والرأسمالية	(« ثانية)	« « « « «
٤	ـ السلام العالمى والإسلام	(« أولى)	مكتبة وهبة شارع إبراهيم بعابدين.
٥	ـ التصوير الفنى فى القرآن	(« ثالثة)	دار المعارف
٦	ـ مشاهد القيامة فى القرآن	(« ثانية)	« «
٧	ـ النقد الأدبى : أصوله ومناهجه	(« أولى)	دار الفكر العربى
٨	ـ أشواك	(« «)	دار سعد بالفجالة
٩	ـ طفل من القرية	(« «)	لجنة النشر للجامعيين
١٠	ـ الأطياف الأربعة	(بالاشتراك مع إخوته)	« « «
١١	ـ القصص الدينى	(بالاشتراك مع الأستاذ السحار)	« « «
١٢	ـ الشاطئ المجهول	(شعر)	... نفد
١٣	ـ كتب وشخصيات	(نقد)	... «
١٤	ـ مهمة الشاعر فى الحياة	(«)	... «
١٥	ـ نقد كتاب مستقبل الثقافة	(«)	... «
١٦	ـ المدينة المسحورة	(قصة)	... «

الكتب التالية

(١) نحو مجتمع إسلامى — (٢) أمريكا التى رأيت

(٣) حلم الفجر (شعر) — (٤) قافلة الرقيق (شعر)

فى ظلال القرآن

الجزء السادس

بقلم

سيّد قطب

الطبعة الأولى

طبع بدار إحياء الكتب العربية
عيسى البابى الحلبى وشركاه

بسم الله الرحمن الرحيم

« لَا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ ـ إِلا مَنْ ظُلِمَ ـ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا * إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ ، فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا .

« إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ؛ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِ ؛ وَيَقُولُونَ: نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ ؛ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا * أُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْكَافِرُونَ حَقًّا ؛ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا * وَٱلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ؛ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ ، أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ؛ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا .

« يَسْأَلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ ٱلسَّمَاءِ ، فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَٰلِكَ ، فَقَالُوا : أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً ، فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ؛ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا ٱلْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَاتُ ، فَعَفَوْنَا عَنْ ذَٰلِكَ ؛ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُبِينًا * وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ ؛ وَقُلْنَا لَهُمُ : ٱدْخُلُوا ٱلْبَابَ سُجَّدًا ؛ وَقُلْنَا لَهُمْ : لَا تَعْدُوا فِي ٱلسَّبْتِ ؛ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا * فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ ، وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ ٱللَّهِ ، وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ، وَقَوْلِهِمْ : قُلُوبُنَا غُلْفٌ ـ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا * وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا . وَقَوْلِهِمْ : إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ . وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ . وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ ، مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ، وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا * بَلْ رَفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ، وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا * وَإِنْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ، وَيَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا * فَبِظُلْمٍ مِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ، وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا *

وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا - وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ - وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ؛ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا * لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ، وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ؛ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ؛ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا.

« إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ، وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ، وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ؛ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا * وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ، وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ، وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا * رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ، وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا * لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ، أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ، وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ، وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا.

« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ، وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا * إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا، وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا.

« يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ، فَآمِنُوا: خَيْرًا لَكُمْ؛ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا »

سبق أن قلنا فى مطلع الحديث عن هـذه السورة - سورة النساء - « إن المحور الذى تدور عليه موضوعاتها هو تنظيم علاقات بنى الإنسان، تارة بينهم وبين خالقهم - سبحانه - وتارة بين بعضهم البعض أفراداً وجماعات، وعقائد وديانات، وشعوبا ودولات . . . الخ »

وفى الدروس الماضية كان السياق يتضمن نماذج من هذا كله؛ وما كان الأمر بالأمانة والعدل فى صوره المتعددة التى أسلفنا إلا أطرافا من تنظيم تلك العلاقات.

وفى هذا الدرس الذى نحن بصدده نجد السياق يتناول عدة موضوعات مشدودة إلى ذلك المحور العام من شتى الزوايا . .

نجده يبدأ بإعلان كراهية الله للجهر بالسوء من القول ، إلا فى حالة واحدة هى حالة وقوع الظلم ، والانتصار منه بالشكوى والمدافعة وبيان الحق ؛ كما نجد حضا على الخير والعفو ، لتقوم علاقات المجتمع على أساس آخر غير السوء ودفع السوء .

ويربط السياق هذا الحديث عن السوء والجهر به إلى الحديث عن الكفر والتفريق بين الديانات وبين الأنبياء . . فهذا هو السوء فى أقبح صوره ، والجهر به هو التوقح فى حق الله وحق الرسل ، وهو أقبح التوقح .

وبالمناسبة يلم بالسوء الذى قاله اليهود عن مريم الطاهرة ، وأشاعوا به وهم كاذبون ؛ وبالسوء الذى جهروا به عن المسيح ابن مريم وهم فيه كاذبون .

ويبين للناس بيانا حاسما فى ذلك كله ، وفى قضية الاختلاف بين عقيدة المسلمين وعقيدة اليهود المعاصرين للدعوة . لينتهى إلى دعوة للناس جامعة: « يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم فآمنوا خيرا لكم . . . »

فلنتبع السياق القرآنى فى تفصيل :

***

« لا يحب الله الجهر بالسوء من القول – إلا من ظلم – وكان الله سميعا عليما . إن تبدوا خيرا أو تخفوه أو تعفوا عن سوء ، فإن الله كان عفوا قديرا »

إن المجتمع شديد الحساسية ، وفى حاجة إلى آداب اجتماعية تتفق مع هذه الحساسية . ورب كلمة عابرة لا يحسب قائلها حسابا لما وراءها ، ورب شائعة عابرة لم يرد قائلها إلا فردا من الناس بها . . ولكن هذه وتلك تترك فى نفسية المجتمع وفى أخلاقه وفى تقاليده آثارا محطمة ، وتتجاوز الفرد المقصود بها إلى جماعات وجماعات . .

والجهر بالسوء من القول سهل على اللسان ، ولكن شيوع هذا السوء كثيرا ما يترك آثارا أعمق فى ضمير المجتمع . كثيرا ما يفقد الثقة المتبادلة فى هذا المجتمع ، فيخيل إلى الناس أن الشر قد صار غالبا ، وأنه لا نجاة لمن لا يتحرز ويستعد للشر . وكثيرا ما يزين للمستعدين للسوء أن يفعلوه لأن السوء قد أصبح ديدن المجتمع الشائع فيه ، فلا تحرج إذن وما هم بأول المسيئين !

وكثيرا مايذهب ببشاعة السوء ، بطول الألفة ، فالإنسان يستقبح السوء أول مرة بعنف ، حتى إذا تكرر ، أو علم الإنسان أنه تكرر خفت حدة الاستقباح ، وسهل على النفوس أن تسمع – بل أن ترى – ولا تثور .

ذلك كله فوق مايقع من الظلم لمن يتهمون بالسوء ويشاع عنهم – وقد يكونون منه أبرياء – ولكن قالة السوء حين تنتشر ، وحين يصبح الجهر بالسوء هينا مألوفا ، فإن البرىء قد يتقول عليه مع المسىء ، ويختلط البر بالفاجر ، بلا تحرج من فرية أو اتهام . ويسقط الحياء الاجتماعى الذى يعصم الكثيرين من الإقدام على الشرور .

إن الجهر بالسوء يبدأ فى أول الأمر اتهامات فردية ، وينتهى انحلالا اجتماعيا ، وفوضى أخلاقية ، تضل فيها تقديرات الناس بعضهم لبعض أفرادا وجماعات ؛ وتنعدم فيها ثقة الناس بعضهم ببعض ، وقد شاعت الاتهامات .

لذلك «لايحب الله الجهر بالسوء من القول» إلا أن يكون ذلك انتصارا من ظلم ، ودفعا لعدوان ، ورداً لسوء قد وقع بالفعل على إنسان معين «إلا من ظلم» فيكون الجهر عندئذ محدد المصدر ، محدد السبب ، موجها إلى شخص بذاته أو إلى جهة بذاتها ، بقصد الانتصاف ، وبقصد تحذير الآخرين أن يلدغوا من الجحر الذى لدغ منه المظلوم . عندئذ يكون هنالك من الخير الذى يتحقق بهذا الجهر كفاء الشر الذى يحصر حينئذ فى أضيق الحدود .

وهكذا يوفق الإسلام بين مبدئه فى العدل الذى لايطيق به ظلما ؛ ومبدئه فى الأخلاق الذى لايطيق به خدشا للحياء الاجتماعى . فمن ظلم وحده هو الذى يحق له أن يجهر بالسوء على من ظلمه ، ليتحقق العدل وينتصف المظلوم ويبقى السوء معلقا على رقاب فاعليه وحدهم ، محدد المصدر ، محدد السبب ، محدد الاتجاه .

ويعقب على هذا البيان بقوله : «وكان الله سميعا عليما» ليربط الأمر بالله فى النهاية ، بعد ماربطه فى البداية بقوله : «لايحب الله الجهر بالسوء» ؛ وليشعر القلب الإنسانى أن مرد تقدير النية والباعث ، وتقدير القول والاتهام ، لله الذى يسمع ما يقال ، ويعلم ما تنطوى عليه الصدور .

ثم لايقف السياق عند الحد السلبى فى كبت السوء وكظمه ؛ إنما يوجه إلى الخير الإيجابى ، الذى يتحقق سواء أبدوه أو أخفوه ؛ وإلى العفو عن السوء – عند المقدرة على دفعه – فلا عفو بغير مقدرة ، إنما العفو حينئذ ضعف ومذلة – : «إن تبدوا خيراً أو تخفوه أو تعفوا عن سوء فإن الله كان عفوا

قديرا » . . فتلك صفة من صفات الله ، يحب فيها عباده ، ليتصفوا منها بما يناسبهم ، ومايدخل في حدودهم الآدمية .

عندئذ يشيع الخير إذا أبدوه ، ويؤدى دوره إذا أخفوه . فالخير طيب فى العلن والسر . وعندئذ يشيع العفو بين الناس ، فلا يكون للجهر بالسوء مجال . على أن يكون عفو القادر المتفضل ، لا عفو العاجز الذى لا ينتصر ولا ينتصف ، ولا يرضاه الله . « فإن الله كان عفوا قديراً » فهو يعفو عن قدرة ، ويحب لعباده أن يعفوا عن قدرة فى عالم الناس وفى محيط الناس .

***

نوع من الجهر بالسوء ـ من أشنع أنواع الجهر بالسوء ـ ذلك هو الجهر بالكفر ، والتفريق بين بعض الرسل وبعض ، لذلك ينتقل السياق إلى الحديث عنه ، بعد بيان القاعدة العامة فى الجهر بالسوء .

« إن الذين يكفرون بالله ورسله ، ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ، ويقولون : نؤمن ببعض ونكفر ببعض ، ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا . أولئك هم الكافرون حقا ، وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا »

إن التوحيد المطلق لله يقتضى توحيد دينه الذى أرسل به الرسل للبشر ، وتوحيد رسله الذين حملوا هذه الأمانة . وكل كفر بوحدة الرسل أو وحدة الرسالة هو كفر بوحدانية الله فى الحقيقة على هذا الأساس .

لذلك عبر السياق هنا عمن يريدون التفرقة بين الله ورسله بأن يؤمنوا بالله ويكفروا برسالات الرسل ؛ وعمن يريدون التفرقة بين الرسل بأن يؤمنوا ببعضهم ويكفروا بالبعض الآخر . . عبر عن هؤلاء جميعاً بأنهم « يكفرون بالله ورسله » فالإيمان بالله وحدة لا تتجزأ . الإيمان بالله إيمان بوحدانيته سبحانه ، وبوحدة الدين الذى أراده للناس فى أساسه ، وبوحدة الرسل الذين جاءوا بهذا الدين من عنده ـ لا من عند أنفسهم ولا فى معزل عن إرادته ووحيه ـ ولا سبيل إلى تفكيك هذه الوحدة ، إلا بالكفر المطلق ، وإن حسب أهله أنهم يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض .

ومن هنا كان الإسلام ـ كما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ـ هو الدين . لأنه هو الذى يرسم تلك الوحدة الكبرى فى دقة ووضوح ، ويدين بها أهله فى إيمان وتسليم . فكل الأنبياء عندهم

معتقدون ، وكل الديانات السماوية عندهم حق . . فأما سواهم الذين يقفون بالرسل عند واحد منهم معين ، ويقفون برسالات السماء قبل الإسلام؛ فهم يفرقون بين بعض الرسل وبعض ، وهم داخلون فى ذلك النص القاطع : « أولئك هم الكافرون حقا » وإن كان الإسلام لسماحته لايعاملهم معاملة الكافرين فى الدنيا ، ويترك حسابهم لله فى الآخرة : « وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا » يتفق مع فعلتهم الكريهة فى الدنيا ، ومع جهرهم بهذا المنكر ، الذى نهى الله عن الجهر بأقل منه ، وقال : إنه لايحبه ولايرضاه .

أما المسلمون فهم الذين لم يفرقوا بين الرسل ، وهم الذين ينتظرهم الأجر ، وهم الذين يستحقون الغفران والرحمة على خطاياهم الأخرى ، بعد ماوحدوا أساس العقيدة الأولى :

« والذين آمنوا بالله ورسله ، ولم يفرقوا بين أحد منهم ، أولئك سوف يؤتيهم أجورهم . وكان الله غفورا رحيما » .

والإسلام إنما يتشدد هذا التشدد فى توحيد العقيدة بالله ، لأن هذا التوحيد هو الأساس اللائق بوجود منظم غير متروك للتعدد والفوضى . ولأنه هو العقيدة اللائقة بإنسان يرى وحدة الناموس أينما امتد بصره . ولأنه هو النظام الكفيل بربط البشرية كلها برباط واحد ، فلا تترك للخلاف والهوى . . ولو آمن الناس جميعا إيمان المسلمين بالرسل وبالديانات لتغير وجه العالم إلى خير مؤكد . . ومن ثم كانت الأمة الإسلامية هى خير أمة أخرجت للناس ؛ وكانت وسطا فى الأرض للشهادة على الناس . فعقيدتها هى العقيدة اللائقة بوجود صادر من الله الواحد ، الذى لامعبود سواه . وعقيدتها هى الوسط بلا تعصب ولا تفريق .

***

بعد تركيز تلك القاعدة الأساسية فى الكفر والإيمان ؛ وبيان حدود الكفر واضحة وحدود الإيمان . . يأخذ السياق فى استعراض بعض مواقف اليهود فى هذا المجال ، وفى مجال الجهر بالسوء الذى بدأ به هذا الدرس أيضا . يبدأ بموقف اليهود من محمد — صلى الله عليه وسلم — ورسالته ، ويقرن بين موقفهم هذا وما كان لهم من مواقف مع نبيهم موسى ، الذى يكفرون بمحمد ويزعمون أنهم به مؤمنون :

« يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء . . فقد سألوا موسى أكبر من ذلك ، فقالوا: أرنا الله جهرة! فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ، ثم اتخذوا العجل من بعدما جاءتهم البينات ، فعفونا عن ذلك وآتينا موسى سلطانا مبينا . ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم ، وقلنا لهم : ادخلوا الباب سجدا ، وقلنا لهم : لاتعدوا فى السبت وأخذنا منهم ميثاقا غليظا . فبما نقضهم ميثاقهم ،

وكفرهم بآيات الله ، وقتلهم الأنبياء بغير حق ، وقولهم: قلوبنا غلف ـ بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا ـ وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيما . وقولهم : إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله ـ وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم ، وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه ، ما لهم به من علم إلا اتباع الظن ، وما قتلوه يقينا ، بل رفعه الله إليه ، وكان الله عزيزا حكيما ، وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ، ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا ـ فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم ، وبصدهم عن سبيل الله كثيرا ،وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل ، وأعتدنا للكافرين منهم عذابا أليما » . .

وهكذا نجد أن سؤال اليهود للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن ينزل عليهم كتابا من السماء . كتابا مجسما لا قرآنا يوحى به إلى رسوله . ليس جديدا عليهم ، وليس غريبا على طبيعتهم . فهم هم من عهد موسى ، نبيهم ومنقذهم . هم هم غلظ حس فلا يدركون إلا المحسوسات . وهم هم تعنتا وإعناتا فلا يسلمون إلا تحت القهر والضغط . وهم هم كفرا وغدرا فسرعان ما ينقلبون فينقضون عهدهم لا مع الناس وحدهم ولكن مع خالق الناس . وهم هم قحة وافتراء فلا يعنيهم أن يتثبتوا من قول ، ولا يتورعون كذلك عن الجهر بالنكر . وهم هم طمعا فى عرض الدنيا ، وإعراضا عما عند الله من ثواب . .

إنهم يسألونك أن تنزل عليهم كتابا من السماء . . فلا عجب ولا غرابة « فقد سألوا موسى أكبر من ذلك ، فقالوا : أرنا الله جهرة » ولم تبلغ الآيات البينات التى أظهرها لهم الله على يد نبيهم موسى ومنقذهم أن تلمس وجدانهم ، أو أن تصل إلى مكمن العقيدة فى نفوسهم ؛ فطلبوا رؤية الله عيانا ، وهو مطلب سخيف ، يحمل فوق استحالة قدرتهم عليه ، طابع التبجح الذى لا يصدر عن إيمان . « فأخذتهم الصاعقة بظلمهم » وتجاوزهم لحدود العقل والإيمان .

ونعرف نحن أن الله قد عفا عنهم بعد هذه الفعلة المنكرة ، وردهم إلى الحياة . فماذا كان منهم من شكر ومن توبة ومن إيمان ؟ . . « ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات » جرياً على طبيعتهم الغليظة التى لا تتخللها بشاشة الإيمان : « فعفونا عن ذلك » كذلك .

ولكن اليهود هم اليهود ، لايفلح معهم إلا القهر والخوف : « وآتينا موسى سلطانا مبينا ، ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم ، وقلنا لهم : ادخلوا الباب سجدا ، وقلنا لهم : لا تعدوا فى السبت وأخذنا منهم ميثاقا غليظا » . . فالآن فقط وقد وهب الله موسى ذلك السلطان ، وقد رفع فوقهم الطور يرونه فوق رؤوسهم ويخافون ثقله أن يطحنهم . . الآن فقط أعطوا الميثاق ، على

أن يدخلوا باب مدينة معينة ـ لم يذكر القرآن اسمها لأن اسمها لايزيد شيئاً من العظة أو العبرة فى السياق ـ وهم ساجدون ، وأعطوا الميثاق أن يحترموا سبت بنى إسرائيل . أعطوا ميثاقا غليظا ، يذكر بهذه الصفة ليتناسق مع غلظ الصخر المرفوع فوقهم ، وغلظ القلب الذى تضمه صدورهم . وليعطى إلى جانب هذا التناسق فكرة الجسامة والوثاقة ومتانة العلاقة . .

ولكن ماذا كان ؟ إنهم بمجرد ذهاب الخوف عنهم ، وغياب القهر لهم ، تملصوا من الميثاق الغليظ فنقضوه ، وكفروا بآيات الله ، وقتلوا أنبياءهم بغير حق ، وتبجحوا فقالوا : إن قلوبنا لا تقبل موعظة ، لأنها مغلفة لا يصل إليها قول ! ـ والحق أن الله قد طبع عليها بسبب الكفر الذى يأخذونها به ، ويطمسون عليها بثقلته ـ فلم يعد ينفذ إليها الإيمان ، اللهم إلا قليلا من تلك القلوب ، التى لم تتحجر فيغلب عليها الضلال .

فبسبب من نقض الميثاق ، والكفر بآيات الله ، وقتل الأنبياء ، والتبجح بالضلال . وبسبب كذلك من كفرهم بما جاء بعدهم من ديانة وما جاء بعدهم من رسول ، وقولهم على مريم الطاهرة من بهتان ، وادعائهم أنهم قتلوا المسيح عيسى ابن مريم ، وتبجحهم بأنهم قتلوه بصفته « رسول الله » ! وبسبب من صدهم الناس عن سبيل الله وتضليلهم وإبقائهم على الكفر ، وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل . . . بسبب من هذا كله حرم الله عليهم كثيراً من الطيبات فى الدنيا ، وقد كانت مباحة لهم من قبل ، وأعد للكافرين منهم فى الآخرة عذاباً أليما .

يعرض السياق هذا كله رداً على مايطلبونه من الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن ينزل عليهم كتاباً من السماء . لبيان طبيعة القوم ، ونفى الغرابة عن هذا الطلب ، وهم له أهل ، وليس عليهم شىء من هذا بغريب !

وفى سياق الاستعراض يقرر القرآن حقيقة عن عيسى ـ عليه السلام ـ يكتنفها الغموض ، وتخبط فيها الظنون . بين التاريخ واليهود والمسيحيين . . تلك هى مسألة الصلب . .

إن اليهود يقولون : إنهم قتلوا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وصلبوه ؛ وهم يسخرون من قوله : إنه رسول الله ، فيقررون له هذه الصفة فى معرض قولهم : إنهم قتلوه وصلبوه . والمسيحيون يقولون : إنه صلب ودفن ولكنه قام بعد ثلاثة أيام . والتاريخ يسكت عن مولد المسيح ونهايته كأن لم تكن له فى حساب . .

وما من أحد من هؤلاء أو هؤلاء يقول ما يقول عن يقين . فلقد تتابعت الحوادث سراعا ، وتضاربت الروايات وتداخلت فى تلك الفترة بحيث يصعب الاهتداء إلى يقين .

والأناجيل الأربعة التى تروى قصة القبض على المسيح وصلبه وموته ودفنه وقيامه كلها كتبت بعد فترة من عهد المسيح . كانت كلها اضطهادا للمسيحية ، يتعذر معه تحقيق الحوادث فى جو السرية والخوف والتشريد .

وكتبت معها أناجيل كثيرة . ثم اختيرت هذه الأناجيل الأربعة فى نهاية القرن الثانى للميلاد واعتبرت رسمية واعترف بها . ومن بين الأناجيل التى كتبت فى فترة كتابة الأناجيل الكثيرة إنجيل برنابا ، وهو يخالف الأناجيل الأربعة المعتمدة فى قصة الصلب فيقول : « ولما دنت الجنود مع يهوذا من المحل الذى كان فيه يسوع سمع يسوع دنو جم غفير ، فلذلك انسحب إلى البيت خائفا ، وكان الأحد عشر نياما ، فلما رأى الخطر على عبده أمر جبريل وميخائيل ورفائيل وأدريل سفراءه أن يأخذوا يسوع من العالم ، فجاء الملائكة الأطهار ، وأخذوا يسوع من النافذة المشرفة على الجنوب ، فحملوه ، ووضعوه فى السماء الثالثة فى صحبة الملائكة التى تسبح إلى الأبد . . ودخل يهوذا بعنف إلى الغرفة التى أصعد منها يسوع ، وكان التلاميذ كلهم نياما ، فأتى الله العجيب بأمر عجيب ، فتغير يهوذا فى النطق وفى الوجه فصار شبيها بيسوع ، حتى أننا اعتقدنا أنه يسوع ، أما هو فبعد أن أيقظنا أخذ يفتش لينظر أين كان المعلم . لذلك تعجبنا وأجبنا أنت يا سيدى معلمنا . أنسيتنا الآن . . . الخ »(١)

وهكذا لا يستطيع الباحث أن يجد خبرا يقينا عن تلك الواقعة . ولا يجد المختلفون فيها لهم سندا يرجح رواية على رواية : « وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه ما لهم به من علم إلا إتباع الظن » .

أما القرآن فيقرر قراره الفصل فى هذه الحادثة : « وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم » . . « وما قتلوه يقيناً بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزا حكيما » .

ولا يدلى القرآن بتفصيل فى هذا الرفع ،أ كان بالجسد والروح ، أم كان بالروح بعد الوفاة . ومتى كانت هذه الوفاة وأين إذا لم يكونوا قد صلبوه أو قتلوه ، إنما شبه لهم ذلك ، ووقع الصلب والقتل على سواه .

لا يدلى القرآن بتفصيل آخر وراء تقرير تلك الحقيقة . ونحن - على طريقتنا فى ظلال القرآن - لا نريد أن نخرج على تلك الظلال ، ولا نريد أن نضرب فى أقاويل وأساطير ليس لدينا عليها من دليل . وليس لنا إليها من سبيل . فنقف عند حدود النص القرآنى ولا نزيد .

---

(١) نقلا عن كتاب : محاضرات فى النصرانية للأستاذ الشيخ محمد أبو زهره أستاذ الشريعة بكلية الحقوق .

ثم نلتقى بنص آخر عن اليهود الذين كفروا بعيسى وقالوا : إنهم قتلوه :

« وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ، ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا »

وهناك قراءة : « إلا ليؤمنن به قبل موتهم » . . وهذه القراءة تهدينا إلى تفسير نرتضيه لهذا النص ، ونؤثره على أوجه أخرى للتفسير فى كتب التفسير . . هـذا الوجه الذى تؤيده القراءة الثانية هو أن اليهود الذين كفروا بعيسى ، وما زالوا على كفرهم به ، ما من أحد منهم يدركه الموت ، حتى تـكشف له الحقيقة عند حشرجة الروح ، فيرى أن عيسى حق ، ورسالته حق ، فيؤمن به ، ولـكن حيث لا ينفعه إيمان . ويوم القيامة يكون عيسى عليهم شهيدا .

بذلك يحسم القرآن الـكريم قصة الصلب . وصدق الله العظيم .

***

ويعود السياق إلى بنى إسرائيل ، ليستثنى منهم القلة التى اهتدت إلى الإيمان . وهم الراسخون فى العلم منهم والمؤمنون :

« لـكن الراسخون فى العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك » . . فالعلم الراسخ والإيمان المنير ، كلاهما يقود أهله إلى الإيمان بالرسول — صلى الله عليه وسلم — وإلى الإيمان بما أنزل من قبله كذلك . . كلاهما يقود إلى توحيد الإيمان ، الذى جاء به الإسلام . أما العلم الناقص ، والـكفر الجاحد ، فهما اللذان يفرقان الديانات ويفرقان الرسل ويفرقان النـاس .

ثم يقرر السياق حكم الذين يؤمنون هذا الإيمان ، فيقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ، ويؤمنون بالله واليوم الآخر ، وما ينتظرهم فى الآخرة من جزاء :

« والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة ، والمؤمنون بالله واليوم والآخر ، أولئك سنؤتيهم أجرا عظيما » (١) . .

***

(١) نرى فى هذه القراءة : أن المقيمين الصلاة منصوبة ، والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر مرفوعتان . . ولـكن هناك قراءة أخرى بالرفع « المقيمون » . . وإن كان النصب واردا فى جميع المصاحف سوى مصحف عبد الله بن مسعود . وله تعليلات نحوية نؤثر نحن عليها قراءة الرفع الواردة فيها . .

وفى صدد توحيد العقيدة وتوحيد الرسل ، وردا على ماطلبه أهل الكتاب من الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن ينزل عليهم كتابا من السماء ؛ يقرر السياق أن الإيحاء للرسول ليس بدعا وليس غريبا ، فهو سنة الله فى إرسال الرسل جميعا . من عهد نوح إلى عهد محمد . وكلهم رسل أرسلوا للتبشير والإنذار ، للإعذار للناس قبل الحساب .

« إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ، وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ، وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان ، وآتينا داود زبورا . ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ، ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما . رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل . وكان الله عزيزا حكيما »

فهى إذن سلسلة واحدة ، ورسالة واحدة ، وطريقة واحدة . وإذا كان الله قد كلم موسى تكليما ، فنحن لا نعرف كيف كان هذا الكلام ، لأن القرآن ـ وهو المصدر المعتمد الوحيد الذى لا يرقى إليه الشك ـ لم يفصل لنا فى ذلك شيئا ؛ فلا نعلم إلا أنه كان كلام . ولكن ما طبيعته ، وكيف تم ، وبأية حاسة كان موسى يتلقاه ، وكيف تلقاه بحواس الإنسان . . كل ذلك غيب لم يحدثنا عنه القرآن . وليس وراء القرآن ـ فى هذا الباب ـ إلا الأساطير التى لا تستند إلى برهان .

هؤلاء الرسل ، ما قص الله على رسوله من أمرهم وما لم يقصص ، جاءوا لمهمة واحدة . جاءوا مبشرين ومنذرين . يبشرون الناس بالهداية إلى الله ، وبما ينتظر المهتدين من فضل الله . وينذرون الذين لا يؤمنون مغبة الكفر ، ليأخذوا بيدهم إلى الإيمان . . كل أولئك كى لا يكون للناس حجة ولا عذر عند الله .

وتبلغ عدالة الله ، أن ترتب لخلقه عليه حجة ـ لولم يرسل إليهم الرسل مبشرين ومنذرين ـ ولله الحجة البالغة فى الوجود كله ، فكل نواميسه توحى بالخالق الواحد ، الذى لا يقوم الوجود إلا به ، ولا ينتظم إلا بتدبيره . وحيثما مد الإنسان بصره وجد آثارا من الناموس الواحد الخالد . وحيثما تأمل فى ذاته أو فيما حوله وجد دلائل الإيمان . ولكن عدل الله يرتب لخلقه عليه حجة ، ويجعل لعباده عنده معذرة ، لو لم يرسل إليهم الرسل يهدونهم إلى دلائل الإيمان فى الكون والحياة . إن الرسل لا ينشئون الإيمان إنشاء ، إنما يوقظون الإيمان الكامن فى الفطرة ، وينيرون البصيرة فتهتدى إلى دلائله فى النفس والآفاق .

* **

وإذا أنكر أهل الكتاب آيات الله التى جاء بها محمد رسول الله ، وإذا طلبوا برهانا فى صورة كتاب يأتيهم من السماء . فلا عليك يا محمد فهم ينكرون : « لكن الله يشهد بما أنزل إليك، أنزله بعلمه ، والملائكة يشهدون ، وكفى بالله شهيدا »

ثم يعقب على ذلك بالتهديد الذى يليق بالمنكرين :

« إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله قد ضلوا ضلالا بعيدا . إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقا ، إلا طريق جهنم خالدين فيها أبدا ، وكان ذلك على الله يسيرا » . .

وما فى هذا من ظلم . فلقد اختاروا الضلالة على الهدى ، وكل موحيات الإيمان حاضرة . ولقد سلكوا طريق جهنم فأغلق الله عليهم كل طريق سواه . جزاء وفاقا على ضلال الاختيار .

ومن ثم دعوة إلى الناس كافة ، أن هذا الرسول إنما جاء بالحق من عند ربهم . فمن آمن به فهو الخير . ومن كفر فإن الله غنى عنهم جميعا . وله ما فى السماوات والأرض فهو يعلم مافيهما ويصرفهما بحكمته مع من فيهما :

« يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم . فآمنوا خيرا لكم . وإن تكفروا فإن لله ما فى السماوات والأرض . وكان الله عليما حكيما » . .

« يَا أَهْلَ ٱلْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ ، وَلَا تَقُولُوا عَلَى ٱللهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ، إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ ؛ فَآمِنُوا بِٱللهِ وَرُسُلِهِ ، وَلَا تَقُولُوا : ثَلَاثَةٌ ٱنْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ ، إِنَّمَا ٱللهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ، سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ، لَهُ مَا فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ، وَكَفَى بِٱللهِ وَكِيلًا * لَنْ يَسْتَنْكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلهِ ، وَلَا ٱلْمَلَائِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ؛ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا * فَأَمَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ؛ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنْكَفُوا وَٱسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ، وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ ٱللهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا .

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا * فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا » .

فى الدرس الماضى أنصف القرآن الكريم عيسى ابن مريم وأمه الطهور ، من افتراءات اليهود ، وادعاءاتهم التى لا برهان عليها ولا دليل .

وفى هذا الدرس يتجه الخطاب إلى النصارى لإنصاف المسيح من أقاويلهم كذلك ، وإنصاف العقيدة فى الله مما خلطوا بها من أوهام وأساطير .

والقرآن يعنى بهذا الإنصاف ، وبتصحيح العقيدة فى الله ، جريا على سنته فى العدل والحق ، وجريا على سنته فى توحيد الله وتوحيد دينه . . ذلك التوحيد المطلق الواضح المحدد ، المبرأ من الغموض ، هو أساس العقيدة الإسلامية ، وهو أساس كل عقيدة سماوية . وبدونه تختلط التصورات ، ويدخل الناس فى متاهة لا هادى لهم فيها ولا دليل .

والقضية التى يعرضها السياق هنا هى قضية التثليث . . .

والثابت من البحث العلمى فى تطور العقائد المسيحية أن عقيدة التثليث لم تصاحب المسيحية الأولى ، إنما دخلت إليها بعد فترة ، ودخلت إليها فى خطوات متدرجة ، ودخلت إليها مع الوثنيين الذين دخلوا فى المسيحية ولم يبرأوا بعد من التصورات الوثنية والآلهة المتعددة . وقد ظل الموحدون المسيحيون يقاومون إلى مابعد القرن الخامس الميلادى على الرغم من كل ما لقوه من اضطهاد . .

وما تزال فكرة التثليث تصدم عقول المثقفين من المسيحيين ؛ فيحاول رجال الكنيسة أن يجعلوها مقبولة لهم بشتى الطرق ، وبالإحالة إلى مجهولات لا ينكشف سرها للبشر إلا يوم يكشف الحجاب عن كل ما فى السموات وما فى الأرض(١) ! ولا نحب أن ندخل فى سرد

(١) يقول صاحب رسالة الأصول والفروع أحد شراح العقيدة المسيحية : « قد فهمنا ذلك على قدر طاقة عقولنا ، ونرجو أن نفهمه فهما أكثر جلاء فى المستقبل حين ينكشف لنا الحجاب عن كل ما فى السماوات والأرض » . . . . نقلا عن كتاب محاضرات فى النصرانية للأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة . .

تاريخى للطريقة التى تسللت بها هـذه الفـكرة إلى المسيحية ، وهى إحدى ديانات التوحيد الأساسية . بل نـكتفى هنا باستعراض الآيات القرآنية الواردة فى السياق ، لتصحيح هذه الفـكرة الدخيلة على ديانات التوحيد .

* * *

« يا أهل الـكتاب لا تغلوا فى دينـكم ، ولا تقولوا على الله إلا الحق ، إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله ، وكلمته ألقاها إلى مريم ، وروح منه . فآمنوا بالله ورسله ، ولا تقولوا : ثلاثة . انتهوا خيرا لـكم . إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد ، له مافى السموات وما فى الأرض ، وكفى بالله وكيلا » .

فهو الغلو إذن ، وتجاوز الحد والحق ، هو ما يدعو أهل الـكتاب هؤلاء إلى أن يقولوا على الله غير الحق ، ليثبتوا له ولدا ـ وإن كانوا يفسرون هذا بأنه ليس عن ولادة كولادة البشر ، ولـكن عن صلة المحبة بين الأب والابن ـ وليصوروا الإله الواحد ثلاثة فى واحد ـ وإن كانوا غير قادرين على إدخال هذا التصور المتناقض إلى عقل البشر فهم يحيلونه إلى معميات غيبية لا تنـكشف إلا بانـكشاف حجاب السماوات والأرض ـ والله سبحانه تعالى عن الشركة وتعالى عن المشابهة ، ومقتضى كونه خالقا للـكل يستتبع أن يكون غير الـكل ؛ وما يملك عقل أن يتصور إلا هذا التغاير بين الخالق والخلق .

وإذا كان مولد عيسى من غير أب عجيبا فى عرف البشر ، فقد قلنا من قبل : إنه العجب الذى تنشئه مخالفة المألوف للبشر . هذا المألوف الذى لايعتمد على استقصاء كامل ، ولا على معرفة مطلقة للسنن الـكونية ؛ والله خالق هـذه السنن هو وحـده الذى يعرفها جميعا ؛ ويصرفها حسب مشيئته ؛ ويخلق سواها وينفذه كما خلق هذه السنن وأجراها ، ولا حدود لمشيئته .

والله يبين حقيقة المسيح ـ عليه السلام ـ على وجه القصر : « إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه » ..

ولقد قلنا من قبل : إن كل مخلوق يوجد بكلمة من الله .. « إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له : كن فيكون » .. فالـكلمة هى توجه الإرادة . وليس عيسى بدعا فى ذلك . فهو كلمة الله « وروح منه » هو هذا الروح الذى كان به آدم إنسانا ؛ وجسده لايزيد عنصرا واحدا على عناصر التراب ، ولايتميز إلا بهذا الروح الذى تلقاه من الله . هذا الروح كذلك تلقته مريم ـ على نحو لا ندركه نحن ، ولم تدركه هى ، بل عجبت أن يكون لها ولد ولم يمسسها بشر ـ

فـكان منه عيسى كما كان منه آدم . كلاهما تلقاه أول مرة فإذا هو إنسان حى ، لا عن ولادة معهودة ، ولـكن عن طريق مباشر ، وكلاهما فيه سواء مع بعض الاختلاف . .

فإذا تصدى منـكر لإنـكار استواء آدم إنسانا عن طريق هذا الروح ، فليعلل إذن كيف وجدت الحياة أصلا على هذه الأرض . فتفسير تطور الخلية الحية على طريقة دارون لا يفسر كيف جاءت الحياة الأولى إلى تلك الخلية . والهرب من مواجهة القضية لا يكفى تفسيراً لها ، فلابد لها من تفسير .

إن الذى وهب الخلية الأولى فى الأرض حياة عن طريق لا ندركه ولا نعرفه ، لهو الذى وهب الخلية الثانية فى بطن مريم حياة ، فإذا هى عيسى ابن مريم .. وهذا الـكلام أولى من تلك الأساطير التى لا تنتهى عن ألوهية المسيح ، لمجرد أنه جاء من غير أب ، كما جاءت الحياة الأولى ، من روح الله . وعن ألوهية الأقنوم الثالث « روح القدس » الذى كان واسطة بين الأب والأم . تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

« فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا : ثلاثة . انتهوا خيرا لـكم » . . « إنما الله إله واحد » تشهد بذلك وحدة الناموس ، ووحدة الخليقة ، ووحدة الوسيلة : « كن فيـكون » ويشهد بذلك العقل الذى لا يتصور خالقا يشبه مخلوقاته ، ولا ثلاثة يمكن أن تـكون واحدا ، ولا واحدا يمكن أن يكون ثلاثة ! « سبحانه أن يكون له ولد » والولادة امتداد للفانى أو محاولة للبقاء . والله الباقى غنى عن الامتداد وهو واجب البقاء . . وكل مافى السماوات وما فى الأرض ملك إرادته فما هو محتاج . ونسبة كل شىء إليه سبحانه هى نسبة الخلق إلى الخالق ، والمملوك إلى المالك ، يستوى فى ذلك كل ما فى الـكون وكل من فى الـكون .

والمسيح ابن مريم لا يتعالى عن أن يكون واحدا من عباد الله ، لأنه ـ عليه السلام ـ وهو نبى الله ورسوله يوقن أنه من خلق الله ، ويعلم أن الـكل عبيد الله ، وأن العبودية لله لا تنقص من قدره ولا من قدر رسل الله وملائـكته . فالعبودية لله مرتبة لا يأباها إلا كافر بنعمة الخلق والإنشاء :

« لن يستنـكف المسيح أن يكون عبداً لله ، ولا الملائـكة المقربون ؛ ومن يستنـكف عن عبادته ويستـكبر فسيحشرهم إليه جميعا » ..

سيحشر الجميع عابدين ومستنـكفين من العبادة :

« فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله ، وأما الذين

استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذابا أليما ، ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا » . .

إن الذين أقروا بعبوديتهم لله هم الذين آمنوا فعرفوا حقيقة الصلة بين الخلق والخالق ؛ وعملوا الصالحات لأن عمل الصالحات هو الثمرة الطبيعية لتلك المعرفة . وما يريد الله من عباده أن يعبدوه لأنه بحاجة إلى عبادتهم ، ولا لأنها تزيد فى ملكه تعالى أوتنقص من شىء ؛ ولكن يريد أن يعبدوه وحده ليستعلوا على كل من سواه ؛ وليرفعوا جباههم أمام المتجبرين والطغاة معتزين بالله ؛ وليعملوا الخير يبغون بالخير قربه ورضاه ؛ وليتجردوا من شهواتهم وعصبياتهم وملابساتهم الأرضية متطلعين إلى وجهه فى علاه ؛ وليرتفعوا عن ثقلة الأرض وضروراتها وهم يتطلعون إلى ذلك الأفق الوضىء الكريم .

لهذا يوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله . لأنهم عرفوا ، ولأنهم عملوا ، ولأنهم أصلحوا فى الأرض ، ولأنهم زادوا فى محصول الحياة .

وأما الذين استنكفوا واستكبروا . . فأولئك هم الذين جهلوا فقادتهم الجهالة إلى كبرياء فارغة جوفاء ، تصد عن الخير ، لأن الخير يحتاج إلى باعث أكبر من دوافع الأرض ، وأعلى من ضرورات الأرض . ولقد يصدر الخير عن المنقطعين عن الله ؛ ولكنه خير تبعثه نزوة طارئة وغاية محدودة ، فإذا تغيرت النزوة ، أو انقلبت الغاية غاض معين الخير لأنه لا يستمد من النبع الذى لا ينضب ولا يغيض ؛ وتبدلت مقاييس الأمور لأنه ليس هنالك معيار ثابت على تقلب الغايات وتبدل الأهواء . . لذلك يعذبهم الله عذابا أليما ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا .

إن تعليق أنظار البشر بالله ، وتعليق قلوبهم برضاء الله ، وتعليق أعمالهم بتقوى الله . . إن هذا كله لرصيد من الخير يضاف إلى حساب هذه البشرية فى حياتها الأرضية ، قبل أن يضاف إلى حسابها يوم لقاء الله فى الآخرة . وإنه لزاد من الخير تستمتع به فى هذه الأرض ؛ فما يمنحها الله فى الآخرة إن هو إلا كرم منه وفضل .. وعلى هذا الضوء المنير يحسن أن ندرك الإيمان والدعوة إليه . فالإيمان بالله وحده معناه حياة أكرم ، ومجتمع أفضل ، وبشرية أطهر . والانسلاخ من الإيمان بالله الواحد معناه عبودية لغير الله ، من الأشخاص ، ومن القيم ، ومن الأوضاع ، ومن المآرب والشهوات ، ومن العصبيات والعلاقات ؛ ومعناه اضطراب المعايير فلا ترجع إلى أصل ثابت ، واضطراب القيم فلا ترجع إلى مقياس صحيح ، واضطراب العلاقات بين الناس ، فما تحكمها إلا المصلحة ، والمصلحة مختلفة بين هذا وذاك :

والذى يستنكف من العبودية لله ويستعلى عليها ، يذل لعبوديات فى هذه الأرض لا تنتهى ؛

ولا يجد له فى الآخرة وليا من دون الله ولا نصيرا . جزاء وفاقا على الاستعلاء الكاذب على الولى الفرد والنصير الواحد .

ومن ثم دعوة إلى الناس كافة — كتلك الدعوة التى أعقبت الجدل مع اليهود فى الدرس الماضى — أن الرسالة الأخيرة تحمل برهانها من الله ، وهى نور كاشف للظلمات والشبهات ؛ فمن اهتدى بها ، واعتصم بالله من الشبهات المهلكة ، فسيجد رحمة الله تؤويه ، وسيجد فضل الله يشمله ، وسيجد فى ذلك النور هدى إلى الصراط المستقيم :

« يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم ، وأنزلنا إليكم نورا مبينا . فأما الذين آمنوا بالله ، واعتصموا به فسيدخلهم فى رحمة منه وفضل ، ويهديهم إليه صراطا مستقيما » ..

« يَسْتَفْتُونَكَ . قُلِ : اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ ، إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ ، وَلَهُ أُخْتٌ ، فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ؛ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ ؛ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ؛ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ . يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » .

وهكذا تختم السورة التى بدأت بعلاقات الأسرة وتكافلها الاجتماعى .. تختم بتكملة أحكام الكلالة ، التى ورد شطر منها فى آيتى المواريث فى أول السورة . الشطر الذى يتعلق بوراثة الكلالة من جهة الرحم حين لا توجد عصبة . وقد كان نصه هناك : « وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة ، وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس ، فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء فى الثلث — من بعد وصية يوصى بها أو دين غير مضار . وصية من الله والله عليم حليم » .

وقد قلنا هناك : إن الأخ لأم والأخت لأم سويا فى ميراث الكلالة ، لأن هذه ليست جهة الإرث الأساسية بالقياس إليهما ، إنما جهة الإرث الأساسية هى فى العصبة . عند ما يكون الأخ والأخت شقيقين أو لأب . فعند ذلك تسرى القاعدة العامة : « للذكر مثل حظ الأنثيين » لعلتها التى ذكرناها هناك .

فالآن يستكمل الشطر الآخر فى وراثة الكلالة . فإن كانت أخت شقيقة أو لأب فلها نصف ما ترك أخوها الذى لا ولد له . وهو يرث تركتها ـ بعد أصحاب الفروض ـ إن لم يكن لها ولد . فإن كانت أختان شقيقتان أو لأب فلهما الثلثان مما ترك . وإن تعدد الإخوة والأخوات فللذكر مثل حظ الأنثيين ، حسب القاعدة العامة فى الميراث . ولا يخفى أن الإخوة والأخوات الأشقاء يحجبون الإخوة والأخوات لأب ، كما هو معلوم .

وتختم آية الميراث وتختم السورة معها بذلك التعقيب القرآنى ، الذى يرد الأمور كلها لله ، ويربط الأمور كلها به :

« يبين الله لكم أن تضلوا . والله بكل شىء عليم » ..

صيغة جامعة شاملة « بكل شىء » من الميراث وغير الميراث . من علاقات الأسر وعلاقات الجماعات . من الأسباب والنتائج . من الأحكام والعلل .. ختام يرد الأمور كلها لمن هو بكل شىء عليم .

سورة المائدة مدنية
إلا آية ٣ فنزلت بعرفات في حجة الوداع
وآياتها ١٢٠ نزلت بعد الفتح

بسم الله الرحمن الرحيم

« يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا أوْفُوا بِالْعُقُودِ ، أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الأنْعامِ إلاَّ ما يُتْلَى عَلَيْكُمْ ، غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأنْتُمْ حُرُمٌ . إنَّ اللهَ يَحْكُمُ ما يُرِيدُ * يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا شَعائِرَ اللهِ ، وَلا الشَّهْرَ الْحَرامَ وَلا الْهَدْيَ ، وَلا الْقَلائِدَ ، وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْواناً ؛ وَإذا حَلَلْتُمْ فَاصْطادُوا ؛ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ أنْ تَعْتَدُوا ؛ وَتَعاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ؛ وَلا تَعاوَنُوا عَلَى الإثْمِ وَالْعُدْوانِ ؛ وَاتَّقُوا اللهَ ، إنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقابِ .

« حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَما أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ ، وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ ، وَما أكَلَ السَّبُعُ - إلاَّ ما ذَكَّيْتُمْ - وَما ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ ، وَأنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالأزْلامِ ، ذلِكُمْ فِسْقٌ . الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ ، فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ . الْيَوْمَ أكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ، وَأتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ، وَرَضِيتُ لَكُمُ الإسْلامَ دِيناً . فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجانِفٍ لِإثْمٍ فَإنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

يسألونكَ ماذا أُحِلَّ لهم ؟ قلْ : أُحِلَّ لكمُ الطَّيِّباتُ ، وما علَّمتم منَ الجوارحِ مُكلِّبينَ تُعلِّمونهنَّ مما علَّمكمُ اللهُ ، فكلوا مما أمسكنَ عليكمْ ، واذكروا اسمَ اللهِ عليهِ ، واتقوا اللهَ ، إنَّ اللهَ سريعُ الحسابِ * اليومَ أُحِلَّ لكمُ الطيباتُ ؛ وطعامُ الذينَ أُوتوا الكتابَ حِلٌّ لكمْ ، وطعامُكمْ حِلٌّ لهمْ ، والمحصناتُ منَ المؤمناتِ ، والمحصناتُ منَ الذينَ أُوتوا الكتابَ منْ قبلِكمْ ـ إذا آتيتموهنَّ أجورَهنَّ محصنينَ غيرَ مسافحينَ ولا متخذي أخدانٍ . ومَنْ يكفرْ بالإيمانِ فقدْ حبطَ عملُهُ ، وهوَ في الآخرةِ منَ الخاسرينَ .

يا أيها الذينَ آمنوا إذا قمتمْ إلى الصلاةِ فاغسلوا وجوهَكمْ وأيديَكمْ إلى المرافقِ ، وامسحوا برؤوسِكمْ ، وأرجلَكمْ إلى الكعبينِ ؛ وإنْ كنتمْ جُنُباً فاطَّهَّروا ؛ وإنْ كنتمْ مرضى أوْ على سفرٍ ، أوْ جاءَ أحدٌ منكمْ منَ الغائطِ ، أوْ لامستمُ النساءَ ، فلمْ تجدوا ماءً ، فتيمموا صعيداً طيباً ، فامسحوا بوجوهِكمْ وأيديكمْ منهُ ، ما يريدُ اللهُ ليجعلَ عليكمْ منْ حرجٍ ، ولكنْ يريدُ ليطهرَكمْ ، وليتمَّ نعمتَهُ عليكمْ لعلكمْ تشكرونَ * واذكروا نعمةَ اللهِ عليكمْ ، وميثاقَهُ الذي واثقكمْ بهِ إذْ قلتمْ : سمعنا وأطعنا ، واتقوا اللهَ ، إنَّ اللهَ عليمٌ بذاتِ الصدورِ .

« يا أيها الذينَ آمنوا كونوا قوَّامينَ للهِ شهداءَ بالقسطِ ؛ ولا يجرمنَّكمْ شنآنُ قومٍ على ألاَّ تعدلوا . اعدلوا هوَ أقربُ للتقوى ؛ واتقوا اللهَ ، إنَّ اللهَ خبيرٌ بما تعملونَ .

« وعدَ اللهُ الذينَ آمنوا وعملوا الصالحاتِ لهمْ مغفرةٌ وأجرٌ عظيمٌ * والذينَ كفروا وكذبوا بآياتِنا أولئكَ أصحابُ الجحيمِ .

« يا أيها الذينَ آمنوا اذكروا نعمةَ اللهِ عليكمْ ، إذْ همَّ قومٌ أنْ يبسطوا إليكمْ أيديَهمْ فكفَّ أيديَهمْ عنكمْ ؛ واتقوا اللهَ وعلى اللهِ فليتوكلِ المؤمنونَ » .

نزل هذا القرآن الكريم على قلب الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لينشىء به أمة ، وليقيم به دولة ، ولينظم به مجتمعا ، وليربى به ضمائر وأخلاقا وعقولا ، وليربط ذلك كله برباط قوى ، يجمع متفرقه ، ويؤلف أجزاءه ، ويشدها كلها إلى منزل هذا القرآن على قلبه ، وإلى خالق الناس الذى أنزل هذا القرآن للناس .

ومن ثم نجد فى كثير من سور القرآن تشريعا إلى جانب موعظة ، وقصة إلى جانب فريضة ؛ ونجد التشريع الذى ينظم العلاقات الاجتماعية والدولية إلى جانب التشريع الذى يحل ويحرم ألوانا من الطعام ، أو ألوانا من السلوك والأعمال ، مربوطا هذا إلى ذاك ، لأن هذا القرآن يجعل الحياة الإنسانية وحدة لا تتجزأ ؛ وقد جاء لينشىء أمة على غير مثال مسبوق ، وليخلق مجتمعا من صنعه لا من صنع الملابسات والظروف .

وهذه السورة ـ سورة المائدة ـ مثل لتلك السور التى تلتقى فيها التربية الوجدانية بالتربية الاجتماعية ، بتشريع الحلال والحرام فى الطعام والزواج ، بتشريع المعاملات الدولية فيما بين المسلمين وغير المسلمين ، بتعليم بعض الشعائر التعبدية ، ببيان الحدود والعقوبات فى بعض الجرائم الاجتماعية ، بالمثل والموعظة والقصة ، بتصحيح العقيدة وتنقيتها من الأسطورة والخرافة . . . فى تناسق واتساق .

وهى تبدأ خطابا للذين آمنوا أن يوفوا بالعقود . . العقود كلها على اختلاف أنواعها وأشكالها . فتدخل فى العقود المعاملات والمعاهدات بظاهر اللفظ ، كما تدخل إقامة الحدود وتحريم المحرمات ، بوصفها داخلة فى العقد الأول ـ عقد الإسلام ـ بين الله ورسوله والذين آمنوا بالله ورسوله . .

ومن ثم يرد ذكر مواثيق الله مع المسلمين ومع بنى إسرائيل ، ويرد بعض القصص يكشف عما فعلت إسرائيل بالمواثيق ، وما فعل اليهود والنصارى بأحكام التوراة وأحكام الإنجيل ، وهى داخلة فى تلك المواثيق .

ومن ثم يرد الأمر للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يبلغ ما أنزل إليه من ربه وإلا فما بلغ رسالته التى تعاقد مع الله على أدائها . ويرد التهديد لمن يرتد من المسلمين ويخالف عقده مع الله وعهده ، بأن الله سيأتى بقوم يحبهم ويحبونه ، أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين . .

وعلى وجه العموم فإننا نجد سياق السورة كله يدور حول العقود والمواثيق فى شتى صورها حتى حوار الله والمسيح يوم القيامة ـ الوارد فى نهاية السورة ـ نجده سؤالا عما عهد الله به إليه ، وعما إذا كان قد خالف عنه كما زعم الزاعمون بعده ؟

هذا من ناحية موضوعات هـذه السورة وجوها بصفة عامة . . فأما هذا الدرس الأول منها فيتضمن بعد الأمر بالوفاء بالعقود ، نماذج من هذه العقود فى التحليل لبعض الأطعمة أو تحريمها . وفى رعاية الأشهر الحرم ، ورعاية الشعائر والحرمات . وفى إقامة العدل بين الناس وعدم العدوان حتى مع الشنآن . وفى أحكام الطهارة . ثم فى التذكير بميثاق الذين آمنوا مع الله أن يقوموا بالقسط ، وتذكيرهم بنعمة الله عليهم وقد دفع عنهم العدوان .

* * *

« يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود . أحلت لـكم بهيمة الأنعام – إلا ما يتلى عليـكم – غير محلى الصيد وأنتم حرم . إن الله يحكم مايريد . يا أيها الذين آمنوا لاتحلوا شعائر الله ، ولا الشهر الحرام ، ولا الهدى ، ولا القلائد ، ولا آمين البيت الحرام يبتغون فضلا من ربهم ورضوانا . وإذا حللتم فاصطادوا ، ولا يجرمنـكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا ؛ وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ؛ واتقوا الله . إن الله شديد العقاب » .

إنه لا بد من ضوابط للحياة . حياة الفرد مع نفسه ، وحياته مع غيره . هذه الضوابط لا بد لها من احـترام يضمن ألا تنتهك وألا يستهتر بها ، وألا يكون الأمر فيها للأهواء والشهوات . . . والعقود هى هذه الضوابط التى تنظم العلاقات ، لأنها تقيم حدود الحرية فلا تدعها فوضى ؛ وتجعل الحياة شركة ذات أطراف ، لا يجور فيها طرف على طرف . والعقود فى معناها الواسع تشمل الديانات والشعائر والعبادات والمعاملات والمعاهدات لأن هذه كلها عقود ترتبط بها نفس الفرد وضميره ، ويتحدد بها عمله وسلوكه . . . فالأمر بالوفاء بالعقود أمر بإقامة ضوابط للحياة ، ما استـكن منها وما ظهر على السواء . ما تعلق منها بالضمير وما تعلق منها بالسلوك . ما كان بين المرء وربه ، وما كان بينه وبين غيره . . والإسلام يربط هذه العقود كلها بالله ، ويجعل الوفاء بها فريضة ، ويوجه الأمر للذين آمنوا فـكتبوا بقلوبهم عقد الإيمان ، أن يفوا بسائر العقود التى ارتبطوا بها مع عقد الإيمان .

ثم يبدأ هنا فى تفصيل بعض هذه العقود . .

« أحلت لـكم بهيمة الأنعام – إلا ما يتلى عليـكم – » فحلال لـكم أن تأكلوا كل ما يدخل تحت مدلول « بهيمة الأنعام »[1] إلا ماسيأتى بيانه بعد قليل (وأخر هذا البيان مؤقتا ووقف

(١) هى الإبل والبقر والغنم عند العرب ويضاف إليها الوحشى منها كالظباء والبقر والحمر الوحشية فهى كذلك حلال .

عند هذا الإجمال ، ليتناول فى الآية الأولى كليات مجملة بالتحريم ، فيكون التحليل عاما والتحريم عاما ، قبل التفصيل) .

« غير محلى الصيد وأنتم حرم » .. فالإحرام للحج تجرد عن أسباب الحياة العادية ، وتوجه إلى الله فى بيته الحرام . ثم هو امتناع عن الاعتداء فى كل صوره ، حتى على الطير والحيوان ، وهى فترة نفسية ضرورية للنفس البشرية تستشعر فيها صلة الحياة بين جميع الأحياء ، وتأمن فيها وتؤمن من كل اعتداء ؛ وتتخفف من ضرورات المعاش التى أباحت صيد الطير والحيوان وأكله ، لترتفع فى هذه الفترة على ضرورات اللحم والدم فى كيان الإنسان . . . « إن الله يحكم ما يريد » وهذا حكمه ، فليتقبله الناس راضين طائعين .

ومناسك الحج وما فيها من ممنوعات على المحرم حتى ينهى إحرامه بنحر الهدى[1] الذى ساقه إلى البيت الحرام . والأشهر الحرم التى لا يحل فيها قتال . والهدى الذى لا يذبح إلا يوم النحر . والقلائد وهى ما كان يتخذ من شجر الحرم فيتقلد به من يريد الأمان ، ويحرم إيذاؤه وعليه هذه القلائد ما لم يبدأ بالعدوان . والذين يؤمون البيت الحرام للتجارة الحلال وطلب الرضوان من الله . . . كل أولئك محرمات لا تجوز استباحتها ، داخلة فى العقود التى يجب الوفاء بها .

إنها منطقة الأمان يقيمها الله فى بيته الحرام ، كما يقيم فترة الأمان فى الأشهر الحرم . . . منطقة يأمن فيها الناس والحيوان والطير والشجر أن ينالها الأذى ، وأن يروعها العدوان . إنه السلام المطلق يرفرف على هذا البيت فلا يروعه خوف ، ولايهيجه فزع . وإنه لسلام الضمير البشرى يستشعره فترة من الزمان ويتذوق حلاوته ليحرص عليه وليعمل له فى كل زمان وفى كل مكان ؛ لذلك يهيب القرآن بالمؤمنين :

« يأيها الذين آمنوا لاتحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ولا الهدى ولا القلائد ولا آمين البيت الحرام يبتغون فضلا من ربهم ورضوانا . وإذا حللتم فاصطادوا » بعد منطقة الأمان وفترة السلام .

وفى جو الحرمات ، وفى منطقة الأمان ، يدعو الإسلام دعوته لكف العدوان ، حتى على الذين صدوا المسلمين عن البيت الحرام ــ عام الحديبية ــ وتركوا فى نفوس المسلمين ندوبا وجروحا من هذا الصد، وخلفوا فى قلوبهم الكره والبغض..حتى على هؤلاء لايجوز العدوان :

---

(١) الذبيحة التى يسوقها الحاج أو المعتمر ، وينحرها يوم النحر فينهى بها حجه أو عمرته وهى شاة أو بقرة يطعمها للفقراء .

« ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا » . . وتجىء هذه الدعوة فى أوانها فى فترة السلام ؛ وفى مكانها فى منطقة الأمان ، لتغسل مافى القلوب من بغض وشنآن ، ولتحمل هذه النفوس على الضبط والكتمان ؛ ولتقول للأمة المسلمة : اذكرى عقدك مع الله ، أن تكونى الأمة الوسط التى تشهد على الناس ، والتى تقيم القسط بين الناس ، والتى لا تتعاون على الإثم والعدوان ، لكن تتعاون على البر والتقوى والعدل بين الناس :

« وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ، واتقوا الله إن الله شديد العقاب » . .

وهو تعقيب لتهديد من لا يتق ، ومن لا يفى بالعقد الأول ، ومن تجرفه دفعة الشنآن إلى شاطىء العدوان .

إنها قمة فى ضبط النفس ، وفى سماحة القلب ، وفى انتهاج العدل ، يحدو إليها هذا القرآن ، ويأخذ بيد البشر إليها فى طريق الإيمان ، دون ما عنت ودون ما حرج . فهو يعترف للنفس البشرية بأن من حقها أن تغضب ، ومن حقها أن تكره ؛ ولكنه ليس من حقها أن تعتدى على الناس مطاوعة لما فيها من شنآن . ثم يحدو لها بعد ذلك بنشيد البر وبنشيد التقوى ، لتتخلص من عقابيل الشنآن .. فيكون فى هذا تربية للنفس ، بعد أن يكون فيه ضمان للعدل ، فى غير ما كبت للفطرة ولا إعنات .

***

ثم يأخذ السياق فى تفصيل المحرمات المستثناة من حل بهيمة الأنعام :

« حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به ، والمنخنقة ، والموقوذة ، والمتردية ، والنطيحة ، وما أكل السبع — إلا ماذكيتم — وما ذبح على النصب ، وأن تستقسموا بالأزلام . ذلكم فسق » . .

والميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به سبق بيان حكمها وتعليل هذا الحكم فى حدود مايصل إليه العلم البشرى بحكمة التشريع الإلهى [١] . أما المنخنقة (وهى التى تموت خنقا) والموقوذة (وهى التى تضرب بعصا أو خشبة أو حجر فتموت) والمتردية (وهى التى تتردى من سطح أو تتردى فى بئر فتموت) والنطيحة (وهى التى تنطحها بهيمة فتموت) وما أكل السبع (وهى الفريسة لأى من الوحش) فهى كلها أنواع من الميتة إذا لم تدرك

---

(١) الجزء الثانى من الظلال ص ٢٥ .

بالذبح وفيها الروح : « إلا ما ذكيتم » فحكمها هو حكم الميتة ، إنما فصل هنا لنفى الشبهة فى أن يكون لها حكم مستقل . وأما ماذبح على النصب ـ وهى الأصنام التى كانت فى الكعبة وكان المشركون يذبحون عندها وينضحونها بدماء الذبيحة فى جاهليتهم . . فهو محرم بسبب ذبحه على الأصنام حتى ولو ذكر اسم الله عليه ، لما فيه من معنى الشرك بالله . . ويبقى الاستقسام بالأزلام ، والأزلام : قداح كانوا يستشيرونها فى الإقدام على العمل أو تركه . وهى ثلاثة فى قول وسبعة فى قول . وكانت كذلك تستخدم فى الميسر المعروف عند العرب ، فتقسم بواسطتها الجزور ـ أى الناقة التى يتقامرون عليها ـ إذ يكون لكل من المتقامرين قدح ، ثم تدار ، فإذا خرج قدح كان له من الجزور بقدر ماخصص لهذا القدح . فحرم الله الاستقسام بالأزلام ، وحرم اللحوم التى تقسم عن هذا الطريق .

« فمن اضطر فى مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم » . . فالمضطر من الجوع الذى يخشى على حياته التلف له أن يأكل من هذه المحرمات ـ وتختلف آراء الفقهاء فى حد هذا الأكل ، وهل هو مجرد ما يحفظ الحياة أو هو ما يحقق الكفاية والشبع ، فلا ندخل فى هذه الخلافات ـ إنما الغاية هى هذا اليسر فى الدين ، الذى يعطى للضرورات أحكامها ، ويعلق الأمر كله بالنية ، فمن أقدم مضطرا لانية له فى مقارفة الحرام ولا قصد ، فلا إثم عليه إذن ولا عقاب « فإن الله غفور رحيم » .

ونتهى من بيان المحرم من المطاعم هنا لنقف وقفة خاصة أمام ما تخلل آية التحريم من قوله تعالى :

« اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون . اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا » . . وهى آخر ما نزل من القرآن الكريم ، ليعلن كمال الرسالة وتمام النعمة ، فيحس عمر ـ رضى الله عنه ـ ببصيرته النافذة وبقلبه الواصل أن أيام الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ على الأرض معدودة . فقد أدى الأمانة وبلغ الرسالة ، ولم يعد إلا لقاء الله . فيبكى رضوان الله عليه ، وقد أحس قلبه دنو يوم الفراق . .

هذه الكلمات الهائلة ترد ضمن آية التحريم والتحليل لبعض الطعام .. ما دلالة هذا ؟ إن بعض دلالته أن شريعة الله كل لا صغير فيه ولا عظيم . كل لا يؤخذ منه ببعض ويستهان فيه ببعض . كل متكامل ، الذى يختص منه بالشعائر والعبادات كالذى يختص منه بالطعام والمباحات . فكل جزئية من هذه الشريعة لها قيمتها فى بناء هذه الشريعة ، وفى بناء الأمة التى تنظمها

تلك الشريعة ، وفى إنشاء المجتمع الذى يقوم عليها ويسير على هداها . فهاهو ذا إعلان الكمال والتمام لهذا الدين يجىء ملحقا بآية فى تحريم بعض المآكل والطعوم (١) .

هذه الدلالة لها قيمتها فى كل زمان ، وبخاصة فى هذا الزمان ، الذى يهم قوم فيه بفصل الدنيا عن الشريعة ، وتركها إلى تقدير الناس واجتهادهم حتى فيما نزل فيه قرآن ! .. فهاهو ذا القرآن يعلن إعلانه الهائل عن إكمال الدين فى ظل آية متعلقة بتحريم بعض الأطعمة على المسلمين . ليدل على أن كل حرف فى شريعته يكمل الآخر ، وأن كمالها لا يكون إلا أن يؤخذ بكل حرف فيها من غير تفرقة ولا تقسيم .

« اليوم يئس الذين كفروا من دينكم » .. يئسوا أن يهدموه ، أو أن يطفئوا نوره ، وقد كتب له الكمال ، وقدر له النصر ، ووهبت له العزة ، وسجل له البقاء .

«فلا تخشوهم واخشون» .. فما كان لهم أن يغلبوكم بعد أبدا ـ إلا أن تحيدوا عن دينكم ـ وما كان لهم أن ينقصوا هذا الدين وقد أكمله الله ، وأراد له التمام .

« اليوم أكملت لكم دينكم » .. فما عادت زيادة لمستزيد . ففى مبادئه وكلياته وتوجيهاته الكفاية لبناء الضمائر وبناء المجتمعات . أما الحاجات الجزئية المتجددة ـ التى لم يرد فيها نص ـ ففى العقل الذى يبنيه الإسلام ويحرسه من الزلل ، كفاية لمواجهتها بالحلول المتجددة فى ظل المبادىء الكبرى والكليات .

ولقد انقضى نيف وثلاثة عشر قرنا على هذا البيان ، وما تزال شريعة الإسلام سابقة لكل ما تمخضت عنه تجارب البشر ، ولكل ما هداهم إليه الفكر فى ميدان بناء الضمائر وبناء المجتمعات . وما تزال البشرية تتطلع إلى الأفق الوضىء الذى رسمه الإسلام ، وتحاول أن تبلغه على الأيام .

« وأتممت عليكم نعمتى » .. بهذا الهدى الذى لا يضل تابعه ؛ وبهذه الشريعة التى تقيم الأمة المسلمة حارسة على خلافة الأرض ، عادلة فى هذه الخلافة ، موفية بعقودها مع الله والناس فى جميع الأحوال .

« ورضيت لكم الإسلام دينا » .. فهو اختيار الله لهذه الأمة وارتضاؤه . وياله من تعبير يشى بحب الله لهذه الأمة ورضوانه عليها ، حتى ليختار لها طريقها ، وأكرم به من اختيار !

---

(١) هذه الآية نزلت متأخرة ولكنها ألحقت بهذا الموضع فلابد من حكمة . . .

إن هذه الكلمات الهائلة لتلقى على عاتق هذه الأمة عبئا ثقيلا ؛ وإنها لتلتقى بما قيل لها من قبل : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » .. « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » .. فتؤلف مجموعة من البشريات ، تقابلها مجموعة من التبعات . وإن كل جيل من أجيال هذه الأمة لهو مطالب أن ينهض بالتبعة كما يكون مستحقا للبشرى . والله الذى ارتضى للأمة هذا الدين ، هو وليها وناصرها حين تنهض بتكاليفه فى أي زمان وفى أى مكان .

* * *

ثم يستطرد السياق بعد هذه اللفتة يفصل الحلال والحرام :

« يسألونك ماذا أحل لهم ؟ قل : أحل لكم الطيبات ، وما علمتم من الجوارح مكلبين تعلمونهن مما علمكم الله ، فكلوا مما أمسكن عليكم ، واذكروا اسم الله عليه ، واتقوا الله . إن الله سريع الحساب » .

ويبدو أن آية التحريم قد جعلت المسلمين يتحرجون أن يتناولوا شيئا قبل أن يستيقنوا من حله ؛ والناظر فى تاريخ القوم وقتذاك يلمح هذا التحرج من كل ما كانوا يأتونه فى الجاهلية ، خشية أن يكون الإسلام قد حرمه ؛ وتلك آية تأثرهم العميق البالغ بالعقيدة الجديدة ؛ حتى ليريدون أن يتأكدوا فى كل حركة قبل أن يأتوها ، أنها لا تخالف هذه العقيدة .. لذلك سألوا : « ماذا أحل لهم ؟ » ليكونوا على يقين من حله قبل أن يقربوه ؛ فكان الجواب : « قل : أحل لكم الطيبات » وهو جواب يستحق الانتباه . إذ يلقى فى حسهم أنهم لم يحرموا طيبا ، ولم يمنعوا عن طيب ؛ وأن كل الطيبات ما تزال لهم حلالا ، فلم يحرم إلا الخبيث . والواقع أن كل ما حرم تستقذره الفطرة السليمة بطبعها من الناحية الحسية كالميتة والدم ولحم الخنزير ، أو ينفر منه الضمير السليم كالذى أهل به لغير الله ، أو ماذبح على النصب أو الاستقسام بالأزلام .. وهو يضيف إلى الطيبات ما أمسكته الجوارح كالصقر والبازى ـ ومثلها كلاب الصيد ـ المعلمة على الصيد ، التى كلبها أصحابها أى علموها كيف تكلب الفريسة وتكبلها وتصطادها ، وتحتفظ بها لا تأكلها ، واشترط لحل ما تكلبه الجوارح وتمسكه أن تكون قد أمسكته لحساب أصحابها لا لحسابها هى . وآية ذلك ألا تأكل منه عند صيده ؛ ولا تقربه إلا إذا غاب عنها صاحبها فجاعت ، فإنها إن تكن أمسكت الفريسة لنفسها ولتطعم منها حرمت الفريسة على الناس ، وتركت للذى صادها لنفسه من الجوارح .. « فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله » فلابد من ذكر اسم الله عند إطلاق الجارح أو كلب الصيد ، ليكون الصيد حلالا .. ثم يعقب

بتقوى الله والتخويف من حسابه : « واتقوا الله إن الله سريع الحساب » ليربط أمور الحلال والحرام من الصيد والطعام بذلك المحور الكلى ، الذى يرجع إليه المؤمن فى الصغيرة كالكبيرة سواء

* * *

ويمضى السياق فى بيان ألوان أخرى من المتاع الحلال فى الطعام وغير الطعام وهو النكاح :

« اليوم أحل لكم الطيبات ، وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم ، وطعامكم حل لهم ، والمحصنات من المؤمنات ، والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ، محصنين غير مسافحين ولامتخذى أخدان . ومن يكفر بالإيمان فقدحبط عمله ، وهوفىالآخرة منالخاسرين »

وهكذا يبدأ ألوان المتاع الجديدة بقوله : « اليوم أحل لكم الطيبات » .. ليؤكد المعنى الذى أشرنا إليه ، وليربط بينه وبين هذه الألوان الجديدة من المتاع ، ليشملها وصف « الطيبات » .

وهنا نطلع على صفحة جديدة من صفحات السماحة الإسلامية . فالإسلام لا يكتفى بأن يترك أهل الكتاب لما يعتقدون إلا أن يفيئوا هم إليه راضين . لا يكتفى بأن يترك لهم هذه الحرية ، ثم يعتزلهم فيصبحون فى المجتمع الإسلامى مجفوين معزولين ؛ إنما يشملهم بجو من المشاركة الاجتماعية ، والمودة والمجاملة والخلطة ؛ فيجعل طعامهم حلا للمسلمين وطعام المسلمين حلا لهم كذلك ليتم التزاور والتضايف والمخالطة الاجتماعية السمحة . وكذلك يجعل العفيفات من نسائهم طيبات للمسلمين ، يقرن ذكرهن بالعفيفات من المسلمات . وهى سماحة لايفيض بها إلا الإسلام من بين سائر الأديان . فإن الكاثوليكى المسيحى ليتحرج من نكاح الأرثوذكسية أو البروتستانتية أو المارونية المسيحية ؛ ولا يقدم على ذلك إلا المتحللون عندهم من العقيدة .

وهكذا يبدو أن الإسلام هو العقيدة الوحيدة التى تسمح — مع المحافظة عليها فى الضمير — بقيام مجتمع عالمى لاعزلة فيه بين المسلمين وأصحاب الديانات الكتابية الأخرى ، ولا حواجز بين أصحاب العقائد المختلفة التى تظلها راية المجتمع الإسلامى .

والآية تشترط لحل هذا النكاح أن تؤدى المهور ، وأن تكون النية هى النكاح الحلال ، الذى يحصن به الرجل امرأته ويكفها زلات الحياة ؛ لا أن يكون هذا المال طريقا إلى السفاح أو المخادنة ، والمتاع المحرم المرذول .

ويعقب على هذه الإباحة تعقيبا فيه تهديد وفيه تشديد : « ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله ، وهو فى الآخرة من الخاسرين » . . وهو تعبير فيه جدة وطرافة ، فالكفر فى هذه المرة ليس بالله ولا باليوم الآخر ، ولا بالدين ولا بشىء منه ؛ إنما هو الكفر بالإيمان ذاته والتنكر لوجدان الإيمان ذاته ، ومن قارفه فقد حبط عمله ، لأنه انبت وابتعد عن الهدى والاعتقاد أصلا ، « وهو فى الآخرة من الخاسرين » .

***

وفى ظل الحديث عن الطيبات من الطعام والطيبات من النساء يجىء ذكر الصلاة . فلا يجىء مصادفة ولا اتفاقا ، ولا يجىء بعيدا عن جو السياق .. إنما هى لفتة إلى نوع آخر من الطيبات . طيبات الروح الخالصة فى هذه المرة . الطيبات التى تستمتع بها الروح المؤمنة ، وتجد فيها مالا تجده فى سائر المتاع . إنها متاع اللقاء مع الله فى جو من الطهر والخشوع والنقاء . متاع الشطر الأعلى فى الإنسان ، الأكثر شفافية ونداوة ونورا :

« يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق ، وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين . وإن كنتم جنباً فاطهروا ، وإن كنتم مرضى أو على سفر ، أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا ، فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه ، مايريد الله ليجعل عليكم من حرج ، ولكن يريد ليطهركم ، وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون »

إن الصلاة لقاء لله ووقوف بين يديه ، فلا بد لهذا اللقاء من استعداد ، لا بد له من تطهر جسدى يؤدى إلى تهيؤ روحى . ومن هنا كان الوضوء — فيما نحسب — وهذه أركانه المنصوص عليها فى الآية : غسل الوجه والأيدى إلى المرافق ومسح بالرأس وغسل الأرجل إلى الكعبين (١) . أما التيمم فقد سبق الحديث عنه فى سورة النساء (٢) بأسبابه المذكورة هنا وهناك على وجه التقريب . ولكن يزيد هنا ذلك التعليل : « مايريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون »

---

(١) هناك خلافات فقهية حول غسل الرجلين كالوجه واليدين أو مسحهما كالرأس . وحول القدر الذى يمسح من الرأس وحول سنن الوضوء كالمضمضة والاستنشاق وغسل الأذنين ... الخ تطلب فى كتب الفقه لمن يريد هذه التفصيلات .

(٢) الجزء الرابع من الظلال .

والتطهر حالة واجبة للقاء الله — كما أسلفنا — وهو يتم فى الوضوء جسما وروحا . فاما فى التيمم فيتم الشطر الأخير منه ، ويجزئ عند عدم وجود الماء ، أو إذا كان فى استعمال الماء ضرر . لأن الله لا يريد أن يعنت الناس ويحملهم الحرج والمشقة بالتكاليف . إنما يريد أن يطهرهم وينعم عليهم بهذه الطهارة ، ويقودهم إلى الشكر على النعمة ليضاعفها لهم .

وتقودنا حكمة الوضوء والتيمم التى كشف عنها النص هنا إلى تلك الوحدة التى يحققها الإسلام بين طاقات الإنسان فى عباداته وفى شرائعه على السواء . فليس الوضوء مجرد تنظيف للجسد ليقول متفلسفةهذه الأيام : إننا لسنا فى حاجة إليه كما كان العرب البدائيون، لأننا ننظف أجسامنا بحكم الحضارة . إنما هو محاولة مزدوجة لتوحيد نظافة الجسد وطهارة الروح فى عبادة واحدة يتوجه بها الفرد إلى الله . وجانب التطهر الروحى فيه أقوى، لأنه عند تعذره يستعاض عنه بالتيمم الذى لا يحقق إلا ذلك الشطر الأقوى . وكذلك الشأن فى الغسل سواء . فلنحاول أن ندرك أسرار هذه العقيدة قبل أن نفتى فيها بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير .

* * *

وبمناسبة الإشارة إلى حكمة الشعائر هنا : « ليطهركم ، وليتم نعمته عليكم » يتوجه الخطاب إلى المؤمنين تذكيرا لهم بنعمة الله ، وفى ظل التذكير بنعمة الله يذكرهم بميثاقه الذى واثقهم به ، فالنعمة والقيام بالعهد عقد ذو طرفين ، وقد وفى الله لهم بنعمته فليوفوا هم بميثاقه :

« واذكروا نعمة الله عليكم ، وميثاقه الذى واثقكم به ، إذ قلتم : سمعنا وأطعنا . واتقوا الله ، إن الله عليم بذات الصدور » ..

وقد كان السمع والطاعة ، فى المنشط والمكره ، ركنى ميثاق المسلمين مع الرسول صلى الله عليه وسلم وميثاق الرسول هو ميثاق الله . والمرجع فى هذا العقد للتقوى : « واتقوا الله » . والتقوى شعور فى الضمير مطوى فى الصدور « والله عليم بذات الصدور » .

والتعبير « بذات الصدور » تعبير مصور نمر به كثيراً فى القرآن ، فيحسن أن ننتبه لما فيه من دقة وجمال . وذات الصدور أى صاحبة الصدور ، الملازمة لها ، اللاصقة بها . وهى كناية عن النيات المقيمة ، والأسرار الدفينة ، والمشاعر التى لها صفة الملازمة للقلوب والاستقرار فى الصدور . وهى على خفائها هناك مكشوفة لعلم الله ، والله بها عليم .

* * *

ومن الميثاق الذى واثق الله به الأمة المسلمة العدل فى الأرض . العدل المطلق الذى لاتميل ميزانه المودة والشنآن . ولاتؤثر فيه قرابة أو مصلحة أو عصبية أو هوى أو شعور خاص . إنه عدل مستمد من التجرد من كل الملابسات ، والقيام لله وحده بمنجاة من المؤثرات . ومن ثم يطالبهم بهذا العدل المطلق عقب تذكيرهم بذلك الميثاق .

« يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ، ولايجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا . اعدلوا هو أقرب للتقوى ؛ واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون » ..

لقد نهى المسلمون أن يحملهم الشنآن على جريمة الاعتداء . فهاهم أولاء ينهون أن يحملهم الشنآن على جريمة الميل عن العدل . وهذه مرتبة أدق ، وإن خيل للقارىء أن الاعتداء الأول سواء هو وعدم العدل الثانى . إنهما يتفقان فى الصفة العامة فالاعتداء اعتداء وعدم العدل اعتداء . ولكن التكليف الأول أيسر لأنه إجراء سلبى بالكف عن الاعتداء ، فأما التكليف الثانى فأشق لأنه إجراء إيجابى بتحقيق العدل مع المبغوضين المشنوئين ، وتمكينهم من نتائج هذا العدل ، والشهادة لهم أو عليهم بالقسط ، وهو تكليف أبعد أفقا فى رياضة النفوس من غير جدال .

لذلك يقدم النص أمر القيام لله فرضا على المسلمين ، ليتم التجرد من ملابسات الأرض فى ظل القيام لله . ثم يعقب على التكليف بالتقوى ، ويعرّض بأن الله رقيب وهو خبير بما يعملون ..

وما من عقيدة أو نظام فى هذه الأرض يكفل العدل المطلق للأعداء المشنوئين كما يكفله لهم هذا الدين . ذلك أنه رسالة الله للناس كافة ، ليجد فيه الناس كلهم الحماية والرعاية فى ساحة العدل ، ما لم يكونوا بغاة ظالمين .

وللمؤمنين فى مقابل هذه التكاليف العسيرة جزاؤهم عند الله ، يقرره النص فى صورة عقد كتبه لهم الله ، تنسيقا له مع جو السورة والسياق :

« وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر عظيم » ..

ذلك بينما فى الضفة الأخرى الكافرون ، وهم لايحرمون المغفرة والأجر فقط ، ولكن الله كتب لهم عقدا آخر . عقد تمليك . ولكنه تمليك للجحيم !

« والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم » ..

ويستمر السياق يقوى فى المسلمين روح العدل ، ويكفكف شعور العدوان الذى قد يدفع إليه الشنآن ، فيذكرهم نعم الله عليهم ، ويختار من هذه النعم فى هذا المقام الخاص نعمة حمايتهم من العدوان ، وكف من أرادوا البطش بهم من الأعداء ، ليطامن من نفوسهم ، ويشعرهم بأن الله حافظهم وراعيهم ، فليسوا بحاجة إلى الانتقام ، ممن لا يملك لهم الإيذاء :

« يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم ، فكف أيديهم عنكم ، واتقوا الله ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون » ..

وتختلف الروايات فى سبب نزول الآية ، وفى تحديد القوم الذين هموا أن يبسطوا أيديهم إلى المؤمنين فكف الله أيديهم وأنجى المسلمين منهم . . وأياً ما كان القوم ، وأياً ما كان الحادث ، فإن عبرته فى هذا المقام هى المنشودة . . وهى إماتة الغيظ والشنآن لهؤلاء القوم فى صدور المسلمين ، كى يفيئوا إلى الهدوء والطمأنينة . فى ظلها يمكن تحقيق العدل ، وتمكن الشهادة بالقسط ، ويملك المسلمون أن يفوا بميثاقهم مع الله ، أن يكونوا حماة العدل فى الأرض للناس أجمعين . صديقهم وعدوهم فى هذه الأرض سواء .

ولا ننسى أن نقف وقفة فنية أمام التعبير القرآنى : « إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم » فى مقام إذ هم قوم أن يؤذوكم أو يبطشوا بكم ، فحماكم من البطش والإيذاء .

إن صورة بسط الأيدى وكفها تصور حركة حسية حية . والتعبير القرآنى يختار الصورة الحية للتعبيرات ، عن الدلالة المجردة ، لأن الصورة الحية أوقع فى النفس ؛ وهى تطلق الشحنة الكامنة فى التعبير ، كما لو كان هذا التعبير يطلق لأول مرة ، مصاحبا للواقعة الحسية التى يعبر عنها . (١) وتلك — فى الغالب — طريقة القرآن فى التعبير . طريقة التصوير .

« وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً ؛ وَقَالَ اللَّهُ : إِنِّي مَعَكُمْ . لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ ، وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ ، وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ ، وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً . . لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ، وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ

---

(١) يراجع بتوسع فصل « القيم اللفظية » فى كتاب : « النقد الأدبى : أصوله ومناهجه »

تجري من تحتها الأنهار . فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل * فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم ، وجعلنا قلوبهم قاسية ، يحرفون الكلم عن مواضعه ، ونسوا حظاً مما ذكروا به ؛ ولا تزال تطلع على خائنة منهم - إلا قليلا منهم - فاعف عنهم واصفح ، إن الله يحب المحسنين * ومن الذين قالوا : إنا نصارى ، أخذنا ميثاقهم ، فنسوا حظاً مما ذكروا به ، فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة ؛ وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون .

« يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ، ويعفو عن كثير ، قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين * يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ، ويهديهم إلى صراط مستقيم .

« لقد كفر الذين قالوا : إن الله هو المسيح ابن مريم . قل : فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعاً ؟ ولله ملك السماوات والأرض وما بينهما ، يخلق ما يشاء ، والله على كل شيء قدير .

« وقالت اليهود والنصارى : نحن أبناء الله وأحباؤه . قل : فلم يعذبكم بذنوبكم ؟ بل أنتم بشر ممن خلق ، يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ؛ ولله ملك السماوات والأرض وما بينهما ، وإليه المصير .

« يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم - على فترة من الرسل - أن تقولوا : ما جاءنا من بشير ولا نذير . فقد جاءكم بشير ونذير ؛ والله على كل شيء قدير .

« وإذ قال موسى لقومه : ياقوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء ، وجعلكم ملوكاً ، وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين * ياقوم ادخلوا

الْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ، وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ * قَالُوا : يَامُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ ؛ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا ، فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ * قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ ، أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا : ٱدْخُلُوا عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ ، فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ ؛ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * قَالُوا : يَامُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا ؛ فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا ، إِنَّا هَا هُنَا قَاعِدُونَ * قَالَ : رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي ، فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَاسِقِينَ * قَالَ : فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِ ، فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَاسِقِينَ » .

ذكر الله المسلمين بميثاقهم الذى واثقهم به — كما ورد فى نهاية الدرس الماضى — وذكرهم نعمته عليهم ليؤدوا هم من جانبهم ما استحفظوا عليه . .

فالآن يستغرق هذا الدرس كله فى استعراض مواقف بنى إسرائيل من مواثيقهم ، واستعراض ماحل بهم من العقاب نتيجة نقضهم لهذه المواثيق ؛ لتكون هذه تذكرة للمسلمين، ماثلة لهم من بطون التاريخ ، ومن واقع بنى إسرائيل ؛ وليكشف الله عن سنته التى لا تتخلف مع خلقه ، ولو كانوا من المقربين . فما تتم لهم قربى وهم ينقضون ما عاهدوا الله ، ويقطعون مواثيقهم من بعد إبرامها ، ولا يوفون بالعقود التى أمر الله فيها بالوفاء .

ويحتوى هذا الدرس على استعراض ميثاق الله مع قوم موسى عند إنقاذهم من الذل فى مصر . ثم إخلافهم له ، وما حاق بهم نتيجة إخلافهم ، وما كتب عليهم من اللعنة . . . وعلى استعراض ميثاق الله مع الذين قالوا : إنا نصارى ، ونتائج نقضهم له كذلك من إغراء العداوة بين فرقهم المختلفة إلى يوم القيامة . . ثم على موقف اليهود من الأرض المقدسة التى أعطاهم الله ميثاقه أن يدخلوها ، فنكصوا على أعقابهم وقالوا لموسى : فاذهب أنت وربك فقاتلا إننا هاهنا قاعدون . .

ويتخلل هذا الاستعراض للمواثيق كشف لما وقع فى عقائد اليهود والنصارى من انحراف نتيجة خروجهم على مواثيق الله ، ونقضهم لما عاهدهم عليه من توحيده والإسلام له وحده ،

فى مقابل ما أعطاهم من النعم وما ضمن لهم من كرامة ، أبوها على أنفسهم ، فباءوا باللعنة والفرقة والتشريد .

***

« ولقد أخذ الله ميثاق بنى إسرائيل ، وبعثنا منهم اثنى عشر نقيباً ، وقال الله : إنى معكم . لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة ، وآمنتم برسلى وعزرتموهم ، وأقرضتم الله قرضا حسنا . . لأكفرن عنكم سيئاتكم ، ولأدخلنكم جنات تجرى من تحتها الأنهار . فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل » . .

لقد كان ميثاقا ذا طرفين. لقد قال الله لهم: إنى معكم . وهو وعد عظيم . فمن كان الله معه فلا شىء إذن يكون ضده . ومهما يكن من شىء ضده فإنه يكون كالهباء إلى جانب قوة الله التى لا تقهر. ومن كان الله معه فلن يضل فإن صحبته لله تكفيه وتهديه . ومن كان الله معه فلن يقلق أو يشقى فإن قربه من الله يطمئنه ويسعده . . وعلى الجملة فمن كان الله معه فقد وصل ، وما له زيادة يستزيدها على هذا المقام الكريم .

ولكن الله ـ سبحانه ـ لم يجعلها لهم جزافا ولا محاباة ، ولا كرامة شخصية منقطعة عن الأسباب . إنما هو عقد ذو طرفين : « لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلى وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضا حسنا » . . هذا هو الطرف الأول : إقامة للصلاة اتجاها إلى الله وحده دون سواه . وإيتاء للزكاة تحقيقا للتكافل الاجتماعى بين عباد الله ، وتسليما بأن المال مال الله ينفق حسبما يقرر واهبه الأول لا حائزه الأخير . وإيمان بالرسل . الرسل كافة لا تفريق بينهم ولا تعصب لأحدهم ، فكلهم من عند الله ، وكلهم جاء بدين الله ، وليس مجرد إيمان سلبى ، بل عمل إيجابى فى نصرة هؤلاء الرسل ، وشد أزرهم فى واجبهم المقدس الذى ندبوا له ، ووهبوا حياتهم كلها لأدائه . وإحسان بعد ذلك غير مقيد بحد الزكاة ، إنما هو تطوع يدخره معطيه عند الله ، قرضا حسنا له يسترده يوم الحساب .

ذلك طرف العقد الأول . وفى مقابله : « لأكفرن عنكم سيئاتكم ، ولأدخلنكم جنات تجرى من تحتها الأنهار » . وشرط جزائى فى حالة نقض الميثاق ، كى لا يذهب ناقضه ناجيا من الجزاء : « فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل » . . فلا هدى له بعد ذلك ولا أوبة من هذا الضلال .

وتكفير السيئات بالقياس إلى الإنسان ، الذى لا ينى يخطىء ، ولا ينى يندفع إلى السيئة مهما

جاء بالحسنة . تكفير السيئات جزاء ضخم على نهوضه بالتبعات ، والجنة بعد ذلك فضل من الله لايبلغه الإنسان بعمله ، وهو — مهما اجتهد — خليط من حسنات وسيئات .

ذلك كان ميثاق الله مع نقباء بنى إسرائيل ، النائبين عنهم ؛ فما الذى كان من بنى إسرائيل ؟ لقد نقضوا ميثاقهم مع الله .. قتلوا أنبياءهم بغير حق ، وبيتوا الصلب والقتل لعيسى ابن مريم ؛ وحرفوا كلمات التوراة عن معانيها وعن مواضع الاستشهاد بها ؛ واشتروا بهذا التحريف ثمنا قليلا عرض هذه الحياة الدنيا ؛ونسوا بعض شرائع التوراة وأهملوها ؛ وخانوا محمدا — رسول الله — أحد الرسل الذين أخذ عليهم الميثاق أن ينصروهم . فباءوا بالطرد من رحمة الله ، وقست قلوبهم يبعدهم عن هذه الرحمة . بهذا التعبير الحسى المصور المجسم للقسوة .

« فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم ، وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ، ونسوا حظا مما ذكروا به ، ولاتزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلا منهم . . . »

وباللتعبير الطريف : « ولا تزال تطلع على خائنة منهم » .. على الفعلة الخائنة والحركة الخائنة والنظرة الخائنة والنية الخائنة . . يجملها النص بحذف الموصوف وإثبات الصفة ، لتبقى الخيانة وحدها تملأ الجو ، وتلقى ظلالها وحدها على كل مايصدر عن القوم ، وكل مايكمن منهم فى الصدور .

وبعد كل هذا يجىء توجيه الله لرسوله . لا انتقاما منهم ، ولا طردا لهم . وهم المطرودون الملعونون . ولكن :

« فاعف عنهم واصفح . إن الله يحب المحسنين » ..

والعفو عن قبائحهم إحسان ، والصفح والإعراض عن خيانتهم إحسان . إن الله يحب المحسنين (١)

كذلك أخذ الله ميثاقا على الذين قالوا : إنهم نصارى يتبعون المسيح عيسى ابن مريم :

« ومن الذين قالوا : إنا نصارى أخذنا ميثاقهم ، فنسوا حظا مما ذكروا به ، فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة . وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون » ..

---

(١) ورد فيما بعد أمر بقتال الكافرين من أهل الكتاب الذين لايؤمنون بالله واليوم والآخر ولا يدينون دين الحق حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون . ذلك عند مالم ينفع العفو والصفح ، ولم يزدهم إلا خيانة وتأليبا على المسلمين .

ونجد هنا تعبيرا خاصا ذا دلالة خاصة : « ومن الذين قالوا : إنا نصارى » .. إنهم لم يؤمنوا الإيمان الحق بما جاء به عيسى عليه السلام . إنما هى دعوى يقولونها . ولقد أخذ عليهم الميثاق أن يكونوا عند ما جاء به رسولهم من عند الله . ولكنهم نسوا جانبا من تعاليمه . نسوا الجانب الأساسى فيها وهو التوحيد الذى تقوم عليه . وعند هذا الانحراف كان الخلاف بين طوائف النصارى التى لاتكاد تعد . إذ أن هنالك فرقا كثيرة صغيرة داخل كل فرقة من الفرق المعلومة الكبيرة : الأرثوذكس ، والكاثوليك ، والبروتستانت ، والمارون اليوم . ومن قبل كان اليعقوبيون والملكانيون والنساطرة ..

وهذه العداوة التى يشير إليها النص إنما جاءت من انقسام النصارى من قديم إلى فرق ، نشأت من الانحراف عن التوحيد ، وتفرقت بها السبل . وهى عداوة حقيقية شهدتها المسيحية منذ القرن الأول للميلاد ، وكانت على أشدها بين الملكانية واليعاقبة والنساطرة ؛ وهى اليوم على أشدها بين الفرق القائمة . فلا يكاد الإنسان يتصور العداء الذى بين الكاثوليك والبروتستانت ، أو بينهم وبين الأرثوذكس ، أو بين الموارنة والبروتستانت أو سواهم . .

ذلك فى الدنيا . أما فى الآخرة فهناك يجدون ما أسلفوا « وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون » . . ويالها من نبوءة ، لا تقف عند حد النبوءة . ولكن يقف بها النص هنا ليدع الخيال يرسم هول ماوراءها من نتائج ومعقبات .

***

وحين يبلغ السياق هذا الموضع من استعراض ماضى اليهود والنصارى ، ومواقفهم من ميثاق الله ورسل الله ودين الله .. عندئذ يتوجه خطابا لأهل الكتاب جميعا . هؤلاء وهؤلاء . بأن الرسول — صلى الله عليه وسلم — قد جاء ليكشف لهم عن كثير مما كانوا يخفونه من كتاب الله ، الذى استحفظوا عليه فنقضوا عهدهم مع الله فيه ؛ ويعفو كذلك عن كثير مما أثقلهم به الله من تكاليف ، وحرمه عليهم من طيبات ، عقابا لهم على مخالفاتهم وانحرافاتهم . . فالفرصة إذن سانحة ليتداركوا ما فات ؛ ولينجوا مما كتب عليهم فى الدنيا والآخرة ، عقابا على الخلاف والإخلاف :

« يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ، ويعفو عن كثير . قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم » . .

جاءكم هذا الرسول بهذه الفرصة الأخيرة للخلاص . وجاءكم معه من الله نور هو هذا الكتاب الموضح المنير . نور يعمر القلوب ، ويطرق البصائر فتتفتح على الحق . هذا الكتاب ، هذا النور « يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام » يهدى به الله من يطلب رضوانه ويبحث عنه ويقفو أثره ، يهديه إلى سبل السلام . سبل السلام الروحى . بالاطمئنان إلى عقيدة واضحة بسيطة لا تعقيد فيها ولا معميات ولا ألغاز . والاطمئنان إلى رحمة الله وعدله وثوابه الكريم . وسبل السلام الدينى فلا يتفرق الناس شيعا وفرقا بينها العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة . وسبل السلام الاجتماعى والإنسانى بما يكفله المجتمع من تواد وتكافل وتناسق ، وما يكفله للبشر كلهم من عدل وإخاء ووفاء بالمواثيق والعهود .. « ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه » .. من ظلام الشبهات وظلام العداوات وظلام الشهوات ، وظلام الانقطاع عن الله بالطرد واللعنة . يفعل كل هذا بإذن الله ، توحيدا للمشيئة فى هذا الوجود .. « ويهديهم إلى صراط مستقيم » .. صراط الله الواحد المستقيم ، الذى لا يتشعب ولا يتعرج ولا تضل فيه الخطوات .

ذلك هو الصراط المستقيم ، فأما القول بأن الله هو المسيح ابن مريم فهو الكفر . وأما القول بأن اليهود والنصارى هم أبناء الله وأحباؤه فهو الافتراء الذى لا يستند إلى دليل :

« لقد كفر الذين قالوا : إن الله هو المسيح ابن مريم . قل : فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعا ؟ ولله ملك السماوات والأرض وما بينهما ، يخلق ما يشاء وهو على كل شىء قدير . وقالت اليهود والنصارى : نحن أبناء الله وأحباؤه . قل : فلم يعذبكم بذنوبكم ؟ بل أنتم بشر ممن خلق ، يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء . ولله ملك السماوات والأرض وما بينهما ، وإليه المصير » ..

هنا تبدو نصاعة العقيدة الإسلامية ووضوحها وبساطتها ، حين توازن بتلك الانحرافات التى انتهت إليها عقائد التوحيد الأولى ، التى كانت فى أصلها متفقة مع فكرة التوحيد الإسلامية .

العقيدة المسيحية انتهت إلى أن تجعل المسيح هو الله — وإن كانت تقول بالتثليث كذلك — باعتبار قولهم : الله الأب ، والله الابن ، والله روح القدس . وتفسيرهم لهذا التعقيد بأن الله واحد ولكن الأقانيم ثلاثة موحدة فى الله الواحد . . والإسلام يقول : « فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعا ؟ » فيفرق تفرقة مطلقة بين ذات الله وذات عيسى رسول الله . ويقيم التوحيد كاملا دقيقا واضحا لا يحتاج إلى تأويلات غامضة ، يعز على العقل قبولها ، لأنه يعز عليه تصورها من وراء تلك المعميات . ثم يقرر الإسلام أن لله وحده « ملك السماوات والأرض وما بينهما ، يخلق ما يشاء وهو على كل شىء قدير »

فيفرده تعالى بالملك ويفرده بالمشيئة ويفرده بالخلق ، ويفرده بالقدرة . . نتيجة لازمة لعقيدة التوحيد .

واليهود والنصارى يقولون : إنهم أبناء الله وأحباؤه . فيزعمون لله تعالى بنوة — على تصور من التصورات إلا تكن بنوة الجسد فهي بنوة الروح ، وهي أيا كانت تلقى ظلا على عقيدة التوحيد — ويزعمون لله تعالى صلة بالخلق لاتنبع من قيامهم بالحق ، ولكن تنبع من عواطف خاصة من الله لذوات اليهود والنصارى . . والإسلام يقول : « فلم يعذبكم بذنوبكم ؟ بل أنتم بشر ممن خلق ، يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء » وبذلك يضع الأمور فى نصابها ، ويفرد ذات الله سبحانه عن البنوة والعواطف الخاصة ، ويرجع الأمر إلى القاعدة العامة : يغفر لمن يشاء بما يعمله من الطاعات ، ويعذب من يشاء بما يقدمه من المعاصى . فالأمر كله موكول إلى سنته التى تسرى على الجميع سواء . لا تعترضها عواطف خاصة ، ولا صلات شخصية . ثم يكرر أن لله ملك السماوات والأرض وما بينهما . وهذه هى الصلة العامة التى تربط كل المخلوقات به . « وإليه المصير » وما وراء المصير من حساب ومن عقاب وثواب . . وبذلك يجرد الذات الإلهية عن مشابهة الخلق فى صفة من الصفات .

وينهى هذا البيان بنداء مكرر إلى أهل الكتاب ، يقطع به حجتهم ومعذرتهم أن يقولوا : إن فترة كبيرة مرت عليهم لم يأتهم فيها بشير يقربهم إلى الله ، أو نذير يخوفهم الانحراف : فها هو ذا بشير ونذير :

« يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم — على فترة من الرسل — أن تقولوا : ما جاءنا من بشير ولا نذير . فقد جاءكم بشير ونذير ، والله على كل شىء قدير » .

* * *

وأخيرا فها نحن أولاء مع قوم موسى على أبواب الأرض المقدسة ، التى وعدهم الله بها على يد منقذهم ورسولهم وزعيم الخلاص فيهم ، ها نحن أولاء معهم فى نهاية الرحلة الطويلة من أرض الذل والعذاب التى أنقذهم منها موسى ، إلى الأرض التى وعدوا فيها الملك والعزة والأمان . ها نحن أولاء معهم بعد المواثيق والعهود التى أخذت عليهم ، وهم فى كل مرة ينقضونها ، فيغفر الله لهم ، ويجدد ميثاقه معهم ، ويستحثهم نبيهم إلى الأرض المقدسة التى كتب الله لهم .

ولكن إسرائيل هى إسرائيل . فلننظر موقفها الأخير :

« وإذ قال موسى لقومه : ياقوم اذكروا نعمة الله عليكم ، إذ جعل فيكم أنبياء ، وجعلكم ملوكا ، وآتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين . ياقوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ، ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين » . .

وإننا لنلمح فى كلمات موسى ـ عليه السلام ـ إشفاقه من تردد القوم ونكوصهم على الأعقاب . فلقد جربهم فى مواطن كثيرة ، فى خط سير الرحلة الطويل . جربهم وقد أخرجهم من أرض الذل والهوان باسم الله ، فإذا هم يتخذون العجل بمجرد أن مروا على قوم يعكفون على العجل ، ونسوا إلههم الذى أنقذهم ، ونبيهم الذى قادهم . وجربهم وقد فجر لهم من الصخر ينابيع فى جوف الصحراء ، وأنزل عليهم المن والسلوى طعاما سائغا من أيسر سبيل ؛ فإذا هم يطلبون ما اعتادوا من أطعمة . يطلبون من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها . فلا يصبرون عن مألوف الطعام فى سبيل الهدف الأسمى الذى يسوقهم إليه موسى وهم يتسكعون . وجربهم فى قصة البقرة التى أمروا بذبحها فتلكاوا وتسكعوا فى إطاعة أمر ربهم ، ثم فى النهاية ذبحوها وما كادوا يفعلون . وجربهم وقد جعل لهم السبت فانتهكوا حرمته طلبا لسمكات تتراءى لهم فى الماء . وجربهم وقد عصوا عن أمر ربهم فلم يدخلوا القرية التى أمرهم بدخولها سجدا ، وبدلوا فى كلمات الدعاء التى أمروا أن يقولوها وهم داخلون . وجربهم وقد نتق الجبل فوقهم فأعطوا الميثاق عن خوف ، حتى إذا جاوزوا الخطر عادوا لما كانوا فيه . .

لقد جربهم فى مواطن كثيرة . . ثم ها هو ذا معهم على أبواب الأرض المقدسة . أرض الميعاد التى من أجلها خرجوا . الأرض التى يصبحون فيها ملوكا وقد كانوا فى مصر عبيدا . . جربهم فحق له أن يشفق ، وهو يدعوهم دعوته الأخيرة ، فيحشد فيها ألمع الذكريات ، وأكبر المغريات ، وأضخم المشجعات ، وأشد التحذيرات : « ياقوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين » . . « ياقوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم . ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين » . . فهى أرض مكتوبة لهم من عند الله . وما يكون توكيد بعد ذلك ولا تشجيع . وما يكون داع إلى الإقدام أكثر من ضمان العاقبة . وضمانها ممن ؟ من الله الذى رأوا من آياته الكثير . . .

ولكن إسرائيل هى إسرائيل :

« قالوا : ياموسى إن فيها قوما جبارين ، وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها ، فإن يخرجوا منها فإنا داخلون » . .

إسرائيل هى إسرائيل .. سقوط همة ، وفرقا وفزعا ، وطلبا للراحة ، وإشفاقا من الجهد ، وإيثارا للمألوف من العيش ، وبعدا عن الخطر وأسبابه ، مهما تكن المشجعات والمغريات والوعود ! !

« إن فيها قوما جبارين » .. « وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها » .. من أنفسهم هكذا لا عن محاولة منا ولا عن جهد . « فإن يخرجوا منها فإنا داخلون » .. فى راحة ويسر ، وبلا تعب ولا كد ! !

إن جبلة إسرائيل لتبدو هنا على أصلها ، مكشوفة بلا حجاب ولو رقيق من التجمل ، لأنهم أمام الخطر ، فلابقية إذن من تجمل ، ولامحاولة إذن للتشجع ، لأن الخطر ماثل قريب ، لايعصمهم من الفزع منه وعد من الله أنهم منتصرون . فهم يريدونه نصرا رخيصا لا ثمن له . يريدونه نصرا مريحا يتنزل عليهم من السماء تنزل المن والسلوى ، ولعلهم يترددون فى التقاطه ويتسخطون عليه وعلى موسى إذا لم يجدوا البقل والقثاء والفوم والعدس والبصل موفورة فى الوطن الجديد !

« قال رجلان ـ من الذين يخافون أنعم الله عليهما ـ : ادخلوا عليهم الباب ، فإذا دخلتموه فإنكم غالبون . وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين » ..

هنا تبرز لنا قيمة الإيمان بالله والخوف من الله .. هذان رجلان من الذين يخافون الله . ينشىء لهما الخوف من الله شجاعة فى وجه الخطر ، وإقداما على حرب الجبارين . هذان هما يشهدان بقيمة الإيمان فى ساعة الشدة ، وقيمة الخوف من الله فى مواطن الخوف من الناس . لقد أنعم الله عليهما بالإيمان به والخوف منه ، فإذاهما بدع فى بنى إسرائيل أمام جبروت الجبارين .. « ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون » أقدموا وتشجعوا واقتحموا ، فمتى دخلتم على القوم فى عقر دارهم انكسرت قلوبهم وشعروا بالغلب فى أرواحهم . ومتى دخلتم « فإنكم غالبون » .. « وعلى الله فتوكلوا . إن كنتم مؤمنين » فالمؤمن يقدم ويتوكل على الله ، فهذا هو منطق الإيمان بالله ومقتضاه .

ولكن لمن يقولان هذا الكلام ؟ لبنى إسرائيل ؟

«قالوا ياموسى إنا لن ندخلها أبدا ماداموا فيها ، فاذهب أنت وربك فقاتلا ، إناهاهنا قاعدون»

وهكذا يحرج الجبناء فيتوقحون ؛ ويفزعون من الخوف أمامهم فيرفسون بأرجلهم كالحمر ولا يقدمون ؛ والجبن والتوقح ليسا متناقضين ولا متباعدين ، بل إنهما لصنوان فى كثير من الأحيان . يدفع الجبان إلى الواجب فيجبن ، فيحرج أنه نا كل عن الواجب ، فيسب هـذا الواجب ويتوقح على دعوته التى تـكلفه ما لا يطيق .. « فاذهب أنت وربك فقاتلا » .. هكذا فى وقاحة العاجز الذى لا تكلفه الوقاحة إلا مد اللسان ، أما الواجب فيكلفه وخز السنان ! « اذهب أنت وربك » .. فليس بربهم إذا كانت ربوبيته تكلفهم هذا الجهد ! « إنا هاهنا قاعدون » لا نريد مجـدا ولا نريد ملـكا ولا نريد عزا ولا نريد أرضا للميعاد ؛ ودون ذلك كله لقاء الجبارين !

هذه هى نهايه المطاف بموسى عليه السلام . نهاية الجهد الجهيد ، والسفر الطويل ، واحتمال الرذالات من بنى إسرائيل . نعم هاهى ذى نـكولا عن الأرض المقدسة وهو معهم على أبوابها . فماذا يصنع وبمن يستجير ؟

« قال : رب إنى لا أملك إلا نفسى وأخى . فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين » ..

وإنه ليعرف أن ربه يعلم بأنه لا يملك إلا نفسه وأخاه . ولـكن موسى فى ضعف الإنسان المخذول ، وفى إيمان النبى الكليم لا يجد متوجها إلا لله ، يشكو له بثه ونجواه . ويطلب إليه الفرقة الفاصلة بينه وبين القوم الفاسقين ، بعد الجهد الجهيد والصبر المديد . والهدف الأسمى منه قريب غير بعيد .

عندئذ كانت الكلمة الفاصلة ممن يملك الكلمة الفاصلة :

« قال : فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض ، فلا تأس على القوم الفاسقين » ..

وهكذا أسلمهم الله وهم على أبواب الأرض المقدسة ، أسلمهم للتيه يعلمهم الخشونة ، وينزع عنهم الترهل ، ويعرفهم أن للنصر ثمنا ، وللمجد مهرا ، وأن النصر الرخيص حتى لو تحقق لا يحافظ عليه من لم يشتروه بالثمن الذى يليق .

وهكذا انتهى موسى مع بنى إسرائيل إلى فراق فاصل ، ويتركهم السياق كذلك فى التيه ، أمام الأرض المقدسة التى وعدوها ، ولـكنهم بعد لم يستحقوها ..

« وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا ، فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ . قَالَ : لَأَقْتُلَنَّكَ . قَالَ : إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ * لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ، إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ * إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ، وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ * فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ ، فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ * فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ . قَالَ : يَاوَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ ، فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي ؟ فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ .

« مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ ، فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ، وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ؛ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ؛ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ .

« إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا ، أَنْ يُقَتَّلُوا ، أَوْ يُصَلَّبُوا ، أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ ، أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ . ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا ، وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ ، فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ ، وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ ، لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ ، وَمَاهُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا ، وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ .

« وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا ، جَزَاءً بِمَا كَسَبَا ، نَكَالاً مِنَ اللهِ ، وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

« أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ، وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ . وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ؟ » .

تضمنت سورة العقود هـذه عقوبات محددة على انتهاك بعض الحرمات ، التى صانها الله ، وكتب على الناس صيانتها ، وجعلها حدودا ينال العقاب من ينالها . ومنها حرمة النفس وحرمة المال وحرمة الأمن العام للجماعة .

وفى هذا الدرس ـ واستطرادا مع ذكر بنى إسرائيل ونقضهم عقودهم ومواثيقهم ـ يذكر أنه كتب عليهم حرمة النفس . وفى الدرس التالى يفصل الحدود التى قررها عليهم محافظة على هذه الحرمة أن تمس بالقتل أو الجرح .

لذلك يقدم للموضوع بقصة تكشف عن حكمة هـذه التشريعات وضرورتها من واقع الفطرة البشرية وواقع الحياة الإنسانية . فهذه القصة ـ قصة ابنى آدم ـ تكشف عن نموذج للعدوان الصارخ الذى لامبرر له ، وعن نموذج للوداعة المسالمة التى تكره الأذى حتى ولو كان دفعا للعدوان . وما دامت البشرية تحتوى مثل هـذين النموذجين فلا بد إذن من شريعة نافذة بالقصاص ، تكف النموذج الأول عن الاعتداء وتخوفه وتردعه ، أو على الأقل تجازيه على فعلته إن أقدم بعد الردع والتخويف ؛ كما تصون النموذج الثانى وتحفظ حرمة دمه ، وتقوم عنه بالدفاع الذى يتحرج منه ؛ فمثل هـذه النفوس الطيبة يجب أن تعيش ، وأن تصان ، وأن تحاط بالضمانات ؛ وألا تكون وداعتها حافزا للاعتداء عليها من غير ذنب ولا جريرة . . وهـذا ما تقوم به الشريعة . .

حتى إذا استعرض القصة ، واستجاش بها الوجدان الإنسانى ، واستثار بها الحمية للخير ضد الشر ، مضى السياق يقرر بشاعة الجريمة . جريمة الاعتداء على النفس . وقد سبقته القصة فى تجسيم تلك البشاعة . ومضى يقرر بشاعة الاعتداء على أمن الجماعة ويقرر عقوباتها القاسية الرادعة ، والضمير البشرى يتقبلها بارتياح فى ظل تلك القصة المثيرة . ومضى يقرر بشاعة

الاعتداء على المال كذلك ويقرر عقوبته الزاجرة .. . وهكذا يمضى السياق فى ظل القصة التى تكشف عن بشاعة الاعتداء كشفا أليما مثيرا للضمير المستقيم ..

***

« واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق . إذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر . قال : لأقتلنك . قال : إنما يتقبل الله من المتقين » ..

من هما ابنا آدم هذان ؟ كل محاولة لتحديد أشخاصهما أو أسمائهما أو زمانهما رجم بالغيب لا دليل عليه من كتابنا ولا من سنة رسولنا ؛ إنما هو جرى وراء أساطير العهد القديم ، التى لاتثبت على التحقيق . ولقدوردت آثار كثيرة مروية عن ابن عباس – رضى الله عنه – وعن غيره . ولكنها كلها – إن صحت رواياتها – لاتستند على كتاب ولا سنة ، وهؤلاء القائلون جميعا لم يكونوا حاضرى القصة ، ولا سبيل لهم إليها إلا من كتاب أو سنة ، وإلا فكل مايسمعونه أو يقرأونه فى الكتب الأخرى لايستحق الاعتماد . والذى ورد عن هذه القصة فى سنة الرسول – صلى الله عليه وسلم – لايحدد مكانها ولا زمانها ولا أشخاصها ، انما يقول فقط : إن كل جريمة قتل تقع فى هذه الأرض يرجع وزر منها على القاتل الأول[1] ولا شىء فى هذا يحدد أشخاصا ولا أزمانا كما روى المفسرون ..

لذلك نقف نحن عند النص العام لا نخصصه . فهو بعمومه هذا يؤدى الغرض ويحقق العظة .. وكل ما نستطيع قوله : إنها قصة تمثل بداوة الإنسان الأول ، لأن القاتل فيها لم يعرف كيف يوارى سوأة أخيه بالدفن – كما سيجىء – فهى تصور طفولة الإنسان الأولى . وبذلك تكون أقوى فى الدلالة على وجود هذين النموذجين المصورين فيها وجوداً أصيلا فى البشرية حتى وهى على فطرتها الخامة ، وهذا – فيما يبدو لنا – هو المقصود ..

اتل عليهم نبأ هذين النموذجين من نماذج البشرية ، المنبىء بالحق الثابت فى فطرتها . إنهما فى موقف لايخطر الاعتداء فيه على الطبع المستقيم . فهما فى موقف طاعة . موقف تقديم

---

(١) قال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية ووكيع ، قالا : حدثنا الأعمش عن عبد الله بن مرة عن مسروق عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « لا تقتل نفس ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها ، لأنه كان أول من سن القتل » أخرجه الجماعة سوى أبى داود من طرق عن الأعمش بهذا النص .

قربان لإلهما الذى يتقربان إليه ويتعبدانه . « فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر » .. (بطريقة لا يذكر النص كيف وقعت . فنكتفى نحن بأن نعرف أنه كان لديهم دلائل مقررة للقبول تحققت للأول ولم تتحقق للثانى ، فيغنينا هذا عن الجرى الكثير وراء الأساطير التى لا تحمل أى دليل يستحق الاعتبار) فلا ذنب إذن لمن تقبل منه ، ولم تكن له يد فى ألا يتقبل من الثانى . والسياق يبنى فعل التقبل هنا للمجهول ليشير إلى أن أمر التقبل لم يكن متعلقا بإرادة واحد منهما ، إنما كان متروكا لقوة مجهولة تعلو عن إدراك كليهما ورغبته ومشيئته . فما كان هنالك من مبرر إطلاقا ليحنق الأخ على أخيه حتى ليجيش خاطر القتل فى نفسه . فخاطر القتل هو أبعد ما يرد على النفس المستقيمة فى هذا المجال . مجال العبادة والخشوع والتقرب أولا ، ومجال القدرة الخفية التى لادخل لإرادة أخيه فى قبولها أو عدم قبولها ثانيا .. لذلك يبدو قوله لأخيه : « لأقتلنك » نابيا مثيرا للاستنكار . لأنه ينبعث من غير موجب ، إلا ذلك الشعور اللئيم المنكر . شعور الحسد الذى لايعمر نفسا طيبة .. وهكذا نجدنا منذ اللحظة الأولى ضد الاعتداء ، مستعدين لتقبل كل استنكار له وكل عقوبة عليه . .

ولكن السياق يمضى يزيد هذا الاعتداء نكارة وبشاعة بتصوير استجابة الطرف الآخر ووداعته وطيبة قلبه : « قال : إنما يتقبل الله من المتقين » . . هكذا فى براءة ترد الأمر إلى وضعه الطبيعى ، وفى إيمان يدرك أسباب القبول ، وفى توجيه رفيق للمعتدى إلى تقوى الله ، وهداية له إلى الطريق التى تؤدى إلى القبول ، وتعريض لطيف به لا يصرح بما يخدشه أو يثيره . .

ثم يمضى ذلك الأخ المؤمن الوديع المسالم يكسر من شرة أخيه الهائج المعتدى الشرير :

« لئن بسطت يدك إلىّ لتقتلنى ما أنا بباسط يدى إليك لأقتلك . إنى أخاف الله رب العالمين » . .

وهكذا يبدو لنا نموذج الوداعة والسلام والتقوى فى أشد المواقف استجاشة للضمير الإنسانى ، وحماسة له ضد المعتدى عليه ، وإعجابا بهدوئه واطمئنانه أمام نذر الاعتداء ، وتقوى قلبه وخوفه من الله رب العالمين .

ولقد كان فى هذا القول اللين مايفثأ الحقد ، ويهدىء الحسد ، ويسكن الشر ، ويمسح على القلب المهتاج ، ويرده إلى حنان الأخوة وبشاشة الإيمان وإشراق التقوى . . ومع هذا فقد أضاف الأخ الصالح إلى هذا كله صوت النذير :

« إنى أريد أن تبوء بإثمى وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين » . :

إننى لا أمد يدى إليك لأقتلك حتى لو رأيتك تبسط يدك إلى لتقتلنى . إنى أخاف الله رب العالمين أن أكون قاتلا . إنى لا أريد أن احتمل هذا الوزر حتى وموقفك منى يثير النفس للقتل . إننى أكف نفسى عن هذا الإثم الذى تدفعنى إليه لتحمله أنت وتحمل معه إثم قتلك إياى . فإن فعلت فستكون من أصحاب النار ، فذلك جزاء الظالمين .

وبذلك عرض له إشفاقه هو من جريمة القتل ليحمله على الاقتداء به ، وعرض له وزر جريمة القتل لينفره منه . وبلغ من هذا وذاك أقصى مايبلغه طوق إنسان فى صرف الشر ودوافعه عن قلب إنسان . .

ولكن النموذج الشرير لايكمل تصويره ، إلا حين نعلم كيف كانت استجابته :

« فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله ، فأصبح من الخاسرين » ..

بعد هذا كله . بعد التذكير والعظة والمسالمة والتحذير. بعد هذا كله اندفعت النفس الشريرة فوقعت الجريمة . وقعت وقد ذللت له نفسه كل عقبة ، طوعت له كل مانع ، طوعت له نفسه القتل . وقتل من ؟ قتل أخيه ! « فأصبح من الخاسرين » . خسر أخاه والأخ ناصر ورفيق ومعين ، وخسر نفسه فقد أصبحت له عدوة وهى تطوع له هذا الشر الأثيم . وخسر دنياه بما يحوك فى نفس القاتل من ندم وهواجس وقلق وعذاب للضمير . وخسر آخرته بذلك الذنب الذى يقترن بالشرك عند الله .

ومثلت له سوأة الجريمة فى مظهر حسى ؛ وهو لايدرى كيف يوارى جثة أخيه ،وهى – وقد فارقتها الحياة المطهرة – سوأة لا تستريح لمرآها النفوس . وشاءت حكمة الله أن تظهر له عجزه وهو الباطش القاتل الفاتك عن أن يكون كالغراب فى أمة الطير :

« فبعث الله غرابا يبحث فى الأرض ليريه كيف يوارى سوأة أخيه (١) . قال : ياويلتا أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوأة أخى ؟ فأصبح من النادمين » . .

***

---

(١) سمعت أن من عادة الغربان أن تدفن موتاها – ولم أتأكد من صحة هذا القول. وسواء كانت هذه عادة لها أم لم تكن ، فإن مانحسبه نحن قوانين كلية قد لايكون كذلك ، والله قادر على أن يجرى قانونا آخر نجهله بغير ما اعتدنا وما أحصينا .

إن الموعظة لاتجدى فى بعض النفوس ، والمسالمة لاتكف الاعتداء حين يكون الشر عميق الجذور ، وماتبلغ عظة مابلغته عظات الأخ المؤمن الوديع الودود . وما تبلغ مسالمة مابلغت فى هذا المثال المصور لأعلى درجات المسالمة الممكنة فى الوجود . . وهكذا لايكون إلا التشريع وإلا القصاص رادعا لمثل تلك النفوس . وقبل التشريع يقرر السياق بشاعة الجريمة بعد ما صورها فى قصة ألمة :

« من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ؛ ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا » . .

من أجل وجود هذه النماذج فى البشرية . من أجل الاعتداء الذى لاموجب له ولا مبرر ، على المسالمين الوادعين الذين لايريدون شرا ولا مدافعة . . من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل ـ وهذا لاينفى أن يكون قد كتب على سواهم إنما المناسبة فى السياق هى مناسبة بنى إسرائيل ـ أن جريمة قتل نفس واحدة بلا مبرر من قصاص أو دفع لفساد عام ، كجريمة قتل الناس جميعا ؛ وأن حماية نفس واحدة واستحياءها بهذه الحماية فى أية صورة من صورها ـ ومنها القصاص ـ كأنها استحياء للناس جميعا . ذلك أن الاعتداء على نفس واحدة هو اعتداء على حق الحياة ، الذى يصون للناس جميعا حياتهم ، فالاستهتار بهذا الحق اعتداء على كل من يدلى به ويتحصن . والمحافظة عليه محافظة على الحق الذى تصان به دماء الناس وأرواحهم . فليست نفس مفردة هى التى تقتل ، إنما هو حقها فى الحياة الذى يشاركها فيه الناس . وليست نفس مفردة هى التى تصان إنما هى كل نفس مستحقة للصيانة بما استحقت به تلك النفس الواحدة . . وهكذا تتبدى حكمة التشريع فى أساسها التجريدى المتعلق بالحقوق العامة والعلل الأولى .

ومع أخذ العهد من بنى إسرائيل على صيانة الأرواح والدماء ، ومع بيان الرسل وتحذيرهم فإن كثيرا منهم لا يزالون بعيدين عن القصد والاعتدال ، مندفعين مع النزوات والشهوات :

« ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات ، ثم إن كثيرا منهم بعد ذلك فى الأرض لمسرفون » . .

***

ولقد قرن الله فى الآية السابقة قتل النفس بالفساد فى الأرض ، وجعل كلامنهما مبررا للقتل . ذلك أن أمن الجماعة ضرورى كأمن الأفراد ، ولأن الخروج بالقوة على شريعة الله

والقائمين عليها ، ينشا عنه استباحة الحرمات كلها ومنها حرمة الدماء . لذلك وضعت لهـذا الخروج والإفساد عقوبات مخيفة ، تترتب على ذات الخروج لا على مفردات الجرائم التى تقع بسببه ، فالخروج ذاته هو الجريمة ، لمـا يتضمنه من إضعاف السلطة التى تضبط الأمن وتمنع وقوع الجرائم :

« إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا ، أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خـلاف أو ينفوا من الأرض . ذلك لهم خزى فى الدنيـا ، ولهم فى الآخرة عذاب عظيم »

ولأمر ما قال النص : « الذين يحاربون الله ورسوله » والخارجون بالقوة المسلحة على نظام الجماعـة ، لا يحاربون الله على ظاهر النص لأن الله لايحاربه العباد بالسيف ؛ وقد لا يحاربون رسول الله بشخصه ـ صلى الله عليه وسـلم ـ فقد يكونون من المسلمين الخارجين على النظام فى غير عهد رسول الله . . إنما أراد بحرب الله ورسوله ، حرب شريعة الله وشعائره وحرماته ؛ وتهديد الجماعة الإسلامية التى كفلت لها الشريعة حرماتها جميعا إلا بحقها . وإنما أراد بهـذا النص أن السلطان الذى يحق له أن يعاقب الخارجين بعقوبة الله ، هو السلطان الذى يقوم على شريعة الله ورسوله ، وينفذ شريعة الله ورسوله . فأما الذين يخرجون على نظام غـير نظام الله ورسوله فليس لأحد أن يأخذهم باسم هذه الشريعة ، ولا أن يعاقبهم بعقوبات هذه الشريعة .

نقرر هذا بوضوح لأن بعض أذناب السلطة فى كل زمان ، كانوا يفتون لحكام لايستمدون وجودهم من شريعة الله ، ولايقومون على تنفيذ هـذه الشريعة ، يفتون لهم بأن يأخذوا الخارجين عليهم بتلك العقوبات باسم شريعة الله . وهؤلاء الخارجون لم يكونوا يحاربون الله ورسوله ، لأنهم إنما كانوا يحاربون سلطة خارجة على شريعة الله ورسوله . . إنه ليس لسلطة لاتقوم على تنفيذ شريعة الله أن تأخذ الخارجين عليها باسم شريعة الله ـ لهذا كان النص : « الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا » . . يسعون فى الأرض فسادا بمحاربتهم الله ورسوله ، وبانتهاكهم بالقوة حرمات الله ورسوله ، وباعتدائهم المسلح على أمن الجماعة القائمة بشريعة الله ورسوله .

إنما جزاء هذه العصابات المسلحة التى تروع الناس ، وتسلبهم أموالهم وأرواحهم ، وتعتدى على أعراضهم وحرماتهم ؛ سواء كان هذا وقع منها فعلا أو فى طريقه للوقوع . . جزاؤهم أن

يقتلوا تقتيلا عاديا ، أو أن يصلبوا حتى يموتوا ، أو أن تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف [١] ، أو أن ينفوا من الأرض .

ويختلف الفقهاء حول هذا النص إن كان للإمام الخيار مطلقا فى اتخاذ أية عقوبة ، أم إن هنالك ترتيبا معينا فيها تابعا لوقوع جرائم معينة . ونحن نختار التخيير إطلاقا ، مع ترتيب العقوبة على مجرد الخروج بالقوة حتى قبل أن تقع الجرائم بالفعل ، لأن هـذا إجراء وقائى مانع لوقوع الجريمة .

كذلك يختلفون فى معنى النفى من الأرض هل هو النفى خارج الأرض الإسلامية ، أم النفى من الأرض التى وقعت فيها الجريمة ، أم النفى من الأرض التى يملك فيها الخارج حريته وذلك بحبسه ، أم النفى من الأرض كلها ولا يكون ذلك إلا بالموت . . ونحن نختار النفى من أرض الجريمة إلى مكان ناء يحس فيـه بالغربة والتشريد جزاء ما شرد الناس وروعهم فى مأمنهم ، ويصبح فيه عاجزا عن مزاولة جريمته بفرض الرقابة عليه فى منفاه .

« ذلك لهم خزى فى الدنيا ، ولهم فى الآخرة عذاب عظيم » .. لأن الجماعة المسلمة يجب أن تعيش آمنة ، والسلطة المسلمة يجب أن تـكون مطاعة . فهذا هو الوسط الذى يزاول الناس فيه نشاطهم آمنين ، والشريعة تجعل فى أول أهدافها تهيئة جو الأمن للجماعة لتؤدى مهمة الخلافة فى الأرض دون معوقات ؛ ولتصلح فى الأرض لا لتفسد وتتعدى الحدود .

فإذا ارتدع هؤلاء الخارجون المفسدون عن غيهم وإفسادهم ، نتيجة استشعارهم نـكارة الجريمة ، وتوبة منهم إلى الله ورجوعا إلى طريقه المستقيم ، وهم ما يزالون فى قوتهم ، لم تنلهم يد السلطان ، لتـكون هذه التوبة خالصة لله ، صادرة عن اقتناع ومتاب .. فقد سقطت جريمتهم ولم يعد للسلطان عليهم من سبيل :

« إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم ، فاعلموا أن الله غفور رحيم » ..

والحـكمة واضحة فى سقوط الجريمة وكف يد السلطان عنهم فى هذه الحالة من ناحيتين : الناحية الأولى أنهم تابوا وهم يملـكون العدوان . والثانية تشجيعهم على التوبة قبل أن يقدر عليهم السلطان .

***

---

(١) اليد اليمنى مع الرجل اليسرى أو العكس .

والقرآن لا يأخذ الناس بالقانون وحده ؛ إنما يرفع سيف القانون ويصلته ليرتدع من لا يردعه إلا السيف . فأما اعتماده الأول فعلى تربية الوجدان ، وتهذيب الطباع ، وهداية الأرواح . لذلك ما يكاد ينتهى من الترويع بالعقوبة ، حتى يأخذ طريقه إلى القلوب والضمائر والأرواح ؛ يحثها على تقوى الله ، وابتغاء الوسيلة إلى رضاه ، والجهاد فى سبيله رجاء الفلاح ؛ ويحذرها عاقبة الكفر به ، ويصور لها مصائر الكفار فى الآخرة تصويرا موحيا بالخشية والاعتبار :

«ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله ،وابتغوا إليه الوسيلة ، وجاهدوا فى سبيله لعلكم تفلحون» ..

« اتقوا الله » .. فالخوف ينبغى أن يكون من الله ، لا من العقوبة ، فهذا هو الخوف اللائق بكرامة الإنسان ، وهو الخوف الذى يصاحب الضمير فى سره وعلنه ، دون حساب للناس ودون مراقبة للناس .

« وابتغوا إليه الوسيلة » .. ابحثوا عن كل وسيلة تقربكم من الله ؛ بالتقوى ، وبالعمل الصالح ، وبالعبادات المفروضة ، وبالتوجه إليه ، وبإخلاص النفس له .. وبكل وسيلة تقربكم إليه دون تحديد ولا تخصيص .

« وجاهدوا فى سبيله » جاهدوا الخارجين على شريعته ، وجاهدوا شهواتكم ونزغاتكم ، وجاهدوا لتكون كلمته هى العليا فى الحياة وفى أنفسكم .

« لعلكم تفلحون » .. فالرجاء قائم حين تتقون وتبتغون الوسيلة وتجاهدون ، فى الفلاح المطلق . فلاح الدنيا وفلاح الآخرة . فتوجهوا لله يحدوكم هذا الرجاء فى الفلاح .

وعلى الضفة الأخرى مشهد للكفار ، يرسمه السياق فى صورة مجسمة شاخصة متحركة ؛ لا فى أوصاف ولكن فى حركات وانفعالات ومحاولات :

« إن الذين كفروا لو أن لهم ما فى الأرض جميعا ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم ولهم عذاب أليم . يريدون أن يخرجوا من النار وماهم بخارجين منها ، ولهم عذاب مقيم » ..

إن أقصى مايتصوره خيال أن يكون للذين كفروا كل مافى الأرض جميعا . ولكن السياق يفترض ما هو فوق الخيال ليتصور أن معهم كذلك مثل ما فى الأرض جميعا ـ ويصورهم يحاولون الافتداء بهذا وبذاك لينجوا مما ينتظرهم من هلاك .. ولكن هيهات هيهات !

ثم يستمر السياق ليصور لنا مشهدهم فى جهنم يحاولون منها الخروج : « يريدون أن يخرجوا من النار » . ولكن كذلك هيهات « وما هم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم » .

إنه مشهد مجسم فيه الكفار ومعهم ما فى الأرض ومثله معه ، وهم يعرضونه فلا يقبل ، وهم يدخلون جهنم ، وهم يحاولون الخروج ، وهم يرغمون على البقاء .. ويسدل الستار ويتركهم مقيمين هناك ؛ ونحن نلمحهم فيها بعين الخيال . . وما من شك أن هذا التصوير أوقع فى الحس وأعمق فى النفس من كل تعبير ذهنى عن فوات الفرصة ودوام العذاب[1] .

***

وفى نهاية هذا الدرس يرد حكم السرقة ، بعد القتل والحرابة :

« والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا ، نكالا من الله ، والله عزيز حكيم. فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه . إن الله غفور رحيم » . .

ولا بد من بيان لهذا الحد ، الذى يبدو فى ظاهره قاسيا ، حين ننظر نظرة سطحية إلى شىء مادى يسرق وإلى يد حية تقطع .

إن الإسلام كل متكامل ، فلا تفهم حكمة الجزئيات التشريعية فيه حق فهمها إلا أن ينظر فى مبادئه كلها وضماناته للناس جميعا .

والإسلام يبدأ بتقرير حق كل فرد فى الحياة ، وحقه فى كل الوسائل الضرورية لحفظ الحياة .. من حق الإنسان ـ كل إنسان ـ أن يأ كل وأن يشرب ، وأن يلبس ، وأن يكون له بيت يكنه ويؤويه .. لأن ذلك كله ضرورى لحفظ الحياة . وقد يكون مثلها الدواء فى كثير من الأحيان .

من حق كل إنسان على الجماعة التى يعيش فيها، وعلى الدولة النائبة عن هذه الجماعة أن يحصل على تلك الضروريات . أولا عن طريق العمل ما دام قادرا على العمل . وعلى الجماعة والدولة النائبة عن هذه الجماعة ، أن تعلمه كيف يعمل ، وأن تيسر له العمل ، ومعه أداة العمل .. فإذا تعطل لعدم وجود العمل أو أداته ، أو لعدم قدرته عليه جزئيا أو كليا ، وقتيا أو دائما .

---

(١) يراجع فصل « طريقة القرآن » فى كتاب التصوير الفنى فى القرآن . وكذلك كتاب « مشاهد القيامة فى القرآن » بتوسع.

أو إذا كان كسبه من عمله لا يكفى لضرورياته ، فله الحق فى استكمال هذه الضروريات من عدة وجوه : أولا من النفقة التى تفرض له شرعا على القادرين فى أسرته . وثانيا على القادرين من أهل محلته . وثالثا من بيت المال من حقه المفروض فى الزكاة .. فإذا لم يجد من هذه الموارد، فله شرعا أن يقاتل من بيده ضروراته هذه ويمنعها عنه وأن يقتل ليحصل عليها . فإن قتل هو فهو شهيد وإن قتل المانع فهو فى النار(١) .

وإذن فلماذا يسرق السارق فى ظل هذا النظام ؟ إنه لا يسرق لسد الحاجة إنما يسرق للطمع فى الثراء. والثراء لا يطلب من هذا الوجه الذى يروع الناس ؛ ويحرمهم الطمأنينة على ما كسبوا من مال حلال . فالإسلام لا يعترف بملكية لم تتخذ من حلال .

وإنه لمن حق كل إنسان فى مثل هذا المجتمع الإسلامى كسب ماله من حلال ، لا من ربا ولا من غش ولا من احتكار ، ولا من أكل أجور العمال ، ثم أخرج زكاته ؛ فإذا احتاجت الدولة أكثر من الزكاة أخذت بحسب الحاجة .. من حق كل إنسان فى مثل هذا النظام أن يأمن على ماله ، وألا يباح ماله للسرقات .

فإذا سرق السارق بعد ذلك — وهو مكفى الحاجة — فإنه إن لم يكن مكفيها قاتل علنا عليها — فإنه لا يسرق وله عذر . والسيف الذى وضعته الشريعة فى يده ليقاتل به من يمنع عنه ضروراته ، هو نفس السيف الذى تقطع به هذه الشريعة يده ، إذا هو مدها إلى مال سواه من غير عذر ولا شبهة . (٢)

فأما حين توجد شبهة له من حاجة — لم يستطع أن يقاتل عليها فسرق ليسدها — فالمبدأ العام فى الإسلام هو درء الحدود بالشبهات . لذلك لم يقطع عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — أيدى غلمان ابن حاطب ابن أبى بلتعة حين سرقوا ناقة ، وتبين أن سيدهم لا يعطيهم كفاية من طعام . بل غرم السيد ضعف ثمن الناقة وأطلق سراح الغلمان . وكذلك لم يأخذ أحدا بحد السرقة فى عام الرمادة ، لأنه كانت هناك مجاعة عامة ، فهى شبهة عامة تدرأ الحد حسب شريعة الله ورسوله .

---

(١) رأى الإمام ابن حزم الظاهرى .

(٢) هناك بحوث وخلافات فقهية كثيرة حول القدر الذى يقام عليه الحد ، وحول الحالة التى ينطبق عليها وصف السرقة ، تطلب فى كتب الفقه . وقد نشر الأستاذ عبد القادر عودة فصولا متتالية فى مجلة «المسلمون» العدد ٣، ٤، ٥ من السنة الثانية فى هذا الموضوع تراجع هناك .

وهكذا يجب أن نفهم حدود الإسلام ، فى ظل نظامه المتكامل ، الذى يضع الضمانات للجميع ، لا لطبقة على حساب طبقة ؛ والذى يتخذ أسباب الوقاية قبل أن يتخذ أسباب العقوبة ؛ والذى لا يعاقب إلا الظالمين المعتدين بلا سبب للاعتداء .

لذلك يقول وهو يشدد عقوبة السرقة : « فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا » . . « نكالا من الله » . . فهى تنكيل من الله رادع . لمن ؟ يبدو ذلك فى الآية التالية إذ يقول : « فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه » فهو الظلم إذن فى تلك السرقة . والظلم لا يتحقق والسارق مظلوم يطلب الكفاية ، ويحقق لنفسه ضرورات الحياة ، التى فرضها له الله ، وجعلها حقا له كحق الحياة .

« فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه . إن الله غفور رحيم » . . فشريعة الإسلام لا تدع السارق المقطوع يموت من الجوع هو وأهله وعياله كما تصنع شرائع الأرض بالمحكوم عليهم فى سرقة ، فتعدهم من أرباب السوابق ، وتحرمهم حق العمل ، وينبذهم المجتمع . حتى يضطروا إلى حياة الجريمة من جديد . وحتى يتشرد أطفالهم ونساؤهم لأنهم سرقوا رغيفا ليأكلوه . . كلا ! إن شريعة الله لأحكم وأرحم من شرائع المتمدنين فى هذه الأيام ! إنها تضمن للمقطوع فى سرقة رزقه ورزق عياله من بيت مال المسلمين . فإذا تاب قبلته عضوا صالحا فى المجتمع ، وقبله الله عبدا صالحا من عباده فى الآخرة . فلا يتشرد ولا يهمل ، ولا يتكفف الناس ، أو يعود إلى حياة الإجرام .

وعلى ذكر التوبة والمغفرة يعقب السياق بالمبدأ الكلى الذى تقوم عليه المغفرة . فخالق هذا الكون ومالكه ، هو صاحب المشيئة العليا فيه ، وهو الذى يقرر مصائره ومصائر من فيه :

« ألم تعلم أن الله له ملك السماوات والأرض ، يعذب من يشاء ، ويغفر لمن يشاء . والله على كل شئ قدير » ..

وقد أوضحنا مرارا عن كيفية تعلق المشيئة بالعذاب والمغفرة . والله أعلم بما يريد .

« يَٰأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْكُفْرِ ، مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا : آمَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ، وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا ، سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ ، سَمَّٰعُونَ

لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ، يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ ، يَقُولُونَ : إِنْ أُوتِيتُمْ هٰذَا فَخُذُوهُ ، وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا ؛ وَمَنْ يُرِدِ اللّٰهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللّٰهِ شَيْئًا ، أُولٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللّٰهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ، لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ ، وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ * سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ ، أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ ؛ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ؛ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا ؛ وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ . إِنَّ اللّٰهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللّٰهِ ، ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ ؟ وَمَا أُولٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ * إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا ، لِلَّذِينَ هَادُوا ، وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ ، بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللّٰهِ ، وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ ؛ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ ، وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا . وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللّٰهُ فَأُولٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ * وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ ، وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ ، وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ ، وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ ، وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ ، وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ ؛ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ ؛ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللّٰهُ فَأُولٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ ؛ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ ، وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ ، وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ * وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللّٰهُ فِيهِ ؛ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللّٰهُ فَأُولٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ، فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللّٰهُ ؛ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ، لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ، وَلَوْ شَاءَ اللّٰهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ، وَلٰكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِيمَا آتَاكُمْ ، فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ، إِلَى اللّٰهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ، فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ * وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللّٰهُ ؛ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ؛

وَٱحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ؛ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ؛ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ ٱلنَّاسِ لَفَاسِقُونَ * أَفَحُكْمَ ٱلْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ؛ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ؟ »

يكاد يكون هذا الدرس خاصا بموضوع الحكم والشريعة والتقاضى . . أيكون ذلك كله حسب مواثيق الله وعهوده وشرائعه التى استحفظ عليها الأمم واحدة بعد أخرى ، وكتبها على الرسل ، ثم على من يتولون الأمر من بعدهم ليسيروا على هداهم ؟ أم يكون حسب الأهواء المتقلبة ، والمصالح التى لا ترجع إلى أصل ثابت ، والعرف الذى يصطلح عليه جيل أو أجيال ؟

والله يقول : إن شرائعه التى سنها للناس ، وعاهدهم عليها وعلى القيام بها ، هى التى يجب أن تحكم هذه الأرض ، وهى التى يجب أن يتحاكم إليها الناس ، وهى التى يجب أن يقضى بها الأنبياء والحكام .

والله يقول : إنه لا هوادة فى هذا الأمر ، ولا ترخص ، ولا انحراف ، وإنه لا عبرة بما تواضع عليه جيل ، أو لما اصطلح عليه قبيل ، مخالفا لشرائع الله فى كبير أو صغير .

والله يقول : إنه لا وسط بين الكفر والإيمان فى هذه المسألة . فالمؤمنون هم الذين يحكمون بما أنزل الله ، والكافرون والظالمون والفاسقون هم الذين لا يحكمون بما أنزل الله . وإنه إما أن يكون الحكام قائمين على شريعة الله فهم فى نطاق الإيمان ، وإما أن يكونوا قائمين على شريعة غير ما فرض الله فهم الكافرون الظالمون الفاسقون . . ولا وسط بين هذا الطريق وذاك . ولا حجة ولا معذرة ، ولا احتجاج بمصلحة اجتماعية أو قومية — فالله الذى خلق الناس ، يعلم ما يصلح للناس ؛ ويضع شرائعه لتحقيق مصالح الناس ؛ فليس لواحد من الناس أن يقول : إننى أبصر بمصلحة الخلق ، من خالق الخلق . . فقولته هذه — سواء لفظ بها أو لم يلفظ — هى التى ترتب عليه صفة الكفر ، لأنه يزعم نفسه أعلم من الله بمصالح العباد . وصفة الظلم لأنه يتجاوز حده ، فيظلم من يحكمهم ومن يقضى بينهم بردهم إلى شريعة نابتة من الأرض وليست منزلة من السماء ، فيبدلهم الذى هو أدنى بالذى هو خير . وصفة الفسق ، لأنه يخرج عن طريق الله المرسوم فى شريعته إلى طرائق قدد ، ما أنزل الله بها من سلطان .

وفي هذا الدرس يبين الله أن أصل الديانات واحد ، وأن كثيرا من التشريعات فيها مشترك ، وأن اليهود والنصارى لديهم من التشريعات ما صادق عليه الإسلام؛ وأن الإسلام ـ وهو آخر رسالات السماء إلى الأرض ـ هو الشريعة الأخيرة المهيمنة على ما كان قبلها من شرائع . وأن اليهود والنصارى قد نقضوا ما عاهدوا الله عليه ، وأبطلوا أحكام شرائعهم وحكموا العرف والاصطلاح . وأن على الرسول أن يحكم بينهم بما أنزل الله إذا احتكموا إليه . ويشدد على الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويحذره أن يتسامح فى تنفيذ شريعة الله كاملة ، أو أن يتبع أهواءهم تأليفا لقلوبهم أو اتقاء لشرهم . وألا يحفل من يتولى منهم أو من الكفار الذين أظهروا الإيمان ولكن قلوبهم لم تؤمن ، حين يحكم بينهم بالحق فلا يعجبهم هذا الحق . لأن شريعة الله يجب أن تنفذ رضى الناس أم كرهوا ، أقبلوا أم تولوا . ولا يجوز أن تخضع أبدا لأهواء الناس ، إنما يجب أن تخضع لها أهواء الناس .

* * *

« يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر ، من الذين قالوا : آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ، ومن الذين هادوا .. سماعون للكذب ، سماعون لقوم آخرين لم يأتوك ، يحرفون الكلم من بعد مواضعه ، يقولون : إن أوتيتم هذا فخذوه ، وإن لم تؤتوه فاحذروا . ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا . أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم ، لهم فى الدنيا خزى ، ولهم فى الآخرة عذاب عظيم » ..

« يا أيها الرسول » .. بهذه الصفة الموحية ، المنبهة إلى طبيعة موقفه وطبيعة عمله ؛ فالقضية ليست قضيته ، إنما هو فيها رسول ؛ فلا يحزنه ما يقع من مسارعة بعض الناس إلى الكفر ، فما عليه إلا أداء الرسالة ؛ وليس له أن يتراضى معهم على حل وسط ، فإنه لا يملك إلا التبليغ .

« يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر » .. كأنما يتسابقون . من الذين قالوا الإيمان كلمة ولم يحسوه عقيدة ، ومن اليهود الذين يظهرون الولاء مرة وهم يتآمرون مع طرف آخر .. إن هؤلاء وهؤلاء « سماعون للكذب » مقبلون عليه ، مستريحون له ، فكلمة الحق لا تقع منهم موقع القبول ، والصدق لا يجد منه ارتياحا ، ولا ترحيبا . « سماعون لقوم آخرين لم يأتوك » ... متصلون وعاملون لحساب فريق آخر منهم لا يحضرون مجلسك ويدسون عليك هؤلاء المتظاهرين بالإيمان أو بالمودة .

روى أن هذه الآيات نزلت فى قوم من اليهود ارتكبوا جرائم - يختلف الرواة فى تحديدها - ذات عقوبات معينة فى التوراة ، اصطلح القوم على غيرها ، لأنهم لم يريدوا تطبيقها على الشرفاء منهم فى مبدأ الأمر ، ثم تهاونوا فيها بالقياس إلى الجميع ، وأحلوا محلها عقوبات أخف ، أو عقوبات تتأثر بمراكز الناس وطبقاتهم ! .. ثم أرادوا أن يستفتوا الرسول فيها - حتى إذا أفتى لهم بالعقوبات المخففة عملوا بها وكانت لهم حجة عند الله فقد أفتاهم فيها رسول ! وإن حكم فيها بمثل ماعندهم لم يأخذوا بحكمه . فدسوا بعضهم يستفتيه . ومن ثم حكاية قولهم : « إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا » ..

والله يقول لرسوله : لاعليك منهم ، ولايحزنك أن يكفروا وأن يتولوا . فالله يجرى سنته التى لاتتخلف . ومن سلك سبيل الفتنة فلا بد أن يفتن ، ومامن أحد يملك أن يرد عنه هذه الفتنة ولا أنت يامحمد : « ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا » لأن سنة الله لابد أن تجرى ولاتتوقف . وهؤلاء ساروا فى طريق الدنس وعمرت قلوبهم الشهوات فآثروها على الحق « أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم لهم فى الدنيا خزى ولهم فى الآخرة عذاب عظيم » .

« سماعون للكذب ، أكالون للسحت ، فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم ، وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئا ، وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط . إن الله يحب المقسطين » . .

كرر أنهم سماعون للكذب ، وأضاف إليه أنهم كذلك أكالون للسحت . للرشوة والربا . وكذلك لما يكسبونه من وراء كتمان شريعة الله فى التوراة وتبديلها ، فهو سحت (أى حرام وقاطع للبركة) فإن جاءوك يطلبون إليك أن تحكم بينهم - وقد وقع هذا منهم فى روايات كثيرة [1] - فاحكم بينهم أو أعرض عنهم . ولن يضروك بشىء إذا أعرضت ، فأما إذا حكمت فلتحكم بالعدل ، لاتراعى لهم خاطرا ، ولاتنحرف عن الحق فتيلا . . « إن الله يحب المقسطين » . .

---

(١) قال مالك عن نافع عن عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما - « إن اليهود جاءوا إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فذكروا له أن رجلا منهم وامرأة زنيا ، فقال لهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ماتجدون فى التوراة فى شأن الرجم ؟ فقالوا : نفضحهم ويجلدون . قال عبد الله بن سلام : كذبتم إن فيها الرجم ، فأتوا بالتوراة فنشروها ، فوضع أحدهم يده على آية الرجم فقرأ ماقبلها ومابعدها ، فقال له عبد الله ابن سلام : ارفع يدك فرفع يده فإذا آية الرجم . فقالوا : صدق يامحمد فيها آية الرجم ، فأمر بهما رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فرجما ، فرأيت الرجل يحنى على المرأة يقيها الحجارة » . . أخرجه الشيخان واللفظ للبخارى . . وهناك روايات أخرى عن هذه الحادثة وعن حوادث قتل وغيرها جاءوا فيها إلى الرسول ليحكم بينهم . فأجرى فيها شريعة الله بينهم .

ثم عقب بسؤال استنكارى على قولهم : « إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا » يقول : كيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله . حتى إذا حكمت وفق شريعتك المصدقة لما فى التوراة ، فتضافر حكمك وحكم التوراة . كيف من بعد ذلك كله يتولون معرضين :

« وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ، ثم يتولون من بعد ذلك ؟ » . .

وإنها لكبيرة منكرة . من قوم يدعون الإيمان ، على الأقل بما فى التوراة التى بين أيديهم . . « وما أولئك بالمؤمنين » .. ومن ثم يضرب القرآن المثل فى احترام الكتب قبله — وتلك خصيصة الإسلام التى يحقق بها عقيدة التوحيد كاملة كما أسلفنا ، ويتهيأ بها أن يكون رسالة عالمية حقا ، تنشىء مجتمعاً عالميا تعيش فيه كل الديانات والعقائد فى سلام — يضرب القرآن هذا المثل ، فينص على أن التوراة كتاب الله ، أنزله الله ، فيه هدى ونور :

« إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور ، يحكم بها النبيون الذين أسلموا ، للذين هادوا ، والربانيون والأحبار ، بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء . فلا تخشوا الناس واخشون ، ولاتشتروا بآياتى ثمنا قليلا . ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » . .

فما جاء فى التوراة من أحكام — ممالم ينسخه الإسلام — هو من شريعة الله « يحكم بها النبيون الذين أسلموا » .. وهذه الصفة ذات دلالة هنا ،فالإسلام هو صفة الأنبياء جميعا ،كلهم أسلموا أمورهم كلها لله ، وتجردوا بكل كيانهم لله . . يحكمون بها للذين هادوا — كما حكم الرسول صلى الله عليه وسلم بينهم بها لموافقتها لما جاء به — ويحكم بها الربانيون والأحبار وهم الحفظة على الشريعة الشاهدون على قومهم فى الدنيا والآخرة .

« فلا تخشوا الناس واخشون ، ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا » .. هنا يتوجه الخطاب عاما — بمناسبة الحديث عن شريعة الله فى التوراة — بأن لا تقف خشية الناس فى طريق الشريعة . سواء منهم الطغاة الذين ينحرفون عن شريعة الله ويعطلونها ، أو الجماهير المضللة التى قد تستثقل أحكام الشريعة وتشغب عليها . إن الله وحده هو الذى يستحق الخشية لاالناس . كذلك لايجوز أن يسكت حماة الشريعة عن مخالفتها لقاء ثمن قليل من عرض الحياة الدنيا ، مهما يكثر فهو قليل ، ومهما يعظم فهو ضئيل .

ومن ثم ذلك الحكم الصارم الجازم الحازم ، الذى لا تردد فيه ولا عوج ، ولا تسامح فيه ولا وسط :

« ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » ..

أولئك هم الكافرون ، لأنهم زعموا لأنفسهم بصرا بمصالح العباد أنفذ من بصر الله . أو لأنهم جحدوا ما أنزل الله فاطرحوه . أو لأنهم علموا فيه الخير ولكنهم آثروا هواهم ومصالحهم على طاعة أمر الله . ولعله لهذا المعنى الأخير كان بعض الصحابة — رضوان الله عليهم — يميل إلى التخفيف، ويفسر كلمات : « الكافرون والظالمون والفاسقون » هنا بأنها كفر دون كفر وظلم دون ظلم وفسق دون فسق(١). وأنه ليس الكفر بالله كالكافرين(٢) .. فأما الذين يقولون : إن شريعة الله لا تصلح لهذا الزمان ، وإنهم يراعون مصلحة الأمة حين يحكمونها بشرائع أخرى غير شريعة الله . فما من شك أن لفظ الكفر بكل معناه ينطبق عليهم . وكذلك لفظ الظلم ، ولفظ الفسق ، على المعانى التى أوضحناها فى صدر هذا الكلام .

***

ثم يفصل السياق بعض الأحكام التى تضمنتها التوراة — وهى من الأحكام التى لم ينسخها الإسلام — :

«وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس ، والعين بالعين ، والأنف بالأنف ، والأذن بالأذن ، والسن بالسن ، والجروح قصاص . فمن تصدق به فهو كفارة له ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون » .

إنه القصاص العادل ، الذى تستريح إليه الفطرة ، والذى يذهب بحزازات النفوس ، وجراحات القلوب ، والذى يسكن فورات الثأر الجامحة التى يقودها الغضب والحمية الجاهلية . وقد يقبل بعضهم الدية فى القتل ، والتعويض فى الجراحات . ولكن بعض الناس لا يشفى نفسه عوض إلا القصاص .

والإسلام يلحظ الفطرة — كما لحظها شرع الله فى التوارة — حتى إذا ضمن لها القصاص المريح ، راح يناشد فيها وجدان السماحة والعفو — العفو القادر على القصاص — فلاجرم تستجيب لهذه المناشدة تطوعا ، وقد هيأ لها الاشتفاء بالتشريع .. « فمن تصدق به فهو كفارة له » .. من تصدق بالقصاص متطوعا فهو كفارة عن ذنوبه يحط بها الله عنه . وكثيرا ما تستجيش هذه الدعوة نفوس أصحاب الحقوق فيتنازلون عنها ، حيث لا يغنيهم العوض المالى ولا يشفيهم .. روى الإمام أحمد قال : حدثنا وكيع ، حدثنا يونس بن أبى إسحاق عن أبى السفر قال : « كسر رجل من قريش سن رجل من الأنصار فاستعدى عليه معاوية . فقال معاوية : إنا

(١) قاله الثورى عن ابن جريج عن عطاء .

(٢) رأى ابن عباس رضى الله عنه .

سترضيه . فألح الأنصارى . فقال معاوية : شأنك بصاحبك — وأبو الدرداء جالس — فقال أبو الدرداء : سمعت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقول : « ما من مسلم يصاب بشىء من جسده فيتصدق به إلا رفعه الله به درجة ، أوحط به عنه خطيئة » فقال الأنصارى : فإنى قد عفوت .. وهكذا رضيت نفس الرجل واستراحت بما لم ترض من مال معاوية الذى لوح له به للتعويض .. وتلك شريعة الله العليم بخلقه وبما يحيك فى نفوسهم من مشاعر وخواطر ، وبما يتعمق قلوبهم ويرضيها ، ويسكب فيها الاطمئنان والسلام من الأحكام .

« ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون » .. الذين لا يحققون العدل المطلق للناس . ولا يحققون الطمأنينة الكافية للناس . ولا يفيئون فى أحكامهم إلى أصل ثابت لا تتنازعه الشهوات والأخطاء ، فيمتنع به ظلم الناس .

***

ويمضى السياق يقرر تعاقب الرسالات من عند الله ، بذلك الدين الواحد ، وبتلك الشريعة المتحدة المصدر والاتجاه :

« وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم ، مصدقا لما بين يديه من التوراة ؛ وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ، ومصدقا لما بين يديه من التوراة ، وهدى وموعظة للمتقين : وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه . ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون » ..

والإنجيل لم يتضمن تشريعات ، لأنه احتضن تشريعات التوراة ، فيما عدا بعض الأحكام التى فرضها الله عقوبات على اليهود ، وحرم عليهم بها بعض الطيبات التى كانت لهم حلالا قبل المعصية ، فجاء عيسى عليه السلام ليحل لهم بعض الذى حرم عليهم .

فأهل الإنجيل إذن كانوا مطالبين أن يتحاكموا إلى الشريعة التى جاء بها الإنجيل ، سواء منها ما تضمنته التوراة ، والتعديلات التى جاء بها عيسى عليه السلام . لأن القاعدة هى الحكم بما أنزل الله فى كل زمان وفى كل مكان :

« ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون » ..

الخارجون عن نهج الله وطريقه ، المنحرفون عن هداه ونوره ، المتبعون للهوى يؤثرونه على أمر الله .

* * *

وأخيرا يصل السياق إلى الرسالة الأخيرة ، وإلى الشريعة الأخيرة . إنها الرساله التى جاءت تعرض الإسلام كما أراده الله كاملا لايناله بعد ذلك تعديل . أساسا للحياة البشرية المقبلة كلها ، تستمد منه آدابها وأخلاقها وشرائعها وقوانينها . بما تضمن من مبادىء كلية تسمح للحياة بالنمو المتجدد ، وتلبى حاجات الحياة المتجددة ، دون اصطدام بالأصول الثابتة والمبادىء العامة .

ومع هذا فليس صاحب هذه الرسالة مأمورا بأن يحمل عليها جميع الناس حملا ، إنما هو مطالب فقط أن يستمسك بشريعته ، وأن يحكم بها لا بسواها ، وألا ينحرف عنها فتيلا ، وألا يجامل فيها أحدا . . والأمر للرسول — صلى الله عليه وسلم — هنا يشمل خلفاءه ، ويشمل كل من قام بأمر هذه الأمة إلى يوم القيامة :

« وأنزلنا إليك الكتاب بالحق ، مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه . فاحكم بينهم بما أنزل الله ، ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق . لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ، ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات . إلى الله مرجعكم جميعا ، فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون . وأن احكم بينهم بما أنزل الله ، ولا تتبع أهواءهم ، واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك ، فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم ، وإن كثيرا من الناس لفاسقون » . .

« وأنزلنا إليك الكتاب بالحق » . . متضمنا للحق . . الحق المطلق ، الذى تتحقق مفرداته فى كل ما يعرض له من شؤون العقيدة والشريعة ، وفى كل مايقصه من قصص ويضربه من أمثال . .

« مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه » . . فهو الصورة الأخيرة لكتاب الله الواحد ، المتحد الأصل والوجهة ، المساير لحاجات البشر ومداركهم ، حتى إذا كشف للناس عن الحقائق الكبرى التى تقوم عليها أسس الحياة ، انقطع الوحى ليتصرف العقل البشرى فى حدود تلك الحقائق الكبرى ، بلا خوف من الزلل مادام يرعى تلك الحدود .

ومن ثم فكل الحكم يجب أن يرجع إلى هذا الكتاب الأخير ، الذى يتضمن الباقى من شريعة الله كلها فى كل كتاب ، ويضعها فى الصورة الأخيرة الباقية إلى يوم القيامة : « فاحكم بينهم بما أنزل الله ، ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق » . . وكل تشريع لايستمد مما أنزل الله فهو هوى لا يثبت على قاعدة ، ولا يرجع إلى مقياس واحد يتبين به الخطأ من الصواب .

وقد روى أن اليهود عرضوا على الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يؤمنوا له إذا تصالح معهم على التسامح فى أحكام بعينها منها حكم الرجم . وأن هذا التحذير قد نزل من هذا العرض . وأن الآية تهون على الرسول أمر توليهم عن الإسلام ، بأنه ليس مطالبا أن يجعل الناس كلهم أمة واحدة . فقد جعل الله لكل أمة طريقا ومنهجا « ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة » . . ولكنه يختبر كل فريق فى طريقه ومنهجه . « ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات » وإلى الله المرجع « فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون » . .

ثم تعود الآية التالية لتوكيد الحكم بما أنزل الله . دون انحراف ولو يسير . فكل انحراف يبدأ يسيرا . يبدأ تصرفا فى النصوص والأحكام ، تلتمس له المعاذير من ضرورة طارئة ، أو مناسبة حاضرة . ومتى فتح هذا الباب ، وأخذ بهذا المبدأ لم تقف الانحرافات عند حد ، حتى تؤدى فى النهاية إلى منهج آخر ، وشريعة ما أنزل الله بها من سلطان .

ويحذر الله رسوله من الفتنة وهو المعصوم . فما بال سواه من الحكام الذين لاعصمة لهم ، حين يبيحون لأنفسهم أو يبيح لهم سواهم الانحراف ـ مهما يكن قليلا ـ عن أحكام الدين ؟

ويهون الله الأمر على الرسول ، فيخبره بأنهم حين يتولون ويعرضون عما أنزل الله ، فإنما هذه دلالة على أنهم يؤاخذون ببعض ذنوبهم ، فيكتب عليهم هذا التولى المؤدى إلى الضلال ، جزاء على تلك الذنوب التى اقترفوها فاستحقوا عليها هذا الجزاء .. كذلك يهون عليه الأمر بأن كثيرا من الناس منحرفو الفطرة ، فهم يفسقون وينحرفون .

وفى النهاية يجىء التعقيب الأخير :

« أفحكم الجاهلية يبغون ! ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون ؟ »

إنه استنكار لايقف عند اليهود . إنه استنكار لكل من يريد حكما غير حكم الله . فكل حكم سواه حكم جاهلية ، والجاهلية ليست فترة من التاريخ ، إنما هى حالة تتحقق كلما تحققت مقوماتها فى الحياة . . الجاهلية رجوع بالحكم إلى غير قاعدة ثابتة ، فتتحكم فيه أهواء الأفراد . وأهواء الطبقات ، وأهواء العصبيات والقوميات . ولاتثوب إلى أصل غير متأثر بكل تلك الملابسات . .

يشرع فرد لجماعة فإذا هى جاهلية . لأن هواه هو القانون ـ أو رأيه هو القانون ـ فلا فرق إلا فى العبارات !

وتشرع طبقة لطبقة . فإذا هى جاهلية . لأن مصالح تلك الطبقة هى القانون ـ أو رأى الأغلبية البرلمانية هو القانون ـ فلا فرق إلا فى العبارات !

وتشرع أمة أو مجموعة أمم للبشرية فإذا هى جاهلية . لأن أهدافها القومية هى القانون ـ أو رأى المجامع الدولية هو القانون ـ فلا فرق إلا فى العبارات .

ويشرع خالق الأفراد وخالق الجماعات وخالق الأمم ، للجميع ، فإذا هى شريعة الله التى لا محاباة فيها لأحد على حساب أحد . لا لفرد ولا لجماعة ولا لدولة ، ولا لأهل دين على أهل الديانات الأخرى . لأن الله رب الجميع ، والكل لديه سواء ... « ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون » ؟ ولكن الناس لا يوقنون بالله ولا بعدل الله . فإذا هم يسلكون السبل فتفرق بهم عن سبيله . وهم الخاسرون فى النهاية ، وهم الكافرون ، وهم الظالمون ، وهم الفاسقون .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ ، بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ؛ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ . إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ ، يَقُولُونَ: نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ ؛ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ ، أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ ، فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ * وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا : أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ؟ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ، أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ، أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ، يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ . ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ، وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ * وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ .

« يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ ؛ وَاتَّقُوا اللهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاَةِ اتَّخَذُوهَا هُزُواً وَلَعِباً ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَعْقِلُونَ .

« قُلْ : يَاأَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا ، وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ ، وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ ؟ قُلْ : هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللهِ ؟ مَنْ لَعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ ، وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ ، وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ . أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَاناً ، وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ .

« وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا : آمَنَّا ؛ وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ ؛ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ * وَتَرَى كَثِيراً مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ، وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ ، لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ! * لَوْلاَ يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ ، وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ ؟ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ! * وَقَالَتِ الْيَهُودُ : يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ — غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ، بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ — وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً ؛ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَاراً لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللهُ ؛ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً ، وَاللهُ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ * وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ، وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ * وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ ، وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ؛ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ » .

الآن وقد تبين فى الدرس الماضى أن أكثر أهل الكتاب لايقيمون شريعتهم ، التى عاهدوا الله عليها ، ولا يحكمون بما أنزل الله فيها : وأنهم إذ يحتكمون إلى الرسول — صلى الله عليه وسلم — فإنما يحتالون للتهرب من شريعة الله المكتوبة عندهم ، ولا يصدقون النية فى الخضوع لأحكام الرسول حسب شريعته المصدقة لما بين أيديهم .

وقد توجه الأمر مشددا إلى الرسول — صلى الله عليه وسلم — ألا يتبع أهواءهم ، وأن يحكم بينهم بما أنزل الله ، وأن يحذر أن يفتنوه عن بعض ما أنزل الله إليه .

وقد انتهى الدرس باستنكار موقفهم ، ووصمهم بأنهم يبغون حكم الجاهلية ، الذى لايستند لغير الأهواء والآراء . .

الآن يمضى السياق — فى هذا الدرس الجديد — خطابا للذين آمنوا يتكرر ثلاث مرات ، يحذرهم أن يتخذوا اليهود والنصارى أولياء — وقد تبين أنهم منحرفون عن شريعة الله ، لايوالون الله ، إنما يوالون الأهواء والشهوات — كما يحذرهم من الكفار سواء بسواء . فاليهود والنصارى حين يتفلتون من شريعتهم ومن كتابهم ، يصبحون كالكفار الذين لايهتدون بكتاب.

ويبلغ هذا التحذير أن يجعل الذين يوالونهم من المسلمين ليسوا بمسلمين ، إنما هم ممن يوالون ، ويلوح لهم بالردة عن الإسلام — وهم فى طريقهم إليها بتوليهم لغير المسلمين — ويثير حميتهم أن يتخذوا أولياء ممن يتخذون دينهم وصلاتهم وعبادتهم هزواً ولعبا .

ثم يمضى يرسم سمات أهل الكتاب المنحرفين عن كتابهم . من النفاق إذ يقولون للمسلمين : آمنا وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به . ومن المسارعة إلى الإثم والعدوان . ومن أكل السحت . ومن الادعاء على الله بأن يده مغلولة — سبحانه — .. إلى آخر تلك السمات المنفرة التى تحذر المسلمين من موالاتهم ، وهم لهم أعداء .

والإسلام بقدر ما يتسامح مع أهل الكتاب الذميين — الداخلين فى ذمته — الخاضعين لحكمه فى المجتمع الإسلامى . وبقدر مايحض المسلمين على رعايتهم والقسط معهم ، ومشاركتهم الاجتماعية فى الطعام والزواج . .

بقدر ما يتسامح الإسلام مع أهل الذمة فى حسن المعاشرة ، يتشدد مع المسلمين أن يتخذوا الخارجين على ذمتهم أولياء ؛ وأن يركنوا إليهم بأسرارهم وموداتهم وعلاقاتهم ، لأن الأمر هنا مختلف ؛ ولأن البواعث كذلك مختلفة .

إن المسلمين مكلفون أن يحسنوا عشرة الذميين ، وأن يكفلوا لهم الحماية والعدل . لأن

المسلمين فى هذا الموقف يؤدون تكليفا أمرهم به دينهم ؛ ولا يتزلفون أو يتملقون أو يعتزون بقوة غير قوة الله ، أو بولاء غير ولائهم لله . ولأن هؤلاء الذميين من ناحية أخرى أعضاء فى المجتمع الإسلامى ، خاضعون لحكمه العام ، وليسوا دولة أو جهة خارجة على الإسلام . فأما حين تكون دولة أو جهة ، فالمسلمون منهيون أن يوالوهم ، منهيون أن يتخذوا منهم نصراء . منهيون أن يفضوا إليهم بأسرارهم ، أو أن يأمنوهم على مصالحهم . وعلى وجه أخص منهيون أن يطلبوا منهم عونا ؛ لأن المسألة هنا مسألة العقيدة برمتها : مسألة الجهة التى يطلب منها المسلم العون ، ويبتغى عندها العزة .

والنصوص هنا صريحة فى أن من يوالى اليهود والنصارى فهو منهم ، ومن يوالى المشركين كذلك . وأن الولاء يجب أن يكون لله ورسوله والمؤمنين ، الذين يقومون بفرائض الله وشرائعه . وأن من يطلب ولاء الله فهو الغالب . ومن يطلب ولاء اليهود والنصارى والكفار فهو المغلوب .

وهذه الآيات التى نزلت لتعالج حالة قبل نيف وثلاثة عشر قرنا ، ماتزال كأنما تنزل اللحظة على الأمة المسلمة فى مشارق الأرض ومغاربها ، لتردها إلى الصواب ؛ ولتبين لها جهة الولاء الوحيدة التى تجد عندها العزة والمنعة ، ولتحذرها ما هى سادرة فيه من موالاة أعدائها فى الأرض ، ومن اعتمادها على هؤلاء الأعداء فى استرداد حقوقها المسلوبة ، التى ما سلبت إلا يوم توجهت الأمة المسلمة بولائها لغير الله . .

***

« يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء . بعضهم أولياء بعض . ومن يتولهم منكم فإنه منهم . إن الله لا يهدى القوم الظالمين » ..

بهذا النداء العالى ، وبهذا القرار الحاسم ، يتوجه القرآن إلى الذين آمنوا . إنه النهى المطلق عن الولاء لليهود والنصارى ، وعن الاستنصار بهم ، والركون إليهم ، والثقة بمودتهم ، والاعتقاد فى قدرتهم على إيصال خير للمسلمين أو دفع أذى .

« بعضهم أولياء بعض » .. فهم — وإن اختلفوا فيما بينهم — أمة واحدة ومنهاج واحد . منهاج الخروج على شريعة الله ، واتباع الهوى والرأى بغير مقياس ثابت يعصم من الزلل ويرد إلى الصواب . ثم هم حرب على المسلمين يتعاونون فيما بينهم حين يواجهون المسلمين بالعداء .

« ومن يتولهم منكم فإنه منهم » .. يشاركهم نهجهم ، ويبتعد عن الله بعدهم .. ثم إنها العقيدة : إما أن تتوجه إلى الله خالصة فهو الإيمان والإسلام . وإما أن تتوزع بين الله والناس فهو الشرك إذن في صورة من صوره الكثيرة . قال عبد الله بن عتبة - رضى الله عنه - : ليتق أحدكم أن يكون يهوديا أو نصرانيا وهو لا يشعر . قال أحد سامعيه محمد بن سيرين : فظنناه يريد هذه الآية .

« إن الله لا يهدى القوم الظالمين » .. الذين يتجهون بولائهم لغير الله ، فيظلمون الحق في ذاته ، ويظلمون أنفسهم بإلجائها إلى غير ملتجأ ، ويظلمون الناس ، فمن لم يخلص اتجاهه لله اتبع الهوى ، وظلم وأفسد .

وبعد هذا القرار الحاسم ، والنهى الجازم يأخذ السياق في تصوير حالة كانت واقعة وما تزال واقعة : « فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم ، يقولون : نخشى أن تصيبنا دائرة . فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده ، فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين . ويقول الذين آمنوا : أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم ؟ حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين » ..

إنه اعتذار واحد وإنها حجة واحدة . يسوغ بها ضعاف القلوب ، ضعاف الإيمان ، ضعاف العقيدة .. يسوغون بها موالاتهم لليهود والنصارى في كل زمان وفي كل مكان : « فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون: نخشى أن تصيبنا دائرة » .. نخشى أن تدور علينا الدوائر ، وأن تصيبنا هزيمة وشدة ، وأن تمسنا أزمة وضائقة ؛ فنحن نوالهم لنتقى شرهم ، ولننال عونهم في الدوائر والملمات والأزمات !

إنها حجة واحدة قالها عبد الله بن أبى بن أبى سلول - رأس النفاق - على عهد محمد - صلى الله عليه وسلم - ويقولها من بعده كل « ابن أبى سلول[1] » ! ويتخذ من اليهود والنصارى -

---

(١) روى ابن جرير قال : حدثنا أبو كريب ، حدثنا ابن إدريس ، قال : سمعت أبى عن عطية بن سعد . قال : جاء عبادة بن الصامت من بنى الحارث بن الخزرج إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : يا رسول الله إن لى موالى من يهود كثير عددهم ، وإنى أبرأ إلى الله ورسوله من ولاية يهود ، وأتولى الله ورسوله . فقال عبد الله بن أبى : إنى رجل أخاف الدوائر ، لا أبرأ من ولاية موالى . فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لعبد الله بن أبى: « يا أبا الحباب ما بخلت به من ولاية يهود على عبادة بن الصامت فهو لك دونه » قال : قد قبلت.. فأنزل الله عز وجل « يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء » ..

وفى خبر آخر أنه لما أمكن الله للنبى - صلى الله عليه وسلم - من بنى قينقاع - بعد حصاره لهم نتيجة خيانتهم له - قام عبد الله بن أبى يشفع عنده فيهم ، لأنهم أولياؤه ، وهم قد خانوا الرسول ، الذى يتظاهر بالإيمان به ! وهكذا يصنع كل ابن أبى سلول ، في كل زمان وفى كل مكان ..!

فى الدول اليهودية والنصرانية ـ أصدقاء وحلفاء ، يرجو عندهم النصرة ، فلا يصيبه إلا الذل والهوان !

ويهدد القرآن هؤلاء المستنصرين بأعداء دينهم ، المنافقين الذين لا يخلصون لله اعتقادهم ، ولا اعتمادهم . . يهددهم برجاء أن يأتى الله بالفتح أو بأمر من عنده يكشف المستور من نفاقهم وريائهم ، فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين ، وعندئذ يقول الذين آمنوا حقا وصدقا : « أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم ! » أهؤلاء الذين كانوا يتظاهرون بالإيمان ويؤكدونه بالأيمان ؟ هؤلاء هم قد انكشف أمرهم ، فإذا هم منافقون لا يؤمنون . « حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين » .

ولقد جاء الله بالفتح يوما . وسيجىء به كذلك . فيظهر منافقو اليوم على حقيقتهم ، كما ظهر المنافقون على عهد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وانكشف أمرهم . واتضح أنه من مرض القلب ، ومن ضعف العقيدة ، كان ولاؤهم لأعداء المسلمين !

* * *

وإذ ينتهى السياق من النداء الأول للذين آمنوا ، أن يحذروا الارتداد إلى جبهة اليهود والنصارى ، إذا هم اتخذوهم أولياء . يجىء بالنداء الثانى . يهدد من يرتد منهم عن دينه بهذا الولاء أو بسواه من الأسباب . بأنه ليس عند الله بشىء ، وليس بمعجز لله ولا بضار لدينه . وأن لدين الله أولياء وناصرين مدخرين :

« يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه ، فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه ، أذلة على المؤمنين ، أعزة على الكافرين ، يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء . والله واسع عليم » . .

إنها صورة واضحة السمات قوية الملامح . صورة هؤلاء المدخرين لنصرة دين الله ، الذين يحبهم الله ويحبون الله ، فتقوم الصلة بينهم وبينه على الحب . أطهر المشاعر وأشفها وأعلاها . .

« أذلة على المؤمنين » . . فما فى الذل على المؤمنين ذلة ولا هوان . إنما هى الرحمة والحب والبر . وإنما هى السماحة والعفو والتجمل . وإنما هى الأخوة التى ترفع الحواجز وتزيل التكلف ، وتمنع أن تثور عصبية جاهلية للنفس أو للعشيرة ، وتجعل كرامة الأخ المسلم من كرامة الأخ المسلم ، فلا حاجة إذن إلى الاستعلاء أو الاستخذاء . وحين يخلط الأخ نفسه

بنفوس إخوانه فى العقيدة ، فما الذى يبقى له يثور من أجله عليهم ، أو يغضب من أجله منهم ؟ إن حساسيته بذاته لهى التى تمنعه أن يتواضع وأن يتسامح . وإن شعوره بذاته لهو الذى يجعله شديد الحساسية بكل كلمة أو كل حركة أو كل نظرة توجه من الآخرين إليه . فأما حين يخلط نفسه بنفوسهم فلن يجد فى شىء من هذا كله مايخدشه ، لأنه يومئذ لايحس بذاته منفصلة عن ذواتهم . وقد اجتمعوا فى الله إخوانا ، فاختفت فيما بينهم الذوات والأنساب .

« أعزة على الكافرين » . . فهنا للعزة مكان ، وللاستعلاء موضع . . إنها ليست العزة للذات ، ولا الاستعلاء للنفس . إنما هى العزة للعقيدة ، والاستعلاء للراية التى يقفون تحتها فى مواجهة الكافرين . إنها الثقة بغلبة دين الله على دين الهوى ، وبغلبة قوة الله على تلك القوى ، وبغلبة حزب الله على جميع الأحزاب .

« يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم » . . وفيم الخوف من لوم الناس وهم قد ضمنوا رضاء رب الناس . وفيم الوقوف عند مألوف الناس ومتعارفهم ، وهم يتبعون سنة الله ويعملون لإقرارها فى الأرض ؟ إنما يخشى لوم الناس من يستمد مقاييسه وأحكامه من أهواء الناس ، أما من يرجع إلى مقاييس الله وأحكامه ، ليجعلها تسيطر على أهواء الناس وشهواتهم ، فما يبالى مايقول الناس ، وهو ماض فى سبيل الله . . وإننا لنحسب حسابا لما يقوله الناس عنا لأننا نغفل أو نسهو عن حكم الله علينا . فأما من يمم وجه الله ، فما يحفل قول الناس ، ومايضعه له فى حساب .

ذلك الاختيار من الله لمن يحبهم ويحبونه ، وتلك السمات التى يجعلها طابعهم وعنوانهم ، وهذا الاطمئنان إلى الله فى نفوسهم ، والسير على هداه فى جهادهم . . « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم » إنه اختصاص من الله بالمختارين من عباده ، وفضل الله واسع ، وهو يعلم حيث يضعه فيمن يستحقه من العباد .

وعلى ضوء تلك السمات المختارة لعباد الله المختارين يقرر : أن الولاء لايكون إلا لله ورسوله والمؤمنين العاملين . وأن الذين يتولون الله ورسوله هم وحدهم الغالبون المنتصرون ؛ فيجىء هذا التقرير فى ظله المناسب ، وقد مهدت له فى الضمائر تلك الصورة الوضيئة لعباد الله المختارين :

« إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا ، الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون . ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا ، فإن حزب الله هم الغالبون » . .

« وإنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا . . » هكذا على وجه القصر الذى لايدع مجالا لتمحل أو تأويل . ولا بد أن يكون الأمر كذلك ، لأن المسألة كما قلنا مسألة صميم العقيدة .

فإما أن تكون الثقة بالله مطلقة ، فتمتد إلى الرسول بصفة الرسالة ، وإلى الذين آمنوا بصفة الإيمان . وليس هو الإيمان السلبي ، انما هو الإيمان العامل : « الذين يقيمون الصلاة،ويؤتون الزكاة وهم راكعون » — أى إن سمتهم الأولى هى الركوع لله والخضوع — وإما ألا تكون ثقة بالله ، فيأمل النـاس النصر بعون غير عونه ، وبولاء غير الولاء له .. ومن ثم فهى قضية الإيمان أو الكفر فى هذا المقام .

ولابد أن تتمحص عقيدة المسلمين لله فى الله ، لكى يكونوا أمناء على الرسالةالتى أعطاها لهم الله ، والوصاية التى أقامهم بها على البشرية ، مذ جعل كتابهم آخر رسالات السماء إلى الأرض ؛ وجعله مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه .

والله يعد المسلمين فى مقابل الثقة به والالتجاء إليه والولاء له ، النصر والغلبة والفوز : « ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا ، فإن حزب الله هم الغالبون » . . فهو يسميهم حزب الله ؛ ومن بديهيات العقيدة أن ينتصر حزب الله . فهل هى من بديهيات الواقع كذلك ؟

إننا — كمسلمين — يجب أن نصدق بمجرد أن يصدر لنا هذا الوعد من الله وإلا فما نحن بمسلمين . ولكن الواقع يؤيده كذلك لغيرنا . إنه ما من مرة فى تاريخ هذه الأمة اعتمدت على الله الاعتماد الصحيح ، وأسلمت أمرها لله ، منفذة أوامره فى الأهبة والاستعداد — وهذا التنفيذ جزء لايتجزأ من الإسلام الصحيح — مامن مرة تم فيها هذا إلا وكانت العاقبة النصر ، مهما يكن فى الخطوات الأولى من متاعب وحواجز ومشاق وتضحيات . وما من مرة اعتمدت هذه الأمة على غير الله ، ووالت أعداء الله ، إلا أصيبت بالهزيمة والذل والخسارة على مدار التاريخ .

فلتعرف الأمـة المسلمة طريق النصر وطريق الهزيمة ، وهى على مفرق الطرق اليوم . فهاهو ذا وعد الله الحق : « فإن حزب الله هم الغالبون » . .

***

وبعد فلقد سلك السياق فى هذا الدرس طرقا عدة لتحذير الذين آمنوا من الولاء لغير الله ورسوله والمؤمنين العاملين . سلك طريق النهى المباشر فى النداء الأول ؛ وطريق التخويف أن يأتى الله بالفتح أو أمر من عنده فينكشف ستر المنافقين ؛ وطريق التحذير من الردة الكامنة وراء موالاة أعداء الله ورسوله ؛ وطريق التحبيب فى أن يكونوا من المختارين الذين

يحبهم الله ويحبونه ؛ وطريق الوعد بالنصر لحزب الله الذين يوالونه فى النداء الثانى . . ثم هاهو ذا فى النداء الأخير للمؤمنين يثير فى نفوسهم الحمية لدينهم ولعبادتهم ولصلاتهم التى يتخذها أعداؤهم هزوا ولعبا ، فما يليق بهم أن يوالوا هؤلاء الذين يتخذون مقدساتهم للهزء والسخرية :

« يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء . واتقوا الله إن كنتم مؤمنين . وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزوا ولعبا . ذلك بأنهم قوم لايعقلون » . .

وهى صورة مثيرة لكل من له حمية المؤمن ؛ الذى لايرى لنفسه كرامة إذا أهين دينه ، وأهينت عبادته ، وأهينت صلاته ، واتخذ موقفه بين يدى الله — وهو أقدس مايقدسه المسلم — مادة للهزء واللعب ، من قوم لايعقلون ، ولايدركون طبيعة هذه العبادة وقيمتها فى ميزان الله وميزان الحياة .

ويجمع السياق بين المستهزئين من أهل الكتاب والكفار . فهم سواء حين يصل بهم الاستهتار إلى حد الهزء بدين الله وعبادته التى فرضها على عباده. ومن هنا كانت عقيدة الإسلام فى احترام سائر الديانات قبله ، وفى احترام شعائر المؤمنين بها ، وحماية معابدهم ، حتى وهم لايؤمنون به ، ولا يدينون لله على طريقته . فمن استهزأ بدين الله فى صورة من صوره ، فما هو مؤمن بالله فى الحقيقة . وهو يلتقى بهذه الصفة مع الكفار .

ويلمس السياق كذلك وجدان المسلمين من زاوية التقوى والإيمان : « واتقوا الله إن كنتم مؤمنين » فتقوى الله كفيلة بأن تجعل ولاءهم لله ، لايخافون سواه ، ولايطلبون العزة من أعداء الله .

* * *

وحين تتم النداءات الثلاثة للذين آمنوا — وبمناسبة عرض لاتخاذ أهل الكتاب دين المؤمنين وصلاتهم هزوا ولعبا — يتوجه الخطاب إلى الرسول — صلى الله عليه وسلم — أن يسأل أهل الكتاب : ماذا ينقمون من المسلمين ؟ ولماذا يعادونهم ويتخذون دينهم ومقدساتهم هزوا ولعبا ؟ يسألهم لاليتلقى منهم الجواب ، ولكن ليقول لهم حقيقة الأسباب :

« قل : يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله ، وما أنزل إلينا ، وما أنزل من قبل ؟ » . .

هذه هى الأسباب . وهى أسباب لم تكن تدعو إلى عداء . فماذا يطلب أهل الكتاب من أهل دين تلا دينهم ، إلا أن يؤمنوا بما أنزل لأهل الكتاب من قبل ؟ أفهذه السماحة تقابل بالعداء ؟ أفهذا الإدراك الكلى لطبيعة دين الله ووحدته واتصاله يدعو إلى الاستهزاء ؟

هنا يكمل السياق أسباب النقمة فنرى فيها ذلك السبب الحقيقى : « وأن أكثركم فاسقون » .. فهذا الفسق هو سبب من أسباب هذه النقمة ، بل هو السبب الأصيل . فهو الذى يحملكم على أن تنقموا منا الإيمان بالله وبما أنزل إلينا ، وبما أنزل إليكم . والفاسقون عن دين الله ينقمون — لا جرم — على المستقيمين فى سبيل الله . فتلك طبيعة النفوس ، وتلك سنة الحياة .

ثم يمضى السياق يعرض بهم فى سخرية جزاء سخريتهم بدين المؤمنين وعبادات المؤمنين :

« قل : هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله ؟ من لعنه الله وغضب عليه ، وجعل منهم القردة والخنازير ، وعبد الطاغوت . . أولئك شر مكانا ، وأضل عن سواء السبيل » ..

إنه يعرض بهم فى سخرية . وإنهم ليدركون من هو الذى « لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير » إنهم بنو إسرائيل ! وإنهم وقد تركوا شريعة الله وحكمه لعبدة الطاغوت . . ويزيد سخريته بأن يسمى ذلك كله « مثوبة » ! وأنهم شر مثوبة ممن يستهزئون بهم من المسلمين ! ولهذه النكتة يستخدم هذا اللفظ فى مجال اللعنة والغضب والمسخ ، فيثير الهزء بالمستهزئين ! « أولئك شر مكانا وأضل عن سواء السبيل » . .

***

وأخيرا يجىء التنفير من موالاتهم بعرض بعض سماتهم ، وكلها منفر شنيع .

إنها تبدأ بالنفاق والإصرار على الكفر مع التظاهر بالإيمان :

« وإذا جاءوكم قالوا : آمنا وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به : والله أعلم بما كانوا يكتمون » .. فهو النفاق الذى ليس لصاحبه ولاء ، ولا ثقة به ولا اطمئنان إليه . ثم هو المشهد المجسم : « وقد دخلوا بالكفروهم قد خرجوا به » فكأنما هذا الكفر مادة تحمل ، يدخلون بها ويخرجون ، لاتفارقهم ولايفارقونها . يدخلون والكفر معهم ، ويخرجون به ، لم تؤثر فيهم موعظة ، ولم يصل إلى قلوبهم نور « والله أعلم بما كانوا يكتمون » ..

وإنها لتثنى بالمسارعة إلى المعصية والاعتداء وأكل المال الحرام :

« وترى كثيرا منهم يسارعون فى الإثم والعدوان ، وأكلهم السحت ، لبئس ما كانوا يعملون » .. والمسارعة إلى الآثام طبيعة من لم يعمر قلبه الإيمان ، أما المسارعة إلى العدوان

فقد تستغرب من المنافق ولكنها فى الواقع ليست غريبة . فالمنافق لايداهن إلا حين يرى القوة ، فإذا أمن ، سارع إلى الاعتداء شأن الضعفاء اللؤماء . أما أكل الحرام فتلك شنشنة يهود من قديم « لبئس ما كانوا يعملون ! » ..

وثالثة الأثافى . أن الربانيين القائمين على أمر الشريعة ، والأحبار القائمين على أمر العلم الدينى ، لايؤدون واجبهم فى أهل الكتاب ، ولا ينهون عن المعاصى ، ولا ينكرون على الشر والفساد .

« لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت ! لبئس ما كانوا يصنعون ! » . .

إنه تحضيض يحمل أقسى التأنيب . إن الربانيين والأحبار لهم الحفظة على الدين والشريعة ، فإذا كانوا هم لايقيمونها فمن إذن يقيمها ؟ وما صورة المجتمع الذى يسكت علماؤه وحفاظ شريعته عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ؟

وإنه لصوت النذير لكل أهل دين . فصلاح المجتمع أو فساده رهن بقيام الحفظة على الدين فيه بواجبهم . لايخافون لومة لائم ، ولا يحسبون حساب الربح والخسارة ، ولا يقيسون قوتهم المادية إلى قوى المفسدين والخارجين ، فهم يستمدون قوتهم من الله وحده ، والله غالب على أمره . ولن يقفوا ليحسبوا حساب الربح والخسارة ، أو ليقيسوا قوتهم المادية إلى قوى الشر والفساد ، إلا وفى قلوبهم مرض ، وفى عقيدتهم ضعف ، وفى ثقتهم بالله ندوب . « لبئس ما كانوا يصنعون ! » . .

***

وكمثل من قولهم الإثم يحكى القرآن الكريم قول اليهود الغبى اللئيم :

« وقالت اليهود : يدالله مغلولة ـ غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا ، بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء ـ » . .

إنهم يريدون أن يقولوا على الله سبحانه : إنه بخيل لايرزق الناس إلا بمقدار . ولكنهم يزيدون فى التوقح باختيار تعبير مجازى خلو من كل أدب ، فيقولون : « يد الله مغلولة » . . لذلك يعاجلهم السياق بالرد فورا : « غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا . بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء » فيختار تعبيرا مجازيا من جنس ما قالوا مراعاة للنظير فى للتعبير . .

لقد أرادت يهود أن تنسب البخل لله سبحانه لتدارى بخلها وشحها المقيت ، فإذا كان الله بخيلا فعذر يهود إذن فى الشح قائم ! وضنها بالمال وأكلها السحت وحرصها على الثراء إذن مفهوم !

« وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا » . .

فبسبب من الحقد والحسد ، وبسبب من افتضاح أمرهم على يديك ، وردهم على هذا الافتضاح بالتبجح ، سيزيد الكثيرون منهم طغيانا وكفرا . لأنهم لايريدون أن يطامنوا من حقدهم القومى ، ولا من حرصهم الشخصى . وهكذا يكون ما أنزل إلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ رحمة للمؤمنين ووبالا على المنكرين ، الذين يعلمون أنه الحق ، ولكنهم يعاندون ويكابرون .

« وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة . كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله » . .

وما تزال طوائف اليهود متعادية . وإن بدا فى هذا الزمان أن اليهودية العالمية تتساند ، وتوقد نار الحروب . إنما ينبغى ألا ننظر إلى فترة قصيرة من الزمان ، ولا إلى مظهر لايشتمل على الحقيقة كلها ؛ ففى خلال ألف وثلثمائة عام ، بل من قبل الإسلام ، واليهود فى شحناء وفى ذل . ومصيرهم إلى مثل ما كانوا فيه ؛ وبقاؤهم فى فلسطين موقوت ، مهما تقم حولهم الأسناد ، ومرد هذه الأرض إلى أهلها مرهون بعودة الأمة المسلمة إلى دينها وربها وهى بإذن الله قريب . وما يمكن ليهود أن تعز فى الأرض وتنمو . وهى أداة إفساد فى الأرض ، ولعنة تحسها البشرية فى كل مكان .

« ويسعون فى الأرض فسادا ، والله لايحب المفسدين » . .

* * *

وبعد فإذا كان أهل الكتاب إنما يحرفون الكلام عن مواضعه ، ويشترون بآيات الله ثمنا قليلا ، ويقاومون الدين الجديد ، ويسعون فى الأرض فسادا . . كل ذلك لينالوا عرضا من أعراض هذه الدنيا ، أوليكونوا وحدهم أصحاب الرسالات السماوية . . فلقد كان أمامهم طريق أقوم وأسلم لكسب خير الدنيا وخير الآخرة ، بأضعاف ما ينالونه من سلوكهم المعوج فى طريقهم الملعون :

« ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم . ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، منهم أمة مقتصدة ، وكثير منهم ساء ما يعملون » . .

منهم فريق معتدل لايشط ولا يسرف ، والكثرة مفسدة ظالمة مسرفة . وإن كثيرا منهم بعد ذلك فى الأرض لمسرفون .

إن طريق الإيمان والتقوى وإقامة شرائع الله ، ليس طريقا خاسرا فى الدنيا كما يعتقد المنحرفون . فلصلاح هذه الأرض ونمائها نزلت هذه الشرائع ، لالتعطل الرزق ، ولكن لتطهر ينابيعه . ولا لتحرم الناس الثراء ، ولكن لترزقهم من حلال . ولا لتوقف نماء الحياة ، ولكن لتنظف طريقة النماء . وما من لذة تنال من حرام وإلا وفى الحلال ألذ منها وأطهر . وما من نتاج من حرام إلا وفى الحلال ما هو خير منه وأدوم .

وما قيل لليهود والنصارى من أنهم لو أقاموا التوراة والإنجيل لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، ولجاءهم رزقهم مما ينزل من السماء ومما ينبت من الأرض ، ولفاض رزقهم حتى يشملهم من فرعهم إلى قدمهم . . ما قيل لليهود والنصارى يقال ـ بالأولى ـ للمسلمين . ودينهم هو آخر رسالات السماء إلى الأرض ؛ وقد تضمن أفضل ما فى الكتب قبله وأصلحه ؛ وقد زاوج بين أشواق الروح وضرورات الجسد . وقد ربط بين العمل والعبادة ، وبين الأرض والسماء ، وبين إيمان القلب ويقظة العقل ؛ وقد ضمن للحياة نماءها الكامل فى ظل من تقوى الله وطهارة الضمير .

« يَا أَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ، إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَافِرِينَ * قُلْ : يَا أَهْلَ ٱلْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا ٱلتَّوْرَاةَ وَٱلْإِنْجِيلَ ، وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ . وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ، فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَافِرِينَ * إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَٱلَّذِينَ هَادُوا ، وَٱلصَّابِئُونَ ، وَٱلنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ، وَعَمِلَ صَالِحًا . فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَاهُمْ يَحْزَنُونَ .

« لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا ، كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ * وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ ، فَعَمُوا وَصَمُّوا ، ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ، ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا ، كَثِيرٌ مِنْهُمْ ، وَٱللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ .

« لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا : إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ؛ وَقَالَ الْمَسِيحُ : يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ، إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ ، وَمَأْوَاهُ النَّارُ ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ * لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا : إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ، وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ؛ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ؟ * مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ، وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ، كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ . انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ، ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ .

« قُلْ : أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ، وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ؟ * قُلْ : يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ ، وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ ، وَأَضَلُّوا كَثِيرًا ، وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ .

« لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ . ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ * كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ . لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ! * تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا . لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ : أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ، وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ * وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ » .

هي تكملة للحديث عن أهل الكتاب ، وما أخلفوا من مواثيق ؛ وبيان للحق الذى كتموا أو ضيعوا ، سواء فى العقيدة أم فى الشريعة ؛ وأمر جازم للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يجبه اليهود والنصارى المنحرفين عن كتابهم بحقيقة ما هم فيه ، لا يكتم عنهم شيئا ولا يجاملهم فى الحق ، ولا يحزن عليهم أو يأسف إذا تولوا عنه ، ولا يخشى بأس أحد من الناس فالله عاصمه وحاميه .

وهو استطراد فى حديث العقود والمواثيق . فما التبليغ إلا عهد يجب أن يوفى كاملا ؛ وما ميثاق بنى إسرائيل الذى أخلفوه إلا عقد نقضوه ؛ وما قول النصارى إن الله هو المسيح ابن مريم إلا إخلاف لما عاهدهم عليه عيسى إذ قال لهم : « يا بنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم » . .

* * *

« يا أيها الرسول بلغ ماأنزل إليك من ربك . وإن لم تفعل فما بلغت رسالته. والله يعصمك من الناس . إن الله لا يهدى القوم الكافرين » ..

إنه الأمر الجازم بالتبليغ الكامل. يحمل ظل التهديد : «وإن لم تفعل فما بلغت رسالته» .. ويصرح بالنصرة والتأييد : « والله يعصمك من الناس » .. ويشير إلى أنه لا جدوى فى المحاسنة والمجاملة : « إن الله لا يهدى القوم الكافرين » ..

ذلك ليصدع الرسول — صلى الله عليه وسلم — بما أمر . لا يحسب حسابا إلا للوفاء بما كلف، ولا يعنيه كيف يستقبله المعاندون ساءهم أم سرهم ، فالأمر أمر الحق الذى يجب أن يعلن صريحا واضحا كاملا ، وليقل من يشاء ما يشاء ، وليفعل من شاء كيف شاء ! وقد بلغت الدعوة أوجها ، وسلك الرسول بها كل مسلك من التبشير والتحذير ، ومن الرفق تارة والعنف أخرى . وهذه السورة من أواخر ما أنزل من القرآن ، بعد ما استوفت الدعوة خطواتها ، وسلكت بالمخالفين كل مسلك إلى الإيمان . فلم يبق إلا الصدع والمجابهة ، دون رفق ولا مجاملة ..

يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك .. « قل : يا أهل الكتاب لستم على شىء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل اليكم من ربكم » . .

قل لهم : لستم على شىء أصلا ، لا من الدين ، ولا من الصلة بالله ، ولا من الفضل على الكفار ، ولا من المعرفة الحقيقية والعلم الصحيح[1] .. « حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم » .. فالمسألة ليست مسألة عنوانات . ليست مسألة أنكم « أهل الكتاب » إنما هى مسألة إيمان بهذا الكتاب وعمل بما جاء فيه . مسألة إقامة — أى إحسان

---

(١) روى الإمام أحمد بن حنبل قال : حدثنا وكيع ، حدثنا الأعمش ، عن سالم بن أبى الجعد عن زياد بن لبيد أنه قال : ذكر النبى — صلى الله عليه وسلم — شيئا فقال : « وذاك عند ذهاب العلم » قال : قلنا يا رسول الله وكيف يذهب العلم ونحن نقرأ القرآن ونقرئه أبناءنا ، وأبناؤنا يقرئونه أبناءهم إلى يوم القيامة ؟ فقال : « ثكلتك أمك يا ابن أم لبيد . إن كنت لأراك من أفقه رجل بالمدينة . أو ليس هذه اليهود والنصارى يقرأون التوراة والإنجيل ولا ينتفعون بما فيهما بشىء؟ » .

أداء – للتوراة والإنجيل ، وما أنزل إليكم من ربكم بعد التوراة والإنجيل . أما العنوانات والأسماء فليست شيئا بغير عمل ولا إيمان .

إن الله لا يحابى أحدا لأنه من أهل الكتاب بالاسم والعنوان ؛ ولا يقرب أمة لأنها من ولد فلان أو علان .. إنما هو الإيمان بما أنزل الله ، وإنما هو العمل بما أنزل الله ، وإنما هو الحكم بشريعة الله .

وما يقال عن اليهود والنصارى يقال عن المسلمين سواء ؛ فلا يقعدن أحد عن الإيمان الصحيح والعمل الصالح ثم يقول : إنى مسلم يكفرالله عنى سيئاتى . ولا تقعدن الأمة المسلمة عن إقامة القرآن والعمل بشريعته ثم تنتظر النصر والعز والتمكين والغلبة على الأعداء وهى ذاتها عدوة لله ، أو مهملة لأمر الله .

قل يا محمد لأهل الكتاب هذه القولة الصريحة . « وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا ، فلا تأس على القوم الكافرين » . .

إنهم سيزيدون عنادا ، وسيزيدون طغيانا ، لأن العاصى المسرف حين يواجه بحقيقة موقفه ، وينكشف للأنظار على حقيقته ، تأخذه العزة بالإثم ، ويؤثر المكابرة على الرجوع إلى الحق ، ويزداد كفرا وطغيانا على الحق ، وإيغالا فى طريق العناد .. فليكن . ولا تستشعر فى نفسك أسى ولا حسرة على ذهابهم فى طريق الضلال . فهم قوم كافرون ، لا يرتجى لهم هدى ولا صلاح .

وإن قوله تعالى لنبيه – صلى الله عليه وسلم – « فلا تأس على القوم الكافرين » ليشير إلى ما كان يعتلج فى صدر الرسول من رغبة فى هدايتهم إلى الحق ، ومن رحمة بهؤلاء الخلق ، ومن أسف على إهلاكهم لأنفسهم فى تيه الضلال .. ولعل هذه المشاعر الرحيمة التى كانت تعتلج فى قلب الرسول الرحيم ، هى التى اقتضت ذلك الأمر الجازم الحازم الذى يحمل ظل التهديد : « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته » .. بلغهم هذا أيها الرسول . ليعلموا أنه ليس بمانعهم من العذاب أن يكونوا أهل كتاب ، فمناط الأمر كله هو الإيمان بالله واليوم الآخر ، وهو العمل الصالح المصدق لهذا الإيمان ، تحت أى عنوان ، وفى ظل جميع الأديان – وذلك بطبيعة الحال قبل مجىء الدين التالى الواجب الاتباع – :

« إن الذين آمنوا والذين هادوا ، والصابئون والنصارى . من آمن منهم بالله واليوم الآخر وعمل صالحا . فلا خوف عليهم ، ولا هم يحزنون » ..

ولقـد سبق أن تحدثنا عن مثل هذه الآية فى سورة البقرة . وهى تجىء هنا لمناسبتها للسياق . لإيضاح أن العنوانات الدينية لا تجدى . إنما تجدى حقيقة الإيمان مع العمل الإيجابى المصدق لحقيقة الإيمان .

***

ثم يعرض السياق على الرسول الذى أمر أن يجبه أهل الكتاب بالحق صراحا ، وعلى الناس كذلك جميعا — يعرض عليهم شيئا من أعمال إسرائيل المبررة لأن يجبهوا بالحق دون رفق ولا مجاملة :

« لقد أخذنا ميثاق بنى إسرائيل ، وأرسلنا إليهم رسلا ، كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقا كذبوا وفريقا يقتلون ؛ وحسبوا ألا تكون فتنة ، فعموا وصموا ، ثم تاب الله عليهم ، ثم عموا وصموا ، كثير منهم ، والله بصير بما يعملون » ..

إنه تاريخ قديم . فليس موقفهم من رسول الإسلام بالأول ولا بالأخير . إنهم مردوا على العصيان والطغيان ، ومردوا على الفسوق والعدوان . إنهم لا يجعلون إرادة الله هى القانون ولـكن يجعلون أهواءهم هى القانون . « كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقا كذبوا وفريقا يقتلون » . وذلك بعد أن أعطوا الميثاق ، وبعد أن جاءتهم الرسل بالهدى . ولـكنهم جبلة لا تهتدى ، وطبيعة لا ترعوى ، ومن يجعل مقياس تصرفاته الهوى ، ويتطلب من الله ورسله أن ينزلوا على هذا الهوى ، فلا خير فى مجاملته ، ولا جدوى فى محاسنته .

صنعوا هذا كله ، وهم يظنون أنهم غير مؤاخذين به « وحسبوا ألا تـكون فتنة » وأن لا يحل بهم جزاء « فعموا وصموا » وطمس على بصيرتهم فلا يفقهون ، وطمس على مسامعهم فلا يفيدون شيئا مما يسمعون . « ثم تاب الله عليهم » فلم يستمروا فى توبتهم ، ولم يحافظوا على طريقهم « ثم عموا وصموا » .. « كثير منهم » فذلك طابعهم العام وسمتهم المميزة . « والله بصير بما يعملون » وقد ناسب أن يذكر « بصير » هنا فى صدد أولئك الذين عموا من باب المشاكلة فى اللفظ . ولله المثل الأعلى .

***

ذلك كان شأن اليهود وهم فريق من أهل الكتاب . وكذلك كان شأن الفريق الآخر أتباع المسيح :

« لقد كفر الذين قالوا : إن الله هو المسيح ابن مريم . وقال المسيح : يا بنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم . إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ، ومأواه النار ، وماللظالمين من أنصار . لقد كفر الذين قالوا : إن الله ثالث ثلاثة ، وما من إله إلا إله واحد » . .

وقولتهم : إن الله هو المسيح ابن مريم ، وقولتهم إن الله ثالث ثلاثة ، سبق أن أوضحنا تصوراتهم فيها فيما سبق من هذا الجزء . . والسياق يأتى بها هنا فضحاً لجرائر أهل الكتاب ، ليقول لهم : إنهم ليسوا على شىء . وكشفا لحقيقتهم التى يخفونها وراء العنوان ؛ وهم بأعمالهم وبمعتقداتهم هذه كفار من الكفار ..

وفيما مضى نهاهم عن هذه المقالة ، أما هنا فيحكم عليهم بالكفر بمقتضى هذه المقالة :

« لقد كفر الذين قالوا : إن الله هو المسيح ابن مريم » .. ذلك على حين أن المسيح ذاته الذى يؤلهونه هو الذى أمرهم بالتوحيد ، وحذرهم من الشرك ، واعترف أمامهم بعبوديته مثلهم لله : « وقال المسيح: يابنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم . إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ، ومأواه النار ، وما للظالمين من أنصار » ... فعجيب إذن أن يخالفوا عن قوله ليعظموه . والطاعة والاتباع من أوليات التعظيم ! وعجيب أن يرتكبوا المنكر الذى حذرهم إياه ، ووصف بالظلم من يرتكبه ، ثم يدعى من يقول هذه المقالة :إنه من المسيحيين !

« لقد كفر الذين قالوا : إن الله ثالث ثلاثة » .. سواء من قالوا : إنه أحد الأقانيم الثلاثة . ومن قالوا: إن المسيح إله وأمه إلهة والله ثالث الثلاثة . ومن قال : إن الثلاثة هم الأب والابن وروح القدس . ومن قالوا : إن الثلاثة هم الله فى صورة الأب ، والله فى صورة الكلمة ، والله فى صورة المسيح . . كله كفر من الكفر « وما من إله إلا إله واحد » .. وهى حقيقة التوحيد . وهذه حقيقة ما جاءهم به عيسى — عليه السلام — أحد الرسل الذين حملوا كلمة التوحيد ..

ومن ثم يأخذهم بالتهديد ، ويأخذهم بالتحضيض ، ويأخذهم بالمنطق القويم ، لينتهوا عن ذلك الغلو فى الدين :

« وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم . أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم ؟ ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، وأمه صديقة ، كانا يأكلان الطعام . انظر كيف نبين لهم الآيات ، ثم انظر أنى يؤفكون . قل : أتعبدون من دون الله مالايملك لكم ضرا ولا نفعا . والله هو السميع العليم؟ قل : ياأهل الكتاب لاتغلوا فى دينكم غير الحق ، ولاتتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل،وأضلوا كثيرا ، وضلوا عن سواء السبيل » ..

عقب على مقالتهم : إن الله هو المسيح ابن مريم ، ومقالتهم : إن الله ثالث ثلاثة . . عقب على هذه المقالة بالوعيد : «وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم » لأن هذا الوعيد أليق شىء بهذا التجديف ، ولأن هذه الكبيرة جزاؤها العذاب الأليم .

ثم أردف الوعيد بالتحضيض على التوبة والاستغفار والإطماع فى رحمة الله وغفرانه : « أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم » .. ليبقى لهم باب التوبة مفتوحا ، فلا يقنط من يندم منهم ويعتزم الرجوع .

ثم واجههم بالمنطق الواقعى القويم لعله يردهم إلى التفكير السليم : « ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، وأمه صديقة ، كانا يأكلان الطعام » .. وأكل الطعام مسألة واقعية فى حياة المسيح وأمه . وهى خصيصة من خواص الأحياء الحادثين تنفى فكرة الألوهية فى بساطة واقعية . فأكل الطعام تلبية لحاجة جسدية للحياة . ولا يكون إلهاً من يحتاج إلى الطعام ليعيش . فالله حى بذاته ، قائم بذاته ، باق بذاته ، لا يحتاج ، ولا يدخل إلى ذاته أو يخرج منها شىء حادث كالطعام ! ونظراً لوضوح هذا المنطق الواقعى ونصاعته التى لايجادل فيها إنسان يعقل ، فإنه يعقب عليه بقوله : « انظر كيف نبين لهم الآيات ، ثم انظر أنى يؤفكون » انظر واعجب كيف نبين لهم فى يسر وبساطة ووضوح لايقبل الجدل ولا الشك ولا التأويل ؛ ثم انظر واعجب كيف يصرفون عن هذا الحق السهل اليسير الواضح وينصرفون !

واستطرادا فى هذا المنطق من زاوية أخرى يجىء هذا السؤال : « قل : أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرا ولا نفعا والله هو السميع العليم ؟ » . . ويختار التعبير « بما »

بدل « من » فى هذا الموضع قصدا ، ليدرج المخلوقات التى تعبد كلها ـ بما فيها من العقلاء ـ فى سلك واحد . لأنه يقصد ماهيتها المخلوقة الحادثة البعيدة عن حقيقة الألوهية . فيدخل عيسى وتدخل مريم ، وتدخل روح القدس كلهم فى « ما » لأنهم بماهيتهم خلق من خلق الله ينطبق عليه التعبير بما . ويلقى هذا التعبير ظله كذلك فى هذا المقام ، فيبعد أن يكون أحد من هؤلاء مستحقا للعبادة مع الله . وهم مما لا يملك ضرا ولا نفعا للعباد . والله وحده هو الذى يسمع عباده العبّاد ، ويعلم ما فى صدورهم وما فى الأرض والسماء من حقائق وماهيات .

وينهى هذا كله بدعوة جامعة : « قل يا أهل الكتاب : لا تغلوا فى دينكم غير الحق ، ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا ، وضلوا عن سواء السبيل » . فمن الغلو فى تعظيم عيسى ـ عليه السلام ـ جاءت هذه الشبهات والمبالغات . ومن أهواء الحكام الرومانيين الذين دخلوا فى المسيحية ومعهم عقائدهم الوثنية جاءت فكرة ألوهية المسيح وفكرة التثليث . فهى دعوة إلى اجتناب هذه الأهواء . أهواء قوم ضلوا من قبل فى وثنيتهم ، وأضلوا غيرهم وضلوا عن سواء السبيل .

وفى النهاية يجىء ذلك التقرير الشامل عن موقف أنبياء بنى إسرائيل من كفار بنى إسرائيل على مدى التاريخ ؛ ممثلا فى موقف داود وموقف عيسى ، وكلاهما لعن بنى إسرائيل ، واستجاب الله لعنته . بسبب عصيانهم وعدوانهم ، وبسبب انحلالهم الاجتماعى وتهاونهم ، وبسبب توليهم للكفار ، فباءوا بالسخط ، وكتب عليهم الخلود فى العذاب :

« لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم . ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه . لبئس ما كانوا يفعلون . ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا . لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم ، وفى العذاب هم خالدون . ولو كانوا يؤمنون بالله والنبى وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء . ولكن كثيرا منهم فاسقون » ..

وهكذا يبدو أن تاريخ بنى إسرائيل فى الكفر والعصيان والاعتداء واللعنة عريق .. وأن أنبياءهم الذين أرسلوا لإنقاذهم هم الذين فى النهاية تولوا لعنتهم ، فسمع الله دعاءهم ، وكتب اللعنة على إسرائيل . كتب هذه اللعنة لا لمجرد دعاء الأنبياء عليهم ـ وإن كان الأنبياء

لا يطلقون دعوتهم باللعنة إلا من ألم وضيق ـ بل بأعمال إسرائيل ذاتها . بعصيانها وعدوانها . . وبصفة أخرى هى أشنع من العصيان والعدوان : « كانوا لايتناهون عن منكر فعلوه » فالعصيان والعدوان قد يقع من المفسدين ، ولكن المجتمع المتماسك يقف فى وجه العاصين والمعتدين ، ويحق الحق ويبطل الباطل ؛ وبذلك تبقى للمجتمع حرمته ، ويبقى للخير أعوانه ، وينحصر الفساد فى أفراد أو مجموعات يطاردها المجتمع ، ولا يسمح لها بالسيطرة . فأما بنو إسرائيل فقد كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه . وهذه قاصمة الظهور .

إن هذا القرآن ليريد للجماعة أن يكون لها كيان حى ، وللرأى العام فيها أن يكون صلبا فى الحق ، وللقائمين على الدين أن يؤدوا أمانتهم التى استحفظوا عليها ، فيقفوا فى وجه الفساد والطغيان والظلم والاعتداء . لا يخافون فى الله لومة لائم . سواء جاء هذا الشر من الحكام المتسلطين بالحكم ، أو الأغنياء المتسلطين بالمال ، أو الأشرار المتسلطين بالأذى ، أو الجماهير المتسلطة بالهوى . فشرع الله هو شرع الله ، والخارجون عليه علوا أم سفلوا سواء .

والإسلام يشدد فى الوفاء بهذه الأمانة ، فيجعل عقوبة الجماعة عامة بما يقع فيها من شر إذا هى سكتت عليه . ويجعل الأمانة فى عنق كل فرد بعد أن يضعها فى عنق الجماعة عامة .

روى الإمام أحمد بن حنبل ـ بإسناده عن عبد الله بن مسعود ـ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لما وقعت بنو إسرائيل فى المعاصى نهتهم علماؤهم فلم ينتهوا ، فجالسوهم فى مجالسهم ، وواكلوهم وشاربوهم . فضرب الله بعضهم ببعض ، ولعنهم على لسان داود وعيسى ابن مريم (ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون) ـ وكان الرسول صلى الله عليه وسلم متكئا فجلس فقال ـ : « ولا والذى نفسى بيده حتى تأطروهم على الحق أطرا » .

وروى أبو داود ـ بإسناده ـ عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن أول ما دخل النقص على بنى إسرائيل كان الرجل يلقى الرجل فيقول : يا هذا اتق الله ودع ماتصنع فإنه لايحل لك . ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده ، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض . ثم قال : (لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ـ إلى قوله فاسقون) ثم قال : « كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ، ولتأخذن على يد الظالم ، ولتأطرنه على الحق أطرا ، أو تقصرنه على الحق قصرا » .

فليس هو مجرد الأمر والنهى إذن ، ولـكنه الإصرار حتى المقاطعة ، والاستمرار حتى يكفوا عن المعصية عنوة .

وروى مسلم ـ بإسناده عن أبى سعيد الخدرى ـ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من رأى منـكم منـكرا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه . وذلك أضعف الإيمان » .

وروى الإمام أحمد ـ بإسناده عن عدى بن عميرة ـ قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الله لايعذب العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنـكر بين ظهرانيهم ، وهم قادرون على أن ينـكروه فلا ينـكرونه ؛ فإذا فعلوا عذب الله الخاصة والعامة » .

وروى أبو داود والترمذى وابن ماجه ـ بإسناده عن أبى سعيد ـ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أفضل الجهاد كلمة حق عند إمام جائر » .

وتتوارد النصوص تترى فى هذا المعنى ، لأن هذا التماسك فى كيان الجماعة ، وهذه الغيرة على حدود الله أن تنتهك ، وهذه الحمية ضد الفساد ، وهذا الوعى الاجتماعى العام .. هى قوام الجماعات الإنسانية . وهى بحاجة إلى الإيمان العميق الذى يجعل الاعتماد كله على الله ، وإلى الثقة بنصرة الله للخير فلا يبقى شك فى العاقبة ، وإلى احتساب الأجر عند الله ، فلا ينتظر من يقاوم المنـكر جزاءه فى هذه الأرض ، وقد يقتل فى سبيل أداء الأمانة ، وقد يتنـكر له المجتمع ذاته إذا اختلت فيه المقاييس ، فلا يثنيه هذا عن أمانته لله . ومن هنا قيمة العقيدة التى لاتستمد من تقدير المجتمع أو تقدير الوطن ؛ ولـكن من تقدير الله وتـكريم الله ، لتقاوم أهواء الجمهور وانحرافاته ، كما تقاوم أهواء الحـكام والطغاة .

« كانوا لا يتناهون عن منـكر فعلوه » .. « لبئس ما كانوا يفعلون ! » ..

ومن نقطة الضعف هذه ، ومن تملق أصحاب السلطان ، من دون الله : « ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا » .. دهانا ورياء ، واستجلابا للخير ـ فى زعمهم ـ واتقاء للبطش . « لبئس ما قدمت لهم أنفسهم ! » .. وماذا قدمت لهم أنفسهم ؟ « أن سخط الله عليهم وفى العذاب هم خالدون » .. هذه هى الهدية التى قدمتها لهم أنفسهم ! هذه هى التقدمة التى ادخرتها لهم عند الله : أن سخط الله عليهم فى الدنيا ، وأن خلدهم فى العذاب فى الآخرة ! والنفس تقدم لصاحبها الخير وتدخر له النفع . ولـكن أنفس هؤلاء القوم قدمت لهم هذا البلاء وادخرت لهم

هذا العناء ، لأنها تولت الكافرين ولم تتول الله . والله ولى المؤمنين . « ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء » . . فالإيمان بالله والنبي يحول الوجوه إلى الله ويوجه القلوب إلى الله ، ويشعر المؤمنين أن قوة الله هى القوة ، وأن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين .. « ولكن كثيرا منهم فاسقون » منحرفون عن طريق العقيدة القويمة التى تهدى القلب والعقل إلى الطريق القويم .

انتهى الجزء السادس . ويليه الجزء السابع مبدوءا بقوله تعالى : « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا » .

كتب للمؤلف

١ ـ في ظلال القرآن	(في ثلاثين جزءاً)	دار إحياء الكتب العربية
٢ ـ العدالة الاجتماعية في الإسلام	(طبعة ثالثة)	دار الإخوان للطباعة والصحافة
٣ ـ معركة الإسلام والرأسمالية	(« ثانية)	« « « «
٤ ـ السلام العالمي والإسلام	(« أولى)	مكتبة وهبة شارع إبراهيم بعابدين
٥ ـ التصوير الفني في القرآن	(« ثالثة)	دار المعارف
٦ ـ مشاهد القيامة في القرآن	(« ثانية)	« «
٧ ـ النقد الأدبي : أصوله ومناهجه	(« أولى)	دار الفكر العربي
٨ ـ أشواك	(« «)	دار سعد بالفجالة
٩ ـ طفل من القرية	(« «)	لجنة النشر للجامعيين
١٠ ـ الأطياف الأربعة	(بالاشتراك مع إخوته)	« « «
١١ ـ القصص الديني	(بالاشتراك مع الأستاذ السحار)	« « «
١٢ ـ الشاطئ المجهول	(شعر)	... نفد
١٣ ـ كتب وشخصيات	(نقد)	... «
١٤ ـ مهمة الشاعر في الحياة	(«)	... «
١٥ ـ نقد كتاب مستقبل الثقافة	(«)	... «
١٦ ـ المدينة المسحورة	(قصة)	... «

الكتب التالية

(١) نحو مجتمع إسلامي

(٢) أمريكا التي رأيت

(٣) حلم الفجر (شعر)

(٤) قافلة الرقيق (شعر)

29 MAR 2007